

تَقْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

لِلإِمَامِ الْحَافِظِ يَحَادِ الدِّينِ أَبِي الْفَدَاءِ إِسْمَاعِيلِ بْنِ عُمَرَ
ابْنِ كَثِيرِ الدِّعْشَقِيِّ
الْمُسَوْقِيِّ سَنَةُ ٧٧٤ هـ

وَصَعَ حِكَاشِيهِ وَعَلَى عَلَيْهِ
مُحَمَّدُ حُسَيْنُ شَهْرُ الدِّينِ

الْجُزْءُ السَّابِعُ

المحتوى:

من أَوْلَى سُورَةِ الصَّافَاتِ إِلَى آخِرِ سُورَةِ الرَّحْمَنِ

دار الْكِتبِ الْعَلَمِيَّةِ
بِرْوَت - لَنْدَن

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار الكتب
العلمية بيروت - لبنان يعذر طبع أو تصوير أو ترجمة
أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو جزءاً أو تسجيله على أشرطة
كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على أسطوانات
صوتية إلا موافقة الناشر خطياً.

Copyright © All rights reserved

Exclusive rights by DAR al-KOTOB al-ILMIYAH Beirut - Lebanon. No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى
١٩٩٨ هـ - ١٤١٩ م

دار الكتب العلمية لبنان - بيروت

العنوان : رمل الطريف، شارع البحيري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٢٩٨ - ٣٦١١٢٥ - ٦٠٢١٣٣ (١١٩٦)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ - بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH
Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2221-5

9 0 0 0 0 >



9 782745 122216

<http://www.al-ilmiyah.com.lb/>
e-mail : baydoun@dm.net.lb

وهي مكية

قال النسائي أخبرنا إسماعيل بن مسعود حدثنا خالد - يعني ابن العارث - عن ابن أبي ذئب
قال أخبرنا العارث بن عبد الرحمن عن سالم بن عبد الله عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما
قال : كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتحفيف ويومنا بالصفات ، تفرد به النسائي ^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَاتِ صَافَاتٍ فَالْتَّجَرَّاتِ زَجَرٌ فَالْتَّلَيَّاتِ ذَكْرٌ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بِنَهْمَامَارَبُّ الْمَشَرِقِ

قال سفيان الثوري عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود
رضي الله عنه أنه قال : «والصفات صفات» وهي الملائكة «فالزاجرات زجر» هي الملائكة
«فالتأليات ذكر» هي الملائكة ، وكذا قال ابن عباس رضي الله عنهما ومسروق وسعيد بن
جبير وعكرمة ومجاهد والسدوي وقتادة والربيع بن أنس قال قتادة : الملائكة صفواف في
السماء .

وقال مسلم ^(٢) حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا محمد بن فضيل عن أبي مالك الأشعري
عن ربيعي عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «فضلنا على الناس بثلاث : جعلت
صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً وجعل لنا ترابها طهوراً إذا لم نجد
الماء» وقد روى مسلم أيضاً وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث الأعمش عن المسيب بن
رافع عن تميم بن طرفة عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا تصفون
كما تصف الملائكة عند ربهم؟» قلنا وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال ﷺ : «يتمونون
الصفوف المتقدمة ويتراسون في الصفة» ^(٣) وقال السدي وغيره معنى قوله تعالى :
«فالزاجرات زجر» أنها تزجر السحاب ، وقال الربيع بن أنس «فالزاجرات زجر» ما زجر
الله تعالى عنه في القرآن ، وكذا روى مالك عن زيد بن أسلم «فالتأليات ذكر» قال السدي

(١) أخرجه النسائي في الإمامة بباب الرخصة للإمام بالتطويل .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد حديث ٤ .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة حديث ١١٩ ، وأبو داود في الصلاة باب ٩٣ ، وابن ماجه في الإقامة باب ٥٠ ،
والنسائي في الإمام باب ٢٨ .

الملائكة يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس وهذه الآية كقوله تعالى: «فالملقيات ذكرأً عذراً أو نذراً» [المرسلات: ٥]. قوله عز وجل: «إِنَّ الْهُكْمَ لِوَاحِدِ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» هذا هو المقسم عليه أنه تعالى لا إله إلا هو رب السموات والأرض «وَمَا بَيْنَهُمَا» أي من المخلوقات «وَرَبِّ الْمَشَارِقِ» أي هو المالك المتصرف في الخلق بتسييره بما فيه من كواكب ثوابت وسيارات تبدو من المشرق وتغرب من المغرب. واكتفى بذلك المشارق عن المغارب لدلائلها عليه وقد صرخ بذلك في قوله عز وجل: «فَلَا أَقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَا لَقَادُونَ» [المعارج: ٤٠] وقال تعالى في الآية الأخرى: «رَبُّ الْمَشَرِّقِينَ وَرَبُّ الْمَغَرِّبِينَ» [الرحمن: ١٧] يعني في الشتاء والصيف للشمس والقمر.

**إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَافِكِ ۚ وَحَفَظَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۖ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى
وَيَقْذِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۚ دُحُورًا وَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۚ إِلَّا مِنْ خَطْفَ الْخَطْفَةَ فَأَتَبْعَلُهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ۚ**

يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للنااظرين إليها من أهل الأرض بزينة الكواكب، قوى بالإضافة وبالبدل وكلاهما بمعنى واحد فالكواكب السيارة والثوابت يتقدب ضؤوها جرم السماء الشفاف فتضيء لأهل الأرض كما قال تبارك وتعالى: «ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين وأعدنا لهم عذاب السعير» [الملك: ٥] وقال عز وجل «ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للنااظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين» [الحجر: ١٦ - ١٨] فقوله جل وعلا ه هنا: «وَحَفَظَاهُ» تقديره وحفظناها حفظاً «من كل شيطان مارد» يعني المتمرد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع أتاهم شهاب ثاقب فأحرقه ولهذا قال جل جلاله «لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى» أي لئلا يصلوا إلى الملأ الأعلى وهي السموات ومن فيها من الملائكة إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى بما يقوله من شرعه وقدره كما تقدم بيان ذلك في الأحاديث التي أوردها عند قوله تبارك وتعالى: «هُنَّ أَنْدَادُ
قَلْوَبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» [سبأ: ٢٣] ولهذا قال تعالى: «وَيَقْذِفُونَ أَيْ يَرْمُونَ «من كل جانب» أي من كل جهة يقصدون السماء منها «دُحُوراً» أي رجماً يدحرون به ويزجرون ويعنون من الوصول إلى ذلك ويرجمون «وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ» أي في الدار الآخرة لهم عذاب دائم مت续 كما قال جلت عظمته «وَأَعْدَنَا لَهُمْ عَذَابَ السعير» [الملك: ٥].

وقوله تبارك وتعالى: «إِلَّا مِنْ خَطْفَ الْخَطْفَةِ» أي إلا من اختطف من الشياطين الخطفة وهي الكلمة يسمعها من السماء فيلقينها إلى الذي تحته ويلقينها الآخر إلى الذي تحته فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقينها وربما ألقاها بقدر الله تعالى قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه فيذهب بها الآخر إلى الكاهن كما تقدم في الحديث ولهذا قال «إِلَّا مِنْ خَطْفَ الْخَطْفَةِ فَأَتَبْعَلُهُ شَهَابٌ

ثاقب) أي مستثير .

قال ابن حجرير^(١) حدثنا أبو كريب حدثنا وكيع عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان للشياطين مقاعد في السماء قال فكانوا يستمعون الوحي قال وكانت النجوم لا تجري وكانت الشياطين لا ترمي قال فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض فزادوا في الكلمة تسعًا قال فلما بعث رسول الله ﷺ جعل الشيطان إذا قصد مقعده جاءه شهاب فلم يخطئه حتى يحرقه قال فشكروا ذلك إلى إيليس لعنه الله فقال ما هو إلا من أمر حدت قال بعث جنوده فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي بين جبلي نخلة قال وكيع يعني بطن نخلة^(٢) قال: فرجعوا إلى إيليس فأخبروه فقال هذا الذي حدد، وستأتي إن شاء الله تعالى الأحاديث الواردة مع الآثار في هذا المعنى عند قوله تعالى إخباراً عن الجن أنهم قالوا «وَأَنَا لِمَسْنَا السَّمَاءَ فَوْجَدْنَاهَا مُلْئِتَ حَرَساً شَدِيداً وَشَهِيداً وَأَنَا كَنَا نَقْدَعُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَاباً رَصِيداً وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُ أَرِيدُ بَمْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرِادُ بَهُمْ رِشَداً» [الجن: ٨ - ١٠].

فَأَسْتَفْهِمُهُمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْفَآمَّ مَنْ خَلَقَنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ بِكُلِّ عَجَبٍ وَسَخَرْنَاهُمْ كَذِيرٌ وَإِذَا ذَكَرُوا لَا يَذَكَرُونَ وَإِذَا رَأَوْا إِيمَانَهُ يَسْتَسْخِرُونَ وَقَالُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مِنْ مُّنِينٍ لَعَذَا مِنْنَا وَكَذَلِكَ إِيمَانُهُمْ وَعَظِيمًا إِيمَانُهُمْ لَمْ يَعْوُذُنَّ أَوْ إِيمَانُنَا أَلَوْلَوْنَ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَجِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ

يقول تعالى: فسل هؤلاء المنكرين للبعث أيهما أشد خلقاً هم أم السموات والأرض وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه «أَمْ مِنْ عَدْدَنَا»^(٣) فإنهم يقررون أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم، وإذا كان الأمر كذلك فلم ينكرون البعث؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا كما قال عز وجل: «لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون» [غافر: ٥٧] ثم بين أنهم خلقوا من شيء ضعيف فقال: «إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ» قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك: هو الجيد الذي يلتزق بعضه ببعض، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة هو اللزج الجيد، وقال قتادة هو الذي يلزق باليد^(٤).

وقوله عز وجل: «**بِلْ عَجَبْتْ وَسَخَرْنَاهُمْ**» أي بل عجبت يا محمد من تكذيب هؤلاء

(١) تفسير الطبرى ٤٧٠ / ١٠.

(٢) بطن نخلة: قرية قريبة من المدينة على طريق البصرة.

(٣) تفسير الطبرى ٤٧٤ / ١٠، وفيه: وذكر أن ذلك في قراءة عبد الله بن مسعود: «أَهُمْ أَشَدُّ خَلْفَآمَّ مَنْ عَدَّنَا».

(٤) انظر تفسير الطبرى ٤٧٥ / ١٠ - ٤٧٦.

المنكرين للبعث وأنت موقن مصدق بما أخبر الله تعالى من الأمر العجيب وهو إعادة الأجسام بعد فنائها وهم بخلاف أمرك من شدة تكذيبهم ويسخرون مما تقول لهم من ذلك.

قال قتادة: عجب محمد ﷺ وسخر ضلال بنى آدم^(١).

﴿وَإِذَا رأوا آيَةً﴾ أي دلالة واضحة على ذلك ﴿يُسْتَسْخِرُونَ﴾ قال مجاهد وقتادة يستهزئون ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مِّنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي إن هذا الذي جئت به إلا سحر مبين ﴿أَنَّا مَنْتَ وَكَنَا تَرَابًا وَعَظَامًا أَنَّا لَمْ يَعْشُونَ أَوْ أَبَاوْنَا الْأَوْلَوْنَ﴾ يستبعدون ذلك ويكتذبون به ﴿فَلَقَ نَعْمَ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي قل لهم يا محمد نعم تعيشون يوم القيمة بعدما تصيرون تراباً وعظاماً وأنتم داخرون أي حقيرون تحت القدرة العظيمة كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَكُلُّ أُتُوهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. ثم قال جلت عظمته: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ إِنَّمَا هُمْ يَنْظَرُونَ﴾ أي فإنما هو أمر واحد من الله عز وجل، يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض، فإذا هم بين يديه ينظرون إلى أهوال يوم القيمة، والله تعالى أعلم.

وَقَالُوا يَوْمَئِنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُتُمَّ بِهِ ثُكَّدِيُونَ اخْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجُهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوْهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْحَسِيمِ وَقُفُوْهُمْ إِلَيْهِمْ مَسْعُولُونَ مَا لَكُمْ لَا نَاصِرُونَ بَلْ هُوَ أَلْيَومُ مُسْتَسْلِمُونَ

يخبر تعالى عن قيل الكفار يوم القيمة أنهم يرجعون على أنفسهم باللامامة ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدار الدنيا، فإذا عاينوا أهوال القيمة ندموا كل الندم حيث لا ينفعهم الندم ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ فتفول الملائكة والمؤمنون ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُتُمَّ بِهِ ثُكَّدِيُونَ﴾ وهذا يقال لهم على وجه التقرير والتوبیخ ويأمر الله تعالى الملائكة أن تميز الكفار من المؤمنين في الموقف في محشرهم ونشرهم ولهذا قال تعالى: ﴿اخْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ قال النعمان بن بشير رضي الله عنه يعني بأزواجيهم أشباههم وأمثالهم، وكذلك قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والسدوي وأبو صالح وأبو العالية وزيد بن أسلم، وقال سفيان الثوري عن سماك عن النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ﴿اخْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ قال إخوانهم^(٢). وقال شريك عن سماك عن النعمان قال: سمعت عمر يقول ﴿اخْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ قال: أشباههم. قال يحيى أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا وأصحاب الربا مع أصحاب الربا، وأصحاب الخمر مع أصحاب

(١) اللفظ كما في تفسير الطبرى ٤٧٦/١٠: عن قتادة قال: عجب محمد عليه الصلاة والسلام من هذا القرآن حين أعطيه، وسخر منه أهل الفضالة.

(٢) اللفظ كما في تفسير الطبرى ٤٧٩/١٠ نظراً لهم.

الخمر، وقال خصيف عن مقسم عن ابن عباس رضي الله عنهما أزواجهم نساوهم وهذا غريب والمعروف عنه الأول كما رواه مجاهد وسعيد بن جبير عنه أزواجهم قرناؤهم وما كانوا يعبدون من دون الله أي من الأصنام والأنداد تحشر معهم في أماكنهم.

وقوله تعالى: «فَاهدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ» أي أرشدوهم إلى طريق جهنم وهذا كقوله تعالى: «وَنَحْشِرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عَمِيًّا وَبِكُمَا وَصَمًا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلُّمَا خَبَّتْ زُنْدَاهُمْ سَعِيرًا» [الإسراء: ٩٧] وقوله تعالى: «وَقُوفُهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ» أي فقوهم حتى يسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا كما قال الصحاك عن ابن عباس يعني احسوهم إنهم محاسبون. وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا النفيلي حدثنا المعتمر بن سليمان قال سمعت ليثاً يحدث عن بشير عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا دَعَا إِلَى شَيْءٍ كَانَ مُوقَفًا مَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يَغَادِرُهُ وَلَا يَفَارِقُهُ وَإِنْ دَعَا رَجُلًا» ثم قرأ «وَقُوفُهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ» ورواه الترمذى^(١) من جديـث ليـث بن أبي سليم، ورواه ابن جرير^(٢) عن يعقوب بن إبراهيم عن معتـمر عن ليـث عن رـجل عن أـنس رضـي الله عنه مـرفوعـاً.

وقال عبد الله بن المبارك: سمعت عثمان بن زائدة يقول إن أول ما يسأل عنه الرجل جلساؤه، ثم يقال لهم على سبيل التقرير والتوبـخ «مـا لـكـم لا تـناصـرونـ؟» أي كما زعمـتم أنـكم جـمـيعـ مـنـتـصـرـ «بـلـ هـمـ الـيـومـ مـسـتـسـلـمـونـ» أي يـقادـونـ لأـمـرـ اللهـ لـا يـخـالـفـونـهـ وـلاـ يـحـبـدونـ عنـهـ، وـالـلهـ أـعـلـمـ.

وَأَبْلَغَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسَّأَلُونَ [٦٧] قَالُوا إِنَّكُمْ كُلُّمَا تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ [٦٨] قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُنُوا مُؤْمِنِينَ [٦٩] وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَنٍ بَلْ كُلُّمَا قَوْمًا طَغَيْنَ [٧٠] فَهَوَّ عَلَيْنَا قُولٌ رَبِّنَا إِنَّا لَذَاهِبُونَ [٧١] فَأَغْوَيْنَكُمْ إِنَّا كُنَّا غُوَّابِنَ [٧٢] فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ [٧٣] إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ [٧٤] إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ [٧٥] وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارُكُمْ إِلَهُنَا لِشَاعِرٍ تَجْنُونَ [٧٦] بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ [٧٧]

يذكر تعالى أن الكفار يتلـامـونـ في عـرـصـاتـ الـقـيـامـةـ كـماـ يـتـخـاصـمـونـ فيـ درـكـاتـ النـارـ «فـيـقـولـ الـضـعـفـاءـ لـلـذـينـ اـسـتـكـبـرـواـ إـنـاـ كـنـاـ لـكـمـ تـبـعاـ فـهـلـ أـنـتـمـ مـغـنـونـ عـنـ نـصـيـاـ مـنـ النـارـ قـالـ الـذـينـ اـسـتـكـبـرـواـ إـنـاـ كـلـ فـيـهـاـ إـنـ اللهـ قـدـ حـكـمـ بـيـنـ الـعـبـادـ» [غـافـرـ: ٤٧ - ٤٨] وـقـالـ تـعـالـىـ: «وـلـوـ تـرـىـ إـذـ الـظـالـمـونـ مـوـقـوـفـونـ عـنـ رـبـهـمـ يـرـجـعـ بـعـضـهـمـ إـلـىـ بـعـضـ القـوـلـ يـقـولـ الـذـينـ اـسـتـضـعـفـواـ

(١) آخرـهـ التـرـمـذـيـ فـيـ تـفـسـيرـ سـورـةـ ٣٧ـ،ـ بـابـ ١ـ.

(٢) تـفـسـيرـ الطـبـريـ ٤٨٠ـ /ـ ١٠ـ.

لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَا مُؤْمِنِينَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضْعَفُوا أَنْحَنَ صَدْنَاكُمْ عَنِ الْهَدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضْعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لِمَا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يَجْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ [سباء: ٣٣] وَهَكُذا قَالُوا لَهُمْ هُنَّا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿١﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ أَبْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُونَ كُنْتُمْ تَقْهَرُونَا بِالْقَدْرَةِ مِنْكُمْ عَلَيْنَا لَأَنَا كَنَا أَذْلَاءَ وَكُنْتُمْ أَعْزَاءَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ يَعْنِي عَنِ الْحَقِّ وَالْكُفَّارِ تَقُولُهُ لِلشَّيَاطِينِ ^(١).

وَقَالَ قَتَادَةُ قَالَتِ الْإِنْسَنُ لِلْجَنِ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَا عَنِ الْيَمِينِ قَالَ مِنْ قَبْلِ الْخَيْرِ فَتَنَاهُونَا عَنِهِ وَتَبْطَئُونَا عَنْهِ ^(٢)، وَقَالَ السَّدِيْدُ تَأْتُونَا مِنْ قَبْلِ الْحَقِّ وَتَزَيَّنُونَ لَنَا الْبَاطِلُ وَتَصْدِيُونَا عَنِ الْحَقِّ ^(٣) وَقَالَ الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَا عَنِ الْيَمِينِ» أَيْ وَاللَّهِ يَأْتِيهِ عِنْدَ كُلِّ خَيْرٍ يَرِيدُهُ فِي صِدْرِهِ عَنْهُ، وَقَالَ أَبْنَ زَيْدٍ الرَّشْكُ مِنْ قَبْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَقَالَ خَصِيفٌ يَعْنُونَ مِنْ قَبْلِ مِيَانَهُمْ، وَقَالَ عَكْرَمَةُ «إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَا عَنِ الْيَمِينِ» قَالَ مِنْ حِيثِ نَأْمَنْكُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» تَقُولُ الْقَادِهُ مِنَ الْجَنِ وَالْإِنْسَنِ لِلْأَتَابَعِ مَا الْأَمْرِ كَمَا تَزَعَّمُونَ بِلْ كَانَتْ قُلُوبُكُمْ مُنْكَرَةً لِلْإِيمَانِ قَابِلَةً لِلْكُفَّرِ وَالْعَصَيَانِ «وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ» أَيْ مِنْ حَجَّةٍ عَلَى صَحَّةِ مَا دَعَوْنَاكُمْ إِلَيْهِ «بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِيْنَ» أَيْ بَلْ كَانَ فِيْكُمْ طَغْيَانٌ وَمُجَاوِزَةٌ لِلْحَقِّ فَلَهُذَا اسْتَجَبْتُمْ لَنَا وَتَرَكْتُمُ الْحَقَّ الَّذِي جَاءَتُكُمْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ وَأَقَامُوا لَكُمُ الْحَجَّاجُ عَلَى صَحَّةِ مَا جَاؤُوكُمْ بِهِ فَخَالَفْتُمُوهُمْ.

﴿فَنَحْقَ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لِذَائِقُونَ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كَنَا غَاوِيْنَ﴾ يَقُولُ الْكُبَرَاءُ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ حَقَّتْ عَلَيْنَا كَلْمَةُ اللَّهِ أَنَا مِنَ الْأَشْقِيَاءِ الْذَّائِقِينَ لِلْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ «فَأَغْوَيْنَاكُمْ» أَيْ دَعَوْنَاكُمْ إِلَى الْضَّلَالَةِ «إِنَّا كَنَا غَاوِيْنَ» أَيْ فَدَعَوْنَاكُمْ إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَاسْتَجَبْتُمْ لَنَا، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ».

أَيْ الْجَمِيعُ فِي النَّارِ كُلُّ بَحْسَبِهِ «إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ إِنَّهُمْ كَانُوا» أَيْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا «إِذَا قَيْلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ» أَيْ يَسْتَكْبِرُونَ أَنْ يَقُولُوهَا كَمَا يَقُولُهَا الْمُؤْمِنُونَ قَالَ أَبْنَ أَبِي حَاتَمَ حَدَثَنَا عَبْدُ اللَّهِ أَبْنُ أَخْيَرِ اللَّهِ أَبْنُ وَهْبٍ حَدَثَنَا عَمِيْ حَدَثَنَا الْيَثِّ عنْ أَبْنَ مَسَافِرٍ

(١) تفسير الطبرى ٤٨١/١٠.

(٢) تفسير الطبرى ٤٨١/١٠.

(٣) تفسير الطبرى ٤٨١/١٠.

(٤) تفسير الطبرى ٤٨٢/١، وَلِفَظُهُ: وَالْعَمَلُ بِالْخَيْرِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهَ بِهِ.

يعني عبد الرحمن بن خالد عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل»^(١) وأنزل الله تعالى في كتابه العزيز ذكر قوماً استكروا فقال تعالى : «إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكرون» وقال ابن أبي حاتم أيضاً حدثنا أبي حدثنا أبو سلمة موسى بن إسماعيل حدثنا حماد عن سعيد الجرجيري عن أبي العلاء قال : يؤتى باليهود يوم القيمة فيقال لهم ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون عبد الله وعزيراً فيقال لهم : خذوا ذات الشمال ، ثم يؤتى بالنصارى فيقال لهم ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون نعبد الله والمسيح فيقال لهم : خذوا ذات الشمال ، ثم يؤتى بالمرشكين فيقال لهم لا إله إلا الله فيستكرون ثم يقال لهم لا إله إلا الله فيستكرون ثم يقال لهم لا إله إلا الله فيستكرون فيقال لهم خذوا ذات الشمال . قال أبو نصرة فينطلقون أسرع من الطير . قال أبو العلاء ثم يؤتى بالمسلمين فيقال لهم ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون كنا نعبد الله تعالى فيقال لهم هل تعرفونه إذا رأيتموه ؟ فيقولون نعم ، فيقال لهم فكيف تعرفونه ولم تروه ؟ فيقولون نعلم أنه لا عدل له^(٢) . قال فيتعرف لهم تبارك وتعالى وتقدس وينجي الله المؤمنين .

﴿وَيَقُولُونَ أَئْنَا لَنَا كُوَفَّاً لِّهُنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ أي أنحن نترك عبادة آلهتنا وألهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون يعنيون رسول الله ﷺ قال الله تعالى تكذيباً لهم وردآً عليهم : «بل جاء بالحق» يعني رسول الله ﷺ جاء بالحق في جميع شرعة الله تعالى له من الأخبار والطلب «وَصَدِقَ الْمُرْسَلِينَ» أي صدقهم فيما أخبروا عنه من الصفات الحميدة ، والمناهج السديدة ، وأخبر عن الله تعالى في شرعيه وأمره كما أخبروا «ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك» الآية [فصلت : ٤٣].

**إِنَّكُمْ لَذَاهِبُوا إِلَيَّ عَذَابًا أَلَّا يَلِمُ^(٣) وَمَا تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^(٤) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ^(٥) أُولَئِكَ هُمُ
رَزِقٌ مَعْلُومٌ^(٦) فَوَكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ^(٧) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ^(٨) عَلَى شَرِيفٍ مُنْقَلِبٍ^(٩) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَلِّ مِنْ
مَعِينٍ^(١٠) بِيَضَاءِ الدَّفْرِ لِلشَّرِيبِينَ^(١١) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يَرْفَوْنَ^(١٢) وَعِنْهُمْ قَصِرَتُ الظَّرِيفَ
عِينٌ^(١٣) كَاهِنٌ بَيْضٌ مَكْنُونٌ^(١٤)**

يقول تعالى مخاطباً للناس : «إنكم لذائقوا العذاب الأليم وما تجزون إلا ما كنتم تعملون» ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين كما قال تعالى : «والعصر إن الإنسان لفي خسر

(١) آخر جه البخاري في الاعتصام باب ٢ ، والجهاد باب ١٠٢ ، والزكاة باب ١ ، والاستابة باب ٣ ، ومسلم في الإيمان حديث ٣٢ ، ٣٣ ، وأبو داود في الزكاة باب ١ ، والترمذني في الإيمان باب ١ ، والنسائي في الزكاة باب ٣ ، والجهاد باب ١ ، والتحرير باب ١ .

(٢) لا عدل له : أي لا نظير ولا مثيل له .

إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات» [العصر: ١ - ٣] وقال عز وجل: «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات» [التين: ٤ - ٦] وقال تعالى: «وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقترياً ثم ننجي الذين انقوا ونذر الظالمين فيها جحيماً» [مريم: ٧١ - ٧٢] وقال تعالى: «كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين» [المدثر: ٣٨] ولهذا قال جل وعلا هبنا «إلا عباد الله المخلصين» أي ليسوا يذوقون العذاب الأليم ولا ينناقشون في الحساب بل يتجاوز عن سيئاتهم إن كان لهم سيئات ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة إلى ما يشاء الله تعالى من التضعف.

وقوله جل وعلا: ﴿أولئك لهم رزق معلوم﴾ قال قتادة والسدي يعني الجنة ثم فسره بقوله تعالى: ﴿فواكه﴾ أي متنوعة ﴿وهم مكرمون﴾ أي يخدمون ويرفهون وينعمون ﴿في جنات النعيم على سرر متقابلين﴾ قال مجاهد لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض . وقال ابن أبي حاتم حدثنا يحيى بن عبد القزويني حدثنا حسان بن حسان حدثنا إبراهيم بن شرحبيل عن زيد بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: خرج حدثنا إبراهيم القرشي عن سعيد بن شرحبيل عن زيد بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: فتلا هذه الآية ﴿على سرر متقابلين﴾ ينظر بعضهم إلى بعض حديث علينا رسول الله ﷺ فتلا هذه الآية ﴿على سرر متقابلين﴾ ينظر بعضهم إلى بعض حديث غريب .

وقوله تعالى: «يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين لا فيها غول ولا هم عنها ينزعون» كما قال عز وجل في الآية الأخرى «يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين لا يصدعون عنها ولا ينزعون» [الواقعة: ٣٨ - ٣٩] نزه الله سبحانه وتعالى خمر الجنّة عن الآفات التي في خمر الدنيا من صداع الرأس ووجع البطن وهو الغول وذهبها بالعقل جملة فقال تعالى ههنا: «يطاف عليهم بكأس من معين» أي بخمر من أنهار جارية لا يخافون انقطاعها ولا فراغها. قال مالك عن زيد بن أسلم: خمر جارية بيضاء أبي لونها مشرق حسن بهي لا كحمر الدنيا في منظرها البشع الرديء من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدوره^(١) إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم.

وقوله عز وجل : **﴿لذة للشاربين﴾** أي طعمها طيب كلونها وطيب الطعم دليل على طيب الريح بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك وقوله تعالى : **﴿لا فيها غول﴾** يعني لا تؤثر فيها غولاً وهو وجع البطن قاله ابن عباس رضي الله عنهمما ومجاهد وقتادة وابن زيد كما تفعله خمر الدنيا من القولنج^(٢) ونحوه لكثرة مائتها ، وقيل المراد بالغول هنا صداع الرأس وروى هكذا عن ابن

(١) الكدوره: ضد الضعفاء.

(٢) القولنج: كلمة عجمية، مرض مشهور معوي، يعثر معه خروجه الثفل والريح.

عباس رضي الله عنهمَا وقال قتادة هو صداع الرأس ووجع البطن عنه وعن السدي لا تغتال عقولهم كما قال الشاعر : [المتقارب]

فما زالت الكأس تغتالنا وتذهب بالأول الأول^(١)

وقال سعيد بن جبیر لا مکروه فيها ولا أذى ، والصحيح قول مجاهد أنه وجع البطن ، قوله تعالى : ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يَنْزَفُونَ﴾ قال مجاهد لا تذهب عقولهم وكذا قال ابن عباس ومحمد بن كعب والحسن وعطاء بن أبي مسلم الخراساني والسدي وغيرهم وقال الضحاك عن ابن عباس في الخمر أربع خصال السكر والصداع والقيء والبول فذكر الله خمر الجنة فترهها عن هذه الخصال كما ذكر في سورة الصافات .

وقوله تعالى : ﴿وَعِنْهُمْ قَاصِرَاتُ الْطَّرْفِ﴾ أي عفيقات لا ينظرن إلى غير أزواجهن كذا قال ابن عباس رضي الله عنهمَا ومجاهد وزيد بن أسلم وقتادة والسدي وغيرهم .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿عَيْن﴾ أي حسان الأعين وقيل ضخام الأعين وهو يرجع إلى الأول وهي النجلاء العيناء فوصف عيونهن بالحسن والعفة كقول زليخا في يوسف عليه الصلاة والسلام حين جملته وأخرجته على تلك النسوة فأعظمنه وأكبرنه وظنن أنه ملك من الملائكة لحسنه وبهاء منظره قالت : ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لَمْ تَنْتَنِ فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدَهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف : ٣٢] أي هو مع هذا الجمال عفيف تقىٰ وهكذا الحور العين ﴿خيرات حسان﴾ [الرحمن : ٧٠]. ولهذا قال عز وجل : ﴿وَعِنْهُمْ قَاصِرَاتُ الْطَّرْفِ عَيْن﴾ قوله جل جلاله : ﴿كَانُهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهمَا ﴿كَانُهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ يقول اللؤلؤ المكنون^(٢) وينشد ههنا بيت أبي دهبل الشاعر وهو قوله في قصيدة له : [الخفيف]

وهي زهراء مثل لؤلؤة الغوا ص ميزت من جوهر مكنون^(٣)

وقال الحسن : ﴿كَانُهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ يعني محصون لم تمسه الأيدي ، وقال السدي : البيض في عشه مكنون وقال سعيد بن جبیر ﴿كَانُهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ يعني بطنه البيض وقال عطاء الخراساني هو السحاء الذي يكون بين قشرته العليا ولباب البيضة ، وقال السدي ﴿كَانُهُنَّ بَيْضٌ

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (غول)، والمخصص ٦/١٧، وتأج العروس (غال). وتفسير الطبرى ٤٨٥/١٠. ويروى صدر البيت :

ومما زالت الخمر تغتالنا

(٢) تفسير الطبرى ٤٨٩/١٠.

(٣) البيت لأبي دهبل الجمحي في ديوانه ص ٦٩، ولسان العرب (خصر)، (سنن)، ولأبي دهبل أو لعبد الرحمن بن حسان في الكامل ص ٣٨٨.

مكتون» يقول بياض البيض حين ينزع قشرته واختاره ابن جرير لقوله مكتون قال والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش وتنالها الأيدي بخلاف داخلها والله أعلم.

وقال ابن جرير^(١) حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن وهب حدثنا محمد بن الفرج الصدفي الدمياطي عن عمرو بن هاشم عن ابن أبي كريمة عن هشام عن الحسن عن أم سلمة رضي الله عنها قال قلت يا رسول الله أخبرني عن قول الله عز وجل: «حور عين» قال: «العين الضخامة العيون شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر» قلت يا رسول الله أخبرني عن قول الله عز وجل «كأنهن بيض مكتون» قال: «رقتهن كرقة الجلدة التي رأسها في داخل البيضة التي تلي القشر وهي الفرقى». وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو غسان الهمدي حدثنا عبد السلام بن حرب عن ليث عن الربيع بن أنس عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا حزنوا، وأنا شفيعهم إذا حبسوا، لواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على الله عز وجل ولا فخر، يطوف عليَّ ألف خادم كأنهن البيض المكتون - أو اللؤلؤ المكتون -»، والله تعالى أعلم بالصواب.

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْأَلُونَ ۝ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝ يَقُولُ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝ إِنَّمَا مِنَنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعَظِلَّمَا إِنَّا لَمُدَيْنُونَ ۝ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَلِّعُونَ ۝ فَأَطْلَعَ فَرَّاءً فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝ قَالَ تَالَّهُ إِنِّي كَيْدَ لَرْدَنِ ۝ وَلَرَلَا يَنْهَمْ رَلِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِينَ ۝ أَفَمَا نَعْنُ بَيْتَنِ ۝ إِنَّمَا مَوْلَنَا الْأُولَى ۝ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ لِمِثْلِ هَذَا فَبَعْمَلِ الْعَمَلُونَ ۝

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه قبل بعضهم على بعض يتسائلون أي عن أحوالهم وكيف كانوا في الدنيا وماذا كانوا يعانون فيها وذلك من حديثهم على شرائحهم واجتماعهم في تنادمهم ومعاشرتهم في مجالسهم وهم جلوس على السرر والخدم بين أيديهم يسعون ويجيئون بكل خير عظيم من مأكل ومشارب وملابس وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر «قال قائل منهم إني كان لي قرين» قال مجاهد يعني شيطاناً. وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما هو الرجل المشرك يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا، ولا تنافي بين كلام مجاهد وابن عباس رضي الله عنهما فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس في النفس ويكون من الإنس فيقول كلاماً تسمعه الأذنان وكلاهما يتعاونان قال الله تعالى: «يُوحِي بعضاًهم إلى بعض زحرف القول غروراً» [الأنعام: ١١٢] وكل منها يosoس كما قال الله عز وجل: «من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة

والناس》 [الناس: ٤ - ٦] ولهذا ﴿قال قائل منهم إني كان لي قرين يقول أئنك لمن المصدقين﴾ أي أنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء يعني يقول ذلك على وجه التعجب والتکذیب والاستبعاد والکفر والعناد.

﴿أئنا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون﴾ قال مجاهد والسدي لمحاسبون. وقال ابن عباس رضي الله عنهم و Mohammad bin Kعب القرطبي لمجذيون بأعمالنا وكلها صحيحاً قال تعالى: ﴿قال هل أنتم مطلعون﴾ أي مشرفون يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة ﴿فاطلع فرآه في سوء الجحيم﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهم و سعيد بن جبير وخليد العصري وقتادة والسدي وعطاء الخراساني يعني في وسط الجحيم، وقال الحسن البصري في وسط الجحيم كأنه شهاب يتقدّم، وقال وقتادة ذكر لنا أنه اطلع فرأى جماجم القوم تغلي، وذكر لنا أن كعب الأحبار قال في الجنة كوى إذا أراد أحد من أهلها أن ينظر إلى عدوه في النار اطلع فيها فازداد شكراً ﴿قال تالله إن كدت لتردين﴾ يقول المؤمن مخاطباً للكافر والله إن كدت لتهلكني لو أطعتك.

﴿ولولا نعمة ربِّي لكونت من المحضرِين﴾ أي ولولا فضل الله علىَّ لكونَ مثلك في سوء الجحيم حيث أنت محضر معك في العذاب ولكنه تفضل علىَّ ورحمني فهداي للإيمان وأرشدني إلى توحيدِه ﴿ومَا كنا لنهندي لولا أَنْ هدانا اللَّه﴾ [الأعراف: ٤٣]. قوله تعالى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيْتَنِ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلِيٌّ وَمَا نَحْنُ بِمَعْدِبِينَ﴾ هذا من كلام المؤمن مغبطاً نفسه بما أعطاهم الله تعالى من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة بلا موت فيها ولا عذاب ولهذا قال عز وجل: ﴿إِنْ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو عبد الله الظهري حدثنا حفص بن عمر العدناني حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة قال: قال ابن عباس رضي الله عنهم في قول الله تبارك وتعالى لأهل الجنة: ﴿كُلُوا وَاشْرِبُوا هَنِئُوا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩] قال ابن عباس رضي الله عنهم قوله عز وجل: ﴿هَنِئُوا﴾ أي لا يموتون فيها فعندها قالوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيْتَنِ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلِيٌّ﴾^(١) وقال الحسن البصري: علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه فقالوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيْتَنِ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلِيٌّ وَمَا نَحْنُ بِمَعْدِبِينَ﴾ قيل لا ﴿إِنْ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وقوله جل جلاله ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ قال وقتادة هذا من كلام أهل الجنة، وقال ابن جرير^(٢) هو من كلام الله تعالى ومعناه لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون في

(١) انظر الدر المثور ٦/١٤٧.

(٢) تفسير الطبرى ١٠/٤٩٣.

الدنيا ليصيروا إليه في الآخرة وقد ذكروا قصة رجلين كانا شريكين في بني إسرائيل تدخل في ضمن عموم هذه الآية الكريمة، قال أبو جعفر بن جرير^(١) حدثني إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد حدثنا عتاب بن بشير عن خصيف عن فرات بن ثعلبة ال Nehran في قوله: «إنني كان لي قرين» قال إن رجلين كانا شريكين فاجتمع لهما ثمانية ألف دينار، وكان أحدهما له حرفة والأخر ليس له حرفة، فقال الذي له حرفة للآخر ليس عندك حرفة ما أراني إلا مفارقاك ومقاسمه ففقارقه ثم إن الرجل اشتري داراً بـألف دينار كانت لملك مات فدعا صاحبه فأراه فقال كيف ترى هذه الدار ابتعتها بـألف دينار؟ قال ما أحسنها، فلما خرج قال اللهم إن صاحبي هذا قد ابتاع هذه الدار بـألف دينار وإنني أسلّك داراً من دور الجنة فتصدق بـألف دينار، ثم مكث ما شاء الله تعالى أن يمكث، ثم إنه تزوج بامرأة بـألف دينار فدعاه وصنع له طعاماً فلما أتاه قال إنني تزوجت هذه المرأة بـألف دينار فقال ما أحسن هذا فلما انصرف قال يا رب إن صاحبي تزوج امرأة بـألف دينار، وإنني أسلّك امرأة من الحور العين فتصدق بـألف دينار، ثم إنه مكث ما شاء الله تعالى أن يمكث ثم اشتري بستانيين بـألفي دينار ثم دعاه فأراه فقال إنني ابتعت هذين البستانين بـألفي دينار فقال ما أحسن هذا فلما خرج قال يا رب إن صاحبي قد اشتري بستانيين بـألفي دينار وأنا أسلّك بستانيين في الجنة فتصدق بـألفي دينار، ثم إن الملك أتاهمما فتوفاهما ثم انطلق بهذا المتصدق فأدخله داراً تعجبه وإذا بامرأة تطلع يضيء ما تحتها من حسنها ثم أدخله بستانين وشيئاً الله به علىم فقال عند ذلك ما أشبه هذا برجل كان من أمره كذا وكذا قال فإنه ذاك ولدك هذا المنزل والبستانان والمرأة، قال فإنه كان لي صاحب يقول «أئنك من المصدقين» قيل له فإنه في الجحيم قال «هل أنت مطلعون فاطلع فرأاه في سوء الجحيم» فقال عند ذلك «تالله إن كدت لتردين ولو لا نعمة ربى لكنت من المحضرين» الآيات قال ابن جرير وهذا يقوى قراءة من قرأ «أئنك لمن المصدقين» بالتشديد^(٢).

وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا عمرو بن عبد الرحمن الأبار أخبرنا أبو حفص قال سألت إسماعيل السدي عن هذه الآية «قال قائل منهم إني كان لي قرين يقول أئنك من المصدقين» قال فقال لي ما ذكرك هذا؟ قلت قرأته آنفاً فأحبيت أن أسألك عنه فقال: أما فاحفظ، كان شريكان فيبني إسرائيل أحدهما مؤمن والآخر كافر فافترقا على ستة آلاف دينار لكل واحد منهمما ثلاثة آلاف دينار ثم افترقا فمكثا ما شاء الله تعالى أن يمكثا، ثم التقى فالكافر للمؤمن ما صنعت في مالك؟ أصرَّبْتَ به شيئاً^(٣) أتجرت به في شيء؟ فقال له المؤمن لا فما صنعت أنت؟ فقال أشتريت به أرضاً ونخلاً وثماراً بألف دينار - قال:

٤٩٠ / ١٠ تفسير الطبرى (١)

(٢) تفسير الطبرى / ١٠ / ٤٩٠ .

(٣) أضررت به شيئاً: أي أكسيت به شيئاً؟

فقال له المؤمن أو فعلت ؟ قال نعم ، قال فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله تعالى أن يصلي فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه ثم قال : اللهم إن فلاناً - يعني شريكه الكافر - اشتري أرضاً ونخلاً وثماراً وأنهاراً بـألف دينار ثم يموت غداً ويتركها اللهم إني اشتريت منك بهذه الألف دينار أرضاً ونخلاً وثماراً وأنهاراً في الجنة - قال : ثم أصبح فقسمها في المساكين - قال - ثم مكثاً ما شاء الله تعالى أن يمكنها ثم التقى الكافر للمؤمن ما صنعت في مالك أضربت به في شيء أتجرت به في شيء ؟ قال لا قال فما صنعت أنت ؟ قال كانت ضيعتي قد اشتهد علي مؤتها فاشترت ريقاً بـألف دينار يقونون لي فيها ويعملون لي فيها فقال له المؤمن أو فعلت ؟ قال نعم - قال - فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله تعالى أن يصلي فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه ثم قال اللهم إن فلاناً - يعني شريكه الكافر - اشتري ريقاً من ريق الدنيا بـألف دينار يموت غداً فيتركهم أو يموتون فيتركونه ، اللهم إني اشتريت منك بهذه الألف الدينار ريقاً في الجنة - قال - ثم أصبح فقسمها في المساكين - قال - ثم مكثاً ما شاء الله تعالى أن يمكنها ثم التقى الكافر للمؤمن ما صنعت في مالك أضربت به في شيء أتجرت به في شيء ؟ قال لا فما صنعت أنت ؟ قال كان أمري كله قد تم إلا شيئاً واحداً فلانة قد مات عنها زوجها فأصدقتها ألف دينار فجاءتني بها ومثلها معها فقال له المؤمن أو فعلت ؟ قال نعم قال فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله تعالى أن يصلي فلما انصرف أخذ الألف الدينار الباقية فوضعها بين يديه وقال اللهم إن فلاناً - يعني شريكه الكافر - تزوج زوجة من أزواج الدنيا بـألف دينار فيموت غداً فيتركها أو تموت غداً فتركه اللهم وإنني أخطب إليك بهذه الألف الدينار حوراء عيناء في الجنة .

قال : ثم أصبح فقسمها بين المساكين - قال - فبقي المؤمن ليس عنده شيء . قال فلبس قميصاً من قطن وكساء من صوف ثم أخذ مِرَّاً^(١) فجعله على رقبته يعمل الشيء ويحفر الشيء بقوته . قال فجاءه رجل فقال : له يا عبد الله أتوا جرني نفسك مشاهراً بشهر تقوم على دواب لي تعلفها وتكتنس سرقينها قال نعم أفعل قال فواجره نفسه مشاهراً بشهر يقوم على دوابه ، قال فكان صاحب الدواب يغدو كل يوم ينظر إلى دوابه فإذا رأى منها دابة ضامرة أخذ برأسه فوجأ عنقه ثم يقول له سرقت شعير هذه البارحة قال فلما رأى المؤمن هذه الشدة قال لآتين شريك الكافر فلا عملني في أرضه فيطعنني هذه الكسرة يوماً بيوم ويكسوني هذين الثوبين فإذا بلياً ، قال فانطلق يريده فلما انتهى إلى بابه وهو ممس فإذا قصر مشيد في السماء وإذا حوله البوابون فقال لهم استأذناً لي صاحب هذا القصر فإنكم إذا فعلتم سره ذلك ، فقالوا له انطلق إن كنت صادقاً فنم في ناحية فإذا أصبحت فتعرض له . قال فانطلق المؤمن فألقى نصف كسائه تحته ونصفه فوقه ثم نام فلما أصبح أتى شريكه فتعرض له فخرج شريكه الكافر وهو راكب فلما

(١) المَّ، بفتح الميم : الجبل .

رأه عرفه فوق وسلام عليه وصافحه ثم قال له ألم تأخذ من المال مثل ما أخذت؟ قال بلى قال وهذه حالك؟ قال بلى قال أخبرني ما صنعت في مالك؟ قال لا تسألي عنه، قال فما جاء بك؟ قال جئت أعمل في أرضك هذه فتطعني هذه الكسرة يوماً بيوم وتكسوني هذين الشوين إذا بليا، قال لا ولكن أصنع بك ما هو خير من هذا ولكن لا ترى مني خيراً حتى تخبرني ما صنعت في مالك قال أقرضته قال من؟ قال المليء^(١) الوفي قال من؟ قال الله ربى قال وهو مصافحة فانتزع يده من يده ثم قال ﴿أئنك لمن المصدقين أئننا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينو﴾ قال السدي محاسبون قال فانطلق الكافر وتركه، قال فلما رأه المؤمن وليس يلوى عليه رجع وتركه، يعيش المؤمن في شدة من الزمان ويعيش الكافر في رخاء من الزمان قال فإذا كان يوم القيمة وأدخل الله تعالى المؤمن الجنة يمر فإذا هو بأرض ونخل وثمار وأنهار فيقول لمن هذا؟ فيقال هذا لك فيقول يا سبحان الله أو بلغ من فضل عملي أن أثاب بمثل هذا؟ قال ثم يمر فإذا هو برقيق لا تحصى عدتهم فيقول لمن هذا؟ فيقال هؤلاء لك، فيقول يا سبحان الله أو بلغ من فضل عملي أن أثاب بمثل هذا، قال ثم يمر فإذا هو بقبة من ياقوتة حمراء مجوفة فيها حوراء عيناء فيقول لمن هذه فيقال هذه لك فيقول يا سبحان الله أو بلغ من فضل عملي أن أثاب بمثل هذا.

قال ثم يذكر المؤمن شريكه الكافر فيقول: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قُرْبَنِي يَقُولُ أَئْنَكَ لَمْنَ الْمَصْدِقِينَ أَئْنَا مَتَّنَا وَكَنَا تَرَاباً وَعَظَامَّاً أَئْنَا لَمْدِيُّونَ﴾ قال فالجنة عالية والنار هاوية قال فيريه الله تعالى شريكه في وسط الجحيم من بين أهل النار فإذا رأه المؤمن عرفه فيقول: ﴿تَا لَهُ إِنْ كَدْتَ لِتَرْدِينَ وَلَوْلَا نِعْمَةَ رَبِّي لَكُنْتَ مِنَ الْمَحْضَرِينَ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيْتَنِ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمَعْذِيْنَ إِنْ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ لَمَثْلُ هَذَا فَلِيَعْمَلُ الْعَامِلُونَ﴾ بمثل ما من عليه. قال فيذكر المؤمن ما مر عليه في الدنيا من الشدة فلا يذكر مما مر عليه في الدنيا من الشدة أشد عليه من الموت^(٢).

أَذْلَكَ خَيْرٌ نَّرْزَلَ أَمْ شَجَرَةُ الْزَّقْوَمِ ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَجْرِي فِي أَصْلِ الْجَحَمِ ﴿تَلْعَهَا كَانَهُ دُعُونُ الشَّيَاطِينِ﴾ فَأَتَهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا فَمَا لَوْنُ مِنْهَا أَلْبَطُونَ ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوَّبَا مِنْ حَمِيمٍ﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجَعَهُمْ إِلَى الْجَحَمِ ﴿إِنَّهُمْ أَنْفَوْا إِبَآهُ هُرْضَالِينَ﴾ فَهُمْ عَلَىٰ إِثْرِهِمْ مُهْرَعُونَ

يقول الله تعالى أهذا الذي ذكره من نعيم الجنة وما فيها من مأكل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ خير ضيافة وعطاء «أم شجرة الزقوم» أي التي في جهنم وقد يتحمل أن يكون

(١) المليء: صاحب المال، والمعنى.

(٢) تفسير الطبرى ٤٩٤/١٠.

المراد بذلك شجرة واحدة معينة كما قال بعضهم إنها شجرة تمتد فروعها إلى جميع محال جهنم كما أن شجرة طبى ما من دار في الجنة إلا وفيها منها غصن، وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر يقال له الزقوم قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةٌ تَخْرُجُ مِنْ طَورِ سِينَاءَ تَنْبَتُ بِالدَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلَّاكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠] يعني الزيتونة ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ الْمَكَذُوبَنَ لَا كَلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُومٍ﴾ [الواقعة: ٥١ - ٥٢].

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا هَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ قال قتادة ذكرت شجرة الزقوم فافتتن بها أهل الضلاله وقالوا صاحبكم يتبئكم أن في النار شجرة والنار تأكل الشجر فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ غذيت من النار ومنها خلقت. وقال مجاهد ﴿إِنَّا جَعَلْنَا هَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ قال أبو جهل لعنه الله: إنما الزقوم التمر والزبد أتزمه.

قلت ومعنى الآية إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اخباراً نختبر به الناس من يصدق منهم من يكذب، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ وَنَخْوَفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طَغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أي أصل منتها في قرار النار ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رَؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ تبشير لها وتكريره لذكرها. قال وهب بن منبه شعر الشياطين قائمة إلى السماء، وإنما شبهها برؤوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر، وقيل المراد بذلك ضرب من الحيات رؤوسها بشعة المنظر، وقيل جنس من النبات طلعه في غاية الفحاشة وفي هذين الاحتمالين نظر، وقد ذكرهما ابن حرير والأول أقوى وأولى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا كَلُونَ مِنْهَا فَمَالَثُونَ مِنْهَا الْبَطْوَنَ﴾. ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التي لا أبشع منها ولا أقبح من منظرها مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح والطبع فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها لأنهم لا يجدون إلا إياها وما في معناها كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ لَا يَسْمَنُ وَلَا يَغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ وقال ابن أبي حاتم رحمه الله حدثنا أبي حدثنا عمرو بن مرزوق حدثنا شعبة عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية وقال: «اتقوا الله حق تقاته فلو أن قطرة من الرقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معيشهم فكيف بمن يكون طعامه؟» ورواه الترمذى والنسائي وابن ماجه من حديث شعبة وقال الترمذى حسن صحيح^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشْوِيْبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني

(١) أخرجه الترمذى في صفة جهنم باب ٤، وابن ماجه في الزهد باب ٣٨، وأحمد في المسند ٣٠١/١.

شرب الحميم على القوم^(١)، وقال في رواية عنه شوباً من حميم ، مزجاً من حميم ، وقال غيره يعني يمزج لهم الحميم بصدق وغساق مما يسيل من فروتهم وعيونهم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا حبيبة بن شريح الحضرمي حدثنا بقية بن الوليد عن صفوان بن عمرو أخبرني عبيد الله بن بسر عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول «يقول - يعني إلى أهل النار - ماء فيتكره فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقيعت فروة رأسه فيه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره»^(٢).

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عمرو بن رافع حدثنا يعقوب بن عبد الله عن جعفر وهارون بن عترة عن سعيد بن جبير قال إذا جاء أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم فلو أن ماراً يمر بهم يعرفهم لعرف وجوههم فيها ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثون بما كالمهل وهو الذي قد انتهى حرمه فإذا أدنه من أفواههم استوى من حرمه لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود ويصهر ما في بطونهم فيمشون تسيل أمعاؤهم وتتساقط جلودهم ثم يضربون بمقامع من حديد فيسقط كل عضو على حياله يدعون بالثبور .

وقوله عز وجل : **﴿ثُمَّ إِنْ مَرْجِعَهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ﴾** أي ثم إن مردهم بعد هذا الفصل إلى نار تأاجج وجحيم تتوقد وسعير تتوهج فتارة في هذا وتارة في هذا كما قال تعالى : **﴿يَطَوِّفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آن﴾** [الرحمن : ٤٤] هكذا تلا قتادة هذه الآية عند هذه الآية^(٣) وهو تفسير حسن قوي ، وقال السدي في قراءة عبد الله رضي الله عنه **﴿ثُمَّ إِنْ مَقِيلُهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ﴾**^(٤) وكان عبد الله رضي الله عنه يقول والذي نفسي بيده لا يتتصف النهار يوم القيمة حتى يقبل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ، ثم قرأ **﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقْرًا وَأَحْسَنُ مُقْلِيًّا﴾** [الفرقان : ٢٤] وروى الثوري عن ميسرة عن المنهال بن عمرو عن أبي عبيدة عن عبد الله رضي الله عنه قال : لا يتتصف النهار يوم القيمة حتى يقبل هؤلاء ويقيل هؤلاء قال سفيان أراه ثم قرأ **﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقْرًا وَأَحْسَنُ مُقْلِيًّا﴾** [الفرقان : ٢٤] **﴿ثُمَّ إِنْ مَقِيلُهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ﴾** قلت على هذا التفسير تكون ثم عاطفة لخبر على خبر . قوله تعالى : **﴿إِنَّهُمْ أَفْوَأُّ أَبْيَاءِهِمْ ضَالِّينَ﴾** أي إنما جازين لهم بذلك لأنهم وجدوا أباءهم على الضلال فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك من غير دليل ولا برهان ، ولهذا قال : **﴿فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يَهْرُعُونَ﴾** قال مجاهد شبيهة بالهرولة ، وقال سعيد بن جبير يسفهون .

(١) تفسير الطبرى ٤٩٥ / ١٠.

(٢) أخرجه الترمذى في صفة جهنم باب ٤ ، وأحمد في المسند ٢٦٥ / ٥.

(٣) انظر تفسير الطبرى ٤٩٥ / ١٠.

(٤) تفسير الطبرى ٤٩٥ / ١٠ ، بلفظ : **﴿ثُمَّ إِنْ مَنْقِلُهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ﴾** . وانظر أيضاً الدر المثور ٥٢٣ / ٥ .

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٨﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَلِيقَةُ
الْمُنْذِرِينَ ﴿٩﴾ إِلَّا عِبَادُ اللَّهِ الْمُخْلَصُونَ ﴿١٠﴾

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى، وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين ينذرون بأس الله ويحذرهم سطوه ونقمته ممن كفر به وعبد غيره وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتکذيبهم فأهلك المکذبين ودمهم ونجى المؤمنين ونصرهم وظففهم ولهذا قال تعالى: «فانظر كيف كان عاقبة المنذرين إلا عباد الله المخلصين» .

وَلَقَدْ نَادَنَا نُوحٌ فَلَنَعِمَ الْمُجِيبُونَ ﴿١﴾ وَجَعَلَنَا ذُرِيَّتَهُمْ هُمُ
الْبَاقِيَنَ ﴿٢﴾ وَرَأَكُنَا عَلَيْهِ فِي الْآخَرِينَ ﴿٣﴾ سَلَمٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمَيْنَ ﴿٤﴾ إِنَّا كَذَلِكَ تَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٥﴾ إِنَّ اللَّهَ مِنْ
عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦﴾ إِنَّمَا أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٧﴾

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة شرع يبين ذلك مفصلاً فذكر نوحًا عليه الصلاة والسلام وما لقي من قومه من التکذيب، وأنه لم يؤمِّن منهم إلا القليل مع طول المدة لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تکذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة فدعى ربه أني مغلوب فانتصر، فغضب الله تعالى لغضبه عليهم، ولهذا قال عز وجل : «ولقد نادانا نوح فلننعم المجيبون» أي فلننعم المجيبون له «ونجيناه وأهله من الكرب العظيم» وهو التکذيب والأذى «وجعلنا ذريته هم الباقيين» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما يقول : لم تبق إلا ذرية نوح عليه السلام^(١).

وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله تبارك وتعالى : «وَجَعَلَنَا ذُرِيَّتَهُمُ الْبَاقِيَنَ» قال الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام ، وقد روی الترمذی^(٢) وابن جریر وابن أبي حاتم من حديث سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن عن سمرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى : «وَجَعَلَنَا ذُرِيَّتَهُمُ الْبَاقِيَنَ» قال سام وحام ويافت وقال الإمام أحمد^(٣) : حدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة عن الحسن عن سمرة رضي الله عنه عن النبي من ﷺ قال : «سام أبو العرب وحام أبو الحبس ويافت أبو الروم» ورواه الترمذی^(٤) عن بشر بن معاذ العقدي عن يزيد بن زريع عن سعيد وهو ابن أبي عروبة عن قتادة به ، قال الحافظ أبو عمر بن عبد البر ،

(١) تفسير الطبری ٤٩٨/١٠ ، بلفظ : لم يبق إلا ذرية نوح .

(٢) أخرجه الترمذی في تفسير سورة ٣٧ ، باب ٣ .

(٣) مسند أحمد ٩/٥ .

(٤) أخرجه الترمذی في تفسير سورة ٣٧ ، باب ٤ .

وقد روي عن عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ مثله، والمراد بالروم هنالك هم الروم الأول وهم اليونان المتنسبون إلى رومي بن ليطي بن يونان بن يافت بن نوح عليه السلام ثم روي من حديث إسماعيل بن عياش عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال: ولد نوح عليه السلام ثلاثة: سام ويايث وحام، ولد كل واحد من هؤلاء الثلاثة فولد سام العرب وفارس والروم، ولد يافت الترك والصقالبة ويأجوج وmajوج، ولد حام القبط والسودان والبربر، وروي عن وهب بن منبه نحو هذا والله أعلم. قوله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَكَا عَلَيْهِ فِي الْآخَرِينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عندهما يذكر بخير^(١)، وقال مجاهد يعني لسان صدق للأنبياء كلهم، وقال قتادة والسدسي أبقى الله عليه الثناء الحسن في الآخرين. وقال الصحاح السلام والثناء الحسن^(٢).

وقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ مفسر لما أبقى عليه الذكر الجميل والثناء الحسن أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَحْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله تعالى ونجعل له لسان صدق يذكر به بعده بحسب مرتبته في ذلك ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عَبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي المصدقين الموحدين المؤمنين ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ أي أهلناكم فلم تبق منهم عين تطرف ولا ذكر لهم ولا عين ولا أثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة.

﴿وَإِنَّكَ مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ ﴿إِذْ جَاءَ رَبِّهِ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ إِنْفَكًا لِّهَدَى اللَّهِ دُونَ أَنْهَا تُرِيدُونَ ﴾ فَمَا ظَنُوكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عندهما ﴿إِنَّمَا شَيْعَتَهُ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ يقول من أهل دينه، وقال مجاهد على منهاجه وسته^(٣).

﴿إِذْ جَاءَ رَبِّهِ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عندهما يعني شهادة أن لا إله إلا الله. وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبوأسامة عن عوف قلت لمحمد بن سيرين ما القلب السليم؟ قال يعلم أن الله حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور، وقال الحسن: سليم من الشرك وقال عروة لا يكون لعاناً.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد ولها قال عز وجل ﴿أَنْفَكَا آلَهَةُ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُوكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال قتادة يعني ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم معه غيره.

(١) تفسير الطبرى ٤٩٨/١٠.

(٢) تفسير الطبرى ٤٩٨/١٠.

(٣) تفسير الطبرى ٤٩٩/١٠.

فَظَرَ نَظَرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٩﴾ فَنَوَّلُوا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿١٠﴾ فَرَأَعَ إِلَى الْهَمَمِ فَقَالَ أَلَا تَكُونُ مَالِكُ لَا تَنْطِقُونَ ﴿١١﴾ فَرَأَعَ عَلَيْهِمْ صَرًا بِالْيَمِينِ ﴿١٢﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفَوْنَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَعْبُدُونَ مَا تَنْحِسُونَ ﴿١٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا أَبْنَاؤُهُمْ يُتَبَّعُنَا فَالْقُوَّةُ فِي الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كِيدًا فَعَلَنَّهُمُ الْأَسْقَلِينَ ﴿١٧﴾

إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيدهم فأحب أن يختلي بالهتم فكسرها فقال لهم كلاماً هو حق في نفس الأمر فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه «فنولوا عنه مدبرين» قال قتادة والعرب تقول لمن تفكر نظر في النجوم، يعني قتادة أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يلهيهم به فقال «إني سقيم» أي ضعيف

فأما الحديث الذي رواه ابن جرير^(١) هنا حدثنا أبو كريب حدثنا أبو أسامة حدثني هشام عن محمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كاذبات: ثنتين في ذات الله تعالى، قوله «إني سقيم» وقوله «بل فعله كبيرهم هذا» وقوله في سارة هي اختي»^(٢) فهو حديث مخرج في الصحاح والسنن من طرق ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقى الذى يذم فاعله حاشا وكلا وإنما أطلق الكذب على هذا تجاوزاً وإنما هو من المعارض فى الكلام لمقصد شرعى دينى كما جاء فى الحديث «إن المعارض لمندوحة عن الكذب»^(٣) وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد رضي الله عنه قال: قال سفيان عن علي بن زيد بن جدعان عن أبي نصرة عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في كلمات إبراهيم عليه الصلاة والسلام الثلاث التي قال ما منها كلمة إلا ما حل بها عن دين الله تعالى: «فقال إني سقيم» وقال «بل فعله كبيرهم هذا» وقال للملك حين أراد أمرأته هي اختي. قال سفيان في قوله «إني سقيم» يعني طعين وكانوا يفرون من المطعون فأراد أن يخلو بالهتم، وكذا قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: «فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم» فقالوا له وهو في بيت الهتم: اخرج فقال إني مطعون فتركوه مخافة الطاعون.

وقال قتادة عن سعيد بن المسيب رأى نجماً طلع فقال «إني سقيم» كابد النبي الله عن دينه «فقال إني سقيم»^(٤). وقال آخرون «فقال إني سقيم» بالنسبة إلى ما يستقبل يعني مرض

(١) تفسير الطبرى ٥٠١/١٠.

(٢) أخرجه البخارى في الأنباء باب ٨، والنكاح باب ١٢، ومسلم في الفضائل حديث ١٥٤، وأبو داود في الطلاق باب ١٦، والترمذى في تفسير سورة ٢١ باب ٣، وأحمد في المسند ٤٠٣/٢.

(٣) أخرجه البخارى في الأدب باب ١١٦.

(٤) تفسير الطبرى ٥٠١/١٠.

الموت، وقيل أراد **«إنني سقيم»** أي مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله تعالى، وقال الحسن البصري: خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم فأرادوه على الخروج فاضطجع على ظهره وقال **«إنني سقيم»** وجعل ينظر في السماء فلما خرجن أقبل إلى آهتهم فكسرها. رواه ابن أبي حاتم. ولهذا قال تعالى: **«فَتَوَلُوا عَنْهُ مُدْبِرِينَ»** أي إلى عيدهم **«فِرَاغٌ إِلَى آهِتَهُمْ»** أي ذهب إليها بعد أن خرجن في سرعة واختفاء **«فَقَالَ أَلَا تَأْكِلُونَ»** وذلك أنهما كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاماً قرباناً لتبarak لهم فيه. قال السدي: دخل إبراهيم عليه السلام إلى بيت الآلهة فإذا هم في بهو عظيم وإذا مستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه أصغر منه بعضها إلى جنب بعض كل صنم يليه أصغر منه حتى بلغوا باب البهو وإذا هم قد جعلوا طعاماً وضعوه بين أيدي الآلهة وقالوا إذا كان حين نرجع وقد باركت الآلهة في طعامنا أكلناه، فلما نظر إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى ما بين أيديهم من الطعام قال **«أَلَا تَأْكِلُونَ مَا لَكُمْ لَا تُنْطِقُونَ»**.

وقوله تعالى: **«فِرَاغٌ عَلَيْهِمْ ضَرِبًا بِالْيَمِينِ»** قال الفراء معناه مال عليهم ضرباً باليمن. وقال قتادة والجوهري فأقبل عليهم ضرباً باليمن. وإنما ضربهم باليمن لأنها أشد وأنكى ولهذا تركهم جداً إلا كبراً لهم لعلهم إليه يرجعون كما تقدم في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تفسير ذلك. قوله تعالى هنا: **«فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ»** قال مجاهد وغير واحد أي يسرعون، وهذه القصة هنا مختصرة وفي سورة الأنبياء مبسوطة فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة من فعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا فعرفوا أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو الذي فعل ذلك. فلما جاؤوا ليغاثيه أخذ في تأنيبهم وعيتهم فقال **«أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ»** أي اعتبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تحبونها وتجعلونها بأيديكم **«وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ»** يتحمل أن تكون ما مصدرية فيكون تقدير الكلام خلقكم وعملكم ويحمل أن تكون بمعنى الذي تقديره والله خلقكم والذي تعملونه وكلا القولين متلازم، والأول أظهر لما رواه البخاري في كتاب أفعال العباد عن علي بن المديني عن مروان بن معاوية عن أبي مالك عن ربعي بن خراش عن حذيفة مرفوعاً قال: **«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنْعَتِهِ»** وقرأ بعضهم **«وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ»** فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهقير فقالوا **«أَبْنَا لَهُ بَنِيَّاً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ»** وكان من أمرهم ما تقدم بيانه في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ونجاه الله من النار وأظهروا عليهم وأعلى حجته ونصرها ولهذا قال تعالى: **«فَأَرَادُوا بِهِ كِيدًا فَجَعَلْنَاهُمْ أَسْفَلِينَ»**.

وَقَالَ إِلَيْهِ ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّ سَيِّدِهِنَّ **﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الْصَّالِحِينَ﴾** فَبَشَّرَهُ بِخَلْمٍ حَلِيمٍ **﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعْهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْتَئِلُ إِلَيْهِ أَرَى فِي الْنَّارِ أَقْرَبَ أَذْبَحُكَ فَأَنْظَرْ مَا ذَارَتِي﴾** قَالَ يَتَبَتَّأْتَ أَفْعَلَ مَا تُؤْمِرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْمُبَرِّينَ **﴿فَلَمَّا أَسْلَمَ وَتَلَهُ لِلْجَنِّينَ﴾** وَنَدَيْتَهُ أَنْ يَعْبُرْهِمُ **﴿قَدْ صَدَقَتِ الْوَرْبَأُ إِنَّا كَذَلِكَ**

بَغْرِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلْوَةُ الْمُئِنُونَ وَفَدَيْتَهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكَنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَمٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ بَغْرِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّمَّا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنُونَ وَسَرَّنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الْأَصْلَاحِينَ وَتَرَكَنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ مَا مُحْسِنٌ وَطَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِدِّيٌّ

يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه بعد ما نصره الله تعالى على قومه وأيس من إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة هاجر من بين أظهرهم وقال «إنني ذاهب إلى ربي سيهدين رب هب لي من الصالحين» يعني أولاداً مطيعين عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم، قال الله تعالى: «فَبَشَّرَنَا بِغَلامٍ حَلِيمٍ» وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام فإنه أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب بل في نص كتابهم أن إسماعيل عليه السلام ولد لإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة ولد إسحاق وعمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسع وتسعون سنة، وعندهم أن الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده وفي نسخة أخرى يكره فأقحموا ههنا كذباً وبهتاناً إسحاق ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوهم وإسماعيل أبو العرب فحسدوهم فزادوا ذلك وحرفوا وحيدك بمعنى الذي ليس عندك غيره فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى جنوب مكة وهذا تأويل وتحريف باطل فإنه لا يقال «وحيد» إلا لمن ليس له غيره، وأيضاً فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار.

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق وحكي ذلك عن طائفة من السلف حتى نقل عن بعض الصحابة أيضاً وليس ذلك في كتاب ولا سنة وما أظن ذلك تلقى إلا عن أخبار أهل الكتاب وأخذ ذلك مسلم من غير حجة وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل فإنه ذكر البشارة بغلام حليم وذكر أنه الذبيح ثم قال بعد ذلك «فَبَشَّرَنَا بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصالِحِينَ» ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا «إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغَلامٍ عَلِيمٍ» [الحجر: ٥٣]

وقال تعالى: «فَبَشَّرَنَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ» [هود: ٧١] أي يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب فيكون من ذريته عقب ونسل وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير لأن الله تعالى قد وعدهما بأنه سيعقب ويكون له نسل فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيراً وإسماعيل وصف ههنا بالحلم لأنه مناسب لهذا المقام؟

وقوله تعالى: «فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السُّعْيَ» أي كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه وقد كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد فاران^(١)

(١) فاران: هي من أسماء مكة، وقيل: هو اسم لجبل مكة (معجم البلدان: فاران).

ويينظر في أمرهما وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعاً إلى هناك والله أعلم. وعن ابن عباس ومجاحد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء الخراساني وزيد بن أسلم وغيرهم «فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيُ» بمعنى شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل «فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيُ قَالَ يَا بْنِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى» قال عبد بن عمير رؤيا الأنبياء وحي ثم تلا هذه الآية «قَالَ يَا بْنِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى».

وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد حدثنا أبو عبد الملك الكرندي حدثنا سفيان بن عيينة عن إسرائيل بن يونس عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ فِي الْمَنَامِ وَحْيٌ» ليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليهوليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه «قَالَ يَا أَبَتِ افْعُلْ مَا تَؤْمِنْ» أي امض لما أمرك الله من ذبحي «سْتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ» أي سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد ولهذا قال الله تعالى: «وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا» [مريم: ٥٤ - ٥٥]. وقال تعالى: «فَلَمَّا أَسْلَمَهَا وَتَلَهُ لِلْجَبَّيْنِ» أي فلما تشهدا وذكرا الله تعالى إبراهيم على الذبح والولد على شهادة الموت وقيل أسلما يعني استسلاما وانقادا، إبراهيم امتنل لأمر الله تعالى وإسماعيل لطاعة الله وأبيه قاله مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي وابن إسحاق وغيرهم ومعنى «وتله للجبين» أي صرעה على وجهه ليذبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه. قال ابن عباس ومجاحد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة «وتله للجبين» أكبه على وجهه.

وقال الإمام أحمد^(١) حدثنا سريح ويونس قالا حدثنا حماد بن سلمة عن أبي عاصم الغنوبي عن أبي الطفيل عن ابن عباس أنه قال لما أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالمناسك عرض له الشيطان عند السعي فسابقه فسبقه إبراهيم عليه الصلاة والسلام ثم ذهب به جبريل عليه الصلاة والسلام إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات وثم تله للجبين وعلى إسماعيل عليه الصلاة والسلام قميص أيض فقال له يا أبا إله ليس لي ثوب تكتفي فيه غيره فاخلعه حتى تكتفي فيه فعالجه ليخلعه فنودي من خلفه «أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ قَدْ صَدَقْتِ الرَّوْءِيَا» فالتفت إبراهيم فإذا بكبس أبيض أقرن أعين قال ابن عباس لقد رأينا نتبع ذلك الضرب من الكباش، وذكر تمام الحديث في المناسك بطوله.

ثم رواه أحمد ببطوله عن يونس عن حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما فذكر نحوه إلا أنه قال إسحاق فعن ابن عباس رضي الله عنهما في تسمية الذبيح روایتان والأظهر عنه إسماعيل لما سياتي بيانه إن شاء الله تعالى .

وقال محمد بن إسحاق عن الحسن بن دينار عن قتادة عن جعفر بن إياس عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تبارك وتعالى : «وَفِدِينَا بِذِبْحٍ عَظِيمٍ» قال خرج عليه كبش من الجنة قد رعى^(١) قبل ذلك أربعين خريفاً فأرسل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ابنه واتبع الكبش فآخرجه إلى الجمرة الأولى فرماه بسبع حصيات ثم أفلته عندها فجاء إلى الجمرة الوسطى فأخرجه عنها فرماه بسبع حصيات ثم أدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات فأخرجه عنها ثم أخذه فأتى به المنحر من مني فذبحه فوالذي نفس ابن عباس بيده لقد كان أول الإسلام وأن رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزابِ الكعبة حتى وحش يعني يبس^(٢) .

وقال عبد الرزاق أخبرنا عمر عن الزهري أخبرنا القاسم قال اجتمع أبو هريرة وكعب فجعل أبو هريرة رضي الله عنه يحدث عن النبي ﷺ وجعل كعب يحدث عن الكتب فقال أبو هريرة رضي الله عنه قال النبي ﷺ : «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ دُعَوةً مُسْتَجَابَةً وَإِنِّي قَدْ خَبَأْتُ دُعَوْتِي شَفَاعَةً لِأَمْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣) فقال له كعب أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال نعم قال فداك أبي وأمي - أو فداء أبي وأمي - أفالاً أخبرك عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ؟ إنه لما أري ذبح ابنه إسحاق قال الشيطان إن لم أفتنه هؤلاء عند هذه لم أفتنهم أبداً فخرج إبراهيم عليه الصلاة والسلام بابنه ليذبحه فذهب الشيطان فدخل على سارة فقال أين ذهب إبراهيم بابنك ؟ قالت غداً به لبعض حاجته قال فإنه لم يغدو به لحاجة إنما ذهب به ليذبحه قالت ولم يذبحه ؟ قال زعم أن ربه أمره بذلك قالت فقد أحسن أن يطع ربها فذهب الشيطان في أثرهما فقال للغلام أين يذهب بك أبوك ، قال لبعض حاجته قال فإنه لا يذهب بك لحاجة ولكنه يذهب بك ليذبحك قال ولم يذبحني ؟ قال زعم أن ربه أمره بذلك قال فو الله لئن كان الله تعالى أمره بذلك لي فعلن قال فيئس منه فتركه ولحق بإبراهيم عليه الصلاة والسلام فقال أين غدوت بابنك ، قال لحاجة قال فإنك لم تغدو به لحاجة وإنما غدوت به لتذبحه قال ولم أذبحه ؟ قال تزعم أن ربك أمرك

(١) في تفسير الطبرى لفظ «رعاها» بدل «رعى».

(٢) تفسير الطبرى ٥١٦/١٠ .

(٣) روى بطرق وأسانيid متعددة ، أخرجه البخاري في التوحيد باب ٣١ ، والدعوات باب ١ ، ومسلم في الإيمان حديث ٣٣٤ - ٣٤٥ ، والترمذى في الدعوات باب ١٣٠ ، وابن ماجه في الزهد باب ٣٧ ، والدارمى في السير باب ٢٨ ، والرفاق باب ٨٥ ، ومالك في القرآن حديث ٢٦ ، وأحمد في المستند ٢٩٢ ، ٢٩٥ / ٢ ، ٢٧٥ / ٢ ، ٣٩٦ ، ٣٨١ ، ٤٢٦ ، ١٣٤ / ٣ ، ٢٠٨ ، ٢١٩ ، ٢١٨ ، ٢٥٨ ، ٢٧٦ ، ٢٩٢ ، ٢٨١ / ١ ، ٣٩٦ ، ٣٨٤ .

بذلك قال فوالله لئن كان الله تعالى أمرني بذلك لأفعلن قال فتركه ويشك أن يطاع .

وقد رواه ابن حجرير^(١) عن يونس بن وهب عن يونس بن يزيد عن ابن شهاب قال إن عمرو بن أبي سفيان بن أسيد بن جارية الثقفي أخبره أن كعباً قال لأبي هريرة فذكره ببطوله وقال في آخره وأوحى الله تعالى إلى إسحاق أني أعطيتك دعوة استجيب لك فيها قال إسحاق اللهم إني أدعوك أن تستجيب لي أيمما عبد لقيك من الأولين والآخرين لا يشرك بك شيئاً فأدخله الجنة .

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «إن الله تبارك وتعالى خيرني بين أن يغفر لنصف أمتى وبين أن يجib شفاعتي فاخترت شفاعتي ورجوت أن تكون أعم لأمتى ولو لا الذي سبقني إليه العبد الصالح لتعجلت فيها دعوتي إن الله تعالى لما فرج عن إسحاق كرب الذبح قيل له يا إسحاق سل تعط فقايل أما والذى نفسى بيده لأنتعجلنها قبل نزغات الشيطان ، اللهم من مات لا يشرك بك شيئاً فاغفر له وأدخله الجنة» هذا حديث غريب منكر وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف الحديث وأخشى أن يكون في الحديث زيادة مدرجة وهي قوله إن الله تعالى لما فرج عن إسحاق إلى آخره والله أعلم فهذا إن كان محفوظاً فالأشبه أن السياق إنما هو عن إسماعيل وإنما حرفوه بإسحاق حسداً منهم كما تقدم وإلا فالمناسك والذبائح إنما محلها بمنى من أرض مكة حيث كان إسماعيل لا إسحاق فإنه إنما كان ببلاد كنعان من أرض الشام .

وقوله تعالى : «وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا» أي قد حصل المقصود من رؤيتك واضجاعك ولذلك للذبح وذكر السدي وغيره أنه أمر السكين على رقبته فلم تقطع شيئاً بل حال بينها وبينه صفحة من نحاس ونودي إبراهيم عليه الصلاة والسلام عند ذلك «قد صدقت الرؤيا». وقوله تعالى : «إنا كذلك نجزي المحسنين» أي هكذا نصرف عنمن أطاعنا المكاره والشدائد ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً كقوله تعالى : «ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبي إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرأ» [الطلاق : ٢ - ٣] وقد استدل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكן من الفعل خلافاً لطائفه من المعزلة والدلالة من هذه ظاهرة لأن الله تعالى شرع لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ذبح ولده ثم نسخه عنه وصرفه إلى القداء وإنما كان المقصود من شرعيه أولاً إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزمها على ذلك ولهذا قال تعالى : «إن هذا لهم البلاء البين» أي الاختبار الواضح الجلي حيث أمر بذبح ولده فسارع إلى

ذلك مستسلماً لأمر الله تعالى منقاداً لطاعته ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمُ الَّذِي وَفَى﴾ [النجم: ٣٧]

وقوله تعالى: ﴿وَفَدِينَا بِذِبْحِ عَظِيمٍ﴾ قال سفيان الثوري عن جابر الجعفي عن أبي الطفيل عن علي رضي الله عنه ﴿وَفَدِينَا بِذِبْحِ عَظِيمٍ﴾ قال بكبش أيضأً أعين أقرن قد ربط بسمرة قال أبو الطفال: وجده مربوطاً بسمرة في ثير^(١)، وقال الثوري أيضاً عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كبش قد رعن في الجنة أربعين خريفاً. وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار حدثنا داود العطار عن ابن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال الصخرة التي بمنى بأصل ثير هي الصخرة التي ذبح عليها إبراهيم فداء إسحاق ابنه هبط عليه من ثير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه وهو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه فكان مخزوناً حتى فدي به إسحاق وروي أيضاً عن سعيد بن جبير أنه قال كان الكبش يرتع في الجنة حتى فدي به إسحاق، وروي أيضاً عن سعيد بن جبير أنه قال كان الكبش يرتع في الجنة حتى شقق عنه ثير وكان عليه عهن أحمر، وعن الحسن البصري أنه قال كان اسم كبش إبراهيم عليه الصلاة والسلام جرير وقال ابن جريج قال عبيد بن عمير ذبحه بالمقام وقال مجاهد ذبحه بمنى عند المنحر. وقال هشيم عن سيار عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما كان أفتى الذي جعل عليه نذرًاً أن ينحر نفسه فأمره بمائة من الإبل. ثم قال بعد ذلك لو كنت أفتته بكبش لأجزاءه أن يذبح كبشاً فإن الله تعالى قال في كتابه: ﴿وَفَدِينَا بِذِبْحِ عَظِيمٍ﴾.

والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه فُدِي بكبش. وقال الثوري عن رجل عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَفَدِينَا بِذِبْحِ عَظِيمٍ﴾ قال وعل^(٢) وقال محمد بن إسحاق عن عمرو بن عبيد عن الحسن أنه كان يقول ما فدي إسماعيل عليه السلام إلا بتيس من الأروي^(٣) أهبط عليه من ثير.

وقد قال الإمام أحمد^(٤) حدثنا سفيان حدثني منصور عن خاله مسافع عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا أرسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عثمان بن طلحة رضي الله عنه، وقالت مرة أنها سألت عثمان لم دعاك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت فنسحت أن أمرك أن تخمرهما فخمرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي» قال سفيان لم يزل قرنا الكبش

(١) تفسير الطبرى ١٠/٥١٥.

(٢) الوعل: هو تيس الجبل.

(٣) الأروي: قيل: هي أئنى الوعل، وقيل هي الشاة الواحدة من شياه الجبل.

(٤) المستند ٤/٦٨، ٥/٣٨٠.

معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام فإن قريشاً توارثوا قرنى الكبش الذي فدى به إبراهيم خلفاً عن سلف وجيلاً بعد جيل إلى أن بعث الله رسوله ﷺ.

[فصل] في ذكر الآثار الواردة عن السلف في أن الذبح من هو

[ذكر من قال هو إسحاق عليه الصلاة والسلام] قال حمزة الزيارات عن أبي ميسرة رحمه الله قال: قال يوسف عليه الصلاة والسلام للملك في وجهه ترغب أن تأكل معي وأنا والله يوسف بن يعقوب نبي الله ابن إسحاق ذبح الله ابن إبراهيم خليل الله^(١)، وقال الثوري عن أبي سنان عن ابن أبي الهذيل أن يوسف عليه السلام قال للملك كذلك أيضاً وقال سفيان الثوري عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمير عن أبيه قال: قال موسى عليه الصلاة والسلام يا رب يقولون يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب فهم قالوا ذلك؟ قال: «إن إبراهيم لم يعدل بي شيءٍ قط إلا اختارني عليه، وإن إسحاق جاد لي بالذبح وهو بغير ذلك أجود، وإن يعقوب كلما زدته بلاء زادني حسن ظن».

وقال شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص قال افتخر رجل عند ابن مسعود رضي الله عنه فقال: أنا فلان بن فلان ابن الأشياخ الكرام، فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبح الله ابن إبراهيم خليل الله. وهذا صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه، وكذلك روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إسحاق، وعن أبيه العباس وعن علي بن أبي طالب مثل ذلك، وكذلك قال عكرمة وسعيد بن جبير ومجاحد الشعبي وعبيد بن عمير وأبو ميسرة وزيد بن أسلم وعبد الله بن شقيق والزهرى والقاسم بن أبي بزة ومكحول وعثمان بن حاضر والسدي والحسن وقتادة وأبو الهذيل وابن سابط وهذا اختيار ابن جرير، وتقدم روايته عن كعب الأحبار أنه إسحاق، وكذلك روى ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن الزهرى عن أبي سفيان بن العلاء بن حارثة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن كعب الأحبار أنه قال هو إسحاق^(٢).

وهذه الأقوال والله أعلم كلها مأخوذة عن كعب الأحبار فإنه لما أسلم في الدولة العمرية جعل يحدث عمر رضي الله عنه عن كتبه قديماً فربما استمع له عمر رضي الله عنه فترخص الناس في استماع ما عنده ونقلوا ما عنده عنه غثها وسمينها وليس لهذه الأمة والله أعلم حاجة إلى حرف واحد مما عنده وقد حكى البغوي هذا القول بأنه إسحاق عن عمر وعلى وابن مسعود

(١) تفسير الطبرى ٥١٢/١٠.

(٢) تفسير الطبرى ٥١١/١٠.

والعباس رضي الله عنهم ومن التابعين عن كعب الأحبار وسعيد بن جبير وقتادة ومسروق وعكرمة وعطاء ومقاتل والزهري والستي قال وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس رضي الله عنهما وقد ورد في ذلك حديث لو ثبت لقلنا به على الرأس والعين ولكن لم يصح سنته. قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب حدثنا زيد بن حباب عن الحسن بن دينار عن علي بن زيد بن جدعان عن الحسن عن الأخف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عن النبي ﷺ في حديث ذكره قال هو إسحاق ففي إسناده ضعيفان وهذا الحسن بن دينار البصري متوفى وعلى بن زيد بن جدعان منكر الحديث. وقد رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن مسلم بن إبراهيم عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان به مرفوعاً، ثم قال قد رواه مبارك بن فضالة عن الحسن عن الأخف عن العباس رضي الله عنه قوله وهذا أشبه وأصح.

[ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو الصحيح المقطوع به]

قد تقدمت الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهم أنه إسحاق عليه الصلاة والسلام والله تعالى أعلم وقال سعيد بن جبير وعامر الشعبي ويوسف بن مهران ومجاهد وعطاء وغير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهم هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام وقال ابن جرير^(١) حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني عمرو بن قيس عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس أنه قال المفدي إسماعيل عليه السلام وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود، وقال إسرائيل عن ثور عن مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهم قال الذبيح إسماعيل وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد هو إسماعيل عليه السلام وكذلك قال يوسف بن مهران وقال الشعبي هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام وقد رأيت قرنى الكبش في الكعبة.

وقال محمد بن إسحاق عن الحسن بن دينار وعمرو بن عبيد عن الحسن البصري أنه كان لا يشك في ذلك أن الذي أمر بذبحه من ابني إبراهيم إسماعيل عليه السلام قال ابن إسحاق وسمعت محمد بن كعب القرطي وهو يقول إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل وإنما لتجد ذلك في كتاب الله تعالى وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال الله تعالى: «وَبَشَّرَنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ»^١ ويقول الله تعالى: «فَبَشَّرَنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ»^٢ يقول ابن وابن ابن فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق ولو فيه الموعد بما وعده وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل قال ابن إسحاق سمعته يقول ذلك كثيراً، وقال ابن إسحاق عن بريدة بن سفيان بن فروة الإسلامي عن محمد بن كعب القرطي أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو خليفة إذ كان معه بالشام فقال له عمر إن هذا شيء ما كنت أنظر فيه، وإنني لأراه كما قلت ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام

كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى أنه من علمائهم فسأله عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك قال محمد بن كعب وأنا عند عمر بن عبد العزيز فقال له عمر أي ابني إبراهيم أمر بذبحه فقال إسماعيل والله يا أمير المؤمنين وإن يهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم عشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبره لما أمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لكون إسحاق أباهم والله أعلم أيهما كان وكل قد كان ظاهراً طيباً مطيناً لله عز وجل.

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله سأله أبي عن الذبيح هل هو إسماعيل أو إسحاق فقال إسماعيل ذكره في كتاب الزهد. وقال ابن أبي حاتم وسمعت أبي يقول الصحيح أن الذبيح إسماعيل عليه الصلاة والسلام قال وروي عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطفيلي وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد الشعبي ومحمد بن كعب القرظي وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح رضي الله عنهم أنهم قالوا الذبيح إسماعيل. وقال البغوي في تفسيره وإليه ذهب عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب والسدي والحسن البصري ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي وهو رواية عن ابن عباس وحكاه أيضاً عن أبي عمرو بن العلاء.

وقد روى ابن حيرير^(١) في ذلك حديثاً غريباً فقال حدثني محمد بن عمار الرازي حدثنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابي عن عبيد الله بن محمد العتبى من ولد عتبة بن أبي سفيان عن أبيه حدثني عبد الله بن سعيد عن الصنابحي قال كنا عند معاوية بن أبي سفيان فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق فقال على الخير سقطتم: كنا عند رسول الله ﷺ فجاءه رجل فقال: يا رسول الله عذر على مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين فضحك رسول الله ﷺ فقيل له يا أمير المؤمنين وما الذبيحان؟ فقال إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمم نذر لله إن سهل الله له أمرها عليه ليذبحن أحد ولده قال فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخوه وقالوا أخذ ابنك بمائة من الإبل والثاني إسماعيل^(٢).

وهذا حديث غريب جداً وقد رواه الأموي في مغازيه حدثنا بعض أصحابنا أخبرنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمر بن عبد الرحمن القرشي حدثنا عبيد الله بن محمد العتبى من ولد عتبة بن أبي سفيان حدثنا عبد الله بن سعيد حدثنا الصنابحي قال حضرنا مجلس معاوية رضي الله عنه فتذكر القوم إسماعيل وإسحاق وذكره، كذا كتبته من نسخة مغلوطة وإنما عول ابن حيرير في اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى: «فَشَرِنَاهُ بِغَلامٍ حَلِيمٍ» فجعل

(١) تفسير الطبرى ٥١٤/١٠.

(٢) لفظ الطبرى: فداء بمائة من الإبل، وإسماعيل الثاني.

هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله تعالى: «وبشروه بغلام عليم» وأجاب عن البشارة بيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعي أي العمل، ومن الممكن أنه قد كان ولده أولاد مع يعقوب أيضاً قال وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكتبة فمن الجائز أنهما نقلوا من بلاد الشام قال وقد تقدم أن من الناس من ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك هذا ما اعتمد عليه في تفسيره وليس ما ذهب إليه بمذهب ولا لازم بل هو بعيد جداً والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى والله أعلم.

وقوله تعالى: «وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين» لما تقدمت البشارة بالذبيح وهو إسماعيل عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق وقد ذكرت في سوري هود والحجر^(١)، وقوله تعالى: «نبياً» حال مقدرة أي سيصير منه النبي صالح.

وقال ابن جرير^(٢) حدثني يعقوب حدثنا ابن علية عن داود عن عكرمة قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما الذبيح إسحاق قال وقوله تعالى: «وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين» قال بشر بنبوته قال وقوله تعالى: «ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً» [مريم: ٥٣] قال كان هارون أكبر من موسى ولكن أراد وهب له نبوته. وحدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا المعتمر بن سليمان قال سمعت داود يحدث عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية «وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين» قال إنما بشر به نبياً حين فداء الله عز وجل من الذبيح ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده. وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان الثوري عن داود عن عكرمة عن ابن عباس «وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين» قال بشر به حين ولد وحين نبي و قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله تعالى: «وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين» د ما كان من أمره لما جاد الله تعالى بنفسه وقال الله عز وجل «وباركنا عليه وعلى إسحاق» وقوله تعالى: «وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه بين» كقوله تعالى: «فَيُلْهَى بِأَنَّهُ سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهُنَّ رُؤْسَاءُ الْمُجْرَمِينَ إِنَّمَا مِنْ

وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهُنَّ رُؤْسَاءُ الْمُجْرَمِينَ إِنَّمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَافِرِ الْعَظِيمِ وَنَصَرَنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْفَلَكِينَ وَإِنَّهُمْ مِنَ الْكِتَابِ الْمُسْتَقْرِئِينَ وَهُنَّ يَنْهَا مَا أَصْبَرْتَهُمُ الْمُسْتَقْرِئِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرَةِ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهُنَّ رُؤْسَاءُ الْمُجْرَمِينَ إِنَّمَا مِنْ شَكَارِنَا الْمُؤْمِنِينَ

(١) انظر تفسير سورة هود الآية ٧١، وتفسير سورة الحجر الآية ٥٣.
 (٢) تفسير الطبرى ٥١٦/١٠.

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه وما كان يعتمد في حقهم من الإساءة العظيمة من قتل الأبناء واستحياء النساء واستعمالهم في أخس الأشياء ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم وأقر أعينهم منهم فغلبواهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعوه طول حياتهم ثم أنزل الله عز وجل على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلي المستعين وهو التوراة كما قال تعالى: «ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء» [الأنياء: ٤٨] وقال عز وجل هنأنا: «وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ وَهُدًى نَاهِمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» أي في الأقوال والأفعال «وَرَكَنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرَةِ» أي أبقينا لهما من بعدهما ذكرًا جميلاً وثناء حسناً ثم فسره بقوله تعالى: «سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجِيزُ لِلْمُحْسِنِينَ» . المحسنين إنهم من عبادنا المؤمنين» .

وَإِنَّ إِلَيَّا سَلَمَ لِمَنْ أَمْرَسَلَيْنَ ۝ إِذَا قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَقَوَّنَ ۝ أَنْدَعُونَ بِعَلَىٰ وَتَذَرُّونَ أَحْسَنَ الْخَلِيقَيْنَ ۝
اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ إِبْرَاهِيمَ الْأَوَّلَيْنَ ۝ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحَضَّرُونَ ۝ إِلَّا يَبَدُّ اللَّهُ الْمُخَلَّصِينَ ۝ وَرَكَنَا
عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ ۝ سَلَمٌ عَلَىٰ إِلَيْ يَاسِينَ ۝ إِنَّا كَذَلِكَ نَجِيزُ الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّمَّا مِنْ عِبَادَنَا الْمُؤْمِنُونَ ۝

قال قتادة ومحمد بن إسحاق يقال إلياس هو إدريس، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو نعيم حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبيدة بن ربيعة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إلياس هو إدريس، وكذا قال الضحاك وقال وهب بن منبه هو إلياس بن ياسين بن فتحاصن بن العizar بن هارون بن عمران بعثه الله تعالى فيبني إسرائيل بعد حزقييل عليهما السلام وكانوا قد عبدوا صنمًا يقال له بعل فدعاهم إلى الله تعالى ونهاهم عن عبادة ما سواه، وكان قد آمن به ملكهم ثم ارتد واستمروا على ضلالتهم ولم يؤمن به منهم أحد فدعا الله عليهم فحبس عنهم القطر ثلاثة سنين ثم سأله أن يكشف ذلك عنهم ووعدهم بالإيمان به إن هم أصابهم المطر، فدعاه الله تعالى لهم فجاءهم الغيث فاستمروا على أخته ما كانوا عليه من الكفر فسأل الله أن يقتضيه إليه، وكان قد نشأ على يديه يسوع بن أخطوب عليهما الصلاة والسلام فأمر إلياس أن يذهب إلى مكان كذا وكذا فمهما جاءه فليركبه ولا يهبه فجاءته فرس من نار فركب وألبسه الله تعالى النور وكسه الريش وكان يطير مع الملائكة ملكاً إنسياً سماوياً أرضياً هكذا حكاها وهب بن منبه عن أهل الكتاب والله أعلم بصحته^(١).

«إذ قال لقومه ألا تتقون» أي ألا تخافون الله عز وجل في عبادتكم غيره «أندعون بعلا وتندرؤن أحسن الْخَلِيقَيْنَ» قال ابن عباس رضي الله عنهم ومجاحد وعكرمة وقتادة والسدي بعلا يعني ربًا. قال عكرمة وقتادة وهي لغة أهل اليمن، وفي رواية عن قتادة قال: وهي لغة أزد

شئونه . وقال ابن إسحاق أخبرني بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها بعل : وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها بعلبك غربي دمشق ، وقال الضحاك هو صنم كانوا يعبدونه . وقوله تعالى : ﴿أَنذِّرُونَ بَعْلًا﴾ أي أتعبدون صنماً ﴿وَتَذَرُّونَ أَحْسَنَ الْخَالقِينَ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، قال الله تعالى : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي للعذاب يوم الحساب ﴿إِلَّا عِبَادُ اللَّهِ الْمُخْلَصُونَ﴾ أي الموحدين منهم وهذا استثناء منقطع من مثبت . وقوله تعالى : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي ثناء جميلًا ﴿سَلَامٌ عَلَى إِلَيَّاسِينَ﴾ كما يقال في إسماعيل إسماعين وهي لغة بنى أسد ، وأنشد بعض بنى تمير في ضب صاده : [رجز]

يقول رب السوق لما جينا هذا ورث البيت إسرائينا ^(١)

ويقال ميكائيل وميكائيل وإبراهيم وإبراهيم وإسرائيل وإسرائيل وطور سيناء وطور سينين وهو موضع واحد وكل هذا سانع وقرأ آخرون «سلام على إدرايسين»^(٢) وهي قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقرأ آخرون «سلام على آل ياسين» يعني آل محمد ﷺ، وقوله تعالى: «إنا كذلك نجزي المحسنين إنهم من عبادنا المؤمنين» قد تقدم تفسيره، والله أعلم.

وَإِنْ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ بَعَثَنَا وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجَزُوا فِي الْغَدَرِينَ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ
وَإِنَّكُمْ لَمَرْءُونَ عَلَيْهِمْ مُّصِحِّينَ وَبِالْأَلْفَ لَعْنَاتٍ قَوْنَتْ

يُخْبَرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ لَوْطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ بَعَثَ إِلَى قَوْمٍ فَكَذَبُوهُ فَنَجَاهَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ هُوَ وَأَهْلُهُ إِلَّا امْرَأَهُ فَإِنَّهَا هَلَكَتْ مَعَ مَنْ هَلَكَ مِنْ قَوْمِهَا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَهْلُكُهُمْ بِأَنَّوْاعَ مِنَ الْعَقَوبَاتِ وَجَعَلَ مَحْلَتَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ بَحِيرَةً مُنْتَنَةً قَبِيحةً الْمَنْظَرِ وَالطَّعْمِ وَالرِّيحِ وَجَعَلَهُمْ بِسَبِيلِ مَقِيمٍ يَمْرُّ بِهَا الْمَسَافِرُونَ لِيَلًا وَنَهَارًاً وَلَهُذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمْرُونَ عَلَيْهِمْ مَصْبِحِينَ وَبِاللَّيلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَيْ أَفَلَا تَعْتَبِرُونَ بِهِمْ كَيْفَ دَمَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَتَعْلَمُونَ أَنَّ لِلْكَافِرِ أَمْثَالَهَا.

(١) يروي الشطر الثاني من الجزء :

هذا العلم من الله إسـرائـيـل

وهو في تفسير الطبرى ٥٢٤/١٠، والرجز لأعرابي في المقاصد النحوية ٤٤٥/٢، وبلا نسبة في تخلص الشواهد ص ٤٥٦، والدرر ٢٧٢/٢، وسمط اللالى ص ٦٨١، وشرح الأشمونى ١/١٥٦، وشرح التصریح ١/٢٦٤، وشرح ابن عقیل ص ٢٢٩، ولسان العرب (فطن) (یمن)، والمعانى الكبير ص ٦٤٦، وهمم الهوامع ١/١٥٧، وجمهرة اللغة ص ٢٩٣، وتأج العروس (فطن)، (یمن)، (سرور). والمخصص ١٣/٢٨٢.

(٢) تفسير الطبرى / ١٠ / ٥٢٤ .

وَلَئِنْ يُؤْسِ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١﴾ إِذْ أَبْقَى إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٢﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿٣﴾ فَالنَّقْمَةُ
الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَيْحِينَ ﴿٥﴾ لَلَّيْلَتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبَعْثُونَ ﴿٦﴾ فَنَبَذَهُ
بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿٧﴾ وَأَبْلَغْتَنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينِ ﴿٨﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَرِيدُونَ ﴿٩﴾
فَعَمَّا فَعَلُوكُمْ إِلَيْهِمْ إِلَى حِينِ ﴿١٠﴾

قد تقدمت قصة يونس عليه الصلاة والسلام في سورة الأنبياء، وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»^(١) ونسبة إلى أمه وفي رواية إلى أبيه. قوله تعالى: «إذ أبْقَى إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» قال ابن عباس رضي الله عنهما هو الموقر أي المملوء بالأمتعة.

﴿فَسَاهَمَ﴾ أي قارع «فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ» أي المغلوبين، وذلك أن السفينة تلعت بها الأمواج من كل جانب وأشرفوا على الغرق فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقى في البحر لتخف بهم السفينة فوقعت القرعة على نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام ثلث مرات وهم يضنون به أن يلقى من بينهم فتجرد من ثيابه ليلقى نفسه وهم يأبون عليه ذلك، وأمر الله تعالى حوتاً من البحر الأخضر أن يشق البحار وأن يتقم يonus عليه السلام فلا يهشم له لحماً ولا يكسر له عظماً فجاء ذلك الحوت وألقى يonus عليه السلام نفسه فالنقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها. ولما استقر يonus في بطن الحوت حسب أنه قد مات ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حي فقام يصلي في بطن الحوت، وكان من جملة دعائه يا رب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس، واختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت فقيل ثلاثة أيام قاله قتادة. وقيل سبعة قاله جعفر الصادق رضي الله عنه، وقيل أربعين يوماً قاله أبو مالك. وقال مجاهد عن الشعبي: التقمه ضحي ولفظه عشية، والله تعالى أعلم بمقدار ذلك، وفي شعر أمية بن أبي الصلت: [الطويل]

وأنست بفضلِ منك نجيتَ يonusا وقد باتَ في أضعافِ حَوتَ لياليا^(٢)

وقوله تعالى: «فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَيْحِينَ لَلَّيْلَتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبَعْثُونَ» قيل لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء قاله الضحاك بن قيس وأبو العالية ووهب بن منبه وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير، وقد ورد في الحديث الذي سنورده إن شاء الله تعالى ما يدل على ذلك إن صح الخبر، وفي حديث ابن عباس «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة». وقال

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء باب ٢٤، ٣٥، وتفسير سورة ٤ باب ٦، وسورة ٦ باب ٤، والتوحيد باب ٥٠، وأبو داود في السنة باب ١٣، والترمذمي في الصلاة باب ٢٠.

(٢) البيت في السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٢٨.

ابن عباس رضي الله عنهمَا وسعيد بن جبير والضحاك وعطاء بن السائب والستي والحسن وقتادة **﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْبِحِينَ﴾** يعني المصلين، وصرح بعضهم بأنه كان من المصلين قبل ذلك، وقال بعضهم كان من المسبحين في جوف أبيه، وقيل المراد **﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْبِحِينَ﴾** هو قوله عز وجل **﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سَبَحَانَكَ إِنِّي كُنْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَا مِنَ الْغُمَّ وَكَذَلِكَ نَجِيَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** [الأنياء: ٨٨] قاله سعيد بن جبير وغيره.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي بن وهب حدثنا عمي حدثنا أبو صخر أن يزيد الرقاشي حدثه أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه - ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ **«إِنْ يُونِسَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ بَدَأَهُ أَنْ يَدْعُ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سَبَحَانَكَ إِنِّي كُنْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَأَقْبَلَتِ الدُّعْوَةُ تُحْفَنَ بِالْعَرْشِ، قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا رَبِّ هَذَا صَوْتٌ ضَعِيفٌ مَعْرُوفٌ مِنْ بَلَادِ بَعِيدَةِ غَرِبَةٍ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَمَا مَا تَعْرَفُونَ ذَلِكَ؟ قَالُوا يَا رَبِّ وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ عَزَّ وَجَلَ عَبْدِي يُونِسَ قَالُوا عَبْدُكَ يُونِسَ الَّذِي لَمْ يَرِدْ لِيْلَةَ الْمُتَّقِبِ لِدُعَائِهِ مُسْتَجَابًا قَالُوا يَا رَبِّ أَوْلَى تَرْحِمْ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِي الرَّحَاءِ فَتَنَجِيَهُ فِي الْبَلَاءِ، قَالَ بَلِّيْ فَأَمْرَ الْحَوْتِ فَطَرَحَهُ بِالْعَرَاءِ»**^(١).

ورواه ابن جرير^(٢) عن يونس عن ابن وهب به، زاد ابن أبي حاتم قال أبو صخر حميد بن زياد فأخبرني ابن قسيط وأنا أحدهما أحدثه هذا الحديث أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: طرح بالعراء وأنبت الله عز وجل عليه اليقطينة قلنا: يا أبا هريرة وما اليقطينة، قال شجرة الدباء. قال أبو هريرة رضي الله عنه: وهيا الله له أروية^(٣) وحشية تأكل من خشاش الأرض^(٤) أو قال: هشاش الأرض - قال فتنفسخ^(٥) عليه فترويه من لبنيها كل عشية وبكرة حتى نبت وقال أمية بن أبي الصلت في ذلك بيتأ من شعره وهو: [الطوبل]

فَأَنْبَتَ يَقْطِينَا عَلَيْهِ بِرَحْمَةِ مِنَ اللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ أَلْقَى ضَاحِيَا^(٦)

وقد تقدم الحديث أبا هريرة رضي الله عنه مستندًا مرفوعًا في تفسير سورة الأنبياء، ولهذا قال تعالى: **«فَنَبَذَنَاهُ أَيَّ الْقِيَمَاهُ بِالْعَرَاءِ»** قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره وهي الأرض التي ليس بها نبت ولا بناء قيل على جانب دجلة وقيل بأرض اليمن فالله أعلم.

(١) أخرجه الترمذى في الدعوات باب ٨١، وأحمد في المسند ١ / ١٧٠ .

(٢) تفسير الطبرى ١٠ / ٥٣٠ .

(٣) الأروية: الشاة الجلية.

(٤) خشاش الأرض أهواها وحشراتها.

(٥) تنفسخ: أي تفرج ما بين رجلها.

(٦) البيت في تفسير الطبرى ١٠ / ٥٣٠ .

﴿وهو سقيم﴾ أي ضعيف البدن، قال ابن مسعود رضي الله عنه كهيئة الفرخ ليس عليه ريش، وقال السدي كهيئة الصبي حين يولد وهو المنفوس وقاله ابن عباس رضي الله عنهمَا وابن زيد أيضاً ﴿ وأنبتنا عليه شجرة من يقطين﴾ قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهمَا مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبیر و وهب بن منبه وهلال بن یساف و عبد الله بن طاوس والسدی و قتادة والضحاک و عطاء الخراسانی وغير واحد قالوا کلهم: اليقطین هو القرع. وقال هشیم عن القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبیر كل شجرة لا ساق لها فھی من اليقطین وفي روایة عنه کل شجرة تهلك من عامها فھی من اليقطین^(۱)، وذکر بعضهم في القرع فوائد منها سرعة نباته وتظلیل ورقه لکبره ونعومته وأنه لا يقربها الذباب وجودة تغذیة ثمره، وأنه يؤکل نیئاً ومطبوخاً بلبه وقشره أيضاً وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان یحب الدباء و يتبعه من نواحي الصحفة^(۲).

وقوله تعالى: ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ روى شهر بن حوشب عن ابن عباس رضي الله عنهمَا أنه قال: إنما كانت رسالة يونس عليه الصلاة والسلام بعد ما نبذه الحوت، رواه ابن جریر^(۳) حدثني الحارث حدثنا أبو هلال عن شهر به، وقال ابن أبي نجیح عن مجاهد أرسل إليهم قبل أن یلتقمم الحوت.

(قلت): ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولاً أمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت فصدقه کلهم وأمنوا به، وحكى البغوي أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت كانوا مائة ألف أو يزيدون وقوله تعالى: ﴿ أو يزيدون﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهمَا في روایة عنه: بل يزيدون وكانوا مائة وثلاثين ألفاً وعن مائة ألف وبضعة وثلاثين ألفاً وعن مائة ألف وبضعة وأربعين ألفاً والله أعلم، وقال سعيد بن جبیر يزيدون سبعين ألفاً.

وقال مکحول كانوا مائة ألف وعشرة آلاف رواه ابن أبي حاتم وقال ابن جریر^(۴) حدثنا محمد بن عبد الرحيم البرقي حدثنا عمرو بن أبي سلمة قال سمعت زهیراً يحدث عنمن سمع أبا العالية يقول حدثني أبي بن كعب رضي الله عنه أنه سأله رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ قال يزيدون عشرين ألفاً.

ورواه الترمذی عن علي بن حجر عن الولید بن مسلم عن زهیر عن رجل عن أبي العالية عن أبي بن كعب به وقال غریب. رواه ابن أبي حاتم من حديث زهیر به. قال ابن جریر^(۵): وكان

(۱) تفسیر الطبری ۵۳۰/۱۰.

(۲) أخرجه البخاری في الأطعمة باب ۴، ۲۵، ۳۵ - ۳۷، والترمذی في الأطعمة باب ۴۱، والدارمی في الأطعمة باب ۱۹، ومالك في النکاح حديث ۵۱.

(۳) تفسیر الطبری ۵۳۲/۱۰.

(۴) تفسیر الطبری ۵۳۲/۱۰.

(۵) تفسیر الطبری ۵۳۲/۱۰.

بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول في ذلك معناه إلى المائة ألف أو كانوا يزيدون عندكم، يقول كذلك كانوا عندكم ولها سلك ابن جرير هبنا ما سلكه عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسْتَ قُلُوبَكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحَجَارَةِ أَوْ أَشَدُ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] وقوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدُ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧] وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسِينَ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩] المراد ليس أنقص من ذلك بل أزيد وقوله تعالى: ﴿فَأَمْنَا﴾ أي فامن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس عليه السلام جميعهم ﴿فِمَتَعَنَّاهُمْ إِلَى حِينَ﴾ أي إلى وقت آجالهم قوله جلت عظمته ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسٌ لِمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَزِيرِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَعَنَّاهُمْ إِلَى حِينَ﴾ [يونس: ٩٨].

فَاسْتَفْتَهُمْ أَرْبَكَ الْبَيْتَ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١﴾ **أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَّا وَهُمْ شَهِدُونَ** ﴿٢﴾ **أَلَا**
إِنَّهُمْ مِنْ إِنْكَهُمْ لَيَقُولُونَ ﴿٣﴾ **وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَذِّبُونَ** ﴿٤﴾ **أَصْطَفَنَا الْبَيْتَ عَلَى الْبَيْنَيْنِ** ﴿٥﴾ **مَا لَكُمْ كَيْفَ**
تَحْكُمُونَ ﴿٦﴾ **أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** ﴿٧﴾ **أَمْ لَكُمْ سُلْطَنٌ مُّبِينٌ** ﴿٨﴾ **فَأَتُوا بِكِتَمْهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِينَ** ﴿٩﴾ **وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ**
الْجِنَّةِ سَبَبًا **وَلَقَدْ عِلِّمْتَ الْجِنَّةَ إِنَّهُمْ لَمُحَضَّرُونَ** ﴿١٠﴾ **سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴿١١﴾ **إِلَّا عِبَادُ اللَّهِ الْمُخَاصِّيْنَ** ﴿١٢﴾

يقول تعالى منكراً على هؤلاء المشركين في جعلهم الله تعالى البناء سبحانه ولهما ما يشهون أي من الذكور أي يودون لأنفسهم الجيد ﴿وَإِذَا بَشَرَ أَحَدَهُمْ بِالْأَنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسُودًا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨] أي يسوئه ذلك ولا يختار لنفسه إلا البنين، يقول عز وجل فكيف نسبوا إلى الله تعالى القسم الذي لا يختارونه لأنفسهم ولها قال تعالى: ﴿فَاسْتَفْتَهُمْ﴾ أي سلهم على سبيل الإنكار عليهم ﴿أَرْبَكَ الْبَيْتَ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ قوله عز وجل: ﴿أَلَّا ذَكْرٌ وَلَهُمْ

الأنثى تلك إِذَا قَسْمَةً ضَيْزِي﴾ [النجم: ٢١ - ٢٢].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَّا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ أي كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم قوله جل وعلا ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا أَشَهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسَأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩] أي يسألون عن ذلك يوم القيمة. قوله جلت عظمته: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِنْكَهُمْ﴾ أي من كذبهم ﴿لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ﴾ أي صدر منه الولد ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فذكر الله تعالى عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب، فأولاً جعلوهم بنات الله فجعلوا الله ولداً تعالى وقدس، وجعلوا ذلك الولد أنثى ثم عبدوهم من دون الله تعالى وتقديس وكل منها كاف في التخليل في نار جهنم.

ثم قال تعالى منكراً عليهم ﴿أَصْطَفَنَا الْبَيْتَ عَلَى الْبَيْنَيْنِ﴾ أي أي شيء يحمله على أن يختار البنات دون البنين قوله عز وجل: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رِبُّكُمْ بِالْبَيْنَيْنِ وَاتَّخَذُ مِنَ الْمَلَائِكَةَ إِنَّا وَهُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠] ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي ما لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي حجة على

ما تقولونه، ﴿فَأَتُوا بِكُتُبَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي هاتوا برهاناً على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب متزل من السماء عن الله تعالى أنه اتخذ ما تقولونه فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل بل لا يجوزه العقل بالكلية. و قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا﴾ قال مجاهد: قال المشركون الملائكة بنات الله تعالى فقال أبو بكر رضي الله عنه فمن أمهاتهن، قالوا بنات سروات الجن وكذا قال قتادة وابن زيد ولهاذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتَ الْجَنَّةَ﴾ أي الذين نسبوا إليهم ذلك ﴿إِنَّهُمْ لَمُحَضِّرُونَ﴾ أي إن الذين قالوا ذلك لمحضرهم في العذاب يوم الحساب لكتبهم في ذلك وافتائهم وقولهم الباطل بلا علم، وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا﴾ قال زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإيليس أخوان تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، حكاها ابن جرير^(١).

وقوله جلت عظمته: ﴿سَبَّحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصْفُونَ﴾ أي تعالى وتقديس وتنزه عن أن يكون له ولد وعما يصفه به الظالمون الملحدون علواً كبيراً. قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادُ اللَّهِ الْمُخْلَصُونَ﴾ استثناء منقطع وهو من مثبت إلا أن يكون الضمير في قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَصْفُونَ﴾ عائد إلى الناس جميعهم ثم استثنى منهم المخلصين وهم المتبعون للحق المتزل على كلنبي مرسل، وجعل ابن جرير هذا الاستثناء من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحَضِّرُونَ إِلَّا عِبَادُ اللَّهِ الْمُخْلَصُونَ﴾ وفي هذا الذي قاله نظر^(٢) والله سبحانه وتعالى أعلم.

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١﴾ مَا أَسْأَمُ عَلَيْهِ يَقْتَنِينَ ﴿٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿٣﴾ وَمَا مَنَّا إِلَّا لَهُ مَقْامٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْصَّافُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمَسِيحُونَ ﴿٦﴾ فَوَانِ كَانُوا لِيَقُولُونَ ﴿٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِرْكَ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ كَذَّابُ عِبَادُ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى مخاطباً للمشركيـن: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ أي إنما ينقاد لمقاتلكم وما أنتم عليه من الضلالـة والعبادة الباطلة من هو أضل منكم ممن ذريـء للنـار^(٣) ﴿لَهُمْ قلوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يَبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أَوْلَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧] فهذا الضرب من الناس هو الذي ينـقاد لـدين الشرـك والـكفر والـضلالـة كما قال تبارك وتعالـى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ يَوْمَكُمْ عَنْهُ مِنْ أُفْلِكَ﴾ [الذاريات: ٨-٩] أي إنـما يـضلـ بهـ منـ هوـ مـأـفـوكـ وـمـبـطـلـ، ثمـ قالـ تـبارـكـ وـتعـالـى مـنـزـلـهـاـ لـلـملـائـكـةـ مـاـ نـسـبـواـ إـلـيـهـمـ مـاـ الـكـفـرـ بـهـمـ وـالـكـذـبـ عـلـيـهـمـ أـنـهـمـ بـنـاتـ اللهـ ﴿وـمـاـ مـنـاـ إـلـاـ لـهـ مـقـامـ مـعـلـومـ﴾ أيـ لـهـ مـوـضـعـ مـخـصـوصـ فـيـ السـمـوـاتـ وـمـقـامـاتـ الـعـبـادـاتـ

(١) تفسير الطبرـي ٥٣٥/١٠.

(٢) تفسير الطبرـي ٥٣٦/١٠.

(٣) ذريـء للـنـارـ: أي خـلـقـ لـلـنـارـ.

لا يتجاوزه ولا يتعداه.

وقال ابن عساكر في ترجمته لمحمد بن خالد بستنه إلى عبد الرحمن بن العلاء بن سعد عن أبيه وكان منمن بايع يوم الفتح أن رسول الله ﷺ قال يوماً لجلسائه: «أطّت^(١) السماء وحق لها أن تتط لفها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد»^(٢) ثم قرأ ﷺ «وإننا لنحن الصافون وإننا لنحن المسبحون»^(٣) وقال الضحاك في تفسيره «وما من إله مقام معلوم» قال كان مسروق يروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم» فذلك قوله تعالى: «وما من إله مقام معلوم»^(٤).

وقال الأعمش عن أبي إسحاق عن مسروق عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن في السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا عليه جبهة ملك أو قدماه ثم قرأ عبد الله رضي الله عنه «وما من إله مقام معلوم» وكذا قال سعيد بن جبير وقال قنادة كانوا يصلون الرجال والنساء جميعاً حتى نزلت «وما من إله مقام معلوم» فتقدمن الرجال وتأخر النساء «وإننا لنحن الصافون» أي نقف صافوفاً في الطاعة كما تقدم عند قوله تبارك وتعالى: «والصافات صفاً» [الصفات: ١] قال ابن جرير عن الوليد بن عبد الله بن أبي مغيث قال كانوا لا يصفون في الصلاة حتى نزل «وإننا لنحن الصافون» فصفوا وقال أبو نصرة كان عمر رضي الله عنه إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ثم قال: أقيموا صافوفكم استتووا قياماً يريد الله تعالى بكم هدى الملائكة ثم يقول «وإننا لنحن الصافون» تأخر يا فلان تقدم يا فلان ثم يتقدم فيكبر . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير^(٤).

وفي صحيح مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجداً، وترتبها طهوراً»^(٥) الحديث «وإننا لنحن المسبحون» أي نصطف فنسبح رب ونمجده ونقدسه وننزعه عن الناقص فنحن عبيد له فقراء إليه خاضعون لديه . وقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد «وما من إله مقام معلوم» الملائكة «وإننا لنحن الصافون» الملائكة «وإننا لنحن المسبحون» الملائكة تسبح الله عز وجل .

وقال قنادة «وإننا لنحن المسبحون» يعني المصليون يثبتون بمكانتهم من العبادة كما قال تبارك وتعالى: «وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم

(١) الأطيط: هو صوت الرجل، وأطيط الإبل: أصواتها وحبينها.

(٢) أخرجه الترمذى في الزهد باب ٩، وابن ماجه في الزهد باب ١٩ ، وأحمد في المستند ٥/١٧٣ .

(٣) تفسير الطبرى ١٠/٥٣٨ .

(٤) تفسير الطبرى ١٠/٥٣٩ .

(٥) أخرجه مسلم في المساجد حديث ٤ ، وأحمد في المستند ٥/٣٨٣ .

بأمره يعلمون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين» [الأنبياء: ٢٦ - ٢٩] قوله جل وعلا: «وَإِنْ كَانُوا لِيَقُولُونَ لَوْ أَنْ عَدَنَا ذَكْرًا مِّنَ الْأُولَئِنَّ لَكُنَا عِبَادُ اللَّهِ أَمْلَاَنِّيْنَ» أي قد كانوا يتمنون قبل أن تأتיהם يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله وما كان من أمر القرون الأولى ويأتيهم بكتاب الله كما قال جل جلاله «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِيَكُونَنَّ أَهْدِيًّا مِّنْ إِحْدَى الْأَمْمَ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا» [فاطر: ٤٢] وقال تعالى: «أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كَانَ عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِيْنَ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ لَكُنَا أَهْدِيًّا مِّنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُمْ رِبُّكُمْ وَهُدِيٌّ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِنْ كَذِبِ بَيَّنَاتِ اللَّهِ وَصَدْفُ عَنْهَا سَنْجَزِيُّ الدِّينِ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سَوْءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ» [الأنعام: ١٥٦ - ١٥٧] ولهذا قال تعالى هاهنا: «فَكَفَرُوا بِهِ فَسُوفَ يَعْلَمُونَ» [١] وعيد أكيد وتهديد شديد على كفرهم بربهم عز وجل وتکذیبهم رسوله ﷺ.

وَلَقَدْ سَبَقْتُ كَلْمَنَا لِعِبَادَنَا الْمَرْسَلِيْنَ [١] إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُوْنَ [٢] وَلَنَ حَدَّدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُوْنَ [٣] فَتُولَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ [٤] وَأَبْصِرُهُمْ فَسَوْفَ يُبَصِّرُوْنَ [٥] أَفَيُعَذِّبُنَا يَسْتَعْجِلُوْنَ [٦] فَإِذَا نَزَّلَ إِسْحَاقٌ [٧] سَأَءَهُ صَبَّاغُ الْمُنْذَرِيْنَ [٨] وَتُولَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ [٩] وَأَبْصِرُهُمْ فَسَوْفَ يُبَصِّرُوْنَ [١٠]

يقول تبارك وتعالى: «ولقد سبقت كلمنا لعبادنا المرسلين» أي تقدم في الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: «كَتَبَ اللَّهُ لِأَغْلَبِنَا أَنَا وَرَسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ» [المجادلة: ٢١] وقال عز وجل: «إِنَّا لِنَنْصُرِ رَسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ» [غافر: ٥١] ولهذا قال جل جلاله: «ولقد سبقت كلمنا لعبادنا المرسلين إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُوْنَ» أي في الدنيا والآخرة كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم من كذبهم وخالفهم وكيف أهلك الله الكافرين ونجى عباده المؤمنين «وَلَنَ حَدَّدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُوْنَ» أي تكون لهم العاقبة. قوله جل وعلا: «فَتُولَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ» أي اصبر على أذاهم لك وانتظر إلى وقت مؤجل فإنما سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر، ولهذا قال بعضهم غالباً^(١) ذلك إلى يوم بدر وما بعدها أيضاً في معناها.

وقوله جلت عظمته «وَأَبْصِرُهُمْ فَسَوْفَ يُبَصِّرُوْنَ» أي أنظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال بمخالفتك وتکذبتك ولهذا قال تعالى على وجه التهديد والوعيد «فَسَوْفَ يُبَصِّرُوْنَ» ثم قال عز وجل: «أَفَبَعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُوْنَ» أي هم إنما يستعجلون العذاب لتکذبهم وكفرهم بك فإن الله تعالى يغضب عليهم بذلك ويعجل لهم العقوبة ومع هذا أيضاً كانوا من كفرهم وعندادهم يستعجلون العذاب والعقوبة. قال الله تبارك وتعالى: «فَإِذَا نَزَّلَ بِسَاحِطِهِمْ

(١) غالباً ذلك إلى يوم بدر: أي جعل يوم بدر غاية لذلك.

فساء صباح المندرين» أي فإذا نزل العذاب بمحلتهم فبئس ذلك اليوم يومهم بإهلاكهم ودمارهم ، وقال السدي «إذا نزل بساحتهم» يعني بدارهم «فساء صباح المندرين» أي فبئس ما يصيرون أي بئس الصباح صباهم . ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث إسماعيل ابن عليه عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس رضي الله عنه قال: صبح رسول الله ﷺ خير فلما خرجوا بفؤوسهم ومساهمهم ورأوا الجيش رجعوا وهم يقولون: محمد والله محمد والخمسين فقال النبي ﷺ: «الله أكبر خربت خير إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المندرين»^(١) ورواه البخاري من حديث مالك عن حميد عن أنس رضي الله عنه .

وقال الإمام أحمد^(٢) حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس بن مالك عن أبي طلحة رضي الله عنه قال: لما صبح رسول الله ﷺ خير وقد أخذوا مسامحهم وغدوا إلى حروفهم وأررضهم ، فلما رأوا النبي ﷺ نكسوا مدربين فقال النبي ﷺ: «الله أكبر الله أكبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المندرين» لم يخرجوا من هذه الوجه وهو صحيح على شرط الشيفيين ، وقوله تعالى: «وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يتصرون» تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك والله سبحانه وتعالى أعلم .

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصْفُونَ ﴿١﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿٢﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣﴾

ينزه تبارك وتعالى نفسه وبقدسها وبيرئها عما يقول الظالمون المكذبون المعتدون تعالى وتنزه وتقديس عن قولهم علواً كباراً ولهذا قال تبارك وتعالى: «سبحان رب العزة» أي ذي العزة التي لا ترام «عما يصفون» أي عن قول هؤلاء المعتدين المفترين «سلام على المرسلين» أي سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة لسلامة ما قالوه في ربهم وصحته وحقيقةه «والحمد لله رب العالمين» أي له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال ، ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة ويستلزم إثبات الكمال كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة ويستلزم التنزيه من النقص قرن بينهما في هذا الموضع وفي مواضع كثيرة من القرآن ولهذا قال تبارك وتعالى: «سبحان رب العزة عما يصفون سلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين» ، وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سلمتم عليٍّ فسلموا على المرسلين فإنما أنا رسول من المرسلين». هكذا

(١) أخرجه البخاري في الصلاة باب ١٢ ، والأذان باب ٦ ، وصلاة الخوف باب ٦ ، والجهاد باب ١٣٠ ، والمناقب باب ٢٨ ، والمغازي باب ٣٨ ، ومسلم في الجهاد حديث ١٢٠ ، ١٢١ ، والترمذى في السير باب ٣ ، والنمسائى في المواقف باب ٢٦ ، والنكاح باب ٧٩ ، والصيد باب ٧٨ ، وممالك في الجهاد حديث ٤٨ ، وأحمد في المسند ١٠٢/٣ ، ١١١ ، ١٦٤ ، ١٨٦ ، ٢٠٦ ، ٢٤٦ ، ٢٦٣ .

(٢) المسند ٢٨/٤ .

رواه ابن جرير^(١) وابن أبي حاتم من حديث سعيد عنه كذلك

وقد أسنده ابن أبي حاتم رحمة الله فقال حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد حدثنا أبو بكر الأعين ومحمد بن عبد الرحيم صاعقة قالا : حدثنا حسين بن محمد حدثنا شيبان عن قتادة قال حدثنا أنس بن مالك عن أبي طلحة رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا سلمت على فسلموا على المرسلين» وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا محمد بن أبي بكر حدثنا نوح حدثنا أبو هارون عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا أراد أن يسلم قال : «سبحان رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين» ثم يسلم، إسناده ضعيف.

وقال ابن أبي حاتم حدثنا عمارة بن خالد الواسطي حدثنا شابة عن يونس بن أبي إسحاق عن الشعبي قال : قال رسول الله ﷺ : «من سره أن يكتال بالمكيال الأولى من الأجر يوم القيمة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم **﴿سبحان رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين﴾** . وروي من وجه آخر متصل موقوف على علي رضي الله عنه قال أبو محمد البغوي في تفسيره : أخبرنا أبو سعيد لأحمد بن إبراهيم الشريحي أخبرنا أبو إسحاق الشعبي أخبرني ابن فنجويه حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان حدثنا إبراهيم بن سهلويه حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا وكيع عن ثابت بن أبي صفية عن الأصبغ بن نباتة عن علي رضي الله عنه قال : من أحب أن يكتال بالمكيال الأولى من الأجر يوم القيمة فليكن آخر كلامه في مجلسه **﴿سبحان رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين﴾** .

وروى الطبراني من طريق عبد الله بن صخر بن أنس عن عبد الله بن زيد بن أرقم عن أبيه عن رسول الله ﷺ : أنه قال «من قال دبر كل صلاة **﴿سبحان رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين﴾** ثلاط مرات فقد اكتال بالجريب^(٢) الأولى من الأجر»^(٣) وقد وردت أحاديث في كفارة المجلس : **سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك** . وقد أفردت لها جزءاً على حدة والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) تفسير الطبراني ١٠ / ٥٤٣.

(٢) المكيال : مكيال.

(٣) الحديث في الدر المنثور ٥ / ٥٥٤.

بلغظ : «فقد اكتال بالمكيال الأولى من الأجر».

سورة ص

وهي مكية

سْمَاءُ اللَّهِ الْأَنْعَمُ الْحَمْدُ لِلَّهِ

صٌ وَالثُّرَءَانِ ذِي الذِّكْرِ ۝ بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عَزَّةٍ وَشَقَاقٍ ۝ كَمْ أَهْلَكَنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ
مَنَاصٍ ۝

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغني عن إعادته هنا .
وقوله تعالى : «والقرآن ذي الذكر» أي القرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد ونفع لهم في
المعاش والمعاد قال الصحاح في قوله تعالى : «ذى الذكر» قوله تعالى : «لقد أزلنا إليكم
كتاباً فيه ذكركم» أي تذكيركم وكذا قال قتادة و اختاره ابن جرير^(١) . وقال ابن عباس رضي الله
عنهم و سعيد بن جبير وإسماعيل بن أبي خالد و ابن عيينة وأبو حصين وأبو صالح والسدي
«ذى الذكر» ذي الشرف أي ذى الشأن والمكانة ، ولا منافاة بين القولين فإنه كتاب شريف
مشتمل على التذكير والإذار والإندار و اختلفوا في جواب هذا القسم فقال بعضهم هو قوله
تعالى : «إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب» [ص : ١٤] وقيل قوله تعالى : «إن ذلك لحق
تخاصم أهل النار» [ص : ٦٤] حكاهما ابن جرير^(٢) وهذا الثاني فيه بعد كثير وضعفه ابن
جرير ، وقال قتادة جوابه «بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عَزَّةٍ وَشَقَاقٍ» و اختاره ابن جرير وقيل : جوابه ما
تضمنه سياق السورة بكمالها والله أعلم وقال قتادة جوابه «بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عَزَّةٍ وَشَقَاقٍ»
و اختاره ابن جرير ثم حكى ابن جرير^(٣) عن بعض أهل العربية أنه قال جوابه جعلها «ص»
بمعنى صدق حق «والقرآن ذي الذكر» .

وقوله : «بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عَزَّةٍ وَشَقَاقٍ» أي : إن هذا القرآن لذكرًا لمن يتذكرة . وعبرة
لمن يعتبر وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم من عزة أي استكبار عنه و حمية «شقاقي» أي
ومخالفة له ومعاندة و مفارقة ، ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم
للرسل وتکذيبهم الكتب المنزلة من السماء ، فقال تعالى : «كَمْ أَهْلَكَنَا مِنْ قَرْنٍ» أي
من أمة مكذبة «فَنَادَوْا» أي حين جاءهم العذاب استغاثوا وجاروا إلى الله تعالى وليس ذلك
بمجد عنهم شيئاً كما قال عز وجل : «فَلِمَا أَحْسَوْا بِأَسْنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكَبُونَ» أي يهربون
«لَا تَرْكَضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أَتَرْفَتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنَكُمْ لَعْلَكُمْ تَسْأَلُونَ» [الأنياء : ١٢ - ١٣] قال أبو
داود الطيالسي حدثنا شعبة عن أبي إسحاق عن التميمي قال : سألت ابن عباس رضي الله عنهما

(١) تفسير الطبرى ٥٤٦/١٠

(٢) تفسير الطبرى ٥٤٦/١٠

(٣) تفسير الطبرى ٥٤٧/١٠

عن قول الله تبارك وتعالى: «فَنادُوا وَلَاتْ حِينَ مَنَاصٍ» قال ليس بحين نداء ولا نزو ولا فرار . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهم ليس بحين مغاث وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس نادوا النداء حين لا ينفعهم وأنسد:

تذكّر ليلى لات حين تذكّر

وقال محمد بن كعب في قوله تعالى: «فَنادُوا وَلَاتْ حِينَ مَنَاصٍ» يقول نادوا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم ، واستناصوا للتوبة حين تولت الدنيا عنهم^(١) ، وقال قتادة لما رأوا العذاب أرادوا التوبة في غير حين النداء .

وقال مجاهد «فَنادُوا وَلَاتْ حِينَ مَنَاصٍ» ليس بحين فرار ولا إجابة وقد روی نحو هذا عن عكرمة وسعيد بن جبیر وأبی مالک والضحاک وزید بن أسلم والحسن وقتادة ، وعن مالک عن زید بن أسلم «وَلَاتْ حِينَ مَنَاصٍ» ولا نداء في غير حين النداء ، وهذه الكلمة وهي لات هي لا التي للنبي زیدت معها التاء كما تزاد في ثم فيقولون ثمت ورب فيقولون رب و هي مفصولة والوقف عليها ، ومنهم من حکى عن المصحف الإمام فيما ذکرہ ابن جریر أنها متصلة بحین ولا تحین مناص والمشهور الأول ثم قرأ الجمهور بنصب حین تقديره وليس الحین حين مناص ومنهم من جوز النصب بها ، وأنشد: [الوافر]

تذكّر حُبَّ ليلى لات حيناً وأضحى الشیبُ قد قطع القریناً^(٢)

ومنهم من جوز الجر بها وأنشد: [الخفيف]

طلبـوا صلحـنا وـلاتـ أـوانـ فـأـجـبـنـا أـنـ لـيـسـ حـيـنـ بـقـاءـ^(٣)
وأنشد بعضهم أيضاً: [الطولیل]

ولاتـ سـاعـةـ منـ دـمـ^(٤)

(١) الدر المتنور ٥/٥٥٧، بلفظ: نادوا بالتوحيد والعقارب حين مضت الدنيا عنهم ، فاستناصوا التوبة حين زالت الدنيا عنهم .

(٢) البيت لعمرو بن شأس في ديوانه ص ٧٣ ، وتنزكرة النحاة ص ٧٣٤ ، وبلا نسبة في خزانة الأدب ١٦٩/٤ ، ١٧٨ ، والدرر ٢/١٢١ ، وهمع الهوامع ١/١٢٦ ، وتفسیر الطبری ١٠/٥٤٩ .

(٣) البيت لأبی زید الطائی في دیوانه ص ٣٠ ، والإنصاف ص ١٠٩ ، وتخليص الشواهد ص ٢٩٥ ، وتنزكرة النحاة ص ٧٣٤ ، وخزانة الأدب ٤/١٨٣ ، والدرر ٢/١١٩ ، ١٨٥ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٨٣/٤ ، وشرح شواهد المغني ص ٦٤٠ ، ٩٦٠ ، والمقاصد النحوية ٢/١٥٦ ، وبلا نسبة في جواهر الأدب ص ٢٤٩ ، وخزانة الأدب ٤/١٦٩ ، ٥٣٩/٦ ، ٥٤٥ ، والخصائص ٢/٣٧٠ ، ووصف المباني ص ١٦٩ ، ٢٦٢ ، وسر صناعة الإعراب ص ٥٠٩ ، وشرح الأشموني ١/١٢٦ ، وشرح المفصل ٩/٣٢ ، ولسان العرب (أون)، (لا) لات ، ومغني اللبيب ص ٢٥٥ ، وهمع الهوامع ١/١٢٦ ، وتفسیر الطبری ١٠/٥٤٩ .

(٤) تمامه:

بخفض الساعة وأهل اللغة يقولون النوص التأخر والبوص التقدم، ولهذا قال تبارك وتعالى: «ولات حين مناص» أي ليس الحين حين فرار ولا ذهاب والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب.

وَعِجَّلُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ۝ أَجْعَلَ الْآلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ۝ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ إِلَهِكُمْ إِنْ هَذَا شَيْءٌ يُرَادُ ۝ مَا سَعَانَا بِهَذَا فِي الْيَلَةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا أَخْلَاقُ ۝ أَئْنَزِلَ عَلَيْهِ الْكِتَمُ مِنْ بَيْنَ أَيْمَانِهِ ۝ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذَكْرِي كُلَّ لَمَّا يَنْدُو قُوَّاتِي عَذَابٌ ۝ إِنَّمَا عِنْدَهُمْ حَزَابٌ رَّحْمَةٌ رَّبِّكَ الْعَزِيزُ الْوَهَابٌ ۝ أَمْ لَهُمْ مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلَيَرَهُوْنَ فِي الْأَسْبَابِ ۝ جَنِيدًا مَا هَنَالِكَ مَهْرُومٌ مِّنَ الْأَخْرَابِ ۝

ينول تعالى مخبراً عن المشركين في تعجبهم من بعثة رسول الله ﷺ بشيراً ونذيراً كما قال عز وجل: «أكان للناس عجباً أن أوحيانا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين» [يونس: ٢] وقال جل وعلا ههنا: «وعجبوا أن جاءهم منذر منهم» أي بشر مثلهم وقال الكافرون «هذا ساحر كذاب أجعل الآلة إلهاً واحداً» أي أزعم أن المعبد واحد لا إله إلا هو؟ أنكر المشركون ذلك قبحهم الله تعالى وتعجبوا من ترك الشرك بالله فإنهم كانوا قد تلقوا عن أبيائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم وإفراد الإله بالوحدانية أعظموه بذلك وتعجبوا وقالوا «أجعل الآلة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجب وانطلق الملايين» وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبارؤهم قائلين «امشووا» أي استمروا على دينكم «واصبروا على الْهَتْكِمْ» ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد، وقوله تعالى: «إن هذا لشيء يراد» قال ابن جرير^(١) إن هذا الذي يدعونا إليه محمد ﷺ من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء وأن يكون له منكم أتباع ولسنا نجيئه إليه.

[ذكر سبب نزول هذه الآيات الكريمة]

قال السدي إن ناساً من قريش اجتمعوا فيهم أبو جهل بن هشام وال العاص بن وائل والأسود بن المطلب والأسود بن عبد يغوث في نفر من مشيخة قريش فقال بعضهم لبعض

فَلَمَّا عَلِمْتُ أَنِّي قُدْمَلْتَهُ نَدَمْتُ عَلَيْهِ لَاتْ سَاعَةً مِنْدَمْ
والبيت بلا نسبة في تذكرة النحاة ص ٧٣٤، ورصف المباني ص ٢٦٣، وخزانة الأدب ١٦٩، ١٦٨/٤، ١٧٤، ١٨٧، وتنفس الطبرى ١٠/٥٤٩.
(١) تفسير الطبرى ١٠/٥٥٢.

انطلقو بنا إلى أبي طالب فلنكلمه فيه فلينصفنا منه فليكف عن شتم آهتنا وندعه وإلهه الذي يعبده فإنما نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا إليه شيء فتعيرنا به العرب يقولون ترکوه حتى إذا مات عنه تناولوه فبعثوا رجالاً منهم يقال له المطلب فاستأذن لهم علي بن أبي طالب فقال هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم يستأذنون عليك قال أدخلهم فلما دخلوا عليه قالوا يا أبو طالب أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من ابن أخيك فمره فليكف عن شتم آهتنا وندعه وإلهه، قال فبعث إليه أبو طالب فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال: يا ابن أخي هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم وقد سألوك أن تكف عن شتم آهتهم ويدعوك وإلهك قال ﷺ: يا عم ألا أدعوهم إلى ما هو خير لهم» قال وإنما تدعوه؟ قال ﷺ «أدعوه أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم» فقال أبو جهل لعن الله من بين القوم ما هي وأبيك لتعطينكها وعشراً أمثالها قال ﷺ: «تقولون لا إله إلا الله» فنفروا وقالوا سلنا غيرها قال ﷺ: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألكم غيرها» فقاموا من عنده غضباً وقالوا والله لنشتكم وإلهك الذي أمرك بهذا وانطلق الملايين منهم أن امشوا واصبروا على آهتكم إن هذا لشيء يراد» ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وزاد فلما خرجوا دعا رسول الله ﷺ عمه إلى قوله لا إله إلا الله فأبى وقال بل على دين الأشياخ ونزلت **﴿إِنَّكُمْ لَا تَهْدِي مِنْ أَحْبَبْتُمْ﴾** [القصص: ٥٦].

قال أبو جعفر بن جرير^(١) حدثنا أبو كريب وابن وكيع قالا حدثنا أبوأسامة حدثنا الأعمش حدثنا عباد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آهتنا ويفعل ويفعل ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيه فبعث إليه فجاء النبي ﷺ فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل قال فخشى أبو جهل لعن الله إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق له عليه فوثب مجلس في ذلك المجلس ولم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه فجلس عند الباب فقال له أبو طالب أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك ويزعمون أنك تشم آهتهم وتقول وتنقول؟ قال وأكثروا عليه من القول وتكلم رسول الله ﷺ فقال: «يا عم إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العجم الجزية» ففرعوا لكلمته ولقوله فقال القوم كلمة واحدة نعم وأبيك عشرة فقالوا وما هي؟ وقال أبو طالب وأي كلمة هي يا ابن أخي؟ قال ﷺ «لا إله إلا الله» فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون: **﴿أَجْعَلُ الْأَلَّهَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّهَا لِشَيْءٍ عَجَابٌ﴾** قال ونزلت من هذا الموضع إلى قوله **﴿بَلْ لَمَ يَذُوقُوا عَذَابًا﴾** لفظ أبي كريب.

وهكذا رواه الإمام أحمد^(١) والنسائي من حديث محمد بن عبد الله بن نمير كلاهما عن أبيأسامة عن الأعمش عن عباد غير منسوب به نحوه، ورواه الترمذى والنسائى وابن أبي حاتم وابن جرير أيضاً كلهم في تفاسيرهم من حديث سفيان الثورى عن الأعمش عن يحيى بن عمارة الكوفى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهم فذكر نحوه. وقال الترمذى حسن. قولهما ﴿مَا سمعنا بهذا في الملة الآخرة﴾ أي ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد في الملة الآخرة.

قال مجاهد وقتادة وأبو زيد يعنون دين قريش وقال غيرهم يعنون النصرانية قاله محمد بن كعب والسدي. وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهم ﴿مَا سمعنا بهذا في الملة الآخرة﴾ يعني النصرانية قالوا لو كان هذا القرآن حقاً لأخبرنا به النصارى ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ قال مجاهد وقتادة كذب وقال ابن عباس تخرص. قولهما ﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ الْذِكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ يعني أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم كما قال في الآية الأخرى : ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ﴾ قال الله تعالى : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكُمْ؟﴾ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾ [الزخرف: ٣٢ - ٣١] ولهذا لما قالوا هذا الذي دلّ على جهلهم وقلة عقولهم في استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم .

قال الله تعالى : ﴿بَلْ لَمَا يَذُوقُوا عَذَابًا﴾ أي إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذاب الله تعالى ونقمته سيعلمون غب ما قالوا وما كذبوا به يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً. ثم قال تعالى مبيناً أنه المتصرف في ملكه الفعال لما يشاء الذي يعطي من يشاء ما يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء وبهدي من يشاء فلا يهديه أحد من بعد الله ، وإن العباد لا يملكون شيئاً يشاء من عباده ويختتم على قلب من يشاء فلاما يهديه أحد من بعد الله ، وإن العباد لا يملكون شيئاً من الأمر وليس إليهم من التصرف في الملك ولا مثقال ذرة وما يملكون من قطمير .

ولهذا قال تعالى منكراً عليهم ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَانَاتٌ رَحْمَةُ رَبِّكَ الْعَزِيزُ الْوَهَابُ﴾ أي العزيز الذي لا يرام جنابه الوهاب الذي يعطي ما يريد لمن يريده ، وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ إِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسُ نَقِيرًا أَمْ يَحْسَدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا أَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ أَتَيْنَا أَلَّا إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مَلْكًا عَظِيمًا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٣ - ٥٥] وقوله تعالى : ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلَكُوْنَ خَزَانَاتَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَمْ سَكَنْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] وذلك بعد الحكاية عن الكفار أنهم أنكروا بعثة الرسول البشري ﷺ وكما أخبر عز وجل عن قوم

صالح عليه السلام حين قالوا ﴿أَلَقَيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا، بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشَرُّ؟ * سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْأَشَرِ﴾ [القمر: ٢٥ - ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلَيَرْتَفُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ أي إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب. قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاحد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم يعني طرق السماء، وقال الضحاك رحمه الله تعالى فليصعدوا إلى السماء السابعة.

ثم قال عز وجل: ﴿جَنَدٌ مَا هَنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي هؤلاء الجناد المكذبون الذين هم في عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويكتبون كما كتب الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين وهذه الآية كقوله جلت عظمته: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ سَيَهْزِمُ الْجَمْعَ وَيُبَلُّونَ الدُّبُرِ﴾ كان ذلك يوم بدر ﴿بَلِ السَّاعَةِ مُوعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمْرٌ﴾ [القمر: ٤٤ - ٤٦].

كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ بُوْجٌ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ۖ وَثَمُودٌ وَقَوْمٌ لُوطٌ وَأَصَحَّبُ لَئِنْكَةٍ أُولَئِكَ الْأَحْرَابُ ۖ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرَّسُولُ فَحَقَّ عِقَابٌ ۖ وَمَا يَنْظُرُ هُؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ۖ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِلْ لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ۖ أَصِيرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال والنعمات في مخالفة الرسل وتكميل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقد تقدمت قصصهم مبسوطة في أماكن متعددة وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابِ﴾ أي كانوا أكثر منكم وأشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فما دفع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربكم ولهذا قال عز وجل: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرَّسُولُ فَحَقَّ عِقَابٌ﴾ فجعل علة إهلاكم هو تكميلهم بالرسول فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هُؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ قال مالك عن زيد بن أسلم: أي ليس لها مثنوية^(١) أي ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها أي فقد اقتربت ودنت وأزفت وهذه الصيحة هي نفخة الفرع التي يأمر الله تعالى إسرافيل أن يطولها فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فرع إلا من استثنى الله عز وجل.

وقوله جل جلاله: ﴿وَقَالُوا رَبُّنَا عَجِلْ لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ هذا إنكار من الله تعالى على المشركين في دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب فإن القبط هو الكتاب وقيل هو الحظ والنصيب. قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاحد والضحاك والحسن وغير واحد سألوا تعجيل العذاب، زاد قتادة كما قالوا ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عَنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً

(١) ليس لها مثنوية: أي ليس لها استثناء ولا رد.

من السماء أو اتتنا بعذاب أليم》 [الأنفال: ٣٢] وقيل سألاوا تعجيل نصيبيهم من الجنة إن كانت موجودة ليلقوا ذاك في الدنيا وإنما خرج هذا منهم مخرج الاستبعاد والتکذيب. وقال ابن جرير^(١) سألاوا تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر في الدنيا وهذا الذي قاله جيد وعليه يدور كلام الضحاك وإسماعيل بن أبي خالد والله أعلم. ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد. قال الله تعالى لرسوله ﷺ أمراً له بالصبر على أذاهم وبشرأ له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر.

وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاؤِدَّا الْأَيْدِيْهُ أَوَّلَّهُ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجَبَالَ مَعْهُ يَسْبِحُونَ بِالْعَشَيْ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالْطَّيْرَ تَحْشُوَهُ
كُلُّهُ أَوَّلَّهُ ﴿١٩﴾ وَشَدَّدْنَا مَلْكُهُ وَأَيْتَنَّهُ الْحِكْمَهُ وَفَصَلَ الْنِّطَابِ ﴿٢٠﴾

يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام أنه كان ذا أيد والأيد القوة في العلم والعمل. قال ابن عباس رضي الله عنهم والستي وابن زيد، الأيد القوة، وقرأ ابن زيد «والسماء بنيتها بأيد وإنما موسعون» [الذاريات: ٤٧] وقال مجاهد الأيد القوة في الطاعة. وقال قتادة أعطي داود عليه الصلاة والسلام قوة في العبادة وفقها في الإسلام، وقد ذكر لنا أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم ثلث الليل ويصوم نصف الدهر، وهذا ثابت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال «أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وبينما سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفتر إذا لاقى وأنه كان أواباً»^(٢) وهو الرجاع إلى الله عز وجل في جميع أموره وشؤونه.

وقوله تعالى: «إنا سخرنا العجائب معه يسبحن بالعشري والإشراق» أي أنه تعالى سخر العجائب تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار كما قال عز وجل: «يا جبال أوبني معه والطير» [سبأ: ١٠] وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه وترجع بتوجيهه إذا مر به الطير وهو سابع في الهواء فسمعه وهو يتربّع بقراءة الزبور لا يستطيع الذهب بل يقف في الهواء ويسبح معه وتوجيهه العجائب الشامخات ترجع معه وتسبح تبعاً له.

قال ابن جرير^(٣) حدثنا أبو كريب حدثنا محمد بن بشر عن مسعود عن عبد الكريم عن موسى بن أبي كثير عن ابن عباس رضي الله عنهم أنم بلغه أن أم هانىء رضي الله عنها ذكرت أن رسول الله ﷺ يوم فتح مكة صلى الضحى ثمان ركعات فقال ابن عباس رضي الله عنهم قد

(١) تفسير الطبرى ١٠/٥٥٩ - ٥٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء باب ٣٨، والتهجد باب ٧، ومسلم في الصيام حديث ١٨٨، ١٨٩، ٢٠١، وأبو داود في الصوم باب ٦٦، والنسانى في الصوم باب ٦٩، وابن ماجه في الصيام باب ٣١، والدارمي في الصوم باب ٤٢، وأحمد في المسند ٢/١٦٠، ٢٠٦.

(٣) تفسير الطبرى ١٠/٥٦٢.

ظننت أن لهذه الساعة صلاة يقول عز وجل: ﴿يسبحن بالعشى والإشراق﴾ ثم رواه من حديث سعيد بن أبي عروبة عن أبي الم توكل عن أيوب بن صفوان عن مولاه عبد الله بن الحارث بن نوقل أن ابن عباس رضي الله عنهما كان لا يصلي الضحى فأدخلته على أم هانىء رضي الله عنها فقلت أخبرني هذا ما أخبرتني به فقالت: دخل علي رسول الله ﷺ يوم الفتح في بيتي ثم أمر بماء صب في قصعة ثم أمر بثوب فأخذ بيدي وبينه فاغتسل ثم رش ناحية البيت فصلى ثمان ركعات وذلك من الضحى قيامهن وركوعهن وسجودهن وجلوسهن سواء قريب بعضهن من بعض فخرج ابن عباس رضي الله عنهما وهو يقول: لقد قرأت ما بين اللوحين ما عرفت صلاة الضحى إلا الآن ﴿يسبحن بالعشى والإشراق﴾ وكنت أقول أين صلاة الإشراق وكان بعد يقول صلاة الإشراق ولها قال عز وجل: ﴿والطير محشورة﴾ أي محبوسة في الهواء ﴿كل له أواب﴾ أي مطيع يسبح تبعاً له، وقال سعيد بن جبير وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد ﴿كل له أواب﴾ أي مطيع.

وقوله تعالى: ﴿وَشَدَّدْنَا مُلْكَه﴾ أي جعلنا له ملكاً كاماً من جميع ما يحتاج إليه الملوك، قال ابن أبي نجيح عن مجاهد كان أشد أهل الدنيا سلطاناً، وقال السدي كان يحرسه كل يوم أربعة آلاف، وقال بعض السلف بلغني أنه كان يحرسه في كل ليلة ثلاثة وثلاثين ألفاً لا تدور عليهم النوبة إلى مثلها من العام القابل، وقال غيره أربعون ألفاً مشتملون بالسلاح.

وقد ذكر ابن جرير^(١) وابن أبي حاتم من روایة علباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نفرين منبني إسرائيل استعدى أحدهما على الآخر إلى داود عليه الصلاة والسلام أنه اغتصبه بقراً فأنكر الآخر ولم يكن للمدعى بينة فأرجأه داود فلما كان الليل أمر داود عليه الصلاة والسلام في المنام بقتل المدعى، فلما كان النهار طلبهما وأمر بقتل المدعى فقال يا نبي الله علام تقتلني وقد اغتصبني هذا بقري؟ فقال له إن الله تعالى أمرني بقتلك فأنا قاتلك لا محالة، فقال والله إن الله لم يأمرك بقتلي لأجل هذا الذي ادعيت عليه وإنني لصادق فيما ادعيت ولكني كنت قد اغتلت أباه وقتلته ولم يشعر بذلك أحد فأمر به داود عليه السلام فقتل، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فاشتدت هيبة فيبني إسرائيل وهو الذي يقول الله عز وجل ﴿وَشَدَّدْنَا مُلْكَه﴾.

وقوله عز وعلا: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَة﴾ قال مجاهد يعني الفهم والعقل والفتنة، وقال مرة: الحكمة والعدل، وقال مرة: الصواب، وقال قتادة كتاب الله واتباع ما فيه، فقال السدي ﴿الْحِكْمَة﴾ النبوة وقوله جل جلاله ﴿وَفَصَلَّى الْخُطَاب﴾ قال شريح القاضي والشعبي: فصل الخطاب الشهود والأيمان وقال قتادة شاهدان على المدعى أو يمين المدعى عليه هو فصل

(١) تفسير الطبرى ١٠/٥٦٣.

الخطاب الذي فصل به الأنبياء والرسل أو قال المؤمنون والصالحون وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيمة، وكذا قال أبو عبد الرحمن السلمي وقال مجاهد والستي هو إصابة القضاء وفهم ذلك وقال مجاهد أيضاً هو الفصل في الكلام وفي الحكم وهذا يشمل هذا كله وهو المراد واختاره ابن جرير^(١) وقال ابن أبي حاتم حدثنا عمر بن شبة النميري حدثنا إبراهيم بن المنذر حدثني عبد العزيز بن أبي ثابت عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه عن بلال بن أبي بردة عن أبيه عن أبي موسى رضي الله عنه قال: أول من قال: أما بعد داود عليه السلام وهو فصل الخطاب، وكذا قال الشعبي فصل الخطاب: أما بعد.

﴿وَهَلْ أَتَذَكَّرُ بِنَبْوَةِ الْخَصِيمِ إِذْ سَوَرُوا الْمِحْرَابَ ﴿١﴾ إِذْ دَحَلُوا عَلَى دَارِدَ فَفَزَعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَحْفَظْ خَصْمَانِ بَعِي بَعْضَنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الْأَصْرَاطِ ﴿٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تَسْعُ وَسَعْوَنْ نَجْعَةً وَلَيْ نَجْعَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّزَ فِي الْخُطَابِ ﴿٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمْكَ سُؤَالْ نَجْعَنِكَ إِلَى نَعْاجِمِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخَاطِلِ إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ إِمَّا مَنَّوا وَعَمِلُوا أَصَدِيقَهُنَّ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَارِدُ أَنَّمَا فَتَنَّهُ فَأَسْتَغْفِرُ رَبِّهِ وَحْرَ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٤﴾ فَغَفَرَنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَرْفَى وَحُسْنَ مَعَابِ﴾^(٢)

قد ذكر المفسرون هنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائييليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ولكن روى ابن أبي حاتم حدثنا لا يصح سنده لأنه من روایة يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل فإن القرآن حتى وما تضمن فهو حق أيضاً.

وقوله تعالى: «ففزع منهم» إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه وهو أشرف مكان في داره وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب أي احتاطاً به يسألانه عن شأنهما وقوله عز وجل: «وعزني في الخطاب» أي غلبني يقال عز يعز إذا قهر وغلب. وقوله تعالى: «وظن داود أنما فتناه» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما أي اختبرناه^(٢). وقوله تعالى «وخر راكعاً» أي ساجداً «وأناب» ويحمل أنه رکع أولأ ثم سجد بعد ذلك، وقد ذكر أنه استمر ساجداً أربعين صباحاً «فغفرنا له ذلك» أي ما كان منه مما يقال فيه إن حسنات الأبرار سبات المقربين.

وقد اختلف الأئمة في سجدة «ص» هل هي من عزائم السجود؟ على قولين الجديد من مذهب الشافعي رضي الله عنه أنها ليست من عزائم السجود بل هي سجدة شكر، والدليل على

(١) تفسير الطبرى ١٠/٥٦٥.

(٢) انظر تفسير الطبرى ١٠/٥٧٠.

ذلك ما رواه الإمام أحمد^(١) حيث قال حدثنا إسماعيل وهو ابن علية عن أبوب عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال السجدة في ﴿ص﴾ ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها. ورواه البخاري وأبو داود والترمذى والنمسائى فى تفسيره من حديث أبوب به وقال الترمذى حسن صحيح. وقال النمسائى أيضاً عند تفسير هذه الآية أخبرنى إبراهيم بن الحسن هو المقسمى حدثنا حجاج بن محمد عن عمرو بن ذر عن أبوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن النبي ﷺ سجد في ﴿ص﴾ وقال: «سجدها داود عليه الصلاة والسلام توبة ونسجدها شكرًا» تفرد بروايتها النمسائى ورجال إسناده كلهم ثقات.

وقد أخبرنى شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى قراءة عليه وأنا أسمع، أخبرنا أبو إسحاق المدرجي أخبرنا زاهر بن أبي طاهر الشقفى حدثنا زاهر بن أبي طاهر الشحامى أخبرنا أبو سعيد الكنجروذى أخبرنا الحاكم أبو أحمد محمد بن محمد الحافظ أخبرنا أبو العباس السراج حدثنا هارون بن عبد الله حدثنا محمد بن يزيد بن خنيس عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد قال: قال لي ابن جريج يا حسن حدثي جدك عبيد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إني رأيت فيما يرى النائم كأنى أصلى خلف شجرة فقرأت السجدة فسجدت، فسجدت الشجرة بسجودي فسمعتها تقول وهى ساجدة: اللهم اكتب لي عندك أجرًا، واجعلها لي عندك ذخراً، وضع بها عني وزراً، واقبلها مني كما قبلتها من عبدي داود.

قال ابن عباس رضي الله عنهما فرأيت النبي ﷺ قام فقرأ السجدة ثم سجد فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة، رواه الترمذى عن قتيبة وابن ماجه عن أبي بكر بن خلاد كلاهما عن محمد بن يزيد بن خنيس نحوه، وقال الترمذى غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقال البخارى^(٢) عند تفسيرها أيضاً حدثنا محمد بن عبد الله حدثنا محمد بن عبيد الطنافسى عن العوام قال سألت مجاهداً عن سجدة ﴿ص﴾ فقال: سألت ابن عباس رضي الله عنهما من أين سجدت فقال أو ما تقرأ ﴿ومن ذريته داود وسلمى﴾ [الأنعام: ٨٤] ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام: ٩٠] فكان داود عليه الصلاة والسلام من أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به فسجدها داود عليه الصلاة والسلام فسجدها رسول الله ﷺ.

وقال الإمام أحمد^(٣) حدثنا عفان حدثنا يزيد بن زريع حدثنا حميد حدثنا بكر هو ابن عبد الله المزني أنه أخبره أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه رأى رؤيا أنه يكتب ﴿ص﴾ فلما بلغ إلى الآية التي يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شيء بحضرته انقلب ساجداً قال فقصها

(١) المستند ٣٦٠/١.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، تفسير سورة ٣٨.

(٣) المستند ٧٨/٣، ٨٤.

على النبي ﷺ فلم ينزل يسجد بها بعد، تفرد به أحمد، وقال أبو داود^(١) حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن عياض بن عبد الله بن سعد بن أبي سرح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر **﴿ص﴾** فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه فلما كان يوم آخر قرأها فلما بلغ السجدة **﴿تشَرَّنَ﴾**^(٢) الناس للسجود فقال ﷺ: «إنما هي توبة نبي ولكنني رأيتم تشرّنتم» فنزل وسجدوا تفرد به أبو داود وإسناده على شرط الصحاحين.

وقوله تعالى: «وإن له عندنا لزلفي وحسن مآب» أي وإن له يوم القيمة لقربة يقربه الله عز وجل بها وحسن مرجع وهو الدرجات العالية في الجنة لتوبته وعدله التام في ملكه كما جاء في الصحيح «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يقطتون في أهلיהם وما ولوا»^(٣) وقال الإمام أحمد^(٤) حدثنا يحيى بن آدم حدثنا فضيل عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب الناس إلى الله يوم القيمة وأقربهم منه مجلساً إمام عادل، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيمة وأشدهم عذاباً إمام جائز» ورواه الترمذى من حديث فضيل وهو ابن مرزوق الأغر عن عطية به، وقال لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه. وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة عبد الله بن أبي زياد حدثنا سيار حدثنا جعفر بن سليمان سمعت مالك بن دينار في قوله تعالى: «وإن له عندنا لزلفي وحسن مآب» قال يقام داود يوم القيمة عند ساق العرش ثم يقول يا داود مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرحيم الذي كنت تمجدني به في الدنيا فيقول وكيف وقد سلبته؟ فيقول الله عز وجل إني أرده عليك اليوم قال فيرفع داود عليه الصلاة والسلام بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان.

يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَنْتَعِ الْهَوَى فَيُفْضِلَكَ عَنْ سَيِّلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يُفْضِلُونَ عَنْ سَيِّلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ

هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المترتب من عنده تبارك تعالى ولا يعدلوا عنه فيفضلوا عن سبيل الله، وقد توعد تبارك تعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعقاب الشديد. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا هشام بن خالد حدثنا الوليد حدثنا مروان بن جناح حدثني إبراهيم أبو زرعة وكان قد قرأ الكتاب أن الوليد بن عبد الملك قال له: أي حاسب الخليفة فإنك قد قرأت الكتاب الأول وقرأت القرآن

(١) أخرجه أبو داود في السجود باب ٥.

(٢) التشرّن: التأهب والتهيؤ للشيء والاستعداد له.

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة حديث ١٨ ، والنمسائي في آداب القضاة باب ١ ، وأحمد في المسند ٢ / ١٦٠ .

(٤) المسند ٣ / ٢٢ .

وَفَقْهَتْ فَقْلَتْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَقُولْ؟ قَالْ: قَلْ فِي أَمَانَ اللَّهِ، قَلْتْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْتَ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ أَوْ دَاؤِدُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَمَعَ لِهِ النَّبُوَةُ وَالخِلَافَةُ ثُمَّ تَوَعَّدَهُ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا دَاؤِدُ إِنَا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعْ الْهُوَى فِي ضِلَالِكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الْآيَةُ وَقَالَ عَكْرَمَةُ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسَوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ هَذَا مِنَ الْمَقْدِمِ وَالْمَؤْخِرِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ بِمَا نَسَوا، وَقَالَ السَّدِيقُ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا تَرَكُوا أَنْ يَعْمَلُوا لِيَوْمَ الْحِسَابِ وَهَذَا القَوْلُ أَمْشَى عَلَى ظَاهِرِ الْآيَةِ وَاللَّهُ سَبَّحَهُ وَتَعَالَى الْمَوْفَقُ لِلصَّوَابِ.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا يَبْيَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُقْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفَجَارِ ﴿٢٨﴾ كَتَبْنَا أَنْزَلَنَا إِلَيْكُمْ مُّبِراً لِيَدْبِرُوا أَيْنَهُ وَلِيَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَا خَلَقَ الْخَلْقَ عَبْثًا إِنَّمَا خَلَقَهُمْ لِيَعْبُدُوهُ وَيُوحِدُوهُ ثُمَّ يَجْمِعُهُمْ يَوْمَ الْجَمْعِ فِي شَيْبِ الْمَطْيِعِ وَيَعْذِبُ الْكَافِرَ وَلَهُذَا قَالَ تَبَارِكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا يَبْيَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ تَعَالَى أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ لَا يَسَاوِي بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُقْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفَجَارِ﴾ أَيْ لَا نَفْعِلُ ذَلِكَ وَلَا يَسْتَوْنَ عِنْدَ اللَّهِ وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلَا بدَّ مِنْ دَارَ أُخْرَى يَثَابُ فِيهَا هَذَا الْمَطْيِعِ وَيَعْاقِبُ فِيهَا هَذَا الْفَاجِرُ وَهَذَا الْإِرْشَادُ يَدْلِلُ عَلَى الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ وَالْفَطْرِ الْمُسْتَقِيمَةِ عَلَى أَنَّهُ لَا بدَّ مِنْ مَعَادٍ وَجَزَاءٍ فَإِنَا نَرَى الظَّالِمَ الْبَاغِيَ يَزْدَادُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَنَعِيمَهُ وَيَمُوتُ كَذَلِكَ وَنَرَى الْمَطْيِعَ الْمُظْلُومَ يَمُوتُ بِكَمْدَهُ فَلَا بدَّ فِي حِكْمَةِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ الْعَادِلِ الَّذِي لَا يَظْلِمُ مُثْقَلَ ذَرَةٍ مِنْ إِنْصَافِ هَذَا مِنْ هَذَا، وَإِذَا لَمْ يَقُعْ هَذَا فِي هَذِهِ الدَّارِ فَتَعْلَمُ أَنَّ هَنَاكَ دَارًا أُخْرَى لِهَذَا الْجَزَاءِ وَالْمُوَاسَةِ.

وَلَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ يَرْشِدُ إِلَى الْمَقَاصِدِ الصَّحِيحَةِ وَالْمَاخِذِ الْعُقْلِيَّةِ الْصَّرِيقَةِ قَالَ تَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ لِيَدْبِرُوا أَيْمَانَهُ وَلِيَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أَيْ ذُوو الْعُقُولِ وَهِيَ الْأَلْبَابُ جَمْعُ لَبٍّ وَهُوَ الْعُقْلُ، قَالَ الْحَسْنُ الْبَصْرِيُّ وَاللَّهُ مَا تَدْبِرُهُ بِحَفْظِ حُرُوفِهِ وَإِضَاعَةِ حُدُودِهِ حَتَّى أَنْ أَحْدَهُمْ لِيَقُولَ قَرَأْتَ الْقُرْآنَ كَلَهُ مَا يَرِي لَهُ الْقُرْآنَ فِي خَلْقٍ وَلَا عَمَلٍ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَوَهَبْنَا لِدَاؤِدَ سُلَيْمَانَ نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّلُهُ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ يَالْعَشِيِّ الصَّافِنَتُ الْحَيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنَّهُ أَحَبَّتْ حُبَّ الْحَيَّيِّ عَنْ ذِكْرِ رَبِّ حَيَّنَ تَوَارَتْ يَالْحَيَادُ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَى قَطْفِنِ مَسْحَا يَالْسُوقِ وَالْأَعْنَافِ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود سليمان أي نبياً كما قال عز وجل: ﴿وورث سليمان داود﴾ [النمل: ١٦] أي في النبوة وإن فقد كان له بنون غيره فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر. قوله تعالى: ﴿نعم العبد إله أواب﴾ ثناء على سليمان بأنه كثير الطاعة والعبادة والإناية إلى الله عز وجل. قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عمرو بن خالد حدثنا الوليد حدثنا ابن جابر حدثنا مكحول قال لما وهب الله تعالى لداود سليمان قال له يابني ما أحسن؟ قال سكينة الله وإيمان؟ قال فما أقبح؟ قال كفر بعد إيمان قال فما أحلى، قال روح الله بين عباده قال فما أبد؟ قال عفو الله عن الناس وغافل الناس بعضهم عن بعض قال داود عليه السلام فأنتنبي.

وقوله تعالى: ﴿إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد﴾ أي إذ عرض على سليمان عليه الصلاة والسلام في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات قال مجاهد وهي التي تقف على ثلاثة وطرف حافر الرابعة والجياد السراع وكذا قال غير واحد من السلف.

وقال ابن جرير^(١) حدثنا محمد بن بشار حدثنا مؤمل حدثنا سفيان عن أبيه سعيد بن مسروق عن إبراهيم التيمي في قوله عز وجل: ﴿إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد﴾ قال كانت عشرين فرساً ذات أجنحة كذا رواه ابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا ابن أبي زائد أخبرني إسرائيل عن سعيد بن مسروق عن إبراهيم التيمي قال كانت الخيل التي شغلت سليمان عليه الصلاة والسلام عشرين ألف فرس فعقرها وهذا أشبه، والله أعلم، وقال أبو داود^(٢) حدثنا محمد بن عوف حدثنا سعيد بن أبي مريم أخبرنا يحيى بن أبي طالب حدثنا عمارة بن غزية أن محمد بن إبراهيم حدثه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة رضي الله عنها قالت قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خير وفي سهوتها^(٣) ستر فهبت الرياح فكشفت ناحية الستر عن بنات عائشة رضي الله عنها لعب فقال ﷺ: «ما هذا يا عائشة؟» قالت رضي الله عنها بناتي ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقاع^(٤) فقال ﷺ: «ما هذا الذي أرى وسطهن؟» قالت رضي الله عنها فرس، قال رسول الله ﷺ: «وما هذا الذي عليه؟» قالت رضي الله عنها جناحان قال رسول الله ﷺ: «فرس له جناحان؟» قالت رضي الله عنها أما سمعت أن سليمان عليه الصلاة والسلام كانت له خيل لها أجنحة قالت رضي الله عنها فضحك ﷺ حتى رأيت نواجذه.

(١) تفسير الطبرى ٥٧٨/١٠.

(٢) كتاب الأدب باب ٥٤.

(٣) السهودة: بيت صغير منحدر في الأرض قليلاً، شبيه بالمخدع والخزانة، وقيل: هو كالصفة تكون بين يدي البيت، وقيل: شبيه بالرف أو الطاق يوضع فيه الشيء.

(٤) جناحان من رقاع: أي جناحان من جلد.

وقوله تبارك وتعالى: «فقال إنني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاج» ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر والذي يقطع به أنه لم يتركها عمداً بل نسياناً كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاتها بعد الغروب وذلك ثابت في الصحيحين من غير وجه من ذلك عن جابر رضي الله عنه قال جاء عمر رضي الله عنه يوم الخندق بعدما غربت الشمس فجعل يسب كفار قريش ويقول يا رسول الله ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب فقال رسول الله ﷺ: «والله ما صليتها» فقال: فقمنا إلى بطحان^(١) فتوضاً نبي الله ﷺ للصلاة وتوضأنا لها فصلى العصر بعد ما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب^(٢).

ويحتمل أنه كان سائغاً في ملتهم تأخير الصلاة لعدن الغزو والقتال، والخيل تردد للقتال وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعاً فنسخ ذلك بصلة الخوف، ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسایفة والمضایقة حيث لا يمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود كما فعل الصحابة رضي الله عنهم في فتح مصر وهو منقول عن مكحول والأوزاعي وغيرهما والأول أقرب لأنه قال بعده «ردوها على فطفق مسحاً بالسوق والأعناق» قال الحسن البصري: لا، قال: والله لا تشغليني عن عبادة رب آخر ما عليك، ثم أمر بها فعقرت وكذا قال قتادة، وقال السدي: ضرب أعناقها وعرقيبها بالسيوف.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهم جعل يمسح أعراف الخيل وعرقيبها جبالها.

وهذا القول اختاره ابن جرير^(٣) قال: لأنه لم يكن ليذهب حيواناً بالعرقبة وبهلك مالاً من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها وهذا الذي رجح به ابن جرير فيه نظر لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا ولا سيما إذا كان غضباً لله تعالى بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة ولهذا لما خرج عنها الله تعالى عوضه الله عز وجل ما هو خير منها وهي الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب غدوها شهر ورواحها شهر فهذا أسرع وخير من الخيل.

وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا إسماعيل حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال عن

(١) بطحان: واد بالمدينة.

(٢) أخرجه البخاري في المواقف باب ٣٦، ٣٩، والخوف باب ٤، والمغازي باب ٢٩، ومسلم في المساجد حديث ٢٠٩، والترمذمي في الصلاة باب ١٨، والنسانî في السهو باب ١٠٥.

(٣) تفسير الطبرى ٥٧٩/١٠.

(٤) المسند ٧٨، ٧٩، ٥/٧٨.

أبي قنادة وأبي الدهماء وكانا يكثران السفر نحو البيت قالا أتينا على رجل من أهل الباذية فقال لنا البدوي : أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علمه الله عز وجل وقال : «إنك لا تدع شيئاً أنقاه الله تعالى إلا أعطاك الله عز وجل خيراً منه».

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَالْقِبِينَ عَلَى كُرْسِيهِ، جَسَدًا لَمْ أَنَابْ^١ قَالَ رَبِّ أَغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْعِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَابُ^٢ فَسَحَرْنَا لَهُ الرِّيحُ تَجْرِي بِأَمْرِهِ، رُخَاءٌ حَيْثُ أَصَابَ^٣ وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَغَوَّاصٌ^٤ وَءَآخَرِينَ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ^٥ هَذَا عَطَاؤُنَا أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ^٦ وَلَمْ يَعْلَمْ عِنْدَنَا لِرَفْقٍ وَحْسَنَ مَعَابِ^٧

يقول تعالى : «ولقد فتنا سليمان» أي اختبرناه بأن سلبناه الملك مرة «والقينا على كرسيه جسداً» قال ابن عباس رضي الله عنهم ومجاحد وسعيد بن جبیر والحسن وقتادة وغيرهم يعني شيطاناً «ثم أناب» أي رجع إلى ملكه وسلطانه وأبهته . قال ابن جرير^(١) ، وكان اسم ذلك الشيطان صخراً قاله ابن عباس رضي الله عنهم وقتادة وقيل أصف قاله مجاهد وقيل أصرروا قاله مجاهد أيضاً وقيل حقيق قاله السدي وقد ذكروا هذه القصة مبسوطة ومحضرة .

وقد قال سعيد بن أبي عروبة عن قنادة قال أمر سليمان عليه الصلاة والسلام ببناء بيت المقدس فقيل له ابنه ولا يسمع فيه صوت حديد ، قال فطلب ذلك فلم يقدر عليه فقيل إن شيطاناً في البحر يقال له صخر شبه المارد قال فطلبها وكانت في البحر عين يردها في كل سبعة أيام مرة فنزع ماءها وجعل فيها خمراً فجاء يوم ورده فإذا هو بالخمر فقال : إنك لشراب طيب إلا أنك تصيبين الحليم^(٢) وتزيدين الجاهل جهلاً ، قال ثم رجع حتى عطش عطشاً شديداً ثم أتاهما فقال : إنك لشراب طيب إلا أنك تصيبين الحليم وتزيدين الجاهل جهلاً ، قال ثم شربها حتى غلب على عقله قال فأري الخاتم أو ختم به بين كتفيه فذل ، قال وكان ملكه في خاتمه فأتى به سليمان عليه الصلاة والسلام فقال إننا قد أمرنا ببناء هذا البيت وقيل لنا لا يسمعون فيه صوت حديد قال فأتى بيض الهدد فجعل عليه زجاجة فجاء الهدد فدار حولها فجعل يرى بيضه ولا يقدر عليه فذهب فجاء بالماض فوضعه عليه فقطعها به حتى أفضى إلى بيضه فأخذ الماس يجعلوا يقطعون به الحجارة وكان سليمان عليه الصلاة والسلام إذا أراد أن يدخل الخلاء أو الحمام لم يدخل بخاتمه فانطلق يوماً إلى الحمام ، وذلك الشيطان صخر معه وذلك عند مقارفة قارف فيها بعض نسائه قال فدخل الحمام وأعطى الشيطان خاتمه فألقاه في البحر فالتركته سمكة ونزع ملك سليمان منه وألقى على الشيطان شبه سليمان قال فجاء فقد على كرسيه وسريره وسلط على ملك سليمان كله غير نسائه فجعل يقضى بينهم يجعلوا ينكرون منه

(١) انظر تفسير الطبرى ١٠ / ٥٨٠ .

(٢) تصيبين الحليم : أي يجعلني بفعل فعل أهل اللهو والجهل .

أشياء حتى قالوا لقد فتن نبي الله وكان فيهم رجل يشبهونه بعمر بن الخطاب رضي الله عنه في القوة فقال والله لأجري به قال : فقال يا نبي الله وهو لا يرى إلا أنه نبي الله أحدنا تصيبه الجنابة في الليلة الباردة فيدع الغسل عمداً حتى تطلع الشمس أترى عليه بأساً قال : لا في بينما هو كذلك أربعين ليلة إذ وجد نبي الله خاتمه في بطنه سمكة فأقبل فجعل لا يستقبله جنبي ولا طير إلا سجد له حتى انتهى إليهم ﴿وَأَقْيَنَا عَلَى كُرْسِيهِ جَسْدًا﴾ قال هو الشيطان صخر^(١).

وقال السدي ﴿ولقد فتنا سليمان﴾ أي ابتلينا سليمان ﴿وَأَقْيَنَا عَلَى كُرْسِيهِ جَسْدًا﴾ قال شيطاناً جلس على كرسيه أربعين يوماً قال كان لسليمان عليه الصلاة والسلام مائة امرأة وكانت امرأة منهم يقال لها جرادة وهي أثر نسائه وأمنهن عنده وكان إذا أجبت أو أتت حاجة نزع خاتمة ولم يأتمن عليه أحداً من الناس غيرها فأعطتها يوماً خاتمه ودخل الخلاء، فخرج الشيطان في صورته فقال هاتي الخاتم فأعطيته فجاء حتى جلس على مجلس سليمان عليه الصلاة والسلام وخرج سليمان بعد ذلك فسألها أن تعطيه خاتمه فقالت : ألم تأخذه قبل ؟ قال : لا وخرج وكأنه تائه ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوماً قال فأنكر الناس أحکامه فاجتمع قراءبني إسرائيل وعلماؤهم فجاؤوا حتى دخلوا على نسائه فقالوا لهم إننا قد أنكرنا هذا فإن كان سليمان فقد ذهب عقله وأنكرنا أحکامه قال فبكى النساء عند ذلك قال فأقبلوا يمشون حتى أتوه فأحدقوا به ثم نشروا يقرؤون التوراة قال فطار من بين أيديهم حتى وقع على شرفه والخاتم معه ثم طار حتى ذهب إلى البحر فوق الخاتم منه في البحر فابتلعه حوت من حيثان البحر. قال وأقبل سليمان عليه الصلاة والسلام في حاله التي كان فيها حتى انتهى إلى صيادي البحر وهو جائع وقد اشتد جوعه فاستطعهم من صيادهم وقال إنني أنا سليمان فقام إليه بعضهم فضربه بعضى فشجه فجعل يغسل دمه وهو على شاطئ البحر فلام الصيادون صاحبهم الذي ضربه فقالوا بتسن ما صنعت حيث ضربته قال إنه زعم أنه سليمان ، قال فأعطيوه سمعكتين مما قد مذر عندهم ولم يشغله ما كان به من الضرب حتى قام إلى شاطئ البحر فشق بطونهما فجعل يغسل فوجد خاتمه في بطنه فأخذه فلبسه فرد الله عليه بهاءه وملكه فجاءات الطير حتى حامت عليه فعرف القوم أنه سليمان عليه الصلاة والسلام فقام القوم يعتذرون مما صنعوا فقال ما أحدمكم على عذركم ولا ألومكم على ما كان منكم كان هذا الأمر لا بد منه قال فجاء حتى أتى ملكه وأرسل إلى الشيطان فجيء به فأمر به فجعل في صندوق من حديد ثم أطبق عليه وقفل عليه بقفل وختم عليه بخاتمه ثم أمر به فألقى في البحر فهو فيه حتى تقوم الساعة وكان اسمه حقيق^(٢) قال وسخر الله له الريح ولم تكن سخرت له قبل ذلك وهو قوله : ﴿وَهُبْ لِي مَلِكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَابُ﴾.

(١) انظر تفسير الطبرى ١٠ / ٥٨٠ - ٥٨١.

(٢) انظر تفسير الطبرى ١٠ / ٥٨٠ - ٥٨١.

قال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تبارك وتعالى: «وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيهِ جَسْداً» قال شيطاناً يقال له أصف فقال له سليمان عليه الصلاة والسلام كيف تفتتون الناس؟ قال أرني خاتمك أخبرك فلما أعطاه إياه نبذه أصف في البحر فساح سليمان عليه الصلاة والسلام وذهب ملكه وقعد أصف على كرسيه ومنعه الله تبارك وتعالى من نساء سليمان فلم يقربهن ولم يقربنه وأنكرنه. قال: فكان سليمان عليه الصلاة والسلام يستطيع يقول أتعرفوني؟ أطعمني أنا سليمان فيكذبونه حتى أعطته امرأة يوماً حوتاً ففتح بطنه فوجد خاتمه في بطنه فرجع إليه ملكه وفر أصف فدخل البحر فاراً^(١). وهذه كلها من الإسرائيлик، ومن أنكرها ما قاله ابن أبي حاتم:

حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن العلاء وعثمان بن أبي شيبة وعلي بن محمد قالوا: حدثنا أبو معاوية أخبرنا الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: «وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيهِ جَسْداً ثُمَّ أَنْابَ» قال أراد سليمان عليه الصلاة والسلام أن يدخل الخلاء فأعطى الجرادة خاتمه وكانت الجرادة امرأته وكانت أحب نسائه إليه فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال لها هاتي خاتمي فأعطته إياه فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين فلما خرج سليمان عليه السلام من الخلاء قال لها هاتي خاتمي قالت أعطيته سليمان قال أنا سليمان قال كذبت ما أنت بسليمان فجعل لا يأتي أحداً يقول له أنا سليمان إلا كذبه حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة.

فلما رأى ذلك سليمان عرف أنه من أمر الله عز وجل قال وقام الشيطان يحكم بين الناس فلما أراد الله تبارك وتعالى أن يرد على سليمان سلطانه ألقى في قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان قال فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا لهن: أتذكرون من سليمان شيئاً، قلن نعم إنه يأتينا ونحن حيسن وما كان يأتينا قبل ذلك فلما رأى الشيطان أنه قد فطن له ظن أن أمره قد انقطع فكتباً فيها سحر وكفر فدفونها تحت كرسي سليمان ثم أثاروها وقرؤوها على الناس وقالوا بهذا كان يظهر سليمان على الناس ويغلبهم فأكفر الناس سليمان عليه الصلاة والسلام فلم يزالوا يكفرون ويعث ذلك الشيطان بالخاتم فطرحه في البحر فتلقته سمكة فأخذته، وكان سليمان عليه السلام يحمل على شط البحر بالأجر فجاء رجل فاشترى سمكاً فيه تلك السمكة التي في بطنه الخاتم فدعا سليمان عليه الصلاة والسلام فقال: تحمل لي هذا السمك؟ فقال نعم قال بكم؟ قال بسمكة من هذا السمك قال فحمل سليمان عليه الصلاة والسلام السمك ثم انطلق به إلى منزله فلما انتهى الرجل إلى بابه أعطاه تلك السمكة التي في بطنه الخاتم فأخذها سليمان عليه الصلاة والسلام فشق بطنه فإذا بالخاتم في جوفها فأخذه فلبسه.

قال فلما لبسه دانت له الجن والإنس والشياطين وعاد إلى حاله وهرب الشيطان حتى لحق بجزيرة من جزائر البحر فأرسل سليمان عليه الصلاة والسلام في طلبه وكان شيطاناً مريداً فجعلوا يطلبونه ولا يقدرون عليه حتى وجدوه يوماً نائماً فجاؤوا فبنوا عليه بنياناً من رصاص فاستيقظ فوتب فجعل لا يثيب في مكان من البيت إلا انماط معه الرصاص، قال فأخذوه فأوثقوه وجاؤوا به إلى سليمان عليه الصلاة والسلام فأمر به فنقر له تحت من رخام ثم أدخل في جوفه ثم سد بالنحاس ثم أمر به فطرح في البحر فذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب﴾ قال: يعني الشيطان الذي كان سلط عليه، إسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قوي، ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس رضي الله عنهما إن صحي عنه من أهل الكتاب وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان عليه الصلاة والسلام فالظاهر أنهم يكذبون عليه، ولهذا كان في هذا السياق منكرات من أشدتها ذكر النساء فإن المشهور عن مجاهد وغير واحد من أئمة السلف أن ذلك الجن لم يسلط على نساء سليمان بل عصمهن الله عز وجل منه تشريفاً وتكريماً لنبأه عليه السلام. وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف رضي الله عنهم كسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وجماعة آخرين وكلها متلقة من قصص أهل الكتاب، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

قال يحيى بن أبي عمرو الشيباني : وجد سليمان خاتمه بعسقلان فمشى في خرقة إلى بيت المقدس تواضعاً لله عز وجل ، رواه ابن أبي حاتم . وقد روى ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار في صفة كرسي سليمان عليه الصلاة والسلام خبراً عجياً فقال حدثنا أبي رحمه الله حدثنا أبو صالح كاتب الليث أخبرني أبو إسحاق المصري عن كعب الأحبار أنه لما فرغ من حديث إرم ذات العماد قال له معاوية : يا أبي إسحاق أخبرني عن كرسي سليمان عليه الصلاة والسلام وما كان عليه ومن أي شيء هو ، فقال كان كرسي سليمان من أنبياء الفيلة مرصعاً بالدر والياقوت والزبرجد واللؤلؤ ، وقد جعل له درجة منها مخصوصة بالدر والياقوت والزبرجد عن ثم أمر بالكرسي فحف من جانبيه بالنخل نخل من ذهب شماريخها من ياقوت وزبرجد ولؤلؤ ، وجعل على رؤوس النخل التي عن يمين الكرسي طواويس من ذهب ثم جعل على رؤوس النخل التي على يسار الكرسي سوراً من ذهب مقابلة الطواويس ، وجعل على يمين الدرجة الأولى شجرتاً صنوبر من ذهب وعلى يسارها أسدان من ذهب وعلى رؤوس الأسددين عمودان من زبرجد ، وجعل من جانبي الكرسي شجرتاً كرم من ذهب قد أظلتنا الكرسي وجعل عناقيدهما دراً وياقوتاً أحمر .

ثم جعل فوق درج الكرسي أسدان عظيمان من ذهب مجوفان محسوان مسكاً وعبراً، فإذا أراد سليمان عليه السلام أن يصعد على كرسيه استدار الأسدان ساعة ثم يقعان فينضحان ما في أجوفهما من المسك والعبر حول كرسي سليمان عليه الصلاة والسلام ثم يوضع منبران من

ذهب واحد لخلفته والآخر لرئيس أخباربني إسرائيل ذلك الزمان، ثم يوضع أمام كرسيه سبعون منبراً من ذهب يقعد عليها سبعون قاضياً من بنى إسرائيل وعلمائهم وأهل الشرف منهم والطول، ومن خلف تلك المنابر كلها خمسة وتلاثون منبراً من ذهب ليس عليها أحد فإذا أراد أن يصعد على كرسيه وضع قدميه على الدرجة السفلية فاستدار الكرسي كله بما فيه وما عليه ويبيسط الأسد يده اليمنى وينشر النسر جناحه الأيسر ثم يصعد سليمان عليه الصلاة والسلام على الدرجة الثانية فيبسط الأسد يده اليسرى وينشر النسر جناحه الأيمن فإذا استوى سليمان عليه الصلاة والسلام على الدرجة الثالثة وقعد على الكرسي أخذ نسر من تلك النسور عظيم تاج سليمان عليه الصلاة والسلام فوضعه على رأسه فإذا وضعه على رأسه استدار الكرسي بما فيه كما تدور الرحى المسرعة، فقال معاوية رضي الله عنه: وما الذي يديره يا أبا إسحاق؟ قال: تنين من ذهب ذلك الكرسي عليه وهو عظيم مما عمله صخر الجن فإذا أحسست بدورانه دارت تلك الأسود والنسور والطواويس التي في أسفل الكرسي دُرْنَ إلى أعلىه فإذا وقف وقفن كلهن منكسات رؤوسهن على رأس سليمان عليه الصلاة والسلام وهو جالس ثم ينضحن جميعاً ما في أجوفهن من المسك والعنبر على رأس سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام. ثم تتناول حمامه من ذهب واقفة على عمود من جوهر التوراة فتجعلها في يده فيقرؤها سليمان عليه الصلاة والسلام على الناس. وذكر تمام الخبر وهو غريب جداً.

﴿قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب﴾ قال بعضهم لا ينبغي لأحد من بعدي أي لا يصلح لأحد أن يسلبنيه بعدي كما كان من قضية الجسد الذي ألقى على كرسيه لا أنه يحجر على من بعده من الناس وال الصحيح أنه سأله تعالى ملكاً لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله وهذا هو ظاهر السياق من الآية وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ.

قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا إسحاق بن إبراهيم أخبرنا روح محمد بن جعفر عن شعبة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن عفريتاً من الجن تفلت على البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع علي الصلاة فأمكنتني الله تبارك وتعالى منه وأردت أن أربطه إلى سارية من سورى المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخي سليمان عليه الصلاة والسلام ﴿رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾^(١) قال روح فرده خاسئاً وكذا رواه مسلم والنسائي من حديث شعبة به.

وقال مسلم في صحيحه حدثنا محمد بن سلمة المرادي حدثنا عبد الله بن وهب عن

(١) أخرجه البخاري في الصلاة باب ٧٥، والأنبياء باب ٤٠، وتفسير سورة ٣٨ باب ٢، وأحمد في المسند . ٢٩٨/٢

معاوية بن صالح حدثني ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول : «أعوذ بالله منك - ثم قال - العنك بلعنة الله» ثلثاً وبسط يده كأنه يتناول شيئاً فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك ورأيناكم بسطت يدك قال ﷺ : «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي فقلت أعوذ بالله منك ثلاث مرات ثم قلت العنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ثلث مرات ثم أردت أن آخذه والله لولا دعوة سليمان لأصبح موثقاً يلعب به صبيان أهل المدينة»^(١).

وقال الإمام أحمد^(٢) حدثنا أبو أحمد حدثنا ميسرة بن عبد حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائماً يصلي فذهب أمر بين يديه فردي ثم قال حدثني أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قام يصلي صلاة الصبح وهو خلفه فقرأ فالتبست عليه القراءة فلما فرغ من صلاته قال : «لو رأيتمني وإبليس فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين - الإبهام والتي تليها - ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل».

وقد روى أبو داود^(٣) منه «من استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل» عن أحمد بن أبي سريح عن أبي أحمد الزبيري به .

وقال الإمام أحمد^(٤) حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا إبراهيم بن محمد الفزارى حدثنا الأوزاعي حدثني ربيعة بن يزيد عن عبد الله الدليلي قال دخلت على عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وهو في حائط له بالطائف يقال له الوهط وهو مخادر فتى من قريش يُزَنُ بشرب الخمر فقلت بلعني عنك حديث أنه «من شرب شربة من الخمر لم يقبل الله عز وجل له توبة أربعين صباحاً، وإن الشقي من شقي في بطن أمه، وإنه من أتى البيت المقدس لا ينهزه إلا الصلاة فيه خرج من خطيبته مثل يوم ولدته أمه» فلما سمع الفتى ذكر الخمر اجتذب يده من يده ثم انطلق فقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما إني لا أحل لأحد أن يقول علي ما لم أقل سمعت رسول الله يقول : «من شرب من الخمر شربة لا تقبل له صلاة أربعين صباحاً فإن تاب تاب الله عليه فإن عاد كان حقاً على الله تعالى أن يسقيه من طينة الخبال يوم القيمة» قال وسمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه

(١) أخرجه مسلم في المساجد حديث ٤٠ ، والنمساني في السهو باب ١٩ .

(٢) المسند ٨٣ / ٣ .

(٣) كتاب الصلاة، باب ما يؤمر المصلي أن يورأ عن الممر بين يديه .

(٤) المسند ١٧٦ / ٢ .

من نوره يومئذ اهتدى ومن أخطأه ضل فلذلك أقول جف القلم على علم الله عز وجل» وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن سليمان عليه السلام سأله تعالى ثلثاً فأعطاه اثنين ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة، سأله حكماً يصادف حكمه فأعطاه إيه وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه إيه وسأله أيمأ رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيبته كيوم ولدته أمه فنرجو أن يكون الله عز وجل قد أعطانا إياها».

وقد روى هذا الفصل الأخير من هذا الحديث النسائي وابن ماجه من طرق عن عبد الله بن فيروز الديلمي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله: «إن سليمان عليه الصلاة والسلام لما بني بيت المقدس سأله ربه عز وجل خاللاً ثلثاً»^(١) وذكره وقد روی من حديث رافع بن عمير رضي الله عنه بإسناد وسياق غريبين.

فقال الطبراني حدثنا محمد بن الحسن بن قتيبة العسقلاني حدثنا محمد بن أيوب بن سويد حدثني أبي حدثنا إبراهيم بن أبي عبلة عن أبي الزاهري عن رافع بن عمير قال سمعت رسول الله يقول: «قال الله عز وجل لداود عليه الصلاة والسلام ابن لي بيتاً في الأرض فبني داود بيتاً لنفسه قبل البيت الذي أمر به فأوحى الله إليه يا داود نصب بيتك قبل بيتي قال يا رب هكذا قضيت من ملك استأثر ثم أخذ في بناء المسجد فلما تم السور سقط ثلثاً فشكا ذلك إلى الله عز وجل فقال يا داود إنك لا تصلح أن تبني لي بيتاً قال ولم يا رب؟ قال لما جرى على يديك من الدماء، قال يا رب أو ما كان ذلك في هواك ومحبتك؟ قال بلى ولكنهم عبادي وأنا أرحمهم فشق ذلك عليه فأوحى الله إليه لا تحزن فإني سأقضي بناه على يدي ابنك سليمان فلما مات داود أخذ سليمان في بنائه ولم تتم قرابة القرابين وذبح الذبائح وجمع بنى إسرائيل فأوحى الله إليه قد أرى سرورك ببيان بيتي فسلني أعطيك ثلثاً خصال حكماً يصادف حكمك وملكـاً لا ينبغي لأحد من بعدي ومن أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه خرج من ذنبه كيوم ولدته أمه - قال رسول الله ﷺ - أما الثلثان فقد أعطيهما وأنا أرجو أن يكون قد أعطي الثالثة».

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن راشد اليمامي حدثنا إيس بن سلمة الأكوع عن أبيه رضي الله عنه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ دعا إلا استفتحه بـ«سبحان الله ربى العلي الأعلى الوهاب» وقد قال أبو عبيد: حدثنا علي بن ثابت عن جعفر بن برقان عن صالح بن مسمار قال لما مات نبي الله داود عليه السلام أوحى الله تبارك وتعالى إلى ابنه سليمان عليه الصلاة والسلام أن سلني حاجتك قال أسألك أن تجعل لي قلباً يخشاك كما كان قلب أبي وأن تجعل قلبي يحبك كما كان قلب أبي فقال الله عز وجل: أرسلت إلى عبدي

(١) أخرجه النسائي في المساجد باب ٦.

(٢) المسند / ٤٥٤.

وسألته حاجته فكانت حاجته أن أجعل قلبه يخشاني وأن أجعل قلبه يحبني، لأهبن له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده.

قال الله جلت عظمته: «فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب» والثانية بعدها قال فأعطاه ما أعطاه وفي الآخرة لا حساب عليه هكذا أورده أبو القاسم ابن عساكر في ترجمة سليمان عليه الصلاة والسلام في تاريخه، وروي عن بعض السلف أنه قال بلغني عن داود عليه الصلاة والسلام أنه قال: إلهي كن لسليمان كما كنت لي، فأوحى الله عز وجل إليه: أن قل سليمان أن يكون لي كما كنت لي أكون له كما كنت لك. وقوله تبارك وتعالى: «فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب» قال الحسن البصري رحمه الله لما عقر سليمان عليه الصلاة والسلام الخيل غضباً لله عز وجل عوضه الله تعالى ما هو خير منها وأسرع، الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر.

وقوله جل وعلا: «حيث أصاب» أي حيث أراد من البلاد. وقوله جل جلاله: «والشياطين كل بناء وغواص» أي منهم ما هو مستعمل في الأبنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر، وطائفة غواصون في البحار يستخرجون مما فيها من اللآلئ والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها «وآخرين مقربين في الأصفاد» أي موثقون في الأغلال والأكبال من قد تمرد وعصى وامتنع من العمل وأبى، أو قد أساء في صنيعه واعتدى.

وقوله عز وجل: «هذا عطاوئنا قامن أو أمسك بغير حساب» أي هذا الذي أعطيتكم من الملك التام والسلطان الكامل كما سألتنا فأعطي من شئت واحرم من شئت لا حساب عليك أي مهما فعلت فهو جائز لك احکم بما شئت فهو صواب.

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خير بين أن يكون عبداً رسولاً - وهو الذي يفعل ما يؤمر به وإنما هو قاسم يقسم بين الناس كما أمره الله تعالى به - وبين أن يكون نبياً ملكاً يعطي من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح، اختار المنزلة الأولى بعدما استشار جبريل عليه الصلاة والسلام فقال له تواضع فاختار المنزلة الأولى لأنها أرفع قدرًا عند الله عز وجل وأعلى منزلة في المعاد وإن كانت المنزلة الثانية وهي النبوة مع الملك عظيمة أيضًا في الدنيا والآخرة، ولهذا لما ذكر تبارك وتعالى ما أعطى سليمان عليه الصلاة والسلام في الدنيا نبه تعالى على أنه ذو حظ عند الله يوم القيمة أيضًا فقال تعالى: «وإن له عندنا لزلفي وحسن ماب» أي في الدنيا والآخرة.

وَذَكْرُ عَبْدِنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَفِي مَسَيِّ الشَّيْطَانِ بِتَصْبِرٍ وَعَذَابٍ ۝ أَكْفُشْ بِرِحْلَكَ هَذَا مَعْقَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝ وَهَبَنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِنْهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةٌ مِنَّا وَدَكْرَى لِأُولَئِكَ الْأَلْبَابِ ۝ وَمَنْدِيَكَ ضَعْنَكَ فَاصْبِرْ بِهِ وَلَا

مَكَثَ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ

يذكر تبارك وتعالى عبده ورسوله أويوب عليه الصلاة والسلام وما كان ابتلاء تعالى به من الضر في جسده وماليه وولده حتى لم يبق في جسده مفرز إبرة سليماً سوى قلبه، ولم يبق له من حال الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله تعالى ورسوله فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدمه نحواً من ثمانية عشرة سنة، وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد واسعة طائلة في الدنيا، فسلب جميع ذلك حتى آل به الحال إلى أن ألقى على مزبلة من مزابل البلدة هذه المدة بكمالها ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته رضي الله عنها فإنها كانت لا تفارقها صباحاً ومساء إلا بسبب خدمة الناس ثم تعود إليه قريباً، فلما طال المطال، واشتد الحال، وانتهى القدر المقدور، وتم الأجل المقدر تضرع إلى رب العالمين وإله المرسلين فقال ﴿أَنِّي مسني الضر وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وفي هذه الآية الكريمة قال: ﴿وَإِذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مسني الشَّيْطَانُ بِنَصْبٍ وَعِذَابٍ﴾ قيل بنصب في بدني وعداب في مالي وولدي فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين وأمره أن يقوم من مقامه وأن يركض الأرض برجله ففعل فائبع الله تعالى عيناً وأمره أن يغتسل منها فأذهبت جميع ما كان في بدني من الأذى، ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر فائبع له عيناً أخرى وأمره أن يشرب منها فاذهبت جميع ما كان في باطنها من السوء وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿أَرْكَضَ بِرْ جَلَكَ هَذَا مَغْتَسِلَ بَارِدٍ وَشَرَابٍ﴾.

قال ابن جرير وابن أبي حاتم جمیعاً حدثنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرني نافع بن يزيد عن عقیل عن ابن شهاب عن أنس بن مالک رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن نبی الله أیوب عليه الصلاة والسلام لبث به بلاوة ثمانی عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلین کانا من أخص إخوانه به کانا یغدوان إلیه ویروحان، فقال أحدهما لصاحبه تعلم والله لقد أذنب أیوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمین قال له صاحبه وما ذاك؟ قال منذ ثمانی عشرة سنة لم یرحمه الله فیکشف ما به فلما راحا إلیه لم یصبر الرجل حتى ذکر ذلك له، فقال أیوب عليه الصلاة والسلام لا أدری ما تقول غير أن الله عز وجل یعلم أني كنت أمر على الرجلین یتنازعان فیذکران الله تعالى فارجع إلى بيتي فأکفر عنهم کراهیة أن یذکر الله تعالى إلا في حق، قال وكان یخرج إلى حاجته فإذا قضاهما أمسكت امرأته بیده حتى یبلغ فلما کان ذات يوم أبطأ عليها فأوحى الله تبارك وتعالى إلى أیوب عليه الصلاة والسلام أن مَغْتَسِلَ بَارِدٍ وَشَرَابٍ فاستبطأته فالتفت تنظر فأقبل عليها وقد أذهب الله ما به من البلاء وهو على أحسن ما کان فلما رأته قالت أي بارک الله فيك هل رأیت نبی الله هذا المبتلى، فوالله على ذلك ما رأیت رجلاً أشبہ به منك إذ کان صحيحاً قال فإیني أنا هو، قال وكان له

أندران^(١) أندر للقمع وأندر للشعيـر فبعث الله تعالى سحابـتين فلما كانت إـحداـهما على أـنـدر القـمع أـفـرغـتـ فيـهـ الـذـهـبـ حتـىـ فـاضـ وـأـفـرغـتـ الـأـخـرـيـ فيـ أـنـدرـ الشـعـيـرـ حتـىـ فـاضـ، هـذـاـ لـفـظـ اـبـنـ جـرـيرـ^(٢) رـحـمـهـ اللهـ.

وقـالـ الإمامـ أـحـمـدـ^(٣) حـدـثـنـاـ عـبـدـ الرـزـاقـ حـدـثـنـاـ مـعـمـرـ عنـ هـمـامـ بـنـ مـنـهـ قـالـ: هـذـاـ مـاـ حـدـثـنـاـ أـبـوـ هـرـيـرـةـ رـضـيـهـ عـنـهـ قـالـ: قـالـ رـسـولـ اللهـ^{صَّ}: «ـبـيـنـمـاـ أـيـوبـ يـغـتـسـلـ عـرـيـانـاـ خـرـ عـلـيـهـ جـرـادـ مـنـ ذـهـبـ فـجـعـلـ أـيـوبـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ يـحـثـوـ فـيـ ثـوـبـهـ فـنـادـهـ رـبـهـ عـزـ وـجـلـ يـاـ أـيـوبـ أـلـمـ أـكـنـ أـغـيـتـكـ عـمـاـ تـرـىـ قـالـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ بـلـىـ يـاـ رـبـ وـلـكـنـ لـاـ غـنـىـ بـيـ عـنـ بـرـكـتـكـ»ـ اـنـفـرـدـ يـأـخـرـاجـهـ الـبـخـارـيـ^(٤) مـنـ حـدـيـثـ عـبـدـ الرـزـاقـ بـهـ، وـلـهـذـاـ قـالـ تـبـارـكـ وـتـعـالـيـ: «ـوـهـبـنـاـ لـهـ أـهـلـهـ وـمـثـلـهـمـ مـعـهـمـ رـحـمـةـ مـنـاـ وـدـكـرـيـ لـأـوـلـيـ الـأـلـبـابـ»ـ قـالـ الـحـسـنـ وـقـاتـادـهـ أـحـيـاـمـ اللهـ تـعـالـيـ لـهـ بـأـعـيـانـهـ وـزـادـهـمـ مـثـلـهـمـ مـعـهـمـ^(٥).

وـقـولـهـ عـزـ وـجـلـ: «ـرـحـمـةـ مـنـاـ»ـ أـيـ بـهـ عـلـىـ صـبـرـهـ وـثـبـاتـهـ وـإـنـابـتـهـ وـتـواـضـعـهـ وـاسـكـانـتـهـ وـذـكـرـيـ لـأـوـلـيـ الـأـلـبـابـ»ـ أـيـ لـذـويـ الـعـقـولـ لـيـعـلـمـوـ أـنـ عـاقـبـةـ الصـبـرـ الفـرـجـ وـالـمـخـرـجـ وـالـرـاحـةـ. وـقـولـهـ جـلتـ عـظـمـتـهـ: «ـوـخـذـ بـيـدـكـ ضـعـثـاـ فـاضـرـبـ بـهـ وـلـاـ تـحـنـثـ»ـ وـذـكـرـ أـنـ أـيـوبـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ كـانـ قـدـ غـضـبـ عـلـىـ زـوـجـتـهـ وـوـجـدـ عـلـيـهـاـ فـيـ أـمـرـ فـعـلـتـهـ قـيلـ باـعـتـ ضـفـيرـتـهاـ بـخـبـرـ فـأـطـعـمـتـهـ إـيـاهـ فـلـامـهـاـ عـلـىـ ذـلـكـ وـحـلـفـ إـنـ شـفـاهـ اللهـ تـعـالـيـ لـيـضـرـبـنـهاـ مـائـةـ جـلـدـةـ، وـقـيلـ لـغـيرـ ذـلـكـ مـنـ الـأـسـبـابـ فـلـمـاـ شـفـاهـ اللهـ عـزـ وـجـلـ وـعـافـهـ مـاـ كـانـ جـزاـءـهـ مـعـهـ مـذـكـرـهـ الـخـدـمـةـ التـامـةـ وـالـرـحـمـةـ وـالـشـفـقـةـ وـالـإـحـسـانـ أـنـ تـقـابـلـ بـالـضـرـبـ فـأـقـتـاهـ اللهـ عـزـ وـجـلـ أـنـ يـأـخـذـ ضـعـثـاـ وـهـوـ الشـمـرـاخـ فـيـ مـائـةـ قـضـيبـ فـيـضـرـبـهـاـ بـهـ ضـرـبةـ وـاـحـدـةـ وـقـدـ بـرـتـ يـمـينـهـ وـخـرـجـ مـنـ حـنـثـهـ وـوـفـيـ بـنـدرـهـ، وـهـذـاـ مـنـ الفـرـجـ وـالـمـخـرـجـ لـمـنـ اـتـقـىـ اللهـ تـعـالـيـ وـأـنـابـ إـلـيـهـ، وـلـهـذـاـ قـالـ جـلـ وـعـلاـ: «ـإـنـاـ وـجـدـنـاـ صـابـرـاـ نـعـمـ الـعـبـدـ إـنـهـ أـوـابـ»ـ أـثـنـىـ اللهـ تـعـالـيـ عـلـىـ عـلـيـهـ وـمـدـحـهـ بـأـنـهـ «ـنـعـمـ الـعـبـدـ إـنـهـ أـوـابـ»ـ أـيـ رـجـاعـ مـنـيـبـ، وـلـهـذـاـ قـالـ جـلـ جـلـالـهـ: «ـوـمـنـ يـتـقـ اللهـ يـجـعـلـ لـهـ مـخـرـجاـ وـيـرـزـقـهـ مـنـ حـيـثـ لـاـ يـحـتـسـبـ وـمـنـ يـتـوـكـلـ عـلـىـ اللهـ فـهـوـ حـسـبـهـ إـنـ اللهـ بـالـغـ أـمـرـهـ قـدـ جـعـلـ اللهـ لـكـلـ شـيـءـ قـدـرـأـ»ـ [ـالـطـلاقـ: ٢ - ٣ـ]ـ وـاسـتـدـلـ كـثـيرـ مـنـ الـفـقـهـاءـ بـهـذـهـ الـآـيـةـ الـكـرـيمـةـ عـلـىـ مـسـائـلـ فـيـ الـإـيمـانـ وـغـيـرـهـ. وـقـدـ أـخـذـوـهـاـ بـمـقـتضـاهـاـ وـالـلـهـ أـعـلـمـ بـالـصـوـابـ.

وـأـذـكـرـ عـدـنـاـ إـبـرـاهـيمـ وـإـسـحـاقـ وـيـعـقـوبـ أـوـلـيـ الـأـيـدـىـ وـالـأـبـصـرـ^(٦) إـنـاـ أـخـلـصـنـهـمـ بـحـالـصـةـ ذـكـرـيـ الـدـارـ^(٧)

(١) الأندر: بيت يجمع فيه الطعام.

(٢) تفسير الطبرى ١٠ / ٥٨٩ - ٥٩٠.

(٣) المستند ٢ / ٣١٤.

(٤) كتاب الغسل باب ٢٠، والتوحيد باب ٧، ٣٥.

(٥) تفسير الطبرى ١٠ / ٥٩٠، بلطف: فأحيـاـمـ اللهـ بـأـعـيـانـهـ، وـزـادـهـمـ مـثـلـهـ.

وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَيْمَنَ الْمُصْطَفَينَ الْأَخْيَارِ ﴿١﴾ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسْعَ وَذَا الْكَفْلِ وَكُلُّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٢﴾ هَذَا ذَكْرٌ
وَإِنَّ لِلْمُتَقِينَ لَحْسَنَ مَعَابٍ ﴿٣﴾

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين «واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار» يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة وال بصيرة النافذة، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما «أولي الأيدي والأبصار» يقول أولي القوة والعبادة «والأبصار» يقول الفقه في الدين^(١). وقال مجاهد «أولي الأيدي» يعني القوة في طاعة الله تعالى والأبصار يعني البصر في الحق وقال قتادة والسدي: أعطوا قوة في العبادة وبصراً في الدين.

وقوله تبارك وتعالى: «إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار» قال مجاهد أي جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم هم غيرها وكذا قال السدي ذكرهم للآخرة وعملهم لها. وقال مالك بن دينار نزع الله تعالى من قلوبهم حب الدنيا وذكراها وأخلصهم بحب الآخرة وذكراها، وكذا قال عطاء الخراساني. وقال سعيد بن جبير يعني بالدار الجنة يقول أخلصناها لهم بذكرهم لها، وقال في رواية أخرى ذكرى الدار عقبى الدار، وقال قتادة كانوا يذكرون الناس الدار الآخرة والعمل لها، وقال ابن زيد جعل لهم خاصة أفضل شيء في الدار الآخرة.

وقوله تعالى: «وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَينَ الْأَخْيَارِ» أي لمن المختارين المجتبين الآخيار فهم آخيار مختارون.

وقوله تعالى: «وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسْعَ وَذَا الْكَفْلِ وَكُلُّ مِنَ الْأَخْيَارِ» قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستقصاة في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما أغني عن إعادةه هنا.

وقوله عز وجل: «هذا ذكر» أي هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر، وقال السدي يعني القرآن العظيم.

وَإِنَّ لِلْمُتَقِينَ لَحْسَنَ مَعَابٍ ﴿١﴾ جَنَّتِ عَدْنِ مَفْتَحَةُ لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٢﴾ مُتَكَبِّرُونَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا يُفْكَرُهُ كَثِيرٌ
وَشَرَابٍ ﴿٣﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصْرَتُ الْطَّرْفِ أَنْرَابٌ ﴿٤﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥﴾ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَمْ يُمْنِ
نَفَادٌ ﴿٦﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء أن لهم في الدار الآخرة لحسن مآب وهو المرجع والمنقلب ثم فسره بقوله تعالى: «جَنَّاتِ عَدْنِ» أي جنات إقامة مفتتحة لهم الأبواب والألف واللام ههنا بمعنى الإضافة كأنه يقول مفتتحة لهم أبوابها أي إذا جاؤوها فتحت لهم أبوابها، قال

ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن ثواب الهماري حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا عبد الله بن مسلم يعني ابن هرمز عن ابن سابط عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة قصراً يقال له عدن حوله البروج والمروج له خمسة آلاف باب عند كل باب خمسة آلاف حبرة^(١) لا يدخله - أو لا يسكنه - إلا نبي أو صديق أو شهيد أو إمام عدل» وقد ورد في ذكر أبواب الجنة الثمانية أحاديث كثيرة من وجوه عديدة.

وقوله عز وجل: «متكين فيها» قيل متربعين فيها على سرر تحت الحجال^(٢) «يدعون فيها بفاكهة كثيرة» أي مهما طلبوا وجدوا وأحضر كما أرادوا «وشراب» أي من أي أنواعه شاؤوا أتتهم به الخدام «بأكواب وأباريق وكأس من معين» [الواقعة: ١٨] «وعندهم قاصرات الطرف» أي عن غير أزواجهن فلا يتضمن إلى غير بعولتهن «أتراب» أي متساويات في السن وال عمر هذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والسدسي «هذا ما توعدون ليوم حساب» أي هذا الذي ذكرنا من صفة الجنة هي التي وعدها عباده المتقين التي يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار. ثم أخبر تبارك وتعالى عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا زوال ولا انقضاء ولا انتهاء فقال تعالى: «إن هذا لرزقنا ماله من نفاد» قوله عز وجل «ما عندكم ينفد وما عند الله باق» [النحل: ٩٦] وكقوله جل وعلا «عطاء غير محدود» [هود: ١٠٨] وكقوله تعالى: «لهم أجر غير ممنون» [فصلت: ٨] أي غير مقطوع وكقوله عز وجل: «أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار» [الرعد: ٣٥] والآيات في هذا كثيرة جداً.

هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَأْبٍ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلُوْنَهَا فَيَسْأَلُهُمْ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ۝
وَأَحَرٌ مِنْ شَكَلِهِ أَرْوَاحٌ ۝ هَذَا فَوْجٌ مُفْتَحٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَبًا يَهْمِمُ إِنْتُمْ صَالُوا النَّارَ ۝ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا
مَرْجَبًا إِلَّا أَنْتُمْ قَدْ مَتُّمُوهُ لَنَا فِيْسَ الشَّرَارُ ۝ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَيَرِدُهُ عَذَابًا ضَعَفَ فِي النَّارِ ۝
وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى بِيَالًا كَانَ نَعْدُمُ مِنَ الْأَشْرَارِ ۝ أَخْذَنَهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ رَانَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَرُ ۝ إِنَّ ذَلِكَ
لَحُقُّ تَحَاصُمٍ أَهْلِ النَّارِ ۝

لما ذكر تبارك وتعالى مآل السعداء ثنى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم وما بهم في دار معادهم وحسابهم فقال عز وجل: «هذا وإن للطاغين» وهم الخارجون عن طاعة الله عز وجل المخالفون لرسل الله ﷺ «لشر مأب» أي لسوء منقلب ومرجع. ثم فسره بقوله جل وعلا: «جهنم يصلونها» أي يدخلونها فتغمرونهم من جميع جوانبهم «فيئس السعاداء هذا فليذوقه

(١) التحبرة: حلقة يمنية.

(٢) الحجلة، بفتح الحاء والجيم: بيت كالقبة يستر بالثياب، وتكون له أزرار كبيرة.

حميم وغساق» أما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حرّه، وأما الغساق فهو ضده وهو البارد الذي لا يستطيع من شدة برد المولم.

ولهذا قال عز وجل: «وآخر من شكله أزواج» أي وأشياء من هذا القبيل: الشيء وضده يعاقبون بها. قال الإمام أحمد^(١): حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن دلواً من غساق يهرافق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا» ورواه الترمذى عن سويد بن نصر عن ابن المبارك عن رشدين بن سعد عن عمرو بن الحارث عن دراج به ثم قال لا نعرفه إلا من حديث رشدين كذا قال وقد تقدم في غير حديثه، ورواه ابن حرير^(٢) عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن عمرو بن الحارث به.

وقال كعب الأ江北: غساق عين في جهنم يسيل إليها حمة كل ذات حمة^(٣) من حية وعقرب وغير ذلك فيستقعد فيؤتى بالأدمي فيغمض فيها غمسة واحدة فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام ويتعلق جلده ولحمه في كعبيه وعقبيه ويجر لحمه كله كما يجر الرجل ثوبه، رواه ابن أبي حاتم. وقال الحسن البصري في قوله تعالى: «وآخر من شكله أزواج» ألوان من العذاب^(٤)، وقال غيره كالزمهرير والسموم وشرب الحميم وأكل الزقوم والصعود والهوي إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة والممتضادة والجميع مما يعذبون به، ويهانون بسيبه.

وقوله عز وجل: «هذا فوج مقتحم معكم لا مرحاً بهم إنهم صالوا النار» هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار بعضهم لبعض كما قال تعالى: «كلما دخلت أمة لعنت أختها» [الأعراف: ٣٨] يعني بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون ويكرف بعضهم ببعض فتقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى إذا أقبلت التي بعدها مع الخزنة من الزبانية «هذا فوج مقتحم» أي داخل «معكم لا مرحاً بهم إنهم صالوا النار» أي لأنهم من أهل جهنم «قالوا بل أنتم لا مرحاً بكم» أي فيقول لهم الداخلون «بل أنتم لا مرحاً بكم أتم قدمتموه لنا» أي أتم دعوتمنا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير «فليس القرار» أي فليس المنزل والمستقر والمصير «قالوا ربنا من قدم لنا هذا فرده عذاباً ضعفاً في النار» كما قال عز وجل: «قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلوانا فاتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون» [الأعراف: ٣٨] أي لكل منكم عذاب بحسبه «وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار أخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار» هذا إخبار عن الكفار في النار أنهم يفقدون رجالاً

(١) المسند ، ٢٨ / ٣ ، ٨٣ .

(٢) تفسير الطبرى / ١٠ ، ٦٠٠ .

(٣) الحمة: سم العقرب .

(٤) تفسير الطبرى / ١٠ ، ٦٠٠ .

كانوا يعتقدون أنهم على الصالحة وهم المؤمنون في زعمهم قالوا ما لنا لا نراهم معنا في النار.
قال مجاهد: هذا قول أبي جهل يقول ما لي لا أرى بلالاً وعماراً وصهيباً وفلاناً وفلاناً وهذا ضرب مثل وإلا فكل الكفار هذا حالهم يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم فقالوا «ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدّهم من الأشرار أتخذناهم سخرياً» أي في الدار الدنيا «أم زاغت عنهم الأبصار» يسألون أنفسهم بالمحال يقولون أو لهم معنا في جهنم ولكن لم يقع بصرنا عليهم، فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العالىات وهو قوله عز وجل: «ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين» - إلى قوله - «ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون» [الأعراف: ٤٤ - ٤٩] وقوله تعالى: «إن ذلك لحق تخاصم أهل النار» أي إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض ولعن بعضهم لبعض لحق لا مرية فيه ولا شك.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَحْدَةُ الْقَهَّارُ ۖ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا يَنْهَا مُعَزِّزٌ لِغَفَرَانٍ ۗ قُلْ هُوَ نَبِيُّاً عَظِيمًا ۗ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعَرَّضُونَ ۖ مَا كَانَ لِيٰ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَائِكَةِ إِذَا يُخَاصِّمُونَ ۖ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا
نَذِيرٌ لِّرِبِّ الْمُرْسَلِينَ ۗ

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول للكافر بالله المشركين به المكذبين لرسوله إنما أنا منذر
لست كما تزعمون «وما من إله إلا الله الواحد القهار» أي هو وحده قد قهر كل شيء وغله
«رب السموات والأرض وما بينهما» أي هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه «العزيز الغفار»
أي غفار مع عظمته وعزته «قل هو نبا عظيم» أي خبر عظيم وشأن بلieve وهو إرسال الله تعالى
إياتكم «أنتم عنه معرضون» أي غافلون، قال مجاهد وشريح القاضي والسدي في قوله عز
وجل: «قل هو نبا عظيم» يعني القرآن.

وقوله تعالى: «ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون» أي لو لا الوحي من أين كنت أدرى باختلاف الملأ الأعلى؟ يعني في شأن آدم عليه الصلاة والسلام وامتناع إبليس من السجود له ومحاجته ربه في تفضيله عليه . فاما الحديث الذي رواه الإمام أحمد^(١) حيث قال: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا جهضم اليمامي عن يحيى بن أبي كثير عن زيد بن أبي سلام عن أبي سلام عن عبد الرحمن بن عائش عن مالك بن يخامر عن معاذ رضي الله عنه قال: احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غدة من صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى قرن الشمس فخرج عليه السلام سريعاً فثوب^(٢) بالصلاه فصلى

المسند ٢٤٣ / ٥ (١)

(٢) التثبيت: إقامة الصلاة.

وتجوز^(١) في صلاته فلما سلم قال ﷺ: «كما أنتم على مصافكم» ثم أقبل إلينا فقال: «إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة إني قمت من الليل فصلت ما قدر لي فعشت في صلاتي حتى استيقظت فإذا أنا برببي عز وجل في أحسن صورة فقال: يا محمد أتدري فيما يختص الملا الأعلى، قلت لا أدرى يا رب - أعادها ثلاثة - فرأيته وضع كفه بين كتفيه حتى وجدت برد أنامله بين صدري فتجلى لي كل شيء وعرفت فقال: يا محمد فيما يختص الملا الأعلى؟ قلت: في الكفارات. قال: وما الكفارات؟ قلت: نقل الأقدام إلى الجماعات والجلوس في المساجد بعد الصلوات وإسباغ الوضوء عند الكريهات. قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام ولين الكلام والصلوة والناس نiam، قال: سل، قلت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة بقوم فتوفني غير مفتون، وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك - وقال رسول الله ﷺ - إنها حق فادرسوها وتعلموها» فهو حديث المتن المشهور، ومن جعله يقطة فقد غلط وهو في السنن من طرق، وهذا الحديث يعنيه قد رواه الترمذى من حديث جهضم بن عبد الله اليمامي به، وقال: حسن صحيح وليس هذا الاختصاص هو الاختصاص المذكور في القرآن فإن هذا قد فسر، وأما الاختصاص الذي في القرآن فقد فسر بعد هذا وهو في قوله تعالى:

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقَ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَجَدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكَرَ وَكَانَ مِنَ الْكُفَّارِ فَالْيَقِинُ لِلَّهِ مَا مَعَكُمْ أَنْ سَجُدَ لِمَا خَلَقْتُ يَدِي أَسْتَكَبْرَتْ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالَمِينَ فَالْأَنْ أَنْهَا خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتُمْ مِنْ طِينٍ قَالَ فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجُومٌ وَلَئِنْ عَلَيْكَ لَعْنَةٌ إِلَى يَوْمِ الْيَقْظَةِ فَالْأَنْ رَبِّ فَانْظُرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبَعَّثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ فَالْأَنْ فَعِرْنَاكَ لَأَغْوِيَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا أَعِبَّدُكَ مِنْهُمُ الْمُحَلَّصِينَ قَالَ فَأَلْحُقْ وَالْحَقَّ أَقُولُ لِلْأَمْلَأَنَ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَعَكَّبَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ

هذه القصة ذكرها الله تبارك وتعالى في سورة البقرة وفي أول سورة الأعراف وفي سورة الحجر وب سبحان والكهف وهبنا وهي أن الله سبحانه وتعالى أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام بأنه سيخلق بشراً من صلصال من حماً مسنون وتقديم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراماً وإعظاماً واحتراماً وامتثالاً لأمر الله عز وجل فامثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس ولم يكن منهم جنساً. كان من الجن فخانه طبعه وجلبه أحوج ما كان إليه فاستنكف عن السجود لأدم وخاصم ربه عز وجل فيه وادعى أنه خير من آدم فإنه مخلوق من نار وأدم خلق من طين والنار خير من الطين في زعمه، وقد أخطأ في ذلك وخالف أمر الله

(١) تجوز في صلاة: خففها وأسرع بها.

تعالى وکفر بذلك فأبعده الله عز وجل وأرغم أنفه وطرده عن باب رحمته ومحل أنسه، وحضره قدسه، وسماه إيليس إعلاماً له بأنه قد أبلس^(١) من الرحمة وأنزله من السماء مذموماً مدحراً إلى الأرض فسأل الله النّظرة إلى يوم البعث فأنظره الحليم الذي لا يعجل على من عصاه. فلما أمن الهايـك إلى يوم القيمة تمرد وطغى

وقال: «فَبِعْزَتِكَ لَا غُوْنِيهِمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَبَادُكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصُونَ»^(٢) كما قال عز وجل: «أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرِمْتَ عَلَيْهِ ثَنَةِ أَخْرَتْنَاهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنَكَ ذُرِّيَّتَهِ إِلَّا قَلِيلًا» [الإسراء: ٦٢] وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى وهي قوله تعالى: «إِنَّ عَبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرِبِّكَ وَكِيلًا» [الإسراء: ٦٥].

وقوله تبارك وتعالى: «قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ لِأَمْلَأُ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَمْنُ تَبْعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ» قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع الحق الأول وفسره مجاهد بأن معناه أنا الحق والحق أقول، وفي رواية عنه: الحق مني وأقول الحق، وقرأ آخرون بتصبّهما قال السدي هو قسم أقسم الله به^(٣).

(قلت) وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: «وَلَكِنْ حَقُّ الْقَوْلِ مِنِي لِأَمْلَأُ جَهَنَّمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ» [السجدة: ١٣] وكقوله عز وجل: «قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا» [الإسراء: ٦٣].

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَنِيهِ مِنْ أَحَرِّ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفُونَ ﴿٤﴾ إِنَّهُو إِلَّا ذَكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ بِنَاءً بَعْدَ حِينَ ﴿٦﴾
يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجراً تعطوني من عرض الحياة الدنيا «وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفُونَ» أي وما أريد على ما أرسلني الله تعالى به ولا أبتغي زيادة عليه بل ما أمرت به أديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغي بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة، قال سفيان الثوري عن الأعمش ومنصور عن أبي الضحى عن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم، الله أعلم، فإن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ: «قَلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَنِيهِ مِنْ أَحَرِّ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفُونَ» أخر جاه من حديث الأعمش، به وقوله تعالى: «إِنَّهُو إِلَّا ذَكْرٌ لِلْعَالَمِينَ» يعني القرآن ذكر لجميع المكلفين به من الإنس والجن، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وروى ابن أبي حاتم عن أبيه عن أبي غسان مالك بن إسماعيل: حدثنا قيس عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: «لِلْعَالَمِينَ» قال: الجن والإنس، وهذه الآية الكريمة كقوله

(١) أبلس: أي يشن.

(٢) تفسير الطبرى ٦٠٨/١٠.

تعالى : ﴿لَا نذركم به ومن بلغ﴾ [الأنعام: ١٩] وك قوله عز وجل : ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ [هود: ١٧] و قوله تعالى : ﴿ولتعلمن نبأه﴾ أي خبره وصدقه ﴿بعد حين﴾ أي عن قريب قال قنادة بعد الموت وقال عكرمة يعني يوم القيمة، ولا منافاة بين القولين فإن من مات فقد دخل في حكم القيمة، وقال قنادة في قوله تعالى : ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ قال الحسن يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين^(١).

وهي مكية

قال النسائي^(١) حدثنا محمد بن النضر بن مساور حدثنا حماد عن مروان أبي لبابة عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى يقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى يقول: ما يريد أن يصوم، وكان ﷺ يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝ أَلَا إِنَّ اللَّهَ الَّذِينَ أَخْنَدُوا مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ مَنْ نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقْرِبُونَا إِلَى اللَّهِ رُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ بِمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذَّابٌ كَفَّارٌ ۝ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَخَذَ ولَدًا لَأَضْطَفَنَّ مَا يَأْتِي إِنَّ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَحْدَةُ الْغَنَّا

يُخبر تعالى أن تنزل هذا الكتاب وهو القرآن العظيم من عنده تبارك وتعالى فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك كما قال عز وجل: «إِنَّه لِتَنْزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذَرِينَ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» [الشعراء: ١٩٣ — ١٩٥] وقال تبارك وتعالى: «إِنَّه لِكِتَابٍ عَزِيزٍ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» [فصلت: ٤٢] وقال جل وعلا ها هنا: «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ» أي المنبع الجناب «الْحَكِيمُ» أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ» أي فاعبد الله وحده لا شريك له وادع الخلق إلى ذلك وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد ولهذا قال تعالى: «أَلَا إِنَّ الدِّينَ الْخَالِصَ» أي لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل الله وحده لا شريك له.

وقال قتادة في قوله تبارك وتعالى: «أَلَا إِنَّ الدِّينَ الْخَالِصَ» شهادة أن لا إله إلا الله^(٢) ثم أخبر عز وجل عن عباد الأصنام من المشركين أنهم يقولون «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» أي إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم وما ينوهم من أمور الدنيا فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به. قال قتادة والسدي ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد: «إِلَّا لِيقربونا إِلَى الله زلفى»

(١) كتاب الصيام باب ٣٤.

(٢) تفسير الطبرى ٦١١/١٠.

أي ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك. وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون قديم الدهر وحديثه وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بردّها والنهي عنها والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له وأنّ هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم لم يأذن الله فيه ولا رضي به بل أبغضه ونهى عنه ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنَبُوا الطاغوت﴾ [النحل: ٣٦] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنياء: ٢٥] وأخبر أن الملائكة التي في السموات من الملائكة المقربين وغيرهم كلهم عبيد خاضعون لله لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبواه ﴿فَلَا تَضْرِبُوا اللَّهَ بِالْأَمْثَال﴾ [النحل: ٧٤] تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً.

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي يوم القيمة ﴿فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي سيفصل بين الخالقين يوم معاذهم ويجزي كل عامل بعمله ﴿وَيَوْمَ نَحْشِرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهُؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سَبَّاحَنَاكَ أَنْتَ وَلِنَا مِنْ دُونِنَّمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّاَنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠ - ٤١] وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مِنْهُ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي لا يرشد إلى الهدى من قصده الكذب والافتراء على الله تعالى وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه، ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهله المشركون في الملائكة والمعاذنون من اليهود والنصارى في العزيز وعيسى فقال تبارك وتعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَخَذِّلْ وَلَدًا لَاصْطَفَى مَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي لكان الأمر على خلاف ما يزعمون وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه بل هو محال وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه كما قال عز وجل: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَخَذَ لَهُواً لَا تَخْذَنَاهُ مِنْ لَدُنَّنَا إِنْ كَنَا فَاعْلَيْنِ﴾ [الأنياء: ١٧] ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِرَحْمَنَ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] كل هذا من باب الشرط ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم.

وقوله تعالى: ﴿سَبَّاحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي تعالى وتنزه وتقى من أن يكون له ولد، فإنه الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي كل شيء عبد لديه فقير إليه وهو الغني عما سواه الذي قد قهر الأشياء فدانت وذلت وخضعت تبارك وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيراً.

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ أَيْلَلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى أَيْلَلِ وَسَحَرَ السَّمَسَ وَالْقَمَرَ كُلُّ بَجَرِي لِأَجْكَلِ مُسَكَّمٍ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحْدَةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَمِ نَفْيَةً أَزْوَجَ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَتِكُمْ خَلَقَ مِنْ بَعْدِ خَلْقِ

فِي ظُلْمَتِ ثَلَاثِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَأَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنْ تُصْرَفُونَ

يخبر تعالى أنه الخالق لما في السموات والأرض وما بين ذلك من الأشياء وبأنه مالك الملك المتصرف فيه يقلب ليه ونهاره **(يكور الليل على النهار ويكون النهار على الليل)** أي سخرهما بجريان متعاقبين لا يفتران كل منهما يطلب الآخر طلباً حيثما قوله تبارك وتعالى: **(يغشى الليل النهار يطلبه حيثاً)** [الأعراف: ٥٤] هذا معنى ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة والسدي وغيرهم^(١).

وقوله عز وجل: **(وَسَخَرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلُّ يَجْرِي لِأَجْلِ مَسْمِيٍّ)** أي إلى مدة معلومة عند الله تعالى ثم ينقضي يوم القيمة **(أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَارُ)** أي مع عزته وعظمته وكرياته وهو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه.

وقوله جلت عظمته: **(خَلَقْتُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)** أي خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألوانكم من نفس واحدة وهو آدم عليه الصلاة والسلام **(ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا)** وهي حواء عليها السلام كقوله تعالى: **(إِنَّمَا أَهْلُكَ النَّاسَ مَا اتَّقُوا رَبُّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً)** [النساء: ١] وقوله تعالى: **(وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَّةً أَزْوَاجٍ)** أي خلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج وهي المذكورة في سورة الأنعام، **(ثَمَانِيَّةً أَزْوَاجٍ مِنَ الظَّانِنَاتِ وَمِنَ الْمَعَزِينَ . . . وَمِنَ الْإِبْلِيَّنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ)** [الأنعام: ١٤٣] وقوله عز وجل: **(يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أَمْهَاتِكُمْ)** أي قدركم في بطون أمهاتكم **(خَلَقَ مِنْ بَعْدِ خَلْقِهِ أَحَدَكُمْ أَوْلَأَ نَطْفَةً ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً ثُمَّ يَكُونُ مَضْعَةً ثُمَّ يَخْلُقُ فِيهَا لَحْمًاً وَعَظِيمًاً وَعَصْبًاً وَعَروقًاً وَيَنْفَخُ فِيهَا رُوحًا فَيُصِيرُ خَلْقًا آخَرَ** **(فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)** [المؤمنون: ١٤].

وقوله جل وعلا: **(فِي ظَلَمَاتِ ثَلَاثَةِ)** يعني في ظلمة الرحم وظلمة المشيمة التي هي كالعشاشة والواقية على الولد وظلمة البطن. كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة وأبو مالك والضحاك وقتادة والسدي وابن زيد. وقوله جل جلاله: **(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ)** أي هذا الذي خلق السموات والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق آباءكم هو رب له الملك والتصرف في جميع ذلك **(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)** أي الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له **(فَإِنِّي تُصْرَفُونَ)** أي فكيف تعبدون معه غيره؟ أين يذهب بعقولكم؟

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادَهُ الْكُفُرُ وَإِنْ تَشْكُرُوا بِرَضْهَهُ لَكُمْ وَلَا تَزُرُوا وَازِرَهُ وَزَرَهُ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيَنَتَّهُمُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الْأَصْدُورِ

الْإِنْسَنَ ضُرُّ دَعَارَبَهُ مُنِيبًا إِلَيْهِمْ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُونَا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا
لِيُضْلِلَ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن نفسه أنه الغني عما سواه من المخلوقات كما قال موسى عليه الصلاة والسلام «إن تکفروا أنت ومن في الأرض جمیعاً فإن الله لغنى حمید» وفي صحيح مسلم «يا عبادي لو أن أولکم وأخرکم وإنکم وجنككم كانوا على أفجر قلب رجل منکم ما نقص ذلك من ملکي شيئاً»^(١).

وقوله تعالى: «ولا يرضى لعباده الكفر» أي لا يحبه ولا يأمر به «وإن تشکروا يرضه لكم» أي يحبه منکم ويزدکم من فضلهم «ولا تزر وازرة وزر أخرى» أي لا تحمل نفس عن نفس شيئاً بل كل مطالب بأمر نفسه «ثم إلى ربکم مرجعکم فينبئکم بما کتتم تعملون إنه علیم بذات الصدور» أي فلا تخفى عليه خافية.

وقوله عز وجل: «وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منیباً إليه» أي عند الحاجة يتضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له كما قال تعالى: «وإذا مسکم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إیاه فلما نجاکم إلى البر أعرضتم وکان الإنسان کفوراً» [الإسراء: ٦٧] ولهذا قال تبارك وتعالى: «ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل» أي في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع كما قال جل جلاله: «وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضرہ مر کأن لم يدعنا إلى ضر مسه» [يونس: ١٣].

وقوله تعالى: «وجعل الله أنداداً ليضل عن سبیله» أي في حال العافية يشرك بالله و يجعل له أنداداً «قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار» أي قل لمن هذه حاله وطريقته ومسلکه تمتع بكفرك قليلاً وهو تهديد شديد ووعيد أکيد قوله تعالى: «قل تمتعوا فإن مصيرکم إلى النار» [إبراهيم: ٣٠] وقوله تعالى: «نعمتهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غلیظ» [لقمان: ٢٤].

أَمَنْ هُوَ قَنِيتُ إِنَّا نَأَيْلَ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَخْذُرُ الْآخِرَةَ وَبَرْحُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ
وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾

يقول عز وجل أمن هذه صفتة کمن أشرك بالله وجعل له أنداداً، لا يستون عنده الله كما قال تعالى: «ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون» [آل عمران: ١١٣] وقال تبارك وتعالى ههنا: «أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً» أي في حال

(١) أخرج مسلم في البر حدیث ٥٥ ، والترمذی في القيامة باب ٤٨ ، وابن ماجه في الرهد باب ٣٠ ، وأحمد في المسند ١٥٤ / ٥ .

سجوده وفي حال قيامه ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع في الصلاة وليس هو القيام وحده كما ذهب إليه آخرون . وقال الثوري عن فراس عن الشعبي عن مسروق عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : القانت المطيع لله عز وجل ولرسوله ﷺ وقال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن والسدي وابن زيد : آناء الليل جوف الليل . وقال الثوري عن منصور بلغنا أن ذلك بين المغرب والعشاء ، وقال الحسن وقتادة آناء الليل أوله وأوسطه وأخره .

وقوله تعالى : «يَحْذِرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ» أي في حال عبادته خائف راج ولا بد في العبادة من هذا وهذا وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب ولهذا قال تعالى : «يَحْذِرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ» فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه كما قال الإمام عبد بن حميد في مسنده : حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا ثابت عن أنس رضي الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت فقال له : «كيف تجدك؟» فقال : أرجو وأخاف ، فقال رسول الله ﷺ : «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله عز وجل الذي يرجو وأمنه الذي يخافه»^(١) . ورواه الترمذى والنسائى في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث سيار بن حاتم عن جعفر بن سليمان به وقال الترمذى غريب ، وقد رواه بعضهم عن ثابت عن أنس عن النبي مرسلاً .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عمر بن شبة عن عبيدة النميري حدثنا أبو خلف عبد الله بن عيسى الخزار حدثنا يحيى البكاء أنه سمع ابن عمر رضي الله عنهما يقرأ «أَمْنٌ هُوَ قَاتِ آنَاءَ الْلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذِرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ» قال ابن عمر ذاك عثمان بن عفان رضي الله عنه وإنما قال ابن عمر رضي الله عنهما ذلك لكثره صلاة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه بالليل وقراءته حتى أنه ر بما قرأ القرآن في ركعة كما روى ذلك أبو عبيدة عنه رضي الله تعالى عنه ، وقال الشاعر : [البسيط]

ضَحَّوْا بِأَشْمَطِ عَنْوَانِ السُّجُودِ بِهِ يَقْطَعُ الْلَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنًا^(٢)

وقال الإمام أحمد^(٣) : كتب إلى الربيع بن نافع حدثنا الهيثم بن حميد عن زيد بن واقد عن سليمان بن موسى عن كثير بن مرة عن تميم الداري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ بمائة آية في ليلة كتب له قنوت ليلة» وكذا رواه النساءى في اليوم والليلة عن إبراهيم بن يعقوب عن عبد الله بن يوسف والربيع بن نافع كلامهما عن الهيثم بن حميد به . وقوله تعالى :

(١) أخرجه الترمذى في الجنائز باب ١١ ، وابن ماجه في الزهد باب ٣١ .

(٢) البيت لحسان بن ثابت في ديوانه ص ٢١٦ ، ولسان العرب (عن)، (ضحا)، وتأج العروس (عن)، وتهذيب اللغة ١١١/١ .

(٣) المسند ٤/١٠٣ .

﴿فَلَمْ يَسْتُوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي هل يستوي هذا والذى قبله من جعل الله أنداداً ليضل عن سبيله ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَاب﴾ أي إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل، والله أعلم.

قُلْ يَعْبُدُ اللَّهُ الَّذِينَ إِمَّا مُؤْمِنُوا أَنَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَنْوَحُ اللَّهَ وَاسْعَةً إِنَّمَا يُؤْفَى
الصَّنِيرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿فَلَمَّا أَمْرَتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الَّذِينَ
وَأَمْرَتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ
الْمُسْلِمِينَ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿فَلَمْ يَأْتِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْقَوْا
رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياهم وأخرادهم، قوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسْعَةٌ﴾ قال مجاهد: فهاجروا فيها وجاهدوا واعتزلوا الأولان^(١).

وقال شريك عن منصور عن عطاء في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسْعَةٌ﴾ قال: إذا دعيتم إلى معصية فاهرموا ثم قرأ ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسْعَةً فَنَهَا جَرَوْا فِيهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَوْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قال الأوزاعي ليس يوزن لهم ولا يكال لهم إنما يغرف لهم غرفاً، وقال ابن جريج بلغني أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط، ولكن يزادون على ذلك، وقال السدي ﴿إِنَّمَا يَوْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يعني في الجنة^(٢). قوله: ﴿فَلَمَّا أَمْرَتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّين﴾ أي إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ﴿وَأَمْرَتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال السدي يعني من أمته بِهِ.

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿فَأَعْبُدُهُ وَمَا شَتَّمْتُ مِنْ دُونِهِ قُلْ
إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿لَمَّا
مِنَ النَّارِ وَمَنْ تَحْمِلُ مُثْلَلٌ ذَلِكَ يُعَوِّفُ اللَّهُ يَعْلَمُ عَبَادَهُ يَعْبُدُهُ فَإِنَّقُونَ﴾

يقول تعالى قل يا محمد وأنت رسول الله ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيمة وهذا شرط معناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأخرى ﴿فَلَمَّا أَعْبَدَهُ مُخْلِصًا
لِهِ دِينِي فَاعْبَدُوا مَا شَتَّمْتُ مِنْ دُونِهِ﴾ وهذا أيضاً تهديد وتبّرّ منهم ﴿فَلَمَّا أَخْسَرُوا
الْخَاسِرُونَ كُلَّ الْخَسْرَانِ﴾ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيمة^(٣) أي تفارقاً فلا تقاء لهم أبداً وسواء ذهب أهلوهم إلى الجنة وقد ذهبوا هم إلى النار أو أن الجميع أسكنوا النار ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي هذا هو الخسران البين الظاهر

(١) انظر تفسير الطبرى ٦٢٢ / ١٠.

(٢) تفسير الطبرى ٦٢٢ / ١٠.

الواضح ثم وصف حالهم في النار فقال: ﴿لَهُم مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلْلٌ﴾ كما قال عز وجل: ﴿لَهُم مِنْ جَهَنَّمْ مَهَادٍ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٌ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥] قوله جل جلاله: ﴿ذَلِكَ يَخْوِفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادُهُ﴾ أي إنما يقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده ليترجروا عن المحارم والمأثم. قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادَ فَاتَّقُوهُ﴾ أي اخشوا بأسي وسطوتي وعدائي ونقمتي.

وَالَّذِينَ أَجْنَبْنَا أَطْبَعْنَاهُ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَّابُوا إِلَى اللَّهِ هُمُ الْمُشْرِكُونَ فَبَشِّرْ عِبَادَ لِلَّهِ الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ الْقُوْلَ فَيَسْتَمْعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه ﴿وَالَّذِينَ اجْنَبْنَا أَطْبَعْنَاهُ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل وأبي ذر وسلمان الفارسي رضي الله تعالى عنهم^(١) وال الصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم ممن اجتنب عبادة الأوثان وأناب إلى عبادة الرحمن فهو لاءهم الذين لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة ثم قال عز وجل: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ الْقُوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أي يفهمونه ويعملون بما فيه كقوله تبارك وتعالى لموسى عليه الصلاة والسلام حين آتاه التوراة ﴿فَخَذْهَا بِقُوَّةٍ وَأَمْرُ قَوْمِكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي ذوو العقول الصحيحة والفطر المستقيمة.

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَاسَتْ تُقْدِمُ مِنْ فِي النَّارِ لِكِنَّ الَّذِينَ أَنْقَرُوا رَهْبَمْ لَهُمْ عُرْفٌ مِنْ فَوْقَهَا عُرْفٌ مَيْلَيَّةٌ يَحْرِي مِنْ تَحْيَاهَا الْأَنْتَرُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلُفُ اللَّهُ الْمُسْعَادُ

يقول تعالى ألمن كتب الله أنه شقي تقدر تقدنه مما هو فيه من الضلال والهلاك؟ أي لا يهديه أحد من بعد الله لأنه من يضل الله فلا هادي له ومن يهدى فلا مضل له. ثم أخبر عز وجل عن عباده السعداء أن لهم غرفاً في الجنة وهي القصور الشاهقة ﴿مِنْ فَوْقَهَا غُرْفَةٌ مَيْلَيَّةٌ يَحْرِي مِنْ تَحْيَاهَا الْأَنْتَرُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلُفُ اللَّهُ الْمُسْعَادُ﴾ أي طباق فوق طباق مبنيات محكمات مزخرفات عاليات.

قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا عباد بن يعقوب الأسدي حدثنا محمد بن فضيل عن عبد الرحمن بن إسحاق عن النعمان بن سعد عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً يرى بطنونها من ظهورها وظهورها من بطنونها» فقال أعرابي لمن هي يا رسول الله؟ قال ﷺ: «لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس

نiam^(١) ورواه الترمذى^(٢) من حديث عبد الرحمن بن إسحاق وقال حسن غريب. وقد تكلم بعض أهل العلم فيه من قبل حفظه وقال الإمام أحمد^(٣) حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن يحيى بن أبي كثير عن ابن معانق أو أبي معانق عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قاتل رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغراً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها» أعذر الله تعالى من أطعم الطعام وألان الكلام وتتابع الصيام وصلى والناس نiam^(٤) تفرد به أحمد من حديث عبد الله بن معانق الأشعري عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه به.

وقال الإمام أحمد^(٥): حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن عن أبي حازم عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون في الغرفة في الجنة كما تراءون الكوكب في أفق السماء» قال فحدثت بذلك النعمان بن أبي عياش فقال سمعت أبا سعيد الخدري رضي الله عنه يقول: «كما تراءون الكوكب الدُّرُّي في الأفق الشرقي أو الغربي»^(٦) آخر جاه في الصحيحين من حديث أبي حازم وأخر جاه أيضاً في الصحيحين من حديث مالك عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ.

وقال الإمام أحمد^(٧): حدثنا فزارة أخبرني فليخ عن هلال بن علي عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون في الجنة أهل الغرف كما تراءون الكوكب الدرى الغارب في الأفق الطالع في تفاضل أهل الدرجات - فقالوا يا رسول الله أولئك النبيون؟ فقال ﷺ: «بلى والذى نفسي بيده أقوام آمنوا بالله وصدقوا الرسل» ورواه الترمذى عن سويد عن ابن المبارك عن فليخ به وقال حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد^(٨): حدثنا أبو النصر وأبو كامل قالا حدثنا زهير حدثنا سعد الطائي حدثنا أبو المدلل مولى أم المؤمنين رضي الله عنهما أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قلت يا رسول الله إنما إذا رأيناكم رقت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة فإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشمنا النساء والأولاد قال ﷺ: «لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفهم ولزارتم في بيوتكم، ولو لم تذنبوا العجاء الله عز وجل بقوم يذنبون

(١) مسند أحمد ١٥٥ / ١٥٦ .

(٢) كتاب التفسير، تفسير سورة ٣٨، باب ٤، ٢ .

(٣) المسند ٥ / ٣٤٣ .

(٤) المسند ٥ / ٣٤٠ .

(٥) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٨، ومسلم في الجنة حديث ١٠، ١١ .

(٦) المسند ٢ / ٣٣٩ .

(٧) المسند ٢ / ٣٠٤ - ٣٠٥ .

كي يغفر لهم» قلنا: يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال ﷺ: «البنة ذهب ولبنة فضة وملاطها المسك الأدفر وحصباوتها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران من يدخلها ينعم ولا ييأس ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفني شبابه، ثلات لا ترد دعوتهم: الإمام العادل والصادق حتى يفطر ودعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السموات ويقول رب تبارك وتعالى وعزتي لأنصرتك ولو بعد حين»^(١) وروى الترمذى وابن ماجه بعضه من حديث سعد بن أبي مجاهد الطائى وكان ثقة عن أبي المدله وكان ثقة به.

وقوله تعالى: «تجري من تحتها الأنهر» أي تسلك الأنهر من خلال ذلك كما يشاؤون وأين أرادوا « وعد الله» أي هذا الذي ذكرناه وعده الله عباده المؤمنين «إن الله لا يخلف الميعاد».

اَلْمَرْرَأَنَّ اللَّهَ اَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَّكُهُ يَنْبَغِي فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يَخْرُجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا الْوَانَهُ ثُمَّ يَهْبِطُ فَتَرَكَهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولَئِكَ الْأَلْبَابِ ۚ ۝ اَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدَرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوْلِي لِلْقَسِيسَةِ قَوْلُهُمْ مِنْ ذَكْرِ اللَّهِ اُفَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝

يخبر تعالى أن أصل الماء من السماء كما قال عز وجل: « وأنزلنا من السماء ماء طهوراً» [الفرقان: ٤٨] فإذا أنزل الماء من السماء كمن في الأرض ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء وينبعه عيوناً ما بين صغار وكبار بحسب الحاجة إليها ولهذا قال تبارك وتعالى: « فسلكه ينابيع في الأرض» قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين حدثنا عمرو بن علي حدثنا أبو قبيبة عتبة بن يقطان عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض» قال ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء ولكن عروق في الأرض تغيره فذلك قوله تعالى: « فسلكه ينابيع نب في الأرض» فمن سره أن يعود الملح عذباً فليصعده، وكذلك قال سعيد بن جبير وعامر الشعبي أن كل ماء في الأرض فأصله من السماء، وقال سعيد بن جبير أصله من الثلج يعني أن الثلج يتراكم على الجبال فيسكن في قرارها فتبني العيون من أسافلها.

وقوله تعالى: « ثُمَّ يَخْرُجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا الْوَانَهُ» أي ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعاً مختلفاً ألوانه أي أشكاله وطعمه وروائحه ومنافعه « ثُمَّ يَهْبِطُ» أي بعد نضارته وشبابه يكتهل فتراه مصfraً قد خالطه الييس « ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً» أي ثم يعود يابساً يتحطى « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولَئِكَ الْأَلْبَابِ» أي الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة نضرة حسنة ثم تعود عجوزاً شوهاء والشاب يعودشيخاً هرماً كبيراً ضعيفاً

(١) أخرجه الترمذى في الجنة باب ٢ ، والدارمى في الرقاق باب ١٠٠ .

وبعد ذلك كله الموت ، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير ، وكثيراً ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء وينبت به زروعاً وثماراً ثم يكون بعد ذلك حطاماً كما قال تعالى : «وَاضْرِبْ لَهُمْ مِثْلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءً أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذَرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا» [الكهف: ٤٥].

وقوله تبارك وتعالى : «أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صِدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ» أي هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب بعيد من الحق كقوله عز وجل : «أَوْ مَنْ كَانَ مِنَ الْمُتَّكِئِنَّ فَأَحْبَبَنَا نُورًا يُمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلَهِ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا» [الأنعام: ١٢٢] ولهذا قال تعالى : «فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَّةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذَكْرِ اللَّهِ» أي فلا تلين عند ذكره ولا تخشع ولا تعني ولا تفهم «أَوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» .

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَتَّافِيٍّ تَقْشِعُّ مِنْهُ جُلُودُهُمْ رَبَّهُمْ هُمْ تَلَّيْنُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدًى لِلَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ

هذا مدح من الله عز وجل لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم . قال الله تعالى : «الله نزل أحسن الحديث كتاباً متتشابهاً مثاني» قال مجاهد يعني القرآن كله متتشابه مثاني ، وقال قتادة : الآية تشبه الآية والحرف يشبه الحرف وقال الضحاك : «مثاني» ترديد القول ليفهموا عن ربهم تبارك وتعالى وقال عكرمة والحسن : ثنى الله فيه القضاء زاد الحسن تكون السورة فيها آية وفي السورة الأخرى آية تشبهها^(١) ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : «مثاني» مردد ردد موسى في القرآن وصالح وهود والأنبياء عليهم الصلاة والسلام في أمكة كثيرة .

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهم : «مثاني» قال القرآن يشبه بعضه ببعضاً ويرد بعضه على بعض ، وقال بعض العلماء ويروى عن سفيان بن عيينة معنى قوله تعالى : «متتشابهاً مثاني» أن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد فهذا من المتتشابه وتارة تكون بذكر الشيء وضده كذكر المؤمنين ثم الكافرين وكصفة الجنة ثم صفة النار وما أشبه هذا فهذا من المثاني كقوله تعالى : «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفَجَارَ لَفِي جَحِيمٍ» [الأنفاطار: ١٣ - ١٤] وقوله عز وجل : «كُلَا إِنْ كَتَبَ الْفَجَارَ لَفِي سَجِينٍ» - إلى أن قال - «كُلَا إِنْ كَتَبَ الْأَبْرَارَ لَفِي عَلِيِّينَ» [المطففين: ٧ - ١٨] «هَذَا ذَكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَقِنِّ لَهُ سَبَبٌ» - إلى أن قال - «هَذَا وَإِنَّ لِلْطَّاغِينِ لَشَرٌ سَبَبٌ» [ص: ٤٩ - ٥٥] ونحو هذا من السياقات فهذا كله من المثاني أي في معنيين اثنين وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه ببعضاً فهو المتتشابه وليس هذا من المتتشابه المذكور في قوله تعالى : «مِنْهُ آيَاتٌ مُحَكَّمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرَ مُتَشَابِهَاتٍ» [آل عمران: ٧] ذاك معنى آخر . قوله تعالى : «تَقْشِعُّ مِنْهُ جُلُودُ الْذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَّيْنُ

جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﷺ أي هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون من الوعد والوعيد، والتخييف والتهديد تشعر منه جلودهم من الخشية والخوف ﴿ثُمَّ تَلِينَ جَلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لما يرجون و يؤملون من رحمته ولطفه فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوهه.

[أحدها] أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات وسماع أولئك نغمات الأبيات من أصوات القينات^(١) [الثاني] أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً بأدب وخشية ورجاء ومحبة وفهم وعلم كما قال تبارك وتعالى: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتٍ زَادُوهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يَنفَقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًا لَهُمْ درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم» [الأنفال: ٢ - ٤] وقال تعالى: «وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُوُا عَلَيْهَا صَمًّا وَعَمِيَانًا» [الفرقان: ٧٣] أي لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لا هين عنها بل مصغين إليها فاهمين بصيرين بمعانيها فلهذا إنما يعملون بها ويستجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم.

[الثالث] أنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله تعالى من تلاوة رسول الله ﷺ تشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله . ولم يكونوا يتصارخون ولا يتتكلفون بما ليس فيهم بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك ولهذا فازوا بالمدح من رب الأعلى في الدنيا والآخرة . قال عبد الرزاق حدثنا معمر قال تلا قتادة رحمة الله ﷺ تشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﷺ قال هذا نعت أولياء الله ، نعمتهم الله عز وجل بأن تشعر جلودهم وت بكى أعينهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ولم يتعتم بهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما هذا في أهل البدع ، وهذا من الشيطان .

وقال السدي **﴿ثُمَّ تَلِينَ جَلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾** أي إلى وعد الله ، قوله : **﴿ذَلِكَ هُدًى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾** أي هذه صفة من هداه الله ومن كان على خلاف ذلك فهو من أضلله الله **﴿وَمَنْ يَضْلِلَ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾** [الرعد: ٣٣]

أَفَمَنْ يَتَقَى بِوْجَهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢﴾ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣﴾ مِنْ حَيْثُ لَا يَسْعُرُونَ ﴿٤﴾ فَإِذَا فَهُمْ لِلْيَقْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

يقول تعالى : **«أَفَمَنْ يَتَقَى بِوْجَهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾** ويُقرع فيقال له ولا مثال له من

(١) القينات: المغينيات .

الظالمين ﴿ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾ كمن يأتي آمناً يوم القيمة كما قال عز وجل : ﴿أَفَمِنْ يَمْشِي
مَكْبَأً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمْنَ يَمْشِي سُوِّيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢] وقال جل وعلا :
﴿يَوْمَ يَسْجُونُ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِمْ ذُوقُوا مِسْقَرًا﴾ [القمر: ٤٨] وقال تبارك وتعالى :
﴿أَفَمِنْ يَلْقَى فِي النَّارِ خَيْرًا أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠] واكتفى في هذه الآية بأحد
القسمين عن الآخر . كقول الشاعر : [الوافر]

فَمَا أَدْرِي إِذَا يَمْمَضُ أَرْضًا أَرْيَدُ الْخَيْرَ أَيْهُمَا يَلِينِي^(١)

يعني الخير أو الشر . قوله جلت عظمته : ﴿كَذَبُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حِيثِ
لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني القرون الماضية المكذبة للرسل أهلهم الله بذنبهم وما كان لهم من الله من
واق ، قوله جل وعلا : ﴿فَإِذَا قَهَمُ اللَّهُ الْخَرْزِيَّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي بما أنزل بهم من العذاب
والنکال وتشفي المؤمنين بهم ، فليحذر المخاطبون من ذلك فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل
وخاتم الأنبياء ﷺ والذي أعده الله جل جلاله لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظم مما
أصابهم في الدنيا ولهذا قال عز وجل : ﴿وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ .

وَلَقَدْ ضَرَبَنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لِعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عَوْجٍ لَعَلَّهُمْ
يَتَّقَوْنَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءٌ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لَرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا حَمْدَ اللَّهِ
بِلَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيْتٌ وَإِنَّهُمْ مَيْتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ
نَّخَصِّصُونَ ﴿٣١﴾

يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ ضَرَبَنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي بينا للناس فيه بضرب
الأمثال ﴿لِعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فإن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان كما قال تبارك وتعالى :
﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنفُسِكُم﴾ [الروم: ٢٨] أي تعلمونه من أنفسكم ، وقال عز وجل : ﴿وَتَلَكَّ
الْأَمْثَالُ نَصْرَبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] .

وقوله جل وعلا : ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عَوْجٍ﴾ أي هو قرآن بلسان عربي مبين لا اعوجاج فيه
ولا انحراف ولا لبس بل هو بيان ووضوح وبرهان ، وإنما جعله الله تعالى كذلك ، وأنزله بذلك
﴿لِعَلَّهُمْ يَتَّقَوْنَ﴾ أي يحذرون ما فيه من الوعيد ويعملون بما فيه من الوعد . ثم قال :
﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءٌ مُتَشَكِّسُونَ﴾ أي يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم
﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ أي سالماً ﴿لِرَجُلٍ﴾ أي خالصاً لرجل لا يملكه أحد غيره ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾

(١) البيت للمثقب العبدى في ديوانه ص ٢١٢ ، وخزانة الأدب ١١/٨٠ ، وشرح اختيارات المفضل ص ١٢٦٧ ، وشرح شواهد المعنى ١/١٩١ ، وبلا نسبة في تخليص الشواهد ص ١٤٥ ، وخزانة الأدب

مثلاً﴾ أي لا يستوي هذا وهذا. كذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له؟ فأين هذا من هذا؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاحد وغير واحد: هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص، ولما كان هذا المثل ظاهراً بيناً جلياً قال: ﴿الحمد لله﴾ أي على إقامة الحجة عليهم ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي فلهذا يشركون بالله.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق رضي الله عنه عند موت الرسول ﷺ حتى تحقق الناس مorte مع قوله عز وجل: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾ [آل عمران: ١٤٤] ومعنى هذه الآية أنكم ستنتقلون من هذه الدار لا محالة وستجتمعون عند الله تعالى في الدار الآخرة وتحتصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله عز وجل فيفصل بينكم ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين. ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين. ثم إن هذه الآية وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة فإنها شاملة لكل المتنازعين في الدنيا فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة.

وقال ابن أبي حاتم رحمه الله: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ حدثنا سفيان عن محمد بن عمرو عن أبي حاطب - يعني يحيى بن عبد الرحمن - عن ابن الزبير رضي الله عنهما قال لما نزلت ﴿ثم إنكم يوم القيمة عند ربكم تختصمون﴾ قال الزبير رضي الله عنه: يا رسول الله أتكرر علينا الخصومة؟ قال ﷺ: «نعم» قال رضي الله عنه: إن الأمر إذاً لشديد^(١):

وكذا رواه الإمام أحمد^(٢) عن سفيان وعنه زيادة، ولما نزلت ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ [التكاثر: ٨] قال الزبير رضي الله عنه: أي رسول الله أي نعيم نسأل عنه وإنما يعني هما الأسودان: التمر والماء، قال ﷺ: «أما إن ذلك سيكون» وقد روى هذه الزيادة الترمذى وأبن ماجه من حديث سفيان به وقال الترمذى: حسن وقال الإمام أحمد^(٣) أيضاً: حدثنا ابن نمير حدثنا محمد - يعني ابن عمرو - عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن عبد الله بن الزبير عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ ﴿إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيمة عند ربكم تختصمون﴾ قال الزبير رضي الله عنه: أي رسول الله أتكرر

(١) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ٣٩، باب ١.

(٢) المسند / ١٦٤.

(٣) المسند / ١٦٧.

عليها ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنب؟ قال ﷺ: «نعم ليكرن عليكم حتى يؤدى إلى كل ذي حق حقه» قال الزبير رضي الله عنه: والله إن الأمر لشديد، ورواه الترمذى من حديث محمد بن عمرو به وقال حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا ابن لهيعة عن أبي عشانة عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول الخصمين يوم القيمة جاران» تفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد^(٢) أيضاً: حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليختص حتى الشتان فيما انتطحتا» تفرد به أحمد رحمة الله.

وفي المسند^(٣) عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين تنتطحان فقال: «أتدرى فيما تنتطحان يا أبو ذر؟» قلت: لا قال ﷺ: «ولكن الله يدرى وسيحكم بينهما» وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا سهل بن بحر حدثنا حيان بن أغلب حدثنا أبي ثابت عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ي جاء بالإمام الجائز الخائن يوم القيمة فتخاصمه الرعية فيفلجون عليه فيقال له سد ركناً من أركان جهنم» ثم قال الأغلب بن تميم ليس بالحافظ.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما **﴿ثُمَّ إِنْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ رِبِّكُمْ تَخْتَصُّونَ﴾** يقول: يخاصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهتدى الضال، والضعف المستكبر^(٤)، وقد روى ابن منده في كتاب «الروح» عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يختص الناس يوم القيمة حتى تختص الروح مع الجسد فتقول الروح للجسد أنت فعلت ويقول الجسد للروح أنت أمرت وأنت سولت فيبعث الله ملكاً يفصل بينهما فيقول لهم إنّ مثلكما كمثل رجل مقعد بصير والآخر ضرير دخلا بستانًا فقال المقعد للضرير إني أرى هنا ثماراً ولكن لا أصل إليها فقال له الضرير اركبني فتناولها فركبه فتناولها فأيهما المعتمد؟ فيقولان كلاهما فيقول لهما الملك فإنكما قد حكمتما على أنفسكم، يعني أن الجسد للروح كالمطية وهي راكبه.

وقال ابن أبي حاتم حدثنا جعفر بن أحمد بن عويسجة حدثنا ضرار حدثنا أبو سلمة الخزاعي منصور بن سلمة حدثنا القمي - يعني يعقوب بن عبد الله عن جعفر بن المغيرة عن سعيد بن

(١) المسند ١٥١/٤.

(٢) المسند ٢٩/٣.

(٣) ١٦٢/٥.

(٤) انظر تفسير الطبرى ٣/١١.

جibir عن ابن عمر رضي الله عنهمما قال: نزلت هذه الآية وما نعلم في أي شيء نزلت ﴿ثُمَّ إِنْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِّمُونَ﴾ قلنا من نخاصم؟ ليس بيتنا وبين أهل الكتاب خصومة فمن نخاصم؟ حتى وقعت الفتنة فقال ابن عمر رضي الله عنهمما: هذا الذي وعدنا ربنا عز وجل نختصم فيه. ورواه النسائي عن محمد بن عامر عن منصور بن سلمة به، وقال أبو العالية في قوله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ إِنْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِّمُونَ﴾ قال: يعني أهل القبلة، وقال ابن زيد: يعني أهل الإسلام وأهل الكفر، وقد قدمنا أن الصحيح العموم والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿فَنَّ أَظْلَمُ مِنْ كَذَّابٍ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّابٌ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثُواً لِلْكَافِرِينَ ﴾ ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُنْقُوذُونَ ﴾ ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ وَنَّ إِنَّ رَبَّهُمْ ذَلِكَ حَرَمَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿إِنَّ كَفَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَى الَّذِي عَمِلُوا وَبَخِزَهُمْ أَجْرُهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٢٥﴾

يقول عز وجل مخاطباً المشركين الذين افتروا على الله وجعلوا معه آلهة أخرى وادعوا أن الملائكة بنات الله وجعلوا الله ولداً تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على السنة رسول الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ولهذا قال عز وجل: ﴿فَمِنْ أَظْلَمُ مِنْ كَذَّابٍ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّابٌ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ أي لا أحد أظلم من هذا لأنه جمع بين طرف الباطل كذب على الله وكذب رسول الله قالوا الباطل وردوا الحق ولهذا قال جلت عظمته متوعداً لهم: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثُواً لِلْكَافِرِينَ﴾ وهم الجاحدون المكذبون. ثم قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال مجاهد وقتادة والربيع بن أنس وابن زيد: الذي جاء بالصدق هو الرسول ﷺ وقال السدي: هو جبريل عليه السلام ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعني محمداً ﷺ (١).

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهمما ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ قال: من جاء بلا إله إلا الله ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعني رسول الله ﷺ وقرأ الربيع بن أنس ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا بِالصِّدْقِ﴾ يعني الأنبياء ﴿وَصَدَّقُوا بِهِ﴾ يعني الأتباع. وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال: أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيمة فيقولون هذا ما أعطينا فعملنا فيه بما أمرتمنا. وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين فإن المؤمنين يقولون الحق ويعملون به والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول في هذه الآية على هذا التفسير فإنه جاء بالصدق وصدق المرسلين وأمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله

وملائكته وكتبه ورسله .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم **﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدْقِ﴾** هو رسول الله ﷺ **﴿وَصَدَقَ بِهِ﴾** المسلمين **﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَقُوْنُ﴾** قال ابن عباس رضي الله عنهم: اتقوا الشرك^(١) **﴿لِهِمْ مَا يَشَاؤُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾** يعني في الجنة مما طلبوا وجدوا **﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ لِيَكْفِرُ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأُ الْأَخْرَى﴾** **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَّقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَنَتَّجَاوِزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾** كما قال عز وجل في الآية الأخرى: **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا يَوْعَدُونَ﴾** [الأحقاف: ١٦].

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا وَلَا خَوْفُنَاكَ يَا لَدَنِيْنَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ
وَمَنْ يَهْدِي اللَّهُ هَمَّا لَهُ مِنْ مُضْلِلٍ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي اِنْتِقَامٍ
وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ حَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ لِيَقُولُوكَ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْمُ شَمَّ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِي اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفُ
ضُرُّهُ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكُثُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسِنِي اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ
يَلْقَوْمُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِيلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخَزِّيْهِ
وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ

يقول تعالى: **﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافِ عَبْدِهِ﴾** وقرأ بعضهم **«عَبَادِهِ»**^(٢) يعني أنه تعالى يكفي من عبده وتوكل عليه وقال ابن أبي حاتم هنا: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب حدثنا عمي حدثنا أبو هانيء عن أبي علي عمرو بن مالك الجنبي عن فضالة بن عبيد الأنباري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«أَفْلَحَ مَنْ هَدِيَ إِلَى الإِسْلَامِ وَكَانَ عِيشَهُ كَفَافاً وَقَعَ بِهِ**^(٣) **وَرُوَاهُ التَّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ** من حديث حيوة بن شريح عن أبي هانيء الخولاني به وقال الترمذى صحيح .

﴿وَيَخُوفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني المشركين يخوفون الرسول ﷺ ويتوعدونه بأصنامهم وألهتهم التي يدعونها من دون الله جهلاً منهم وضلالاً ولهذا قال عز وجل: **﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾** ومن يهدى الله فما له من ضلالة **﴿أَيْ مِنْ يَعْبُدُونَ لَا يَضْلِلُهُمْ إِنْ هُوَ إِلَّا هُدَىٰ لِلْمُرْسَلِينَ﴾** أي من يدعونه لا يضليل الجناب لا يضام من استند إلى جنابه ولجا إلى بابه فإنه العزيز الذي لا أعز منه ولا أشد انتقاماً منه من كفر به وأشرك وعاند رسوله ﷺ، قوله تعالى: **﴿وَرَوَلَشَنْ سَأَلْتُهُمْ مِنْ حَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ**

(١) تفسير الطبرى ٦/١١.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٧/١١.

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة حديث ١٢٥ ، والترمذى في الزهد باب ٣٥ ، وابن ماجه في الزهد باب ٩ ، وأحمد في المستند ١٦٨/٢ ، ١٧٣ .

لِيَقُولُنَّ اللَّهُ[﴾] يعْنِي الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الْخَالِقُ لِلْأَشْيَاءِ كُلُّهَا وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً وَلَهُذَا قَالَ تَبَارَكَ تَعَالَى : «قُلْ أَفْرَأَيْتَ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِي اللَّهُ بَصْرُهُ هُنْ كَاشِفَاتُ ضَرِهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةِ هُنْ هُنْ مَمْسَكَاتُ رَحْمَتِهِ[﴾] أَيْ لَا تَسْتَطِعُ شَيْئاً مِنَ الْأَمْرِ .

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتَمَ هَذِهِ حَدِيثَ قَيْسَ بْنِ الْحَجَاجِ عَنْ حَنْشَ الصَّنْعَانِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا «احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظُكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجَاهِلُكَ، تَعْرِفُ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفُكَ فِي الشَّدَّةِ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعْنَتَ فَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَمَّةَ لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضْرُوكُ بَشَّيْءٍ لَمْ يَكْتَبِ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَضْرُوكُ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكُ بَشَّيْءٍ لَمْ يَكْتَبِ اللَّهُ لَكَ لَمْ يَنْفَعُوكُ، جَفَّتِ الصَّحْفُ وَرَفَعَتِ الْأَقْلَامُ وَاعْمَلْ اللَّهُ بِالشَّكْرِ فِي الْيَقِينِ. وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا^(١) «قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ[﴾] أَيْ اللَّهُ كَافِي عَلَيْهِ تَوْكِلْتُ وَ«عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ[﴾] كَمَا قَالَ هُودٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ «إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضَ آلَهَتْنَا بِسُوءِ قَوْلٍ إِنِّي أَشْهُدُ اللَّهَ وَاشْهُدُوا أَنِّي بِرِيءٍ مَمَّا تَشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَيَكْيِدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تَنْظَرُونِي إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[﴾] [هُودٌ: ٥٤ - ٥٦].

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتَمَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَصَمَ الْأَنْصَارِيُّ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بَكْرٍ السَّهْمِيُّ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَاتَمٍ عَنْ أَبِي الْمَقْدَامِ مُولَى آلِ عُثْمَانَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقَرْظِيِّ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رَفَعَ الْحَدِيثَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «مَنْ أَحَبَ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَمَنْ أَحَبَ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِهِ ، وَمَنْ أَحَبَ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَقْرِبْ إِلَيْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ». .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : «قُلْ يَا قَوْمَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ[﴾] أَيْ عَلَى طَرِيقَتِكُمْ وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعْدٌ «إِنِّي عَامِلٌ[﴾] أَيْ عَلَى طَرِيقِي وَمَنْهُجِي «فَسُوفَ تَعْلَمُونَ[﴾] أَيْ سَتَعْلَمُونَ غَبَّ ذَلِكَ وَوَبَالَهُ «مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يَخْرِيْهِ[﴾] أَيْ فِي الدُّنْيَا «وَيَحْلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مَقِيمٌ[﴾] أَيْ دَائِمٌ مَسْتَمِرٌ لَا مُحِيدٌ لَهُ عَنْهُ وَذَلِكَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، أَعْاذُنَا اللَّهُ مِنْهَا .

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلَّتَّا إِنْ يَلْحِقُ فَمَنِ اهْتَدَ فَلَنَفْسِهِ[﴾] وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضْلُّ عَلَيْهَا[﴾] وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ[﴾] اللَّهُ يَتَوَقَّيُ الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَتَامَهَا[﴾] فَيَمْسِكُ أَنَّى قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيَرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجْلٍ مُسَمَّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَكْرٌ لِقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ[﴾]

يقول تعالى مخاطباً رسوله محمدًا ﷺ: «إنا أنزلنا عليك الكتاب» يعني القرآن للناس بالحق أي لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذرهم به «فمن اهتدى فلنفسه» أي فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه «ومن ضل فإنما يضل عليها» أي إنما يرجع وبال ذلك على نفسه «وما أنت عليهم بوكيل» أي بموكل أن يهتدوا «إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل» [هود: ١٢] «إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب» [الرعد: ٤٠]. ثم قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة الذين يقابضونها من الأبدان والوفاة الصغرى عند المنام كما قال تبارك وتعالى: «وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضي أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبعكم بما كنتم تعملون وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون» [الأنعام: ٦٠ - ٦١] فذكر الوفاتين الصغرى ثم الكبرى وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى ولهذا قال تبارك وتعالى: «الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في متاهماً فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى» فيه دلالة على أنه تجتمع في الملا الأعلى كما ورد بذلك الحديث المرفوع الذي رواه ابن منده وغيره.

وفي صحيح البخاري ومسلم من حديث عبيد الله بن عمر عن سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا آوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخله إزاره فإنه لا يدرى ما خلفه عليه ثم ليقل باسمك ربى وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسى فارحمنا وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»^(١). وقال بعض السلف تقبض أرواح الأموات إذا ماتوا وأرواح الأحياء إذا ناموا فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف «فيمسك التي قضى عليها الموت» التي قد ماتت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى. قال السدي إلى بقية أجهلها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما يمسك أنفس الأموات ويرسل أنفس الأحياء ولا يغلط «إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون».

أَوْ أَخْدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ قُلْ لِلَّهِ السَّفَنَةُ جَهِيْنَا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ أَشْمَأَرَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِنَا إِذَا هُمْ يَسْتَبِشُونَ

يقول تعالى ذاماً للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله وهم الأصنام والأنداد التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حداهم على ذلك وهي لا تملك شيئاً من الأمر بل

(١) أخرجه البخاري في الدعوات باب ١٢ ، ومسلم في الذكر حديث ٦٢ .

وليس لها عقل تعقل به ولا سمع تسمع به ولا بصر تبصر به بل هي جمادات أسوأ من الحيوان بكثير، ثم قال: قل أي يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه من شفاء لهم عند الله تعالى أخبرهم أن الشفاعة لا تفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له فمرجعها كلها إليه ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿لَهُ مِلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو المتصف في جميع ذلك ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تَرْجِعُونَ﴾ أي يوم القيمة فيحكم بينكم بعدله ويجزى كلامه، ثم قال تعالى ذاماً للمشركين أيضاً: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي إذا قيل لا إله إلا الله وحده ﴿أَشْمَأَرْتَ قُلُوبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ قال مجاهد الشمازية انتقضت وقال السدي نفرت وقال قتادة كفرت واستكبرت وقال مالك عن زيد بن أسلم استكبرت كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥] أي عن المتابعة والانقياد لها فقلوبهم لا تقبل الخير ومن لم يقبل الخير يقبل الشر ولذلك قال تبارك تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي من الأصنام والأنداد قاله مجاهد ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبَشِرُونَ﴾ أي يفرحون ويسررون.

قُلْ اللَّهُمَّ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَيْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهِيدَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُمْ مَعَهُ لَا فَنَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَدَاهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُنُوا يَحْسَبُونَ ﴿٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِنُونَ ﴿٣﴾

يقول تبارك وتعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر من المذمة لهم في حبهم الشرك ونفرتهم عن التوحيد ﴿قُلْ اللَّهُمَّ فاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهِيدَةِ﴾ أي ادع أنت الله وحده لا شريك له الذي خلق السموات والأرض وفطراها أي جعلها على غير مثال سبق ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهِيدَةِ﴾ أي السر والعلانية ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي في دنياهم ستفصل بينهم يوم معادهم ونشرورهم وقيامهم من قبورهم.

قال مسلم^(١) في صحيحه: حدثنا عبد بن حميد حدثنا عمر بن يونس حدثنا عكرمة بن عمارة حدثنا يحيى بن أبي كثير حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان رسول الله ﷺ يفتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت رضي الله عنها كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتح صلاته «اللَّهُمَّ رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون أهداي لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

وقال الإمام أحمد^(١): حديثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة وأخبرنا سهيل بن أبي صالح وعبد الله بن عثمان بن خثيم عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «من قال لله فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أشهد إليك في هذه الدنيا أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك فإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير، وإنني لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عندك عهداً توفينيه يوم القيمة إلك لا تخلف الميعاد، إلا قال عز وجل لملائكته يوم القيمة: إن عبدي قد عهد إلي عهداً فأوفوه إياه فيدخله الله الجنة» قال سهيل: فأخبرت القاسم بن عبد الرحمن أن عوناً أخبر بذلك وكذا فقال: ما في أهلنا جارية إلا وهي تقول هذا في خدرها انفرد به الإمام أحمد.

وقال الإمام أحمد^(٢) حديثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثني حبي بن عبد الله أن أبا عبد الرحمن حدثه قال أخرج لنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قرطاساً وقال: كان رسول الله ﷺ يعلمونا يقول: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت رب كل شيء وإله كل شيء أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك والملائكة يشهدون، أعوذ بك من الشيطان وشركه، وأعوذ بك من أن أتشرف على نفسي إثماً أو أجره إلى مسلم. قال أبو عبد الرحمن رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ يعلمه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن يقول ذلك حين يريد أن ينام، تفرد به أحمد أيضاً.

وقال الإمام أحمد^(٣) أيضاً: حديثنا خلف بن الوليد حدثنا ابن عياش عن محمد بن زياد الألهاني عن أبي راشد الجبراني قال: أتيت عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما فقلت له حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ فألقى بين يدي صحيفة فقال: هذا ما كتب لي رسول الله فنظرت فيها فإذا فيها أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله علمتني ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر قل لله فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة لا إله إلا أنت رب كل شيء ومليكه أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه أو أتشرف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم» ورواه الترمذى^(٤) عن الحسن بن عرفة عن إسماعيل بن عياش به وقال حسن غريب من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد^(٥): حديثنا هاشم حدثنا شيبان عن ليث عن مجاهد قال: قال أبو بكر

(١) المستند ٤١٢/١.

(٢) المستند ١٧١/٢.

(٣) المستند ١٩٦/٢.

(٤) كتاب الدعوات باب ٩٤.

(٥) المستند ١٤/١.

الصديق: أمرني رسول الله ﷺ أن أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعي من الليل: اللهم فاطر السموات والأرض الخ.

وقوله عز وجل: «ولو أن للذين ظلموا» وهم المشركون «ما في الأرض جميماً ومثله معه» أي ولو أن جميع ما في الأرض وضعفه معه «لافتدوا به من سوء العذاب» أي الذي أوجبه الله تعالى لهم يوم القيمة ومع هذا لا يقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهباً كما قال في الآية الأخرى: «وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون» أي وظهر لهم من العذاب والنkal بهم ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم «وبدا لهم سيئات ما كسبوا» أي وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمأثم «وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون» أي وأحاط بهم من العذاب والنkal ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا.

فَإِذَا مَسَ الْأَنْسَنَ ضُرُّ دُعَانَّا ثُمَّ إِذَا حَوَّلَنَا نَعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هَيْ فَتْنَةٌ وَلَكُنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيِّصُبِّهِمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَسْطِعُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لَذِكْرٌ لِفَوْمِ يُؤْمِنُونَ (٢)

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن الإنسان أنه في حال الضراء يتضرع إلى الله عز وجل وينبئ إليه ويدعوه وإذا خوله نعمة منه بغى وطغى وقال «إنما أوتته على علم» أي لما يعلم الله تعالى من استحقاقني له ولو لا أني عند الله خصيص لما خولني هذا، قال قنادة على علم عندي على خير عندي (١) قال الله عز وجل: «بل هي فتنة» أي ليس الأمر كما زعم بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنتخبره فيما أنعمنا عليه أيعطي أم يعصي مع علمنا المتقدم بذلك فهي فتنه أي اختبار «ولكن أكثرهم لا يعلمون» فلهذا يقولون ما يقولون ويدعون ما يدعون.

«قد قالها الذين من قبلهم» أي قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير من سلف من الأمم «فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون» أي مما صاح قولهم ولا منعهم جمعهم وما كانوا يكسبون « فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء» أي من المخاطبين «سيصيّبهم سيئات ما كسبوا» أي كما أصاب أولئك «وما هم بمعجزين» كما قال تبارك وتعالى مخبراً عن قارون أنه قال له قوله «لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين قال إنما أوتته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنبهم المجرمون»

(١) انظر تفسير الطبرى ١٢/١١

[القصص : ٧٦ - ٧٨] وقال تعالى: «وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين» [سبأ: ٣٥] قوله تبارك وتعالى: «أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر» أي يوسعه على قوم ويضيقه على آخرين «إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون» أي لعبراً وحججاً.

﴿ قُلْ يَعْبُدُونَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا يَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جِمِيعًا إِنَّمَا هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ وَإِنَّبِيُّوا إِلَيْ رَبِّكُمْ وَاسْلِمُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنَصِّرُونَ ﴿ وَإِنْ شَاءُوا أَحْسَنُ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابَ بَعْثَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أَنْ تَقُولُ نَفْسٌ بِكَحْسُرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنَّتِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاجِرِينَ ﴿ أَوْ تَشْكُلُ لَوْأَاتِ اللَّهِ هَذِهِنِي لَكَنْتُ مِنَ الْمُقْتَدِينَ ﴾ أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَدَابَ لَوْأَنِّي لِكَرَّةٍ فَأَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿ ٦٨﴾ بَلْ قَدْ جَاءَ تَلَكَ هَذِيَّةٌ فَكَدِّيْتُ بِهَا وَأَسْتَكِنْدَرَتْ وَكُنْتُ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿ ٦٩﴾

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنبابة وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زيد البحر، ولا يصح حمل هذه على غير توبة لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتبع منه.

وقال البخاري^(١): حدثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبرهم قال يعلى أن سعيد بن جبير أخبره عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فأتوا محمداً صلوات الله عليه فقالوا: إن الذي تقول وتدعوا إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًاٰ أَخْرَىٰ وَلَا يَقْتَلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَرْزُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] ونزل ﴿قُلْ يَا عَبْدَ اللَّهِ اسْرُفْ وَا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا يَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الفرقان: ٦٩] وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي من حديث ابن جريج عن يعلى بن مسلم المكي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما به. والمراد من الآية الأولى قوله تعالى: «إِلَّا مَنْ تَابَ وَأَمْنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠] الآية.

وقال الإمام أحمد^(٢) حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا أبو قبيل قال: سمعت أبا عبد الرحمن المزني يقول: سمعت ثوبان مولى رسول الله صلوات الله عليه يقول: سمعت رسول الله صلوات الله عليه يقول: «ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية» ﴿قُلْ يَا عَبْدَ اللَّهِ اسْرُفْ وَا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ إِلَىٰ أَخْرَ الآيَةِ﴾ فقال رجل يا رسول الله فمن أشرك؟ فسكت النبي صلوات الله عليه ثم قال: «أَلَا وَمَنْ أَشْرَكَ»

(١) كتاب التفسير، تفسير سورة ٣٩.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ١٩٣ ، والنمسائي في التحرير باب ٢.

(٣) المسند ٥ / ٢٧٥.

ثلاث مرات تفرد به الإمام أحمد.

وقال الإمام أحمد^(١) أيضاً حديثاً سريج بن النعمان حدثنا نوح بن قيس عن أشعث بن حابر الحданى عن مكحول عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ شيخ كبير يدعى على عصا له فقال: يا رسول الله لي غدارت وفجرات فهل يغفر لي؟ فقال ﷺ: «الست تشهد أن لا إله إلا الله؟» قال: بل وأشهد أنك رسول الله فقال ﷺ: «قد غفر لك غدراتك وفجراتك» تفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد^(٢) حدثنا يزيد بن هارون حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه عمل غير صالح» وسمعته ﷺ يقول: «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً» ولا يبالي «إنه هو الغفور الرحيم» ورواه أبو داود والترمذى من حديث ثابت به. فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة ولا يقاطن عبد من رحمة الله وإن عظمت ذنبه وكثرة فإن باب الرحمة والتوبة واسع قال الله تعالى: «ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده» [التوبة: ١٠٤].

وقال عز وجل: «ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله بعد الله غفوراً رحيمًا» [النساء: ١١٠] وقال جل وعلا في حق المنافقين: «إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً إلا الذين تابوا وأصلحوا» [النساء: ١٤٥ - ١٤٦] وقال جل جلاله: «لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم» ثم قال جلت عظمته: «أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرون له والله غفور رحيم» [المائدة: ٧٣ - ٧٤].

وقال تبارك وتعالى: «إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا» [البروج: ١٠] قال الحسن البصري رحمة الله عليه انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والغفرة والآيات في هذا كثيرة جداً.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ حديث الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً ثم ندم وسأل عابداً من عبادبني إسرائيل هل له من توبة، فقال: لا فقتله وأكملا به مائة ثم سأله عالماً من علمائهم هل له من توبة فقال ومن يحول بينك وبين التوبة. ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها فقصدتها فأتاها الموت في أثناء الطريق فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأمر الله عز وجل أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو

(١) المستند ٣٨٥ / ٤.

(٢) المستند ٤٥٤ / ٦.

منها فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشير فقبضته ملائكة الرحمة^(١)، وذكر أنه نأى بصدره عن الموت وأن الله تبارك وتعالى أمر البلدة الخيرة أن تقترب وأمر تلك البلدة أن تبتعد، هذا معنى الحديث وقد كتبناه في موضع آخر بلغته.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهمما في قوله عز وجل: «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقطعوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً» إلى آخر الآية قال قد دعا الله تعالى إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله ومن زعم أن المسيح هو ابن الله ومن زعم أن عزيزاً ابن الله ومن زعم أن الله فقير ومن زعم أن يد الله مغلولة ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة يقول الله تعالى لهؤلاء: «أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرون له والله غفور رحيم» ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولاً من هؤلاء، من قال أنا ربكم الأعلى وقال: «ما علمت لكم من إله غيري» قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهمما من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله عز وجل، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه.

وروى الطبراني من طريق الشعبي عن شتير بن شكل أنه قال سمعت ابن مسعود يقول إن أعظم آية في كتاب الله «الله لا إله إلا هو الحي القيوم» [البقرة: ٢٥٥] وإن أجمع آية في القرآن بخير وشر «إن الله يأمر بالعدل والإحسان» [النحل: ٩٠] وإن أكثر آية في القرآن فرجحاً في سورة الزمر «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقطعوا من رحمة الله» وإن أشد آية في كتاب الله «ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويزقه من حيث لا يحتسب» [الطلاق: ٢] فقال له مسروق صدق. وقال الأعمش عن أبي سعيد عن أبي الكنود قال مر عبد الله يعني ابن مسعود رضي الله عنه على قاص وهو يذكر الناس فقال يا مذكر لم تقطن الناس من رحمة الله؟ ثم قرأ «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقطعوا من رحمة الله» رواه ابن أبي حاتم رحمه الله.

[ذكر أحاديث فيها نفي القنوط]

قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا سريج بن النعمان حدثنا أبو عبيدة عبد المؤمن بن عبيد الله حدثني أخشن السدوسي قال: دخلت على أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده لو أخطأت حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغرتكم الله تعالى لغفر لكم، والذي نفس محمد ﷺ بيده لو لم تخطئوا جاء الله عز وجل بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم» تفرد به أحمد.

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء باب ٥٤، ومسلم في التوبة حديث ٤٦، ٤٧، وابن ماجه في الديات باب ٢، وأحمد في المستند ٣/٢٠، ٧٣.

(٢) المستند ٣/٢٣٨.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا إسحاق بن عيسى حدثني ليث حدثني محمد بن قيس قاص عمر بن عبد العزيز عن أبي صرمة عن أبي أيوب الأنباري رضي الله عنه أنه قال حين حضرته الوفاة قد كنت كتمنكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ يقول «لولا أنكم تذنبون لخلق الله عز وجل قوماً يذنبون فيغفر لهم»^(٢) هكذا رواه الإمام أحمد وأخرجه مسلم في صحيحه والترمذى جمیعاً عن قتيبة عن الليث بن سعد به . ورواه مسلم من وجه آخر به عن محمد بن كعب القرظى عن أبي صرمة وهو الأنباري صحابي عن أبي أيوب رضي الله عنهما به .

وقال الإمام أحمد^(٣) حدثنا أحمد بن عبد الملك الحراني حدثنا يحيى بن عمرو بن مالك النكري قال سمعت أبي ي يحدث عن أبي الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «كفارة الذنب الندامة» وقال رسول الله ﷺ : «لو لم تذنبوا لجاء الله تعالى بقوم يذنبون فيغفر لهم» تفرد به أحمد . وقال عبد الله ابن الإمام أحمد حدثني عبد الأعلى بن حماد الترسىي حدثنا داود بن عبد الرحمن حدثنا أبو عبد الله مسلمة بن عبد الله الرازى عن أبي عمر و البجلي عن عبد الملك بن سفيان الثقفى عن أبي جعفر محمد بن علي عن محمد ابن الحنفية عن أبيه علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله تعالى يحب العبد المفتتن التواب»^(٤) ولم يخرجوا من هذا الوجه .

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد حدثنا ثابت وحميد عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال : إن إبليس لعنه الله تعالى قال يا رب إنك أخرجتني من الجنة من أجل آدم وإنني لا أستطيع إلا بسلطانك قال فأنت مسلط ، قال يا رب زدني ، قال لا يولد له ولد إلا ولد لك مثله ، قال يا رب زدني قال أجعل صدورهم مساكن لكم وتجرون منهم مجرى الدم قال يا رب زدني قال أجلب عليهم بخيلك ورجلك وشارکهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يدهم الشيطان إلا غروراً ، فقال آدم عليه الصلاة والسلام يا رب قد سلطتني على وإنني لا أمتّن إلا بك قال تبارك وتعالى لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من قرناء السوء ، قال يا رب زدني قال الحسنة عشر أو أزيد والسيئة واحدة أو أحموها قال يا رب زدني قال بباب التوبة مفتوح ما كان الروح في الجسد قال يا رب زدني قال : «يا عبادِي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقطعوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جمیعاً إنه هو الغفور الرحيم» .

وقال محمد بن إسحاق قال نافع عن عبد الله بن عمر عن عمر رضي الله عنه في حديثه قال وكنا نقول ما الله بقابل ممن افتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبة ، عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لباء

(١) المسند ٤١٤ / ٥ .

(٢) أخرجه مسلم في التوبة حديث ١١ ، ٩٢ .

(٣) المسند ١ / ٢٨٩ .

(٤) أخرجه أحمد في المسند ١ / ٨٠ ، ١٠٣ .

أصحابهم قال و كانوا يقولون ذلك لأنفسهم قال فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم ﴿يَا عبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جِيْمِعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَيْ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابَ ثُمَّ لَا تَنْصُرُونَ﴾ قال عمر رضي الله عنه فكتبتها بيدي في صحيفة وبعثت بها إلى هشام بن العاص رضي الله عنه قال: فقال هشام لما أتني جعلت أقرؤها بذمي طوى أصعد بها فيه وأصوات ولا أفهمها حتى قلت اللهم أفهمنيها فألقى الله عز وجل في قلبي أنها إنما نزلت فيما وفينا كما نقول في أنفسنا ويقال فيما قال فرجعت إلى بعيري فجلست عليه فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة.

ثم استحبث تبارك وتعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة فقال: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَيْ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ الخ، أي ارجعوا إلى الله واستسلموا له ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابَ ثُمَّ لَا تَنْصُرُونَ﴾ أي بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمـة ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهو القرآن العظيم ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابَ بَعْثَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي من حيث لا تعلمون ولا تشعرون ثم قال عز وجل: ﴿أَنْ تَقُولُ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَطْتَ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ أي يوم القيمة يتسرع المجرم المفترط في التوبة والإباتـة ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطهـعين الله عز وجل.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتَ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ أي إنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزء غير موقن مصدق ﴿أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هُدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَقِنِينَ أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنِّي لَيْ كَرِهَ فَأَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي تود أن لو أعيدت إلى الدنيا لتحسين العمل.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنـهما أخبر الله سبحانه وتعالى ما العـباد قائلـون قبل أن يقولـوه وعملـهم قبل أن يعمـلـوه. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَنْبَئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطـر: ١٤] ﴿أَنْ تَقُولُ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَطْتَ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتَ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هُدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَقِنِينَ أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنِّي لَيْ كَرِهَ فَأَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وقد قال الإمام أحمد^(١) حدثنا أسود حدثنا أبو بكر عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول لو أن الله هداني ف تكون عليه حسرة، قال وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول لو لا أن الله هداني قال فيكون له الشـكر» ورواه النـسائي من حديث أبي بكر بن عياش به. ولـما تمنى أهل

الجرائم العود إلى الدنيا وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسle قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بَلِّيْ قَدْ جَاءَتُكَ آيَاتِي فَكَذَبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي قد جاءتك آيتها فكذبت بها واستكبرت و كنت من الكافرين النادم على ما كان منه آياتي في الدار الدنيا وقامت حججي عليك فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها و كنت من الكافرين بها الجاحدين لها.

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُمْ مُسَوَّدَةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مُشَوَّى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿١﴾
وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ أَنْقَلَوْا إِيمَانَهُمْ لَا يَمْسِهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ ﴿٢﴾

يُخْبِرُ تَعْالَى عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ تَسْوِدُ فِيهِ وُجُوهُ وَتَبَيَّضُ فِيهِ وُجُوهُ أَهْلِ الْفَرْقَةِ وَالْأَخْتِلَافِ، وَتَبَيَّضُ وُجُوهُ أَهْلِ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ قَالَ تَعْالَى هُنَّا: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي في دعواهم له شريكاً و ولداً ﴿وَجُوهُهُمْ مُسَوَّدَةٌ﴾ أي بكذبهم وافترائهم وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مُشَوَّى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي أليست جهنم كافة لهم سجناً وموئلاً لهم فيها الخزي والهوان بسبب تكبرهم وتجربهم وإيابائهم عن الانقياد للحق.

قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب حدثنا عمي حدثنا عيسى بن أبي عيسى الخياط عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن المتكبرين يخشرون يوم القيمة أشباه الذر في صور الناس يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجناً من النار في واد يقال له بولس من نار الأنوار ويستقون من عصارة أهل النار ومن طينة الخبال». وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ أَنْقَلَوْا إِيمَانَهُمْ بِمَفَازِهِمْ﴾ أي بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله ﴿لَا يَمْسِهُمُ السُّوءُ﴾ أي يوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ﴾ أي ولا يحزنهم الفزع الأكبر بل هم آمنون من كل فزع مزحزحون عن كل شر مؤملون كل خير.

اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكَبِيلٌ ﴿١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعِيَادَتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَسِيرُونَ ﴿٢﴾ قُلْ أَفَغَيَرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيْمَانَ الْجَهَنَّمِ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لِيَنْأِيْ شَرِكَتْ لِيَعْجَبَنَ عَمَلَكَ وَلَتَكُونَنَ مِنَ الْخَسِيرِينَ ﴿٤﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٥﴾

يُخْبِرُ تَعْالَى أَنَّهُ خَالقُ الْأَشْيَاءِ كُلُّهَا وَرَبُّهَا وَمَلِيكُهَا وَالْمُتَصْرِفُ فِيهَا وَكُلُّهُ وَكُلُّهُ تَدْبِيرُهُ وَقُهْرُهُ وَكُلُّهُ تَدْبِيرُهُ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ نَالَ مجاهد: المقاليد هي المفاتيح بالفارسية، وكذا قال قتادة وابن زيد وسفيان بن عيينة، وقال السدي ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خزانة السموات والأرض، والمعنى على كلا القولين أن أزمة الأمور بيده تبارك وتعالى له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قادر ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي حجاجه ويراهينه ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وقد روى ابن أبي حاتم ههنا حديثاً غريباً جداً وفي صحته نظر ولكن نحن نذكره كما ذكره فإنه قال حدثنا يزيد بن سنان البصري بمصر حدثنا يحيى بن حماد حدثنا الأغلب بن تميم عن مخلد بن هذيل العبدى عن عبد الرحمن المدنى عن عبد الله بن عمر عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه سأله رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى: «لِهِ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» فقال «مَا سَأَلْتَنِي عَنْهَا أَحَدٌ قَبْلَكَ يَا عُثْمَانَ» قال ﷺ: «تَفْسِيرُهَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَسَبَّحَنَ اللَّهُ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، الْأُولُّ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ يَحْيِي وَيَمْيِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». من قالها يَا عُثْمَانَ إِذَا أَصْبَحَ عَشْرَ مَرَارًا أُعْطِيَ خَصَالًا سَتَّاً: أَمَا أُولَاهُنَّ فِي حِرْسٍ مِنْ إِبْلِيسِ وَجْنُودِهِ وَأَمَا الثَّانِيَةُ فَيُعْطَى قَنْطَارًا مِنَ الْأَجْرِ، وَأَمَا الثَّالِثَةُ فَتَرْفَعُ لَهُ دَرْجَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَأَمَا الرَّابِعَةُ فَيُزَوِّجُ مِنَ الْحُورِ الْعَيْنِ، وَأَمَا الْخَامِسَةُ فِي حِضْرَهِ اثْنَا عَشْرَ مَلَكًا، وَأَمَا السَّادِسَةُ فَيُعْطَى مِنَ الْأَجْرِ كَمِنْ قُرْآنِ الْقُرْآنِ وَالْتُّورَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ، وَلَهُ مَعَ هَذَا يَا عُثْمَانَ مِنَ الْأَجْرِ، كَمِنْ حَجَّ وَتَقْبِيلَتْ حِجْتَهِ وَاعْتَمَرَ فَتَقْبِيلَتْ عُمْرَتِهِ إِنْ مَاتَ مِنْ يَوْمِهِ طَبَعَ عَلَيْهِ بَطَابِعَ الشَّهَدَاءِ»^(١) ورواه أبو يعلى الموصلي من حديث يحيى بن حماد به مثله وهو غريب وفيه نكارة شديدة والله أعلم.

وقوله تبارك وتعالى: «قُلْ أَفْغَيَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيْهَا الْجَاهِلُونَ» ذُكِرُوا فِي سببِ نَزْولِهَا مَا رواه ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ويعبدوا معه إلهه فنزلت «قُلْ أَفْغَيَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيْهَا الْجَاهِلُونَ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لِي حِبْطَنَ عَمْلَكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» وهذه كقوله تعالى: «وَلَوْ أَشْرَكُوا لِحِبْطَنَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [الأنعام: ٨٨]. وقوله عز وجل: «بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدُ وَكُنْ مِنَ الشَاكِرِينَ» أي أخلص العبادة لله وحده لا شريك له أنت ومن معك أنت ومن اتبعتك وصدقك.

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ
سُبْحَانَهُ وَتَعَلَّمَ عَمَّا يُشَرِّكُونَ ﴿٢﴾

يقول تبارك وتعالى: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» أي ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره وهو العظيم الذي لا أعظم منه القادر على كل شيء المالك لكل شيء وكل شيء تحت قهره وقدرته، قال مجاهد: نزلت في قريش، وقال السدي: ما عظمه حق عظمته^(٢).

(١) انظر الدر المثمر ٥/٦٢٥ - ٦٢٦.

(٢) انظر تفسير الطبرى ١١/٢٣.

وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذبوا، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَمَا قَدِرُوا اللَّهُ حَقْ قَدْرِهِ﴾ هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم. فمن آمن أن الله على كل شيء قادر فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف وهو إمارتها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف.

قال البخاري قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدِرُوا اللَّهُ حَقْ قَدْرِهِ﴾ حدثنا آدم حدثنا شيبان عن منصور عن إبراهيم عن عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأخبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إننا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على أصبع والأرضين على أصبع، والشجر على أصبع، والماء والثرى على أصبع، وسائر الخلق على أصبع فيقول أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَمَا قَدِرُوا اللَّهُ حَقْ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قِبْضَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(١) الآية ورواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع من صحيحه والإمام أحمد ومسلم والترمذى والنمسائى في التفسير من سننهم كلهم من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة عن ابن مسعود رضي الله عنه بنحوه.

وقال الإمام أحمد^(٢) حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن علقة عن عبد الله رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ من أهل الكتاب فقال: يا أبا القاسم أبلغك أن الله تعالى يحمل الخلائق على أصبع والسموات على أصبع والأرضين على أصبع والشجر على أصبع والماء والثرى على أصبع، قال فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه قال وأنزل الله عز وجل ﴿وَمَا قَدِرُوا اللَّهُ حَقْ قَدْرِهِ﴾ إلى آخر الآية، وهكذا رواه البخاري ومسلم والنمسائى من طرق عن الأعمش به.

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا حسين بن حسن الأشقر حدثنا أبو كدينة عن عطاء عن أبي الضحى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر يهودي برسول الله ﷺ وهو جالس فقال: كيف تقول يا أبا القاسم يوم يجعل الله سبحانه وتعالى السماء على ذه - وأشار بالسبابة - والأرض على ذه والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه - كل ذلك يشير بأصابعه - قال فأنزل الله عز وجل ﴿وَمَا قَدِرُوا اللَّهُ حَقْ قَدْرِهِ﴾ الآية وكذا رواه الترمذى في التفسير عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى عن محمد بن الصلت أبي جعفر عن أبي كدينة يحيى بن المهلب عن عطاء بن السائب

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب ١٩، ٢٦، ٣٦، وتفسير سورة ٣٩، باب ٢ ومسلم في المتفقين حديث ١٩، ٢١، والترمذى في تفسير سورة ٣٩ باب ٣.

(٢) المستند ٣٧٨/١.

(٣) المستند ٣٢٤/١.

عن أبي الضحى مسلم بن صحيح به وقال حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

ثم قال البخاري^(١): حدثنا سعيد بن غفار حدثنا الليث حدثني عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله تعالى الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض» تفرد به من هذا الوجه ورواه مسلم^(٢) من وجه آخر.

وقال البخاري^(٣) في موضع آخر حديثاً مقدماً بين محمد حديثاً عمِّي القاسم بن يحيى عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى يقبض يوم القيمة الأرضين على أصبعه وتكون السموات بيمينه ثم يقول أنا الملك» تفرد به أيضاً من هذا الوجه ورواه مسلم من وجه آخر.

وقد رواه الإمام أحمد^(٤) من طريق أخرى بلفظ آخر أبسط من هذا السياق وأطول فقال: حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة حدثنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن عبيد الله بن مقصم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر **﴿وَمَا قَدْرُوا اللَّهُ حَقُّهُ وَالْأَرْضُ جُمِيعًا قَبْضَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَشَرِّكُونَ﴾** ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها يقبل بها ويذير «يُمْجَدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ أَنَا الْجَيَارُ أَنَا الْمُتَكَبِّرُ أَنَا الْعَزِيزُ أَنَا الْكَرِيمُ» فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا ليخرنّ به وقد رواه مسلم والنسيائي وابن ماجه من حديث عبد العزيز بن أبي حازم زاد مسلم ويعقوب بن عبد الرحمن كلامهما عن أبي حازم عن عبيد الله بن مقصم عن ابن عمر رضي الله عنهما به نحوه. ولفظ مسلم عن عبيد الله بن مقصم في هذا الحديث أنه نظر إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كيف يحكى النبي ﷺ قال: يأخذ الله تبارك وتعالى سمواته وأرضيه بيده ويقول أنا الملك ويقبض أصابعه ويسقطها أنا الملك حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى أني لأقول أساطط هو برسول الله ﷺ.

وقال البزار: حدثنا سليمان بن سيف حدثنا أبو علي الحنفي حدثنا عباد المتنcri حدثني محمد بن المنكدر قال حدثنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال إن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية على المنبر **﴿وَمَا قَدْرُوا اللَّهُ حَقُّهُ﴾** - حتى بلغ - **«سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَشَرِّكُونَ﴾** فقال المنبر هكذا فجاء وذهب ثلاث مرات والله أعلم، ورواه الإمام الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث عبيد بن عمير عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وقال صحيح. وقال الطبراني في

(١) كتاب التفسير باب ٢.

(٢) كتاب المناقفين حديث ١٩ ، ٢١.

(٣) كتاب التوحيد باب ١٩.

(٤) المسند /٢ ، ٨٧ ، ٨٨.

المعجم الكبير حدثنا عبد الرحمن بن معاوية العتبى حدثنا حيان بن نافع عن صخر بن جويرية حدثنا سعيد بن سالم القداح عن معمر بن الحسن عن بكر بن خنيس عن أبي شيبة عن عبد الملك بن عمير عن جرير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لنفر من أصحابه رضي الله عنهم: «إني قارئ عليكم آيات من آخر سورة الزمر فمن بكى منكم وجبت له الجنة» فقرأ لها ﷺ من عند قوله: «وَمَا قَدْرُوا اللَّهُ حَقُّ قَدْرِهِ» إلى آخر السورة فمنا من بكى ومنا من لم يبك فقال الذين لم يبكوا يا رسول الله لقد جهدنا أن نبكي فلم نبك فقال ﷺ: «إني سأقرؤها عليكم فمن لم يبك فليتباك» هذا حديث غريب جداً.

وأغرب منه ما رواه في المعجم الكبير أيضاً حدثنا هاشم بن زيد حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش حدثني أبي حدثني ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ ثَلَاثَ خَلَالٍ غَيْتُهُنَّ عَنْ عِبَادِي لَوْ رَأَهُنَّ رَجُلٌ مَا عَمِلَ بِسُوءٍ أَبْدًا: لَوْ كَشَفْتُ غُطَائِي فَرَأَنِي حَتَّى أَسْتَيقِنَ وَيَعْلَمَ كَيْفَ أَفْعَلَ بِخَلْقِي إِذَا أَتَيْتُهُمْ وَقَبْضَتُ السَّمَاوَاتِ بِيَدِي ثُمَّ قَبْضَتُ الْأَرْضَيْنِ ثُمَّ قَلَتْ أَنَا الْمَلَكُ مِنْ ذَا الَّذِي لَهُ الْمَلَكُ دُونِي فَأَرَيْهُمُ الْجَنَّةَ وَمَا أَعْدَدْتُ لَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ فَيَسْتَقِنُوْهَا وَأُرِيْهُمُ النَّارَ وَمَا أَعْدَدْتُ لَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ شَرٍ فَيَسْتَقِنُوْهَا وَلَكِنْ عَمَدًا غَيْتُ ذَلِكَ عَنْهُمْ لَا عِلْمَ كَيْفَ يَعْلَمُونَ وَقَدْ يَبْيَتْهُ لَهُمْ» وهذا إسناد متقارب وهي نسخة تروي بها أحاديث جمة والله أعلم.

وَنَفَخَ فِي الصُّورِ فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿١﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَهُ إِلَيْنَاهُنَّ وَالشَّهَدَاءِ وَقُضِيَ بِيَتْهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢﴾ وَوُقِيَّتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣﴾

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن هول يوم القيمة وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلزال الهائلة فقوله تعالى: «وَنَفَخَ فِي الصُّورِ فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ» هذه النفخة هي الثانية وهي نفخة الصعق وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله كما جاء مصراحاً به مفسراً في حديث الصور المشهور ثم يقبض أرواح الباقي حتى يكون آخر من يموت ملك الموت وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً وهو الباقي آخراً بالديومة والبقاء ويقول «لِمَنِ الْمَلَكُ الْيَوْمَ» [غافر: ١٦] ثلاث مرات ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول «لِلَّهِ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» [غافر: ١٦] أنا الذي كنت وحدي وقد قهرت كل شيء وحكمت بالفناء على كل شيء، ثم يحيي أول من يحيي إسرائيل ويأمره أن ينفح بالصور مرة أخرى وهي النفخة الثالثة نفخة البعث قال الله عز وجل: «ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَى هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ» أي أحياء بعدما كانوا عظاماً ورفاتاً صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيمة، كما قال تعالى: «فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَهُ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ» [النازعات: ١٤ - ١٣]. وقال عز وجل:

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظَنُّونَ إِنْ لَبْثُتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢] وقال جل وعلا:
 ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دُعَوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾
 [الروم: ٢٥].

قال الإمام أحمد^(١): حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن النعمان بن سالم قال: سمعت
 يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود قال سمعت رجلاً قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما
 إنك تقول الساعة تقوم إلى كذا وكذا قال لقد همت أن لا أحذثكم شيئاً إنما قلت سترون بعد
 قليل أمراً عظيماً ثم قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال
 في أمتي فيمكث فيهم أربعين لا أدرى أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً أو أربعين ليلة
 فيبعث الله تعالى عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام كأنه عروة بن مسعود الثقيفي ظهر
 فيهلكه الله تعالى ثم يلبت الناس بعده سنتين سبعاً ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله تعالى ريحًا
 باردة من قبل الشام فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته حتى لو أن أحدهم كان
 في كبد جبل لدخلت عليه» قال سمعتها من رسول الله ﷺ «ويبقى شرار الناس في خفة الطير
 وأحلام السباع لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً قال فيتمثل لهم الشيطان فيقول ألا
 تستجيبون فأمرواهم بعبادة الأوثان فيعبدونها وهم في ذلك دارة أرزاقهم حسن عيشهم ثم ينفح
 في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى له وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه فيصعق ثم لا يبقى
 أحد إلا صعق، ثم يرسل الله تعالى أو ينزل الله عز وجل مطرًا كأنه الطل - أو الظل شك نعمان -
 فتبنت منه أجساد الناس ثم ينفح فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال أيها الناس هلموا إلى
 ربكم ﴿وَقَفُوا هُمْ مَسْؤُلُون﴾ [الصفات: ٢٤] قال ثم يقال أخرجوا بعث النار قال فيقال
 كم؟ فيقال من كل ألف تسعمائة وتسعين وتسعين فيومئذٍ تبعث الولدان شيئاً ويومئذٍ يكشف عن
 ساق» انفرد بإخراجه مسلم^(٢) في صحيحه.

[حديث أبي هريرة رضي الله عنه]

وقال البخاري^(٣) حدثنا عمر بن حفص بن غياث حدثنا أبي حدثنا الأعمش قال سمعت أبي صالح قال سمعت أبي هريرة رضي الله تعالى عنه يحدث عن النبي ﷺ وقال «ما بين النفحتين
 أربعون» قالوا يا أبي هريرة أربعون يوماً؟ قال رضي الله تعالى عنه أبيت، قالوا أربعون سنة؟
 قال أبيت، قالوا أربعون شهراً؟ قال أبيت ويبلي كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه فيه يركب
 الخلق.

(١) المستند/٢١٦٦.

(٢) كتاب الفتن حديث ١١٦.

(٣) كتاب التفسير، تفسير سورة ٣٩ باب ٣.

وقال أبو يعلى : حدثنا يحيى بن معين حدثنا أبو اليمان حدثنا إسماعيل بن عياش عن عمر بن محمد عن زيد بن أسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «سألت جبريل عليه الصلاة والسلام عن هذه الآية 『ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله』 من الذين لم يشأ الله تعالى أن يصعقهم ؟ قال هم الشهداء يتقددون أسيافهم حول عرشه تتلقاهم ملائكة يوم القيمة إلى المحسن بنجائب^(١) من ياقوت نمارها^(٢) ألين من الحرير مد خططاها مد أبصار الرجال يسرون في الجنة يقولون عند طول التزهه انطلقوا بنا إلى ربنا عز وجل لننظر كيف يقضى بين خلقه يضحك إليهم إلهي وإذا ضحك إلى عبد في موطن فلا حساب عليه» رجاله كلهم ثقات إلا شيخ إسماعيل بن عياش فإنه غير معروف والله سبحانه وتعالى أعلم . قوله تبارك وتعالى : «وأشرق الأرض بنور ربها» أي أضاءت يوم القيمة إذا تجلى الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء «ووضع الكتاب» قال قتادة كتاب الأعمال «وجيء بالنبين» قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهم يشهدون على الأمم بأنهم بلغوا رسالات الله إليهم «والشهداء» أي الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر «وقضي بينهم بالحق» أي بالعدل «وهم لا يظلمون» قال الله تعالى : «ونضع الموازين القسط ليوم القيمة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين» [الأنباء : ٤٧] وقال جل وعلا : «إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنك أجرًا عظيماً» [النساء : ٤٠] ولهذا قال عز وجل : «روفيت كل نفس ما عملت» أي من خير وشر «وهو أعلم بما يفعلون» .

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمْرَاحَيْنِ إِذَا جَاءَهُمْ وَهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ أَهُمْ خَرَّبَنَا أَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتَلَوَّنَ عَلَيْكُمْ إِنَّكُمْ رَيْسُرُونَ كُمْ لِقَاءَ يَوْمَكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكُمْ حَقَّتْ كُلُّ مُهَمَّةٍ الْعَدَابُ عَلَى الْكُفَّارِينَ^(١) قِيلَ أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِدِينَ فِيهَا فِتْنَسٌ مَّوْيَ الْمَتَّكِبِينَ^(٢)

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار وإنما يساقون سوقة عنيفة . بزجر وتهديد ووعيد كما قال عز وجل : «يوم يدعون إلى نار جهنم دعا» [الطور : ١٣] أي يدفعون إليها دفعاً ، هذا وهم عطاش ظماء كما قال جل وعلا في الآية الأخرى : «يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً» [مريم : ٨٥ - ٨٦] وهم في تلك الحال صم وبكم وعمي منهم من يمشي على وجهه «ونحشرهم يوم القيمة على وجوههم عمياً وبكمماً وصماماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناتهم سعيراً» [الإسراء : ٩٧] .

قوله تبارك وتعالى : «حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها» أي بمجرد وصولهم إليها فتحت

(١) النجائب : جمع نجيبة ، تأنيث التجيب من الإبل ، وهو القوي الخفيف السريع .

(٢) النمار : جمع نمرة : وهي كل شملة مخططة من مازر العرب .

لهم أبوابها سريعاً لتعجل لهم العقوبة ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية الذين هم غلاظ الأخلاق شداد القوى على وجه التقرير والتوبیخ والتنکیل ﴿أَلمْ يَأْتُكُمْ رَسُولُنَا أَيُّهُمْ مِنْ جَنْسِكُمْ تَتَمَكَّنُونَ مِنْ مُخَاطَبَتِهِمْ وَالْأَخْذُ عَنْهُمْ﴾ يتلون عليكم آيات ربكم أي يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه ﴿وَيَنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمَكُمْ هَذَا﴾ أي ويحذرونكم من شر هذا اليوم، فيقول الكفار لهم ﴿بَلِّي﴾ أي قد جاءونا وأنذرونا وأقاموا علينا الحجج والبراهين ﴿وَلَكُنْ حَقْتَ كَلْمَةَ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي ولكن كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشفوة التي كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل كما قال عز وجل مخبراً عنهم في الآية الأخرى : ﴿كَلَمَا أَلْقَيْنَا فِيهَا فَوْجًا سَأَلُوكُمْ خَزْنَتَهَا أَلَمْ يَأْتُكُمْ نَذِيرًا قَالُوكُلُّا بَلِّي قَدْ جَاءَنَا نَذِيرًا فَكَذَبْنَا وَقَلَّنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ وَقَالُوكُلُّو كَنَا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقَلُ . مَا كَنَا فِي أَصْحَابِ السَّعْيِ﴾ [الملك : ٨ - ١٠] أي رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسَحَقُوا لِأَصْحَابِ السَّعْيِ﴾ [الملك : ١١] أي بعداً لهم وخساراً.

وقوله تبارك وتعالى ه هنا ﴿قَلِيلُ ادْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي كل من رأهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم يستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم ولهذا قال جل وعلا : ﴿قَلِيلُ ادْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها لا خروج لكم منها ولا زوال لكم عنها ﴿فَبَيْسِ مَوْى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي فيلس المصير وبئس المقيل لكم بسبب تكبركم في الدنيا وإيابكم عن اتباع الحق فهو الذي صيركم إلى ما أنتم فيه فيلس الحال وبئس المال .

وَسَيِّقَ الَّذِينَ أَنْقَرْوْهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زَمْرَاحَتَهُ إِذَا جَاءَهُوَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ حَرَنْتُهَا سَلَمُهُ عَلَيْكُمْ طَبَّتْهُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ^[٢٧] وَقَالُوكُلُّا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعَدَمْ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبِعُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَ فَيَعْمَلُ أَجْرُ الْعَمَلِينَ^[٢٨]

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وFDA إلى الجنة زمراً أي جماعة بعد جماعة : المقربون ثم الأبرار ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم كل طائفة مع من يناسبهم : الأنبياء والصلحاء والصديقون مع أشكالهم والشهداء مع أضرابهم ، والعلماء مع أقرانهم وكل صنف مع صنف كل زمرة تناسب بعضها بعضاً ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا﴾ أي وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فاقتصر لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أدن لهم في دخول الجنة وقد ورد في حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيما يسألون لهم في الدخول فيقصدون آدم ثم نوحًا ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمداً ﷺ وعليهم أجمعين كما فعلوا في العرصات عند

استشفافهم إلى الله عز وجل أن يأتي لفصل القضاء ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر في المواطن كلها وقد ثبت في صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أنا أول شفيع في الجنة»^(١) وفي لفظ لمسلم «وأنا أول من يقرع باب الجنة»^(٢).

وقال الإمام أحمد^(٣) : حدثنا هاشم حدثنا سليمان عن ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أتى باب الجنة يوم القيمة فأستفتح فيقول الخازن من أنت ؟ فأقول محمد - قال - فيقول بك أمرت أن لا افتح لأحد قبلك» ورواه مسلم^(٤) عن عمرو بن محمد الناقد وزهير بن حرب كلاهما عن أبي النضر هاشم بن القاسم عن سليمان وهو ابن المغيرة القيسبي عن ثابت عن أنس رضي الله عنه به .

وقال الإمام أحمد^(٥) : حدثنا عبد الرزاق حدثنا عمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أول زمرة تلجم الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يصقون فيها ولا يمتحنون فيها ولا يتغوطون فيها ، آنيتهم وأماشاطهم الذهب والفضة ومجاميرهم الألوة ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى من ساقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تبغض قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله تعالى بكرة وعشيا» ورواه البخاري^(٦) عن محمد بن مقاتل عن ابن المبارك . ورواه مسلم^(٧) عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق كلاهما عن عمر ياسناه نحوه وكذا رواه أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ .

وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا أبو خيثمة حدثنا جرير عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب ذري في السماء إضاءة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتحنون أماشاطهم الذهب والفضة ورشحهم المسك ومجاميرهم الألوة وأزواجهم الحور العين أخلاقوهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء» .

وآخر جاه أيضاً من حديث جرير وقال الزهري عن سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «يدخل الجنة من أمتي زمرة هم سبعون ألفاً تضيء وجوههم إضاءة القمر

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٣٣٢ .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٣٣١ .

(٣) المسند ٣١٦/٢ .

(٤) كتاب الإيمان حديث ٣٣٢ .

(٥) المسند ٣١٦/٢ .

(٦) كتاب بدء الخلق باب ٨ .

(٧) كتاب صفة الجنة حديث ٧ .

ليلة البدر» فقام عكاشة بن محسن فقال يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال: «اللهم اجعله منهم» ثم قام رجل من الأنصار فقال يا رسول الله ادع الله تعالى أن يجعلني منهم فقال رسول الله: «سبقك بها عكاشة»^(١) آخر جاه.

وقد روی هذا الحديث - في السبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب - البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما وجاپر بن عبد الله وعمران بن حصين وابن مسعود ورفاعة بن عربة الجهني وأم قيس بنت محسن رضي الله عنهم ولهمما عن أبي حازم عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله رسول الله قال «ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً أو سبعمائة ألفٍ أخذ بعضهم ببعض حتى يدخل أولهم وأخرهم الجنة وجوههم على صورة القمر ليلة البدر». وقال أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا إسماعيل بن عياش عن محمد بن زياد قال: سمعت أبا أمامة الباهلي رضي الله عنه يقول سمعت رسول الله رسول الله يقول: «وعدنى ربى عز وجل أن يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً مع كل ألف سبعون ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب وثلاث حثيات من حثيات ربى عز وجل» وكذا رواه الوليد بن مسلم عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر عن أبي اليمان عامر بن عبد الله بن لحيٍّ عن أبي أمامة ورواه الطبراني عن عتبة بن عبد السلمي «ثم يشفع مع كل ألف سبعين ألفاً» ويروي مثله عن ثوبان وأبي سعيد الأنماري وله شواهد من وجوه كثيرة.

وقوله تعالى: «حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين» لم يذكر الجواب هنا، وتقديره حتى إذا جاءوها وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراماً وتعظيمًا وتلقتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء لا كما تلقى الزبانية الكفرا بالتشرييف^(٢) والتأنيب فتقديره إذا كان هذا سعدوا وطابوا وسرروا وفرحوا بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم، وإذا حذف الجواب هنا ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل، ومن زعم أن الواو في قوله تبارك وتعالى: «وفتحت أبوابها» واو الشمانية واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية فقد أبعد النجعة وأغرق في النزع، وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة.

قال الإمام أحمد^(٣): حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله رسول الله: «من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله تعالى دعي من أبواب الجنة وللجنّة أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدق، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب

(١) أخرجه البخاري في الرفاق بباب ٢١، ٥٠، واللباس بباب ١٨، ومسلم في الإيمان حديث ٣٦٩، ٣٧٠.

(٢) التشييف: التوبيخ والتأنيث.

(٣) المسند ٢/٢٦٨.

الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان» فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه يا رسول الله ما على أحد من ضرورة دعى من أيها دعى فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله ؟ قال عليه السلام: «نعم وأرجو أن تكون منهم»^(١) رواه البخاري ومسلم من حديث الزهري بنحوه وفيهما من حديث أبي حازم سلمة بن دينار عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله عليه السلام قال: «إن في الجنة ثمانية أبواب باب منها يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون»^(٢) وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه السلام: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»^(٣) وقال الحسن بن عرفة حدثنا إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين عن شهر بن حوشب عن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه السلام: «مفتاح الجنة لا إله إلا الله».

ذكر سعة أبواب الجنة - نسأل الله من فضله العظيم أن يجعلنا من أهلها

وفي الصحيحين من حديث أبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطويل «فيقول الله تعالى يا محمد أدخل من لا حساب عليه من أمتك من الباب الأيمن وهم شركاء الناس في الأبواب الآخر والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصارعين من مصاريع الجنة ما بين عصادي الباب لكما بين مكة وهجر - أو هجر ومكة - وفي رواية - مكة وبصرى»^(٤) وفي صحيح مسلم عن عتبة بن غزوان أنه خطبهم خطبة فقال فيها ولقد ذكر لنا أن ما بين مصارعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة ول يأتيكما عليه يوم وهو كظيم من الزحام^(٥) ، وفي المسند^(٦) عن حكيم بن معاوية عن أبيه رضي الله عنه عن رسول الله عليه السلام مثله.

وقال عبد بن حميد حدثنا الحسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله عليه السلام قال: «إن ما بين مصارعين في الجنة مسيرة أربعين سنة»^(٧).

وقوله تبارك وتعالى: «وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم» أي طابت أعمالكم وأقوالكم

(١) أخرجه البخاري في الصوم باب ٤ ، ومسلم في الزكاة حديث ٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في الصوم باب ٤ ، ومسلم في الصيام حديث ١٦٦.

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة حديث ١٧.

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١٧ باب ٥ ، ومسلم في الإيمان حديث ٣٢٧.

(٥) أخرجه مسلم في الزهد حديث ١٤.

(٦) مسند أحمد ٣/٥.

(٧) أخرجه أحمد في المسند ٢٩/٣.

وطاب سعيكم وطاب جزاؤكم كما أمر رسول الله ﷺ أن ينادي بين المسلمين في بعض الغزوات «إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة - وفي رواية - مؤمنة»^(١).

وقوله: «فادخلوها خالدين» أي ماكثين فيها أبداً لا يغون عنها حولاً «وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده» أي يقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة ذلك الثواب الوافر والعطاء العظيم والنعيم المقيم والملك الكبير يقولون عند ذلك «الحمد لله الذي صدقنا وعده» أي الذي كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام كما دعوا في الدنيا «ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخذنا يوم القيمة إنك لا تخلف الميعاد» [آل عمران: ١٩٤] «وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله لقد جاءت رسلي ربنا بالحق» [الأعراف: ٤٣] «وقالوا الحمد لله الذي أذهب عننا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي أحلا نار المقامات من فضله لا يمسنا فيها نسب ولا يمسنا فيها لغوب» [فاطر: ٣٤ - ٣٥].

وقوله: «وأورثنا الأرض ثبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين»^(٢). قال أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسدي وابن زيد أي أرض الجنة^(٣) فهذه الآية كقوله تعالى: «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون» [الأنبياء: ١٠٥] ولهذا قالوا من الجنة حيث نشاء» أي أين شئنا حللنا فنعم الأجر أجرنا على عملنا.

وفي الصحيحين من حديث الزهرى عن أنس رضي الله عنه في قصة المراجح قال النبي ﷺ: «أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ^(٤) اللؤلؤ وإذا ترابها المسك»^(٥).

وقال عبد الرحمن بن حميد: حدثنا روح بن عبادة حدثنا حماد بن سلمة حدثنا الجريري عن أبي نصرة عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ سأله ابن صائد عن تربة الجنة فقال در مكة بيضاء مسک خالص فقال رسول الله ﷺ «صدق»^(٦) وكذا رواه مسلم من حديث أبي سلمة عن أبي نصرة عن أبي سعيد رضي الله عنه به، ورواه مسلم أيضاً عن أبي بكر بن أبي شيبة عن أبيأسامة عن الجريري عن أبي نصرة عن أبي سعيد رضي الله عنه قال إن ابن صائد سأله رسول الله ﷺ عن تربة الجنة فقال: «در مكة بيضاء مسک خالص»^(٧).

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل حدثنا إسرائيل عن أبي

(١) أخرجه النسائي في الحجج باب ١٦١.

(٢) انظر تفسير الطبرى ١١/٣٤.

(٣) الجنابذ: هي القباب، والجنبدة: القبة.

(٤) أخرجه البخارى في الصلاة باب ١، والأنبياء باب ٥، ومسلم في الإيمان حديث ٢٦٣، وأحمد في المسند ٥/١٤٤.

(٥) أخرجه مسلم في الفتن حديث ٩٢.

(٦) أخرجه مسلم في الفتن حديث ٩٣.

إسحاق عن عاصم بن ضمرة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالى: «وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً» قال سيقوا حتى انتهوا إلى باب من أبواب الجنة فوجدوا عندها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان فعمدوا إلى إحداها فتظهروا منها فجرت عليهم نمرة النعيم فلم تغير أبشارهم بعدها أبداً ولم تشعت أشعارهم أبداً بعدها كأنما دهنا بالدهان ثم عمدوا إلى الأخرى كأنما أمروا بها فشربوا منها فاذهبت ما كان في بطونهم من أذى أو قدى وتلقتهم الملائكة على أبواب الجنة «سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين» ويلقى كل غلام صاحبهم يطيفون به فعل الولدان بالحميم جاء من الغيبة أبشر قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا وقد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا، قال وينطلق غلام من غلمانه إلى أزواجه من الحور العين فيقول هذا فلان باسمه في الدنيا فيقلن أنت رأيته فيقول نعم فيستخفهن الفرح حتى تخرج إلى أسكفة^(١) الباب قال فيجيء فإذا هو بنمارق مصفوفة وأكواب موضوعة وزرابي مبثوثة، قال ثم ينظر إلى تأسيس بيانيه فإذا هو قد أسس على جندل اللؤلؤ بين أحمر وأخضر وأصفر وأبيض ومن كل لون ثم يرفع طرفه إلى سقفه فلولا أن الله تعالى قدره له لأنم أن يذهب بيصره إنه لمثل البرق ثم ينظر إلى أزواجه من الحور العين ثم يتکئ على أريكة من أرائكه ثم يقول: «الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لننهدي لولا أن هدانا الله» [الأعراف: ٤٣].

ثم قال: حدثنا أبي حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النهدي حدثنا مسلمة بن جعفر البجلي قال: سمعت أبا معاذ البصري يقول إن علياً رضي الله عنه كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم يستقبلون - أو يؤتون - بنوقة لها أجنحة وعليها رحال الذهب شراك^(٢) نعالهم نور يتلألأ كل خطوة منها مد البصر فيتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان فيشربون من إحداها فتغسل ما في بطونهم من دنس ويغسلون من الأخرى فلا تشعت أشعارهم ولا أشعارهم بعدها أبداً وتجري عليهم نمرة النعيم فيتهون - أو فيأتون - بباب الجنة فإذا حلقة من ياقوطة حمراء على صفائح الذهب فيضربون بالحلقة على الصفيحة فيسمع لها طنين يا علي فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل فتبعد قيمها فيفتح له فإذا رأه خر له - قال مسلمة أراه قال ساجداً - .

فيقول ارفع رأسك فإنما أنا قيمك وكلت بأمرك فيتبعه ويقفوا أثره فتستخف الحوراء العجلة فتخرج من خيام الدر الياقوت حتى تعتنقه ثم تقول أنت حبي وأنا حبك وأنا الحالدة التي لا أموت وأنا الناعمة التي لا أباس وأنا الأرضية التي لا أسطخ وأنا المقيمة التي لا أطعن فيدخل بيتاً من أسه إلى سقفه مائة ألف ذراع بناوه على جندل اللؤلؤ طائق أصفر وأخضر وأحمر ليس فيها طريقة تشكل صاحبها في البيت سبعون سريراً على كل سرير سبعون حشية

(١) الأسكفة: هي خشبة الباب التي يوطأ عليها.

(٢) شراك النعل: سير النعل.

على كل حشية سبعون زوجة على كل حلة يرى مخ ساقها من باطن الحل يقضي جماعها في مقدار ليلة من لياليكم هذه، الأنهر من تحتهم تطرد «أنهار من ماء غير آسن» - قال صاف لا كدر فيه - « وأنهار من لبن لم يتغير طعمه» - قال لم يخرج من ضروع الماشية - « وأنهار من خمرة لذة للشاربين» - قال لم تعصرها الرجال بأقدامهم - « وأنهار من عسل مصفى» - قال لم يخرج من بطون النحل، يستجنى الشمار فإن شاء قائما وإن شاء قاعدا وإن شاء متكتنا - ثم تلا **﴿وَدَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظَلَالُهَا وَذَلِكَتْ قَطْوَنَهَا تَذَلِّلًا﴾** [الإنسان: ١٤] فيشتهي الطعام فيأتيه طير أبيض قال وربما قال أخضر قال فترفع أجنبتها فإذا كل من جنوبها أي الألوان شاء ثم يطير فيذهب فيدخل الملك فيقول: سلام عليكم تلکم الجنۃ أورثتموها بما کتم تعملون ولو أن شعرة من شعر الحوراء وقعت في الأرض لأضاءت الشمس معها سواداً في نور» هذا حديث غريب وكأنه مرسل، والله أعلم.

وَرَأَى الْمَلَائِكَةَ حَافِرِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُصِّيَّ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار وأنه نزل كلّاً في المحل الذي يليق به ويصلح له وهو العادل في ذلك الذي لا يجور، أخبر عن ملائكته أنهن محدقون من حول العرش المجيد يسبحون بحمد ربهم ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه ويترهونه عن الناقص والجور وقد فصل القضية قضي الأمر وحكم بالعدل ولهذا قال عز وجل: **﴿وَقُصِّيَّ بَيْنَهُمْ﴾** أي بين الخلاقين **﴿بِالْحَقِّ﴾**. ثم قال **﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** أي ونطق الكون أجمعه ناطقه وبهيمه الله تعالى **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾** [الأنعام: ١] واختتم بالحمد في قوله تبارك وتعالى: **﴿وَقُصِّيَّ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**.

تفسير سورة غافر

وهي مكية

قد كره بعض السلف منهم محمد بن سيرين أن يقال الحواميم وإنما يقال آل حم قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: آل حم دياج القرآن وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن لكل شيء لباب القرآن آل حم أو قال الحواميم وقال مسعود بن كدام كان يقال لهن العرائس وروى ذلك كله الإمام العالم أبو عبيد القاسم بن سلام رحمة الله تعالى في كتاب فضائل القرآن.

وقال حميد بن زنجويه: حدثنا عبد الله بن موسى حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله رضي الله عنه قال: إن مثل القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله متولاً فمر بأثر غيث في بينما هو يسير فيه ويتعجب منه إذ هبط على روؤسات دمثات^(١) فقال عجبت من الغيث الأول فهذا أعجب وأعجب فقيل له إن مثل الغيث الأول مثل عظم القرآن، وإن مثل هؤلاء الروؤسات الدمثات مثل آل حم في القرآن أورده البغوي. وقال ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب أن الجراح بن أبي الجراح حدثه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لكل شيء لباب ولباب القرآن الحواميم وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا وقعت في آل حم فقد وقعت في روؤسات أنانق فيهن^(٢).

وقال أبو عبيد حدثنا الأشجعي حدثنا مسعر هو ابن كدام عن حديثه أن رجلاً رأى أبا الدرداء رضي الله عنه يبني مسجداً فقال له ما هذا؟ فقال أبنيه من أجل آل حم وقد يكون هذا المسجد الذي بناه أبو الدرداء رضي الله عنه هو المسجد المنسب إليه داخل قلعة دمشق، وقد يكون صياتها وحفظها ببركته وبركة ما وضع له فإن هذا الكلام يدل على النصر على الأعداء كما قال رسول الله ﷺ لأصحابه في بعض الغزوات: «إن بيتم الليلة فقولوا حم لا ينصرون - وفي رواية - لا تنصرون»^(٣).

وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا أحمد بن الحكم بن ظبيان بن خلف المازني ومحمد بن الليث الهمданى قالا: حدثنا موسى بن مسعود حدثنا عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي عن زرارة بن مصعب عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ آية الكرسي وأول حم المؤمن عصم ذلك اليوم من كل سوء» ثم قال لا نعلم بيروى إلا بهذا

(١) الروضة الدمشقية: هي الأرض السهلة الرخوة.

(٢) أثائق فيهن: أي أعجب بهن ، واستلذ قراءتهن ، واتبع محاسهن .

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ٧١، والترمذي في الجهاد باب ١١، وأحمد في المستند ٦٥/٤.

.۳۷۸ /۰

الإسناد ورواه الترمذى من حديث الملىكى وقال تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تَبَرِّعُ الْكِتَابُ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ
غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذِي الْأَطْوَلِ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغني عن إعادته هنا وقد قيل إن **(حـمـ)** اسم من أسماء الله عز وجل وأنشدوا في ذلك بيتاً: [الطوبل] يذَّكُرْنِي حـمـ وـالرُّمـحـ شـاجـرـ فـهـلـاً تـلاـحـمـ قـبـلـ التـقـدـمـ^(١)

وقد ورد في الحديث الذي رواه أبو داود والترمذى من حديث الثورى عن أبي إسحاق عن المهلب بن أبي صفرة قال: حدثنى من سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن بيتم الليلة فقولوا حم لا ينصرون»^(٢) وهذا إسناد صحيح، صفة واختار أبو عبيد أن يروى فقولوا حم لا ينصروا أي إن قلتم ذلك لا ينصروا جعله جزاء لقوله فقولوا.

وقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن من الله ذي العزة والعلم فلا يرام جنابه ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابه. وقوله عزوجل: ﴿غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبَ﴾ أي يغفر ما سلف من الذنب ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه. وقوله جل وعلا: ﴿شَدِيدُ الْعَقَابِ﴾ أي لمن تمرد وطغى وأثر الحياة الدنيا وعتا عن أوامر الله تعالى وبغي وهذه كقوله: ﴿نَّبِيٌّ عَبْدِيٌّ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِّي عَذَابُ الْأَلِيمِ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠] يقرن هذين الوصفين كثيراً في مواضع متعددة من القرآن ليبيقي العبد بين الرجاء والخوف، وقوله تعالى: ﴿ذِي الطُّولِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني السعة والغنى، وهكذا قال مجاهد وقتادة، وقال يزيد بن الأصم ذي الطول يعني الخير الكبير. وقال عكرمة ﴿ذِي الطُّولِ﴾ ذي المتن. وقال قتادة ذي النعم والفوائل، والمعنى أنه المتفضل على عباده المتطلوب عليهم بما هم فيه من المنة والإنعم التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها ﴿وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] الآية . وقوله جلت عظمته: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا نظير له في جميع صفاته فلا إله غيره فلا إله

(١) البيت للأشر النخعي في الاشتراق ص ١٤٥ ، ولعدي بن حاتم الطائي في حماسة البحتري ص ٣٦ ولشريح بن أوفى العبسي في تفسير الطبرى ص ٣٨ / ١١ ، ولسان العرب (حمم) ، ولعاصم بن مقشر البصري في معجم الشعراء ص ٢٧٠ ، وبلا نسبة في الخصائص ١٨١ / ٢ ، ولسان العرب (ندم) ، والمقتضب ١ / ٢٣٨ ، ٣٥٦ / ٣.

(٢) تقدم الحديث مع تخرجه في الصفحة السابقة.

ولأرب سواه **(إليه المصير)** أي إليه المرجع والمأب فيجازى كل عامل بعمله **﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَاب﴾** [الرعد: ٤٦] وقال أبو بكر بن عياش: سمعت أبا إسحاق السبيسي يقول: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين إني قتلت فهل لي من توبة فقرأ عمر رضي الله عنه **(حَمَّ تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التُّوبِ شَدِيدُ العِقَابِ)** وقال أعمل ولا تيأس. رواه ابن أبي حاتم: واللفظ له وابن جرير^(١).

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا موسى بن مروان الرقي حدثنا عمر يعني ابن أبيوب حدثنا جعفر بن بردان عن يزيد بن الأصم قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس وكان يفد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ففقده عمر فقال ما فعل فلان بن فلان، فقالوا يا أمير المؤمنين تتبع في هذا الشراب. قال فدعنا عمر كاتبه: فقال اكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير. ثم قال لأصحابه ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه وأن يتوب الله عليه، فلما بلغ الرجل كتاب عمر رضي الله عنه جعل يقرؤه ويرددده ويقول: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، قد حذرني عقوبته ووعدني أن يغفر لي. ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث جعفر بن بردان وزاد فلم يزل يرددتها على نفسه ثم بكى ثم نزع فأحسن النزع، فلما بلغ عمر خبره قال هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخا لكم زلزلة فسددوه ووثقوه وادعوا الله له أن يتوب عليه ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن شيبة حدثنا حماد بن واقد حدثنا أبو عمر الصفار حدثنا ثابت الباني قال كنت مع مصعب بن الزبير رضي الله عنه في سواد الكوفة فدخلت حائطاً أصلي ركعتين فافتتحت حم المؤمن حتى بلغت لا إله إلا هو إليه المصير فإذا رجل خلفي على بغلة شهباء عليه مقطعات يمنية فقال إذا قلت غافر الذنب فقل يا غافر الذنب اغفر لي ذنبي، وإذا قلت وقابل التوب فقل يا قابل التوب اقبل توبي، وإذا قلت شديد العقاب فقل يا شديد العقاب لا تعاقبني، قال فالتفت فلم أر أحداً فخرجت إلى الباب فقلت من بكم رجل عليه مقطعات يمنية، قالوا ما رأينا أحداً فكانوا يرون أنه إلياس، ثم رواه من طريق أخرى عن ثابت بنحوه وليس فيه ذكر إلياس والله سبحانه وتعالى أعلم.

مَا يُحَدِّلُ فِيَّ إِنَّ اللَّهَ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَعْرِكُونَهُمْ فِي الْأَيْمَانِ **﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نُوحُ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَطْلِ لِيُدْخِلُوهُ بِهِ الْحَقَّ فَأَخْذَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُهُمْ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كِلَمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ**

أَنَارٍ

يقول تعالى ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان «إلا الذين كفروا» أي الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه «فلا يغرنك تقلبهم في البلاد» أي في أموالها ونعمتها وزهرتها كما قال جل وعلا: «لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهداد» [آل عمران: ١٩٦ - ١٩٧] وقال عز وجل: «نَمْتُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نُضْطَرُهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِظٍ» [لقمان: ٢٤] ثم قال تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه بأن له أسوة فيمن سلف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنه قد كذبهم أممهم وخالفوهم وما آمن بهم إلا قليل فقال: «كذبت قبليهم قوم نوح» وهو أول رسول بعثه الله ينهى عن عبادة الأوثان «والأحزاب من بعدهم» أي من كل أمة «وَهُمْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِ لِيَأْخُذُوهُ» أي حرصوا على قتلته بكل ممكן ومنهم من قتل رسوله «وَجَادُلُوا بِالْبَاطِلِ لِيَدْحُضُوا بِهِ الْحَقَّ» أي ما حلوا^(١) بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي.

وقد قال أبو القاسم الطبراني حدثنا علي بن عبد العزيز حدثنا عارم أبو النعمان حدثنا معتمر بن سليمان قال سمعت أبي يحدث عن حنش عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من أغان باطلًا ليحضر به حقاً فقد برئت منه ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ» وقوله جلت عظمته: «فَأَخْذُهُمْ» أي أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام «فَكَيْفَ كَانَ عَقَابُهُمْ» أي فكيف بلغك عذابي لهم ونكالي بهم قد كان شديداً موجعاً مؤلماً. قال قتادة كان والله شديداً. وقوله جل جلاله: «وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلْمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ» أي كما حققت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة كذلك حقق على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريق الأولى والأخرى لأن من كذبك فلا ثوقي له بتصديق غيرك ، والله أعلم.

الَّذِينَ يَحْمُلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُمْ يَسْبِحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ أَمْنَوْا رَبِّنَا وَسَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَأَعْفَرَ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقَيْمَ عَذَابَ الْجَحْمِ ⑥ رَبَّنَا وَآدَلْهُمْ جَنَّتِ عَدِنِ الَّتِي وَعَدَتْهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ أَبَابِيهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَدُرِيَتْهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑦ وَقِيمُ الْسَّيِّعَاتِ وَمَنْ تَقَنَ الْسَّيِّعَاتِ يُوْمِيَّرْ فَقَدْ رَحْمَتْهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ⑧

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حملة العرش الأربعية ومن حوله من الملائكة الكروبيين^(٢) بأنهم يسبحون بحمد ربهم أي يقرنون بين التسبيح الدال على نفي الناقص

(١) ماحل: أي دافع وحاول، من المحال وهو الكيد، وقيل: المكر.

(٢) الكروبيون: هم سادة الملائكة.

والتحميد المقتضي لإثبات صفات المدح «ويؤمنون به» أي خاشعون له أذلاء بين يديه وأنهم «يستفرون للذين آمنوا» أي من أهل الأرض ممن آمن بالغيب فقضى الله تعالى ملائكته المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظاهر الغيب ولما كان هذا من سجايا الملائكة عليهم الصلاة والسلام كانوا يؤمدون على دعاء المؤمن لأخيه بظاهر الغيب كما ثبت في صحيح مسلم «إذا دعا المسلم لأخيه بظاهر الغيب قال الملك أمين ولك بمثله»^(١).

وقد قال الإمام أحمد^(٢) حدثنا عبد الله بن محمد وهو ابن أبي شيبة حدثنا عبدة بن سليمان عن محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أن رسول الله ﷺ قال: «صدق أمية بن أبي الصلت في شيء من شعره» فقال: [الطوبل]
زحل وثور تحت رجل يمينه والنصر للأخرى وليث مرصد^(٣)

فقال رسول الله ﷺ: «صدق» فقال: [الطوبل]

والشمس تطلع كل آخر ليلة حمراء يصبح لونها يتورد
تأبى فما تطلع لنا في رسليها إلا معذبة ولا تجلد

فقال رسول الله ﷺ: «صدق» وهذا إسناد جيد وهو يقتضي أن حملة العرش اليوم أربعة فإذا كان يوم القيمة كانوا ثمانية كما قال تعالى: «ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية»
[الحاقة: ١٧].

وهنا سؤال وهو أن يقال ما الجمع بين المفهوم من هذه الآية ودلالة هذا الحديث؟ وبين الحديث الذي رواه أبو داود حدثنا محمد بن الصباح البزار حدثنا الوليد بن أبي ثور عن سماك عن عبد الله بن عميرة عن الأخفف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: كنت بالبطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ فمررت بهم سحابة فنظر إليها فقال: «ما تسمون هذه؟» قالوا السحاب، قال: «والمن» قالوا والمن قال: «والعنان» قالوا والعنان^(٤)، قال أبو داود ولم أتقن العنان جيداً، قال: «هل تدركون بعد ما بين السماء والأرض؟» قالوا لا ندرى، قال «بعد ما بينهما إما واحدة أو اثنان أو ثلاثة وسبعون سنة ثم السماء فوقها كذلك حتى عدد سبع سموات، ثم فوق السماء السابعة بحر ما بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أو عالى بين أظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء إلى سماء ثم على ظهورهن

(١) أخرجه أبو داود في الوتر بباب ٢٩.

(٢) المسند ١/ ٢٥٦.

(٣) الأبيات في الإصابة ١٣٤، وخزانة الأدب ١٢١، والشعر والشعراء ١/ ٤٦٠.

(٤) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ٦٩، باب ١، وأبو داود في السنة باب ١٨. وابن ماجه في المقدمة باب ١٣، وأحمد في المسند ١/ ٢٠٦.

العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء ثم الله تبارك وتعالى فوق ذلك». ثم رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث سماك بن حرب به وقال الترمذى حسن غريب.

وهذا يقتضي أن حملة العرش ثمانية كما قال شهر بن حوشب رضي الله عنه: حملة العرش ثمانية: أربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك، وأربعة يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك ولهذا يقولون إذا استغفروا للذين آمنوا **﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما﴾** أي إن رحمتك تسع ذنبهم وخطاياهم وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم **﴿فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك﴾** أي فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات وترك المنكرات **﴿وقهم عذاب الجحيم﴾** أي وزحزهم عن عذاب الجحيم وهو العذاب الموجع الأليم **﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم﴾** أي اجمع بينهم وبينهم لتقرب بذلك أعينهم بالاجتماع في منازل متجاورة كما قال تبارك وتعالى: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعُوكُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِيَمَانِ الْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ وَمَا أَنْتُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾** [الطور: ٢١] أي ساواينا بين الكل في المنزلة لتقرب أعينهم وما نقصنا العالى حتى يساوى الداني بل رفعنا ناقص العمل فساويناه بكثير العمل تفضلاً منا ومنة.

وقال سعيد بن جبير إن المؤمن إذا دخل الجنة سأله عن أبيه وابنه وأخيه وأين هم؟ فيقال إنهم لم يبلغوا طبقتك في العمل فيقول إنني إنما عملت لي ولهم فيلحقون به في الدرجة ثم تلا سعيد بن جبير هذه الآية **﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾** قال مطرف بن عبد الله بن الشخير: أنس صح عباد الله للمؤمنين الملائكة ثم تلا هذه الآية **﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم﴾** الآية وأغش عاده للمؤمنين الشياطين. قوله تبارك وتعالى: **﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** أي الذي لا يمانع ولا يغالب وما شاء كان وما لم يشاً لم يكن الحكيم في أقوالك وأفعالك من شركك وقدرك **﴿وقهم السيئات﴾** أي فعلها أو وبالها من وقعت منه **﴿وَمِنْ تَقْسِيَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾** أي يوم القيمة **﴿فَقَدْ رَحْمَتَهُ﴾** أي لطفت به ونجيته من العقوبة **﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾**.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانَكُمْ لَمْ يَقْتُلُوكُمُ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتُلَكُمْ أَنْفُسُكُمْ إِذْ تَذَعَّرُونَ إِلَى الْأَيْمَنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١﴾ **قَالُوا رَبَّنَا أَمْنَا أَشْتَنَّ وَاحْيَيْتَنَا أَنْتَنَ فَأَعْتَرْفُنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ** ﴿٢﴾ **ذَلِكُمْ إِنَّهُ إِذَا دُعَىٰ اللَّهُ وَهَدَمْ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشَرِّكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحَكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ** ﴿٣﴾ **هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ أَيْتِيهِ وَيُنَزِّلُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ** ﴿٤﴾ **فَادْعُوا اللَّهَ مُعْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكُفَّارُونَ** ﴿٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار أنهم ينادون يوم القيمة وهم في غمرات النيران يتلذذون وذلك

عندما باشروا من عذاب الله تعالى ما لا قبل لأحد به فمقتوا عند ذلك أنفسهم وأبغضوها غاية البغض بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة التي كانت سبب دخولهم إلى النار فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخباراً عالياً نادوهم نداء بأن مقت الله تعالى لهم في الدنيا حين كان يعرض عليهم الإيمان فيكفرون أشد من مقتكم أيها المعدبون أنفسكم اليوم في هذه الحالة.

قال قتادة في قوله تعالى: «لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون» يقول لمقت الله أهل الصلاة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا فتركوه وأتوا أن يقبلوه أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيمة^(١)، وهكذا قال الحسن البصري ومجاهد والسدي وذر بن عبيد الله الهمданى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير الطبرى رحمة الله عليهم أجمعين. قوله: «قالوا ربنا أمنتنا اثنتين وأحييتنَا اثنتين» قال الثورى عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود رضي الله عنه هذه الآية كقوله تعالى: «كيف تكفرون بالله وكتم أمواتاً فأحياكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون» [البقرة: ٢٨] وكذا قال ابن عباس والضحاك وقتادة وأبو مالك وهذا هو الصواب الذى لا شك فيه ولا مرية . وقال السدى أحيتوا في الدنيا ثم أحيوا في قبورهم فخطبوا، ثم أحيتوا ثم أحيوا يوم القيمة، وقال ابن زيد: أحيوا حين أخذ عليهم الميثاق من صلب آدم عليه السلام ثم خلقهم في الأرحام ثم أماتهم ثم أحياهم يوم القيمة، وهذا القولان من السدى وابن زيد ضعيفان لأنه يلزمهما على ما قالا ثلاثة إحياءات وإماتات ، وال الصحيح قول ابن مسعود وابن عباس ومن تابعهما ، والمقصود من هذا كله أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله عز وجل في عرصات القيمة كما قال عز وجل : «ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصربنا وسمعننا فارجعنا نعمل صالحًا إنما موئون» [السجدة: ١٢] فلا يجانون ثم إذا رأوا النار وعاينوها ووقفوا عليها ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنkal سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة فلا يجانون قال الله تعالى : «ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون» [الأنعام: ٢٧ - ٢٨] فإذا دخلوا النار وذاقوا مسنه وحسيسها ومقامعها وأغلالها كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم «وهم يصطرخون فيها ربنا أخر جنا نعمل صالحًا غير الذي كنا نعمل أو لم نعملكم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم التذير فذوقوا فيما للظالمين من نصير» [فاطر: ٣٧] «ربنا آخر جنا منها فإن عدنا فإننا ظالمون قال أخسسوها فيها ولا تكلمون» [المؤمنون: ١٠٧] .

[١٠٨]

وفي هذه الآية الكريمة تلطفوا في السؤال وقدموا بين يدي كلامهم مقدمة وهي قولهم «ربنا

(١) انظر تفسير الطبرى ٤٣/١١

أمتنا اثنين وأحييتنا اثنين﴿﴾ أي قدرتك عظيمة فإنك أحيتنا بعد ما كنا أمواتاً ثم أمتنا ثم أحيتنا فأنت قادر على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنبينا وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا ﴿فَهَلْ إِلَى خروج من سبيل﴾ أي فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا فإنك قادر على ذلك لنعمل غير الذي كنا نعمل فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإننا ظالمون، فأجيبوا أن لا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا، ثم علل المنع من ذلك بأن سجايكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه بل تتجده وتنفيه، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يَشْرُكْ بِهِ تَوْمَنَا﴾ أي أنتم هكذا تكونون وإن ردتم إلى الدار الدنيا كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ رَدُوا لِعَادُوا مَا نَهَا عَنْهُ وَإِنْهُمْ لَكَاذِبُون﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقوله جل وعلا: ﴿فَالْحَكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ أي هو الحكم في خلقه العادل الذي لا يجور فيهدي من يشاء ويضل من يشاء ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء لا إله إلا هو، وقوله جل جلاله: ﴿هُوَ الَّذِي يَرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ﴿وَيَنْزَلُ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ وهو المطر الذي يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس من اختلاف الألوانه وطعمه وروائحه وأشكاله وألوانه وهو ماء واحد فالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي يعتبر ويتذكر في هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿إِلَّا مَنْ يَنْبِئُ﴾ أي من هو بصير منيب إلى الله تبارك وتعالى.

وقوله عز وجل: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لِهِ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أي فأخلصوا الله وحده العبادة والدعاء وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم. قال الإمام أحمد^(١): حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا هشام يعني ابن عروة بن الزبير عن أبي الزبير محمد بن مسلم بن مدرس المكي قال: كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا حول ولا قوة إلا بالله لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، قال: وكان رسول الله ﷺ يهلهل بهن دبر كل صلاة، ورواه مسلم وأبو داود والنسيائي من طرق عن هشام بن عروة وحجاج بن أبي عثمان وموسى بن عقبة ثلاثة عن أبي الزبير عن عبد الله بن الزبير قال: كان رسول الله ﷺ يقول في دبر كل صلاة: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَه»^(٢) وذكر تماماً. وقد ثبت في الصحيح عن ابن الزبير رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ

(١) المستند ٤/٤.

(٢) أخرجه مسلم في المساجد حديث ١٣٧، ١٣٨، وأبو داود في الوتر باب ٢٤، والنسيائي في السهو بباب .٨٣

الملك وله الحمد وهو على كل شيء قادر لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»^(١). وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الربيع حدثنا الخصيب بن ناصح حدثنا صالح يعني المري عن هشام بن حسان عن ابن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ادعوا الله تبارك وتعالى وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه».

رَفِيعُ الْدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرَشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ۖ يَوْمَ هُمْ بَنَرُؤُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمَلَكُ الْيَوْمُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْفَهَارِ ۖ الْيَوْمَ تُبَخَّرَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْعَسَابِ ۖ

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها كما قال تعالى: «من الله ذي المعارج تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» [المعارج: ٣ - ٤] وسيأتي إن شاء الله تعالى بيان أن هذه مسافة ما بين العرش إلى الأرض السابعة في قول جماعة من السلف والخلف وهو الأرجح إن شاء الله وقد ذكر غير واحد أن العرش من ياقوتة حمراء اتساع ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة. وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة وقد تقدم في حديث الأولاد ما يدل على ارتفاعه عن السموات السبع بشيء عظيم.

وقوله تعالى: «يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده» كقوله جلت عظمته: «ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون» [النحل: ٢] وكقوله تعالى: «وإنه لتزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين» [الشعراء: ١٩٤ - ١٩٢] ولهذا قال عز وجل: «لينذر يوم التلاق» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يوم التلاق اسم من أسماء يوم القيمة حذر الله منه عباده^(٢).

وقال ابن جريج قال ابن عباس رضي الله عنهما يلتقي فيه آدم وأخر ولده وقال ابن زيد يلتقي فيه العباد. وقال قتادة والستي ويلال بن سعد وسفيان بن عيينة يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض وقال قتادة أيضاً: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض وقال قتادة أيضاً: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض والخلق، وقال ميمون بن مهران يلتقي الظالم والمظلوم، وقد يقال إن يوم التلاق يشمل هذا كله ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عملها من خير وشر كما قاله آخرون.

(١) أخرجه مسلم في المساجد حديث ١٣٩ . وأحمد في المسند ٤ / ٤ ، ٥ .

(٢) تفسير الطبراني ٤٧ / ١١ .

وقوله جل جلاله: «يُوْمَ هُم بَارِزُونَ» أي ظاهرون بادون كلام لا شيء يكفهم ولا يظلمهم ولا يسترهم ولهذا قال: «يُوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ» أي الجميع في علمه على السواء. قوله تبارك وتعالى: «لَمَنِ الْمَلْكُ الْيَوْمَ لَهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» قد تقدم في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه تعالى يطوي السموات والأرض بيده ثم يقول أنا الملك أنا الجبار أنا المتكبر، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ وفي حديث الصور أنه عز وجل إذا قبض أرواح جميع خلقه فلم يبق سواه وحده لا شريك له حينئذ يقول لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرات ثم يجيب نفسه قائلاً «لَهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» أي الذي هو وحده قد قهر كل شيء وغله. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن غالب الدقاق حدثنا عبيد بن عبيدة حدثنا معتمر عن أبيه حدثنا أبو نصرة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ينادي مناد بين يدي الساعة يا أيها الناس أتتكم الساعة فيسمعوا الأحياء والأموات قال وينزل الله عز وجل إلى السماء الدنيا ويقول: «لَمَنِ الْمَلْكُ الْيَوْمَ لَهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ».

وقوله جلت عظمته: «الْيَوْمَ تَجْزِي كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسِبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها وبالسيئة واحدة ولهذا قال تبارك وتعالى: «لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ» كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ فيما يحكى عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسك وجعلته بينكم محرماً فلا ظالموا - إلى أن قال - يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله تبارك وتعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»^(١) وقوله عز وجل: «إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» أي يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفساً واحدة كما قال جل وعلا: «مَا خَلَقْتُمْ وَلَا بَعْثَقْتُمْ إِلَّا كُنْفُسَ وَاحِدَةً» [لقمان: ٢٨] وقال جل جلاله: «وَمَا أَمْرَنَا إِلَّا وَاحِدَةً كُلُّمَحْ بِالْبَصَرِ» [القمر: ٥٠].

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزْفَةِ إِذَا الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمَنَّ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ
يَعْلَمُ حَلَيْنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تَخْفِي الصُّدُورُ وَلَهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْصُدُونَ
يُشَكِّعُ إِنَّ اللَّهَ هُوَ أَسْمَى مِنْ الْبَصَرِ

يوم الآزفة اسم من أسماء يوم القيمة وسميت بذلك لاقترابها كما قال تعالى: «أَرْزَقْتَ الْآزْفَةَ لِيَسْ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةً» [النجم: ٥٧ - ٥٨] وقال عز وجل: «أَقْرَبْتَ السَّاعَةَ وَانْشَقَ الْقَمَرُ» [القمر: ١] وقال جل وعلا: «أَقْرَبْ لِلنَّاسِ حِسَابَهُمْ» [الأنبياء: ١] وقال:

(١) أخرجه مسلم في البر حديث ٥٥، وأحمد في المسند ٥/١٦٠.

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللّٰهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النٰحٰل: ١] وَقَالَ جَلَ جَلالُهُ: ﴿فَلِمَا رَأَوْهُ زَلْفَةً سَيِّئَتْ وِجْهَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقَيْلَ هَذَا الَّذِي كَتَمْتُ بِهِ تَدْعُونَ﴾ [الْمُلْك: ٢٧] الْآيَةُ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِذَا الْقُلُوبُ لَدِي الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ قَالَ قَاتِدَةُ وَقَفَتِ الْقُلُوبُ فِي الْحَنَاجِرِ مِنَ الْخُوفِ فَلَا تَخْرُجُ وَلَا تَعُودُ إِلَى أَمَاكِنِهَا، وَكَذَا قَالَ عَكْرَمَةُ وَالسَّدِيْرُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ، وَمَعْنَى كَاظِمِينَ أَيْ سَاكِتِينَ لَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴿يَوْمٌ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَنْفًا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النَّبَأ: ٣٨] وَقَالَ ابْنُ جَرِيْجَ ﴿كَاظِمِينَ﴾ أَيْ بَاكِينَ. وَقَوْلُهُ سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يَطْاعُ﴾ أَيْ لَيْسَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوكُمْ أَنفُسُهُمْ بِالشُّرُكِ بِاللّٰهِ مِنْ قَرِيبٍ مِنْهُمْ يَنْفَعُهُمْ وَلَا شَفِيعٍ يَشْفَعُ فِيهِمْ بِلْ قَدْ تَقْطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ.

وقوله تعالى: «يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور» يخبر عز وجل عن علمه التام
المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها، صغيرها وكبیرها، دقیقها ولطيفها ليحذر الناس علمه
فيهم فیستحیو من الله تعالى حق الحياة ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه فإنه
عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ويعلم ما تنطوي عليه خبایا الصدور من الصمائر
والسرائر. قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: «يعلم خائنة الأعين وما تخفي
الصدور» هو الرجل يدخل على أهل البيت بيته وفيهم المرأة الحسناء أو تمر به وبهم المرأة
الحسناء فإذا غفلوا لحظ إليها فإذا فطنوا غض بصره عنها فإذا غفلوا لحظ فإذا فطنوا غض ، وقد
اطلع الله تعالى من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها. رواه ابن أبي حاتم، وقال الضحاك
«خائنة الأعين» هو الغمز وقول الرجل رأيت ولم ير. أو لم أر وقد رأى. وقال ابن عباس
رضي الله تعالى عنهمما يعلم الله تعالى من العين في نظرها هل تريد الخيانة أم لا ؟ وكذا قال
مجاحد وقتادة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: «وما تخفي الصدور» يعلم
إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا ؟ وقال السدي «وما تخفي الصدور» أي من
الوسوسة .

وقوله عز وجل : ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أي يحكم بالعدل ، قال الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وهذا الذي فسر به ابن عباس رضي الله عنهمما في هذه الآية كقوله تبارك وتعالى : ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاعُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسْنَى﴾ [النجم : ٣١] وقوله جل وعلا : ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي من الأصنام والأوثان والأنداد ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ أي لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشيء ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي سميع لأقوال خلقه بصير بهم فيهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الحاكم العادل في جميع ذلك .

أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَقْبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً
وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخْذَهُمُ اللَّهُ يُذْهِبُهُمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَنَّ اللَّهَ مِنْ وَاقٍِ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا تَأْتِيهِمْ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخْذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝

يقول تعالى: «أَوْ لَمْ يَسِيرُوا» هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد «في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم» أي من الأمم المكذبة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما حل بهم من العذاب والنکال مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة «وأثاراً في الأرض» أي أثروا في الأرض من البناء والمعالم والديارات ما لا يقدر هؤلاء عليه كما قال عز وجل: «ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه» [الأحقاف: ٢٦] وقال تعالى: «وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها» [الروم: ٩] أي مع هذه القوة العظيمة والباس الشديد أخذهم الله بذنبهم وهي كفرهم برسلهم «وما كان لهم من واق» أي وما دفع عنهم عذاب الله أحد ولا رده عنهم راد، ولا وقاهم واق، ثم ذكر علة أخذهم وذنبهم التي ارتكبواها واجترموها فقال تعالى: «ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسالهم بالبيانات» أي بالدلائل الواضحات والبراهين القطاعات «فَخَفَرُوا» أي مع هذا البيان والبرهان كفروا وبحذدوا «فأخذهم الله» تعالى أي أهلكهم ودمروا عليهم وللكافرين أمثالها «إنه قوي شديد العقاب» أي ذو قوة عظيمة وبطش شديد «وهو شديد العقاب» أي عقابه أليم شديد وجع، أعادنا الله تبارك وتعالى منه.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِيَاتِنَا وَسُلْطَنِ مُبِينٍ ۝ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَنَ وَقَرْوَنَ فَقَالُوا سَاحِرٌ
كَذَّابٌ ۝ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا أَفْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا
نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكُفَّارُ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝ وَقَالَ فِرْعَوْنَ ذَرْنِي أَفْتُلُ مُوسَىٰ وَلَيَدْعُ رَبَّهُ
إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ۝ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي
وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ۝

يقول تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة كما جرى لموسى بن عمران عليه السلام فإن الله تعالى أرسله بالأيات البينات. والدلائل الواضحات. ولهذا قال تعالى: «بِيَاتِنَا وَسُلْطَنِ مُبِينٍ» والسلطان هو الحجة والبرهان «إلى فرعون» وهو ملك القبط بالديار المصرية «وهامان» وهو وزيره في مملكته «وقارون» وكان أكثر الناس في زمانه مالاً وتجارة «فقالوا ساحر كذاب» أي كذبوه وجعلوه ساحراً مجنوناً ممحزاً مموهاً كذاباً في أن الله أرسله وهذه كقوله تعالى: « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجnoon أتواصوا به بل هم قوم طاغون» [الذاريات: ٥٢ - ٥٣].

﴿فَلِمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي بالبرهان القاطع الدال على أن الله عز وجل أرسله إليهم ﴿قَالُوا اقْتلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكوربني إسرائيل. أما الأول فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم أو لمجموع الأمرين، وأما الأمر الثاني فللعلة الثانية لإهانة هذا الشعب ولكي يتشاءموا بموسى عليه السلام ولهذا قالوا: ﴿أَوْذِنْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جَهَنَّمْ قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوكُمْ وَيُسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيُنَظِّرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩] قال قاتلة هذا أمر بعد أمر.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي وما مكرهم وقصدهم الذي هو تقليل عددبني إسرائيل لئلا ينصرعوا عليهم إلا ذاهب وهالك في ضلال ﴿وَقَالَ فَرْعَوْنَ ذُرْوَنِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلِيَدْعُ رَبَّهُ﴾ وهذا عزم من فرعون لعن الله تعالى إلى قتل موسى عليه الصلاة والسلام أي قال لقومه دعوني حتى أقتل لكم هذا ﴿وَلِيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي لا أبالي به، وهذا في غاية الجحد والتجرم والعناد، قوله قبحه الله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَبْدِلْ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يَظْهُرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادُ﴾ يعني موسى، يخشى فرعون أن يضل موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم، وهذا كما يقال في المثل: صار فرعون مذكراً، يعني واعظاً يشفع على الناس من موسى عليه السلام. وقرأ الأكثرون ﴿أَنْ يَبْدِلْ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يَظْهُرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادُ﴾ وقرأ آخرون ﴿أَوْ أَنْ يَظْهُرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادُ﴾ وقرأ بعضهم ﴿يَظْهُرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادُ﴾ بالضم^(١) ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ وقرأ بعضهم ﴿يَظْهُرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادُ﴾ بالضم^(٢) ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يَؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي لما بلغه قول فرعون ﴿ذُرْوَنِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ قال موسى عليه السلام استجرت بالله وعدت به من شره وشر أمثاله ولهذا قال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أيها المخاطبون ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي عن الحق مجرم «لَا يَؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ» ولهذا جاء في الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: «اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم وندرأ بك في نحورهم»^(٣).

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ أَهْلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُنْ كَذَّابًا فَعَلَيْهِ كَذَّبُهُ وَإِنْ يَكُنْ صَادِقًا فَإِنَّبِيكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعْدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ يَقُولُ لَكُمُ الْمَلَكُ أَلِيُّومَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُ إِنَّمَا يَأْسُ اللَّهَ إِنْ جَاءَكُمْ فَرْعَوْنَ مَا أَرِيْكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيْكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون قال السدي: كان ابن عم فرعون

(١) انظر تفسير الطبرى ٥٣ / ١١.

(٢) أخرجه أبو داود في الوتر باب ٣٠، وأحمد في المستند ٤١٤ / ٤، ٤١٥.

ويقال إنه الذي نجا مع موسى عليه الصلاة والسلام، واختاره ابن جرير ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه وكف عن قتل موسى عليه السلام، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل بالعقوبة لأنه منهم وقال ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون والذي قال: ﴿يا موسى إن الملايئرون بك ليقتلوك﴾ رواه ابن أبي حاتم وقد كان هذا الرجل يكتن إيمانه عن قومه القبط فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون ﴿ذروني أقتل موسى﴾ فأخذت الرجل غصبة الله عز وجل . وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائز^(١) كما ثبت بذلك الحديث .

ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهي قوله: ﴿أُتَقْتَلُونَ رِجَالًا أَنْ يَقُولُوْ رَبِّهِ اللَّهُ﴾ اللهم إلا ما رواه البخاري في صحيحه حيث قال حدثنا علي بن عبد الله حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا الأوزاعي حدثني يحيى بن أبي كثیر حدثني محمد بن إبراهيم التيمي حدثني عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهم قال قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال بينما رسول الله ﷺ يصلی بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر رضي الله عنه فأخذ بمنكب ودفعه عن النبي ﷺ ثم قال: ﴿أُتَقْتَلُونَ رِجَالًا أَنْ يَقُولُوْ رَبِّهِ اللَّهُ﴾ وقد جاءكم بالبيانات من ربكم^(٢) انفرد به البخاري من حديث الأوزاعي .

قال وتابعه محمد بن إسحاق عن يحيى بن عروة عن أبيه به . وقال ابن أبي حاتم حدثنا هارون بن إسحاق الهمداني حدثنا عبدة عن هشام يعني ابن عروة عن أبيه عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سئل ما أشد ما رأيت قريشاً بلغوا من رسول الله ﷺ؟ قال من بِعَيْنِهِ بهم ذات يوم فقالوا له أنت تنهانا أن نعبد ما يعبد آباءنا؟ فقال: «أنا ذاك» فقاموا إليه فأخذوا بمجامع ثيابه فرأيت أبو بكر رضي الله عنه محضنه من ورائه وهو يصبح بأعلى صوته وإن عينيه لتسيلان وهو يقول: يا قوم ﴿أُتَقْتَلُونَ رِجَالًا أَنْ يَقُولُوْ رَبِّهِ اللَّهُ﴾ وقد جاءكم بالبيانات من ربكم حتى فرغ من الآية كلها وهكذا رواه النسائي من حديث عبدة فجعله من مستند عمرو بن العاص رضي الله عنه .

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي كيف تقتلون رجالاً لكونه يقول رب الله وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟ ثم تنزل معهم في المخاطبة فقال: ﴿وَإِنْ يَكُنْ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبَهُ وَإِنْ يَكُنْ صَادِقًا يَصْبِكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعْدُكُمْ﴾ يعني إذا لم يظهر لكم

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم باب ١٧ ، والترمذى في الفتن باب ١٣ ، والنمسائى في البيعة باب ٣٧ ، وابن ماجه في الفتن باب ٢٠ ، وأحمد في المسند ١٩/٣ ، ٦١ ، ٣١٤/٤ ، ٣١٥ ، ٢٥١/٥ ، ٢٥٦ .

(٢) أخرجه البخارى في مناقب الأنصار باب ٣٩ ، وتفسير سورة ٤٠ باب ١ ، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ١٤ .

صحة ما جاءكم به فمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه فلا تؤذوه فإن يك كاذباً فإن الله سبحانه وتعالى سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة وإن يكن صادقاً وقد آذيتمهو يصبكم بعض الذي يعدكم فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة فمن الجائز عندكم أن يكون صادقاً فينبغي على هذا أن لا ت تعرضوا له بل اتركوه وقومه يدعوهمن ويتابعونه. وهكذا أخبر الله عز وجل عن موسى عليه السلام أنه طلب من فرعون وقومه الموادعة في قوله: ﴿ولقد فتنا قبلكم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم أن أدوا إلى عباد الله إني لكم رسول أمين وأن لا تعلوا على الله إني آتكم بسلطان مبين وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون﴾ [الدخان: ٢١ - ١٧] وهكذا قال رسول الله ﷺ لقريش أن يتركوه يدعوا إلى الله تعالى عباد الله ولا يمسوه بسوء وأن يصلوا ما بينه وبينهم من القرابة في ترك أديته.

قال الله عز وجل: ﴿قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربي﴾ [الشورى: ٣٢] أي إلا أن لا تؤذوني فيما بيني وبينكم من القرابة فلا تؤذوني وتتركوا بيني وبين الناس، وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية وكان فتحاً مبيناً، قوله جل وعلا: ﴿إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾ أي لو كان هذا الذي يزعم أن الله تعالى أرسله إليكم كاذباً كما ترعنون لكان أمره بيناً يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله فكانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب وهذا نرى أمره سديداً ومنهجه مستقيماً، ولو كان من المسرفين الكاذبين لما هداه الله وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره و فعله، ثم قال المؤمن محذراً قومه زوال نعمة الله عنهم وحلول نقمته الله بهم: ﴿يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض﴾ أي قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور في الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض فراعوا هذه النعمة بشكر الله تعالى وتصديق رسوله ﷺ واحذرؤا نقمته الله إن كذبتم رسوله .

﴿فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا﴾ أي لا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر ولا ترد علينا شيئاً من بأس الله إن أرادنا بسوء قال فرعون لقومه راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذي كان أحق بالملك من فرعون ﴿ما أريكم إلا ما أرى﴾ أي ما أقول لكم وأشار عليكم إلا ما أراه لنفسي وقد كذب فرعون فإنه كان يتحقق صدق موسى عليه السلام فيما جاء به من الرسالة ﴿قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر﴾ [الإسراء: ١٠٢] وقال الله تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنها أنفسهم ظلماً وعلوا﴾ [النمل: ١٤] ف قوله: ﴿ما أريكم إلا ما أرى﴾ كذب فيه وافتوى وخان الله تبارك وتعالى ورسوله ﷺ ورعايته فعشهم وما نصحهم وكذا قوله: ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ أي وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد وقد كذب أيضاً في ذلك وإن كان قوله قد أطاعوه واتبعوه قال الله تبارك وتعالى: ﴿فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد﴾ [هود: ٩٧] وقال جلت عظمته: ﴿وأضل فرعون قومه وما هدى﴾ [طه: ٧٩] وفي الحديث «ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش

لرعايته إلا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسة وعشرين عام^(١) والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب.

وَقَالَ اللَّهُرَىءَامِنَ يَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْرَابِ ﴿٣﴾ مِثْلَ دَأْبٍ فَوَرَ تُوحِّدُ وَعَادٌ وَتُمُودُ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٤﴾ وَيَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ ﴿٥﴾ يَوْمَ تُوَلَّوْنَ هُدُرِيَّنَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَإِلَهُهُ مِنْ هَادِيٍّ ﴿٦﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ يَأْتِيَنِيَّتِيَّنَ، فَمَا زَلَّتُمْ فِي شَيْءٍ قَمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ فَلَتَرَنَ يَعْشَرَكُمْ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴿٧﴾ كَذَلِكَ يُضْلِلُ اللَّهُ مِنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٨﴾ الَّذِينَ يَجْهَدُونَ فِي أَيْمَانِ اللَّهِ بِعِيرٍ سُلْطَنِ أَتَهُمْ كَبِيرُ مَقْتَنًا ﴿٩﴾ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ مَا مَنَوا كَذَلِكَ يَطْبِعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ جَهَارٍ ﴿١٠﴾

هذا إخبار من الله عز وجل عن هذا الرجل الصالح مؤمن آل فرعون أنه حذر قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة فقال: «يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب» أي الذين كذبوا رسول الله في قديم الدهر كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم المكذبة كيف حل بهم بأس الله وما رده عنهم راد ولا صده عنهم صاد «وما الله يريد ظلماً للعباد» أي إنما أهلükhem الله تعالى بذنبهم وتكذبükhem رسle ومخالفتهم أمره فأنفذ فيهم قدره ثم قال: «ويا قوم إني أخاف عليكم يوم النداء» يعني يوم القيمة وسيذللك، قال بعضهم لما جاء في حديث الصور أن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر وما جلت وارتجمت فنظر الناس إلى ذلك ذهبوا هاربين ينادي بعضهم بعضاً وقال آخرون منهم الضحاك بل ذلك إذا جيء بجهنم ذهب الناس هرابةً منهم فتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام المحشر وهو قوله تعالى: «والملك على أرجائها» [الحاقة: ١٧] وقوله: «يا معاشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أفطار السموات والأرض فأنفذوا لا تنفذون إلا بسلطان» [الرحمن: ٣٣].

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه والحسن والضحاك أنهم قرأوا يوم النداء بشدید الدال من ند البعير إذا شرد^(٢) وذهب وقيل لأن الميزان عنده ملك وإذا وزن عبد فرجع نادى بأعلى صوته ألا قد سعد فلان بن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خف عمله نادى ألا قد شقي فلان بن فلان وقال قتادة: ينادي كل قوم بأعمالهم، ينادي أهل الجنة أهل الجنة وأهل النار أهل النار^(٣)، وقيل سمي بذلك لمناداة أهل الجنة أهل النار «أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم» [الأعراف: ٤٤] ومناداة أهل النار أهل

(١) أخرجه البخاري في الأحكام باب ٨، ومسلم في الإيمان حديث ٢٢٧، ٢٢٨، والإماراة حديث ٢١، والدارمي في الرقاق باب ٧٧، وأحمد في المسند ٥/٥٥٧.

(٢) انظر تفسير الطبرى ١١/٥٧.

(٣) تفسير الطبرى ١١/٥٦.

الجنة ﴿أَفَيُضِّوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مَا رَزَقْنَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠] ولم ينادأ أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار كما هو مذكور في سورة الأعراف، واختار البغوي وغيره أنه سمي بذلك لمجموع ذلك وهو قول حسن جيد، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ﴾ أي ذاهبين هاربين ﴿كَلَّا لَا وَزْرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ﴾ [القيمة: ١١ - ١٢] ولهذا قال عز وجل: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي لا مانع منعكم من بأس الله وعذابه ﴿وَمَنْ يُضْلِلَ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]، الزمر: ٢٣] أي من أضلله الله فلا هادي له غيره.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَنَذِّلَّ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ﴾ يعني أهل مصر قد بعث الله فيهم رسولاً من قبل موسى عليه الصلاة والسلام وهو يوسف عليه الصلاة والسلام كان عزيز أهل مصر وكان رسولاً يدعو إلى الله تعالى أمته القبط فما أطاعوه تلك الطاعة إلا لمجرد الوزارة والجاه الدنيوي ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا زَلْتُمْ فِي شُكْرٍ مَا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قَلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ رَسُولِهِ﴾ أي يشتم فقلتم طامعين: ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ رَسُولِهِ﴾ وذلك لكرفهم وتکذیبهم ﴿كَذَلِكَ يُضْلِلُ اللَّهُ مِنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ أي كحالكم هذا يكون حال من يضلله الله لإسرافه في أفعاله وارتياه قلبه.

ثم قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَحَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنْتَهُمْ﴾ أي الذين يدفعون الحق بالباطل ويجادلون بالحجج بغير دليل وحججة معهم من الله تعالى فإن الله عز وجل يمقت على ذلك أشد المقت ولهذا قال تعالى: ﴿كَبَرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي والمؤمنون أيضاً يغضبون من تكون هذه صفتة فإن من كانت هذه صفتة يطبع الله على قلبه فلا يعرف بعد ذلك معرفة ولا ينكر منكراً ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي على اتباع الحق ﴿جَبَارٌ﴾ وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة وحكي عن الشعبي أنهما قالا: لا يكون الإنسان جباراً حتى يقتل نفسين وقال أبو عمران الجوني وقتادة: آية الجبارة القتل بغير حق، والله تعالى أعلم.

وَقَالَ فَرْعَوْنُ يَهْمَنُ أَبْنَى لِصَرْحًا عَلَى أَبْلَغِ الْأَسْبَابِ ﴿أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطْلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظْهُرُ كَذَبَّكَ وَكَذَبَكَ رَبِّكَ لَفَرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ الْسَّيِّئِ وَمَا كَيْدُ فَرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وعتوه وتمرده وافتراه في تکذیب موسى عليه الصلاة والسلام أنه أمر وزيره هامان أن يبني له صرحاً وهو القصر العالي المنيف الشاهق وكان اتخاذه من الأجر المضروب من الطين المشوي كما قال تعالى: ﴿فَأَوْقَدَ لَيْ بِي هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْتَ لَيْ

صراحة» [القصص: ٣٨] ولهذا قال إبراهيم النخعي كانوا يكرهون البناء بالأجر وأن يجعلوه في قبورهم رواه ابن أبي حاتم، قوله «لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات» الخ قال سعيد بن جبير وأبو صالح أبواب السموات وقيل طرق السموات «فأطلع إلى الله موسى وإنني لأظنه كاذباً» وهذا من كفره وتمرد أنه كذب موسى عليه الصلاة والسلام في أن الله عز وجل أرسله إليه قال الله تعالى: «وَكَذَّلِكَ زَيْنُ لِفَرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّعَنَ السَّبِيلَ» أي بصنعيه هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئاً يتوصل به إلى تكذيب موسى عليه الصلاة والسلام ولهذا قال تعالى: «وَمَا كَيْدَ فَرْعَوْنَ إِلَّا فِي تِبَابِ» قال ابن عباس ومجاهد يعني إلا في خسار.

وَقَالَ اللَّهُ أَكْرَمُ أَمَنَتْ يَقُولُمْ أَتَيْعُونَ أَهْدِ كُمْ سِيْلَ الرَّشَادِ ۝ يَقُولُمْ إِنَّمَا هَذِهِ الْحِكْمَةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْفَرْقَادِ ۝ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْوَافَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُفَلَّتِكَ يَدُخُلُونَ الْجَنَّةَ يَرْزُقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابِ ۝

يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطغى وأثر الحياة الدنيا ونسى الجبار الأعلى فقال لهم: «يا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد» لا كما كذب فرعون في قوله: «وَمَا أَهْدِيْكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ» ثم زدهم في الدنيا التي قد أثرواها على الآخرة وصدقهم عن التصديق برسول الله موسى عليه الصلاة والسلام فقال: «يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع» أي قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب وتضمحل «وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرْرَادِ» أي الدار التي لا زوال لها ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها بل إما نعيم وإما جحيم ولهذا قال جلت عظمته: «مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا» أي واحدة مثلها «وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْوَافَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُفَلَّتِكَ يَدُخُلُونَ الْجَنَّةَ يَرْزُقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابِ» أي لا يتقدّر بجزاء بل يثبّته الله عز وجل ثواباً كثيراً لا انقضاء له ولا نفاد والله تعالى الموفق للصواب.

وَيَقُولُمْ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاهَ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۝ تَدْعُونَنِي لَا كُفُرَ بِاللهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْعَفْرِ ۝ لَا حِرْمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّكُمْ أَمْسِرِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۝ فَسَتَدْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْرِضُ أَمْرِيْتُ إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعَبَادِ ۝ فَوْقَهُمُ اللهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَمْكَرُوا وَحَاقَ بِيَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۝ إِنَّ النَّارَ يَعْرَصُونَ عَلَيْهَا عُدُواً وَعَشِيَاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْجُلُوا إِلَى فِرْعَوْنَ أَشَدُ الْعَذَابِ ۝

يقول لهم المؤمن ما بالي أدعوك إلى النجا و هي عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله الله الذي بعثه ﴿وَتَدْعُونَنِي إِنِّي النَّارُ تَدْعُونِي لَا كُفُرَ بِاللهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي جهل بلا دليل «وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْعَفْرِ» أي هو في عزته وكبرياته يغفر ذنب من تاب

إليه ﴿لا جرم أنما تدعونني إليه﴾ يقول حقاً؟ قال السدي وابن جرير معنى قوله ﴿لا جرم﴾ حقاً.

وقال الضحاك ﴿لا جرم﴾ لا كذب وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿لا جرم﴾ يقول: بل إن الذي تدعوني إليه من الأصنام والأنداد ﴿ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة﴾ قال مجاهد: الوثن ليس له شيء، وقال قتادة يعني الوثن لا ينفع ولا يضر، وقال السدي: لا يجيب داعيه لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن أضل من يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيمة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ [الأحقاف: ٥ - ٦] ﴿إن تدعوهם لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم﴾ [فاطر: ١٤] وقوله: ﴿وأن مردنا إلى الله﴾ أي في الدار الآخرة فيجازي كلاماً بعمله ولهذا قال: ﴿وأن المسرفين هم أصحاب النار﴾ أي خالدين فيها بإسرافهم وهو شركهم بالله عز وجل: ﴿فستذكرون ما أقول لكم﴾ أي سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه ونصحتكم ووضحت لكم وتذكرونها وتندمون حيث لا ينفع الندم ﴿ وأنفوس أمري إلى الله﴾ أي وأتوك على الله وأستعينه وأقاطعكم وأبعدكم ﴿إن الله بصير بالعباد﴾ أي هو بصير بهم تعالى وتقديس فيهم من يستحق الهدایة ويضل من يستحق الإضلال وله الحجة البالغة والحكمة التامة والقدر النافذ.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿فوقاه الله سيئات ما مكرروا﴾ أي في الدنيا والآخرة، وأما في الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام وأما في الآخرة فالجنة ﴿وحاق بالفرعون سوء العذاب﴾ وهو الغرق في اليم ثم النقلة منه إلى الجحيم، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحاً ومساء إلى قيام الساعة فإذا كان يوم القيمة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار ولهذا قال: ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ أي أشد المأنة وأعظمه نكالاً، وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور وهي قوله تعالى: ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً﴾.

ولكن هنا سؤال وهو أنه لا شك أن هذه الآية مكية وقد استدلوا بها على عذاب القبر في البرزخ وقد قال الإمام أحمد^(١) حدثنا هاشم هو ابن القاسم أبو النضر حدثنا إسحاق بن سعيد هو ابن عمرو بن سعيد بن العاص حدثنا سعيد يعني أبوه عن عائشة رضي الله عنها أن يهودية كانت تخدمها فلا تصنع عائشة رضي الله عنها إليها شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهودية وفأك الله عذاب القبر قالت رضي الله عنها: فدخل رسول الله ﷺ على فقلت: يا رسول الله هل للقبر عذاب قبل يوم القيمة؟ قال ﷺ: «لا، من زعم ذلك؟» قالت هذه اليهودية لا أصنع إليها

شيئاً من المعروف إلا قالت وفأك الله عذاب القبر قال ﷺ: «كذبت يهود وهم على الله أكذب لا عذاب دون يوم القيمة» ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملاً بشوبه محمرة عيناه وهو ينادي بأعلى صوته «القبر كقطع الليل المظلم، أيها الناس لو تعلمون ما أعلم بكم كثيراً وضحكتم قليلاً، أيها الناس استعيذوا بالله من عذاب القبر فإن عذاب القبر حق» وهذا إسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه.

وروى أحمد^(١) حدثنا يزيد حدثنا سفيان عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت سألتها امرأة يهودية فأعطتها فقالت لها وفأك الله من عذاب القبر فأنكرت عائشة رضي الله عنها ذلك فلما رأت النبي ﷺ قال له فقال ﷺ «لا» قالت عائشة رضي الله عنها ثم قال لنا رسول الله ﷺ بعد ذلك «وإنه أوحى إلى أنكم تفتتون في قبوركم» وهذا أيضاً على شرطهما. فيقال بما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية وفيها دلالة على عذاب البرزخ؟ والجواب أن الآية دلت على عرض الأرواح على النار غدواً وعشياً في البرزخ وليس فيها دلالة على اتصال تألمها ب أجسادها في القبور إذ قد يكون ذلك مختصاً بالروح فاما حصول ذلك للجسد في البرزخ وتتألمه بسببه فلم يدل عليه إلا السنة في الأحاديث المرضية الآتي ذكرها. وقد يقال إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار في البرزخ ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن في قبره بذنب.

ومما يدل على ذلك ما رواه الإمام أحمد^(٢) حدثنا عثمان بن عمر حدثنا يونس عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود وهي تقول أشرعت أنكم تفتتون في قبوركم، فارتاع رسول الله ﷺ وقال: «إنما يفتتن يهود» قالت عائشة رضي الله عنها فلبثنا ليلي ثم قال رسول الله ﷺ: «ألا إنكم تفتتون في القبور» وقالت عائشة رضي الله عنها فكان رسول الله ﷺ بعد يستعيد من عذاب القبر، وهكذا رواه مسلم^(٣) عن هارون بن سعيد وحرملة كلها عن ابن وهب عن يونس بن يزيد الأيلي عن الزهرى به.

وقد يقال إن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح في البرزخ ولا يلزم من ذلك أن يتصل بالأجساد في قبورها فلما أوحى إلى النبي ﷺ في ذلك بخصوصه استعاذه منه والله سبحانه وتعالى أعلم. وقد روى البخاري^(٤) من حديث شعبة عن أشعث بن أبي الشعثاء عن أبيه عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها أن يهودية دخلت عليها فقالت نعوذ بالله من عذاب القبر فسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن عذاب القبر فقال ﷺ: «نعم عذاب القبر حق» قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلاته إلا تعوذ من عذاب القبر.

(١) المستند ٦/٢٣٨.

(٢) المستند ٦/٢٤٨.

(٣) كتاب المساجد حديث ١٢٣، ١٢٥.

(٤) كتاب الجنائز باب ٨٦.

فهذا يدل على أنه بادر بِكَلَّتِهِ إلى تصديق اليهودية في هذا الخبر وقرر عليه، وفي الأخبار المتقدمة أنه أنكر ذلك حتى جاءه الوحي فلعلهما قضيتان والله سبحانه أعلم وأحاديث عذاب القبر كثيرة جداً وقال قتادة في قوله تعالى: «غدوًّا وعشياً» صباحاً ومساء ما بقيت الدنيا يقال لهم يا آل فرعون هذه منازلكم توبيخاً ونقامة وصغاراً لهم^(١)، وقال ابن زيد هم فيها اليوم يغدى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة.

وقال: ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد حدثنا المحاربي حدثنا ليث عن عبد الرحمن بن ثروان عن هذيل عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن أرواح الشهداء في أجوف طيور خضر تسرح بهم في الجنة حيث شاؤوا، وإن أرواح ولدان المؤمنين في أجوف عصافير تسرح في الجنة حيث شاءت فتأوي إلى قناديل معلقة في العرش، وإن أرواح آل فرعون في أجوف طيور سود تغدو على جهنم وتروح عليها فذلك عرضها، وقد رواه الثوري عن أبي قيس عن الهذيل بن شرجيل من كلامه في أرواح آل فرعون^(٢) وكذلك قال السدي.

وفي حديث الإسراء من رواية أبي هارون العبدى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال فيه «ثم انطلق بي إلى خلق كثير من خلق الله رجال كل رجال منهم بطنه مثل البيت الضخم مصفدون على سابلة آل فرعون وآل فرعون يعرضون على النار غدواً وعشياً» ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب^(٣) وآل فرعون كالأبل المسمومة يخبطون الحجارة والشجر ولا يعقلون» وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا زيد بن أخرم حدثنا عامر بن مدرك العماري حدثنا عتبة - يعني ابن يقطان - عن قيس بن مسلم عن طارق عن شهاب عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلا أثابه الله تعالى» قال قلنا يا رسول الله ما إثابة الله الكافر؟ فقال: «إن كان قد وصل رحماً أو تصدق بصدقة أو عمل حسنة أثابه الله تبارك وتعالى المال والولد والصحة وأشباه ذلك» قلنا فما إثابته في الآخرة؟ قال بِكَلَّتِهِ: «عذاباً دون العذاب» وقرأ «أدخلوا آل فرعون أشد العذاب» ورواه البزار في مسنده عن زيد بن أخرم ثم قال: لا نعلم له إسناداً غير هذا.

وقال ابن جرير^(٤) حدثنا عبد الكريم بن أبي عمير حدثنا حماد بن محمد الفزاري البليخي قال سمعت الأوزاعي وسأله رجل فقال: رحمك الله رأينا طيوراً تخرج من البحر تأخذ ناحية الغرب بيضاً فوجأ لا يعلم عددها إلا الله عز وجل فإذا كان العشي رجع مثلها سوداً قال وفطتم إلى ذلك؟ قال نعم، قال إن ذلك الطير في حوائلها أرواح آل فرعون يعرضون على

(١) تفسير الطبرى ٦٦/١١.

(٢) تفسير الطبرى ٦٦/١١.

(٣) تفسير الطبرى ٦٧/١١.

النار غدوا وعشياً فترجع إلى وكورها وقد احترقت أرياشها وصارت سوداً فينبت عليها من الليل ريش أبيض ويتناثر الأسود ثم تغدو على النار غدواً وعشياً ثم ترجع إلى وكورها، فذلك دأبهم في الدنيا فإذا كان يوم القيمة قال الله تعالى: ﴿أَدْخِلُوا أَكَلْ فَرْعَوْنَ أَشَدَ العَذَاب﴾ قال وكانوا يقولون إنهم ستمائة ألف مقاتل.

وقال الإمام أحمد^(١) حدثنا إسحاق حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحذكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعده حتى يبعثك الله عز وجل إليه يوم القيمة» آخر جاه في الصحيحين^(٢) من حديث مالك به.

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الْمُضْعَفُونُ لِلَّذِينَ أَسْتَكَبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَعْدًا فَهَلْ أَنْشَمْ
مُعْنَوْنَ عَنَّا نَصِيبًا مِنْ النَّارِ ﴿٤﴾ قَالَ الَّذِينَ أَسْتَكَبَرُوا إِنَّا كُلُّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ
بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ أَدْعُوكُمْ يُخَفَّفُ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٦﴾
قَالُوا أَوْلَمْ تَأْتِنَا مُرْسَلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَآدْعُوكُمْ وَمَا دَعْتُكُمْ إِلَّا
فِي ضَلَالٍ ﴿٧﴾

يُخبر تعالى عن ت حاج أهل النار في النار و ت خاصمهم و فرعون و قومه من جملتهم فيقول
الضعفاء وهم الأتباع للذين استكروا وهم القادة والساسة والكبار «إنا كنا لكم بعـاً» أي
أطعنكم فيما دعوتمنا إليه في الدنيا من الكفر والضلـال «فهل أنتـم مغـنون عـنا نصـياً من النار»
أي قسـطاً تحـملونـه عـنا «قالـ الذين استـكروا إـنا كلـ فيها» أي لا تـتحملـ عنـكم شيئاً كـفى بـنا
ما عندـنا و ما حـملـنا من العـذاب و التـنكـال «إنـ الله قد حـكمـ بينـ العـبـادـ» أي يـقسـمـ بـيتـنا العـذابـ
بـقدرـ ما يـسـتحقـهـ كلـ منـا كما قالـ تعالى : «قالـ لـكلـ ضـعـفـ ولكنـ لا تـعـملـونـ وـقالـ الذينـ فيـ النارـ
لـخـزـنةـ جـهـنـمـ اـدعـواـ رـبـكـمـ يـخـفـفـ عـنـ يـوـمـاًـ مـنـ العـذـابـ» [الأعرافـ: ٣٩ـ ٣٨ـ] لـمـا عـلـمـواـ أـنـ اللهـ عـزـ
وـجلـ لاـ يـسـجـيبـ مـنـهـ وـلاـ يـسـتـمعـ لـدـعـائـهـ بـلـ قـدـ قالـ : «اخـسـئـواـ فـيهـاـ وـلاـ تـكـلـمـونـ»
[المؤمنـونـ: ١٠٨ـ] سـأـلـواـ الخـزـنةـ وـهـمـ كـالـسـجـانـيـنـ لـأـهـلـ النـارـ أـنـ يـدـعـواـ لـهـمـ اللهـ تـعـالـىـ أـنـ يـخـفـفـ
عـنـ الـكـافـرـيـنـ وـلـوـ يـوـمـاًـ وـاحـداًـ مـنـ العـذـابـ فـقـالتـ لـهـمـ الـخـزـنةـ رـادـيـنـ عـلـيـهـمـ «أـوـ لـمـ تـكـ تـأـتـيـكـمـ
رـسـلـكـمـ بـالـبـيـنـاتـ» أيـ أـوـ مـاـ قـامـتـ عـلـيـكـمـ الـحـجـجـ فـيـ الدـنـيـاـ عـلـىـ أـلـسـنـةـ الرـسـلـ «قـالـواـ بـلـيـ قـالـواـ
فـادـعـواـ» أيـ أـتـمـ لـأـنـفـسـكـمـ فـنـحنـ لـاـ نـدـعـوـ لـكـمـ وـلـاـ نـسـمـعـ مـنـكـمـ وـلـاـ نـوـدـ خـلـاـصـكـمـ وـنـحـنـ مـنـكـمـ
بـرـاءـ ثـمـ نـخـبـرـكـمـ أـنـهـ سـوـاءـ دـعـوـتـمـ أـوـ لـمـ تـدـعـوـ لـاـ يـسـتـعـجـابـ لـكـمـ وـلـاـ يـخـفـفـ عـنـكـمـ وـلـهـذاـ قـالـواـ:

المسند / ٢١٣ (١)

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز باب ٩، ومسلم في الجنة حديث ٦٥، ٦٦.

﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أَيْ إِلَّا فِي ذَهَابٍ وَلَا يُتَقْبَلُ وَلَا يُسْتَجَابُ.

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَمْرُدُ الْأَشْهَدُونَ ٢٧ يَوْمَ لَا يَنْقَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِّرَتِهِمْ وَلَهُمْ الْعَنَّةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ٢٨ وَلَقَدْ أَئْتَنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثَنَا بَنَى إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ٢٩ هُدَى وَرَكْرَى لِأُولَئِكَ الْأَلْبَتِ ٣٠ فَاصْبِرْ إِذْ ٣١ وَعْدُ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَلِكَ وَسَيَّحْ يَحْمِدْ رَبِّكَ بِالْعَسْيِ وَالْإِبْكَرِ ٣٢ إِنَّ الَّذِينَ يُحَكِّدُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ يُغَيِّرُ سُلْطَانِنَ أَتَهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كَبُرٌ مَا هُمْ بِسَلْغَةٍ فَاسْتَعِدْ بِاللَّهِ إِنَّكُمْ هُوَ الْكَمِيمُ الْبَصِيرُ ٣٣

قد أورد أبو جعفر بن جرير^(١) رحمه الله تعالى عند قوله تعالى: «إنا لننصر رسلينا والذين آمنوا في الحياة الدنيا» سؤالاً فقال قد علم أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتلهم قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعيا ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجرًا كإبراهيم، وإما إلى السماء كعيسي فأين النصرة في الدنيا ثم أجاب عن ذلك بجوابين [الأحدهما] أن يكون الخبر خرج عاماً والمراد به البعض قال وهذا سائغ في اللغة [الثاني] أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم من آذاهم وسواء كان ذلك بحضورتهم أو في غيبتهم أو بعد موتها كما فعل بقتلة يحيى وزكريا وشعيا سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم وقد ذكر أن النمرود أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح عليه السلام من اليهود فسلط الله تعالى عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم وأظهرهم الله تعالى عليهم ثم قبل يوم القيمة سينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إماماً عادلاً وحكمًا مقسطاً فيقتل المسيح الدجال وجنده من اليهود ويقتل الخنزير ويكسر الصليب، ويوضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام وهذه نصرة عظيمة وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقر أعينهم من آذاهم.

ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تبارك وتعالى من عادي لي ولیاً فقد بارزني بالحرب»^(٢) وفي الحديث الآخر: «إنني لأثار لأوليائي كما يثار الليث بالحرب» ولهذا أهلك الله عز وجل قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط وأهل مدين وأشباههم وأضرابهم من كذب الرسل وخالق الحق. وأنجى الله تعالى من بينهم المؤمنين فلم يهلك منهم أحداً وعذب الكافرين فلم يفلت منهم أحداً.

(١) تفسير الطبرى ٦٩/١١.

(٢) آخرجه البخاري في الرفاق باب ٣٨، بلفظ: «من عادي لي ولیاً فقد أذنته بالحرب». وأخرجه ابن ماجه في الفتن باب ١٦ ، بلفظ: «من عادي الله ولیاً فقد بارز الله بالمحاربة».

قال السدي لم يبعث الله عز وجل رسولاً قط إلى قوم فيقتلونه أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا قال فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها. وهكذا نصر الله نبيه محمداً ﷺ وأصحابه على من خالفه ونواهه وكذبه وعاده فجعل كلامته هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان، وأمره بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم وخذلهم له وقتل صناديدهم، وأسر سرتهم فاستاقهم مقرنین في الأصفاد، ثم من عليهم بأخذه الفداء منهم ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة فقرت عينه بيده وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم فأنقذه الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك وفتح له اليمن ودانت له جزيرة العرب بكاملها ودخل الناس في دين الله أفراجاً، ثم قبضه الله تعالى إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده فبلغوا عنه دين الله عز وجل ودعوا عباد الله تعالى إلى الله جل وعلا، وفتحوا البلاد والرساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض وغاربها. ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رَسُولَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ أي يوم القيمة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل، قال مجاهد: الأشهاد الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتَهُمْ﴾ بدل من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ وقرأ آخرون يوم بالرفع كأنه فسره به ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ الْأَشْهَادُ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ﴾ وهم المشركون ﴿مَعْذِرَتَهُمْ﴾ أي لا يقبل منهم عذر ولا فدية ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي الإبعاد والطرد من الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وهي النار قاله السدي بئس المترى والمقيل، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي سوء العاقبة وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهَدَى﴾ وهو ما بعثه الله عز وجل به من الهدى والتور ﴿وَأَوْرَثْنَا بْنَى إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ أي جعلنا لهم العاقبة وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله وحوافله وأرضه بما صبروا على طاعة الله تبارك وتعالى واتباع رسوله موسى عليه الصلاة والسلام وفي الكتاب الذي أورثوه وهو التوراة ﴿هَدِى وَذَكْرِى لِأُولَئِكَ الْأَلْبَاب﴾ وهي العقول الصحيحة السليمة.

وقوله عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ﴾ أي يا محمد ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌ﴾ أي وعدناك أنا سنعلي كلمتك ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك والله لا يخلف الميعاد وهذا الذي أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ هذا تهبيج للأمة على الاستغفار ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ﴾ أي في أواخر النهار وأوائل الليل ﴿وَالْإِبْكَارَ﴾ وهي أوائل النهار وأواخر الليل.

وقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي أَيَّاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ» أي يدفعون الحق بالباطل ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله «إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كَبَرٌ مَا هُمْ بِالْغَيْبِ» أي ما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق واحتقار لمن جاءهم به وليس ما يرومونه من إخمام الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم بل الحق هو المرفوع وقولهم وقصدهم هو الموضوع «فَاسْتَعْذُ بِاللَّهِ» أي من حال مثل هؤلاء «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» أو من شر مثل هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان هذا تفسير ابن جرير^(١).

وقال كعب وأبو العالية نزلت هذه الآية في اليهود «إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي أَيَّاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِلَّا كَبَرٌ مَا هُمْ بِالْغَيْبِ» قال أبو العالية وذلك أنهم ادعوا أن الدجال منهم وأنهم يملكون به الأرض فقال الله تعالى لنبيه ﷺ أمراً له أن يستعيد من فتنة الدجال ولهذا قال عز وجل: «فَاسْتَعْذُ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» وهذا قول غريب وفيه تعسف بعيد وإن كان قد رواه ابن أبي حاتم في كتابه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ^{٢٣٣} وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا أَسْوَءُ مَمَّا قِيلَّا مَا تَذَكَّرُونَ^{٢٣٤} إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَّةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ^{٢٣٥}

يقول تعالى منهاً على أنه يعيد الخلائق يوم القيمة وأن ذلك سهل عليه يسير لديه بأنه خلق السموات والأرض وخلقهما أكبر من خلق الناس بدأه وإعادة فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأخرى كما قال تعالى: «أَوْ لَمْ يَرُوا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَمْ يَعْلَمِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَحْيِي الْمَوْتَى إِلَيْهِ مَوْلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [الأحقاف: ٢٣] وقال ه هنا: «لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» فالهذا لا يتذمرون هذه الحجة ولا يتأملونها كما كان كثير من العرب يعتزرون بأن الله تعالى خلق السموات والأرض وينكرن المعاد استبعاداً وكفراً وعناداً وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا ثم قال تعالى: «وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا أَسْوَءُ مَمَّا قِيلَّا» أي كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار والكافرة الفجار «قِيلَّا مَا تَذَكَّرُونَ» أي ما أقل ما يتذكر كثير من الناس ثم قال تعالى: «إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَّةٌ» أي لكتئنة وواقعة «لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ» أي لا يصدقون بها بل يكذبون بوجودها. قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم حدثنا أشهب حدثنا مالك عن شيخ قديم من أهل اليمن

قدم من ثم قال: سمعت أن الساعة إذا دنت اشتد البلاء على الناس واشتد حر الشمس ، والله أعلم .

وَقَالَ رَبُّكُمْ أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُنْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ

هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه وتكتفوا لهم بالإجابة كما كان سفيان الثوري يقول : يا من أحب عباده إليه من سأله فأكثر سؤاله ، ويما من أبغض عباده إليه من لم يسأله وليس أحد كذلك غيرك يا رب . رواه ابن أبي حاتم وفي هذا المعنى يقول الشاعر : [الطويل]

الله يغضبُ إِنْ ترْكَتْ سُؤَالَهُ وَيُنَزِّئُ آدَمَ حِينَ يُشَأْلُ يَغْضَبُ

وقال قتادة : قال كعب الأحبار أعطيت هذه الأمة ثلاثة لم تعطهن أمة قبلها ولا نبي : كان إذا أرسل الله نبياً قال له أنت شاهد على أمتك وجعلتكم شهداء على الناس ، وكان يقال له ليس عليك في الدين من حرج وقال لهذه الأمة : «وما جعل عليكم في الدين من حرج» [الحج : ٧٨] وكان يقال له ادعوني أستجب لك وقال لهذه الأمة «ادعوني أستجب لكم» رواه ابن أبي حاتم . وقال الإمام الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي في مسنده : حدثنا أبو إبراهيم الترجماني حدثنا صالح المرئي قال : سمعت الحسن يحدث عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل قال : «أربع خصال واحدة منها لي وواحدة لك وواحدة بيني وبينك وواحدة فيما بينك وبين عبادي ، فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً وأما التي لك علي فما عملت من خير جزيتك به وأما التي بيني وبينك فمنك الدعاء وعلى الإجابة وأما التي بينك وبين عبادي فارض لهم ما ترضي لنفسك» .

وقال الإمام أحمد^(١) : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن ذر عن يسوع الكلندي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الدعاء هو العبادة»^(٢) ثم قرأ «ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادي سيدخلون جهنم داخرين» وهكذا رواه أصحاب السنن الترمذى والنسائى وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن جرير كلهم من حديث الأعمش به . وقال الترمذى : حسن صحيح رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن جرير أيضاً من حديث شعبة عن منصور عن ذر به وأخرجه الترمذى أيضاً من حديث الثورى عن منصور والأعمش كلاهما عن ذر به ، وكذا رواه ابن يونس عن أسيد بن عاصم بن مهران حدثنا

(١) المستند ٤/٢٧١.

(٢) آخرجه أبو داود في الوتر باب ٢٣ ، والترمذى في تفسير سورة ٢ باب ١٦ ، وتفسير سورة ٤٠ باب ١ ، والدعوات باب ١ ، وابن ماجه في الدعاء باب ١ .

النعمان بن عبد السلام حدثنا سفيان الثوري عن منصور عن ذر به، ورواه ابن حبان والحاكم في صحيحهما وقال الحاكم صحيح الإسناد.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا وكيع أبو مليح المدني شيخ من أهل المدينة سمعه عن أبي صالح وقال مرة سمعت أبا صالح يحدث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يدع الله عز وجل غضب عليه» تفرد به أحمد وهذا إسناد لا بأس به، وقال الإمام أحمد^(٢) أيضاً: حدثنا مروان الفزارى حدثنا صبيح أبو مليح سمعت أبا صالح يحدث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يسأله يغضب عليه» قال ابن معين أبو مليح هذا اسمه صبيح كذا قيده بالضم عبد الغنى بن سعيد وأما أبو صالح هذا فهو الخوزي سكن شعب الخوز، قاله البزار في مسنده، وكذا وقع في روایته أبو مليح الفارسي عن أبي صالح الخوزي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه» وقال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الراهمي: حدثنا همام حدثنا إبراهيم عن الحسن حدثنا نائل بن نجيح حدثني عائذ بن حبيب عن محمد بن سعيد قال: لما مات محمد بن مسلمة الأنصاري وجدنا في ذئابة سيفه كتاباً باسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن ربكم في بقية أيام دهركم نفحات فتعرضوا له لعل دعوة أن توافق رحمة فيسعد بها صاحبها سعادة لا يخسر بعدها أبداً».

وقوله عز وجل: «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي» أي عن دعائي وتوحidi سيدخلون جهنم داخرين أي صاغرين حقيرين كما قال الإمام أحمد^(٣): حدثنا يحيى بن سعيد عن ابن عجلان حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «يُحشِّرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ»^(٤) في صور الناس يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجناً في جهنم يقال له بولس تعلوهم نار الأنوار يسوقون من طينة الخبال عصارة أهل النار».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين حدثنا أبو بكر بن محمد بن يزيد بن خنيس قال: سمعت أبي يحدث عن وهيب بن الورد حدثني رجل قال: كنت أسيء ذات يوم في أرض الروم فسمعت هاتفًا من فوق رأس جبل وهو يقول: يا رب عجبت لمن عرفك كيف يرجو أحداً غيرك يا رب عجبت لمن عرفك كيف يطلب حوائجه إلى أحد غيرك. قال ثم ذهبت ثم جاءت الطامة الكبرى قال ثم عاد الثانية فقال يا رب عجبت لمن عرفك كيف يتعرض لشيء من سخطك يرضي غيرك قال وهيب وهذه الطامة الكبرى، قال فناديته أجي أنت أم إنسى؟ قال بل

(١) المسند ٤٧٧ / ٢.

(٢) المسند ٤٤٢ / ٢.

(٣) المسند ١٧٩ / ٢.

(٤) الذر: النمل الصغير.

إنسى اشغل نفسك بما يعنينك عما لا يعنينك.

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ أَلْيَلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ
وَلَا يَكُنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝ ذَلِكُمْ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
فَإِنَّ تَوْفِكُونَ ۝ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَائِبُونَ ۝ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ
الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوْرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ رَبُّكُمْ
رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ
الَّدِيْنَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝

بقول تعالى ممتناً على خلقه بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه يستريحون من حركات ترددتهم في المعيش بالنهار وجعل النهار مبصراً أي مضيناً ليتصرفو فيه بالأسفار وقطع الأقطار والتمكن من الصناعات «إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون» أي لا يقومون بشكر نعم الله عليهم، ثم قال عز وجل: «ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو» أي الذي فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد خالق الأشياء الذي لا إله غيره ولا رب سواه «فأئن تؤفكون» أي كيف تعبدون غيره من الأصنام التي لا تخلق شيئاً بل هي مخلوقة منحوته.

وقوله عز وجل: «كذلك يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ» أي كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله كذلك أفك الذين من قبلهم عبدوا غيره بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الجهل والهوى. وجحدوا حجج الله وأياته وقوله تعالى: «اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا» أي جعلها لكم مستقرأً بساطاً مهاداً تعيشون عليها وتتصررون فيها وتمشون في مناكبها وأرساها بالجبال لثلا تميد بكم «وَالسَّمَاءَ بَنَاءً» أي سقفاً للعالم محفوظاً «وَصُورَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ» أي فخلقكم في أحسن الأشكال ومنحكم أكمل الصور في أحسن تقويم «وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ» أي من المأكل والمشارب في الدنيا فذكر أنه خالق الدار والسكان والأرزاق فهو الخالق الرازق كما قال تعالى في سورة البقرة: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعِلَّكُمْ تَتَقَوَّنُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثُّمَراتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لَهُ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» [البقرة: ٢٠ - ٢١].

وقال تعالى ه هنا بعد خلق هذه الأشياء: «ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين» أي فتعالى وتقديس وتنزه رب العالمين كلهم ثم قال تعالى: «هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» أي هو الحي أولاً وأبداً لم يزل ولا يزال وهو الأول والآخر والظاهر والباطن «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» أي لا نظير له ولا عديل «فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لِهِ الدِّينِ» أي موحدين له مقررين بأنه لا إله إلا هو الحمد لله رب العالمين. قال ابن حجر: كان جماعة من أهل العلم يأمرن من قال لا إله إلا الله أن يتبعها

بالحمد لله رب العالمين عملاً بهذه الآية. ثم روى عن محمد بن علي بن الحسن بن شقيق عن أبيه عن الحسين بن واقد عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال: من قال لا إله إلا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين وذلك قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لِهِ الدِّينِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقال أبوأسامة وغيره عن إسماعيل بن أبي خالد عن سعيد بن جبير قال إذا قرأت ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لِهِ الدِّينِ﴾ فقل لا إله إلا الله وقل على أثرها الحمد لله رب العالمين ثم قرأ هذه الآية ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لِهِ الدِّينِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. قال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير حدثنا هشيم يعني ابن عروة بن الزبير عن أبي الزبير محمد بن مسلم بن بدر المكي قال كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قادر لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إيه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون قال وكان رسول الله ﷺ يهل بهن دبر كل صلاة ورواه مسلم وأبو داود والنسائي من طرق عن هشام بن عروة وحجاج بن أبي عثمان وموسى بن عقبة ثلاثتهم عن أبي الزبير عن عبد الله بن الزبير قال: كان رسول الله ﷺ يقول في دبر كل صلاة «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» وذكر تمامه.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيَتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدَعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُرْتَ أَنَّ أَسْلَمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلْقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّ كُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شَيْوَخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتُوفَّى بَيْنَ قَبْلَ وَلَتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

يقول تبارك وتعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين إن الله عز وجل ينهى أن يعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان وقد بين تبارك وتعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه في قوله جلت عظمته: «هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً» أي هو الذي يقلبكم في هذه الأطوار كلها وحده لا شريك له وعن أمره وتدبره وتقديره يكون ذلك «ومنكم من يتوفى من قبل» أي من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم بل تسقطه أمه سقطاً ومنهم من يتوفى صغيراً وشاباً وكهلاً قبل الشيخوخة كقوله تعالى: «لَنَبِينَ لَكُمْ وَنَقْرَ في الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجْلٍ مُسَمٍّ» [الحج: ٥] وقال عز وجل هنا: «وَلَتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» قال ابن جريج تذكرون البعث ثم قال تعالى: «هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ» أي هو المفترد بذلك لا يقدر على ذلك أحد سواه «إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» أي لا يخالف ولا يمانع بل ما شاء كان لا محالة.

أَلْمَتْرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي أَيَّتِ اللَّهُ أَنْ يُصْرَفُونَ ۝ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا
إِلَيْهِ رُسُلَنَا فَسُوفَ يَعْلَمُونَ ۝ إِذَا الْأَذْلَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَسِلَ يُسْحَبُونَ ۝ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي
النَّارِ يُسْجَرُونَ ۝ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَشْرِكُونَ ۝ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلَّوْا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ
نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضْلِلُ اللَّهُ الْكُفَّارِ ۝ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَنْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ
وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ۝ ادْخُلُوا الْبَوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا فِيْسَ مَثَوْيَ الْمُتَكَبِّرِينَ ۝

يقول تعالى ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله ويجادلون في الحق بالباطل كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال ﴿الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسالتنا﴾ أي من الهدى والبيان ﴿فسوف يعلمون﴾ هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، من الرب جل جلاله لهؤلاء إنما قال تعالى: ﴿وَيُولِي يَوْمَ الْمَكَذِبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥] قوله عز وجل: ﴿إِذَا
الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَسِلَ﴾ أي متصلة بالأغلال بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم ولهذا قال تعالى: ﴿يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ
يُسْجَرُونَ﴾ كما قال تبارك وتعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يَكْذِبُ بَهَا الْمُجْرُومُونَ يَطْوِفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ
حَمِيمِ آنَ﴾ [الرحمن: ٤٣ - ٤٤] وقال تعالى بعد ذكر أكلهم الزقوم وشربهم الحميم ﴿ثُمَّ إِنَّ
مَرْجِعَهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: ٦٨] وقال: ﴿وَأَصْحَابُ الشَّمَاءِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَاءِ فِي
سُمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظُلَّ مِنْ يَحْمُومُ لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾ - إلى أن قال - ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الظَّالِمُونَ
الْمَكَذِبُونَ لَا كَلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُومٍ فَمَالَوْنَ مِنْهَا الْبَطْوَنَ فَشَارَبُونَ عَلَيْهِ مِنْ
شَرْبِ الْهَمِيمِ هَذَا نَزَلَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٤ - ٥٦ - ٥٦] وقال عز وجل: ﴿إِنْ شَجَرَةَ
الْرَّقْوَنَ طَعَامُ الْأَثِيمِ كَالْمَهْلِ يَغْلِي فِي الْبَطْوَنِ كَغْلِيِ الْحَمِيمِ خَذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ
الْجَحِيمِ ثُمَّ صَبُوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذَقْ إِنْكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ إِنْ هَذَا مَا كُنْتَ
بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٥٠] أي يقال لهم ذلك على وجه التقرير والتوبیخ والتحقیر والتصغیر والتهكم
والاستهزاء بهم .

قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين حدثنا أحمد بن منيع حدثنا منصور بن عمارة حدثنا بشير بن طلحة الخزامي عن خالد بن دريك عن يعلى بن منه رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ قال: «يُنْشِئُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سَحَابَةً لِأَهْلِ النَّارِ سُودَاءً مَظْلَمَةً وَيُقَالُ يَا أَهْلَ النَّارِ أَيِّ
شَيْءٍ تَطْلَبُونَ؟ فَيُذَكِّرُونَ بَهَا سَحَابَ الدُّنْدِنِ يُقَوْلُونَ نَسَأَلْ بَارِدَ الشَّرَابَ فَمَطَرُهُمْ أَغْلَالًا تَزِيدُ فِي
أَغْلَالِهِمْ وَسَلَاسِلَ تَرِيدُ فِي سَلَاسِلِهِمْ وَجَمِراً يَلْهَبُ النَّارَ عَلَيْهِمْ» هذا حديث غريب .

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي قيل لهم أين الأصنام التي
كُنْتُمْ تعبدونها من دون الله هل ينصرونكم اليوم ﴿قَالُوا ضَلَّوْا عَنَّا﴾ أي ذهبوا فلم ينفعونا ﴿بَلْ لَمْ
نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلِ شَيْئًا﴾ أي جحدوا عبادتهم كقوله جلت عظمته: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَتْهُمْ

إِلَّا قَالُوا وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَا مُشْرِكِينَ^(١) [الأنعام: ٢٣] ولهذا قال عز وجل: «كذلك يضل الله الكافرين». قوله: «ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون» أي يقول لهم الملائكة هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير حق ومرحكم وأشركم وبطركم «ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فيئس مثوى المتكبرين» أي فيئس المنزل والمقيل الذي فيه الهوان والعدايم الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتبع دلائله وحججه، والله أعلم.

فَاصْرِفْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِنَّا نُرِيَنَا بَعْضَ الَّذِي تَعْدُهُمْ أَوْ نَتَوَلَّنَا فَإِنَّا يُرِجَّعُونَ^(٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رَسُلًا مِّنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْفِكَ بِشَيْءًا إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ فَإِذَا جَاءَهُ أَمْرُ اللَّهِ فُضِّلَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ مَنْ أَنْتَلَكَ الْمُبْطَلُونَ^(٣)

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه فإن الله تعالى سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك وجعل العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة «فَإِنَّا نُرِيَنَا بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ» أي في الدنيا وكذلك وقع فإن الله تعالى أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم أبيدوا في يوم بدر ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في حياته ﷺ وقوله عز وجل: «أَوْ نَتَوَلَّنَا فَإِلَيْنَا يُرِجَّعُونَ» أي فنديقهم العذاب الشديد في الآخرة.

ثم قال تعالى مسلياً له: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رَسُلًا مِّنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ» [النساء: ١٦٤] كما قال جل وعلا في سورة النساء سواء أي منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوا بهم ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة «وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ» وهم أكثر من ذكر بأضعاف أضعاف كما تقدم التنبيه على ذلك في سورة النساء والله الحمد والمنة. قوله تعالى: «وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْذِنَ اللَّهُ لَهُ فِي ذَلِكَ فَيَدْلِيلٌ عَلَى صَدَقَةٍ» أي ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات إلا أن يأذن الله له في ذلك فيدل على صدقه فيما جاءهم به «فَإِذَا جَاءَهُ أَمْرُ اللَّهِ» وهو عذابه ونkalah المحيط بالمكذبين «فُضِّلَ بِالْحَقِّ» فينجي المؤمنين، وبهلك الكافرين ولهذا قال عز وجل: «وَخَسِرَ مَنْ أَنْتَلَكَ الْمُبْطَلُونَ» .

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ^(٤) وَلَكُمْ فِيهَا مَنْفَعٌ وَلَتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ^(٥) وَيُرِيدُكُمْ إِذَا أَيْتُمْهُ فَأَيَّ مَا أَيْتُ اللَّهَ شُكْرُونَ^(٦)

يقول تعالى ممتناً على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم «فمنها ركوبهم ومنها يأكلون» [يس: ٧٢]، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب ويحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة والبقر تؤكل ويشرب لبنها وتحرج عليها

الأرض، والغنم تؤكل ويشرب لبnya والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأبارها فيتخدم منها الآثار والثياب والأمتعة كما فعل وبين في أماكن تقدم ذكرها في سورة الأنعام وسورة النحل وغير ذلك ولذا قال عز وجل هنـا ﴿لَتُرْكِبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنْفَعٌ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَكِ تَحْمِلُونَ﴾ وقوله جل وعلا: ﴿وَبِرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي حججه وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم ﴿فَإِنِّي آيَاتُ اللَّهِ تَنْكِرُونَ﴾ أي لا تقدرون على إنكار شيء من آياته إلا أن تعاندوا وتکابرـوا.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنْقِيَّةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ فُوَّةً
وَأَشَارَ إِلَيْهِمْ فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْفَنَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿فَلَمَّا جَاءَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا
عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِرُونَ ﴿فَلَمَّا رَأَوُا بِأَسْنَانِ قَالُوا إِنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ
وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿فَلَمَّا يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوُا بِأَسْنَانِ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَقَتْ فِي
عِبَادَةٍ وَحَسِّسَهُنَّا لِكُلِّ كُفَّارٍ﴾

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر وماذا حل بهم من العذاب الشديد مع شدة قواهم وما أثروه في الأرض وجمعيـه من الأموال فـما أغنـى عنـهم ذلك شيئاً ولا رد عنـهم ذرة من بأس الله وذلك لأنـهم لما جاءـتهم الرسل بالـبيانـات، والـحجـجـ القاطـعـاتـ، والـبرـاهـينـ الدـامـغـاتـ، لم يـلـتفـتوـ إـلـيـهـمـ وـلـأـقـلـواـ عـلـيـهـمـ وـاسـتـغـفـواـ بـمـاـ عـنـهـمـ مـنـ الـعـلـمـ فـيـ زـعـمـهـمـ عـمـاـ جاءـهـمـ بـهـ بـالـرـسـلـ قالـ مجـاهـدـ: قالـواـ نـحنـ أـعـلـمـ مـنـهـمـ لـنـ بـعـثـ وـلـنـ نـعـذـبـ^(١).

وقال السـديـ: فـرـحـواـ بـمـاـ عـنـهـمـ مـنـ الـعـلـمـ بـجـهـالـتـهـمـ فـأـتـاهـمـ مـنـ بـأـسـ اللهـ تـعـالـىـ ما لاـ قـبـلـ لـهـمـ بـهـ ﴿وَحَاقَ بـهـمـ﴾ أي أحـاطـ بـهـمـ ﴿مـاـ كـانـواـ بـهـ يـسـتـهـزـءـونـ﴾ أي يـكـذـبـونـ ويـسـتـبعـدـونـ وـقـوـعـهـ ﴿فـلـمـاـ رـأـوـاـ بـأـسـنـانـ﴾ أي عـاـيـنـاـ وـقـوـعـ العـذـابـ بـهـمـ ﴿قـالـواـ آمـنـاـ بـالـلـهـ وـحـدـهـ وـكـفـرـنـاـ بـمـاـ كـانـاـ بـهـ مـشـرـكـينـ﴾ أي وـحدـواـ اللهـ عـزـ وـجـلـ وـكـفـرـواـ بـالـطـاغـوتـ وـلـكـنـ حـيـثـ لـاـ تـقـالـ العـثـراتـ وـلـاـ تـنـفـعـ الـعـذـرـةـ وـهـذـاـ كـمـاـ قـالـ فـرـعـونـ حـيـنـ أـدـرـكـهـ الغـرـقـ: ﴿أـمـنـتـ أـنـهـ لـاـ إـلـهـ إـلـاـ الـذـيـ أـمـنـتـ بـهـ بـنـوـ إـسـرـائـيلـ وـأـنـاـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ﴾ [يونـسـ: ٩٠] قـالـ اللهـ تـبارـكـ وـتـعـالـىـ: ﴿أـلـآنـ وـقـدـ عـصـيـتـ قـبـلـ وـكـنـتـ مـنـ الـمـفـسـدـينـ﴾ [يونـسـ: ٩١ - ٩٠] أي فـلـمـ يـقـبـلـ اللهـ مـنـهـ لـأـنـهـ قدـ استـجـابـ لـنبـيـ مـوسـىـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ دـعـاءـ حـيـنـ قـالـ: ﴿وـاـشـدـدـ عـلـىـ قـلـوبـهـمـ فـلـاـ يـؤـمـنـواـ حـتـىـ يـرـواـ الـعـذـابـ الـأـلـيـمـ﴾ [يونـسـ: ٨٨] وهـكـذـاـ قـالـ تـعـالـىـ هـنـاـ: ﴿فـلـمـ يـكـنـ يـنـفـعـهـمـ إـيمـانـهـمـ لـمـ
رـأـوـاـ بـأـسـنـانـ سـنـةـ اللـهـ الـتـيـ قـدـ خـلـتـ فـيـ عـبـادـهـ﴾ أي هذا حـكـمـ اللـهـ فـيـ جـمـيعـ مـنـ تـابـ عـنـدـ
معـاـيـنةـ الـعـذـابـ أـنـهـ لـاـ يـقـبـلـ وـلـهـذـاـ جـاءـ فـيـ الـحـدـيـثـ «إـنـ اللـهـ تـعـالـىـ يـقـبـلـ تـوـبـةـ الـعـبـدـ مـاـ لـمـ

(١) تـفسـيرـ الطـبـريـ ١١/٨١.

يغرغر^(١) أي فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة وعاين الملك فلا توبة حينئذ ولهذا قال تعالى:
 » وخسر هنالك الكافرون « آخر سورة غافر والله الحمد والمنة.

(١) أخرجه الترمذى في الدعوات باب ٩٨، وأبن ماجه في الزهد باب ٣٠، وأحمد في المسند ١٣٢/٢ ، ٤٢٥/٣ ، ١٥٣

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمٌّ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كَتَبَ فُصِّلَتْ إِنْتَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بِشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْنَةٍ مَا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي إِذْانَنَا وَفِي وَمِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ حِجَابٌ فَأَعْمَلَ إِنْتَأْعَمُونَ ۝

يقول تعالى: «حم تنزيل من الرحمن الرحيم» يعني القرآن متزل من الرحمن الرحيم كقوله: «قل نزله روح القدس من ربكم بالحق» [النحل: ١٠٢] وقوله: «وله لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين» [الشعراء: ١٩٤ - ١٩٢] وقوله تبارك وتعالى: «كتاب فصلت آياته» أي بينت معانيه وأحکمت أحكامه «قرآنًا عربيًا» أي في حال كونه قرآنًا عربيًا بيناً واضحًا فمعانيه مفصلة وألفاظه واضحة غير مشكلة كقوله تعالى: «كتاب أحکمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» [هود: ١] أي هو معجز من حيث لفظه ومعناه «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزل من حكيم حميد» [فصلت: ٤٢].

وقوله تعالى: «لقوم يعلمون» أي إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الراسخون « بشيراً ونذيراً» أي تارة يبشر المؤمنين وتارة ينذر الكافرين « فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون» أي أكثر قريش فهم لا يفهمون منه شيئاً مع بيانه ووضوحيه « وقالوا قلوبنا في أكنة» أي في غلف مغطاة « مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر» أي صمم عما جئتنا به « ومن بيننا وبينك حجاب» فلا يصل إلينا شيء مما تقوله « فاعمل إنا عاملون» أي اعمل أنت على طريقتك ونحن على طريقتنا لا تتبعك.

قال الإمام العالم عبد بن حميد في مسنده: حدثني ابن أبي شيبة حدثنا علي بن مسهر عن الأجلح عن الزيد بن حرملة الأسدي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: اجتمع قريش يوماً فقالوا انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا وشت أمراً وعاب ديننا فليكلمه ولننظر ما ذا يرد عليه فقالوا ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة، فقالوا أنت يا أبو الوليد فأنت عتبة فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ فقال أنت خير أم عبد المطلب، فسكت رسول الله ﷺ فقال إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبّت وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، إنا والله ما رأينا سخلة^(١) قط أشأم على قومك منك،

(١) السخلة: ولد الشاة من المعز والضأن.

فرقت جماعتنا وشتت أمننا، وعبدت ديننا وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً وأن في قريش كاهناً والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضاً إلى بعض بالسيوف حتى نتفاني، أيها الرجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجالاً واحداً، وإن كان بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوشك عشرأً، فقال رسول الله ﷺ: «فرغت» قال نعم، فقال رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم حم تزيل من الرحمن الرحيم» - حتى بلغ - «فإن أعرضوا فقل أنذرتم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» فقال عتبة حسبك ما عندك غير هذا، فقال رسول الله ﷺ: «لا» فرجع إلى قريش فقالوا ما وراءك؟ قال ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه به إلا كلّمته، قالوا فهل أجابك؟ قال لا والذى نصبه بنية^(١) ما فهمت شيئاً مما قاله غير أنه أنذرتم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، قالوا ويلك يكلمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال؟ قال لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة.

وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مستنده عن أبي بكر بن أبي شيبة بإسناده مثله سواء، وقد ساقه البغوي في تفسيره مستنده عن محمد بن فضيل عن الأجلح وهو ابن عبد الله الكندي الكوفي وقد ضعف بعض الشيء عن الزيال بن حرملة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه فذكر الحديث إلى قوله: «فإن أعرضوا فقل أنذرتم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم، فقال أبو جهل يا معاشر قريش والله ما نرى عتبة إلا قد صبا إلى محمد وأعجبه طعامه وما ذاك إلا من حاجة أصابته فانطلقا بنا إليه فانطلقا إليه فقال أبو جهل: يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك صبات إلى محمد وأعجبك طعامه فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنىك عن طعام محمد، فغضض عتبة وأقسم أن لا يكلم محمداً أبداً وقال والله لقد علمتني من أكثر قريش مالاً ولكنني أتيته وقصصت عليه القصة فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر وقرأ السورة إلى قوله تعالى: «فإن أعرضوا فقل أنذرتم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» فأمسكت بهيه وناشده بالرحم أن يكف وقد علمت أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخشيت أن ينزل بكم العذاب، وهذا السياق أشبه من سياق البزار وأبي يعلى والله تعالى أعلم.

وقد أورد هذه القصة الإمام محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب السيرة على خلاف هذا النمط فقال حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان سيداً قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معاشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها

(١) البنية: هي الكعبة، وكانت تسمى بنية إبراهيم عليه السلام.

شاء ويفك عننا؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث علمت من السُّطَّة^(١) في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آهاتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضاً. قال: فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد أسمع» قال يا ابن أخي إن كنت إنما ت يريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت ت يريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك وإن كنت ت يريد به ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع^(٢) على الرجل حتى يداوى منه أو كما قال له، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟» قال نعم. قال «فاستمع مني» قال أفعل. قال: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَمْ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فَصَلَّتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بِشَيْءٍ وَنَذِيرًا فَأَعْرَضُ أَكْثَرَهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ» ثم مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرؤها عليه. فلما سمع عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك» فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به فلما جلس إليهم قالوا ما وراءك يا أبا الوليد قال ورائي أني سمعت قول الله ما سمعت مثله قط والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة، يا عشر قريش أطيوني واجعلوها لي خلوة بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتهم بغيركم وإن يظهر على العرب فنلكه ملوككم وعزه عزكم وكتنم أسعد الناس به. قالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال هذارأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم. وهذا السياق أشبه من الذي قبله، والله أعلم^(٣).

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَآتَيْتَهُمْ مَا سَأَلُوكُمْ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ الزَّكَوَةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كُفَّارٌ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْتُنُونَ ﴿٣﴾

يقول تعالى: «قل» يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين «إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي

(١) السُّطَّة: الشرف.

(٢) التابع: ما يتبع الإنسان من الجن.

(٣) انظر سيرة ابن هشام ١/٢٩٣، ٢٩٤.

أنما إلهمك إله واحد» لا كما تعبدوه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين إنما الله إله واحد «فاستقيموا إليه» أي أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل «واستغفروه» أي لسالف الذنب «وويل للمشركين» أي دمار لهم وهلاك عليهم «الذين لا يؤتون الزكاة» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله وكذا قال عكرمة وهذا كقوله تبارك وتعالى: «قد أفلح من زakah وقد خاب من دساه» [الشمس: ٩ - ١٠] وكقوله جلت عظمته: «قد أفلح من تزكي وذكر اسم ربه فضل» [الأعلى: ١٤ - ١٥] وقوله عز وجل: «فقل هل لك إلى أن تزكي» [النازعات: ١٨] والمراد بالزكاة هنا طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك، وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهيره من الحرام وتكون سبباً لزيادته وبركته وكثرة نفعه وتوفيقاً إلى استعماله في الطاعات.

وقال السدي «وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة» أي لا يدينون بالزكاة، وقال معاوية بن قرة ليس هم من أهل الزكاة وقال قنادة يمنعون زكاة أموالهم وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين واختاره ابن جرير وفيه نظر لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة على ما ذكره غير واحد وهذه الآية مكية اللهم إلا أن يقال لا يبعد أن يكون أصل أصل الصدقة والزكوة وكان مأموراً به في ابتداء البعثة كقوله تبارك وتعالى: «وأنتوا حقه يوم حصاده» [الأنعام: ١٤١] فاما الزكوة ذات النصب والمقادير فإنما بين أمرها بالمدينة ويكون هذا جمعاً بين القولين كما أن أصل الصلاة كان واجباً قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في ابتداء البعثة فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف فرض الله تعالى على رسوله ﷺ الصلوات الخمس وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك شيئاً فشيئاً والله أعلم. ثم قال جل جلاله بعد ذلك: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون» قال مجاهد وغيره: لا مقطوع ولا مجبوب كقوله تعالى: «ماكثين فيها أبداً» [الكهف: ٣] وكقوله عز وجل: «عطاء غير مجدود» [هود: ١٠٨] وقال السدي «غير ممنون» عليهم وقد رد عليه هذا التفسير بعض الأئمة فإن المنة لله تبارك وتعالى على أهل الجنة قال الله تبارك وتعالى: «بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان» [الحجرات: ١٧] وقال أهل الجنة « فمن الله علينا ووقانا عذاب السموات» [الطور: ٢٧]، وقال رسول الله ﷺ: «إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل»^(١).

﴿قُلْ أَيُّنَاكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَجَعَلَهُنَّ كَهْنَهُ أَنَّدَادَ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوْسَىٰ مِنْ فَوْقَهَا وَرَزَكَ فِيهَا وَقَدَرَ فِيهَا أَفْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءٌ لِلْسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَتَيْتَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا فَالَّذِي أَنْتَنَا طَلَابِينَ ۝ فَقَصَصَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب ١٨، ومسلم في المناقين حديث ٧١ - ٧٣.

فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَاهَا سَمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِحٍ وَجَفِّظَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ

هذا إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره وهو الخالق لكل شيء القاهر لكل شيء المقتدر على كل شيء فقال: «قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً» أي نظراً وأمثالاً تعبدونها معه «ذلك رب العالمين» أي الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم . وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى: «خلق السموات والأرض في ستة أيام» [الأعراف: ٥٤] ففصل هنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء فذكر أنه خلق الأرض أولأ لأنها كالأساس والأصل أن يبدأ بالأساس ثم بعده بالسقف كما قال عز وجل: «هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميماً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات» [البقرة: ٢٩] الآية فأما قوله تعالى: «أَنَّا نَمَّ أَشَدَّ خَلْقَاهُ أَمَّ السَّمَاءَ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضَحَاهَا وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرَعَاهَا وَالْجَبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ» [النازعات: ٢٧ - ٢٣].

ففي هذه الآية أن دحي الأرض كان بعد خلق السماء ، فالدحي هو مفسر بقوله «أخرج منها ماءها ومرعاها» وكان هذا بعد خلق السماء فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص وبهذا أجاب ابن عباس رضي الله عنه فيما ذكره البخاري عند تفسير هذه الآية من صحيحه فإنه قال: وقال المنهاج عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس رضي الله عنهمما إني لأجد في القرآن أشياء تختلف علي ، قال: «فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون» [المؤمنون: ١٠١] «وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون» [الصفات: ٢٧] «ولا يكتمون الله حدثياً» [النساء: ٤٢] «والله ربنا ما كنا مشركين» [الأنعام: ٢٣] فقد كتموا في هذه الآية وقال تعالى: «أَنَّا نَمَّ أَشَدَّ خَلْقَاهُ أَمَّ السَّمَاءَ بَنَاهَا» - إلى قوله - «وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا» [النازعات: ٢٧ - ٣٠] فذكر خلق السماء قبل الأرض .

ثم قال تعالى: «قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين» - إلى قوله - «طائعين» فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء وقال: «وكان الله غفوراً رحيمًا» [النساء: ٩٦] «عزيزاً حكيمًا» [النساء: ٥٦ - ١٥٨] «سميعاً بصيراً» [النساء: ٥٨ - ١٣٤] فكأنه كان ثم مضى فقال ابن عباس رضي الله عنهم «فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون» [المؤمنون: ١٠١] في النفحة الأولى ، ثم ينفح في الصور «فصعب من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله» [الزمر: ٦٨] فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون بينهم ثم في النفحة الأخرى «وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون» وأما قوله: «ما كنا مشركين» «ولا يكتمون الله حدثياً» فإن الله تعالى يغفر لأهل الإخلاص ذنبهم فيقول المشركون تعالوا نقول لم نكن مشركين فيختتم على أفواههم فتنطق أيديهم فعنده ذلك يعرف أن الله تعالى لا يكتم حدثياً ، وعنده «بِوَدِ الَّذِينَ كَفَرُوا» [النساء: ٤٢ وغيرها] الآية ، وخلق الأرض في يومين ثم

خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين ثم دحى الأرض ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والرمال والجماد والأكام وما بينهما في يومين آخرين فذلك قوله تعالى **«دحاهما»**.

وقوله: **«خلق الأرض في يومين»** فخلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام وخلق السموات في يومين **«وكان الله غفوراً رحيمًا»** [النساء: ٩٦] سمي نفسه بذلك وذلك قوله أي لم يزل كذلك فإن الله تعالى لم يرد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد فلا يختلفن عليك القرآن فإن كلاماً من عند الله عز وجل. قال البخاري حديثه يوسف بن عدي حدثنا عبد الله بن عمرو عن زيد بن أبي أنيسة عن المنهاج هو ابن عمرو بالحديث.

وقوله: **«خلق الأرض في يومين»** يعني يوم الأحد ويوم الاثنين **«وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها»** أي جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس وقدر فيها أقواتها وهو ما ويحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس يعني يوم الثلاثاء والأربعاء فهمما مع اليومين السابقين أربعة ولهذا قال: **«في أربعة أيام سواء للسائلين»** أي لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلميه وقال عكرمة ومجاهد في قوله عز وجل: **«وقدر فيها أقواتها»** جعل في كل أرض ما لا يصلح في غيرها ومنه العصب^(١) باليمين والسابوري^(٢) بسابور والطيسالسة^(٣) بالري^(٤) وقال ابن عباس وقادة والسدي في قوله تعالى: **«سواء للسائلين»** أي لمن أراد السؤال عن ذلك وقال ابن زيد معناه **«وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين»** أي على وفق مراد من له حاجة إلى رزق أو حاجة فإن الله تعالى قدر له ما هو محتاج إليه وهذا القول يشبه ما ذكروه في قوله تعالى: **«وآتاكم من كل ما سألتمنه»** [إبراهيم: ٣٤] والله أعلم.

وقوله تبارك وتعالى: **«ثم استوى إلى السماء وهي دخان»** وهو بخار الماء المتتصاعد منه حين خلقت الأرض **«فقال لها وللأرض ائيا طوعاً أو كرهاً»** أي استجيها لأمرى وانفعلا لفعلى طائعين أو مكرهتين قال الثوري عن ابن جريج عن سليمان بن موسى عن مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى: **«فقال لها وللأرض ائيا طوعاً أو كرهاً»** قال: قال الله تبارك وتعالى للسموات أطلعى شمسي وقمري ونجومي وقال للأرض شققي أنهارك وأخرجي ثمارك **«قالنا أتينا طائعين»** واختاره ابن جرير^(٥) رحمه الله قالنا أتينا طائعين أي بل نستجيب لك مطيعين بما

(١) العصب: برود يمنية يصعب غزلها. أي يجمع ويشد ثم يصبح ويسبح، فإذاً موشياً لبقاء ما عصب منه أبيض لم يأخذه صبغ.

(٢) السابوري: نسبة إلى سابور قرية قريبة من أصبهان، وكل ثوب رقيق يسمى سابري.

(٣) الطيسالسة: من لباس العجم، وقيل هو ثوب يلبس على الكتف.

(٤) انظر تفسير الطبرى ١١/٩٠.

(٥) تفسير الطبرى ١١/٩٢.

فينا مما ترید خلقه من الملائكة والجن والإنس جميعاً مطعین لك، حکاه ابن جریر عن بعض أهل العربية قال وقيل تنزيلاً لهن معاملة من يعقل بكلامهما وقيل إن المتكلم من الأرض بذلك هو مكان الكعبة ومن السماء ما يسامته منها والله أعلم وقال الحسن البصري لو أيا عليه أمره عليه لعدبهم عذاباً يجدان ألمه رواه ابن أبي حاتم.

﴿فَقَضَاهُنَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي فرغ من تسویتهن سبع سموات في يومين أي آخرین وهما يوم الخميس ويوم الجمعة ﴿وَأُوحِيَ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أي ورتب مقرراً في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التي لا يعلمه إلا هو ﴿وَزَوَّجَنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِحٍ﴾ وهي الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض ﴿وَحَفَظَا﴾ أي حرساً من الشياطين أن تستمع إلى الملاً الأعلى ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الرَّحِيمِ الْعَلِيمِ﴾ أي العزيز الذي قد عز كل شيء فغلبه وقهره العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم قال ابن جریر حدثنا هناد بن السري حدثنا أبو بكر بن عیاش عن أبي سعید البقال عن عکرمة عن ابن عباس قال هناد: قرأت سائر الحديث أن اليهود أتت النبي ﷺ فسألته عن خلق السموات والأرض فقال ﷺ: «خلق الله تعالى الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب فهذه أربعة ﴿فَلَأَنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَّ مِنْ فَوْقَهَا وَبَارِكَ فِيهَا وَقَدَرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ لمن سأله قال وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاثة ساعات بقيت منه [فخلق في أول ساعة من هذه الثلاثة الآجال حين يموت من مات] وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيء مما ينتفع به الناس وفي الثالثة آدم وأسكنه الجنة وأمر إبليس بالسجود له وأخرجه منها في آخر ساعة ثم قالت اليهود ثم ماذا يا محمد قال «ثم استوى على العرش» قالوا قد أصبحت لو أتممت، قالوا ثم استراح، فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً فنزل ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سَتَةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَنَا مِنْ لَغْوٍ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٣٨] هذا الحديث فيه غرابة.

فاما حديث ابن جريج عن إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة رضي الله عنه قال أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المکروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة فيما بين العصر إلى الليل»^(١) فقد رواه مسلم والنسائي في كتابيهما من حديث ابن جريج به وهو من غرائب الصحيح وقد علل البخاري في التاريخ فقال رواه بعضهم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن كعب الأحبار وهو الأصح.

(١) أخرجه مسلم في المناقين حديث ٢٧، وأحمد في المسند ٣٢٧/٢.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذِرْنِكُمْ صَاعِدَةً مِثْلَ صَاعِدَةَ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَكًا كَمَا أَنْزَلَ مَلَكَهُ فَإِنَّا يِمَّا أَرْسَلْنَا لَهُ كَفِرُونَ ﴿٢﴾ فَامَّا عَادٌ فَأَسْتَكَنَّهُمْ بِرُوافِ الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا يُغَايِبُنَا يَجْحَدُونَ ﴿٣﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرَّاصًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِذِيقَتِهِمْ عَذَابَ الْخَرْقَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْرَى وَهُمْ لَا يُصْرَفُونَ ﴿٤﴾ وَمَا ثُمُودٌ فَهَدَنَاهُمْ فَأَسْتَحْبُوا الْعُمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخْذَتِهِمْ صَاعِدَةُ الْعَذَابِ أَهْوَنُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥﴾ وَجَعَلْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿٦﴾

يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتكم به من الحق إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله تعالى فإني أنذركم حلول نقمته الله بكم كما حللت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين «صاعدة مثل صاعدة عاد وثمود» أي ومن شاكليهما من فعل كفعلهما «إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم» قوله تعالى: «واذكر أخا عاد إذ انذر قومه بالاحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه» [الأحقاف: ٢١] أي في القرى المجاورة للبلادهم بعث الله إليهم الرسل يأمرنون بعبادة الله وحده لا شريك له ومبشرين ومنتذرين ، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من النقم ، وما أليس أولياء من النعم ، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا بل كذبوا وجدوا وقالوا: «لو شاء ربنا لأنزل ملائكة» أي لو أرسل الله رسلاً لكانوا ملائكة من عنده «فإانا بما أرسلت به» أي إليها البشر «كافرون» أي لا تتبعكم وأنتم بشر مثلنا قال الله تعالى: «فاما عاد فاستكروا في الأرض» أي بغوا وعتوا وعصوا «وقالوا من أشد منا قوة» أي منوا بشدة تركيبهم وقوتهم واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله «أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة» أي أفقوا يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها وأن بطيشه شديد كما قال عز وجل: «والسماء بنيناها بأيد وإنما لموسون» [الذاريات: ٤٧] فبارزوا الجبار بالعداوة وجدوا بآياته وعصوا رسوله فلهذا قال: «فأرسلنا عليهم ريحًا صرّاصًا» قال بعضهم وهي الشديدة الهبوب ، وقيل الباردة . وقيل هي التي لها صوت والحق أنها متصفه بجميع ذلك فإنها كانت ريحًا شديدة قوية لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم وكانت باردة شديدة البرد جداً كقوله تعالى: «بريح صرّاص عاتية» [الحاقة: ٦] أي باردة شديدة وكانت ذات صوت مزعج ، ومنه سمي النهر المشهور ببلاد المشرق صرّاص القوة صوت جريه .

وقوله تعالى: «في أيام نحسات» أي متتابعات «سبع ليال وثمانية أيام حسوماً» [الحاقة: ٧] وكقوله: «في يوم نحس مستمر» [القمر: ٦٩] أي ابتدأوا العذاب في يوم نحس عليهم واستمر بهم هذا النحس «سبع ليال وثمانية أيام حسوماً» حتى أبادهم عن آخرهم واتصل بهم خزي الدنيا بعد العذاب الآخرة ولهذا قال تعالى: «لذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب

الآخرة أخرى» أي أشد خزيًا لهم «وهم لا ينصرون» أي في الآخرة كما لم ينصروا في الدنيا وما كان لهم من واق يقيهم العذاب ويدرأ عنهم النكال، قوله عز وجل : «وأما ثمود فهديناهم» قال ابن عباس رضي الله عنهما وأبو العالية وسعيد بن جبير وقادة والسدي وابن زيد: بينما لهم، وقال الثوري دعوناهم «فاستحبوا العمى على الهدى» أي بصرناهم وبينما لهم ووضحتنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام فخالفوه وكذبوا وعقرروا ناقة الله تعالى التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم «فأخذتهم صاعقة العذاب الهون» أي بعث الله عليهم صيحة ورجمة وذلةً وهواناً وعذاباً ونكالاً «بما كانوا يكسبون» أي من التكذيب والجحود «ونجينا الذين آمنوا» أي من بين أظهرهم لم يمسهم سوء ولا نالهم من ذلك ضرر بل نجاهم الله تعالى مع نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام بإيمانهم وتقواهم لله عز وجل .

وَيَوْمَ يُحَشِّرُ أَعْدَاءَ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُمْ وَهَا شَهَدَ عَلَيْهِمْ سَمَعُهُمْ وَأَبَصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةً وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ وَمَا كُنْتُمْ سَتَرْتُرُونَ أَنْ يَشَهِدَ عَلَيْكُمْ سَمَعُكُمْ وَلَا أَبَصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَذَلِكُمُ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرِّيْكُمْ أَرَدَنُكُمْ فَأَصَبَّتُمُ مِنَ الْخَتَّارِينَ ۝ فَإِنْ يَصِرُّوْا فَإِلَىٰ نَارٍ مَوْئِلُهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوْا فَمَا هُمْ بِنَ اَمْمَعَنِينَ ۝

يقول تعالى : «وَيَوْمَ يُحَشِّرُ أَعْدَاءَ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ» أي اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار «يوزعون» أي تجمع الزبانية أولهم على آخرهم كما قال تبارك وتعالى : «وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدًا» [مريم: ٨٦] أي عطاشاً . قوله عز وجل : «حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُمْ وَهَا شَهَدَ عَلَيْهِمْ سَمَعُهُمْ وَأَبَصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» أي بأعمالهم مما قدموه وأخروه لا يكتم منه حرف «وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا» أي لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم فعند ذلك أجابتهم الأعضاء «قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةً» أي فهو لا يخالف ولا يمانع وإليه ترجعون .

قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا علي بن قادم حدثنا شريك عن عبيد المكتب عن الشعبي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وابتسم فقال ﷺ: «ألا تسألوني عن أي شيء ضحكت؟» قالوا يا رسول الله عن أي شيء ضحكت؟ قال ﷺ: «عجبت من مجادلة العبد رب يوم القيمة يقول أي ربى أليس وعدتني أن لا تظلمني ، قال بلى فيقول فإني لا أقبل علي شاهداً إلا من نفسي فيقول الله تبارك وتعالى أو ليس كفى بي شهيداً وبالملائكة الكرام الكاتبين - قال - فيجدد هذا الكلام مراراً - قال - فيختتم على فيه وتتكلم أركانه بما كان يعمل ، فيقول بعداً لكن وسحقاً عنكـ كنت أجادل» ثم رواه هو

وابن أبي حاتم من حديث أبي عامر الأستدي عن الثوري عن عبيد المكتب عن فضيل بن عمرو عن الشعبي ثم قال لا نعلم رواه عن أنس رضي الله عنه غير الشعبي وقد أخرجه مسلم والنسائي جمِيعاً عن أبي بكر بن أبي النضر عن أبي النضر عن عبيد الله بن عبد الرحمن الأشجعي عن الثوري به .

ثم قال النسائي لا أعلم أحداً رواه عن الثوري غير الأشجعي وليس كما قال كما رأيت والله أعلم .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو حاتم: حدثنا أحمد بن إبراهيم حدثنا إسماعيل ابن علية عن يونس بن عبيد عن حميد بن هلال قال: قال أبو بردः: قال أبو موسى: ويدعى الكافر والمنافق للحساب فيعرض عليه ربه عز وجل عمله فيجدد ويقول أي رب وعزتك لقد كتب عليَّ هذا الملك ما لم أعمل فيقول له الملك أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا؟ فيقول لا وعزتك أي رب ما عملته قال فإذا فعل ذلك ختم على فيه، قال الأشعري رضي الله عنه: فإني لأحسب أول ما ينطق منه فخذه اليمنى .

وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا زهير حدثنا حسن عن ابن لهيعة قال دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيمة عرف الكافر بعمله فجحد وخاصم فيقول هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول كذبوا فيقول أهلك وعشيرتك فيقول كذبوا فيقول احلفوا فيحلفون ثم يضمthem الله تعالى وتشهد عليهم أستهم ويدخلهم النار» وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا أحمد بن إبراهيم حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث قال: سمعت أبي يقول حدثنا علي بن زيد عن مسلم بن صبيح أبي الضحى عن ابن عباس رضي الله عنهمما أنه قال لابن الأزرق إن يوم القيمة يأتي على الناس منه حين لا ينطقون ولا يعتذرون ولا يتكلمون حتى يؤذن لهم ثم يؤذن لهم فيختصمون فيجدد الجاحد بشركه بالله تعالى فيحلفون له كما يحلفون لكم فيبعث الله تعالى عليهم حين يجحدون شهداء من أنفسهم جلودهم وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم ويختتم على أنفواهم ثم يفتح لهم الأفواه فتخاصم الجوارح فتقول: «أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون» فتقر الألسنة بعد الجحود .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عبدة بن سليمان حدثنا ابن المبارك حدثنا صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير الحضرمي ، عن رافع أبي الحسن قال وصف رجلاً جحد قال فيشير الله تعالى إلى لسانه فيربو في فمه حتى يملأه فلا يستطيع أن ينطق بكلمة ثم يقول لآرابه^(١) كلها تكلمي وشهادتي عليه فيشهد عليه سمعه وبصره وجلدته وفرجه ويداه ورجاله صنعوا عملنا فعلنا . وقد تقدم أحاديث كثيرة وأثار عند قوله تعالى في سورة يس «اليوم نختتم على أفواههم

(١) آراب: أي أعضائه .

وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون» [يس: ٦٥] بما أغني عن إعادته ههنا.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا سعيد بن سعيد حدثنا يحيى بن سليم الطائي عن ابن خثيم عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما رجعت إلى رسول الله ﷺ مهاجرة البحر قال «ألا تحدثون بأعاجيب مارأيتم بأرض الحبشة؟» فقال فتية منهم: بلى يا رسول الله بينما نحن جلوس إذ مرت علينا عجوز من عجائز رهابينهم تحمل على رأسها قلة من ماء فمررت بفتى منهم فجعل إحدى يديه بين كتفيه ثم دفعها فخرت على ركبتيها فانكسرت قلتها فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت سوف تعلم يا غدر إذا وضع الله الكرسي وجمع الأولين والآخرين وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غداً؟ قال يقول رسول الله ﷺ: «صدقت صدقتك كيف يقدس الله قوماً لا يؤخذ لضعيفهم من شدیدهم»^(١) هذا حديث غريب من هذا الوجه ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأحوال حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا يحيى بن سليم به.

وقوله تعالى: «وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جِلْدُكُمْ» أي تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم ما كنتم تتكتّمون منا الذي كنتم تفعلونه بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي ولا تبالغون منه في زعمكم لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم ولهذا قال تعالى: «وَلَكُنْ ظنَّنَتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كُثِيرًا مَا تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمُ الظَّنُّ الَّذِي ظنَّتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ» أي هذا الظن الفاسد وهو اعتقادكم أن الله تعالى لا يعلم كثيراً مما تعملون هو الذي أتلفكم وأرداكم عند ربكم «فَاصْبِحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ» أي في مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم.

قال الإمام أحمد^(٢) حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن عمارة عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله رضي الله عنه قال: كنت مستترًا بـأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر قرشي وختنه ثقفيان - أو ثقفي وختنه قريشيان - كثیر شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا، فقال الآخر: إنما إذا رفعنا أصواتنا سمعه وإذا لم نرفعه لم يسمعه فقال الآخر: إن سمع منه شيئاً سمعه كله - قال - فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله عز وجل «وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جِلْدُكُمْ» - إلى قوله - «مِنَ الْخَاسِرِينَ» وهكذا رواه الترمذى^(٣) عن هناد عن أبي معاوية بإسناده نحوه، وأخرججه أحمد^(٤)

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتنة بباب ٣٠.

(٢) المسند ١/٣٨١.

(٣) كتاب التفسير، تفسير سورة ٤١ باب ١.

(٤) المسند ١/٤٢٦، ٤٠٨.

ومسلم^(١) والترمذني^(٢) أيضاً من حديث سفيان الثوري عن الأعمش عن عمارة بن عمير عن وهب بن ربيعة عن عبد الله بن مسعود بنحوه، ورواه البخاري^(٣) ومسلم^(٤) أيضاً من حديث السفيانيين كلاهما عن منصور عن مجاهد عن أبي عمر عبد الله بن سخيرة عن ابن مسعود رضي الله عنه به.

وقال عبد الرزاق: حدثنا معمر عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ في قوله تعالى: «أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم» قال: «إنكم تدعون يوم القيمة مقدمًا على أنفواحكم بالغدام فأول شيء يبين عن أحدكم فخذنه وكفه»^(٥) قال معمر: وتلا الحسن «وذلكم ظنكم الذي ظنتم بربكم أرداكم» ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى أنا مع عبدي عند ظنه بي وأنا معه إذا دعاني»^(٦) ثم افتر^(٧) الحسن ينظر في هذا فقال: ألا إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم فأما المؤمن فأحسن الظن بربه فأحسن العمل، وأما الكافر والمنافق فأساء الظن بالله فأساء العمل ثم قال: قال الله تبارك وتعالى: «وما كنتم تسترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم» - إلى قوله - «وذلكم ظنكم الذي ظنتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين» الآية.

وقال الإمام أحمد^(٨): حدثنا النضر بن إسماعيل القاصي وهو أبو المغيرة حدثنا ابن أبي ليلى عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموتون أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظن فإن قوماً قد أرداهم سوء ظنهم بالله فقال الله تعالى: «وذلكم ظنكم الذي ظنتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين» وقوله تعالى: «فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعبروا بما هم من المعتبرين» أي سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا هم في النار لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها، وإن طلبوا أن يستعبروا ويبدوا أعدارهم مما لهم أعدار ولا تقال لهم عشرات. قال ابن جرير^(٩): ومعنى قوله تعالى: «وإن يستعبروا» أي يسألوا الرجعة إلى الدنيا

(١) كتاب المناقفين حديث ٨.

(٢) كتاب التفسير، تفسير سورة ٤١ باب ٢.

(٣) كتاب التفسير، تفسير سورة ٤١، باب ٢.

(٤) كتاب المناقفين حديث ٨.

(٥) أخرجه أحمد في المسند ٤/٥، ٥.

(٦) روی الحديث بطرق وأسانید متعددة، أخرجه البخاري في التوحيد باب ١٥، ٣٥، ومسلم في التوبه حديث ١، والذكر حديث ٢، ٩، والترمذني في الزهد باب ٥١، والدعوات باب ١٣١، وابن ماجه في الأدب باب ٥٨، وأحمد في المسند ٢٥١/٣، ٢١٠/٤، ١٠٦/٤.

(٧) أفت: أي تبسم حتى بدت أسنانه من غير قهقهة.

(٨) المسند ٣/٣٩٠، ٣٩١.

(٩) تفسير الطبرى ١١/١٠٣.

فلا جواب لهم قال وهذا كقوله تعالى إخباراً عنهم : ﴿قَالُوا رَبُّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شَقَوْتَنَا وَكَنَا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبُّنَا أَخْرَجَنَا مِنْهَا فَإِنَّا عَدْنَا ظَالِّمُونَ قَالَ اخْسِئُوهُمْ فِيهَا وَلَا تَكْلِمُوهُمْ﴾ [المؤمنون : ١٠٦ - ١٠٨].

﴿وَقَصَصْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَرِيَّنَا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمْ الْقَوْلُ فِي أُمُّرٍ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسَانِ إِنَّهُمْ كَانُوا حَسَرِينَ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانَ وَالْغَوَا فِيهِ لَعْلَكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿فَلَنْذِيقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنْجِزَنَهُمْ أَسْوَا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ذَلِكَ حَرَاءٌ أَعْدَاهُ اللَّهُ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخَلْدِ جَزَاءٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبُّنَا أَرَنَا الَّذِينَ أَضْلَلْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسَانِ بَعْلَهُمْ مَا حَتَّى أَقْدَامَنَا لِكُونَنَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾

يذكر تعالى أنه هو الذي أضل المشركين وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته وهو الحكيم في أفعاله بما قيس لهم من القراء من شياطين الإنس والجن ﴿فَرِيَّنَا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي حسروا لهم أعمالهم في الماضي وبالنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِصٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِيبٌ وَإِنَّهُمْ لِيَصْدُونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف : ٣٦ - ٣٧].

وقوله تعالى : ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي كلمة العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم من فعل كفعلهم من الجن والإنس ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أي استروا هم وإياهم في الخسار والدمار . وقوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانَ﴾ أي تواصوا فيما بينهم أن لا يطيعوا للقرآن ولا ينقادوا لأوامره ﴿وَالْغَوَا فِيهِ﴾ أي إذا تلي لا تستمعوا له كما قال مجاهد ﴿وَالْغَوَا فِيهِ﴾ يعني بالمكان الصفير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن قريش تفعله^(١).

وقال الصحاح عن ابن عباس ﴿وَالْغَوَا فِيهِ﴾ عبيوه ، وقال قتادة : اجحدوا به وأنكروه وعادوه ﴿لَعْلَكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ هذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بخلاف ذلك فقال تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعْلَكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ [الأعراف : ٤ - ٢٠٤].

ثم قال عز وجل متصرراً للقرآن ومنتقماً من عاداه من أهل الكفران ﴿فَلَنْذِيقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي في مقابلة ما اعتمدوه في القرآن وعند سماعهم ﴿وَلَنْجِزَنَهُمْ أَسْوَا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يبشر أعمالهم وسيء أفعالهم ﴿ذَلِكَ حَرَاءٌ أَعْدَاهُ اللَّهُ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخَلْدِ جَزَاءٌ مَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَعْجِدُونَ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبُّنَا أَرَنَا الَّذِينَ أَضْلَلْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسَانِ بَعْلَهُمْ مَا حَتَّى أَقْدَامَنَا لِكُونَنَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾

(١) انظر تفسير الطبرى ١١ / ١٠٤.

تحت أقدامنا ليكونوا من الأسفلين» قال سفيان الثوري عن سلمة بن كهيل عن مالك بن الحصين الفزاري عن أبيه عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى : «الذين أضلانا» قال إيليس وابن آدم الذي قتل أخيه^(١). وهكذا روى حبة العرني عن علي رضي الله عنه مثل ذلك .

وقال السدي عن علي رضي الله عنه فإيليس يدعو به كل صاحب شرك وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة فإيليس لعنه الله هو الداعي إلى كل شر من شرك فما دونه وابن آدم الأول كما ثبت في الحديث «ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل»^(٢) . وقولهم : «نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا» أي أسفل منا في العذاب ليكونوا أشد عذاباً منا ولهذا قالوا «ليكونوا من الأسفل» أي في الدرك الأسفل من النار كما تقدم في الأعراف في سؤال الاتباع من الله تعالى أن يذهب قادتهم أضعاف عذابهم «قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون» [الأعراف : ٣٨] أي أنه تعالى قد أعطى كلّاً منهم ما يستحقه من العذاب والنكال بحسب عمله وإفساده كما قال تعالى «الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون» [النحل : ٨٨] .

إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا رَبِّنَا اللَّهَ ثُمَّ أَسْتَقَمُوا تَنَزَّلَ عَلَيْهِمُ الْمُلِئَةُ كُلُّهُمْ أَلَا مَخَافُوا وَلَا تَحْزِبُوا وَلَا يَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُتُبَرْتُمْ تُوعَدُونَ ۝ تَحْنُ أُولَئِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَا كُنُمْ فِيهَا مَا دَشَّتُمْ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَعُونَ ۝ تُرْلَأُنَّ عَفْوَرِ رَحِيمٌ ۝

يقول تعالى : «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا» أي أخلصوا العمل لله وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم قال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا الجراح حدثنا سلم بن قتيبة أبو قتيبة الشعيري حدثنا سهيل بن أبي حزم حدثنا ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية : «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا» قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم فمن قالها حتى يموت فقد استقام عليها ، وكذا رواه النسائي في تفسيره والبزار وابن جرير عن عمرو بن علي الفلاس عن سلم بن قتيبة به . وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن الفلاس به .

ثم قال ابن جرير^(٣) : حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن أبي إسحاق عن عامر بن سعد عن سعيد بن نمران^(٤) قال : قرأت عند أبي بكر الصديق رضي الله عنه هذه الآية :

(١) انظر تفسير الطبرى ١١/١٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز باب ٣٢ ، والاعتراض باب ١٥ ، والأنبياء باب ١ ، ومسلم في القسامحة حدث ٤٣٣ ، والترمذى في العلم باب ١٤ ، وابن ماجه في الديات باب ١ ، وأحمد في المستند ١/٣٨٣ ، ٣٨٣ .

(٣) تفسير الطبرى ١١/١٠٦.

(٤) في تفسير الطبرى : سعيد بن عمران .

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ قال هم الذين لم يشركوا بالله شيئاً ثم روى من حديث الأسود بن هلال قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه ما تقولون في هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ قال فقالوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ من ذنب فقال: لقد حملتموه على غير المحمل قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلم يلتفتوا إلى إله غيره. وكذا قال مجاهد وعكرمة والسدي وغير واحد.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهراني أخبرنا حفص بن عمر العدناني عن الحكم بن أبان عن عكرمة قال سئل ابن عباس رضي الله عنهما أي آية في كتاب الله تبارك وتعالى أرجح؟ قال قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله. وقال الزهري: تلا عمر رضي الله عنه هذه الآية على المنبر ثم قال استقاموا والله لله بطاعته ولم يروغوا روغان الشالب.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ على أداء فرائضه^(١)، وكذا قال قتادة: قال وكان الحسن يقول اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة، وقال أبو العالية ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أخلصوا له الدين والعمل.

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا هشيم حدثنا يعلى بن عطاء عن عبد الله بن سفيان الثقفي عن أبيه أن رجلاً قال: يا رسول الله مرنبي بأمر في الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك قال ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنْتَ مُنَذِّرٌ لِّلنَّاسِ﴾: آمنت بالله ثم استقم^(٣) قلت فما أتقى؟ فأواماً إلى لسانه. ورواه النسائي من حديث شعبة عن يعلى بن عطاء به. ثم قال الإمام أحمد^(٤): حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا إبراهيم بن سعد حدثني ابن شهاب عن محمد بن عبد الرحمن بن ماعز الغامدي عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله حدثني بأمر اعتصم به قال ﴿قُلْ رَبِّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمَ﴾ قلت: يا رسول الله ما أكثر ما تخاف على؟ فأخذ رسول الله بطرف لسان نفسه ثم قال: «هذا» وهكذا رواه الترمذ^(٥) وأبن ماجه^(٦) من حديث الزهري به وقال الترمذ^(٧) حسن صحيح. وقد أخرجه مسلم^(٨) في صحيحه والنسائي من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قوله لا أسأل عنه أحداً بعدك قال ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنْتَ مُنَذِّرٌ لِّلنَّاسِ﴾: «قل آمنت بالله ثم استقم» وذكر تمام الحديث.

(١) تفسير الطبرى ١٠٨/١١.

(٢) المسند ٤/٣٨٤، ٣٨٥.

(٣) المسند ٣/٤١٣.

(٤) كتاب الزهد باب ٦١.

(٥) كتاب الفتن باب ١٣.

(٦) كتاب الإيمان حديث ٦٢.

وقوله تعالى: «تنزل عليهم الملائكة» قال مجاهد والسدی و زید بن اسلم وابنه: يعني عند الموت قائلين «أن لا تخافوا» قال مجاهد و عكرمة و زید بن اسلم أي مما تقدمون عليه من أمر الآخرة «ولا تحزنوا» على ما خلقوه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال أو دين فإننا نخلفكم فيه «وأبشروا بالجنة التي كتم توعدون» فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير: وهذا كما جاء في حديث البراء رضي الله عنه قال: «إن الملائكة تقول لروح المؤمن اخرجني أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمريه اخرجي إلى روح وريحان و رب غير غضبان»^(١) وقيل إن الملائكة تننزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم حكاہ ابن جریر^(٢) عن ابن عباس والسدی.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة حدثنا عبد السلام بن مطهر حدثنا جعفر بن سليمان قال سمعت ثابتًا قرأ سورة «حم السجدة» حتى بلغ «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تننزل عليهم الملائكة» فوقف فقال بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعثه الله تعالى من قبره يتلقاه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا فيقولان له لا تخف ولا تحذر «وأبشروا بالجنة التي كتم توعدون» قال فيؤمّن الله تعالى خوفه ويقر عينه فما عظيمة يخشى الناس يوم القيمة إلا هي للمؤمن فرحة عين لما هداه الله تبارك تعالى ولما كان يعمل له في الدنيا وقال زيد بن أسلم: يشرونـه عند موته وفي قبره وحين يبعث رواه ابن أبي حاتم وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جداً وهو الواقع.

وقوله تبارك وتعالى: «نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة» أي تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار نحن كنا أولياءكم في الحياة الدنيا أي قرباءكم في الحياة الدنيا نسد لكم ونوفلكم ونحفظكم بأمر الله وكذلك تكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور وعند الفخة في الصور ونؤمنكم يوم البعث والنشور ونجاوز بكم الصراط المستقيم ونوصلكم إلى جنات النعيم «ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم» أي في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس وتقر به العيون «ولكم فيها ما تدعون» أي مهما طلبتم وجدتم وحضر بين أيديكم كما اخترتم «نزلًا من غفور رحيم» أي ضيافة وعطاء وإنعاماً من غفور لذنبكم رحيم بكم رءوف حيث غفر وستر ورحم ولطف. وقد ذكر ابن أبي حاتم ههنا حديث سوق الجنة عند قوله تعالى: «ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلًا من غفور رحيم» فقال:

حدثنا أبي حدثنا هشام بن عمار حدثنا عبد الحميد بن حبيب بن أبي العشرين أبي سعيد حدثنا الأوزاعي حدثني حسان بن عطيه عن سعيد بن المسيب أنه لقي أبا هريرة رضي الله عنه

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ٣١، وأحمد في المسند ٣٦٤/٢، ١٤٠/٦، بلفظ: أسرى بروح وريحان و رب غير غضبان».

(٢) تفسير الطبرى ١١/١٠٨.

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا ابن أبي عدي عن حميد عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» قلنا يا رسول الله: كلنا نكره الموت قال ﷺ: «ليس ذلك كراهية الموت ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله تعالى بما هو صائر إليه فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقى الله تعالى فأحب الله لقاءه - قال - وإن الفاجر - أو الكافر - إذا حضر جاءه بما هو صائر إليه من الشر أو

(١) الدنيء: الخسيس.

(٢) أخرجه الترمذى فى صفة الجنة باب ١٥ ، وابن ماجه فى الزهد باب ٣٩.

المسند ١٠٧ / ٣ (٢)

ما يلقى من الشر فكره لقاء الله فكره الله لقاءه^(١) وهذا حديث صحيح وقد ورد في الصحيح من غير هذا الوجه.

وَمَنْ أَحْسَنْ قُولًا مِّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَلِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١﴾ وَلَا سَتَوَى
الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعَ بِأَنَّقَى هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي يَبْتَكَ وَيَبْتَدِ عَدَاؤُهُ كَانَهُ وَلِئَ حَمِيمٌ ﴿٢﴾ وَمَا
يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا دُوَّ حَظِّ عَظِيمٍ ﴿٣﴾ وَإِمَّا يَرَغَبُكَ مِنَ الشَّيْطَنِ نَزْعٌ فَاسْتَعِدْ
بِاللَّهِ إِنَّمَا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾

يقول عز وجل : « ومن أحسن قوله من دعا إلى الله » أي دعا عباد الله إليه « وعمل صالحاً وقال إني من المسلمين » أي هو في نفسه مهتد بما يقوله فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعد وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه وينهون عن المنكر ويأتونه بل يأتمر بالخير ويترك الشر ويدعوا الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى وهذه عامة في كل من دعا إلى الخير وهو في نفسه مهتد ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك كما قال محمد بن سيرين والستي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقيل المراد بها المؤذنون الصالحة كما ثبت في صحيح مسلم « المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيمة»^(٢) وفي السنن مرفوعاً « الإمام ضامن والمؤذن مؤمن فأرشد الله الأئمة وغفر للمؤذنين»^(٣).

وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن عروبة الهروي حدثنا غسان قاضي هرة وقال أبو زرعة : حدثنا إبراهيم بن طهمان عن مطر عن الحسن عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال : « سهام المؤذنون عند الله تعالى يوم القيمة كسهام المجاهدين وهو بين الأذان والإقامة كالمتشحط في سبيل الله تعالى في دمه » قال : وقال ابن مسعود رضي الله عنه لو كنت مؤذناً ما باليت أن لا أحجج ولا أعتمر ولا أجاهد قال : وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لو كنت مؤذناً لكملي أمري وما باليت أن لا أنتصب لقيام الليل ولا لصيام النهار سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اللهم اغفر للمؤذنين » ثلاثة ، قال : فقلت يا رسول الله تركتنا ونحن نجتلى على الأذان بالسيوف قال ﷺ : « كلا يا عمر إنه سيأتي على الناس زمان يتركون الأذان على ضعافهم وتلك لحوم حرمتها الله عز وجل على النار لحوم المؤذنين » قال وقالت عائشة رضي الله عنها ولهم هذه الآية « ومن أحسن قوله من دعا إلى الله وعمل

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٤١ ، ومسلم في الذكر حديث ١٤ ، ١٨ - ١٦ .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة حديث ١٤ ، وأبي ماجه في الأذان باب ٥ ، وأحمد في المستند ٣/١٦٩ ، ٢٦٤ ، ٩٥ ، ٦٥ .

(٣) أخرجه الترمذى في الصلاة باب ٣٩ ، وأحمد في المستند ٢/٢٣٢ ، ٢٨٤ ، ٣٨٢ ، ٢٦٠ / ٥ ، ٦٥ / ٦ .

صالحاً وقال إبني من المسلمين» قالت: فهو المؤذن إذا قال حي على الصلاة فقد دعا إلى الله وهكذا قال ابن عمر رضي الله عنهما وعكرمة إنها نزلت في المؤذنين وقد ذكر البغوي عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أنه قال في قوله عز وجل «وعمل صالحًا» قال: يعني صلاة ركعتين بين الأذان والإقامة.

ثم أورد البغوي حديث عبد الله بن المغفل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بين كل أذانين - صلاة - ثم قال في الثالثة - لمن شاء»^(١) وقد أخرجه الجماعة في كتبهم من حديث عبد الله بن بريدة عنه وحديث الثوري عن زيد العمي عن أبي إيس معاوية بن قرة عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال الثوري: لا أراه إلا قد رفعه إلى النبي ﷺ «الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة» ورواه أبو داود والترمذى والنمسائى في اليوم والليلة كلهم من حديث الثوري به وقال الترمذى: هذا حديث حسن، ورواه النمسائى أيضاً من حديث سليمان التىمى عن قادة عن أنس به. والصحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم فأما حال نزول هذه الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعاً بالكلية لأنها مكية والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة حين أرمه عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصارى رضي الله عنه في منامه فقصه على رسول الله ﷺ فأمره أن يلقىه على بلال رضي الله عنه فإنه أندى صوتاً كما هو مقرر في موضعه فالصحيح إذن أنها عامة كما قال عبد الرزاق عن معمر عن الحسن البصري أنه تلا هذه الآية «ومن أحسن قولًا من دعا إلى الله وعمل صالحًا» وقال إبني من المسلمين» فقال هذا حبيب الله هذا ولبي الله هذا صفة الله هذا خيرة الله هذا أحب أهل الأرض إلى الله أجاب الله في دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته وعمل صالحًا في إجابته وقال إبني من المسلمين هذا خليفة الله.

وقوله تعالى: «ولا تستوي الحسنة ولا السيئة» أي فرق عظيم بين هذه وهذه «ادفع باليدي هي أحسن» أي من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه كما قال عمر رضي الله عنه: ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

وقوله عز وجل: «فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولد حميم» وهو الصديق أي إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك والحنون عليك حتى يصير كأنه ولد لك حميم أي قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك، ثم قال عز وجل: «وما يلقاها إلا الذين صبروا» أي وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك فإنه يشق على النفوس «وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم» أي ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر

(١) أخرجه البخاري في الأذان باب ١٤، ١٦، ومسلم في المسافرين حديث ٣٠٤، وأبو داود في التطوع باب ١١، والترمذى في الصلاة باب ٢٢، والنمسائى في الأذان باب ٣٩، وابن ماجه في الإقامة باب ١١، والدارمى في الصلاة باب ١٤٥، وأحمد في المستند ٨٦/٤، ٥٤/٥، ٥٦، ٥٧.

عند الغضب والحلم عند الجهل والعفو عند الإساءة فإذا فعلوا ذلك عصّهم الله من الشيطان
وخلّص لهم عدوهم كأنه ولی حميم^(١).

وَمِنْ أَيْتَهُ الْيَلَلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرُ لَا سَجَدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلنَّقَمَرِ وَسَجَدُوا لِللهِ
الَّذِي حَلَقَهُتْ إِنْ كُنْتُمْ إِيمَانًا تَعْبُدُونَ ۝ فَإِنْ آسَتَكُمْ بَرُوًا فَاللَّهُمَّ اعْنَدْرِيَكَ يُسْتَحْوِنُ لَهُ
يَا يَلَلَ وَالنَّهَارَ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ وَمِنْ أَيْتَهُ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَشْعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَهْزَأَتْ
وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا الْحَقِيقَ إِنَّمَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قُدْرَتُ ۝

يقول تعالى منبهاً خلقه على قدرته العظيمة وأنه الذي لا نظير له وأنه على ما يشاء قادر «ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر» أي أنه خلق الليل بظلماته والنهار بضيائه وهما متعاقبان لا يفترقان، والشمس ونورها وإشراقها والقمر وضياءه وتقدير منازله في فلكه واختلاف سيره في سمائه ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار والجمع والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق وأوقات العبادات والمعاملات. ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عباده تحت قهره وتسخيره فقال: «لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا للذي خلقهن إن كنتم إيمانكم تبعدون» أي ولا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره فإنه لا يغفر أن يشرك به ولهذا قال تعالى: «فإن استكرونا» أي عن إفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره «فالذين عند ربك» يعني الملائكة «يسبحون له بالليل والنهار

(١) انظر تفسير الطبرى ١١٢/١١.

(٢) روى الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه أبو داود في الصلاة باب ١١٩، ١٢٠، والترمذني في المواقف باب ٦٥، وابن ماجه في الإقامة باب ٢، والدارمي في الصلاة باب ٣٣، وأحمد في المسند ١٥٦/٦، ٤٠٣، ٤٠٤، ٥٠ ٣/٤، ٨٥، ٨٣، ٨١، ٨٠/٤.

وهم لا يسامون» كقوله عز وجل: «فَإِنْ يَكْفُرُ بَهَا هُؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلَنَا بَهَا قَوْمًا لَيْسُوا بَهَا بِكَافِرِينَ».

وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا سفيان يعني ابن وكيع حدثنا أبي عن ابن أبي ليلى عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الليل ولا النهار ولا الشمس ولا القمر ولا الرياح فإنها ترسل رحمة لقوم وعداباً لقوم». قوله: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَيُّ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى إِعَادَةِ الْمَوْتِيِّ» **أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةَ** أي هامدة لا نبات فيها بل هي ميتة **فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ** أي أخرجت من جميع ألوان الزروع والشمار **إِنَّمَا أَحْيَاهَا لِمَحْيِيِّ الْمَوْتِيِّ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**.

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيَءَيَّتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَيْنَاهُنَّ أَفَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ حَيْرَانَ مَنْ يَأْتِيَءَامَنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شَتَّمُ إِنَّمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَآجَاهَهُمْ وَإِنَّمَّا لَكِنَّبْ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِرَسُولِنِ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ

قوله تبارك وتعالى: «إن الذين يلحدون في آياتنا» قال ابن عباس: الإلحاد وضع الكلام على غير موضعه. وقال قتادة وغيره هو الكفر والعناد، قوله عز وجل: «لا يخفون علينا» فيه تهديد شديد ووعيد أكيد أي إنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنکال ولهذا قال تعالى: «أَفَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ حَيْرَانَ مَنْ يَأْتِيَءَامَنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ» أي أیستوي هذا وهذا؟ لا يستوبان. ثم قال عز وجل تهديداً للكفرا: «أَعْمَلُوا مَا شَتَّمُ» قال مجاهد والضحاك وعطاء الخراصاني «أَعْمَلُوا مَا شَتَّمُ» وعید أي من خير أو شر إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم ولهذا قال: «إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» ثم قال جل جلاله: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَآجَاهَهُمْ» قال الضحاك والسدي وقتادة وهو القرآن «وَإِنَّهُ لِكِتَابٍ عَزِيزٍ» أي منيع الجناب لا يرام أن يأتي أحد بمثله «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ» أي ليس للباطلان إليه سبيل لأنه منزل من رب العالمين ولهذا قال: «تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» أي حكيم في أقواله وأفعاله حميد بمعنى محمود أي في جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع محمودة عواقبه وغياثاته.

ثم قال عز وجل: «مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِرَسُولِنِ قَبْلِكَ» قال قتادة والسدي وغيرهما ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسول من قبلك فكما كذبت كذبوا وكما صبروا على أذى فوهم لهم فاصبر أنت على أذى قومك لك. وهذا اختيار ابن جرير^(١) ولم

يحك هو ولا ابن أبي حاتم غيره وقوله تعالى: «إن ربك لذو مغفرة» أي لمن تاب إليه «وذو عقاب أليم» أي لمن استمر على كفره وطغيانه وعناده وشقاقه ومخالفته، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال لما نزلت هذه الآية «إن ربك لذو مغفرة» قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتتجاوزه ما هناً أحداً العيش، ولو لا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد».

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَجَمِيعًا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ وَأَجْمَعُوا عَرَفَ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدَىٰ
وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْٰ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَّىٰ أُولَئِكَ يَنَادُونَكَ مِنْ مَكَانٍ
عَيْدِيٰ ۝ وَلَقَدْءَ أَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَبَ فَأَخْتَلَفُ فِيهِ ۝ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَّتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضَى بَيْنَهُمْ
وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ ۝

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاعاته وإحكامه في لفظه ومعناه ومع هذا لم يؤمن به المشركون نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت كما قال عز وجل: «ولو نزلناه على بعض الأعجميين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين» [الشعراء: ١٩٨ - ١٩٩] وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم لقالوا على وجه التعنت والعناد «لولا فصلت آياته أَعْجَمِي وَعَرَبِي» أي لقالوا هلا أنزل مفصلاً بلغة العرب ولأنكروا ذلك فقالوا أَعْجَمِي وَعَرَبِي أي كيف ينزل كلام أَعْجَمِي على مخاطب عربي لا يفهمه؟ هكذا روی هذا المعنى عن ابن عباس ومجاحد وعكرمة وسعيد بن جبیر والسدي وغيرهم؟ وقيل المراد بقولهم «لولا فصلت آياته أَعْجَمِي وَعَرَبِي» أي هل أنزل بعضها بالأَعْجَمِي وبعضها بالعربية؟ هذا قول الحسن البصري وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام في قوله أَعْجَمِي وهو رواية عن سعيد بن جبیر وهو في التعنت والعناد أبلغ.

ثم قال عز وجل: «قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء» أي قل يا محمد هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب «والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر» أي لا يفهمون ما فيه «وهو عليهم عمي» أي لا يهتدون إلى ما فيه من البيان كما قال سبحانه وتعالى: «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا» [الإسراء: ٨٢] «أولئك ينادون من مكان بعيد» قال مجاهد يعني بعيد من قلوبهم قال ابن جرير^(١) معناه كان من يخاطبهم يناديه من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول.

وقلت وهذا كقوله تعالى: «ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينزع بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون» [البقرة: ١٧١] وقال الضحاك ينادون يوم القيمة بأشنع أسمائهم. وقال السدي كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه: جالساً عند رجل من المسلمين

يقضى إذ قال: يا لبيكاه فقال له عمر رضي الله عنه لم تلبي، هل رأيت أحداً أو دعاك أحد؟ فقال دعاني داع من وراء البحر فقال عمر رضي الله عنه أولئك ينادون من مكان بعيد رواه ابن أبي حاتم. قوله تبارك وتعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه﴾ أي كذب وأوذى فاصبر كما صبر ألوه العزم من الرسل﴾ [الأحقاف: ٣٥] ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى﴾ [الشوري: ١٤] بتأخير الحساب إلى يوم المعاد ﴿لتقضي بينهم﴾ أي لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً ﴿ وإنهم لففي شك منه مريب﴾ أي وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا شاكين فيما قالوا غير محققين لشيء كانوا فيه، هكذا وجهه ابن جرير وهو محتمل، والله أعلم.

مَنْ عَمِلَ صَلِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿إِلَيْهِ يُرْدَ عِلْمُ الْسَّاعَةِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَتِ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أَثْنَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يُعْلَمُهُ وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ أَيْنَ شَرَكَاهُ فَأُولَئِكَ مَا دَنَّاكُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلٍ وَظَلَوْمًا مَا كُنْتُمْ مِنْ مُحَيِّصِينَ﴾

يقول تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه﴾ أي إنما يعود نفع ذلك على نفسه ﴿ومن أساء فعلها﴾ أي إنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿وما ربك بظلم للعبد﴾ أي لا يعاقب أحداً إلا بذنبه ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه ثم قال جل وعلا: ﴿إليه يرد علم الساعة﴾ أي لا يعلم ذلك أحد سواه كما قال محمد ﷺ وهو سيد البشر لجريل عليه الصلاة والسلام وهو من سادات الملائكة حين سأله عن الساعة فقال «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»^(١) وكما قال عز وجل: ﴿إلى ربك متنهها﴾ [النازعات: ٤٤] وقال جل جلاله: ﴿لا يجليلها لوقتها إلا هو﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أثني ولا تضع إلا بعلمه﴾ أي الجميع بعلمه لا يعزب عن علمه مثال ذرة في الأرض ولا في السماء وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وما تسقط من ورقه إلا يعلمها﴾ [الأنعام: ٥٩] وقال جلت عظمته: ﴿يعلم ما تحمل كل أثني وما تغيس الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار﴾ [الرعد: ٨] وقال تعالى: ﴿وما يعمر من عمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾ [فاطر: ١١] وقوله جل وعلا: ﴿وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ أَيْنَ شَرَكَاهُ﴾ أي يوم القيمة ينادي الله المشركين على رؤوس الخلق أي شركائي الذين عبدتهم معهم معي ﴿قَالُوا آذنَاك﴾ أي أعلمك ما من شهيد﴾ أي ليس أحد منا اليوم يشهد أن معك شريكًا ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلٍ﴾ أي

(١) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٣٧، وتفسير سورة ٣١، باب ٢، ومسلم في الإيمان حديث ١، ٥، ٧، وأبو داود في السنة باب ١٦، والترمذى في الإيمان باب ٤، والنمسائى في الإيمان باب ٥، ٦، وابن ماجه في المقدمة باب ٩، والفتن باب ٢٥، وأحمد في المسند ٤٢٦/٢.

ذهبوا فلم ينفعوهم ﴿وَظْنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مُحِيطٍ﴾ أي وظن المشركون يوم القيمة وهذا بمعنى اليقين ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مُحِيطٍ﴾ أي لا مجيد لهم عن عذاب الله كقوله تعالى : ﴿وَرَأَى الْمُجْرُمُونَ النَّارَ فَظْنُوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مُصْرَفًا﴾ [الكهف : ٥٣].

لَا يَسْتَهِنُ إِلَيْنَاهُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَلَنْ مَسْهُ الشَّرُّ فَيَوْسُ قَنُوطٌ ﴿١﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً فَتَنَّا مِنْ بَعْدِ صَرَّاءَ مَسْتَهْ لِيَقُولَنَّ هَذَا إِلَىٰ وَمَا أَطْنَانُ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رَجَعْنَا إِلَىٰ رَبِّنَا إِنَّا لِيَعْنَدُ لِلْحُسْنَىٰ فَلَنْتَنَّاهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنْذِيقَهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَثَانِ بِجَانِيهِ وَإِذَا مَسَهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٣﴾

يقول تعالى لا يمل الإنسان من دعاء ربه بالخير وهو المال وصحة الجسم وغير ذلك فإن مسه الشر وهو البلاء أو الفقر ﴿نَبْيُوسْ قَنُوطٌ﴾ أي يقع في ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسْتَهْ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أي إذا أصابه خير ورزق بعد ما كان في شدة ليقولن هذا لي إني كنت أستحقه عند ربى ﴿وَمَا أَطْنَانُ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي يكفر بقيام الساعة أي لأجل أنه خول نعمة يبطر ويغفر ويكره كما قال تعالى : ﴿كُلَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِيُطْغِي أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق : ٦ - ٧] ﴿وَلَئِنْ رَجَعْتَ إِلَىٰ رَبِّنَا إِنَّ لِي عَنْهُ لِلْحُسْنَىٰ﴾ أي ولئن كان ثم معاد فليحسن إلى ربى كما أحسن إلى في هذه الدار ، يتمنى على الله عز وجل مع إساءاته العمل وعدم اليقين قال الله تبارك وتعالى : ﴿فَلَنْتَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنْذِيقَهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنکال .

ثم قال تعالى : ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَثَانِ بِجَانِيهِ﴾ أي أعرض عن الطاعة واستكبر عن الانقياد لأوامر الله عز وجل كقوله جل جلاله : ﴿فَتَوْلِي بِرَكَنِهِ﴾ [الذاريات : ٣٩] ﴿وَإِذَا مَسَهُ الشَّرُّ﴾ أي الشدة ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي يطيل المسألة في الشيء الواحد فالكلام العريض ما طال لفظه وقل معناه والوجيز عكسه وهو ما قل ودل وقد قال تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَ الْإِنْسَانُ الضَّرَّ دُعَانًا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَا كَشَفْنَا عَنْهُ ضَرَّهُ مِنْ كَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرِّ مَسَهِ﴾ [يونس : ١٢] الآية .

قُلْ أَرَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلُّ مِنْهُ فِي شَقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٤﴾ سَرِّيْهُمْ مَا يَنْتَنَا فِي الْأَلَاقَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبْيَنَ لَهُمْ أَنَّهُ أَحَقُّ أَوْلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرَيَّةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴿٦﴾

يقول تعالى : ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ؟﴾ أي كيف ترون حالكم عند الذي أنزله على رسوله ؟ ولهذا قال عز وجل : ﴿مِنْ أَضَلُّ مِنْهُ فِي شَقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي في كفر وعناد ومشافة للحق ومسلك

بعيد من الهدى ثم قال جل جلاله: «سُرِّيهُمْ آيَاتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ» أي سنظر لهم دلالتنا وحججنا على كون القرآن حقاً متزلاً من عند الله على رسوله ﷺ بدلائل خارجية «فِي الْأَفَاقِ» من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان قال مجاهد والحسن والسدي : دلائل في أنفسهم قالوا: وقعة بدر وفتح مكة ونحو ذلك من الواقع التي حلت بهم نصر الله فيها محمداً ﷺ وصحابه وخذل فيها الباطل وحزبه ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهياكل العجيبة كما هو مبسوط في علم التشريع الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى وكذلك ما هو مجبر عليه من الأخلاق المتباعدة من حسن وقبح وغير ذلك وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله وقوته وحيله وحذره أن يجوزها ولا يتعداها كما أنسده ابن أبي الدنيا في كتابه التفكير والاعتبار عن شيخه أبي جعفر القرشي حيث قال وأحسن المقال:

فَانظُرْ إِلَيْكَ فِيْكَ مُعْبَرُ
الدُّنْيَا وَكُلَّ أَمْوَارِهِ عَبَرُ
ثُمَّ اسْتَقْلَلَ بِشَخْصِكَ الْكَبِيرُ
يَنْعَاهُ مِنْهُ الشَّعْرُ وَالْبَشَرُ
يُجِيئُهُ مِنْ أَنْ يُسْلِبَ الْحَذَرُ
وَأَحْقَقُهُ مِنْهُ بِمَالِهِ الْقَدْرُ
وَإِذَا نَظَرْتَ تُرِيدُ مُعْبَرًا
أَنْتَ الَّذِي تُمْسِي وَتُصْبِحُ فِي
أَنْتَ الْمَصْرُوفُ كَانَ فِي صَفَرٍ
أَنْتَ الَّذِي تَنْعَاهُ خَلْقَتَهُ
أَنْتَ الَّذِي تُعْطِي وَتُسْلِبُ لَا
أَنْتَ الَّذِي لَا شَيْءٌ مِنْهُ لَهُ

وقوله تعالى: «حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد» أي كفى بالله شهيداً على أفعال عباده وأقوالهم وهو يشهد أن محمداً ﷺ صادق فيما أخبر به عنه كما قال: «لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهادون» [النساء: ١٦٦] الآية. وقوله تعالى: «ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم» أي في شك من قيام الساعة ولهذا لا يتفكرون فيه ولا يعلمون له ولا يحذرون منه بل هو عندهم هدر لا يعبئون به وهو كائن لا محالة وواقع لا ريب فيه قال ابن أبي الدنيا: حدثنا أحمد بن إبراهيم حدثنا خلف بن تميم حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا سعيد الأنصاري قال: إن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس فإني لم أجتمعكم لأمر أحدثه فيكم، ولكن فكرت في هذا الأمر الذي أنتم إليه صائرتون فعلمتم أن المصدق بهذا الأمر أحمق والمكذب به هالك، ثم نزل.

ومعنى قوله رضي الله عنه إن المصدق به أحمق أي لأنه لا يعمل له عمل مثله ولا يحذر منه ولا يخاف من هوله وهو مع ذلك مصدق به موطن بوقوعه وهو مع ذلك يتمادي في لعنه وغفلته وشهواته وذنبه فهو أحمق بهذا الاعتبار والأحمق في اللغة ضعيف العقل، قوله والمكذب به هالك هذا واضح، والله أعلم. ثم قال تعالى مقرراً أنه على كل شيء قدير وبكل شيء محظ

وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى : ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مَحِيطٌ﴾ أي المخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته وتحت طي علمه وهو المتصرف فيها كلها بحكمه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن لا إله إلا هو .

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْ عَسْقٌ كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ أَلَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ أَعْلَمُ الْعَظِيمِ ثَكَادَ السَّمَاوَاتِ يَنْقَطِرُ مِنْ قَوْفَهُنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يَسْبِحُونَ حَمْدَ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنِ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَالَّذِينَ أَنْهَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلَاءُ اللَّهِ حَفِظْ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنَّ عَلَيْهِمْ بُوكِيلٌ

قد تقدم الكلام على الحروف المقاطعة. وقد روی ابن جریر ه هنا أثراً غريباً عجياً منكراً فقال: أخبرنا أحمـد بن زهـير حدـثـنا عبدـالـوهـابـ بنـنـجـدةـالـحوـطـيـ حدـثـناـأـبـوـالـمـغـيرـةـ عبدـالـقـدوـسـ بنـالـحجـاجـ عنـأـرـطـاـةـ بنـالـمنـذـرـ قالـ: جاءـ رـجـلـ إـلـىـ اـبـنـ عـبـاسـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـماـ فـقـالـ لهـ وـعـنـهـ حـذـيفـةـ بـنـ الـيـمانـ رـضـيـ اللـهـ تـعـالـىـ عـنـهـ: أـخـبـرـنـيـ عـنـ تـفـسـيرـ قـوـلـ اللـهـ تـعـالـىـ: «ـحـمـ عـسـقـ»ـ قـالـ فـأـطـرـقـ ثـمـ أـعـرـضـ عـنـهـ ثـمـ كـرـرـ مـقـالـتـهـ فـأـعـرـضـ عـنـهـ فـلـمـ يـجـبـهـ بـشـيـءـ وـكـرـهـ مـقـالـتـهـ، ثـمـ كـرـرـهـ ثـالـثـةـ فـلـمـ يـحـرـ إـلـيـهـ شـيـئـاـ فـقـالـ لـهـ حـذـيفـةـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ: أـنـيـثـكـ بـهـاـ قـدـ عـرـفـتـ لـمـ كـرـهـهـاـ؟ـ نـزـلـتـ فـيـ رـجـلـ مـنـ أـهـلـ بـيـتـهـ يـقـالـ لـهـ عـبـدـالـإـلـهـ أوـ عـبـدـالـلـهـ يـنـزـلـ عـلـىـ نـهـرـ مـنـ أـنـهـارـ المـشـرـقـ تـبـنـيـ عـلـيـهـ مـدـيـتـانـ يـشـقـ النـهـرـ بـيـنـهـمـ شـقـاـ فـإـذـاـ أـذـنـ اللـهـ تـبـارـكـ وـتـعـالـىـ فـيـ زـوـالـ مـلـكـهـمـ وـأـنـقـطـاعـ دـوـلـتـهـمـ وـمـدـتـهـمـ بـعـثـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ عـلـىـ إـحـدـاهـمـ نـارـاـ لـيـلـاـ فـتـصـبـحـ سـوـدـاءـ مـظـلـمـةـ قـدـ اـحـترـقـتـ كـأـنـهـاـ لـمـ تـكـنـ مـكـانـهـاـ وـتـصـبـحـ صـاحـبـتـهاـ مـتـعـجـبـةـ كـيـفـ أـفـلـتـ؟ـ فـمـاـ هـوـ إـلـاـ بـيـاضـ يـوـمـهـاـ ذـلـكـ حـتـىـ يـجـتـمـعـ فـيـهـاـ كـلـ جـبـارـ عـنـيدـ مـنـهـمـ ثـمـ يـخـسـفـ اللـهـ بـهـاـ وـبـهـمـ جـمـيـعـاـ فـذـلـكـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ: «ـحـمـ عـسـقـ»ـ يـعـنيـ عـزـيـمةـ مـنـ اللـهـ تـعـالـىـ وـفـتـنـةـ وـقـضـاءـ حـمـ عـيـنـ يـعـنيـ عـدـلـاـ مـنـهـ سـيـنـ:ـ يـعـنيـ سـيـكـونـ قـ:ـ يـعـنيـ وـاقـعـ بـهـاتـينـ الـمـدـيـتـيـنـ.

وأغرب منه ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في الجزء الثاني من مسنـدـ اـبـنـ عـبـاسـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ وـعـنـ أـبـيـ ذـرـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ عـنـ النـبـيـ ﷺـ فـيـ ذـلـكـ وـلـكـ إـسـنـادـ ضـعـيفـ جـداـ وـمـنـقـطـعـ فـإـنـهـ قـالـ: حـدـثـنـاـ أـبـوـ طـالـبـ عـبـدـ الـجـبـارـ بـنـ عـاصـمـ حـدـثـنـاـ أـبـوـ عـبـدـ اللـهـ الـحـسـنـ بـنـ يـحـيـىـ الـخـشـنـيـ الدـمـشـقـيـ عـنـ أـبـيـ مـعـاوـيـةـ قـالـ: صـعـدـ عـمـرـ بـنـ الـخـطـابـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ الـمـنـبـرـ فـقـالـ: أـيـهـاـ النـاسـ هـلـ سـمـعـ مـنـكـمـ أـحـدـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ يـفـسـرـ «ـحـمـ عـسـقـ»ـ فـوـثـبـ اـبـنـ عـبـاسـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ فـقـالـ أـنـاـ،ـ قـالـ حـمـ اـسـمـ مـنـ أـسـمـاءـ اللـهـ تـعـالـىـ،ـ قـالـ فـعـيـنـ؟ـ قـالـ عـاـيـنـ الـمـوـلـوـنـ عـذـابـ يـوـمـ بـدـرـ،ـ قـالـ فـسـيـنـ؟ـ قـالـ سـيـعـلـمـ الـذـيـنـ ظـلـمـوـاـيـ مـنـقـلـبـ يـنـقـلـبـوـنـ،ـ قـالـ فـقـافـ؟ـ فـسـكـتـ فـقـامـ أـبـوـ ذـرـ فـسـرـ كـمـاـ قـالـ اـبـنـ عـبـاسـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـمـ وـقـالـ قـافـ قـارـعـةـ مـنـ السـمـاءـ تـعـشـىـ النـاسـ.ـ وـقـوـلـهـ عـزـ وـجـلـ:ـ كـذـلـكـ يـوـحـىـ إـلـيـكـ وـإـلـىـ الـذـيـنـ مـنـ قـبـلـكـ أـلـلـهـ الـعـزـيـزـ الـحـكـيمـ»ـ أـيـ كـمـاـ أـنـزـلـ إـلـيـكـ هـذـاـ الـقـرـآنـ

كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك. قوله تعالى: ﴿الله العزيز﴾ أي في انتقامته ﴿الحكيم﴾ في أقواله وأفعاله.

قال الإمام مالك رحمة الله عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن الحارث بن هشام سأله رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه على فيفصّم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يأتيني الملك رجلاً فيكلمني فأعاني ما يقول» قالت عائشة رضي الله عنها فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصّم عنه وإن جبيه ﷺ ليتفصّد عرفاً^(١). آخر جاه في الصحيحين ولفظه للبخاري.

وقد رواه الطبراني عن عبد الله ابن الإمام أحمد عن أبيه عن عامر بن صالح عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها عن الحارث بن هشام أنه سأله رسول الله ﷺ كيف ينزل عليك الوحي ؟ فقال ﷺ : « في مثل صلصلة الجرس فيفصّم عنك وقد وعيت ما قاله - وقال - وهو أشدّه على - قال - وأحياناً يأتيني الملك فيتمثل لي فيكلمني فأعى ما يقول »^(٢) . وقال الإمام أحمد^(٣) : حدثنا قتيبة حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن عمرو بن الوليد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله هل تحس بالوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أسمع صلاصل ثم أسكّن عند ذلك فما من مرة يوحى إلي إلا ظنت أن نفسي تقبس » تفرد به أحمد ، وقد ذكرنا كيفية إتيان الوحي إلى رسول الله ﷺ في أول شرح البخاري بما أعنيه عن إعادته هنا والله الحمد والمنة .

وقوله تبارك وتعالى: «لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» أي الجميع عبيد له وملك له تحت قهره وتصريفه «وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ» كقوله تعالى: «الْكَبِيرُ الْمُتَعَالُ» [الرعد: ٩] وهو العلي الكبير» [سبأ: ٢٣] والآيات في هذا كثيرة.

وقوله عز وجل: «تكاد السموات يتفترن من فوقهن» قال ابن عباس رضي الله عنهم والضحاك وقتادة والسدي وكعب الأحبار أي فرقاً من العظمة^(٤) «والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض» قوله جل وعلا: «الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً» [غافر : ٧] قوله جل جلاله: «ألا إن الله هو الغفور الرحيم» إعلام بذلك وتنويه به ، وقوله

(١) أخرجه البخاري في بده الوفي باب ٢، والترمذى في المناقب باب ٧، والنمساني في الافتتاح باب ٣٧، ومالك في القرآن حديث ٧، وأحمد في المسند ٦/٢٥٧.

(٢) أخرجه أحمد في المستد ٦/١٥٨.

(٣) المسند / ٢٢٢ .

^{٤)} انظر نفس الطريقة ١٢٨/١١

سبحانه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ﴾ يعني المشركين ﴿اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِم﴾ أي شهيد على أعمالهم يحصيها ويعدها عدًا، وسيجزيهم بها أقرب الجزاء ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل.

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أَمَّا الْقُرْبَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَرَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَأَوْشَاءَ اللَّهُ لَجَاعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكُنْ يُدْخَلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا هُمْ مِنْ قَوْلٍ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾

يقول تعالى وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي واضحًا جلياً بينما ﴿لِتُنذِرَ أَمَّا الْقُرْبَى﴾ وهي مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي من سائر البلاد شرقاً وغرباً، وسميت مكة أم القرى لأنها أشرف من سائر البلاد لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها، ومن أوجز ذلك وأدله ما قال الإمام أحمد^(١): حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهرى حدثنا أبو سلمة بن عبد الرحمن قال: إن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهرى أخبره أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحزورة^(٢) في سوق مكة «واله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»^(٣) وهكذا رواية الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث الزهرى به وقال الترمذى حسن صحيح.

وقوله عز وجل: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ وهو يوم القيمة يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد وقوله تعالى: ﴿لَا رَبِّ فِيهِ﴾ أي لا شك في قوته وأنه كائن لا محالة.

وقوله جل وعلا: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمِعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابْنِ﴾ [التغابن: ٩] أي يغبن أهل الجنة أهل النار، وقوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لِهِ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ وَمَا نُؤْخِرُهُ إِلَّا لِأَجْلٍ مَعْدُودٍ يَوْمٌ يَأْتِ لَا تَكُلُّ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيقٌ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٣ - ١٠٥].

قال الإمام أحمد^(٤) حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا ليث حدثني أبو قبيل المعافري عن شفي الأصبهي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟» قال: قلنا لا إلا أن تخبرنا يا رسول الله. قال ﷺ للذى في يده اليمنى: «هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء آباءهم وقبائلهم - ثم

(١) المسند ٤ / ٣٠٥.

(٢) الحزورة: موضع بسكة.

(٣) أخرجه الترمذى في المناقب باب ٦٨ ، وابن ماجه في المناسك باب ١٠٣ ، واندارمي في السير باب

.٦٦

(٤) المسند ٢ / ١٦٧ .

أجمل^(١) على آخرهم - لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبداً - ثم قال ﷺ للذى فى يساره: هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبداً» فقال أصحاب رسول الله ﷺ فلائي شيء نعمل إن كان هذا الأمر قد فرغ منه فقال رسول الله ﷺ «سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختتم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل، وإن صاحب النار يختتم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل» ثم قال^(٢) ﷺ بيده فقبضها ثم قال «فرغ ربكم عز وجل من العباد - ثم قال باليمين فنبذ بها فقال فريق في الجنة - ونبذ باليسرى وقال - فريق في السعير»^(٣) وهكذا رواه الترمذى والنسائى جمیعاً عن قتيبة عن الليث بن سعد وبكر بن مضر كلاهما عن أبي قبيل عن شفى بن مانع الأصبهى عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما به.

وقال الترمذى حسن صحيح غريب وساقه البغوى في تفسيره من طريق بشر بن بكر عن سعيد بن عثمان عن أبي الزاهرية عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهم عن النبي ﷺ فذكره بنحوه وعنده زيادات منها - ثم قال: فريق في الجنة وفريق في السعير عدل من الله عز وجل - ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن عبد الله بن صالح كاتب الليث عن الليث به ورواه ابن جرير^(٤) عن يونس عن ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن أبي قبيل عن شفى عن رجل من الصحابة رضي الله عنهم ذكره.

ثم روى عن يونس عن ابن وهب عن عمرو بن الحارث وحبيبة بن شريح عن يحيى بن أبي أسميد أن أبي فراس حدثه أنه سمع عبد الله بن عمرو رضي الله عنهمما يقول: إن الله تعالى يقول: إن الله تعالى لما خلق آدم نفشه نفشه المزود^(٥) وأخرج منه كل ذريته فخرج أمثال النعف^(٦) فقبضهم قضتين ثم قال شقي وسعيد ثم ألقاهمما ثم قبضهما فقال فريق في الجنة وفريق في السعير^(٧) وهذا الموقف أشبه بالصواب والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقال الإمام أحمد^(٨) حدثنا عبد الصمد حدثنا حماد يعني ابن سلمة أخبرنا الجرجيري عن أبي نصرة قال: إن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ يقال له أبو عبد الله دخل عليه أصحابه يعني يزورونه

(١) أجمل على آخرهم: أي جمعوا وأحصوا فلا يزداد عليهم ولا ينقص.

(٢) قال بيده: أي أشار بيده.

(٣) أخرجه الترمذى في القدر باب ٨.

(٤) تفسير الطبرى ١١/١٣٠.

(٥) المزود: وعاء للزاد.

(٦) النعف: هو دود يكون في أنوف الإبل والغنم.

(٧) انظر تفسير الطبرى ١١/١٣٠.

(٨) المسند ٤/١٧٦ ، ٥/٦٨.

فوجدوه يبكي، فقالوا له ما يبكيك؟ ألم يقل لك رسول الله ﷺ خذ من شاربك ثم أفره حتى تلقاني، قال بلى ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى قبض بيمنيه قبضة وأخرى باليد الأخرى قال هذه لهذه وهذه لها أبالي» فلا أدرى في أي القبضتين أنا وأحاديث القدر في الصحاح والسنن والمسانيد كثيرة جداً منها حديث علي وابن مسعود وعائشة وجماعة جمة رضي الله عنهم أجمعين.

وقوله تبارك وتعالى: «ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة» أي إما على الهدایة أو على الضلاله ولكنها تعالى فاوت بينهم فهدي من يشاء إلى الحق وأفضل من يشاء عنه وله الحکمة والحجۃ البالغة ولهذا قال عز وجل: «ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولی ولا نصیر».

وقال ابن جرير^(١) حديثي يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني عمرو بن العمارث عن أبي سويد أنه حديثه عن ابن حجيرة أنه بلغه أن موسى عليه الصلاة والسلام قال: يا رب خلقك الذين خلقتهم جعلت منهم فريقاً في الجنة وفريقاً في النار لو ما أدخلتهم كلهم الجنة فقال يا موسى ارفع ذراعك فرفع قال قد رفعت قال ارفع فلما يترك شيئاً قال يا رب قد رفعت قال ارفع قال قد رفعت إلا ما لا خير فيه قال كذلك أدخل خلقي كلهم الجنة إلا ما لا خير فيه.

أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِيَّةٍ أَوْ لِيَّةَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَيْدُ وَهُوَ يَعْنِي الْمَوْتَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَمَا أَحْلَفْتُمُ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمْتُ إِلَيَّ اللَّهُ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّ عَلَيْهِ تَوْكِلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝ فَاطْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَمِ أَزْوَاجًا يَذْرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَسْطُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ ۝

يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله ومحيراً أنه هو الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده فإنه هو القادر على إحياء الموتى وهو على كل شيء قادر، ثم قال عز وجل: «وما اختلفتم في من شيء فحكمه إلى الله» أي مهما اختلفتم في من الأمور وهذا عام في جميع الأشياء «فحكمه إلى الله» أي هو الحكم فيه بكتابه وسنة نبيه ﷺ كقوله جل وعلا: «فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» [النساء: ٥٩] «ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي» أي الحكم في كل شيء «عليه توكلت وإلَيْه أُنِيب» أي أرجع في جميع الأمور.

وقوله جل جلاله: «فاطر السموات والأرض» أي خالقهما وما بينهما «جعل لكم من أنفسكم أزواجاً» أي من جنسكم وشكلكم منه عليكم وتفضلاً جعل من جنسكم ذكراً وأنثى «ومن الأنعام أزواجاً» أي وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج. قوله تبارك وتعالى:

(١) تفسير الطبرى ١٣٠ / ١١.

﴿يَذْرُؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي يخلقكم فيه أي في ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذرؤكم فيه ذكوراً وإناثاً خلقاً من بعد خلق وجيلاً بعد جيل ونسلاً بعد نسل من الناس والأنعام وقال البغوي رحمة الله يذرؤكم فيه أي في الرحم وقيل في البطن وقيل في هذا الوجه من الخلقة. قال مجاهد نسلاً من الناس والأنعام، وقيل في معنى الباء أي يذرؤكم به ﴿لَيْسَ كَمُثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي ليس كخالق الأزواج كلها شيء لأن الفرد الصمد الذي لا نظير له ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَابِلُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقدم تفسيره في سورة الزمر وحاصل ذلك أنه المتصرف الحاكم فيهما ﴿يُبَسِّطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء وله الحكمة والعدل التام ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّنَّى لَهُ، نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْتَ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا لَهُ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِمُوا الدِّينَ وَلَا تُنَفِّرُوا فِيهِ كُبُرَ عَلَى الْمُسَرِّكِينَ مَا لَدُنْهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُونَ إِلَيْهِ مِنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي حِلْيَةَ مَن يُنِيبُ وَمَا نَنْفِرُ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْدَ آيَاتِنَّاهُمْ وَلَوْلَا كُلَّمَا سَبَقَتْ مِنْ رَيْكَ إِلَيْكَ أَجْلٌ مُّسَمَّى لَفَضَّى بَيْنَهُمْ وَلَمَّا الَّذِينَ أُرْثَوُا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مَّنْهُ مُرِيبٌ﴾

يقول تعالى لهذه الأمة: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّنَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكُ﴾ فذكر أول الرسل بعد آدم عليه السلام وهو نوح عليه السلام وأخرهم محمد ﷺ. ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم وهم إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم عليهم السلام وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة كما اشتملت آية الأحزاب عليهم في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخْذَنَا مِنَ النَّبِيِّنَ مِثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنَ مَرِيمٍ﴾ [الأحزاب: ٧] الآية والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نَوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وفي الحديث «نحن عشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد»^(١) أي القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له وإن اختللت شرائعهم ومناهجهم كقوله جل جلاله: ﴿لَكُلِّ جَعْلَنَا مِنْكُمْ شَرِيعَةٌ وَمِنْهَا جَاجَةٌ﴾ [المائدة: ٤٨] ولهذا قال تعالى هنـا: ﴿أَنْ أَقِمُوا الدِّينَ وَلَا تُنَفِّرُوا فِيهِ﴾ أي وصـى الله تعالى جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالاتلاف والجماعـة. ونهـاهم عن الافتراق والاختلاف.

وقوله عز وجل: ﴿كَبَرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي شـق عليهم وأنكروا ما تدعـونـهم إـليـهـ يا مـحمدـ من التـوـحـيدـ. ثـمـ قـالـ جـلـ جـلالـهـ: ﴿اللـهـ يـعـجـبـيـ إـلـيـهـ مـنـ يـشـاءـ وـيـهـدـيـ إـلـيـهـ مـنـ يـنـبـيـ﴾ أي هو الذي يقدر الهدـاـيةـ لـمـنـ يـسـتحقـهاـ وـيـكـتبـ الضـلـالـةـ عـلـىـ مـنـ آثـرـهاـ عـلـىـ طـرـيقـ الرـشـدـ، ولـهـذا

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء باب ٤٨، ومسلم في الفضائل حديث ١٤٣، ١٤٤، وأبو داود في السنـةـ بـابـ . ١٣

قال تبارك وتعالى : «وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم» أي إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم وقيام الحجة عليهم وما حملهم على ذلك إلا البغى والعناد والمشقة ثم قال عز وجل : «ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى» أي لو لا الكلمة السابقة من الله تعالى بإيذان العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاش لجعل عليهم العقوبة في الدنيا سريعاً . قوله جلت عظمته : « وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم » يعني الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذب للحق « لفِي شَكْ مِنْهُ مَرِيبٌ » أي ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم وإنما هم مقلدون لأبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا برهان وهم في حيرة من أمرهم وشك مرير وشقاق بعيد .

فَلَدَّالَّكَ فَادَعَ وَاسْتَقِمْ كَمَا أَمْرَتَ وَلَا تَنْعِيْ أَهْوَاءَكُمْ وَقُلْ إِمَانُنَا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ
وَأَمْرُتُ لِأَعْدِلَ يَنْكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلَنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَيَنْكُمُ اللَّهُ
يَجْمِعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ [٤١]

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات كل منها منفصلة عن التي قبلها حكم برأسه ، قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسي ، فإنها أيضاً عشرة فصول كهذه . قوله : «فلذلك فادع» أي فللذى أوحينا إليك من الدين الذى وصينا به جميع المرسلين قبلك ، أصحاب الشرائع الكبار المتبعه كأولي العزم وغيرهم فادع الناس إليه . قوله عز وجل : « واستقم كما أمرت» أي واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله تعالى كما أمركم الله عز وجل ، قوله تعالى : « ولا تتبع أهواءهم» يعني المشركين فيما اختلفوا فيه وكذبوا وافتروه من عبادة الأوثان .

وقوله جل وعلا : «وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب» أي صدق بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء لا نفرق بين أحد منهم . قوله : « وأمرت لأعدل بينكم» أي في الحكم كما أمرني الله ، قوله جلت عظمته : « الله ربنا وربكم» أي هو المعبود لا إله غيره فنحن نقر بذلك اختياراً وأنتم وإن لم تفعلوه اختياراً فله يسجد من في العالمين طوعاً واختياراً . قوله تبارك وتعالى : « لنا أعملنا ولكم أعمالكم» أي نحن براء منكم ، كما قال سبحانه وتعالى : « وإن كذبوا فقل لي عملي ولكم عملكم أنت بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون» [يونس: ٤١] قوله تعالى : « لا حجة بيننا وبينكم» قال مجاهد: أي لا خصومة . قال السدي: وذلك قبل نزول آية السيف ، وهذا متوجه لأن هذه الآية مكية ، وأية السيف بعد الهجرة . قوله عز وجل : « الله يجمع بيننا» أي يوم القيمة ، قوله : « قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم» قوله جل وعلا : « وإليه المصير» أي المرجع والمأب يوم الحساب .

وَالَّذِينَ يُحَاجُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا أَسْتَجَبْتَ لَهُ جَهَنَّمْ دَاهِخَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١﴾ إِنَّ اللَّهَ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لِعَلَى السَّاعَةِ قَرِيبٌ ﴿٢﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارِرُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

يقول تعالى متوعداً الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به: «والذين يجاجون في الله من بعد ما استجيب له» أي يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى (حجتهم داحضة عند ربهم) أي باطلة عند الله «وعليهم غضب» أي منه «ولهم عذاب شديد» أي يوم القيمة، قال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد: جادلوا المؤمنين بعد ما استجابوا لله ولرسوله ليصدوهم عن الهدى وطمعوا أن تعود الجاهلية، وقال قتادة: هم اليهود والنصارى قالوا لها: ديننا خير من دينكم ونبينا قبل نبيكم ونحن خير منكم وأولى بالله منكم^(١)، وقد كذبوا في ذلك. ثم قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ» يعني الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه (والميزان) وهو العدل والإنصاف، قاله مجاهد وقتادة، وهذه كقوله تعالى: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رَسُولًا إِلَيْكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ وَنَذَرْنَا مِنْ أَنفُسِنَا وَأَنَّا مَعَكُمْ وَلَا تَخْسِرُوا الْمِيزَانَ» [الحج: ٢٥] قوله: «وَالسَّمَاء رَفِعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَا تَطْغُوا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَخْسِرُوا الْمِيزَانَ» [الرحمن: ٩-٧].

وقوله تبارك وتعالى: «وَمَا يُدْرِيكَ لِعَلَى السَّاعَةِ قَرِيبٌ» فيه ترغيب فيها وترهيب منها وتزهيد في الدنيا، قوله عز وجل: «يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا» أي: يقولون «متى هذا الوعد إن كنتم صادقين» [سبأ: ٢٩]، وإنما يقولون ذلك تكذيباً واستبعاداً وكفراً وعناداً «وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا» أي خائفون وجلوس من وقوعها «وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ» أي كائنة لا محالة، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها.

وقد روی من طرق تبلغ درجة التواتر في الصحاح والحسن والسنن والمسانيد، وفي بعض الفتاواه أن رجلاً سأله رسول الله ﷺ بصوت جهوري وهو في بعض أسفاره، فناداه فقال: يا محمد، فقال له رسول الله ﷺ نحواً من صوته: «هاؤم»، فقال له: متى الساعة؟ فقال رسول الله ﷺ: «ويحك إنها كائنة فما أعددت لها؟» فقال: حب الله ورسوله، فقال ﷺ: «أنت مع من أحبت»^(٢)، فقوله في الحديث «المرء مع من أحب»^(٣) هذا متواتر لا محالة،

(١) انظر تفسير الطبرى ١٣٩/١١.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب ٦، والأدب باب ٩٥، ومسلم في البر حديث ١٦١، والدارمي في الرقاق باب ٧١.

(٣) روی الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الأدب باب ٩٦، ومسلم في البر حديث =

والغرض أنه لم يجده عن وقت الساعة بل أمره بالاستعداد لها.

وقوله تعالى: «أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يَمْارِنُونَ فِي السَّاعَةِ» أي يجادلون في وجودها ويدفعون وقوعها «فَلَمَّا نَبَغَّلَ بَعْدُ» أي في جهل بين، لأن الذي خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأخرى، كما قال تعالى: «وَهُوَ الَّذِي يَبْدِأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْيِدُهُ وَهُوَ أَهُونُ عَلَيْهِ» [الروم: ٢٧].

الله أطيف بعباده يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرَثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَهُ فِي حَرَثِهِ، وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرَثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢﴾ أَمْ لَهُمْ شَرَكَةٌ هُوَ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الْذِينَ يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ إِمَّا تَنْعَمُوا وَعَمِلُوا أَصْنَلَحَتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ هُمْ مَا يَشَاءُونَ إِنَّ رَبَّهُمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن لطفه بخلقه في رزقه إياهم عن آخرهم لا ينسى أحداً منهم، سواء في رزقه البر والفاجر، كقوله عز وجل: «وَمَا مِنْ دَابَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مَسْتَقْرِئَهَا وَمَسْتَوْدِعَهَا كُلُّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» [هود: ٦] ولها نظائر كثيرة، وقوله جل وعلا: «يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ» أي يوسع على من يشاء «وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ» أي لا يعجزه شيء ثم قال عز وجل: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرَثَ الْآخِرَةِ» أي عمل الآخرة «نَزَدَ لَهُ فِي حَرَثِهِ» أي نقويه ونعيشه على ما هو بصدده ونكتره نماءه ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله **(وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرَثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ)** أي وإنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا وليس له إلى الآخرة هم البتة بالكلية حرمه الله الآخرة والدنيا إن شاء أعطاها منها وإن لم يشاً لم يحصل لا هذه ولا هذه، وفاز هذا الساعي بهذه النية بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة، والدليل على هذا أن هذه الآية هنا مقيدة بالآية التي في سبحان وهي قوله تبارك وتعالى: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ العاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءَ لَمْ كُنْ نَرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانُوا سَعَيْهِمْ مَشْكُورًا كَلَّا نَمْدَهُؤُلَاءِ وَهُؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * انْظُرْ كَيْفَ فَضَلَّنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا» [الإسراء: ١٨ - ٢١].

وقال الشوري عن مغيرة عن أبي العالية عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال

= ١٦٥ ، والترمذني في الزهد باب ٥٠ ، والدعوات باب ٩٨ ، والدارمي في الرفاق باب ٧١ ، وأحمد في المستند ١/٣٩٢ ، ٣٩٢/٣ ، ١٠٤/١١٠ ، ١٠٤/١١١ ، ١٥٩ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٠ ، ١٩٨ ، ٢٠٨ ، ٢٠٧ ، ٢٠٧/٤ ، ٣٩٤ ، ٣٣٦ ، ٢٨٣ ، ٢٧٦ ، ٢٦٨ ، ٢٥٥ ، ٢٢٨ ، ٢٢٦ ، ٢٢٢ ، ٢١٣ ، ٢٠٨ ، ٢٠٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٣٩٨ ، ٣٩٥ ، ٣٩٢ ، ٢٣٩ ، ١٦٠ . ٤٠٥

رسول الله ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسناء والرفة والنصر والتكمين في الأرض فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب»^(١) وقوله جل وعلا: «أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءٌ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذِنْ بِهِ اللَّهُ» أي هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس من تحريم ما حرموا عليهم من البحيرة والسائلة والوصيلة والحام، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة التي كانوا قد اخترعواها في جاهليتهم من التحليل والتحريم والعبادات الباطلة والأقوال الفاسدة.

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت عمرو بن لحي بن قمعة يجر قصبه في النار»^(٢) لأنَّه أول من سبَّ السوائب، وكان هذا الرجل أحد ملوك خزانة وهو أول من فعل هذه الأشياء وهو الذي حمل قريشاً على عبادة الأصنام لعن الله وقبحه ولهذا قال تعالى: «وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفَضَيْ بِيْنَهُمْ» أي لعوجلوا بالعقوبة لولا ما تقدم من الإنذار إلى يوم المعاد «وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أي شديد موجع في جهنم وبئس المصير.

ثم قال تعالى: «تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفَقِينَ مَا كَسَبُوا» أي في عرصات القيمة «وَهُوَ واقع بهم» أي الذي يخافون منه واقع بهم لا محالة هذا حالهم يوم معادهم وهم في هذا الخوف والوجل «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رُوضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ» فأين هذا من هذا؟ أين من هو في العرصات في الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه ممن هو في روضات الجنات فيما يشاء من مأكل ومشارب وملابس ومساكن ومناظر ومناكح وملاذ فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. قال الحسن بن عرفة: حدثنا عمرو بن عبد الرحمن الآبار، حدثنا محمد بن سعد الأنباري عن أبي طيبة قال إن الشرب من أهل الجنة لتظلهم السحابة فتقول ما أمرتكم؟ قال لما يدعوه داع من القوم بشيء إلا أمرتهم حتى أن القائل منهم ليقول أمطرينا كواكب أثواباً. ورواه ابن جرير عن الحسن بن عرفة به، ولهذا قال تعالى: «ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ» أي الفوز العظيم والنعمة التامة الشاملة العامة.

ذَلِكَ الْأَكْبَرُ اللَّهُ عِبَادُهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُوَدَةُ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْرَئُ حَسَنَةً تَزِدُهُ فِيهَا حُسْنَةٌ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَيْبَأٌ فَإِنْ يَشَاءُ اللَّهُ يَعْلَمُ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَعْلَمُ اللَّهُ الْأَبْطَلُ وَمَنْ يَحْكُمُ الْحَقَّ يَكْلِمُهُ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الْأَصْدُورِ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنات، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات «ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات» أي هذا حاصل لهم كائن لا محالة ببشارة الله

(١) أخرجه أحمد في المسند ١٣٤ / ٥.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب باب ٩، ومسلم في الجنة حديث ٥٠.

تعالى لهم به. قوله عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمُوْدَةُ فِي الْقُرْبَى﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش لا أسألكم على هذا البلاغ والتصح لكم ما لا تعطونيه وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عنني وتذروني أبلغ رسالات ربى إن لم تتصرونني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة.

قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن عبد الملك بن ميسرة قال: سمعت طاوساً يحدث عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قوله تعالى ﴿إِلَّا الْمُوْدَةُ فِي الْقُرْبَى﴾ فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد فقال ابن عباس: عجلت إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قربة فقال إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة^(١)، انفرد به البخاري، ورواه الإمام أحمد عن يحيى القطان عن شعبة به، وهكذا روى عامر الشعبي والضحاك وعلي بن أبي طلحة والعوفي ويوسف بن مهران وغير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما مثله، وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي وأبو مالك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم.

وقاله الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا هشام بن القاسم بن يزيد الطبراني وجعفر القلانيسي قالا: حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شريك عن خصيف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال لهم رسول الله ﷺ: «لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا أَنْ تُوْدُنِي فِي نَفْسِي لِقَرَابَتِي مِنْكُمْ وَتَحْفَظُوا الْقَرَابَةَ الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ» وروى الإمام أحمد^(٢) عن حسن بن موسى، حدثنا قزعة يعني ابن سويد وبن أبي حاتم عن أبيه عن مسلم بن إبراهيم عن قزعة بن سويد عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَى مَا أَتَيْتُكُمْ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهَدَى أَجْرًا إِلَّا أَنْ تَوَادُوا اللَّهُ وَأَنْ تَقْرُبُوا إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ» وهكذا روى قتادة عن الحسن البصري مثله وهذا كأنه تفسير بقول ثان كأنه يقول ﴿إِلَّا الْمُوْدَةُ فِي الْقُرْبَى﴾ أي إلا أن تعملا بالطاعة التي تقركم عند الله زلفى. وقول ثالث وهو ما حكاه البخاري وغيره رواية عن سعيد بن جبير ما معناه أنه قال معنى ذلك أن تودونني في قرابتي أي تحسنوا إليهم وتبوروهم.

وقال السدي عن أبي الدليل قال: لما جاءه علي بن الحسين رضي الله عنه أسيراً فأقيمت على درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال الحمد لله الذي قتلتم و واستأصلتم وقطع قرني الفتنة^(٣) فقال له علي بن الحسين رضي الله عنه: أقرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: أقرأت آل حم؟ قال: قرأت القرآن ولم أقرأ آل حم، قال: ما قرأت ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمُوْدَةُ

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٤٢ باب ١، وأحمد في المسند ١/ ٢٢٩ ، ٢٨٣ .

(٢) المسند ١/ ٢٦٨ .

(٣) أي استأصل الفتنة.

في القربي^(١) قال: وإنكم لأنتم هم ؟ قال: نعم، وقال أبو إسحاق السباعي: سألت عمرو بن شعيب عن قوله تبارك وتعالى: «قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربي» فقال: قربي النبي ﷺ رواهما ابن جرير^(٢).

ثم قال ابن جرير^(٢): حدثنا أبو كريب، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا عبد السلام، حدثني يزيد بن أبي زياد عن مقدم عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قالت الأنصار: فعلنا وفعلنا وكأنهم فخروا، فقال ابن عباس أو العباس رضي الله عنهما - شك عبد السلام - لنا الفضل عليكم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتاهم في مجالسهم فقال: «يا معاشر الأنصار ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بي ؟» قالوا بلى يا رسول الله قال ﷺ: «ألم تكونوا ضلالاً فهذاكم الله بي ؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «أفلا تجيوني ؟» قالوا: ما نقول يا رسول الله ؟ قال: «ألا تقولون ألم يخرجك قومك فأؤيناك أولم يكنبوك فصدقناك أولم يخذلوك فنصرناك» قال: فما زال ﷺ يقول حتى جثوا على الركب، وقالوا: أموالنا في أيدينا الله ولرسوله، قال: فنزلت «قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربي» وهكذا روا ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين عن عبد المؤمن بن علي، عن عبد السلام عن يزيد بن أبي زياد وهو ضعيف بإسناده مثله أو قريباً منه.

وفي الصحيحين في قسم غنائم حنين قريب من هذا السياق ولكن ليس فيه ذكر نزول هذه الآية، وذكر نزولها في المدينة فيه نظر لأن السورة مكية وليس يظهر بين هذه الآية وبين السياق مناسبة، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا رجل سماه، حدثنا حسين الأشقر عن قيس عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: لما نزلت هذه الآية «قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربي» قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم ؟ قال: «فاطمة وولدها رضي الله عنهم» وهذا إسناد ضعيف فيه مبهم لا يعرف عن شيخ شيعي مخترق وهو حسين الأشقر ولا يقبل خبره في هذا المحل، وذكر نزول الآية في المدينة بعيد فإنها مكية ولم يكن إذ ذاك لفاطمة رضي الله عنها أولاد بالكلية فإنها لم تتزوج يعني رضي الله عنه إلا بعد بدر من السنة الثانية من الهجرة والحق تفسير هذه الآية بما فسرها به حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم كما رواه عنه البخاري ولا تنكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخراً وحسباً ونسباً، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية

(١) انظر تفسير الطبرى ١٤٤/١١.

(٢) تفسير الطبرى ١٤٤/١١.

الصحيحه الواضحة الجلية، كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنيه وعلي وأهل بيته وذراته رضي الله عنهم أجمعين.

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بغدير خم: «إنني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي، وإنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض»^(١) وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله إن قريشاً إذا لقي بعضهم بعضاً لقوهم ببشر حسن، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها، قال: فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً وقال «والذي نفسي بيده لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحكم الله ورسوله».

ثم قال أحمد^(٣): حدثنا جرير عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث عن عبد المطلب بن ربيعة، قال: دخل العباس رضي الله عنه على رسول الله ﷺ فقال: إنا لنخرج فنرى قريشاً تحدث، فإذا رأينا سكتوا، فغضب رسول الله ﷺ ودر عرق بين عينيه ثم قال ﷺ: «والله لا يدخل قلب امرئ مسلم إيمان حتى يحكم الله ولقرابتي»، وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا خالد، حدثنا شعبة عن واقد قال: سمعت أبي يحدث عن ابن عمر رضي الله عنهما عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته^(٤). وفي الصحيح أن الصديق رضي الله عنه قال لعلي رضي الله عنه: والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلى أن أصل من قرابتي^(٥)، وقال عمر بن الخطاب للعباس رضي الله عنهما والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم، لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب. فحال الشيفين رضي الله عنهما هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك، ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبئين والمرسلين رضي الله عنهما وعن سائر الصحابة أجمعين.

وقال الإمام أحمد^(٦) رحمة الله: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن أبي حيان التيمي، حدثني يزيد بن حيان قال: انطلقت أنا وحسين بن ميسرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم رضي الله عنه، فلما جلسنا إليه قال حسين: لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً، رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حدثه وغزوت معه وصليت معه، لقد رأيت يا زيد خيراً كثيراً، حدثنا يا زيد ما سمعت من

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة حديث ٣٦، ٣٧، والدارمي في فضائل القرآن باب ١.
 (٢) المستند ٢٠٧/١.

(٣) المستند ٢٠٨، ٢٠٧/١.

(٤) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب ١٢، ٢٢، ومسلم في الإيمان حديث ٢٠٥.

(٥) أخرجه البخاري في المغازى باب ٣٨.

(٦) المستند ٤/٢٦٦، ٢٦٧.

رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي والله لقد كبر سني وقدم عهدي ونسست بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ، فما حدثكم فاقبلوه وما لا فلا تكلفوئه، ثم قال رضي الله عنه: قام رسول الله ﷺ يوماً خطيباً فينا بماء يدعى خمّاً بين مكة والمدينة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه وذكر ووعظ، ثم قال ﷺ: «أما بعد، ألا أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربى فأجيب، وإنني تارك فيكم الثقلين أولهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور فخذلوا بكتاب الله واستمسكوا به» ففتح على كتاب الله ورغم فيه وقال ﷺ: «وأهل بيتي ذكركم في أهل بيتي، ذكركم الله في أهل بيتي» فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: إن نساءه لسن من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم عليه الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس رضي الله عنهم، قال: أكل هؤلاء حرم عليه الصدقة؟ قال: نعم^(١)، وهكذا رواه مسلم والنسائي من طرق يزيد بن حيان به.

وقال أبو عيسى الترمذى: حدثنا علي بن المتندر الكوفي، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا الأعمش عن عطية عن أبي سعيد والأعمش عن حبيب بن أبي ثابت، عن زيد بن أرقى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، والآخر عترة أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا على الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما»^(٢) تفرد بروايته ثم قال: هذا حديث حسن غريب. وقال الترمذى^(٣) أيضاً: حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفي، حدثنا زيد بن الحسن عن جعفر بن محمد بن الحسن عن أبيه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهمما قال: رأيت رسول الله ﷺ في حجته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب، فسمعته يقول: «يا أيها الناس إنني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي» تفرد به الترمذى أيضاً، وقال: حسن غريب، وفي الباب عن أبي ذر وأبي سعيد وزيد بن أرقى وحذيفة بن أسميد رضي الله عنهم.

ثم قال الترمذى^(٤) أيضاً: حدثنا أبو داود سليمان بن الأشعث، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا هشام بن يوسف عن عبد الله بن سليمان التوفلي، عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده عبد الله بن عباس رضي الله عنهم، قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبوا الله تعالى لما يغدوكم من نعمه، وأحبوني بحب الله وأحبوا أهل بيتي بمحبي» ثم قال: حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه، وقد أوردنا أحاديث أخرى عند قوله تعالى: «إنما يريد الله ليذهب

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة حديث ٣٧.

(٢) أخرجه الترمذى في المناقب باب ٣١.

(٣) كتاب المناقب باب ٣١.

(٤) كتاب المناقب باب ٣١.

عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا» [الأحزاب: ٣٣] بما أغني عن إعادتها ه هنا، والله الحمد والمنة. وقال الحافظ أبو يعلى: حديث سعيد بن عبد الله مفضل بن عبد الله عن أبي إسحاق عن حش، قال: سمعت أبا ذر رضي الله عنه وهوأخذ بحلقة الباب يقول: يا أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن أنكرني فأنا أبو ذر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح عليه الصلاة والسلام من دخلها نجا، ومن تخلف عنها هلك» هذا بهذا الإسناد ضعيف.

وقوله عز وجل: «ومن يقترب حسنة نزد له فيها حسنة» أي ومن يعمل حسنة «نزد له فيها حسنة» أي أجراً وثواباً، قوله تعالى: «إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنها أجراً عظيماً» [النساء: ٤٠]، وقال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها. قوله تعالى: «إن الله غفور شكور» أي يغفر الكثير من السيئات ويكثر القليل من الحسنات، فيستر ويغفر ويضاعف فيشكراً، قوله جل وعلا: «أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشا الله يختم على قلبك» أي لو افترى عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون «يختم على قلبك» أي يطبع على قلبك ويسليك ما كان آتاك من القرآن، قوله جل جلاله: «ولو تقول علينا بعض الأفوايل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين» [الحاقة: ٤٧ - ٤٠] أي لانتقمنا منه أشد الانتقام، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه.

وقوله جلت عظمته: «ويمح الله الباطل» ليس معطوفاً على قوله «يختم» فيكون مجزوماً بل هو مرفوع على الابداء. قاله ابن جرير، قال: وحذفت من كتابته الواو في رسم مصحف الإمام، كما حذفت في قوله: «سندع الزبانية» [العلق: ١٨] وقوله تعالى: «ويبدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير» [الإسراء: ١١]. قوله عز وجل «ويحق الحق بكلماته» معطوف على «ويمح الله الباطل ويحق الحق» أي يتحققه ويثبته ويبيّنه ويوضحه بكلماته، أي بحججه وبراهينه «إنه عليم بذات الصدور» أي بما تكتن الضمائر وتنطوي عليه السرائر.

وَهُوَ الَّذِي يَقْبِلُ التَّوْبَةَ عَنِ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١﴾ وَسَيَحِبُّ الَّذِينَ أَمْنَأْتُمْ وَعَلَمُوا أَصْلَحَتُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَلَوْبَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزَلُ بِقَدْرِ مَا يَشَاءُ إِنَّمَا يُنْزَلُ لِعِبَادِهِ حَيْرَانٌ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْعِيَثَ مِنْ بَعْدِ مَا فَنَطُوا وَيُنْشِرُ حَمَّتُمْ وَهُوَ أَلَوْنُ الْحَمِيمِ ﴿٤﴾

يقول تعالى ممتناً على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه أنه من كرمه وحمله أن يغفو ويصفح ويستر ويغفر، وقوله عز وجل: «ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيمًا» [النساء: ١١٠] وقد ثبت في صحيح مسلم رحمة الله عليه، حيث قال:

حدثنا محمد بن الصباح وزهير بن حرب قالا: حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عكرمة بن عامر، حدثنا إسحاق بن أبي طلحة، حدثني أنس بن مالك، وهو عم رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «الله تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة فانفلت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، في بينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك - أخطأ من شدة الفرح»^(١). وقد ثبت أيضاً في الصحيح من روایة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه نحوه.

وقال عبد الرزاق عن معمراً، عن الزهرى في قوله تعالى: «وهو الذي يقبل التوبة عن عباده» إن أبا هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته في المكان الذي يخاف أن يقتله فيه العطش» وقال همام بن الحارث: سئل ابن مسعود رضي الله عنه عن الرجل يفجر بالمرأة ثم يتزوجها؟ قال: لا بأس به، وقرأ «وهو الذي يقبل التوبة عن عباده» الآية، رواه ابن جرير^(٢) وابن أبي حاتم من حديث شريح القاضي عن إبراهيم بن مهاجر عن إبراهيم التخعي، عن همام فذكره، قوله عز وجل: «ويغفو عن السينات» أي يقبل التوبة في المستقبل، ويغفو عن السينات في الماضي «ويعلم ما تفعلون» أي هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم ومع هذا يتوب على من تاب إليه.

وقوله تعالى: «ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات» قال السدي: يعني يستجيب لهم، وكذلك قال ابن جرير^(٣): معناه يستجيب الدعاء لهم ولأصحابهم وإخوانهم، وحكاه عن بعض النحاة، وأنه جعلها كقوله عز وجل: «فاستجاب لهم ربهم» [آل عمران: ١٩٥] ثم روى هو وابن أبي حاتم من حديث الأعمش عن شقيق بن سلمة، عن سلمة بن سبرة قال: خطبنا معاذ رضي الله عنه بالشام، فقال: أنت المؤمنون وأنتم أهل الجنة، والله إنني لأرجو أن يدخل الله تعالى من تسبون من فارس والروم الجنة وذلك بأن أحدكم إذا عمل له - يعني أحدهم عملاً قال: أحسنت رحمك الله، أحسنت بارك الله فيك ثم قرأ «ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله».

وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية أنه جعل قوله: «ويستجيب الذين آمنوا» كقوله «الذين يستمعون القول» [الزمر: ١٨] أي هم الذين يستجيبون للحق ويتبعونه كقوله تبارك وتعالى: «إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله» [الأنعام: ٣٦] والمعنى الأول أظهر لقوله تعالى: «ويزيدهم من فضله» أي يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك. ولهذا قال

(١) أخرجه مسلم في التوبة حديث ٧.

(٢) تفسير الطبرى ١٤٧/١١.

(٣) تفسير الطبرى ١٤٧/١١، ١٤٨.

ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن المصنفي، حدثنا بقية، حدثنا إسماعيل بن عبد الله الكندي، حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَيُزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال «الشفاعة لمن وجبت له النار من صنع إليهم معروفاً في الدنيا» وقال قتادة عن إبراهيم النخعي اللخمي في قوله عز وجل: ﴿وَيُسْتَحِبُّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال: يشفعون في إخوانهم ﴿وَيُزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ويستحب الذين آمنوا وعملوا الصالحات قال: يشفعون في إخوانهم لـ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لما ذكر قال: يشفعون في إخوانهم. وقوله عز وجل ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيمة من العذاب الشديد الموجع المؤلم يوم معاذهم وحسابهم.

وقوله تعالى: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده ليغوا في الأرض﴾ أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشراً وبطراً.

وقال قنادة: كان يقال خير العيش ما لا يلهيك ولا يطعريك، وذكر قنادة حديث «إنما أخاف عليكم ما يخرج الله تعالى من زهرة الحياة الدنيا» وسؤال السائل: أيأتي الخير بالشر؟ الحديث. قوله عز وجل: «ولكن ينزل بقدر ما يشاء إله بعباده خبير بصير» أي ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم وهو أعلم بذلك فيغبني من يستحق الغنى ويفقر من يستحق الفقر كما جاء في الحديث المروي «إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأنفسدت عليه دينه وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنته لأفسدت عليه دينه».

وقوله تعالى: «وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قطنوا» أي من بعد إياس الناس من نزول المطر ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه كقوله عز وجل: « وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لم يلبسوا » [الروم: ٤٩] وقوله جل جلاله: « وينشر رحمته » أي يعم بها الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية. قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين قحط المطر وقطن الناس. فقال عمر رضي الله عنه: مطرتم ثم قرأ « وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قطنوا وينشر رحمته » « وهو الولي الحميد » أي هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم وهو المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله.

وَمِنْ أَيْنَهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَثَ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمِيعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ^{٢١} وَمَا أَصَبَّكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُ أَنِيدِيكُرْ وَيَعْوَانَ كَثِيرٌ^{٢٢} وَمَا أَنْتُ بِمُعْجِزِنَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ اللَّهُ مِنْ فَلَقٍ وَلَا نَصِيرٌ^{٢٣}

يقول تعالى: ﴿وَسِنَ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا يَكُونُ فِيهِمَا﴾ أي ذرأ فيهما في السموات والأرض ﴿مِنْ دَاهِيَةٍ﴾ وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وطبعهم

وأجناهم وأنواعهم وقد فرقهم في أرجاء أقطار السموات والأرض ﴿وهو﴾ مع هذا كله ﴿على جمعهم إذا يشاء قادر﴾ أي يوم القيمة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق .

وقوله عز وجل : ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مَصِيرَةٍ فِيمَا كَسَبْتُ أَيْدِيكُمْ﴾ أي مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما هي عن سيئات تقدمت لكم ﴿وَيَعْفُوُنَّ كَثِيرٌ﴾ أي من السيئات فلا يجازيكم عليها بل يغفو عنها ﴿وَلَوْ يَؤَاخِذَ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُ عَلَىٰ ظَهَرَهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥] وفي الحديث الصحيح «والذي نفسي بيده ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن إلا كفر الله عنه بها من خطایاه حتى الشوکة يشاکها»^(١) . وقال ابن حجر^(٢) : حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عليه ، حدثنا أبيوب قال : قرأت في كتاب أبي قلابة قال نزلت ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مُثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مُثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] وأبو بكر رضي الله عنه يأكل فأمسك وقال : يا رسول الله إني أرى ما عملت من خير وشر ، فقال : «أرأيت ما رأيت مما تكره ، فهو من مثاقيل ذر الشر وتدخل مثاقيل الخير حتى تعطاه يوم القيمة» وقال : قال أبو إدریس : فإني أرى مصادقها في كتاب الله تعالى : ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مَصِيرَةٍ فِيمَا كَسَبْتُ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوُنَّ كَثِيرٌ﴾ ثم رواه من وجه آخر عن أبي قلابة عن أنس رضي الله عنه قال والأول أصح .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع ، حدثنا مروان بن معاوية الفزارى ، حدثنا الأزهر بن راشد الكاهلى عن الخضر بن القواس البجلي عن أبي سخيلة عن علي رضي الله عنه قال : لا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله عز وجل ، وحدثنا به رسول الله ﷺ ، قال : ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مَصِيرَةٍ فِيمَا كَسَبْتُ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوُنَّ كَثِيرٌ﴾ وسأفسرها لك يا علي : ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فيما كسبت أيديكم والله تعالى أحلم من أن يثنى عليه العقوبة في الآخرة وما عفا الله عنه في الدنيا فالله تعالى أكرم من أن يعود بعد عفوه» وكذا رواه الإمام أحمد^(٣) عن مروان بن معاوية وعبدة عن أبي سخيلة قال : قال علي رضي الله عنه ذكر نحوه مرفوعاً .

ثم روى ابن أبي من وجه آخر موقوفاً فقال : حدثنا أبي ، حدثنا منصور بن أبي مزاحم ، حدثنا أبو سعيد بن أبي الوضاح عن أبي الحسن عن أبي الحسن جحيفة قال دخلت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : لا أحدثكم بحديث ينبغي لكل مؤمن أن يعيه ؟ قال : فسألناه فتلا هذه الآية ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مَصِيرَةٍ فِيمَا كَسَبْتُ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوُنَّ كَثِيرٌ﴾ قال ما عاقب الله تعالى به في الدنيا فالله أحلم من أن يثنى عليه بالعقوبة يوم القيمة وما عفا الله عنه في الدنيا فالأمر أكرم

(١) أخرجه البخاري في المرضى باب ١ ، ومسلم في البر حديث ٥٢ .

(٢) تفسير الطبرى ١١ / ١٥٠ .

(٣) المسند ١ / ٨٥ .

من أن يعود عفوه يوم القيمة . وقال الإمام أحمد^(١) : حدثنا يعلى بن عبيد ، حدثنا طلحة يعني ابن يحيى عن أبي بردة عن معاوية هو ابن أبي سفيان رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كفر الله تعالى عنه به من سيئاته » وقال الإمام أحمد^(٢) أيضاً : حدثنا حسين عن زائدة عن ليث عن مجاهد عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفرها ابتلاه الله تعالى بالحزن ليكفرها » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي ، حدثنا أبوأسامة عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن هو البصري قال في قوله تبارك وتعالى : « وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » قال لما نزلت قال رسول الله ﷺ « والذي نفس محمد بيده ما من خدش عود ولا اختلاج^(٣) عرق ولا عشرة قدم إلا بذنب وما يغفر الله عنه أكثر » . وقال أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا عمر بن علي ، حدثنا هشيم عن منصور عن الحسن عن عمران بن حسين رضي الله عنه قال : دخل عليه بعض أصحابه وقد كان ابتدلي في جسده فقال له بعضهم إنا لنبتئنك لما نرى فيك ، قال فلا تبتئنك بما ترى فإن ما ترى بذنب وما يغفر الله عنه أكثر ثم تلا هذه الآية « وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » .

وحدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحمانى ، حدثنا جرير عن أبي البلاد قال : قلت للعلاء بن بدر « وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم » وقد ذهب بصري وأنا غلام ؟ قال فيذنوب والديك . وحدثنا أبي ، حدثنا علي بن محمد الطنافسي ، حدثنا وكيع عن عبد العزيز بن أبي رواد عن الصحاح قال : ما نعلم أحداً حفظ القرآن ثم نسيه إلا بذنب ثم قرأ الصحاح « وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » ثم يقول الصحاح : وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن .

وَمِنْ ءَايَاتِهِ الْجُوَارُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۝ إِنْ يَشَاءُ يُسْكِنُ الرِّيحَ فَيَظْلِلُنَّ رَوَادِكَ عَلَىٰ ظَهَرِهِ ۝ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ
لِكُلِّ صَبَارٍ شَكُورٍ ۝ أَوْ يُوْقِنُهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنِ الْكَثِيرِ ۝ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَدِّلُونَ فِي ءَايَاتِنَا مَا هُمْ مِنْ
مُحَبِّصٍ ۝

يقول تعالى ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه تسخيره البحر لتجري فيه الفلك بأمره وهي الجواري في البحر كالأعلام أي كالجبال ، قاله مجاهد والحسن والستي والصحاح : أي هذه في البحر كالجبال في البر « إن يشاء يسكن الريح » أي التي تسير في البحر

(١) المسند ٩٨٤ .

(٢) المسند ٦١٥٧ .

(٣) اختلاج عرق : أي اضطراب عرق .

بالسفن لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك السفن بل تبقى راكرة لا تجيء ولا تذهب بل واقفة على ظهره أي على وجه الماء «إن في ذلك لآيات لكل صبار» أي في الشدائيد «شكور» أي إن في تسخيره البحر وإجرائه الهوى بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم للدلالات على نعمة تعالى على خلقه لكل صبار أي في الشدائيد «شكور» في الرخاء.. قوله عز وجل «أو يوبقهن بما كسبوا» أي لو شاء لأهلك السفن وغرفها بذنوب أهلها الذين هم راكبون عليها «ويغف عن كثير» أي من ذنوبهم ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر.

وقال بعض علماء التفسير معنى قوله تعالى: «أو يوبقهن بما كسبوا» أي لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم فصرفها ذات اليمين أو ذات الشمال آفة لا تسير على طريق ولا إلى جهة مقصد، وهذا القول يتضمن هلاكها وهو مناسب للأول وهو أنه تعالى لو شاء لسكن الريح فوققت أو لقواه فشردت وأبكت وهلكت، ولكن من لطفه ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة كما يرسل المطر بقدر الكفاية ولو أنزله كثيراً جداً لهدم البنيان أو قليلاً لما أنبت الزرع والثمار حتى أنه يرسل إلى مثل بلاد مصر سيحاً من أرض أخرى غيرها لأنهم لا يحتاجون إلى مطر ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم وأسقط جدرانهم، وقوله تعالى: «ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محicus» أي لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا فإنهم مقهورون بقدرتنا.

فَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمِنْهُمْ لَحْيَةُ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَيْقَنَ لِلَّذِينَ أَمْنَوْا عَلَى رَهِيمٍ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمَ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا أَعْصَبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ لَسْتَ جَبُوا لِرَهِيمٍ وَفَاقَمُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى يَنْهَمُ وَمَا رَزَقَهُمْ يَنْفَعُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَعْضُ هُمْ يَنْصَرُونَ ﴿٥﴾

يقول تعالى محيراً لشأن الحياة الدنيا وزيتها وما فيها من الزهرة والنعيم الفاني بقوله تعالى: «فما أُوتِيتُمْ من شيء فمتع الحياة الدنيا» أي مهما حصلتم وجمعتم فلا تغروا به فإنما هو متع الحياة الدنيا وهي دار دنيئة فانية زائلة لا محالة «وما عند الله خير وأبقى» أي وثواب الله تعالى خير من الدنيا وهو باق سرمدي فلا تقدموا الفاني على الباقي ولهذا قال تعالى: «للذين آمنوا» أي للذين صبروا على ترك الملاذ في الدنيا «وعلى ربهم يتوكلون» أي ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات وترك المحرمات.

ثم قال تعالى: «والذين يجتبنون كبائر الإثم والفواحش» وقد قدمنا الكلام على الإثم والفواحش في سورة الأعراف «وإذا ما غضبوا هم يغفرون» أي سجيthem تقتضي الصفح والعفو عن الناس ليس سجيthem الانتقام من الناس. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله^(١) وفي حديث آخر كان يقول لأحدنا عند المعتبرة: «ما له

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ٨٠، ومسلم في الفضائل حديث ٧٧، ٧٩.

تربيت جبينه^(١) وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان عن زائدة عن منصور عن إبراهيم قال: كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا و كانوا إذا قدروا عفوا.

وقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي اتبعوا رسleه وأطاعوا أمره واجتبوا زجره ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ وهي أعظم العبادات لله عز جل ﴿وَأُمِرُّهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أي لا يبرمون أمرًا حتى يتشارروا فيه ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجرها كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَشَارُورُهُمْ فِي الْأَمْرِ إِذَا عَزَّمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] الآية ولهذا كان عليه السلام يشاورهم في الحروب ونحوها ليطيب بذلك قلوبهم وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب رضي الله عنه الوفاة حين طعن جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر وهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم أجمعين فاجتمع رأي الصحابة كلهم رضي الله عنهم على تقديم عثمان عليهم رضي الله عنهم ﴿وَمَمَّا رَزَقْنَاهُمْ يَنْفَقُونَ﴾ وذلك بالإحسان إلى خلق الله الأقرب إليهم منهم فالأقرب.

وقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابُهُمُ الْبُغْيَ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أي فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم ليسوا بالعجزين ولا الأذلين بل يقدرون على الانتقام ممن بعى عليهم وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته: ﴿لَا تُثْرِيبُ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢] مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية ونزلوا من جبل التتيم فلما قدر عليهم من عذابه على الانتقام وكذلك عفوه ﷺ عن غورث بن الحارث الذي أزad الفتوك به حين اخترط سيفه وهو نائم فاستيقظ عليه السلام وهو في يده مصللاً فانتهزه فوضعه من يده وأخذ رسول الله ﷺ السيف من يده ودعا أصحابه ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل وعفا عنه^(٢).

وكذلك عفا ﷺ عن ليبد بن الأعصم الذي سحره عليه السلام ومع هذا لم يعرض له ولا عاتبه مع قدرته عليه وكذلك عفوه ﷺ عن المرأة اليهودية - وهي زينب اخت مرحبا اليهودي الخبري الذي قتلها محمود بن مسلمة - التي سمت الذراع يوم خير - فأخبره الذراع بذلك فدعاه فاعترفت فقال ﷺ: «ما حملك على ذلك؟» قالت: أردت إن كنت نبياً لم يضرك وإن لم تكننبياً استر حنا منك^(٣) فأطلقها عليه الصلاة والسلام ولكن لما مات منه بشر بن البراء

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ٣٨، وأحمد في المسند ١٢٦/٣، ١٤٤، ١٥٨.

(٢) أخرجه البخاري في المغازى باب غزوة ذات الرقاع.

(٣) أخرجه أبو داود في الديات باب ٦.

رضي الله عنه قتلها به، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وَحَرَقُوا سِيَّنَةً سِيَّنَةً مِثْلَهَا فَمَنْ عَفَّا وَأَصْلَحَ فَاجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّمَا لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾ وَلَمَنْ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْعِصْمَأُ فَإِنَّمَا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لِمَنْ عَرَمَ الْأَمْرَ ﴿٤﴾

قوله تبارك وتعالى: «وجزاء سيئة مثلها» كقوله تعالى: «فمن اعنى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعنى عليكم» [البقرة: ١٩٤] وكقوله: « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين» [النحل: ١٢٦] الآية، فشرع العدل وهو القصاص وندب إلى الفضل وهو العفو كقوله جل وعلا: «والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفاره له» [المائدة: ٤٥] ولهذا قال هنا: «فمن عفا وأصلح فأجره على الله» أي لا يضيع ذلك عند الله كما صح ذلك في الحديث «وما زاد الله تعالى عبدا بعفو إلا عزآ»^(١) وقوله تعالى: «إنه لا يحب الظالمين» أي المعتدين وهو المبتدئ بالسيئة.

ثم قال جل وعلا: «ولمن انتصر بعد ظلمهم فأولئك ما عليهم من سبيل» أي ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم. قال ابن جرير^(٢): حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع، حدثنا معاذ بن معاذ، حدثنا ابن عون قال: كنت أسأل عن الانتصار في قوله تعالى: «ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل» فحدثني علي بن زيد بن جدعان عن أم محمد امرأ أبيه قال ابن عون: زعموا أنها كانت تدخل على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: قالت أم المؤمنين رضي الله عنها: دخل علينا رسول الله ﷺ وعندها زينب بنت جحش رضي الله عنها، فجعل النبي ﷺ يصنع بيده شيئاً فلم يفطن لها، فقلت بيده حتى فطنته لها فامسكت، وأقبلت زينب رضي الله عنها تقول^(٣) «لعاشرة رضي الله عنها فنهاها، فابتأن تنتهي، فقال لعاشرة رضي الله عنها «سبيها» فسبتها فغلبتها، وانطلقت زينب رضي الله عنها فأتت علياً رضي الله عنه فقالت إن عائشة تقع بكم وتفعل بكم فجاءت فاطمة رضي الله عنها فقال^(٤) لها «إنها حبة أبيك ورب الكعبة» فانصرفت، وقالت لعلي رضي الله عنه: إني قلت له^(٥) كذا وكذا، فقال لي كذا وكذا، قال: وجاء علي إلى النبي ﷺ وكلمه في ذلك، هكذا أورد هذا السياق، وعلى بن زيد بن جدعان، يأتي في روایاته بالمنكرات غالباً، وهذا فيه نكارة.

والصحيح خلاف هذا السياق، كما رواه النسائي وابن ماجه من حديث خالد بن سلمة

(١) أخرجه مسلم في البر حديث ٦٩، والترمذى في البر باب ٨٢، والدارمى في الزكاة باب ٣٥، ومالك في الصدقه حديث ١٢، وأحمد في المستند ٣٨٦/٢.

(٢) تفسير الطبرى ١٥٦/١١.

(٣) أي تشتمها من غير روية ولا ثبت.

الفأفاء، عن عبد الله البهبي عن عروة، قال: قالت عائشة رضي الله عنها، ما علمت حتى دخلت علي زينب بغير إذن وهي غضبي، ثم قالت لرسول الله ﷺ: حسبك إذا قلبت لك ابنة أبي بكر ذريعتها^(١)، ثم أقبلت علي فأعرضت عنها، حتى قال النبي ﷺ «دونك فانتصرني» فأقبلت عليها حتى رأيتها وقد يبس ريقها في فمها ما ترد علي شيئاً، فرأيت النبي ﷺ يتهلل وجهه^(٢)، وهذا لفظ النسائي.

وقال البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أبو الأحوص عن أبي حمزة عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من دعا على من ظلمه فقد انتصر» ورواه الترمذى^(٣) من حديث أبي الأحوص عن أبي حمزة واسمه ميمون، ثم قال: لا نعرف إلا من حديثه، وقد تكلم فيه من قبل حفظه. وقوله عز وجل: «إنما السبيل» أي إنما الحرج والعنق **«على الذين يظلمون الناس وييغعون في الأرض بغير الحق»** أي يبدؤون الناس بالظلم، كما جاء في الحديث الصحيح **«المستiban ما قالا فعلى الباذىء ما لم يعتد المظلوم»**^(٤) **«أولئك لهم عذاب أليم»** أي شديد موجع.

قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا سعيد بن زيد أخو حماد بن زيد، حدثنا عثمان الشحام، حدثنا محمد بن واسع قال: قدمت مكة فإذا على الخندق منظرة^(٥)، فأخذت حاجتي فانطلق بي إلى مروان بن المهلب، وهو أمير على البصرة فقال ما حاجتك يا أبا عبد الله؟ قلت: حاجتي إن استطعت أن تكون كما قال أخوه بنى عدي، قال: ومن أخوه بنى عدي؟ قال العلاء بن زياد: استعمل صديقاً له مرة على عمل، فكتب إليه: أما بعد، فإن استطعت أن لا تبكي إلا وظهرك خفيف، وبطنك خميس، وكفك نقية من دماء المسلمين وأموالهم، فإنك إذا فعلت ذلك، لم يكن عليك سبيل **«إنما السبيل على الذين يظلمون الناس وييغعون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم»** فقال مروان: صدق والله ونصح، ثم قال: ما حاجتك يا أبا عبد الله، قلت: حاجتي أن تلحقني بأهلي، قال: نعم، رواه ابن أبي حاتم، ثم إن الله تعالى، لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص، قال نادياً إلى العفو والصفح: **«ولمن صبر وغفر»**، أي صبر على الأذى، وستر السيئة **«إن ذلك لمن عزم الأمور»** قال سعيد بن جبير: يعني لمن حق الأمور التي أمر الله بها، أي لمن الأمور

(١) **الذريعة:** تصغير ذراع.

(٢) آخرجه ابن ماجه في النكاح باب ٥٠، وأحمد في المستند ٩٣/٦.

(٣) كتاب الدعوات باب ١٠٢.

(٤) آخرجه مسلم في البر حديث ٦٩، وأبو داود في الأدب باب ٣٩، والترمذى في البر باب ٥١، وأحمد في المستند ٢/٢٣٥، ٢٢٥، ٤٨٨، ٤٨٨، ٥١٧، ٢٦٦، ١٦٢/٤، ٢٦٦/٦.

(٥) المنظرة: موضع الحرس، وتكون في رأس الجبل.

المشكورة، والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل، وثناء جميل.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمران بن موسى الطرسوسي، حدثنا عبد الصمد بن يزيد خادم الفضيل بن عياض قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلاً، فقل: يا أخي اعف عنه فإن العفو أقرب للتفوي، فإن قال: لا يحتمل قلبي العفو، ولكن أنتصر كما أمرني الله عز وجل، فقل له: إن كنت تحسن أن تنتصر وإلا فارجع إلى باب العفو، فإنه باب واسع، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل، وصاحب الانتصار يقلب الأمور.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا يحيى يعني ابن سعيد القطان، عن ابن عجلان، حدثنا سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رجلاً شتم أبا بكر رضي الله عنه والنبي ﷺ جالس، فجعل النبي ﷺ يعجب ويتبسم، فلما أكثر رد عليه بعض قوله، فغضب النبي وقام، فللحظه أبو بكر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله إنه كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت، قال: «إنه كان معك ملك يرد عنك، فلما رددت عليه بعض قوله حضر الشيطان فلم أكن لأقعد مع الشيطان». ثم قال - يا أبو بكر: «ثلاث كلهن حق: ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها الله، إلا أعزه الله تعالى بها ونصره، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة، إلا زاده الله عز وجل بها قلة» وكذا رواه أبو داود عن عبد الأعلى بن حماد عن سفيان بن عيينة قال: ورواه صفوان بن عيسى كلامها عن محمد بن عجلان، ورواه من طريق الليث عن سعيد المقبري عن بشير بن المحرر عن سعيد بن المسيب مرسلاً، وهذا الحديث في غاية الحسن في المعنى، وهو مناسب للصديق رضي الله عنه.

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا أَعْمَالَهُمْ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرْدَقٍ وَنَسَبِيلٍ [٤٤] وَتَرَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا حَشْعِينَ كَمَنَ الْذُلِّ يَتَظَرُّفُونَ كَمَنَ طَرْفٍ خَفْيٍ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَسِيرِينَ الَّذِينَ حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِلَّا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ [٤٥] وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلَيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ [٤٦]

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة أنه ما يشاء كان ولا راد له، وما لم يشاً لم يكن فلا موجد له، وأنه من هداه فلا مضل له، ومن يضل الله فلا هادي له، كما قال عز وجل: «ومن يضل فلن تجد له ولیاً مرشدًا» [الكهف: ١٧] ثم قال عز وجل مخبراً عن الظالمين وهم المشركون بالله: «لَمَّا رَأُوا الْعَذَابَ» أي يوم القيمة تمنوا الرجعة إلى الدنيا «لَمَّا لَوْنَ هَلْ لَيْ

مرد من سبيل^{﴿﴾} كما قال جل وعلا: «ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا: يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لکاذبون^{﴿﴾} [الأنعام: ٢٧ - ٢٨]. قوله عز وجل: «وتراهم يعرضون عليها^{﴿﴾} أي على النار خاشعين من الذل^{﴿﴾} أي الذي قد اعتراه بما أسلفوا من عصيان الله تعالى «ينظرون من طرف خفي^{﴿﴾} قال مجاهد: يعني ذليل أي ينظرون إليها مسارقة خوفاً منها والذي يحدرون منه واقع بهم لا محالة، وما هو أعظم مما في نفوسهم، أجارنا الله من ذلك.

«وقال الذين آمنوا^{﴿﴾} أي يقولون يوم القيمة «إن الخاسرين^{﴿﴾} أي الخسار الأكبر «الذين خسروا أنفسهم وأهلיהם يوم القيمة^{﴿﴾} أي ذهب بهم إلى النار فعدموا لذتهم في دار الأبد وخسروا أنفسهم، وفرق بينهم وبين أحبابهم وأصحابهم وأهاليهم وقرباتهم فخسروهم «الآن إن الطالبين في عذاب مقيم^{﴿﴾} أي دائم سرمدي أبدى لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها. قوله تعالى: «وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله^{﴿﴾} أي ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنkal «ومن يضلله فما له من سبيل^{﴿﴾} أي ليس له خلاص.

أَسْتَحِيُّوكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرْدَلَهُ مِنَ الَّذِي مَالَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ^{﴿﴾} فَإِنَّ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَغُ وَإِنَّا إِذَا أَذْفَنَاهُ إِلَيْنَا رَحْمَةً فَرَحِيَّهَا وَإِنْ تُصْبِحُهُمْ سَيِّئَةً إِمَّا قَدَّمُتَ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَنَ كَفُورٌ^{﴿﴾}

لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيمة من الأحوال والأمور العظام الهائلة، حذر منه وأمر بالاستعداد له، فقال: «استجيبيوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله^{﴿﴾} أي إذا أمر بكونه فإنه كلمح البصر يكون، وليس له دافع ولا مانع. قوله عز وجل: «ما لكم من ملجاً يومئذ وما لكم من نكير^{﴿﴾} أي ليس لكم حصن تتحصنون فيه ولا مكان يستركم وتنتكرون فيه فتغيتون عن بصره تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدره، فلا ملجاً منه إلا إليه **﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر كلا لا وزر إلى رب يومئذ المستقر﴾** [القيمة: ١٠ - ١٢] قوله تعالى: «فَإِنَّ أَعْرَضُوا^{﴿﴾} يعني المشركين «فما أرسلناك عليهم حفيظاً^{﴿﴾} أي لست عليهم بمسطر، وقال عز وجل: «ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء^{﴿﴾} [البقرة: ٢٧٢] وقال تعالى: «فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب» [الرعد: ٤٠] وقال جل وعلا لهنا: «إن عليك إلا البلاغ^{﴿﴾} أي إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم.

ثم قال تبارك وتعالى: «وَإِنَّا إِذَا أَذَّنَاهُ الْمُؤْمِنُونَ مَا فِي دُرْبِهِ فَرَحِيَّهَا^{﴿﴾} أي إذا أصابه رخاء ونعمه فرح بذلك «وَإِنْ تُصْبِحُهُمْ^{﴿﴾} يعني الناس «جحود^{﴿﴾} أي جدب وبلاء وشدة «لِلْإِنْسَانِ كَفُورٌ^{﴿﴾} أي يجحد ما تقدم من النعمة ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة أسر وبطر، وإن أصابته محنـة يئـس وقطـط، كما قال رسول الله ﷺ للنساء: «يا معاشر النساء تصدقـن فإـني رأـيـتكـن

أكثر أهل النار» فقلت امرأة: ولم يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «لأنك تكتشن الشكایة وتکفرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهم الدهر ثم تركت يوماً، قالت: ما رأيت منك خيراً فقط»^(١) وهذا حال أكثر الناس، إلا من هداه الله تعالى وألهمه رشده، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالمؤمن كما قال ﷺ: «إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»^(٢).

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهْبِطُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّهُ ذُكُورٌ لَا إِنْجِيلٌ
يُرَوِّجُهُمْ ذُكْرًا وَإِنَّهُمْ بِمَعْلُومٍ مِّنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ فَقِيرٌ

يُخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما، وأنه ما شاء كان وما لم يشاً لم يكن، وأنه يعطي من يشاء ويمعن من يشاء، ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وأنه يخلق ما يشاء («يَهْبِطُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّهُ ذُكُورٌ» أي يرزقه البنات فقط). قال البغوي: ومنهم لوط عليه الصلاة والسلام. («وَيَهْبِطُ لِمَنْ يَشَاءُ ذُكُورًا» أي يرزقه البنين فقط)، قال البغوي: كإبراهم الخليل عليه الصلاة والسلام لم يولد له أنسى («أو يُرَوِّجُهُمْ ذُكْرًا وَإِنَّهُمْ بِمَعْلُومٍ مِّنْ يَشَاءُ عَقِيمًا» أي ويعطي لمن يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى أي من هذا وهذا، قال البغوي: كمحمد عليه الصلاة والسلام («وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا» أي لا يولد له).

قال البغوي: كيحيى وعيسى عليهما السلام، فجعل الناس أربعة أقسام: منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكوراً وإناثاً، ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عقيماً لا نسل له ولا يولد له. («إِنَّهُ عَلِيمٌ» أي بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام (قدير) أي على من يشاء من تفوات الناس في ذلك، وهذا المقام شبيه بقوله تبارك وتعالى عن عيسى عليه الصلاة والسلام («وَلَنْجَعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ» [مريم: ٢١] أي دلالة لهم على قدرته تعالى وتقديس حيت خلق الخلق على أربعة أقسام، فأدّم عليه الصلاة والسلام مخلوق من تراب لا من ذكر ولا أنثى، وحواء عليها السلام مخلوقة من ذكر بلا انشى، وسائر الخلق سوى عيسى عليه السلام من أنثى بلا ذكر، فتمنت الدلاله بخلق عيسى ابن مرريم عليهما الصلاة والسلام. ولهذا قال تعالى: («وَلَنْجَعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ» فهذا المقام في الآباء والمقام الأول في الأبناء وكل منها أربعة أقسام، فسبحان العليم القدير.

وَمَا كَانَ لِشَرِّ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآءِ بَحَارٍ أَوْ يُرِسِّلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ

(١) أخرج البخاري في الإيمان باب ٢١، والكسوف باب ٩، ومسلم في الكسوف حديث ١٧، والنمساني في الكسوف باب ١٧، ومالك في الكسوف حديث ٢، وأحمد في المسند ٣٥٩، ٢٩٨/١، ٣٣٢، ٣٣٣.

(٢) أخرج مسلم في الزهد حديث ٦٤، وأحمد في المسند ٤/٤، ٣٣٣، ٣٣٢، ١٥/٦.

إِنَّمَا عَلَيْنَا حَكِيمٌ لَّهُ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَنَا وَإِنَّكَ لَتَدْرِي إِلَى صِرَاطِ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ لَّهُ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَمْسِ أَلْسُنَتُوْنَ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ

هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جنات الله عز وجل، وهو أنه تبارك وتعالى تارة يقذف في روع النبي ﷺ شيئاً لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل، كما جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن روح القدس نفت في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب». قوله تعالى: «أو من وراء حجاب» كما كلام موسى عليه الصلاة والسلام، فإنه سأل الرؤبة بعد التكليم فحجب عنها.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «ما كلام الله أحداً إلا من وراء حجاب وإنه كلام أباك كفاحاً»^(١) كذا جاء في الحديث، وكان قد قتل يوم أحد، ولكن هذا في عالم البرزخ، والأية إنما هي في الدار الدنيا. قوله عز وجل: «أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء» كما ينزل جبريل عليه الصلاة والسلام وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام «إنه عليٌّ حكيم» فهو عليٌ عليم خبير حكيم. قوله عز وجل: «وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا» يعني القرآن «ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان» أي على التفصيل الذي شرع لك في القرآن «ولكن جعلناه» أي القرآن «نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا» كقوله تعالى: «فَلَمَّا هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدٰى وَشَفَاءٌ وَاللَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمِىٌّ» [فصلت: ٤٤] الآية.

وقوله تعالى: «وَإِنَّكَ» أي يا محمد «لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ» وهو الخلق القوي، ثم فسره بقوله تعالى: «صِرَاطُ اللَّهِ» أي وشرعه الذي أمر به الله «الذي له ما في السموات وما في الأرض» أي ربهما ومالكهما والمتصرف فيها والحاكم الذي لا معقب لحكمه «أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ» أي ترجع الأمور فيصلها ويحكم فيها سبحانه وتعالى بما يقول الظالمون والجادلون علواً كبيراً.

(١) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ٣ باب ١٨ ، وابن ماجه في المقدمة باب ١٣ ، والجهاد باب ١٦ ، والكافح: المواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول.

سورة الزخرف

وهي مكية
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمٌ وَالْكِتَابُ الْمُبِينٌ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِعَلَّكُمْ تَعْقُلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ
لَدَيْنَا أَعْلَى حِكْمَةٍ أَفَنَضَرُ بِعَنْكُمُ الْذِكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ وَكَمْ
أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِزُونَ فَأَهْلَكْنَا آشَدَّ مِنْهُمْ
بَطْشًا وَمَصْنَعًا مَثْلُ الْأَوَّلِينَ

يقول تعالى: ﴿حَمٌ وَالْكِتَابُ الْمُبِينٌ﴾ أي البين الواضح الجلي المعاني والألفاظ ، لأنه نزل بلغة العرب التي هي أوضح اللغات للتداخُل بين الناس ، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ أي نزلناه ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي بلغة العرب فصيحاً واضحاً ﴿لِعَلَّكُمْ تَعْقُلُونَ﴾ أي تفهمونه وتتدبرونه ، كما قال عز وجل : ﴿بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعِلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ بين شرفه في الملا الأعلى ليشرفه ويعظمه ويطعنه أهل الأرض ، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ أي اللوح المحفوظ ، قاله ابن عباس رضي الله عنهم ومجاهد لـ ﴿لَدَيْنَا﴾ أي عندنا ، قاله قتادة وغيره ﴿لَعِلِيٌّ﴾ أي ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل قاله قتادة ﴿حَكِيمٌ﴾ أي محكم بريء من اللبس والزيغ . وهذا كله تنبئه على شرفه وفضله ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿إِنَّهُ لِقَرْآنٍ كَرِيمٍ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمْسِي إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٍ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٨٠] وقال تعالى : ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذَكُّرٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ فِي صَحْفٍ مَكْرُمَةٍ مَرْفُوعَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كَرَامٌ بَرَّةٌ﴾ [عبس: ١١ - ١٦] ولهذا استنبط العلماء رضي الله عنهم من هاتين الآيتين أن المحدث لا يمس المصحف كما ورد به الحديث إن صح ، لأن الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن في الملا الأعلى ، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى ، لأنه نزل عليهم ، وخطابه متوجه إليهم ، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم ، والانقياد له بالقبول والتسليم ، لقوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعِلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿أَفَنَضَرُ بِعَنْكُمُ الْذِكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ اختلف المفسرون في معناها فقيل معناها أتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به ، قاله ابن عباس رضي الله عنهم وأبو صالح ومجاهد والسدي واختباره ابن جرير^(١) ، وقال

قتادة في قوله تعالى: «أَفَنضرب عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا» والله لو أن هذا القرآن رفع حين ردهه أوائل هذه الأمة لهلعوا، ولكن الله تعالى عاد بعائذته ورحمته فكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة أو ما شاء الله من ذلك، قوله قتادة لطيف المعنى جداً، وحاصله أنه يقول في معناه إنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم وهو القرآن، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه بل أمر به ليهتدى به من قدر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته.

ثم قال جل وعلا مسلياً لنبي ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه وأمراً له بالصبر عليهم: «وَكُمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ» أي في شيع الأولين «وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» أي يكذبونه ويسيرون به. قوله تبارك وتعالى: «فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّهُمْ بِطْشًا» أي فأهلكنا المكذبين بالرسل، وقد كانوا أشد بطشاً من هؤلاء المكذبين لك يا محمد، كقوله عز وجل: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُهُمْ وَأَشَدُهُمْ قُوَّةً» [غافر: ٨٢] والآيات في ذلك كثيرة جداً. قوله جل جلاله: «وَمَضِيَ مِثْلَ الْأَوَّلِينَ» قال مجاهد: سنتهم. وقال قتادة: عقوبهم. وقال غيرهما: عبرتهم، أي جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيغ لهم ما أصابهم، كقوله تعالى في آخر هذه السورة: «فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمِثْلًا لِلآخَرِينَ» [الزخرف: ٥٦] وكقوله جلت عظمته: «سَنَةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ» [غافر: ٨٥] وقال عز وجل: «وَلَنْ تَجِدْ لِسَنَةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا» [الأحزاب: ٥٦].

وَلَيْسَ سَالِنَّهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ خَلَقْنَّ الْعَزِيزَ الْعَلِيمَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُّلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدْرِ فَأَنْشَرَنَا بِهِ، بِلَدَهُ مَيَّسًا كَذَلِكَ تُخْرِجُونَ ۝ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَمِ مَا تَرَكُبُونَ ۝ لَسْتُمْ أَعْلَمُ بِهِ طُورُهُ ثُمَّ تَذَكَّرُو بِعَمَّةَ رِيْكُمْ إِذَا آتَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ اللَّهِيْ سَخَرَنَا هَذَا وَمَا كَنَّا لِلَّهِ مُفْرِنِينَ ۝ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَبِّنَا الْمُفْلِبُونَ ۝

يقول تعالى: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله، العابدين معه غيره «من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم» أي ليعرفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد، ثم قال تعالى: «الذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا» أي فراشاً قراراً ثابتة تسيرون عليها وتقومون وتتمامون وتتصرفون، مع أنها مخلوقة على تيار الماء، لكنه أرساها بالجبال لثلا تميد هكذا ولا هكذا «وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُّلًا» أي طرقاً بين الجبال والأودية «لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» أي في سيركم من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم «وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدْرِ» أي بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مِيتَةً﴾ أي أرضاً ميتة، فلما جاءها الماء اهتزت وربت وأنبت من كل زوج يهيج، ثم نبه تعالى بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها، فقال: ﴿كَذَلِكَ تُخْرِجُونَ﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي مما تنبت الأرض من سائر الأصناف من نبات وزروع وثمار وأزهير وغير ذلك من الحيوانات على اختلاف أجنسها وأصنافها ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكِ﴾ أي السفن ﴿وَالْأَنْعَامَ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي ذللها لكم وسخرها ويسرها لأكلكم لحومها وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها، ولهذا قال جل وعلا: ﴿لَتَسْتَوُوا عَلَى ظَهُورِهِ﴾ أي لتسنوا متمكين مرتفعين^(١) ﴿عَلَى ظَهُورِهِ﴾ أي على ظهور هذا الجنس ﴿ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةُ رَبِّكُمْ﴾ أي فيما سخر لكم ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ اللَّهِيْ سُبْحَانَ لَنَا هَذَا وَمَا كَنَا لَهُ مَقْرِنِينَ﴾ أي مقاومين، ولو لا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه. قال ابن عباس رضي الله عنهم ما قتادة والسدي وابن زيد: مقرنين، أي مطيقين^(٢)، ﴿وَإِنَا إِلَى رَبِّنَا لَمْ نَقْلِبُوهُنَّ﴾ أي لصائرؤن إلينه بعد مماتنا وإليه سيرنا الأكبر، وهذا من باب التنبية بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبه بالزاد الديني على الزاد الأخرى في قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧] وباللباس الديني على الأخرى في قوله تعالى: ﴿وَرِيشَأْ وَلِبَاسَ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

ذكر الأحاديث الواردة عند ركوب الدابة

[حديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب] رضي الله عنه. قال الإمام أحمد^(٣): حدثنا يزيد، حدثنا شريك بن عبد الله عن أبي إسحاق، عن علي بن ربيعة قال: رأيت علياً رضي الله عنه أتى بدابة، فلما وضع رجله في الركاب قال: باسم الله، فلما استوى عليها قال: الحمد لله ﴿سُبْحَانَ اللَّهِيْ سُبْحَانَ لَنَا هَذَا وَمَا كَنَا لَهُ مَقْرِنِينَ وَإِنَا إِلَى رَبِّنَا لَمْ نَقْلِبُوهُنَّ﴾ ثم حمد الله تعالى ثلاثة وكبير ثلاثة، ثم قال: سبحانك لا إله إلا أنت قد ظلمت نفسى فاغفر لي ثم ضحك، فقلت له: مم ضحكت يا أمير المؤمنين؟ فقال رضي الله عنه: رأيت رسول الله ﷺ فعل مثلما فعلت ثم ضحك، فقلت: مم ضحكت يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «عجب الرب تبارك وتعالى من عبده إذا قال رب اغفر لي، ويقول علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري» وهكذا رواه أبو

(١) ارتفق القوم: صاروا رفقاء، أي يركبونها مترافقين في سفرهم.

(٢) انظر تفسير الطبرى ١١/١٧١.

(٣) المسند ١/١٩٧.

داود^(١) والترمذى^(٢) والنمسائى^(٣) من حديث أبي الأحوص، زاد النمسائى ومنصور عن أبي إسحاق السبئي عن علي بن ربيعة الأسدى الوالبى به. وقال الترمذى: حسن صحيح، وقد قال عبد الرحمن بن مهدي عن شعبة: قلت لأبي إسحاق السبئي: ممن سمعت هذا الحديث؟ قال: من يونس بن خباب، فلقيت يونس بن خباب فقلت: ممن سمعته؟ فقال: من رجل سمعه من علي بن ربيعة، ورواه بعضهم عن يونس بن خباب عن شقيق بن عقبة الأسدى عن علي بن ربيعة الوالبى به.

[حديث عبد الله بن عباس] رضي الله عنهما. قال الإمام أحمد^(٤): حدثنا أبو المغيرة «حدثنا أبو بكر بن عبد الله عن علي بن أبي طلحة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: إن رسول الله ﷺ أرده على دابته، فلما استوى عليها كبر رسول الله ﷺ ثلثاً وحمد ثلثاً، وهلل واحدة، ثم استلقى عليه فضحك، ثم أقبل عليه فقال «ما من أمرىء مسلم يركب فيصنع كما صنعت، إلا أقبل الله عز وجل عليه، فضحك إليه كما ضحكت إليك» تفرد به أحمد.

[حديث عبد الله بن عمر] رضي الله عنهما. قال الإمام أحمد^(٥): حدثنا أبو كامل، حدثنا حماد بن سلمة عن أبي الزبير عن علي بن عبد الله البارقي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: إن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلثاً ثم قال ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنما إلى ربنا لمنقلبون﴾ - ثم يقول - اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا السفر واطو لنا البعيد، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم اصحبنا في سفرينا واخلفنا في أهلهنا». وكان ﷺ إذا رجع إلى أهله قال: «آيّوبن تائبون إن شاء الله عابدون لربنا حامدون»^(٦) وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنمسائى من حديث ابن جريج، والترمذى من حديث حماد بن سلمة، كلامهما عن أبي الزبير به.

[حديث آخر] قال الإمام أحمد^(٧): حدثنا محمد بن عبيد حدثنا محمد بن إسحاق عن محمد بن إبراهيم عن عمرو بن الحكم بن ثوبان عن أبي لاس الخزاعي قال: حملنا رسول الله ﷺ على إبل من إبل الصدقة إلى الحج، فقلنا: يا رسول الله ما نرى أن تحملنا هذه،

(١) كتاب الجهاد باب ٧٤.

(٢) كتاب الدعوات باب ١٥، ٤٦.

(٣) كتاب الافتتاح باب ١٧، والاستعاذه باب ٥٧.

(٤) المسند ١ / ٣٣٠.

(٥) المسند ٢ / ١٤٤.

(٦) أخرجه مسلم في الحج حديث ٤٢٥، ٤٢٩، ٤٢٨، وأبو داود في الجهاد باب ٧٢، ١٥٨، والترمذى في الدعوات باب ٤٢، ٤٦.

(٧) المسند ٤ / ٢٢١.

فقال ﷺ: «ما من بعير إلا في ذروته شيطان، فاذكروا اسم الله عليه إذا ركبتموها كما أمركم، ثم امتهنوها لأنفسكم فإنما يحمل الله عز وجل» أبو لاس اسمه محمد بن الأسود بن خلف.

[حديث آخر] في معناه - قال أحمـد^(١): حدثنا عتاب، أخبرنا عبد الله، وعلى بن إسحاق، أخبرنا عبد الله يعني ابن المبارك، أخبرنا أسامة بن زيد، أخبرني محمد بن حمزة أنه سمع أباه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «على ظهر كل بعير شيطان فإذا ركبتموها فسموا الله عز وجل ثم لا تقصروا عن حاجاتكم».

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادَةِ جُرْئًا إِنَّ الْإِنْسَنَ لَكُفُورٌ مُّبِينٌ ١٥٠ أَمْ أَغَدَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنُكُمْ بِالْبَيْنَ ١٥١ وَإِذَا بَشَرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٥٢ أَوْ أَمْ نَيْشَأُ فِي الْحَلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخَصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ١٥٣ وَجَعَلُوا الْمَلِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِنَّهُمْ أَشَهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتَكْبِ شَهَدَتْهُمْ وَيُسْتَأْنُونَ ١٥٤ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدَتْهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنَّهُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ١٥٥

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما افتروه وكذبوا في جعلهم بعض الأنعام لطواوغيتهم وبعضها الله تعالى، كما ذكر الله عز وجل عنهم في سورة الأنعام في قوله تبارك وتعالى: «وَجَعَلُوا لَهُ مِمَّا ذَرَأً مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا اللَّهُ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشَرِكَاتِنَا فَمَا كَانَ لِشَرِكَاتِهِمْ فَلَا يَصْلِي إِلَيْهِ وَمَا كَانَ اللَّهُ فَهُوَ يَصْلِي إِلَيْهِ شَرِكَاتِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» [الأنعام: ١٣٦] وكذلك جعلوا له في قسمي البنات والبنين أخسهما وأردأهما وهو البنات، كما قال تعالى: «أَلَّمْ يَرَوْهُ أَنَّ الذِّكْرَ وَالْأُنْثَى تَلِكَ إِذَا قُسِّمَهُ ضَيْزِي» [النجم: ٢١ - ٢٢] وقال جل وعلا ههنا: «وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادَةِ جُرْئًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكُفُورٌ مُّبِينٌ».

ثم قال جل وعلا: «أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَانُكُمْ بِالْبَيْنَ» وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار. ثم ذكر تمام الإنكار، فقال جلت عظمته: «وَإِذَا بَشَرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا وَهُوَ كَظِيمٌ» أي إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه الله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة، وتعلوه كابة من سوء ما بشر به، ويتوارى من القوم من خجله من ذلك، يقول تبارك وتعالى: فكيف تأنفون من ذلك وتنسبونه إلى الله عز وجل، ثم قال سبحانه وتعالى: «أَوْ مَنْ يَنْشأُ فِي الْحَلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخَصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ» أي المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلي منذ تكون طفلة وإذا خاصمت فلا عباره لها، بل هي عاجزة عيبة أو من يكون هكذا ينسب إلى جناب الله العظيم، فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن في الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلي وما في معناه ليجبر ما فيها من نقص كما قال بعض شعراء العرب:

[الطویل]

وَمَا الْحُلْيٌ إِلَّا زِينَةٌ مِّنْ نَقِصَّةٍ
يَتَمَّمُ مِنْ حُسْنٍ إِذَا الْحُسْنُ قَصَّرَ
وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْجَمَالُ مَوْفَرًا
كُحْسِنَكَ لَمْ يَحْتَاجْ إِلَى أَنْ يَزُورَا

وأما نقص معناها فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار لا عبارة لها ولا همة، كما قال بعض العرب وقد بشر بنت: ما هي بنعم الولد نصرها بالبكاء، ويرها سرقة، وقوله تبارك تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا نَحْنُ أَيُّ اعْتَدْنَا فِيهِمْ ذَلِكَ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ تَعَالَى قَوْلَهُمْ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿أَشَهَدُوكُمْ خَلْقَهُمْ﴾ أَيْ شَاهِدُوهُ وَقَدْ خَلَقُهُمُ اللَّهُ إِنَّا سَتَكْتَبُ شَهَادَتَهُمْ﴾ أَيْ بِذَلِكَ ﴿وَيَسْأَلُون﴾ عَنْ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهَذَا تهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعْدٌ أَكِيدٌ ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَا هُنْ﴾ أَيْ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ لِحَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ عِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي هِيَ عَلَى صُورِ الْمَلَائِكَةِ الَّتِي هِيَ بَنَاتُ اللَّهِ، فَإِنَّهُ عَالَمٌ بِذَلِكَ وَهُوَ يَقْرَنَا عَلَيْهِ، فَجَمَعُوا بَيْنَ أَنْوَاعِ كَثِيرَةٍ مِّنَ الْخَطَا:

﴿أَحَدُهَا﴾ جَعَلُوهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَلَدًا، تَعَالَى وَتَقْدِيسٌ وَتَنْزِهٌ عَنْ ذَلِكَ عَلَوًا كَبِيرًا.

﴿الثَّانِي﴾ دَعَوْا هُمْ أَنْهُ اصْطَفَى الْبَنَاتَ عَلَى الْبَنِينَ فَجَعَلُوهُمُ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا نَحْنُ أَيُّ اعْتَدْنَا.

﴿الثَّالِث﴾ عِبَادُهُمْ لَهُمْ مَعَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بَرْهَانٍ وَلَا إِذْنٍ مِّنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، بِلْ بِمَجْرِدِ الْآرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ وَالتَّقْلِيدِ لِلْأَسْلَافِ وَالْكُبَرَاءِ وَالْأَبَاءِ وَالْخُبْطِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْجَهَلَاءِ.

﴿الرَّابِع﴾ احْتِجاجُهُمْ بِتَقْرِيرِهِمْ عَلَى ذَلِكَ قَدْرًا، وَقَدْ جَهَلُوهُ فِي هَذَا الْاحْتِجاجِ جَهَلًا كَبِيرًا، فَإِنَّهُ تَعَالَى قَدْ أَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَشَدَّ الْإِنْتَكَارِ فَإِنَّهُ مِنْذَ بُعْثَتِ الرَّسُولِ وَأُنْزِلَ الْكِتَبُ يَأْمُرُ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيَنْهَا عَنْ عِبَادَةِ مَا سَوَاهُ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسَيِّرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوهُمْ كَيْفَ كَانُ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النَّحْلُ: ٣٦] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاسْأَلُ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلَهَةً يَعْبُدُونَ﴾ [الزُّخْرُفُ: ٤٥] وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ حِجَّتِهِمْ هَذِهِ: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أَيْ بِصَحَّةِ مَا قَالُوهُ وَاحْتَجَجُوا بِهِ ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أَيْ يَكْذِبُونَ وَيَقُولُونَ وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنَّهُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يَعْنِي مَا يَعْلَمُونَ قَدْرَةَ اللَّهِ تَبارَكَ وَتَعَالَى عَلَى ذَلِكَ^(١).

أَمْ إِنَّهُمْ كَيْتَبُوا مِنْ قَبْلِهِ، فَهُمْ يَهُ، مُسْتَمِسُكُونَ ﴿١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا أَبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةً وَإِنَّا عَلَىٰ أُمَّةٍ أَكْرَاهُمْ مُهَمَّدُونَ ﴿٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرِيبٍ مِّنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتَرْفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا أَبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةً

(١) انظر تفسير الطبرى ١٧٥ / ١١.

وَإِنَّا عَلَىٰ مَا تَرِهِم مُفْتَدِونَ ﴿٣﴾ قَلْ أَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ إِبَاءَ كَفَالُوا إِنَّا بِمَا أَرْسَلْنَا
بِهِ كَفِرُونَ ﴿٤﴾ فَانْقَمَّا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٥﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة «أم آتيناهم كتاباً من قبله» أي من قبل شركهم (فهم به مستمسكون) أي فيما هم فيه ليس الأمر كذلك، قوله عز وجل: «أم أزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون» [الروم: ٣٥] أي لم يكن ذلك. ثم قال تعالى: «بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإننا على آثارهم مهتدون» أي ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد بأنهم كانوا على أمة والمراد بها الدين ههنا. وفي قوله تبارك وتعالى: «إن هذه أمتكم أمة واحدة» [الأنبياء: ٩٢] وقولهم: «إنا على آثارهم» أي وراءهم (مهتدون) دعوى منهم بلا دليل. ثم بين جل وعلا أن مقالة هؤلاء قد سبقوهم إليها أشياهم ونظراً لهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل، تشبهت قلوبهم فقالوا مثل مقالتهم (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون) [الذاريات: ٥٢ - ٥٣] وهكذا قال ههنا: «وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإننا على آثارهم مهتدون».

ثم قال عز وجل: «قل» أي يا محمد لهؤلاء المشركين «أأو جئتم بأهدي مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون» أي ولو علموا وتيقنو صحة ما جئتم به لما انقادوا لذلك لسوء قصدتهم ومكابرتهم للحق وأهله. قال تعالى: «فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ» أي من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب كما فعله تبارك وتعالى في قصصهم «فانظر كيف كان عاقبة المكذبين» أي كيف بادوا وهلكوا وكيف نجى الله المؤمنين.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمَ لِآيَهِ وَقَوْمِهِ إِنِّي بَرَأُ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّمَا سَيِّهُدِينَ ﴿٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلْمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٨﴾ بَلْ مَنْتَعَتْ هَذِهِ لَهْوَلَاءُ وَآبَاءُهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمْ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ قَالُوا هَذِهِ سِحْرٌ وَلَيْا بِهِ كَفِرُونَ ﴿١٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنَ ﴿١١﴾ أَهُمْ يَقِسِّمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ مَنْ فَسَدَ بَيْنَهُمْ مَعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَتِ لِتَسْخِيدَ بَعْضَهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَحْمِلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةٌ وَيَحْدَدَ لَجَعْلَنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُبُوْتُهُمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَطْهَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَوْبَا وَسُرُّا عَلَيْهَا يَشْكُوتُ ﴿١٤﴾ وَرُخْرُقاً وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَسَّ الْحَرَقَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ
لِلْمُتَّقِينَ

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء والد من بعث بعده من الأنبياء

الذى تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوّل، فقال: «إنّي براء مما تعبدون إلّا الذي فطرني فإنه سيهدّين وجعلها كلمة باقية في عقبه» أي هذه الكلمة وهي عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوّل، وهي لا إله إلّا الله أي جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله تعالى من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام «لعلهم يرجعون» أي إليها.

قال عكرمة ومجاحد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم في قوله عز وجل: «وجعلها كلمة باقية في عقبه» يعني لا إله إلّا الله لا يزال في ذريته من يقولها^(١)، وروي نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال ابن زيد: كلمة الإسلام وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة، ثم قال جل وعلا: «بل متعت هؤلاء» يعني المشرّكين «واباءهم» أي فطّاول عليهم العمر في ضلالهم «حتى جاءهم الحق ورسول مبين» أي بين الرسالة والنذارة «ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإننا به كافرون» أي كابروه وعاندوه ودفعوا بالصدور والراح كفراً وحسداً وبغيًا «وقالوا» أي كالمعترضين على الذي أنزله تعالى وتقدس «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القراءين عظيم» أي هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من القراءين؟ يعنيون مكة والطائف، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة ومجاحد ومحمد بن كعب القرظي وقتادة والسدي وابن زيد، وقد ذكر غير واحد منهم أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقي.

وقال مالك عن زيد بن أسلم والضحاك والسدي: يعنيون الوليد بن المغيرة ومسعود بن عمرو الثقي. وعن مجاهد: يعنيون عمير بن عمرو بن مسعود الثقي وعنه أيضاً أنهم يعنيون عتبة بن ربيعة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: جباراً من جبارية قريش، وعنه رضي الله عنهما أنهم يعنيون الوليد بن المغيرة وحبّيب بن عمير الثقي، وعن مجاهد: يعنيون عتبة بن ربيعة بمكة وابن عبد ياليل بالطائف. وقال السدي: عنوا بذلك الوليد بن المغيرة وكنانة بن عمرو بن عمير الثقي، والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدين كان قال الله تبارك وتعالى راداً عليهم في هذا الاعتراض «أهـم يقسمون رحمة ربـك» أي ليس الأمر مردوداً إليـهم. بل إلى الله عز وجل، والله أعلم حيث يجعل رسالـاته، فإـنه لا ينزلـها إـلا على أـركـي الخلق قليـاً ونفسـاً. وأـشرفـهم بيـتاً، وأـطـهرـهم أـصـلاً.

ثم قال عز وجل مبيناً أنه قد فاوت بين خلقـه فيما أعطاـهم من الأـموـال والأـرـزـاق والـعـقوـبـ والـفـهـومـ وـغـيـرـ ذـلـكـ منـ القـوىـ الـظـاهـرـةـ وـالـبـاطـنـةـ، فـقاـلـ: «ـنـحـنـ قـسـمـنـاـ بـيـنـهـمـ مـعـيـشـهـمـ فـيـ الـحـيـاةـ الدـنـيـاـ وـرـفـعـنـاـ بـعـضـهـمـ فـوـقـ بـعـضـ درـجـاتـ» الآيةـ. وـقولـهـ جـلتـ عـظـمـتـهـ: «ـلـيـخـذـ بـعـضـهـمـ بـعـضاـ»

(١) انظر تفسير الطبرى ١١/١٧٩.

سخرياً﴿ قيل معناه ليسخر بعضهم بعضاً في الأعمال لاحتياج هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، قاله السدي وغيره . وقال قتادة والضحاك ليملك بعضهم بعضاً وهو راجع إلى الأول : ثم قال عز وجل : ﴿ورحمة ربكم خير مما يجمعون﴾ أي رحمة الله بخلقه خير لهم مما بأيديهم من الأموال وممتع الحياة الدنيا ، ثم قال سبحانه وتعالى : ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة﴾ أي لو لا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاء المال دليل على محبتنا لمن أعطيناهم فيجتمعوا على الكفر لأجل المال هذا معنى قول ابن عباس والحسن وقتادة والسدي وغيرهم ﴿لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج﴾ أي سلام ودرجأ من فضة قاله ابن عباس ومجاحد وقتادة والسدي وابن زيد وغيرهم ﴿عليها يظهرون﴾ أي يصعدون ولبيوتهم أبواباً أي أغلاقاً على أبوابهم ﴿وسراً عليها يتکئون﴾ أي جميع ذلك يكون فضة ﴿وزخرفاً﴾ أي وذهبأ ، قاله ابن عباس وقتادة والسدي وابن زيد .

ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ وإن كل ذلك لما ممتع الحياة الدنيا﴾ أي إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيقة عند الله تعالى ، أي يعجل لهم بحسنانهم التي يعملونها في الدنيا ماكل ومشارب ليواجهوا الآخرة ، وليس لهم عند الله تبارك وتعالى حسنة يجزيهم بها كما ورد به الحديث الصحيح . وورد في حديث آخر «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شرية ماء» أسنده البغوي من روایة زکریا بن منظور عن أبي حازم عن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ فذكره . ورواه الطبراني من طريق زمعة بن صالح عن أبي حازم عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ «لو عدلت الدنيا عند الله جناح بعوضة ما أعطى كافراً منها شيئاً» .

ثم قال سبحانه وتعالى : ﴿والآخرة عند ربكم للمتقين﴾ أي هي لهم خاصة لا يشاركون فيها أحد غيرهم ، ولهذا لما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله ﷺ حين صعد إليه في تلك المشربة لما آلى ﷺ من نسائه فرأه على رمال حصير قد أثر بجنبه ، فابتدرت عيناه بالبكاء وقال : يا رسول الله هذا كسرى وقيصر فيما هما فيه ، وأنت صفوة الله من خلقه ، وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس وقال : «أو في شاك أنت يا ابن الخطاب؟» ثم قال ﷺ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا»^(١) وفي روایة «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»^(٢) . وفي الصحيحين أيضاً وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال : «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ، ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة»^(٣) وإنما خولهم الله تعالى

(١) أخرج البخاري في المظالم باب ٢٥ ، ومسلم في الرضاع حديث ١٠١ ، وأحمد في المسند ١/٣٤ ، ٢/٢٩٨ .

(٢) أخرج البخاري في تفسير سورة ٦٦ باب ٢ ، وابن ماجه في الزهد باب ١١ .

(٣) أخرج البخاري في الأطعمة باب ٢٩ ، ومسلم في اللباس حديث ٤ ، ٥ ، وابن ماجه في الأشربة باب ٢٥ ، وأحمد في المسند ١/٣٢١ ، ٤/٧٦ .

في الدنيا لحقارتهم كما روى الترمذى وابن ماجه من طريق أبي حازم عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء أبداً»^(١) قال الترمذى: حسن صحيح.

وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَفِقَضْ لَهُ شَيْطَنًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۝ وَإِنَّمَا لِصُدُورِهِمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ۝ حَقَّ إِذَا جَاءَهُمْ قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقِينَ فَيَقُولُ الْقَرِينُ ۝ وَلَن يَنْفَعَكُمْ امْلَيْمَ اذْظَلَمْتُمْ اذْكُرْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝ أَفَأَنْتَ سَمِيعُ الصَّمَاءِ اَوْ تَهْدِي الْعُمَىٰ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٌ ۝ فَإِمَّا نَذَهَبُنَا إِلَيْكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُّنْقَمُونَ ۝ اَوْ رُبَّكَ الَّذِي وَعَدَنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدُرُونَ ۝ فَاسْتَمِسِكْ بِاللَّهِ اُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَإِنَّهُ لِذِكْرِكَ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْلَوُنَ ۝ وَسْأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَهُ يَعْبُدُونَ ۝

يقول تعالى: «وَمَنْ يَعْشُ» أي يتعامى ويتجاهل ويعرض «عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ» والعشا في العين ضعف بصرها، والمراد هنا عشا البصيرة «نَقِيضٌ لِهِ شَيْطَانًا فَهُوَ لِقَرِينِكُمْ» كقوله تعالى: «وَمَنْ يَشَاقِقُ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعُ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُولَهُ مَا تُولِي وَنَصْلُهُ جَهَنَّمْ وَسَاعَتْ مَصِيرًا» [النساء: ١١٥] الآية، وكقوله: «فَلَمَّا أَزَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» [الصف: ٥] وكقوله جل جلاله: «وَقَيْضَنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَزَيَّنَاهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمُمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجُنُونِ وَالْإِنْسَانُ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ» [فصلت: ٢٥] الآية، ولهذا قال تبارك وتعالى ههنا: «وَإِنَّهُمْ لِيَصْدُونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا» ^(٢) أي هذا الذي تغافل عن الهدى نقىض له من الشياطين من يضلهم ويهديه إلى صراط الجحيم. فإذا وافى الله عز وجل يوم القيمة يتبرم بالشيطان الذي وكل به ^(٣) قال يا ليت بيئي وبينك بعد المشرقين فبئس القرین ^(٤) وقرأ بعضهم «حتى إذا جاءانا» يعني القرین والمقارن.

قال عبد الرزاق : أخبرنا عمر عن سعيد الجريري قال : بلغنا أن الكافر إذا بعث من قبره يوم القيمة سفع بيده شيطان فلم يفارقه حتى يصيرهما الله تبارك وتعالى إلى النار ، فذلك حين يقول ﴿يا ليت بيبني وبينك بعد المشرقين فبئس القررين﴾ والمراد بالمشرقين هاهنا هو ما بين المشرق والمغرب وإنما استعمل هاهنا تغليباً كما يقال : القمران والعمران والأبوان ، قاله ابن جرير ^(٣) وغيره .

ثم قال تعالى: «ولن ينفعكماليومإذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون» أي لا يغنى عنكم

(١) آخر جه الترمذى في الزهد باب ١٣ ، وابن ماجه في الزهد باب ٣ .

(٢) انظر تفسير الطبرى ١٨٩/١١.

(٣) تفسير الطهري ١٨٩/١١

اجتماكم في النار واشتراككم في العذاب الأليم . قوله جلت عظمته : ﴿أَفَأَنْتَ تسمع الصم أو تهدي العمى ومن كان في ضلال مبين﴾ أي ليس ذلك إليك إنما عليك البلاغ وليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الحكم العدل في ذلك ثم قال تعالى : ﴿فَإِمَا نَذَهَبْنَا بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ أي لا بد أن ننتقم منهم ونعقابهم ولو ذهبت أنت ﴿أَوْ نَرِيكَ الَّذِي وَعْدَنَا هُنَّمَا قَادِرُونَ﴾ أي نحن قادرون على هذا وعلى هذا ولم يقبض الله تعالى رسوله ﷺ حتى أقر عينه من أعدائه وحكمه في نواصيهم ، وملكه ما تضمنته صياصيهم ! هذا معنى قول السدي واختاره ابن جرير .

وقال ابن جرير^(١) : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور عن معمر قال : تلا قتادة ﴿فَإِمَا نَذَهَبْنَا بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ فقال : ذهب النبي ﷺ وبقيت النسمة ، ولن يري الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ في أمته شيئاً يكرهه حتى مضى ، ولم يكن النبي قد إلا وقد رأى العقوبة في أمته إلا نبيكم ﷺ . قال : وذكر لنا أن رسول الله ﷺ أري ما يصيب أمته من بعده فما رئي ضاحكاً منبسطاً حتى قبضه الله عز وجل ، وذكر من روایة سعيد بن أبي عروبة عن قتادة نحوه ، ثم روى ابن جرير عن الحسن نحو ذلك أيضاً ، وفي الحديث «النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد ، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون»^(٢) ثم قال عز وجل ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي خذ بالقرآن المنزل على قلبك ، فإنه هو الحق وما يهدي إليه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم الموصل إلى جنات النعيم والخير الدائم المقيم .

ثم قال جل جلاله : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قيل معناه لشرف لك ولقومك ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد ، واختاره ابن جرير^(٣) ولم يحك سواه وأورد البغوي هنا حديث الزهري عن محمد بن جبیر بن مطعم عن معاوية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن هذا الأمر في قريش لا يناظرهم فيه أحد إلا أكبه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدين»^(٤) رواه البخاري ومعناه أنه شرف لهم من حيث إنهم أنزل بلغتهم ، فهم أفهم الناس له فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه ، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخلص من المهاجرين السابقين الأولين ومن شايعهم وتبعهم ، وقيل معناه ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي لتذكير لك ولقومك ، وتخسيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم ، كقوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرٌ كُلُّاً تَعْقِلُونَ﴾ [الأنياء : ١٠] وكقوله تبارك

(١) تفسير الطبرى ١١/١٩٠.

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة حديث ٢٠٧ ، وأحمد في المسند ٤/٣٩٨ ، ٣٩٩ .

(٣) تفسير الطبرى ١١/١٩١ .

(٤) أخرجه البخاري في المناقب باب ٢ ، والأحكام باب ٢ ، وأحمد في المسند ٤/٩٤ .

وتعالى : «وأنذر عشيرتك الأقربين» [الشعراء: ٢١٤] «وسوف تسألون» أي عن هذا القرآن، وكيف كتم في العمل به والاستجابة له .

وقوله سبحانه وتعالى: «وأسأل من أرسلنا من قبلك من رسالنا أجعلنا من دون الرحمن آلة يعبدون» أي جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، كقوله جلت عظمته: «ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن عبدوا الله واجتنبوا الطاغوت» [التحل: ٣٦] قال مجاهد في قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: واسأله الذين أرسلنا إليهم قبلك من رسالنا. وهكذا حكا ه قتادة والضحاك والسدوي عن ابن مسعود رضي الله عنه، وهذا كأنه تفسير لا تلاوة، والله أعلم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: واسألهم ليلة الإسراء، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جمعوا له، واختار ابن جرير^(١) الأول، والله أعلم.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ إِلَيْ فَرْعَوْنَ وَمَلِئِيهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِنَيَّابِنَا
إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٨﴾ وَمَا نُرِيَهُمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أَخْتِهَا وَأَخْذَنَهُمْ بِالْعِذَابِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا يَتَأْلِمُ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٥٠﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ
الْعِذَابَ إِذَا هُمْ يَنكِثُونَ ﴿٥١﴾

يقول تعالى مخبراً عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة والأتباع والرعايا من القبط وبني إسرائيل يدعوهם إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وأنه بعث معه آيات عظاماً كيده وعصاه، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها، وكذبوا وسخروا منها وضحكوا من جاءهم بها^(١) وما نزّل لهم من آية إلا هي أكبر من أختها^(٢) ومع هذا ما رجعوا عن غيّهم وضلالهم، وجهلهم وخيالهم وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى عليه الصلاة والسلام ويتلطّفون له في العبارة بقولهم: **«يا أيها الساحر» أي العالم، قاله ابن جرير^(٣).**

وكان علماء زمانهم هم السحرة. ولم يكن السحر في زمانهم مذموماً عندهم فليس هذا منهم على سبيل الانتقاد منهم لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك، وإنما هو تعظيم في زعمهم، ففي كل مرة يعدون موسى عليه السلام إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا به ويرسلوا معه بنى إسرائيل وفي كل مرة ينكحون ما عاهدوا عليه، وهذا كقوله تبارك وتعالى:

(١) تفسير الطبرى / ١١ / ١٩٢ .

(٢) تفسير الطه / ١١ / ١٩٤

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطَّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقَمْلَ وَالضَّفَادَعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مَفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مَجْرِيْنَ وَلَمَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزَ قَالَ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَاهَدَ عَنْكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنِ الرِّجْزِ لَنُؤْمِنْ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجْلِهِمْ بِالْغَوَّةِ إِذَا هُمْ يَنْكِثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٣ - ١٣٥].

وَنَادَى فِرْعَوْنٌ فِي قَوْمِهِ، قَالَ يَنْقُوْرِي أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مَصْرَ وَهَذِهُ الْأَنْهَارُ بَحْرِي مِنْ تَحْتِيْ أَفَلَا تُبَصِّرُونَ ﴿١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا اللَّهُي هُوَمِهِنْ وَلَا يَكَادُ يُبَيِّنُ ﴿٢﴾ فَأَنْوَلَ الْقَيْعَدَةَ أَسْوَرَةً مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَكِيَّةَ مُقْتَرِنَيْنَ ﴿٣﴾ فَأَسْتَخَفَ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَدِسِقِينَ ﴿٤﴾ فَلَمَّا مَاسَقُوْنَا أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَنَّا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده، أنه جمع قومه فنادي فيهم متبايناً مفتخرًا بملك مصر وتصرفة فيها ﴿أليس لي ملك مصر وهذه الأنهر تجري من تحتي﴾ قال قتادة: قد كانت لهم جنات وأنهار ماء^(١) ﴿أفلا تبصرون﴾ أي أفلأ ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، يعني وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء وهذا كقوله تعالى: ﴿فحشر فنادي فقال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾ [النازعات: ٢٣ - ٢٥].

وقوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ قال السدي: يقول بل أنا خير من هذا الذي هو مهين^(٢)، وهكذا قال بعض نحاة البصرة: إن ألم هبنا بمعنى بل، ويعيد هذا ما حكاه الفراء عن بعض القراء أنه قرأها ﴿أَمَا أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ قال ابن جرير^(٣): ولو صحت هذه القراءة لكان معناها صحيحًا واصحًا، ولكنها خلاف قراءة الأمسكار فإنهم قرأوا ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ على الاستفهام [قلت] وعلى كل تقدير فإنما يعني فرعون لعن الله بذلك أنه خير من موسى عليه الصلاة والسلام، وقد كذب في قوله هذا كذباً بينماً واصحًا، فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيمة. يعني بقوله ﴿مهين﴾ كما قال سفيان حقير، وقال قتادة والسدلي: يعني ضعيف. وقال ابن جرير: يعني لا ملك له ولا سلطان ولا مال ﴿وَلَا يَكَادُ يُبَيِّن﴾ يعني لا يكاد يفصح عن كلامه فهو عبي حصر.

قال السدي ﴿لَا يَكَادُ يُبَيِّن﴾ أي لا يكاد يفهم. وقال قتادة والسدلي وابن جرير: يعني عبي اللسان، وقال سفيان: يعني في لسانه شيء من الجمرة حين وضعها في فيه وهو صغير، وهذا الذي قاله فرعون لعن الله كذب واحتراق، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد وهو ينظر إلى موسى عليه الصلاة والسلام بعين كافرة شقيقة، وقد كان موسى عليه السلام من الجلاله والعظمة

(١) انظر تفسير الطبرى ١٩٥ / ١١.

(٢) تفسير الطبرى ١٩٥ / ١١.

(٣) تفسير الطبرى ١٩٧ / ١١.

والبهاء في صورة يبهر أبصار ذوي الألباب.

وقوله: «مَهِين» كذب. بل هو المهين الحقير خلقة وخلقاً وديناً، وموسى هو الشريف الصادق البار الراشد. قوله: «وَلَا يَكُادْ يَبْيَن» افتراء أيضاً فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة، فقد سأله عز وجل أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله تبارك وتعالى له ذلك في قوله: «قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى» وبتقدير أن يكون قد بقي شيء لم يسأل إزالته، كما قاله الحسن البصري وإنما سأله زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام، فالأشياء الخلقية التي ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم عليها، وفرعون وإن كان يفهم ولهم عقل، فهو يدرى هذا، وإنما أراد الترويج على رعيته فإنهما كانوا جهلاً أغبياء وهكذا قوله: «فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ أَسْوَرَةً مِنْ ذَهَبٍ» وهي ما يجعل في الأيدي من الحلي.

قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة وغير واحد «أو جاء معه الملائكة مقتربين» أي يكتفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه، نظر إلى الشكل الظاهر ولم يفهم السر المعنوي الذي هو أظهر مما نظر إليه لو كان يعلم، ولهذا قال تعالى: «فَاسْتَخْفْ قَوْمَهُ فَأَطْاعُوهُ» أي استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له «إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسْقِنْ» قال الله تعالى: «فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «آسَفُونَا» أسطخطونا، وقال الصحاح عنه: أغضبونا، وهكذا قال ابن عباس أيضاً ومجاحد وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب القرظي وقتادة والسدي وغيرهم من المفسرين.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثنا ابن لهيعة عن عقبة بن مسلم التجيبي عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا رأَيْتَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَعْطِي الْعَبْدَ مَا يَشَاءُ وَهُوَ مَقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ مِنْهُ لَهُ ثُمَّ تَلَاقَ»: «فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ» وحدثنا أبي، حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحمانى، حدثنا قيس بن الربيع عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال: كنت عند عبد الله رضي الله عنه، فذكر عنده موت الفجاءة، فقال: تخفيف على المؤمن وحرس على الكافر، ثم قرأ رضي الله عنه «فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ» وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: وجدت النقطة مع الغفلة يعني قوله تبارك وتعالى: «فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ» قوله سبحانه وتعالى: «فَجَعَلْنَاهُمْ سَلْفًا وَمِثْلًا لِلآخَرِينَ» قال أبو مجلز: سلفاً لمثل من عمل بعملهم. وقال هو مجاهد: «وَمِثْلًا» أي عبرة لمن بعدهم، والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب، وإليه المراجع والمأب.

وَلَمَّا ضُرِبَ أَبْنُونَ مَرِيمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمَكَ مِنْهُ يَصْدُونَ ﴿٦﴾ وَقَاتَلُوا أَمَّا الْهُنَّاسَ خَيْرًا هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُرُونَ قَوْمٌ حَصْمُونَ ﴿٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَا لَهُ مَثَلًا لَبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٨﴾ وَلَوْ نَشَاءْ جَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٩﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَحْتَرِكُهَا وَأَتَيْعُونَ هَذَا صَرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٠﴾ وَلَا يَصْدُقُكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ دُعُودٌ شَيْئٌ ﴿١١﴾ وَلَمَّا جَاءَهُ عِيسَى بِالْبَيْتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلَا يُؤْتِنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْلِقُونَ فِيهِ فَاقْتُلُوا أَهْلَهُ وَأَطْبِعُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّنَ وَرَبِّكُمْ فَأَعْبُدُهُ هَذَا صَرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٣﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْآيَمِ ﴿١٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن تعنت قريش في كفرهم وتعدمهم العناid والجدل: «ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون» قال غير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة والسدي والضحاك: يضحكون أي أعجبوا بذلك، وقال قتادة: يجزعون ويضحكون. وقال إبراهيم النخعي: يعرضون، وكان السبب في ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة حيث قال: وجلس رسول الله ﷺ يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ، فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنت لها واردون» [الأنياء: ٩٨] الآيات.

ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبير التميمي حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد، وقد زعم محمد أنا ومانعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبير: أما والله لو وجدته لخصمته، سلوا محمداً أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده، فتحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيزاً، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبير، ورأوا أنه قد احتاج وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته» فأنزل الله عز وجل: «إن الذين سبقت لهم ملائكة أولئك عنها مبعدون» [الأنياء: ١٠١] أي عيسى وعزيز ومن عبد معهما من الأحبار والرهبان، الذين مضوا على طاعة الله عز وجل، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلاله أرباباً دون الله، ونزل فيما يذكر من أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله «وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون» [الأنياء: ٢٦] الآيات.

ونزل فيما يذكر من أمر عيسى عليه الصلاة والسلام، وأنه يعبد من دون الله، وعجب الوليد ومن حضر من حجته وخصوصته «ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون» أي يصدون عن أمرك بذلك من قوله. ثم ذكر عيسى عليه الصلاة والسلام فقال: «إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون وإنه لعلم

للساعة》 أي ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسمام فكفى به دليلاً على علم الساعة يقول: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَ بِهَا وَاتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

وذكر ابن جرير^(١) من رواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿وَلَمَّا ضَرَبَ أَبْنَ مَرِيمَ مثلاً إِذَا قَوْمَكَ مِنْهُ يَصْدُونَ﴾ قال: يعني قريشاً، لما قيل لهم: ﴿إِنْكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبٌ جَهَنَّمُ أَنْتُمْ لَهَا وَارْدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] إلى آخر الآيات. فقالت له قريش: فما ابن مريم؟ قال «ذاك عبد الله ورسوله» فقالوا: والله ما يريد هذا إلا أن تتخذه رباً كما اتخذت الأنصارى عيسى ابن مريم ربأً، فقال الله عز وجل: ﴿مَا ضَرَبَهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصْمُونَ﴾.

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا شيبان عن عاصم بن أبي النجود، عن أبي رزين، عن أبي يحيى مولى ابن عقيل الأنصارى، قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لقد علمت آية من القرآن ما سأله عندها رجل فقط، فما أدرى أعلمها الناس فلم يسألوا عنها أو لم يفطروا لها فيسألوا عنها. قال: ثم طرق يحدثنا، فلما قام تلاومنا أن لا نكون سائلنا عنها، فقلت: أنا لها إذا راح غداً، فلما راح الغد قلت: يا ابن عباس ذكرت أمس أن آية من القرآن لم يسألك عنها رجل فقط، فلا تدري أعلمها الناس أم لم يفطروا لها، فقلت: أخبرني عنها وعن اللاتي قرأت قبلها.

قال رضي الله عنه: نعم إن رسول الله ﷺ قال لقريش «يا معاشر قريش إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير» وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام، وما تقول في محمد ﷺ، فقالوا: يا محمد ألسنت تزعم أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان نبياً وعبدًا من عباد الله صالحًا، فإن كنت صادقاً كان آهتهم كما يقولون.

قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا ضَرَبَ أَبْنَ مَرِيمَ مثلاً إِذَا قَوْمَكَ مِنْهُ يَصْدُونَ﴾ قلت: ما يصدون؟ قال: يضحكون ﴿وَإِنَّهُ لِعِلْمٌ لِلْسَّاعَةِ﴾ قال: هو خروج عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام قبل يوم القيمة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن يعقوب الدمشقى، حدثنا آدم، حدثنا شيبان عن عاصم بن أبي النجود عن أبي أحمد مولى الأنصار عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معاشر قريش إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير» فقالوا له: ألسنت تزعم أن عيسى كان نبياً وعبدًا من عباد الله صالحًا فقد كان يعبد من دون الله؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا ضَرَبَ أَبْنَ مَرِيمَ مثلاً إِذَا قَوْمَكَ مِنْهُ يَصْدُونَ﴾ وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضَرَبَ أَبْنَ مَرِيمَ مثلاً إِذَا قَوْمَكَ مِنْهُ يَصْدُونَ﴾ قالت قريش إنما يريد محمد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عليه السلام. ونحو هذا قال قتادة وقوله: ﴿وَقَالُوا

(١) تفسير الطبرى ١١/٢٠٠، ٢٠٠١.

(٢) المسند ١/٣١٨.

اللهتنا خير أم هو؟ قال قتادة: يقولون اللهنا خير منه وقال قتادة: قرأ ابن مسعود رضي الله عنه وقالوا اللهنا خير أم هذا، يعنون محمداً^(١).

وقوله تبارك وتعالى: «ما ضربوه لك إلا جدلاً» أي مراء، وهم يعلمون أنه بوارد على الآية، لأنها لما لا يعقل، وهي قوله تعالى: «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم» [الأنبياء: ٩٨] ثم هي خطاب لقريش، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه، فتعين أن مقالتهم إنما كانت جدلاً منهم ليسوا يعتقدون صحتها.

وقد قال الإمام أحمد^(٢) رحمه الله تعالى: حدثنا ابن نمير، حدثنا حجاج بن دينار عن أبي غالب عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أورثوا الجدل» ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية «ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون»^(٣) وقد رواه الترمذى وابن ماجه وابن جرير من حديث حجاج بن دينار به، ثم قال الترمذى: حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديثه كذا قال وقد روی من وجه آخر عن أبي أمامة رضي الله عنه بزيادة، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا حميد بن عياش الرملى، حدثنا مؤمل، حدثنا حماد، أخبرنا ابن مخزوم عن القاسم أبي عبد الرحمن الشامي عن أبي أمامة رضي الله عنه، قال حماد: لا أدرى رفعه أم لا؟ قال: ما ضللت أمة بعد نبيها إلا كان أول ضلالها التكذيب بالقدر، وما ضللت أمة بعد نبيها إلا أعطوا الجدل، ثم قرأ «ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون»^(٤).

وقال ابن جرير^(٥) أيضاً: حدثنا أبو كريب، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن عن عبادة بن عباد عن جعفر عن القاسم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يتنازعون في القرآن، فغضب غضباً شديداً حتى كأنما صب على وجهه الخل، ثم قال ﷺ: «لا تضرروا كتاب الله بعضه ببعض فإنه ما ضل قوم قط إلا أتوا الجدل» ثم تلا ﷺ «ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون» وقوله تعالى: «إن هو إلا عبد أنعمنا عليه» يعني عيسى عليه الصلاة والسلام. ما هو إلا عبد من عباد الله عز وجل أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة. «وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل» أي دلالة وحجة وبرهاناً على قدرتنا على ما نشاء.

وقوله عز وجل: «ولو نشاء لجعلنا منكم» أي بذلك «ملائكة في الأرض يخلفون» قال السدي: يخلفونكم فيها، وقال ابن عباس رضي الله عنهم وقتادة: يختلف بعضهم بعضاً كما

(١) تفسير الطبرى ٢٠٢ / ١١.

(٢) المسند ٥ / ٢٥٢، ٢٥٦.

(٣) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ٤٣، وابن ماجه في المقدمة باب ٧.

(٤) تفسير الطبرى ١١ / ٢٠٣.

(٥) تفسير الطبرى ١١ / ٢٠٣.

يختلف بعضكم بعضاً، وهذا القول يستلزم الأول، قال مجاهد: يعمرون الأرض بذلك.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ لَعِلْمَ لِلسَّاعَةِ﴾ تقدم تفسير ابن إسحاق أن المراد من ذلك ما بعث به عيسى عليه الصلاة والسلام، من إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص وغير ذلك من الأسمام، وفي هذا نظر وأبعد منه ما حكاه قتادة عن الحسن البصري وسعيد بن جبير، أن الصمير في وأنه عائد على القرآن، بل الصحيح أنه عائد على عيسى عليه الصلاة والسلام فإن السياق في ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيمة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ مَنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنْ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩] أي قبل موت عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى ﴿وَإِنْ لَعِلْمَ لِلسَّاعَةِ﴾ أي أمارة ودليل على وقوع الساعة. قال مجاهد ﴿وَإِنْ لَعِلْمَ لِلسَّاعَةِ﴾ ي آية للساعة خروج عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيمة، وهكذا روي عن أبي هريرة وابن عباس وأبي العالية وأبي مالك وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزل عيسى عليه السلام قبل يوم القيمة إماماً عادلاً وحكمـاً مقسطـاً.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَ بِهَا﴾ أي لا تشکوا فيها أنها واقعة وكائنة لا محالة ﴿وَاتَّبِعُونَ﴾ أي فيما أخبركم به ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَلَا يَصِدِّنُكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي عن اتباع الحق ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌ مُبِينٌ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جَئْنَكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ أي بالنبوة ﴿وَلَأَبْيَنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قال ابن جرير^(١) يعني من الأمور الدينية لا الدنيوية، وهذا الذي قاله حسن جيد ثم رد قول من زعم أن بعض هنـا بمعنى كلـ، واستشهد بقول لبيد الشاعر حيث قال: [الكامل]

تَرَاكَ أَمْكَنَةً إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَعْتَلِقُ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا^(٢)

وأولوه على أنه أراد جميع النفوس. قال ابن جرير^(٣) إنما أراد نفسه فقط، وعبر بالبعض عنها، وهذا الذي قاله محتمل. قوله عز وجل: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي فيما أمركم به ﴿وَأَطِيعُونَ﴾ فيما جئتم به ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي أنا وأنت عبيد له فقراء مشتركون في عبادته وحده لا شريك له ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا الذي جئتم به هو

(١) تفسير الطبرى ٢٠٧/١١.

(٢) البيت للبيد بن ربيعة في ديوانه ص ٣١٣، والخصائص ١/٧٤، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٧٧٢، وشرح شواهد الشافية ص ٤١٥، والصاحبى في فقه اللغة ص ٢١٥، ومجالس ثعلب ص ٦٣، ٣٤٦، ٤٣٧، والمحتسب ١/١١١، وتفسير الطبرى ١١١/٢٠٧، وبلا نسبة في خزانة الأدب، ٣٤٩/٧، والخصائص ٢/٣١٧، ٣٤١.

(٣) لفظ ابن جرير الطبرى ١١/٢٠٧: وأما قول ليد «أو يتعلـق بعض النفـوس»، فإنه إنما قال ذلك أيضاً كذلك، لأنـه أراد: أو يتعلـق نفسه حمامـها، نفسه من بين النفـوس لا شـك أنها بعض لا كـلـ.

الصراط المستقيم وهو عبادة الرب جل وعلا وحده. قوله سبحانه وتعالى: ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ أي اختلفت الفرق وصاروا شيئاً فيه، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله وهو الحق ومنهم من يدعى أنه ولد الله، ومنهم من يقول إنه الله. تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ولهذا قال تعالى: ﴿فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١﴾ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِيَعْصِي عَدُوًّا إِلَّا الْمُتَقِينَ ﴿٢﴾ يَعْبَادُ لَا حَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْشُرٌ تُحْرِرُونَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ أَمَّا بَيْتَنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٤﴾ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَتْمَمُوا زَرْجُوكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٥﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَاحَافٍ مِّنْ دَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشَهَّدُ إِلَّا نَفْسٌ وَتَلَدُّ الْأَعْيُنُ وَأَشْرُقُ فِيهَا خَلِيلُوكَ ﴿٦﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ لَكُمْ فِيهَا فِكَاهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُونُ ﴿٨﴾

يقول تعالى: هل ينتظرون هؤلاء المشركون المكذبون للرسل ﴿إلا الساعة أن تأتيهم بغبة وهم لا يشعرون﴾ أي فإنها كائنة لا محالة وواقعة، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعددين فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها فحيثند يندمون كل الندم حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم، قوله تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِيَعْصِي عَدُوًّا إِلَّا الْمُتَقِينَ﴾ أي كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تقلب يوم القيمة عداؤة، إلا ما كان الله عز وجل فإنه دائم بدوامه، وهذا كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أُوْثَانًا مُّوْدَةٌ بَيْنَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِعَصْبَعِكُمْ وَبِلِعْنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَا وَأْكَمْ النَّارَ وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي رضي الله عنه ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِيَعْصِي عَدُوًّا إِلَّا الْمُتَقِينَ﴾ قال: خليلان مؤمنان وخليلان كافران، فتوفي أحد المؤمنين وبشر بالجنة، فذكر خليله فقال: اللهم إن فلاناً خليلي كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر، وينبئني أنني ملاقيك، اللهم فلا تضلني حتى تريه مثلما أريتني، وترضي عنه كما رضيت عنني، فيقال له اذهب فلو تعلم ماله عندي لضحكك كثيراً وبكيت قليلاً قال: ثم يموت الآخر فتجمعت أرواحهما فيقال: ليشن أحدكم على صاحبه فيقول كل واحد منهمما لصاحبه: نعم الأخ ونعم الصاحب ونعم الخليل. وإذا مات أحد الكافرين وبشر بالنار ذكر خليله فيقول: اللهم إن خليلي فلاناً كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك. ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير، ويخبرني أنني غير ملاقيك. اللهم فلا تهده بعدى حتى تريه مثل ما أريتني وتسخط عليه كما سخطت علي. قال: فيموت الكافر الآخر فيجمع بين أرواحهما فيقال: ليشن كل واحد منكم على صاحبه فيقول كل واحد منهمما لصاحبه: بئس الأخ وبئس الصاحب وبئس الخليل! رواه ابن أبي حاتم، وقال ابن عباس

رضي الله عنهم ومجاهد وقناة: صارت كل خلة عداوة يوم القيمة إلا المتقين.

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة هشام بن أحمد عن هشام بن عبد الله بن كثير، حدثنا أبو جعفر محمد بن الخضر بالرقعة عن معاذى، حدثنا حكيم بن نافع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رجلين تحابا في الله أحدهما بالشرق والأخر بالمغرب لجمع الله تعالى بينهما يوم القيمة يقول هذا الذي أحببته فيَ».

وقوله تبارك وتعالى: «يا عباد لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون» ثم بشرهم فقال: «الذين آمنوا بآياتنا و كانوا مسلمين» أي آمنت قلوبهم وبواطنهم وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم، قال المعتمر بن سليمان عن أبيه: إذا كان يوم القيمة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع فینادي مناد «يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون» فيرجوها الناس كلهم، قال: فيتبعها «الذين آمنوا بآياتنا و كانوا مسلمين» قال: فيأمس الناس منها غير المؤمنين^(١).

«ادخلوا الجنة» أي يقال لهم ادخلوا الجنة «أنتم وأزواجكم» أي نظراً لكم «تحبرون» أي تتنعمون وتسعدون وقد تقدم في سورة الروم. «يطاف عليهم بصحف من ذهب» أي زبادي آنية الطعام «وأكواب» وهي آنية الشراب أي من ذهب لا خراطيم لها ولا عرى «وفيها ما تشتهي الأنفس» وقرأ بعضهم تشتهيه الأنفس «وتلذل الأنغمس» أي طيب الطعام والريح وحسن المنظر.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، أخبرني إسماعيل بن أبي سعيد قال: إن عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهم أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة وأسفالهم درجة لرجل لا يدخل الجنة بعده أحد، يفسح له في بصره مسيرة مائة عام في قصور من ذهب وخيم من لؤلؤ ليس فيها موضع شبر إلا معمور يغدى عليه ويراح بسبعين ألف صفحة من ذهب، ليس فيها صفحة إلا فيها لون ليس في الأخرى مثله، شهوته في آخرها كشهوته في أولها، ولو نزل به جميع أهل الأرض لوسائلهم مما أعطي لا ينقص ذلك مما أوتي شيئاً»^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا عمرو بن سواد السريحي، حدثني عبد الله بن وهب عن ابن لهيعة عن عقيل بن خالد عن الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أبا أمامة رضي الله عنه حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم وذكر الجنة فقال: «والذي نفس محمد بيده، ليأخذن أحدكم اللقمة فيجعلها في فيه، ثم يخطر على باله طعام آخر فيتحول الطعام الذي في فيه على الذي اشتهى» ثم قرأ رسول الله ﷺ «وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذل

(١) انظر تفسير الطبرى ١١/٢٠٩.

(٢) انظر الحديث في الدر المثور ٥/٧٣٢.

الأعين وأنتم فيها خالدون ﴿١﴾ .

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا حسن هو ابن موسى حدثنا سكين بن عبد العزيز، حدثنا الأشعث الضرير عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة متزلة إن له لسبع درجات وهو على السادسة وفوقه السابعة، وإن له ثلثمائة خادم ويغدو عليه ويراح كل يوم بثلاثمائة صحفة - ولا أعلم إلا قال من ذهب في كل صحفة لون ليس في الأخرى، وإنه ليذر أوله كما يلذ آخره، ومن الأشربة ثلاثة إماء في كل إماء لون ليس في الآخر، وإنه ليذر أوله كما يلذ آخره، وإنه ليقول يا رب لو أذنت لي لأطعمن أهل الجنة وسقيتهم لم ينقص مما عندي شيء، وإن له من الحور العين لاثنين وسبعين زوجة سوى أزواجه من الدنيا، وإن الواحدة منهن لتأخذ مقعدها قدر ميل من الأرض».

وقوله تعالى: «وَأَنْتُمْ فِيهَا أَيُّ فِي الْجَنَّةِ ۝ خَالِدُونَ ۝ أَيُّ لَا تَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا تَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا ۝ .

ثم قيل لهم على وجه التفضيل والامتنان «وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون» أي أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشمول رحمة الله إلياكم، فإنه لا يدخل أحداً عمله الجنة ولكن برحمه الله وفضله، وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات قال ابن أبي حاتم: حدثنا الفضل بن شاذان المقربي، حدثنا يوسف بن يعقوب يعني الصفار، حدثنا أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى منزلة من الجنة، فيكون له حسرة فيقول ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَقِّنِ﴾ [الزمر: ٥٧] وكل أهل الجنة يرى منزلة من النار فيقول ﴿وَمَا كَنَا لَهُتَدِي لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] فيكون له شكرًا» قال: وقال رسول الله ﷺ ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومتزل في النار، فالكافر يرث المؤمن متزله من النار. والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة. وذلك قوله تعالى «وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون» وقوله تعالى: «لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ أي من جميع الأنواع «مِنْهَا تَأْكِلُونَ﴾ أي مهما اخترتم وأردتم. ولما ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة، والله تعالى أعلم.

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ حَلَّدُونَ ﴿٦﴾ لَا يَقْرَءُونَهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنَّ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٨﴾ وَنَادَوْنَا يَمْكِرُ لِيَقْضِي عَلَيْنَا رَبِّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكْثُونَ ﴿٩﴾ لَقَدْ حِتَّنَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْرَكُمْ بِالْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿١٠﴾ لَمْ أَبْرَأْنَا أَنْتَ فِيَّا مُبْرِمُونَ ﴿١١﴾ أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ بِيَهُمْ وَمَعْنَاهُمْ بِكَيْ وَرَسَّنَا لَدِيهِمْ

يَكْبُرُونَ

لما ذكر تعالى حال السعداء ثنى بذكر الأشقياء فقال: «إن المجرمين في عذاب جهنم
حالدون لا يفتر عنهم» أي ساعة واحدة «وهم فيه مبسلون» أي آيسون من كل خير. «وما
ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين» أي بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجج عليهم. وإرسال
الرسل إليهم، فكذبوا وعصوا فجذروا بذلك جزاء وفاقاً وما ربك بظلام للعبيد. «ونادوا يا
مالك» وهو حازن النار. قال البخاري^(١): حدثنا حجاج بن منهال حدثنا سفيان بن عيينة عن
عمرو بن عطاء عن صفوان بن يعلى عن أبيه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على
المنبر «ونادوا يا مالك ليقضى علينا ربك» أي ليقضى أرواحنا فيرينا مما نحن فيه فإنهم كما
قال تعالى: «لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها» [فاطر: ٣٦] وقال عز
وجل: «ويتجنبها الأشقي الذي يصلى النار الكبيرة ثم لا يموت فيها ولا يحييا» [الأعلى: ١١] -
[١٣] فلما سألوا أن يموتون أبا جابهم مالك قال إنكم ما كثون قال ابن عباس: مكث ألف سنة ثم
قال: إنكم ما كثون رواه ابن أبي حاتم أي لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها ثم ذكر سبب
شقوتهم، وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال: «لقد جئناكم بالحق» أي ببناء لكم
ووضاحتنا وفسرناه «ولكن أكثركم للحق كارهون» أي ولكن كانت سجنياً لكم لا تقبله ولا تقبل
عليه، وإنما تقاد للباطل وتعظمه، وتصد عن الحق وتتأبه وتبغض أهله، فعودوا على أنفسكم
بالملامة. واندموا حيث لا تنفعكم الندامة.

ثم قال تبارك وتعالى: **«أَمْ أَبِرْمُوا أَمْرًا فَإِنَا مِبْرُونٌ»** قال مجاهد: أرادوا كيد شر، فكذناهم^(٢) وهذا الذي قاله مجاهد كما قال تعالى: **«وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرُنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ»** [النمل: ٥٠] وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون في رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه، فكادهم الله تعالى ورد وبال ذلك عليهم، ولهذا قال: **«أَمْ يَحْسُبُونَ أَنَا لَا نَسْعَ سُرْهُمْ وَنَجْوَاهُمْ أَيْ سُرْهُمْ وَعَلَانِيْتُهُمْ بَلِيْ وَرَسَلْنَا لَدِيهِمْ يَكْتُبُونَ أَيْ نَحْنُ نَعْلَمْ مَا هُمْ عَلَيْهِ وَالْمَلَائِكَةُ أَيْضًا يَكْتُبُونَ أَعْمَالَهُمْ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا.**

فَلْ إِنْ كَانَ لِرَحْمَنِ وَلَدٌ فَإِنَّا أُولَئِكَ الْعَيْدِينَ ۝ سَبَّحَنَ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِمُّونَ ۝
فَهُنَّ هُنَّ يَخْوُضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلْقَوُا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ
وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ۝ وَبِكَارِكَ الَّذِي لَمْ يُكْنِي مَلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا يَسْتَهِمُوا وَعِنْدَهُ عِنْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ۝ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِي يَدْسُدُونَ مِنْ دُنْيَهُ الْمُغْنَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ وَلَئِنْ
سَأَلْتُهُمْ مَنْ حَلَّلَهُمْ لَيَقُولُوا إِنَّمَا حَلَّلَهُمْ أَنَّ رَبَّهُمْ فَوَّهَ لَهُمْ ۝ فَلَمَّا أَوْتُهُمْ ۝ فَأَنْصَفْتُهُمْ

كتاب التفسير، تفسير سورة الزخرف.

^(٢) انظر تفسير الطبرى ١١/٢١٤.

وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ٦٩

يقول تعالى: «قل» يا محمد «إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين» أي لو فرض هذا لعبدته على ذلك، لأنني عبد من عبده مطيع لجميع ما يأمرني به ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فرض هذا لكان هذا، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى والشرط لا يلزم منه الوجود ولا الجواز أيضاً كما قال عز وجل: «لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار» [الزمر: ٤] وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: «فأنا أول العابدين» أي الآئفرين، ومنهم سفيان الثوري والبخاري^(١)، حكاه فقال ويقال أول العابدين الجاحدين من عبد يعبد.

وذكر ابن جرير^(٢) لهذا القول من الشواهد ما رواه عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب، حدثني ابن أبي ذئب عن أبي قسيط عن بعجة بن زيد الجهني أن امرأة منهم دخلت على زوجها وهو رجل منهم أيضاً، فولدت له في ستة أشهر فذكر ذلك زوجها لعثمان بن عفان رضي الله عنه، فأمر بها أن ترجم، فدخل عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: إن الله تعالى يقول في كتابه «وَحَمَلَهُ وَفَصَالَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا» [الأحقاف: ١٥] وقال عز وجل: «وَفَصَالَهُ فِي عَامِينَ» [لقمان: ١٤] قال: فو الله ما عبد عثمان رضي الله عنه أن بعث إليها ترد، قال يونس: قال ابن وهب: عبد استنكف. وقال الشاعر: [الطويل]

مَتَى مَا يِشَّاً ذُو الْوَدِ يَصْرُمُ خَلِيلَهُ وَيَعْبُدُ عَلَيْهِ لَا مَحَالَةٌ ظَالِمٌ^(٣)

وهذا القول فيه نظر لأنَّه كيف يلائم مع الشرط فيكون تقديره إن كان هذا فأنا ممتنع منه؟ هذا فيه نظر فليتأمل اللهم إلا أن يقال: أن إن لم يُسْتَشْرِطُ وإنما هي نافية، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: «قل إن كان للرحمن ولد» يقول: لم يكن للرحمن ولد، فأنا أول الشاهدين.

وقال قتادة هي كلمة من كلام العرب «إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين» أي إن ذلك لم يكن فلا ينبغي، وقال أبو صخر «قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين» أي فأنا أول من عبده بأن لا ولد له، وأول من وحده، وكذلك قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال مجاهد «فأنا أول العابدين» أي أول من عبده ووحده وكذبكم، وقال البخاري^(٤) «فأنا أول العابدين» الآئفرين وما لغتان رجل عابد وعبد، والأول أقرب على أنه شرط وجاء ولكن هو

(١) كتاب التفسير، تفسير سورة الزخرف.

(٢) تفسير الطبرى ٢١٦/١١.

(٣) البيت بلا نسبة في تفسير الطبرى ٢١٦/١١.

(٤) كتاب التفسير، تفسير سورة الزخرف.

ممتنع، وقال السدي: «قال إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين» يقول : لو كان له ولد كنت أول من عبده بأن له ولداً ولكن لا ولد له ، وهو اختيار ابن جرير^(١) ورد قول من زعم أن إن نافية . ولهذا قال تعالى : «سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون» أي تعالى وتقدس وتزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد فإنه فرد أحد صمد ، لا نظير له ولا كفء له فلا ولد له .

وقوله تعالى : «فذرهم يخوضوا» أي في جهلهم وضلالهم «وilyعبوا» في دنياهم «حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون» وهو يوم القيمة أي فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم وما لهم وحالهم في ذلك اليوم قوله تبارك وتعالى : «وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله» أي هو إله من في السماء وإله من في الأرض يعبده أهله وكلهم خاضعون له أدلاء بين يديه «وهو الحكيم العليم» وهذه الآية كقوله سبحانه وتعالى : «وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون» [الأنعام: ٣] أي هو المدعوه الله في السموات والأرض «وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما» أي هو خالقهما ومالكهما ، والمتصرف فيماهما بلا مدافعة ولا ممانعة ، فسبحانه وتعالى عن الولد وتبارك ، أي استقر له السلامة من العيوب والنقائص ، لأنه الرب العلي العظيم المالك للأشياء الذي بيده أزمة الأمور نقضاً وإبراماً .

«وعنده علم الساعة» أي لا يجلوها لوقتها إلا هو «وإليه ترجعون» أي فيجازي كلام بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

ثم قال تعالى : «ولا يملك الذين يدعون من دونه» أي من الأصنام والأوثان «الشفاعة» أي لا يقدرون على الشفاعة لهم «إلا من شهد بالحق وهم يعلمون» هذا استثناء منقطع . أي لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم ، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له . ثم قال عز وجل : «ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون» أي ولئن سأله مؤلأء المشركين بالله العابدين معه غيره «من خلقهم ليقولن الله» أي هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها وحده لا شريك له في ذلك ، ومع هذا يعبدون معه غيره ومن لا يملك شيئاً ولا يقدر على شيء ، فهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل . ولهذا قال تعالى : «فأنى يؤفكون» .

وقوله جل وعلا : «وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمّنون» أي وقال محمد ﷺ ، قيله أي شكا إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه فقال يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمّنون ، كما أخبر تعالى في الآية الأخرى : «وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً» [الفرقان: ٣٠] وهذا الذي قلناه هو قول ابن مسعود رضي الله عنه ومجاهد وقتادة ، وعليه فسر ابن

جرير^(١)، قال البخاري^(٢): وقرأ عبد الله يعني ابن مسعود رضي الله عنه **﴿وقال الرسول يا رب﴾** وقال مجاهد في قوله: **﴿وَقَيْلَهُ يَا رَبِّ إِنْ هُؤُلَاءِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾** قال فأباير الله عز وجل قول محمد^(٣). وقال قتادة: هو قول نبيكم^ﷺ يشكو قومه إلى ربه عز وجل. ثم حكى ابن جرير^(٤) في قوله تعالى: **﴿وَقَيْلَهُ يَا رَبِّ﴾** قراءتين إحداهما النصب، ولها توجيهان: أحدهما أنه معطوف على قوله تبارك وتعالى: **﴿نَسْمَعُ سَرْهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾** والثاني أن يقدر فعل وقال قيله، والثانية الخفض وقيله عطفاً على قوله: **﴿وَعَنْهُ عِلْمُ السَّاعَة﴾** تقديره وعلم قيله. وقوله تعالى: **﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾** أي المشركين **﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾** أي لا تجاويفهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيء، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلاً وقولاً **﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾** هذا تهديد من الله تعالى لهم، ولهذا أحلّ بهم بأسه الذي لا يرد وأعلى دينه وكلمته، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاّد حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وانتشر الإسلام في المشارق والمغارب والله أعلم. آخر تفسير سورة الزخرف.

(١) تفسير الطبرى ٢١٩/١١.

(٢) كتاب التفسير، تفسير سورة الزخرف.

(٣) تفسير الطبرى ٢١٩/١١.

(٤) تفسير الطبرى ٢١٩/١١.

وهي مكية

قال الترمذى: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا زيد بن الحباب عن عمر بن أبي خثعم عن يحيى بن أبي كثیر، عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حم الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك»^(١) ثم قال غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وعمر بن أبي خثعم يضعف قال البخاري منكر الحديث.

ثم قال: حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفي، حدثنا زيد بن الحباب عن هشام أبو المقدام عن الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حم الدخان في ليلة الجمعة غفر له»^(٢) ثم قال غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام أبو المقدام يضعف، والحسن لم يسمع من أبي هريرة رضي الله عنه، كذا قال أبوب ويونس بن عبد علي بن زيد رحمة الله عليهم أجمعين، وفي مستند البزار من روایة أبي الطفیل عامر بن وائلة عن زيد بن حارثة أن رسول الله ﷺ قال لابن صياد: «إني قد جئت خباءً فما هو؟» وخبأ له رسول الله ﷺ سورة الدخان فقال: هو الدخن^(٣). فقال: «اخسأ ما شاء الله كان» ثم انصرف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمٌ وَالْكَتَبُ الْمُبِينُ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيمَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٌ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْفِنِينَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ تَحْمِي وَتَبْعَثُ إِلَيْكُمُ الْأَوَّلِينَ

يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم أنه أنزله في ليلة مباركة، وهي ليلة القدر كما قال عز وجل: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» [القدر: ١] وكان ذلك في شهر رمضان كما قال تبارك وتعالى: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرآنُ» [البقرة: ١٨٥] وقد ذكرنا في الأحاديث الواردة في ذلك في سورة البقرة بما أغني عن إعادته، ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان كما روي عن عكرمة فقد أبعد النجعة، فإن نص القرآن أنها في رمضان، والحديث الذي رواه عبد الله بن

(١) أخرجه الترمذى في ثواب القرآن باب ٨.

(٢) أخرجه الترمذى في ثواب القرآن باب ٨، والدارمى في فضائل القرآن باب ٢٢.

(٣) أي الدخان.

صالح عن الليث عن عقيل عن الزهري، أخبرني عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخفش قال: إن رسول الله ﷺ قال: «قطع الأجال من شعبان إلى شعبان حتى أن الرجل لينكح ويولد له وقد أخرج اسمه في الموتى»^(١) فهو حديث مرسل ومثله لا يعارض به النصوص. قوله عز وجل: «إنا كنا منذرين» أي معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً لتقوم حجة الله على عباده.

وقوله: «فيها يفرق كل أمر حكيم» أي في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، وما يكون فيها من الأجال والأرزاق وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا روي عن ابن عمر ومجاحد وأبي مالك والضحاك وغير واحد من السلف قوله جل وعلا: «حكيم» أي محكم لا يبدل ولا يغير، ولهذا قال جل جلاله: «أمراً من عندنا» أي جميع ما يكون ويقدره الله تعالى وما يوحيه بأمره وإذنه وعلمه «إنا كنا مرسلين» أي إلى الناس رسولاً يتلو عليهم آيات الله مبينات فإن الحاجة كانت ماسة إليه، ولهذا قال تعالى: «رحمة من ربك إنه هو السميع العليم رب السموات والأرض وما بيتهما» أي الذي أنزل هذا القرآن هو رب السموات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما «إن كنتم موقنين» أي إن كنتم متحققين ثم قال تعالى: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يَحْيِي وَيَمْبَتِرُ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ» وهذه الآية كقوله تعالى: «فَلَيَايُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يَحْيِي وَيَمْبَتِرُ» [الأعراف: ١٥٨] الآية.

بَلْ هُمْ فِي شَكٍ يَلْعَبُونَ ۝ فَارْتَقَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءَ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَعْشُى النَّاسُ هَذَا عَذَابُ الْيَمِّ ۝ رَبَّنَا أَكَيْفَ عَنَّا الْعَذَابَ إِذَا مُؤْمِنُونَ ۝ أَنَّهُمْ الْمَذْكُورُ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْهُنَّهُمْ وَقَالُوا مُعْلَمٌ مَجْنُونٌ ۝ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَبِيلًا إِنَّكُمْ عَâيدُونَ ۝ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبُطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ۝

يقول تعالى: بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون أي قد جاءهم الحق اليقين وهم يشكرون فيه ويمترون ولا يصدقون به، ثم قال عز وجل متوعداً لهم ومهدداً: «فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين» قال سليمان بن مهران الأعمش عن أبي الصحنى مسلم بن صبيح، عن مسروق قال: دخلنا المسجد، يعني مسجد الكوفة عند أبواب كندة، فإذا رجل يقص على أصحابه «يوم تأتي السماء بدخان مبين» تدررون ما ذلك الدخان؟ ذلك دخان يأتي يوم القيمة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام، قال: فأتينا ابن مسعود رضي الله عنه، فذكرنا له ذلك وكان مضطجعاً، ففزع فقد و قال: إن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ: «قل ما أسانكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين» [ص: ٨٦] إن من العلم أن يقول الرجل لما

لا يعلم الله أعلم سأحدثكم عن ذلك، إن قريشاً لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كستني يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميّة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان، وفي رواية فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد.

قال الله تعالى: «فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ يَعْنِي النَّاسَ هَذَا عَذَابُ الْآِيمَنِ» فأتى رسول الله ﷺ فقيل يا رسول الله استسق الله لمضر فإنها قد هلكت، فاستسقى ﷺ لهم فسقوه فأنزل الله ﷺ «إِنَّا كَاشَفُوا عَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ» قال ابن مسعود رضي الله عنه: فيكشف عنهم العذاب يوم القيمة فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله عز وجل: «يَوْمَ نُبَطِّشُ الْبَطْشَةَ الْكَبْرِيَّ إِنَّا مُتَقْمِنُونَ» قال يعني يوم بدر^(١).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: فقد مضى خمسة: الدخان والروم والقمر والبطشة واللزم، وهذا الحديث مخرج في الصحيحين^(٢) ورواه الإمام أحمد^(٣) في مسنده، وهو عند الترمذى^(٤) والنسائي في تفسيرهما، وعند ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق متعددة عن الأعمش به، وقد وافق ابن مسعود رضي الله عنه على تفسير الآية بهذا، وأن الدخان مضى: جماعة من السلف كمجاهد وأبي العالية وإبراهيم النخعي والضحاك وعطاء العوفي، وهو اختيار ابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا يحيى بن حسان، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا عبد الرحمن الأعرج في قوله عز وجل: «يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ» قال: كان يوم فتح مكة وهذا القول غريب جداً بل منكر.

وقال آخرون لم يمض الدخان بعد بل هو من أمارات الساعة كما تقدم من حديث أبي سريحة حذيفة بن أسد الغفارى رضي الله عنه، قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من عرفة ونحن نتذكر الساعة فقال ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشَرَ آيَاتٍ: طَلْوَعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالْدَّخَانُ وَالْدَّابَّةُ وَخَرْوَجُ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ وَخَرْوَجُ عِيسَى ابْنُ مَرِيمٍ وَالْدَّجَالُ وَثَلَاثَةُ خَسُوفٍ: خَسْفُ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفُ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفُ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْدَةِ تَسْوِقِ النَّاسِ - أَوْ تَحْشِرُ النَّاسَ - تَبِيتُ مَعَهُمْ حِيثُ بَاتُوا، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حِيثُ قَالُوا»^(٥). تفرد بياخر اجه مسلم في صحيحه، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لابن الصياد: «إِنِّي

(١) انظر تفسير الطبرى ١١ / ٢٣٠ ، ٢٣١ .

(٢) أخرجه البخارى في تفسير سورة ٤٤ ، باب ٢ .

(٣) المسند ١ ، ٢٣٦ / ٣٨١ .

(٤) كتاب التفسير، تفسير سورة الدخان.

(٥) أخرجه مسلم في الفتن حديث ٣٩ ، ٤٠ ، وأبو داود في الملاحم باب ١٢ ، والترمذى في الفتن باب ٢١ ، وابن ماجه في الفتن باب ٢٨ ، وأحمد في المسند ٤ / ٦ ، ٧ .

«لَكَ خَبْأً» قَالَ: هُوَ الدُّخْنُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُ قَدْرَكَ»^(١) قَالَ: وَخَبْأً لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءَ بِدُخَانٍ مُبِينٍ» وَهَذَا فِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّهُ مِنَ الْمُتَنَظَّرِ الْمُرْتَقِبِ، وَابْنُ صِيَادٍ كَاشِفٌ عَلَى طَرِيقَةِ الْكَهَانِ بِلْسَانِ الْجَانِ، وَهُمْ يَقْرَطِمُونَ الْعَبَارَةَ، وَلَهُنَّا قَالُوا هُوَ الدُّخْنُ، يَعْنِي الدُّخَانَ، فَعِنْهَا عَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَادِهِ وَأَنَّهَا شَيْطَانِيَّةٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُ قَدْرَكَ».

ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ^(٢): وَحَدَثَنِي عَصَامُ بْنُ رَوَادَ بْنِ الْجَرَاحِ، حَدَثَنَا سَفِيَانُ بْنُ أَبِي سَعِيدِ الْشُّعْوَرِيِّ، حَدَثَنَا مُنْصُورُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ عَنْ رَبِيعِي بْنِ خَرَاشٍ قَالَ: سَمِعْتُ حَذِيفَةَ بْنَ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ الدَّجَالَ وَنَزَولَ عِيسَى ابْنَ مُرِيمَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْدَةِ أَبِينَ تَسْوِقُ النَّاسَ إِلَى الْمُحْسِرِ تَقْبِيلًا مَعْهُمْ إِذَا قَالُوا، وَالْدُّخَانُ - قَالَ حَذِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الدُّخَانُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا الآيَةُ» فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءَ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشِي النَّاسَ هَذَا عَذَابُ أَلِيمٍ» - يَمْلَأُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ يَمْكُثُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً، أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيُصَبِّهُ مِنْهُ كَهْيَةُ الزَّكْمَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُكَوِّنُ بِمُتَرْلَةِ السَّكَرَانِ يَخْرُجُ مِنْ مَنْخُرِيهِ وَأَذْنِيهِ وَدَبْرِهِ». قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ^(٣): لَوْ صَحَّ هَذَا الْحَدِيثُ لَكَانَ فَاصِلًا وَإِنَّمَا لَمْ أَشْهُدْ لَهُ بِالصَّحَّةِ لَأَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ خَلْفَ الْعَسْقَلَانِيَّ حَدَثَنِي أَنَّهُ سَأَلَ رَوَادًا عَنْ هَذَا الْحَدِيثَ هَلْ سَمِعَهُ مِنْ سَفِيَانَ؟ فَقَالَ لَهُ: لَا ، قَالَ فَقِلْتَ: أَقْرَأْتَهُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: لَا ، قَالَ فَقِلْتَ لَهُ: أَقْرَئَهُ عَلَيْهِ وَأَنْتَ حَاضِرٌ فَأَقْرَبْهُ بِهِ؟ فَقَالَ: لَا ، فَقِلْتَ لَهُ: فَمِنْ أَيْنَ جَئْتَ بِهِ؟ فَقَالَ: جَاءَنِي بِهِ قَوْمٌ فَعَرَضُوهُ عَلَيَّ وَقَالُوا لِي أَسْمَعْهُ مِنْهُ، فَقَرَأُوهُ عَلَيَّ ثُمَّ ذَهَبُوا بِهِ فَحَدَثُوا بِهِ عَنِي أَوْ كَمَا قَالَ وَقَدْ أَجَادَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي هَذَا الْحَدِيثِ هَهُنَا، فَإِنَّهُ مَوْضِعُ بِهِذَا السَّنَدِ، وَقَدْ أَكْثَرَ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ سِيَاقِهِ فِي أَمَاكِنِهِ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ، وَفِيهِ مُنْكَرَاتٌ كَثِيرَةٌ جَدًّا، وَلَا سِيمَا فِي أَوَّلِ سُورَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي ذِكْرِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَىِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ أَيْضًا^(٤): حَدَثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَوْفٍ، حَدَثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عِيَاشٍ، حَدَثَنِي أَبِي، حَدَثَنِي ضَمِّضُمُ بْنُ زَرْعَةَ عَنْ شَرِيكِ بْنِ عَبِيدٍ عَنْ أَبِي مَالِكِ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ رِبَّكُمْ أَنْذِرَكُمْ ثَلَاثَةً: الدُّخَانُ يَأْخُذُ الْمُؤْمِنَ كَالْزَكْمَةِ، وَيَأْخُذُ الْكَافِرَ فَيَتَفَتَّحُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ كُلِّ مَسْمَعٍ مِنْهُ، وَالثَّانِيَةُ الدَّابَّةُ وَالثَّالِثَةُ الدَّجَالُ». وَرَوَاهُ الطَّبرَانِيُّ عَنْ هَاشِمِ بْنِ يَزِيدٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عِيَاشٍ بِهِ وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتَمَ:

(١) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ فِي الْجَنَائزِ بَابٌ ٨٠، وَالْجَهَادِ بَابٌ ١٧٨، وَالْخَمْسِ بَابٌ ١١، وَالْأَدْبِ بَابٌ ٩٧، وَالْقَدْرِ بَابٌ ١٤، وَمُسْلِمٌ فِي الْفَقْنِ حَدِيثٌ ٨٧، ٩٥، ١٦٩.

(٢) تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ ٢٢٧/١١.

(٣) تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ ٢٢٨/١١.

(٤) تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ ٢٢٨، ٢٢٧/١١.

حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا خليل عن الحسن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يهيج الدخان بالناس، فأما المؤمن فيأخذ الزكمة، وأما الكافر فينفخه حتى يخرج من كل مسمع منه». ورواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه موقوفاً، وروى سعيد بن عوف عن الحسن مثله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الله بن صالح بن مسلم، حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي رضي الله عنه قال: لم تمض آية الدخان بعد، يأخذ المؤمن كهيئه الزكام وتتفاخ الكافر حتى ينفذ.

وروى ابن جرير^(١) من حديث الوليد بن جمیع عن عبد الملك بن المغيرة، عن عبد الرحمن بن السليماني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: يخرج الدخان فيأخذ المؤمن كهيئه الزكام، ويدخل في مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيذ أي المشوي على الرضف^(٢)، ثم قال ابن جرير^(٣): حدثني يعقوب، حدثنا ابن علية عن ابن جرير عن عبد الله بن أبي مليكة قال: غدوت على ابن عباس رضي الله عنهما ذات يوم فقال: ما نمت الليلة حتى أصبحت. قلت: لِمَ؟ قال: قالوا طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق فما نمت حتى أصبحت.

وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن ابن عمر عن سفيان عن عبد الله بن أبي يزيد، عن عبد الله بن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنهما فذكره، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما حبر الأمة وترجمان القرآن، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين مع الأحاديث المرفوعة من الصاحح والحسان وغيرهما التي أوردوها مما فيه مقتن، ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المتتظرة مع أنه ظاهر القرآن، قال الله تبارك وتعالى: «فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين» أي بين واضح يراه كل أحد، وعلى ما فسر به ابن مسعود رضي الله عنه إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد، وهكذا قوله تعالى: «يغشى الناس» أي يتغشاهم ويعيمهم، ولو كان أمراً خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه «يغشى الناس».

وقوله تعالى: «هذا عذاب أليم» أي يقال لهم ذلك تجريعاً وتوبيخاً كقوله عز وجل: «يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً هذه النار التي كنتم بها تكذبون» [الطور: ١٣ - ١٤] أو يقول بعضهم بعض ذلك. وقوله سبحانه وتعالى: «ربنا اكشف عنا العذاب إنما مؤمنون» أي يقول الكافرون

(١) تفسير الطبرى ٢٢٧/١١.

(٢) الرضف: الحجارة الممحاة على النار.

(٣) تفسير الطبرى ٢٢٧/١١.

إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم كقوله جلت عظمته ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ [الأنعام: ٢٧] وكذا قوله جل وعلا : « وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجح دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال » [إبراهيم: ٤٤]. وهكذا قال جل وعلا ه هنا : « أني لهم الذكرى وقد جاءهم رسول بين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجانون ». يقول : كيف لهم بالذكر وقد أرسلنا إليهم رسولاً بين الرسالة والندارة ، ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه بل كذبوه وقالوا معلم مجانون ، وهذا كقوله جلت عظمته : « يوم يتذكر الإنسان وأني له الذكرى يا ليتني قدمت لحياتي » [الفجر: ٢٣ - ٢٤] الآية وكقوله عز وجل : « ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب وقالوا آمننا به وأني لهم التناوش من مكان بعيد » إلى آخر السورة [سبأ: ٥٤ - ٥٦].

وقوله تعالى : « إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون » يحتمل معنين : (أحدهما) أنه يقول تعالى ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا ، لعدم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب كقوله تعالى : « ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم بعيمون » [المؤمنون: ٧٥] وكقوله جلت عظمته : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكافرون » [الأنعام: ٢٨] . و (الثاني) أن يكون المراد إنا مؤخر العذاب عنكم قليلاً بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم . وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال ، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم كقوله تعالى : « إلا قوم يومنا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعبناهم إلى حين » [يونس: ٩٨] . ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم بل كان قد انعقد سببه عليهم ، ولا يلزم أيضاً أن يكونوا قد أفلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه ، قال الله تعالى إخباراً عن شعيب عليه السلام أنه قال لقومه حين قالوا : « لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أو لو كنا كارهين قد افرينا على الله كذباً إن عدنا في ملتقكم بعد إذ نجانا الله منها » [الأعراف: ٨٩ - ٨٨] وشعيب عليه السلام لم يكن قط على ملتهم وطريقهم ، وقال قتادة : إنكم عائدون إلى عذاب الله^(١).

وقوله عز وجل : « يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون » فسر ذلك ابن مسعود رضي الله عنه بيوم بدر ، وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود رضي الله عنه على تفسيره الدخان بما تقدم ، وروي أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما من روایة العوفي عنه وعن أبي بن كعب رضي الله عنه ، وهو محتمل ، والظاهر أن ذلك يوم القيمة وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً قال ابن جرير^(٢) : حدثني يعقوب حدثني ابن علية ، حدثنا خالد الحذاء عن عكرمة قال : قال ابن

(١) انظر تفسير الطبرى ١١/٢٢٩.

(٢) تفسير الطبرى ١١/٢٣١.

عباس رضي الله عنهمما قال ابن مسعود رضي الله عنه: البطشة الكبرى يوم بدر وأنا أقول هي يوم القيمة، وهذا إسناد صحيح عنه وبه يقول الحسن البصري وعكرمة في أصح الروايتين عنه، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَنَّ أَدْوَى إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِلَيْنَا لِكُلِّ رَسُولٍ أَمِينٌ وَأَنَّ لَا تَعْلُوْ عَلَىِ اللَّهِ إِنِّي مَا تَكُونُ سُلْطَنٌ مُّبِينٌ وَإِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِي وَإِنَّ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِي فَدَعَا رَبِّيَّهُ أَنْ هَوَّلَاءَ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ فَأَسْرَ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ وَأَتَرْكُ الْجَرَرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنُدٌ مُّعَرَّفُونَ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّتٍ وَعَيْنَوْنَ وَرُورُوعَ وَمَقَامَ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٌ كَانُوا فِيهَا فَكَيْهِنَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْتُهَا قَوْمًا أَخْرَيْنَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ وَلَقَدْ بَحَثَنَا بَيْنَ إِسْرَئِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّمَا كَانَ عَالِيًّا مِنَ الْمُسْتَفِينَ وَلَقَدْ أَخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىِ الْعَالَمِينَ وَأَئْتَنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَّوْنٌ مُّبِينٌ﴾

يقول تعالى: ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون وهم قبط مصر «وجاءهم رسول كريم» يعني موسى كليمه عليه الصلاة والسلام «أن أدوا إلى عباد الله» كقوله عز وجل: «أن أرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بأية من ربك والسلام على من اتبع الهدى» [طه: ٤٧]. قوله جل وعلا: «إني لكم رسول أمين» أي مأمون على ما أبلغكموه. قوله تعالى: «وأن لا تعلوا على الله» أي لا تستكبروا عن اتباع آياته والانقياد لحججه والإيمان بيراهينه كقوله عز وجل: «إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين» [غافر: ٦٠] «إني آتكم بسلطان مبين» أي بحجة ظاهرة واضحة وهي ما أرسله الله تعالى به من الآيات البينات والأدلة القاطعة.

﴿وَإِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِي﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهمما وأبو صالح: هو الرجم باللسان وهو الشتم. وقال قتادة: الرجم بالحجارة أي أعود بالله الذي خلقني وخلقكم من أن تصلوا إلي بسوء من قول أو فعل «وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِي» أي فلا تتعرضوا لي ودعوا الأمر ببني وبينكم مسألمة إلى أن يقضى الله بيننا. فلما طال مقامه ع بين أظهرهم وأقام حجج الله تعالى عليهم. كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفراً وعناداً، دعا ربهم عليهم دعوة نفذت فيهم كما قال تبارك وتعالى: «وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم وشدد على قلوبهم فلا يؤمnia حتى يروا العذاب الأليم قال قد أجيئت دعوتكم فاستقيما» [يونس: ٨٩ - ٨٨] وهكذا قال هنا: «فَدَعَا ربه أَنْ هَوَّلَاءَ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ» فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج ببني إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه ولهذا قال جل جلاله: «فَأَسْرَ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ» كما قال تعالى: «وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَيْ مُوسَى أَنْ أَسْرَ بِعِبَادِي فَاضْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي السَّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَا تَخَافْ دَرْكًا وَلَا تَخْشِيْ [طه: ٧٧]

وقوله عز وجل ه هنا: ﴿وَاتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جَنْدُ مَغْرُقَوْنَ﴾ وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر، أراد موسى أن يضرره بعصاه حتى يعود كما كان، ليصير حائلًا بينهم وبين فرعون فلا يصل إليهم، فأمره الله تعالى أن يتركه على حاله ساكناً وبشره بأنهم جند مغرقون فيه وأنه لا يخاف دركاً ولا يخشى، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَاتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ كهيته وامضه^(١)، وقال مجاهد: رهوا طریقاً بیساً کهيته. يقول: لا تأمره يرجع اتركه حتى يرجع آخرهم، وكذا قال عكرمة والربيع بن أنس والضحاك وقتادة وابن زيد، وكعب الأحبار وسماك بن حرب وغير واحد.

ثم قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ﴾ وهي البساتين ﴿وَعَيْوَنٍ وَزَرْوَعٍ﴾ والمراد بها الأنهر والآبار ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ وهي المساكن الأنثقة والأماكن الحسنة، وقال مجاهد وسعيد بن جبير ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ المنابر، وقال ابن لهيعة عن وهب بن عبد الله المعاافري عن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال: نيل مصر سيد الأنهر سخر الله تعالى له كل نهر بين المشرق والمغرب وذلك له، فإذا أراد الله عز وجل أن يجري نيل مصر أمر كل نهر أن يمده فأمده الأنهر بما فيها، وفجر الله تبارك وتعالى له الأرض عيوناً، فإذا انتهى جريه إلى ما أراد الله جل وعلا أوحى الله تعالى إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره، وقال في قول الله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْوَنٍ وَزَرْوَعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنِعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ قال: كانت الجنان بحافتي نهر النيل من أوله إلى آخره في الشقين جميعاً، ما بين أسوان إلى رشيد، وكان له تسع خلجان: خليج الإسكندرية، وخليج دمياط، وخليج سردوس، وخليج منف، وخليج الفيوم، وخليج المنهى متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء وزروع ما بين الجبلين كلها من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء، وكانت جميع أرض مصر تروى من ستة عشر ذراعاً لما قدرها ودبوا من قناطرها وجسورها وخراجها.

﴿وَنِعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ أي عيشة كانوا يتذمرون فيها فياكلون ما شاؤوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجهادات والحكم في البلاد، فسلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير، واستولى على البلاد المصرية وتلك الحوافل الفرعونية والممالك القبطية بنو إسرائيل كما قال تبارك وتعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأُورَثَنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيل﴾ [الشعراء: ٥٩]. وقال في هذه الآية الأخرى ﴿وَأُورَثَنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَعْفِفُونَ مِشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَتْ كَلْمَةُ رَبِّ الْحَسَنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيل بِمَا صَبَرُوا، وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُ فَرَعُونَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرُشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال عز وجل هنـا: «كـذلك وأورثـناها قـوماً آخـرين» وـهم بـنـو إـسـرـائـيل كـما تـقدـمـ. وـقولـه سـبـحـانـه وـتـعـالـى: «فـما بـكـتـ عـلـيـهـمـ السـمـاءـ وـالـأـرـضـ» أي لـمـ تـكـنـ لـهـمـ أـعـمـالـ صـالـحةـ تـصـدـعـ فـي أـبـوـابـ السـمـاءـ فـتـبـكـيـ عـلـىـ فـقـدـهـمـ، وـلـاـ لـهـمـ فـيـ الـأـرـضـ بـقـاعـ عـبـدـواـ اللـهـ تـعـالـىـ فـيـهـاـ فـقـدـهـمـ، فـلـهـذـا اـسـتـحـقـواـ أـنـ لـاـ يـنـظـرـوـاـ وـلـاـ يـؤـخـرـوـاـ الـكـفـرـهـمـ وـإـجـرـاهـمـ وـعـتـوهـمـ وـعـنـادـهـمـ. قالـ الحـافـظـ أبوـ يـعـلـىـ المـوـصـلـيـ فـيـ مـسـنـدـهـ: حـدـثـنـاـ أـحـمـدـ بـنـ إـسـحـاقـ الـبـصـرـيـ، حـدـثـنـاـ مـكـيـ بـنـ إـبـرـاهـيمـ، حـدـثـنـاـ مـوـسـىـ بـنـ عـبـيـدـةـ، حـدـثـنـيـ يـزـيدـ الرـقـاشـيـ حـدـثـنـيـ أـنـسـ بـنـ مـالـكـ رـضـيـ اللـهـ عـنـ النـبـيـ ﷺـ قالـ: «مـاـ مـنـ عـبـدـ إـلـاـ وـلـهـ فـيـ السـمـاءـ بـابـ: بـابـ يـخـرـجـ مـنـ رـزـقـهـ، وـبـابـ يـدـخـلـ مـنـ عـمـلـهـ وـكـلامـهـ، فـإـذـا مـاتـ فـقـدـاهـ وـبـكـيـاـ عـلـيـهـ». وـتـلـاـ هـذـهـ الـآـيـةـ «فـما بـكـتـ عـلـيـهـمـ السـمـاءـ وـالـأـرـضـ» وـذـكـرـ أـنـهـمـ لـمـ يـكـونـواـ عـمـلـواـ عـلـىـ الـأـرـضـ عـمـلـاـ صـالـحاـ يـبـكـيـ عـلـيـهـمـ، وـلـمـ يـصـدـ لـهـمـ إـلـىـ السـمـاءـ مـنـ كـلـاـمـهـمـ وـلـاـ مـنـ عـمـلـهـمـ كـلـامـ طـيـبـ وـلـاـ عـمـلـ صـالـحـ فـتـبـكـيـ عـلـيـهـمـ، وـرـوـاهـ اـبـنـ أـبـيـ حـاتـمـ مـنـ حـدـثـ مـوـسـىـ بـنـ عـبـيـدـةـ وـهـوـ الرـبـذـيـ.

وقـالـ اـبـنـ جـرـيرـ^(١): حـدـثـنـيـ يـحـيـيـ بـنـ طـلـحةـ، حـدـثـنـيـ عـيـسـىـ بـنـ يـونـسـ عـنـ صـفـوانـ بـنـ عـمـرـوـ عـنـ شـرـيـعـ بـنـ عـبـيـدـ الـحـضـرـمـيـ قـالـ: قـالـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ: «إـنـ إـلـاـسـلـامـ بـدـأـ غـرـبـيـاـ وـسـيـعـوـدـ غـرـبـيـاـ كـمـاـ بـدـأـ». أـلـاـ لـاـ غـرـبـةـ عـلـىـ مـؤـمـنـ، مـاـ مـاتـ مـؤـمـنـ فـيـ غـرـبـةـ غـابـتـ عـنـهـ فـيـهـاـ بـوـاـكـيـهـ إـلـاـ بـكـتـ عـلـيـهـ السـمـاءـ وـالـأـرـضـ» ثـمـ قـرـأـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ «فـما بـكـتـ عـلـيـهـمـ السـمـاءـ وـالـأـرـضـ» ثـمـ قـالـ: «إـنـهـمـاـ لـاـ يـبـكـيـانـ عـلـىـ الـكـافـرـ».

وقـالـ اـبـنـ أـبـيـ حـاتـمـ: حـدـثـنـاـ أـحـمـدـ بـنـ عـصـامـ، حـدـثـنـاـ أـبـوـ أـحـمـدـ يـعـنـيـ الـزـبـيرـيـ، حـدـثـنـاـ العـلـاءـ بـنـ صـالـحـ عـنـ الـمـنـهـاـلـ بـنـ عـمـرـوـ عـنـ عـبـادـ بـنـ عـبـادـ بـنـ عبدـ اللـهـ قـالـ: سـأـلـ رـجـلـ عـلـيـاـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ هلـ تـبـكـيـ السـمـاءـ وـالـأـرـضـ عـلـىـ أـحـدـ؟ فـقـالـ لـهـ: لـقـدـ سـأـلـتـنـيـ عـنـ شـيـءـ مـاـ سـأـلـتـنـيـ عـنـهـ أـحـدـ قـبـلـكـ، إـنـهـ لـيـسـ مـنـ عـبـدـ إـلـاـ لـهـ مـصـلـىـ فـيـ الـأـرـضـ وـمـصـدـعـ عـمـلـهـ مـنـ السـمـاءـ. وـإـنـ آلـ فـرـعـوـنـ لـمـ يـكـنـ لـهـمـ عـمـلـ صـالـحـ فـيـ الـأـرـضـ وـلـاـ عـمـلـ يـصـدـعـ فـيـ السـمـاءـ ثـمـ قـرـأـ عـلـيـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ «فـما بـكـتـ عـلـيـهـمـ السـمـاءـ وـالـأـرـضـ وـمـاـ كـانـوـاـ مـنـظـرـيـنـ».

وقـالـ اـبـنـ جـرـيرـ^(٢): حـدـثـنـاـ أـبـوـ كـرـيـبـ حـدـثـنـاـ طـلـقـ بـنـ غـنـامـ عـنـ زـائـدـةـ عـنـ مـنـهـاـلـ عـنـ سـعـيـدـ بـنـ جـبـيرـ قـالـ: أـتـىـ اـبـنـ عـبـاسـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـمـ رـجـلـ فـقـالـ: يـاـ أـبـاـ عـبـاسـ أـرـأـيـتـ قـوـلـ اللـهـ تـعـالـىـ: «فـما بـكـتـ عـلـيـهـمـ السـمـاءـ وـالـأـرـضـ وـمـاـ كـانـوـاـ مـنـظـرـيـنـ» فـهـلـ تـبـكـيـ السـمـاءـ وـالـأـرـضـ عـلـىـ أـحـدـ؟ قـالـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ: نـعـمـ إـنـهـ لـيـسـ أـحـدـ مـنـ الـخـلـائـقـ إـلـاـ وـلـهـ بـابـ فـيـ السـمـاءـ مـنـهـ يـنـزـلـ رـزـقـهـ وـفـيـهـ يـصـدـعـ عـمـلـهـ، فـإـذـا مـاتـ الـمـؤـمـنـ فـأـغـلـقـ بـابـهـ مـنـ السـمـاءـ الـذـيـ كـانـ يـصـدـعـ فـيـهـ

(١) تـفـسـيرـ الطـبـرـيـ ٢٣٨/١١.

(٢) تـفـسـيرـ الطـبـرـيـ ٢٣٧/١١، ٢٣٨، ٢٣٧.

عمله وينزل منه رزقه ففقدم بكم عليه، وإذا فقدم مصالح من الأرض التي كان يصلى فيها ويذكر الله عز وجل فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم تكن لهم في الأرض آثار صالحة ولم يكن يقصد إلى الله عز وجل منهم خير، فلم تبك عليهم السماء والأرض، وروى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما نحو هذا.

وقال سفيان الثوري عن أبي يحيى القيات عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان يقال تبكي الأرض على المؤمن أربعين صباحاً، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد، وقال مجاهد أيضاً: ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً، قال فقلت له: أتبكي الأرض؟ فقال: أتعجب وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبره وتسبحه فيها دوي كدوبي النحل؟ وقال قتادة: كانوا أهون على الله عز وجل من أن تبكي عليهم السماء والأرض. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عبد السلام بن عاصم، حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا المستورد بن سابق عن عبيد المكتب عن إبراهيم قال: ما بكت السماء منذ كانت الدنيا إلا على اثنين، قلت لعبيد: أليس السماء والأرض تبكي على المؤمن؟ قال: ذاك مقامه حيث يصعد عمله. قال: وتدرى ما بكاء السماء! قلت: لا. قال: تحمر وتصير وردة كالدهان، إن يحيى بن زكريا عليه الصلاة والسلام لما قتل أحرمت السماء وقطرت دماً وإن الحسين بن علي رضي الله عنهما لما قتل أحرمت السماء.

وحدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو غسان محمد بن عمرو زنیج، حدثنا جریر عن یزید بن أبي زیاد قال: لما قتل الحسین بن علی رضی الله عنہما احرمت افق السماء أربعة أشهر، قال یزید: واحمرارها بكاؤها، وهكذا قال السدي في الكبير، وقال عطاء الخراساني: بكاؤها أن تحمر أطرافها وذکروا أيضاً في مقتل الحسین رضی الله عنہ أنه ما قلب حجر يومئذ إلا وجد تحته دم عبیط، وأنه کسفت الشمس واحمر الأفق وسقطت حجارة، وفي كل ذلك نظر، والظاهر أنه من سخف الشیعة وكذبهم ليعظموا الأمر ولا شك أنه عظیم، ولكن لم یقع هذا الذي اختلقوه وكذبوا وقد وقع ما هو أعظم من قتل الحسین رضی الله عنہ ولم یقع شيء مما ذکروه، فإنه قد قتل أبوه علی بن أبي طالب رضی الله عنہ وهو أفضل منه بالإجماع، ولم یقع شيء من ذلك، وعثمان بن عفان رضی الله عنہ قتل محصوراً مظلوماً ولم یکن شيء من ذلك. عمر بن الخطاب رضی الله عنہ قتل في المحراب في صلاة الصبح، وكان المسلمين لم تطرقهم مصيبة قبل ذلك ولم یکن شيء من ذلك.

وهذا رسول الله ﷺ، وهو سيد البشر في الدنيا والآخرة، يوم مات لم یکن شيء مما ذکروه. ويوم مات إبراهيم ابن النبي ﷺ حسفت الشمس فقال الناس: خسفت لموت إبراهيم! فصلی بهم رسول الله ﷺ صلاة الكسوف وخطبهم وبين لهم أن الشمس والقمر لا ينخسفان

لموت أحد ولا لحياته^(١).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين من فرعون إنه كان عاليًا من المسرفين﴾ يمتن عليهم تعالى بذلك حيث أفقدهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون ولإذلاله لهم، وتسخيره إياهم في الأعمال المهينة الشاقة. قوله تعالى: ﴿من فرعون إنه كان عاليًا﴾ أي مستكبراً جباراً عنيداً كقوله عز وجل: ﴿إن فرعون علا في الأرض﴾ [القصص: ٤] وقوله جلت عظمته ﴿فاستكبروا وكانوا قوماً عالين﴾ [المؤمنون: ٤٦] من المسرفين أي مسرف في أمره سخيف الرأي على نفسه. قوله جل جلاله: ﴿ولقد اخترناهم على علم على العالمين﴾ قال مجاهد ﴿اخترناهم على علم على العالمين﴾ على من هم بين ظهريه. قال قتادة: اختروا على أهل زمانهم ذلك، وكان يقال: إن لكل زمان عالماً، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ يَا مُوسَى إِنِّي أَصْطَفِيكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤] أي أهل زمانه ذلك كقوله عز وجل لمريم عليها السلام: ﴿وَاصْطَفَاكَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ أي في أمانها فإن خديجة رضي الله عنها إما أفضل منها أو مساوية لها في الفضل، وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وفضل عائشة رضي الله عنها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام^(٢).

وقوله جل جلاله: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ﴾ أي الحجج والبراهين وخروارق العادات ﴿مَا فِيهِ بِلَاءٌ مُبِين﴾ أي اختبار ظاهر جلي لمن اهتدى به.

إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَيْ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا حَنَّ يُمْتَنِّينَ ﴿٢٥﴾ فَأَتُوْا بِعَابِيَّتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ شَيْءٌ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا ولا حياة بعد الممات ولا بعث ولا نشور، ويحتاجون بأبابهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا فإن كان البعث حقاً ﴿فَأَتُوْا بِعَابِيَّتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذه حجة باطلة وشبه فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيمة لا في هذه الدار الدنيا بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها، يعيد الله العالمين خلقاً جديداً، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً.

ثم قال تعالى متهدداً لهم متوعداً ومنذراً لهم بأسه الذي لا يرد كما حل بأشباههم ونظرائهم

(١) أخرجه البخاري في الكسوف باب ١، ٢، ١٣، ١٧، ومسلم في الكسوف حديث ١، وأحمد في المستند ٨٧، ٧٦/٦.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب ٣٠، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٧٠، ٨٩، والترمذني في المناقب باب ٦٣، والنمسائي في النساء باب ٣، وابن ماجه في الأطعمة باب ١٤، والدارمي في الأطعمة باب ٢٩، وأحمد في المستند ١٥٦/٣، ٢٦٤.

من المشركين والمنكرين للبعث كقوم تبع، وهم سبأ، حيث أهلكهم الله عز وجل وخراب بلادهم وشردهم في البلاد وفرقهم شذر مذر، كما تقدم ذلك في سورة سباء وهي مقدرة بإنكار المشركين للمعاد، وكذلك هنَا شبههم بأولئك وقد كانوا عرباً من قحطان، كما أن هؤلاء العرب من عدنان، وقد كانت حمير وهم سبأ كلما ملك فيهم رجل سموه تبعاً، كما يقال كسرى لمن ملك الفرس، وقيصر لمن ملك الروم، وفرعون لمن ملك مصر كافراً، والتنجاشي لمن ملك الحبشة وغير ذلك من أعلام الأجناس.

ولكن اتفق أن بعض تابعهم خرج من اليمن وسار في البلاد حتى وصل إلى سمرقند واستبد ملكه وعظم سلطانه وجيشه، واتسعت مملكته وببلاده وكثرت رعاياه وهو الذي مصر الحيرة، فاتفق أنه مر بالمدينة النبوية وذلك في أيام الجاهلية، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقاتلوا بالتهار، وجعلوا يقرونه^(١) بالليل فاستحيا منهم وكف عنهم، واستصحب معه حبرين من أخبار يهود كانوا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه البلدة، فإنها مهاجر نبي يكون في آخر الزمان، فرجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن، فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة فهياه عن ذلك أيضاً وأخبراه بعظمة هذا البيت، وأنه من بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وأنه سيكون له شأن عظيم على يدي ذلك النبي المبعوث في آخر الزمان، فعظمها وطاف بها وكساها الملاء^(٢) والوسائل^(٣) والحبير^(٤)، ثم كر راجعاً إلى اليمن ودعا أهلها إلى التهود معه، وكان إذ ذاك دين موسى عليه الصلاة والسلام فيه من يكون على الهدایة قبلبعثة المسيح عليه الصلاة والسلام، فتهود معه عامة أهل اليمن، وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق في كتابه السيرة^(٥).

وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر في تاريخه ترجمة حافلة أورد فيها أشياء كثيرة مما ذكرنا وما لم نذكر. وذكر أنه ملك دمشق وأنه كان إذا استعرض الخيل صفت له من دمشق إلى اليمن. ثم ساق من طريق عبد الرزاق عن معاذ عن ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما أدرى الحدود طهارة لأهلها أم لا؟ ولا أدرى تبع لعيناً كان أم لا؟ ولا أدرى ذو القرنين نبياً كان أم ملكاً؟» وقال غيره «عزيز أكان نبياً أم لا؟»^(٦).

وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن محمد بن حماد الظهراني عن عبد الرزاق قال الدارقطني:

(١) يقرونه: أي يصفونه

(٢) الملاء: واحدة ملأة: وهي الملحة.

(٣) الوسائل: ثياب يمنية يوصل بعضها بعض.

(٤) الحبير من الشياب: ما كان موشياً مخططاً.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ١٩١، ٢٨.

(٦) أخرجه أبو داود في السنة باب ١٣.

تفرد به عبد الرزاق، ثم روى ابن عساكر من طريق محمد بن كريب عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً «عذير لا أدرى أنياً أم لا؟ ولا أدرى ألين تبع أم لا؟» ثم أورد ما جاء في النهي عن سببه ولعنته كما سيأتي إن شاء الله تعالى. وكأنه والله أعلم كان كافراً ثم أسلم وتتابع دين الكليم على يدي من كان من أخبار اليهود في ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح عليه السلام، وحج البيت في زمن الجرهميين وكساء الملاء والوصائل من الحرير والحربر ونحر عنده ستة آلاف بدنة وعظمته وأكرمه. ثم عاد إلى اليمن.

وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن عساكر من طرق متعددة مطولة مبوسطة عن أبي بن كعب، وعبد الله بن سلام وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم، وكتب الأحاديث وإليه المرجع في ذلك كله، وإلى عبد الله بن سلام أيضاً وهو أثبت وأكبر وأعلم. وكذا روى قصته وهب بن منبه ومحمد بن إسحاق في السيرة كما هو مشهور فيها. وقد اختلط على الحافظ ابن عساكر في بعض السياقات ترجمة تبع هذا بترجمة آخر متاخر عنه بدهر طويل، فان تبعاً هذا المشار إليه في القرآن أسلم قومه على يديه، ثم لما توفي عادوا بعده إلى عبادة النيران والأصنام فعاقبهم الله تعالى كما ذكره في سورة سباء، وقد بسطنا قصتهم هنالك والله الحمد والمنة، وقال سعيد بن جبير: كسا تبع الكعبة وكان سعيد ينهى عن سبها، وتبع هذا هو تبع الأوسط، واسميه أسعد أبو كريب بن ملكيكرب اليماني، ذكروا أنه ملك على قومه ثلاثة سنة وستة وعشرين سنة، ولم يكن في حمير أطول مدة منه، وتوفي قبل مبعث رسول الله ﷺ بنحو من سبعمائة سنة. وذكروا أنه لما ذكر له الحبران من يهود المدينة أن هذه البلدة مهاجر نبي في آخر الزمان اسمه أحمد، قال في ذلك شعراً واستودعه عند أهل المدينة، فكانوا يتوارثونه ويرثونه خلفاً عن سلفه، وكان من يحفظه أبو أيوب خالد بن زيد الذي نزل رسول الله ﷺ في داره وهو:

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّهُ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ بَارِي النَّسَمِ
فَلَوْ مُدَّ عُمْرِي إِلَى عُمْرِهِ لَكُنْتَ وَزِيرًا لَّهُ وَابْنَ عَمِّ
وَجَاهْدْتُ بِالسَّيفِ أَعْدَاءَ وَفَرَّجْتُ عَنْ صَدَرِهِ كُلَّ عَمَّ

وذكر ابن أبي الدنيا أنه حفر قبر بصناعة في الإسلام فوجدوا فيه امرأتين صحيحتين، وعند رؤوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب: هذا قبر حبي ولميس، وروي حبي وتماضر ابنتي تبع، ماتتا وهما تشهدان أن لا إله إلا الله ولا تشركان به شيئاً، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما. وقد ذكرنا في سورة سباء شعراً في ذلك أيضاً.

قال قنادة: ذكر لنا أن كعباً كان يقول في تبع نعمت الرجل الصالح: ذم الله تعالى قومه ولم يذمه. قال: وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: لا تسبوا تبعاً فإنه قد كان رجلاً صالحاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن لهيعة عن أبي زرعة - يعني عمرو بن جابر الحضرمي، قال: سمعت سهل بن سعد الساعدي

رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا بـعـاً فإـنه قد كان أـسلـم»^(١).

ورواه الإمام أحمد^(٢) في مسنده عن حسن بن موسى عن ابن لهيعة به وقال الطبراني: حدثنا أحمد بن علي الأبار، حدثنا أحمد بن محمد بن أبي بربة، حدثنا مؤمل بن إسماعيل، حدثنا سفيان عن سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا بـعـاً فإـنه قد كان أـسلـم» وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا معمر عن ابن أبي ذئب عن المقربي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أدرى تبع نبياً كان أم غيرنبي» وتقديم بهذا السنـد من روایـة ابن أبي حاتـم كـما أورـده ابن عـساـکـر «لا أـدرـى تـبعـ كـانـ لـعـيـناـ أـمـ لاـ» فالله أعلم ورواه ابن عساکر من طريق زکریا بن یحیی البدی عن عكرمة عن ابن عباس موقفاً. وقال عبد الرزاق: أخبرنا عمران أبو الهذیل، أخبرني تمیم بن عبد الرحمن قال: قال عطاء بن أبي ریاح لا تسبوا بـعـاً فإـنه رسول الله ﷺ نـھـیـ عن سـبـهـ، وـالـلـهـ تـعـالـیـ أـعـلـمـ.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينَ {٢٨} مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ {٢٩} إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ {٣٠} يَوْمَ لَا يَعْنِي مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ {٣١} إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ {٣٢}

يقول تعالى مخبراً عن عدله وتزويجه نفسه عن اللعب والبعث والباطل كقوله جل وعلا: «وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلأً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار» [ص: ٢٧] وقال تعالى: «أفحسبتم أنما خلقناكم عثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم» [المؤمنون: ١١٥ - ١١٦] ثم قال تعالى: «إن يوم الفصل» وهو يوم القيمة يفصل الله تعالى فيه بين الخلاقتين، فيعذب الكافرين ويثيب المؤمنين. وقوله عز وجل: «مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ» أي يجمعهم كلهم أولهم وأخرهم «يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئاً» أي لا ينفع قريب قريباً كقوله سبحانه وتعالى: «فإذا نفح في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتسائلون» [المؤمنون: ١٠١] وكقوله جلت عظمته: «ولا يسأل حميم حميمياً يبصرونهم» [المعارج: ١١ - ١٠] أي لا يسأل أحواله عن حاله وهو يراه عياناً. وقوله جل وعلا: «ولا هم ينتصرون» أي لا ينصر القريب قريبه ولا يأتيه نصره من خارج، ثم قال: «إلا من رحم الله» أي لا ينفع يومئذ إلا رحمة الله عز وجل بخلقه «إنه هو العزيز الرحيم» أي هو عزيز ذو رحمة واسعة.

إِنَّ شَجَرَتَ الرَّقْوِيرٍ طَعَامُ الْأَشْيَرِ كَالْمُهَلَّ يَعْلَىٰ فِي الْعُلُونِ كَغَلِيَ الْحَمِيرِ

(١) انظر تفسير الطبرى ٢٤١/١١.

(٢) المسند ٣٤٠/٥.

**حُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَهَنَّمِ ۖ ثُمَّ صَبُوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۖ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۖ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْرُونَ ۖ**

يقول تعالى مخبراً عما يعذب به الكافرين الجاحدين للقائه: «إن شجرة الزقوم طعام الأئم» والأئم: أي في قوله وفعله، وهو الكافر، وذكر غير واحد أنه أبو جهل، ولا شك في دخوله في هذه الآية، ولكن ليست خاصة به. قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن همام بن الحارث أن أبا الدرداء كان يقرئ رجلاً «إن شجرة الزقوم طعام الأئم» فقال: طعام اليتيم، فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: قل إن شجرة الزقوم طعام الفاجر أي ليس له طعام من غيرها، قال مجاهد: ولو وقعت قطرة في الأرض لأفسدت على أهل الأرض معيشتهم، وقد تقدم نحوه مرفوعاً، وقوله: «كالمهل» قالوا: كعكر الزيت «يغلي في البطون كغلي الحميم» أي من حرارتها ورداءتها، وقوله: «خذوه» أي الكافر، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية «خذوه» ابتدره سبعون ألفاً منهم، وقوله: «فاعتلوه» أي سوقوه سجناً ودفعاً في ظهره، قال مجاهد «خذوه فاعتلوه» أي خذوه فادفعوه، وقال الفرزدق: [الكامل]

لِيسَ الْكَرَامُ بِنَا حَلِيلَكَ أَبَا هُمْ حَتَّى تُرَدَّ إِلَى عَطَيَّةٍ تُعَتَّلُ^(١)

«إلى سواء الجحيم» أي وسطها «ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم» كقوله عز وجل: «يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود» [الحج: ١٩ - ٢٠] وقد تقدم أن الملك يضرره بمقدمة من حديد، ففتح دماغه ثم يصب الحميم على رأسه فينزل في بدنها، فيسلت ما في بطنه من أمعائه حتى تمرق من كعبيه، أعادنا الله تعالى من ذلك. وقوله تعالى: «ذق إنك أنت العزيز الكريم» أي قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ، وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: أي لست بعزيز ولا كريم.

وقد قال الأموي في مغازيه: حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا أبو بكر الهذلي عن عكرمة قال: لقي رسول الله ﷺ أبا جهل لعنه الله فقال: «إن الله تعالى أمرني أن أقول لك، (أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى)» [القيامة: ٣٤ - ٣٥] قال: فنزع ثوبه من يده وقال: ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء، ولقد علمت أنني أمنع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم، قال فقتله الله يوم بدر وأذله وعيره بكلمته وأنزل: «ذق إنك أنت العزيز الكريم». وقوله عز وجل: «إن هذا ما كنتم به تمترون» كقوله تعالى: «يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً هذه النار التي كنتم بها تكذبون أفسحر هذا أم أنت لا تبصرون» [الطور: ١٣ - ١٥] ولهذا قال تعالى ههنا: «إن هذا ما كنتم به تمترون».

(١) البيت في ديوان الفرزدق ١٦٠ / ٢، وتفسير الطبرى ١١ / ٢٤٥.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامِ أَمِينٍ ﴿٥﴾ فِي جَنَّتِ وَعِيُونٍ ﴿٦﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ
 مُتَّقِيلِينَ ﴿٧﴾ كَذَلِكَ وَزَوْجَتُهُمْ بَحُورٌ عَيْنٌ ﴿٨﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَكْهَةٍ إِمَانِيْنَ ﴿٩﴾ لَا
 يَدْعُونَ فِيهَا الْمَوْتَكَ إِلَّا الْمَوْتَأَ الْأَوَّلَ وَوَقْتُهُمْ عَذَابُ الْجَحِيدِ ﴿١٠﴾ فَضَلَّ مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ
 الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١﴾ إِنَّمَا يَسْرِئِنَهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٢﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرَيَّقُونَ ﴿١٣﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذلك السعداء ولهذا سمي القرآن مثاني، فقال: «إن المتقين» أي الله في الدنيا «في مقام أمين» أي في الآخرة وهو الجنة، قد أمنوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب ومن الشيطان وكيده وسائر الآفات والمصائب «في جنات وعيون» وهذا في مقابلة ما أولئك فيه من شجرة الزقوم وشرب الحميم.

وقوله تعالى: «يلبسون من سندس» وهو رفع الحرير كالقمصان ونحوها « واستبرق» وهو ما فيه بريق ولمعان وذلك كالرياش وما يلبس على أعلى القماش «متقابلين» أي على السرر لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره. وقوله تعالى: «كذلك زوجناهم بحور عين» أي هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحسان الحور العين اللاتي «لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان» «كأنهن الياقوت والمرجان» «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان» [الرحمن: ٥٦ - ٥٨] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نوح بن حبيب، حدثنا نصر بن مزاحم العطار. حدثنا عمر بن سعد عن رجل عن أنس رضي الله عنه رفعه نوح قال: لو أن حوراء بزقت في بحر لجي لعذب ذلك الماء لعذوية ريقها.

وقوله عز وجل: «يدعون فيها بكل فاكهة آمين» أي مهما طلبو من أنواع الشمار أحضر لهم وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه بل يحضر إليهم كلما أرادوا.

وقوله: «لا يذوقون فيها الموت إلا الموت الأولى» هذا الاستثناء يؤكド النفي فإنه استثناء منقطع، ومعناه أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنـة والنـار ثم يذبح ثم يقال يا أهل الجنـة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت»^(١) وقد تقدم الحديث في سورة مريم عليهما الصلاة والسلام.

وقال عبد الرزاق: حدثنا سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن أبي مسلم الأغر عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يقال لأهل الجنـة إن لكم أن تصـحـوا فلا

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١٩، باب ١، ومسلم في الجنـة حديث ٤٠، والترمذـي في تفسير سورة ١٩، باب ٢، والدارمي في الرقـاق باب ٩٠، وأحمد في المسند ٣٧٧ / ٢، ٤٢٣، ٥١٣، ٩ / ٣.

تسقمو أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتو أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً»^(١) رواه مسلم عن إسحاق بن راهويه وعبد بن حميد، كلاهما عن عبد الرزاق به. هكذا يقول أبو إسحاق، وأهل العراق يقولون أبو مسلم الأغر، وأهل المدينة يقولون أبو عبد الله الأغر. وقال أبو بكر بن أبي داود السجستاني: حدثنا أحمد بن حفص عن أبيه عن إبراهيم بن طهمان عن الحجاج هو ابن حجاج عن عبادة عن عبيد الله بن عمرو عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من اتقى الله دخل الجنة ينعم فيها ولا يبأس ويحيا فيها فلا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه»^(٢).

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن يحيى، حدثنا عمرو بن محمد الناقد، حدثنا سليم بن عبد الله الرقي، حدثنا مصعب بن إبراهيم، حدثنا عمران بن الريبع الكوفي عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن محمد بن المنكدر عن جابر رضي الله عنه قال: سئل النبي ﷺ: أينام أهل الجنة؟ فقال ﷺ: «النوم أخو الموت وأهل الجنة لا ينامون» وهكذا رواه أبو بكر بن مردويه في تفسيره، حدثنا أحمد بن القاسم بن صدقة المصري، حدثنا المقدم بن داود، حدثنا عبد الله بن المغيرة، حدثنا سفيان الثوري عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «النوم أخو الموت وأهل الجنة لا ينامون»، وقال أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا الفضل بن يعقوب، حدثنا محمد بن يوسف الفريابي عن سفيان عن محمد بن المنكدر عن جابر رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله: هل ينام أهل الجنة؟ قال ﷺ: «لا، النوم أخو الموت، ثم قال: لا نعلم أحداً أنسنه عن ابن المنكدر عن جابر رضي الله عنه إلا الثوري ولا عن الثوري إلا الفريابي، هكذا قال، وقد تقدم خلاف ذلك، والله أعلم».

وقوله تعالى: «ووَقَاهُمْ عَذَابُ الْجَحِيمِ» أي مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم وسلمهم ونجاهم وزحزحهم عن العذاب الأليم في دركات الجحيم، فحصل لهم المطلوب ونجاهم من المرهوب ولهذا قال عز وجل: «فَضْلًا مِّنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوزُ الْعَظِيمُ» أي إنما كان هذا بفضله عليهم وإحسانه إليهم كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وسددوا وقاربوا واعلموا أن أحداً لن يدخله عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال ﷺ: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَعَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةِ مِنْهُ وَفَضْلِهِ»^(٣)، وقوله تعالى: «فَإِنَّمَا يُسَرِّنَا

(١) أخرجه في الجنة حديث ٢٢، والترمذى في تفسير سورة ٣٩ باب ١٠، والدارمى في الرفاق باب ١٠٣ وأحمد فى المسند ٣١٩/٢، ٣١٩، ٣٨/٣، ٩٥.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة حديث ٢١، والترمذى في الجنة باب ٢، وأحمد في المسند ٣١٩، ٣٠٥/٢، ٣٧٠، ٤٠٧، ٤٤٥.

(٣) أخرجه البخارى في الرفاق باب ١٨، ومسلم في المناقين حديث ٧١، ٧٦، ٧٨.

بـلـسانـك لـعـلـهـم يـتـذـكـرـونَ ﴿١﴾ أي إنما يـسـرـنـا هـذـا الـقـرـآن الـذـي أـنـزـلـنـاه سـهـلـاً وـاضـحـاً بـيـنـا جـلـياً بـلـسانـك الـذـي هـوـ أـفـصـحـ الـلـغـاتـ وـأـجـلـاـهـ وـأـحـلـاـهـ وـأـعـلاـهـ ﴿لـعـلـهـم يـتـذـكـرـونَ﴾ أي يـتـفـهـمـونـ وـيـعـمـلـونـ.

ثـمـ لـمـ كـانـ مـعـ هـذـا الـوـضـوحـ وـالـبـيـانـ مـنـ النـاسـ مـنـ كـفـرـ وـخـالـفـ وـعـانـدـ قـالـ اللهـ تـعـالـى لـرـسـولـهـ ﷺ مـسـلـيـاً لـهـ وـوـاعـدـاً لـهـ بـالـنـصـرـ ، وـمـتـوـعدـاً لـمـنـ كـذـبـهـ بـالـعـطـبـ وـالـهـلـاكـ : ﴿فـارـتـقـبـ﴾ أي اـنـتـظـرـ ﴿إـنـهـمـ مـرـتـقـبـوـنـ﴾ أي فـسـيـعـمـلـونـ لـمـنـ تـكـوـنـ النـصـرـ وـالـظـفـرـ وـعـلـوـ الـكـلـمـةـ فـيـ الـدـنـيـاـ وـالـآـخـرـةـ ، فـإـنـهـاـ لـكـ يـاـ مـحـمـدـ وـلـإـخـوـانـكـ مـنـ الـتـبـيـنـ وـالـمـرـسـلـيـنـ وـمـنـ اـتـبـعـكـمـ مـنـ الـمـؤـمـنـيـنـ كـمـاـ قـالـ تـعـالـىـ : ﴿كـتـبـ اللـهـ لـأـغـلـبـنـاـ أـنـاـ وـرـسـلـيـ إـنـ اللـهـ قـوـيـ عـزـيـزـ﴾ [الـمـجـادـلـةـ : ٢١] الـآـيـةـ . وـقـالـ تـعـالـىـ : ﴿إـنـاـ لـنـتـصـرـ رـسـلـنـاـ وـلـذـينـ آـمـنـوـاـ فـيـ الـحـيـاةـ الـدـنـيـاـ وـيـوـمـ يـقـومـ الـأـشـهـادـ يـوـمـ لـاـ يـنـفـعـ الـظـالـمـيـنـ مـعـذـرـتـهـمـ وـلـهـمـ لـعـنـةـ وـلـهـمـ سـوـءـ الدـارـ﴾ [غـافـرـ : ٥١ - ٥٣].

وهي مكية

سورة الحاثة

حَمَّ تَزْبِيلُ الْكَبِيبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا وَفِي حَلْقِ كُوكُوزِ وَمَا
بَيْتُ مِنْ دَائِبٍ مَا يَدَتُ لِقَوْمٍ يُوقَنُونَ وَخَلَقَ النَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَخْيَاهُ الْأَرْضُ بَعْدَ
مَوْتِهَا وَتَصْرِيفُ الرِّيحِ مَا يَدَتُ لِقَوْمٍ يَعْقُلُونَ

يرشد تعالى خلقه إلى التفكير في الآله ونعمه، وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات والأرض، وما فيها من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع من الملائكة والجن والإنس والدواب والطيور والوحش والسباع والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوعة واختلاف الليل والنهار في تعاقبها دائبين لا يفتران، هذا بظلماته وهذا بضيائه، وما أنزل الله تبارك وتعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه، وسماء رزقا لأن به يحصل الرزق «فأحياناً به الأرض بعد موتها» أي بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء. قوله عز وجل: «وتصريف الرياح» أي جنوباً وشمالاً ودبوراً وصباً^(١)، بحرية وبحرية، ليلية ونهارية. ومنها ما هو للmeter، ومنها ما هو لللقاء، ومنها ما هو غذاء للأرواح ومنها ما هو عقيم لا يتتج، وقال سبحانه وتعالى أولاً: «الآيات لمؤمنين» ثم يقولون ثم يعقلون وهو ترق من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى، وهذه الآيات شبيهة بآية البقرة وهي قوله تعالى: «إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والfolk التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحياناً به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون» [البقرة: ١٦٤] وقد أورد ابن أبي حاتم هنا عن وهب بن منبه أثراً طويلاً غريباً في خلق الإنسان من الأخلاط الأربعة، والله أعلم.

إِنَّكَ مَا يَدَتُ اللَّهُ تَنَّوُهَا عَلَيْكَ يَأْلَمُ حَقِيقَةً حَدِيثَ بَعْدَ اللَّهِ وَمَا يَدَتِهِ يُؤْمِنُونَ وَلِلَّهِ لِكُلِّ أَفَاكِ أَثْيَمِ لَا يَسْمَعُ
مَا يَدَتِ اللَّهُ شَنَّى عَلَيْهِمْ يُصْرُّ مُسْتَكِدِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعُهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ مَا يَدَتِنَا شَيْئًا أَنْهَذَهَا هَرَوْنًا
أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ مِّنْ وَرَآءِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُعْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا أَعْنَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلَاهُمْ
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ هَذَا هُدَىٰ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِإِيمَانِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّنْ يَعْجِزُ أَلِيمٌ

(١) رياح الدبور، هي الرياح التي تأتي من دبر الكعبة، ورياح الصبا: هي الرياح التي تستقبل الكعبة.

يقول تعالى: ﴿تَلَكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ يعني القرآن بما فيه من الحجج والبيانات ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي متضمنة الحق من الحق، فإذا كانوا لا يؤمرون بها ولا ينقادون لها فبأي حديث بعد الله وأياته يؤمرون؟ ثم قال تعالى: ﴿وَوِيلٌ لِكُلِّ أَفَاكَ أَثْيِم﴾ أي أفالك في قوله كذاب حلف مهين أثيم في فعله وقلبه كافر بآيات الله ولهذا قال: ﴿يَسْمَعُ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلَى عَلَيْهِ﴾ أي تقرأ عليه ﴿ثُمَّ يَصْرُ﴾ أي على كفره وجحوده استكباراً وعناداً ﴿كَانَ لَمْ يَسْمَعُهَا﴾ أي كأنه ما سمعها ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابِ الْأَلِيم﴾ أي فأخبره أن له عند الله تعالى يوم القيمة عذاباً أليماً موجعاً.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذُهَا هَرَوْا﴾ أي إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به واتخذه سخرية وهزواً ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مَهِينٌ﴾ أي في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به، ولهذا روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو^(١)، ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّم﴾ أي كل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيمة ﴿وَلَا يَغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً﴾ أي لا تفعهم أموالهم ولا أولادهم ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَيَاء﴾ أي ولا تغنى عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئاً ﴿وَلِهِمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ثم قال تبارك وتعالى: ﴿هَذَا هُدَى﴾ يعني القرآن ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ الْأَلِيم﴾ وهو المؤلم الموجع. والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿الَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفَلَكَ فِيهِ بَأْمِرِهِ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشَكُّرُونَ ﴾١٧﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لَأَيْنَتِ لِقَوْمٍ يَنْكُرُونَ ﴾١٨﴿ إِنَّ لِلَّذِينَ إِمَّا تَعْفُرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾١٩﴿ مَنْ عَمِلَ صَلَحاً فَلَنْفَسِهِ، وَمَنْ أَسَءَ فَلَعَلَّهُمْ إِلَيْهِمْ إِلَى رَيْكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾٢٠﴾

يدرك تعالى نعمه على عباده فيما سخر لهم من البحر ﴿لتجري الفلك﴾ وهي السفن فيه بأمره تعالى. فإنه هو الذي أمر البحر بحملها ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ أي في المتاجر والمكاتب ﴿ولعلكم تشکرون﴾ أي على حصول المنافع المجلوبة إليكم من الأقاليم النائية والأفاق القاصية، ثم قال عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي من الكواكب والجبال والبحار والأنهار، وجميع ما تتبعون به أي الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه ولهذا قال: ﴿جَمِيعاً مِنْهُ﴾ أي من عنده وحده لا شريك له في ذلك، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا بَكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسْكِمُ الْضُّرِّ إِلَيْهِ تَجَأْرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب ١٢٩، ومسلم في الإمارة حديث ٩٢، ٩٣، ٩٤، وأبو داود في الجهاد باب ٨١، وابن ماجه في الجهاد باب ٤٥، ومالك في الجهاد وحديث ٧، وأحمد في المسند ٦/٢، ٧، ١٠، ٥٥، ٦٣، ٧٦، ١٢٨.

وروى ابن جرير^(١) من طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهمما في قوله تعالى: ﴿وَسُخْرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ كل شيء هو من الله . وذلك الاسم فيه اسم من أسمائه، فذلك جميعاً منه ولا ينazuه فيه المنازعون ، واستيقن أنه كذلك . وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا محمد بن خلف العسقلاني ، حدثنا الفريابي عن سفيان عن الأعمش عن المنهاج بن عمرو عن أبي أراكة قال: سأله رجل عبد الله بن عمرو رضي الله عنهمما قال: مم خلق الخلق؟ قال: من النور والنار والظلمة والثرى . قال: وأتى ابن عباس رضي الله عنهمما فاسأله، فأتاهم فقال له مثل ذلك، فقال: ارجع إليه فسله مما خلق ذلك كله . فرجع إليه فسألته فتلا ﴿وَسُخْرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ هذا أثر غريب وفيه نكارة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أي يصفحوا عنهم ويتحملوا الأذى منهم وكان هذا في ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب ليكون ذلك كالتأليف لهم، ثم لما أصرروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاء والجهاد . هكذا روي عن ابن عباس رضي الله عنهمما وقتادة، وقال مجاهد: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ لا ينالون نعم الله تعالى، وقوله تبارك وتعالى: ﴿لِيَجزِي قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي إذا صفحوا عنهم في الدنيا فإن الله عز وجل مجازيهم بأعمالكم السيئة في الآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَنْفَسِهِ وَمَنْ أَسَءَ فَعْلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تَرْجَعُونَ﴾ أي تعودون إليه يوم القيمة فتعرضون بأعمالكم خيراً وشرها ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وَلَقَدْ أَنْتَنَا بِئْتَ إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزْقَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ١٦
وَإِنَّنَّهُمْ بَيْتَنَا مِنَ الْأَمْرِ ١٧ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْدَمَا يَبْيَنُهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي
بِنَهْمَمِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٨ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّعِهَا وَلَا تَنْتَعِ
أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ١٩ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلَيَاءَ بَعْضٍ وَاللَّهُ
وَلِيُّ الْمُنْتَقِيْنَ ٢٠ هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدَى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقَنُونَ ٢١

يدرك تعالى ما أنعم به علىبني إسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم وجعله الملك فيهم ، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْتَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزْقَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي من المأكل والمشابر ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي في زمانهم ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ بَيْنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ أي حججاً وبراهين وأدلة قاطعات ، فقادمت عليهم الحجج ثم اختلقوها بعد ذلك من بعد قيام الحجة ، وإنما كان ذلك بغياً منهم على بعضهم بعضاً ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾

يا محمد ﷺ يقضى بينهم يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون ﴿أي سيفصل بينهم بحکمة العدل، وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم وأن تقصد منهجهم﴾.

ولهذا قال جل وعلا: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ أي اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين، وقال جل جلاله ه هنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَنْ يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضَهُمْ أَوْلَيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي وماذا تغنى عنهم ولا يتهم بعضهم بعضاً فإنهم لا يزيدونهم إلا خساراً ودماراً وهلاكاً ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْمُتَقْبِلِينَ﴾ وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات، ثم قال عز وجل: ﴿هَذَا بِصَائِرَةُ النَّاسِ﴾ يعني القرآن ﴿وَهُدِيَ وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقَنُونَ﴾.

آمَ حَسَبَ الَّذِينَ أَحْتَرَحُوا السَّيِّئَاتَ أَنْ يَعْلَمُهُمْ كَالَّذِينَ أَمْنَوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ الْأَنْمَاءَ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ وَلَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَنْهَى إِلَيْهِ هَرَبَهُ وَأَضْلَلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَعْيِهِ وَفَلَيْهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غُشَّةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

يقول تعالى: «لا يستوي المؤمنون والكافرون» كما قال عز وجل: ﴿لَا يُسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠] وقال تبارك وتعالى: «آمِ حَسَبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتَ» أي عملوها وكسبوها ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءَ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أي نساوينهم بهم في الدنيا والآخرة ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نساوي بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة وفي هذه الدار.

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا مؤمل بن إهاب، حدثنا بكير بن عثمان التنوخي، حدثنا الوصيين بن عطاء عن يزيد بن مرثد الباجي عن أبي ذر رضي الله عنه قال: إن الله تعالى بنى دينه على أربعة أركان، فمن صبر عليهم ولم يعمل بهم لقي الله من الفاسقين، قيل: وما هن يا أبا ذر؟ قال يسلم حلال الله لله وحرام الله لله وأمر الله لله ونهي الله لله لا يؤتمن عليهم إلا الله.

قال أبو القاسم عليه السلام ﴿كَمَا أَنَّهُ لَا يَجْتَنِي مِنَ الشَّوْكِ الْعَنْبِ كَذَلِكَ لَا يَنْالُ الْفَجَارَ مِنَازِلَ الْأَبْرَارِ﴾. هذا حديث غريب من هذا الوجه، وقد ذكر محمد بن إسحاق في كتاب السيرة أنهم وجدوا حجراً بمكة في أس الكعبة مكتوب عليه: تعلمون السيئات وترجون الحسنات أجل كما يجتنبي من الشوك العنبر^(١). وقد روى الطبراني من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي الضحى عن مسروق أن تميماً الداري قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية ﴿آمِ حَسَبَ الَّذِينَ

اجترحوا السبئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات》 ولهذا قال تعالى: ﴿سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾ وقال عز وجل: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالعدل ﴿وَلِتَجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُنَّ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

ثم قال جل وعلا: ﴿أَفَرَأَيْتَ مِنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أي إنما يأتى مر بهواه، فما رأى حسناً فعله وما رأى سيحاً تركه، وهذا قد يستدل به على المعتزلة في قولهم بالتحسین والتقيیح العقلیین، وعن مالک فيما روی عنه من التفسیر لا يهوي شيئاً إلا عبده، قوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ يتحمل قولین: أحدهما وأضلله الله لعلمه أنه يستحق ذلك، والآخر وأضلله الله بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه. والثاني يستلزم الأول ولا ينعكس ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَبْلِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غَشَاوَةً﴾ أي فلا يسمع ما ينفعه ولا يعي شيئاً يهتدي به ولا يرى حجة يستضيء بها. ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَنْ يُضْلِلَ اللَّهُ فَلَا هَادِي لَهُ وَيُنَذِّرُهُمْ فِي طَغْيَانِهِمْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وَقَالُوا مَا هِي إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نُمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الْدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنَّهُمْ إِلَّا يَظْنُونَ ﴿١﴾ وَإِذَا
تُلَقُّ عَلَيْهِمْ ءَاكِلُتُنَا بَيْتَنَا مَا كَانَ حُجَّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَنَا مِنْ إِيمَانَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِنَا ﴿٢﴾ قُلْ اللَّهُ يُحِبُّكُمْ ثُمَّ
يُمْسِكُكُمْ بِمَمْعُوكُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَبِّ فِيهِ وَلَا كُنَّ أَكْرَمَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ﴿وَقَالُوا مَا هِي إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نُمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، وتقوله الفلسفه الإلهيون منهم، وهم ينكرون البداعة والرجعة، وتقوله الفلسفه الدهرية المنكرون للصانع، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تنتهي، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول ولهذا قالوا ﴿وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الْدَّهْرُ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنَّهُمْ إِلَّا يَظْنُونَ﴾ أي يتوهون ويتخلون.

فأما الحديث الذي أخرجه صاحبا الصحيح وأبو داود والنسائي من رواية سفيان بن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول تعالى يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب ليه ونهاره»^(١) وفي رواية «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»^(٢) وقد أورده ابن جرير^(٣) بسياق غريب جداً فقال: حدثنا

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٤٥، باب ١، والتوحيد باب ٣٥، ومسلم في الألفاظ حديث ٢، ٣، وأبو داود في الأدب باب ١٦٩، وأحمد في المستند ٢/٢٣٨، ٢٧٢.

(٢) أخرجه أحمد في المستند ٥/٢٩٩، ٣١١.

(٣) تفسير الطبرى ١١/٢٦٤.

أبو كريب، حدثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كان أهل الجاهلية يقولون إنما يهلكنا الليل والنهار وهو الذي يهلكنا يميتنا ويحيينا فقال الله تعالى في كتابه: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاةُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الْدَّهْرُ﴾ ويسبون الدهر فقال الله عز وجل: يؤذني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار، وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن منصور عن شريح بن التعمان عن ابن عيينة مثله.

ثم روى عن يونس عن ابن وهب عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «قال الله تعالى: يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر بيدي الليل والنهار» وأخرجه صاحبا الصحيح والنسائي من حديث يونس بن يزيد به. وقال محمد بن إسحاق عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «يقول الله تعالى: استقرضت عبدي فلم يعطني وسبني عبدي، يقول وادهراه وأنا الدهر» قال الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله عليه الصلاة والسلام «لا تسربوا الدهر فإن الله هو الدهر» كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا يا خيبة الدهر، فينسبون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله تعالى فكأنهم إنما سبوا الله عز وجل، لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نهي عن سب الدهر بهذا الاعتبار، لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه ويستندون إليه تلك الأفعال، هذا أحسن ما قيل في تفسيره وهو المراد، والله أعلم، وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدم الدهر من الأسماء الحسنةأخذًا من هذا الحديث.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي إذا استدل عليهم وبين لهم الحق، وأن الله تعالى قادر على إعادة الأبدان بعد فنائتها وتفرقها ﴿مَا كَانَ حَجْتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُو بَآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي أحيوهن إن كان ما تقولونه حقاً. قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يَحِيِّكُمْ ثُمَّ يَمْيِتُكُمْ﴾ أي كما تشاهدون ذلك يخرجكم من العدم إلى الوجود ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يَمْيِتُكُمْ ثُمَّ يَحِيِّكُمْ﴾ أي الذي قدر على البداعة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأخرى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدِأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ وَهُوَ أَهُونُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] ﴿ثُمَّ يَجْمِعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَبِّ فِيهِ﴾ أي إنما يجمعكم إلى يوم القيمة لا يعیدكم في الدنيا حتى تقولوا ﴿أَئْتُو بَآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿يَوْمَ يَجْمِعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩] ﴿لَأَيْ يَوْمٌ أَجْلَتِ لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ [المرسلات: ١٢ - ١٣] ﴿وَمَا نُؤْخِرُهُ إِلَّا لِأَجْلٍ مَعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤] وقال ه هنا ﴿ثُمَّ يَجْمِعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَبِّ فِيهِ﴾ أي لا شك فيه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي فلهذا ينكرون المعاد ويستبعدون قيام الأجساد قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرُونَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦ - ٧] أي يرون وقوعه بعيداً والمؤمنون يرون ذلك سهلاً قريباً.

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُوَمِّدُ يَخْسِرُ الْمُبْطَلُونَ ﴿١٧﴾ وَتَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى
إِنْ كَتَبَهَا أَلْيَمَ بَعْزَرُونَ مَا كُلُّمُ تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ هَذَا كَتَبَنَا يَنْطَقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسَبُ مَا كُنَّا
تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض والحاكم فيهما في الدنيا والآخرة، ولهذا قال عز وجل: «يوم تقوم الساعة» أي يوم القيمة (يُخسر المبطلون) وهم الكافرون بالله الجاحدون بما أنزله على رسleه من الآيات البينات والدلائل الواضحات.

وقال ابن أبي حاتم: قدم سفيان الثوري المدينة فسمع المعافري يتكلم ببعض ما يصحح به الناس، فقال له: يا شيخ أما علمت أن الله تعالى يوماً يخسر فيه المبطلون؟ قال: فما زالت تعرف في المعافري حتى لحق بالله تعالى، ذكره ابن أبي حاتم ثم قال تعالى: «وتَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً» أي على ركبها من الشدة والعظمة، ويقال إن هذا إذا جاء بجهنم فإنها ترفر زفة، لا يبقى أحد إلا جثا لركبته، حتى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ويقول: نفسي نفسي نفسي! لا أسألك اليوم إلا نفسي. وحتى أن عيسى عليه الصلاة والسلام ليقول: لا أسألك اليوم إلا نفسي لا أسألك مريم التي ولدتني! قال مجاهد وcube الأأخبار والحسن البصري «كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً» أي على الركب. وقال عكرمة: جاثية متميزة على ناحيتها وليس على الركب، والأول أولى.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو عن عبد الله بن باباه أن رسول الله ﷺ قال: «كأني أراكم جاثين بالكوم^(١) دون جهنم» وقال إسماعيل بن أبي رافع المديني عن محمد بن كعب عن أبي هريرة رضي الله عنه، مرفوعاً في حديث الصور: فيتميز الناس وتتجزو الأمم، وهي التي يقول الله تعالى: «وتَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً إلى كتابها» وهذا فيه جمع بين القولين ولا منافاة، والله أعلم.

وقوله عز وجل: «كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إلى كتابها» يعني كتاب أعمالها كقوله جل جلاله: «وَوْضُعُ الْكِتَابِ وَجِيءُ بِالنَّبِيِّنَ وَالشَّهِدَاءِ» [الزمر: ٦٩] ولهذا قال سبحانه وتعالى: «الْيَوْمَ تَجْزَوُنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» أي تجازون بأعمالكم خيراً وشرها كقوله عز وجل: «يَنْبَأُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدِمَ وَأَخْرَى بِلِ الْإِنْسَانَ عَلَى نَفْسِهِ بِصِرَرَةٍ وَلَوْأَلْقَى مَعَاذِيرَهُ» [القيمة: ١٣ - ١٥] ولهذا قال جلت عظمته: «هَذَا كَتَبَنَا يَنْطَقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ» أي يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص كقوله جل جلاله: «وَوْضُعُ الْكِتَابِ فَتَرَى الْمُجْرَمِينَ مَشْفَقِينَ مَمَّا فِيهِ، وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَهُذَا الْكِتَابُ لَا يَغْاَدِرْ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا

(١) الكوم: أي المواقع العالية.

حاضرًا ولا يظلم ربك أحداً» [الكهف: ٤٩] قوله عز وجل: «إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون» أي إنا كنا نامر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم.

قال ابن عباس رضي الله عنهم وغيرة: تكتب الملائكة أعمال العباد ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابلون الملائكة في ديوان الأعمال على ما بآيدي الكتبة، مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر، مما كتبه الله في القدم على العباد قبل أن يخلقهم فلا يزيد حرفًا ولا ينقص حرفًا ثم قرأ «إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون».

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخَلُهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١﴾ **وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَا يَتَكَبَّرُونَ** عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبِرُوا مَمْنُونَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٢﴾ **وَإِذَا قِيلَ إِنَّ اللَّهَ حَقٌّ** وَالسَّاعَةُ لَرَبِّ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدَرَى مَا السَّاعَةُ إِنَّ نَظَنَ إِلَّا ظَنًا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيقِنِينَ ﴿٣﴾ **وَبِدَا لَهُمْ سَيَّئَاتٍ** مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِزُونَ ﴿٤﴾ **وَقَيلَ الْيَوْمَ تَسْنَكُ كَانِيَتُهُ لِقَاءُ يَوْمَكُمْ هَذَا وَمَا أَوْلَكُمُ الْأَيَارُ وَمَا كُمْ مِنْ نَصْرَيْنَ** ذَلِكُمْ يَا شَكُّمْ أَخْذَتُمْ إِيمَانَ اللَّهِ هُرُوا وَغَرَّتُكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْبُونَ ﴿٥﴾ **فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ** السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ **وَلَهُ الْكَبِيرِيَّةُ** فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٧﴾

يخبر تعالى عن حكمه في خلقه يوم القيمة فقال تعالى: «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» أي آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم للأعمال الصالحة وهي الخالصة الموافقة للشرع «فَيُدْخَلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ» وهي الجنة كما ثبت في الصحيح أن الله تعالى قال للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء^(١).

«ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ» أي البين الواضح. ثم قال تعالى: «وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفْلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلُى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبِرُتُمْ» أي يقال لهم ذلك تقريراً وتوبيناً، أما قرئت عليكم آيات الله تعالى فاستكبرتم عن اتباعها، وأعرضتم عن سماعها، وكتم قوماً مجرمين في أفعالكم ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب؟

«وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَرَبِّ فِيهَا» أي إذا قال لكم المؤمنون ذلك «قلتم ما ندري ما الساعات» أي لا نعرفها «إِنَّ نَظَنَ إِلَّا ظَنًا» أي إن نتوهם وقوعها إلا توهماً أي مرجحاً ولهذا قال: «وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيقِنِينَ» أي بمحاجة في ذلك. قال الله تعالى: «وَبِدَا لَهُمْ سَيَّئَاتٍ» ما عملوا أي وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة «وَحَاقَ بِهِمْ» أي أحاط بهم «ما كانوا به يَسْتَهِزُونَ» أي من العذاب والنکال «وَقَيلَ الْيَوْمَ نَسْأَلُكُمْ» أي معاملتكم معاملة الناسي لكم في نار جهنم «كَمَا نَسِيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمَكُمْ هَذَا» أي فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به «وَمَا أَوْلَكُمُ النَّارَ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ». وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيمة:

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٥٠.

«ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربيع؟» فيقول: بلى يا رب. فيقول أفظنت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول الله تعالى: فال يوم أنساك كما نسيتني»^(١).

قال الله تعالى: «ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً» أي إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخرياً تسخرون وتستهزئون بها «وغرتم الحياة الدنيا» أي خدعتكم فاطمأنتم إليها فأصبحتم من الخاسرين، ولهذا قال عز وجل: «فال يوم لا يخرجون منها» أي من النار «ولا هم يستعيتون» أي لا يطلب منهم العتبى بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب ثم لما ذكر تعالى حكمه في المؤمنين والكافرين، قال: «فلله الحمد رب السموات ورب الأرض» أي المالك لهما وما فيهما، ولهذا قال «رب العالمين» ثم قال جل وعلا: «وله الكبرياء في السموات والأرض» قال مجاهد: يعني السلطان أي هو العظيم الممجد الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه. وقد ورد في الحديث الصحيح «يقول الله تعالى: العظمة إزارى، والكبرباء ردائي فمن نازعني واحداً منها أسكنته ناري»^(٢) ورواه مسلم من حديث الأعمش عن أبي إسحاق عن الأغر أبي مسلم، عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهمَا، عن رسول الله ﷺ بنحوه. وقوله تعالى: «هو العزيز» أي الذي لا يغالب ولا يمانع «الحكيم» في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره تعالى وتقديره لا إله إلا هو.

(١) أخرجه مسلم في الزهد حديث ١٦ ، والترمذى في القيامة باب ٦ .

(٢) أخرجه مسلم في البر حديث ١٣٦ ، وأبو داود في اللباس باب ٢٥ ، وابن ماجه في الزهد باب ١٦ ، وأحمد في المستند ٤٤٢ / ٢٤٨ ، ٣٧٦ ، ٤١٤ ، ٣٢٧ ، ٤٤٢ ، ١٩ / ٦ .

سورة الأحقاف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ رَتَبُلُ الْكِتَبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِيقَ وَأَجَلٌ
مُسْمَىٰ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مَعْرِضُونَ ۝ قُلْ أَرَيْتُمْ مَا أَنْدَعْنَا مِنْ دُرُنِ اللَّهِ أَرْوَفِي مَا ذَاهَقُوا مِنَ الْأَرْضِ
أَمْ هُمْ شَرُكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتَنْوِي بِكِتَبٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثْرَقَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَمَنْ
أَضَلُّ مِنْ مَنْ يَدْعُوا مِنْ دُرُنِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَحِي بِلَهٗ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَلَا حُشْرٌ
الْأَنْثَاثُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءٌ وَكَانُوا يَعْكَدُونَ كُفِّارِينَ ۝

يخبر تعالى أنه أنزل الكتاب على عبده ورسوله محمد ﷺ، صلوات الله عليه دائمًا إلى يوم الدين، ووصف نفسه بالعزة التي لا تزام، والحكمة في الأقوال والأفعال، ثم قال تعالى: «ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق» أي لا على وجه العبث والباطل «وأجل مسمى» أي وإلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص، وقوله تعالى: «والذين كفروا عما أنذروا معرضون» أي لا هون عما يراد بهم، وقد أنزل الله تعالى إليهم كتاباً وأرسل إليهم رسولاً، وهم معرضون عن ذلك كله أي وسيعلمون غب ذلك.

ثم قال تعالى: «قُلْ» أي لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره «أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض» أي أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض «أم لهم شرك في السموات» أي ولا شرك لهم في السموات ولا في الأرض وما يملكون من قطمير، إن الملك والتصرف كله إلا لله عز وجل، فكيف تبعدون معه غيره وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ فهو أمركم به؟ أم هو شيء اقترحته من عند أنفسكم؟ ولهذا قال: «أَتَنْوِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا» أي هاتوا كتاباً من كتب الله المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يأمركم بعبادة هذه الأصنام «أَوْ أَثَارَةٌ مِنْ عِلْمٍ» أي دليل بين على هذا المسلك الذي سلكتموه «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» أي لا دليل لكم لا نقلياً ولا عقلياً على ذلك، ولهذا قرأ آخرون: أو أثرة من علم أي أو علم صحيح تؤثرون عنه عن أحد من قبلكم، كما قال مجاهد في قوله تعالى: «أَوْ أَثَارَةٌ مِنْ عِلْمٍ» أو أحد يأثر علمًا^(١)، وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أو بينة من الأمر.

(١) انظر تفسير الطبرى ٢٧٣ / ١١.

وقال الإمام أحمد^(١) حدثنا يحيى عن سفيان عن صفوان بن سليم، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن ابن عباس رضي الله عنهمَا، قال سفيان: لا أعلم إلا عن النبي ﷺ، أو أثرة من علم، قال: الخط. وقال أبو بكر بن عياش: أو بقية من علم. وقال الحسن البصري: أو أثارة شيء يستخرج له فيشيره. وقال ابن عباس رضي الله عنهمَا ومجاحد وأبو بكر بن عياش أيضاً: أو أثارة من علم يعني الخط. وقال قتادة: أو أثارة من علم خاصة من علم وكل هذه الأقوال متقاربة. وهي راجعة إلى ما قلناه وهو اختيار ابن جرير رحمه الله وأكرمه وأحسن مثواه.

وقوله تبارك وتعالى: «وَمِنْ أَضْلَلُ مَنْ يَدْعُو مِنْ دُونَ اللَّهِ مِنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دِعَائِهِمْ غَافِلُونَ» أي لا أضل من يدعون من دون الله أصلناً، ويطلب ما لا تستطيعه إلى يوم القيمة، وهي غافلة عما يقول لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش، لأنها جماد حجارة صم، وقوله تبارك وتعالى: «وَإِذَا حَسِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءٍ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ» كقوله عز وجل: «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عَزًّا كَلَّا سِكَافُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضَدًا» [مريم: ٨١ - ٨٢] أي سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم. وقال الخليل عليه الصلاة والسلام: «إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُوْثَانًا مُوَدَّةً بَيْنَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَا وَأَكْمَنَ النَّارَ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ» [العنكبوت: ٢٥].

وَإِذَا تَلَئَ عَلَيْهِمْ أَيْتَنَا بَيْنَتِ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مِّنْ [] أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعَلَمُ بِمَا تُفْيِضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [] قُلْ مَا كُنْتُ بِدَاعًا مِنَ الرَّسُولِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا يَكُونُ إِنَّ أَنِي عُزُّ لَا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا ذَرَرٌ مُّبِينٌ []

يقول عز وجل مخبراً عن المشركين في كفرهم وعنادهم: أنهم إذا تلئ عليهم آيات الله بینات أي في حال بيانها ووضوحها وجلائتها يقولون «هذا سحر مبين» أي سحر واضح وقد كذبوا وافترروا وضلوا وكفروا «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ» يعنون محمداً ﷺ قال الله عز وجل: «قُلْ إِنْ أَفْتَرْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» أي لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلني وليس كذلك لعاقبني أشد العقوبة، ولم يقدر أحد من أهل الأرض لا أنتم ولا غيركم، أن يجيرني منه، كقوله تبارك وتعالى: «قُلْ إِنِّي لَنْ يَجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا إِلَّا بِلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرَسَالَتِهِ» [الجن: ٢٢ - ٢٣] وقال تعالى: «وَلَوْ تَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخْذَنَا مِنْهُ بَالِيمِينَ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ» [الحاقة: ٤٤ - ٤٧] ولهذا قال سبحانه وتعالى هنا: «قُلْ إِنْ أَفْتَرْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعَلَمُ بِمَا تُفْيِضُونَ فِيهِ

كفى به شهيداً ببني وبينكم》 هذا تهديد لهم ووعيد أكيد وترهيب شديد.

وقوله عز وجل : «وهو الغفور الرحيم» ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة أي ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم تاب عليكم وعفا عنكم وغفر ورحمة ، وهذه الآية قوله عز وجل في سورة الفرقان : «وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيمًا» [الفرقان: ٥ - ٦] قوله تبارك وتعالى : «قل ما كنت بداعاً من الرسل» أي لست بأول رسول طرق العالم بل جاءت الرسل من قبلي فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكرونني وتسبعدوا بعثتي إليكم فإنه قد أرسل الله جل وعلا قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم ، قال ابن عباس رضي الله عنهم ومجاهد وقتادة «قل ما كنت بداعاً من الرسل» ما أنا بأول رسول ، ولم يحك ابن جرير^(١) ولا ابن أبي حاتم غير ذلك .

وقوله تعالى : «وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية : نزل بعدها «ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر» [الفتح: ٢] وهكذا قال عكرمة والحسن وقتادة : إنها منسوخة بقوله تعالى : «ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر» قالوا : ولما نزلت هذه الآية قال رجل من المسلمين : هذا قد بين الله تعالى ، ما هو فاعل بك يا رسول الله ، فما هو فاعل بنا ؟ فأنزل الله تعالى : «ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات» [الفتح: ٥] هكذا قال ، والذي هو ثابت في الصحيح أن المؤمنين قالوا : هنئنا لك يا رسول الله فما لنا ؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية ، وقال الضحاك «وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم» أي ما أدرى بماذا أومر وبماذا أنهى بعد هذا ؟

وقال أبو بكر الهذلي عن الحسن البصري في قوله تعالى : «وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم» قال : أما في الآخرة فمعاذ الله قد علم أنه في الجنة ، ولكن قال : لا أدرى ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا ، أخرج كما أخرجت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قبلي ؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي ؟ ولا أدرى أي خسف بكم أو ترمون بالحجارة^(٢) ؟ وهذا القول هو الذي عول عليه ابن جرير وأنه لا يجوز غيره ولا شك أن هذا هو اللائق به صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه ، وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش إلى ماذا ، أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بکفرهم .

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد^(٣) ، حدثنا أبي عن ابن شهاب عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أم العلاء ، وهي امرأة من نسائهم أخبرته وكانت بايعت

(١) تفسير الطبرى ١١/٢٧٥.

(٢) انظر تفسير الطبرى ١١/٢٧٧.

(٣) المستند ٦/٤٣٦.

رسول الله ﷺ قال: طار لهم في السكنى حين اقترنت الأنصار على سكني المهاجرين عثمان بن مظعون رضي الله عنه فاشتكي عثمان رضي الله عنه عندها فمرة ثانية، حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه فدخل علينا رسول الله ﷺ فقلت رحمة الله عليك أبا السائب شهادتي عليك لقد أكرمك الله عز وجل فقال رسول الله ﷺ: «وما يدركك أن الله تعالى أكرمك» فقلت: لا أدرى بأبي أنت وأمي، فقال رسول الله ﷺ: «أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإنني لأرجو له الخير، والله ما أدرى وأنا رسول الله ﷺ ما يفعل بي».

قالت: فقلت والله لا أزكي أحداً بعده أبداً وأحزنني ذلك فنممت فرأيت لعثمان رضي الله عنه عيناً تجري، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك عمله» فقد انفرد بإخراج البخاري دون مسلم، وفي لفظ له «ما أدرى وأنا رسول الله ﷺ ما يفعل بي»^(١) وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ بدليل قولها فأحزنني ذلك، وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذي نص الشارع على تعينهم كالعاشرة وابن سلام والغميساء^(٢) وبلال وسرقة، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة، وزيد بن حرثة وجعفر وابن رواحة وما أشبه هؤلاء رضي الله عنهم، وقوله **«إن أتبع إلا ما أوحى إليّ** أي إنما أتبع ما ينزله الله علي من الوحي **«وما أنا إلا نذير مبين**» أي بين النذارة وأمري ظاهر لكل ذي لب وعقل، والله أعلم.

قُلْ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرُتُمْ بِهِ وَشَهَدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مُثْلِهِ فَعَمَّا نَوْعَدُهُمْ لَا يَتَّكَبِرُونَ **اللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَتُوَلِّنَا كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذَا لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكُ قَدِيمٌ** **وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْ مُوسَى إِلَيْهِ رَحْمَةً وَهَذَا كَتَبْ مُصَدِّقًا** **لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبِشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ** **إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ أَللَّهُمَّ أَسْقِمُوهُمْ فَلَا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ** **أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ حَلَّدِينَ فِيهَا جَرَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**

يقول تعالى: **«قل يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن** **«أرأيتم إن كان**» هذا القرآن **«من عند الله وكفرتم به**» أي ما ظنك أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذي جئتم به قد أنزل علي لأبلغكموه، وقد كفرتم به وكذبتموه. **«وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله**» أي وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله، بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به.

(١) أخرجه البخاري في الجنائز باب ٣، والتعبير باب ١٣.

(٢) وقيل: هي الرميساء بنت ملحان بن خالد بن زيد، أم أنس بن مالك. انظر كتاب الثقات لابن حبان . ١٣٢/٣

وقوله عز وجل : **﴿فَامْنُ﴾** أي هذا الذي شهد بصدقه من بنى إسرائيل لمعرفته بحقيته **﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾** أنت عن اتباعه ، وقال مسروق : فـامـنـ هذا الشـاهـدـ بـنـبـيـهـ وـكتـابـهـ وـكـفـرـتـمـ أـنـتـمـ بـنـبـيـكـمـ وـكتـابـكـمـ **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** وهذا الشـاهـدـ اـسـمـ جـنـسـ يـعـمـ عبدـ اللهـ بنـ سـلـامـ رـضـيـ اللهـ عـنـهـ وهذهـ كـوـلـهـ تـبـارـكـ وـتـعـالـىـ : **﴿وَإِذَا يـتـلـىـ عـلـيـهـمـ قـالـوـاـ آـمـنـاـ بـهـ إـنـهـ حـقـ مـنـ رـبـنـاـ إـنـاـ كـنـاـ مـنـ قـبـلـهـ مـسـلـمـيـنـ﴾** [القصص: ٥٣] وقال : **﴿إِنَّ الَّذِينَ أـوـتـواـ الـعـلـمـ مـنـ قـبـلـهـ إـذـا يـتـلـىـ عـلـيـهـمـ يـخـرـونـ لـلـأـذـقـانـ سـجـدـاـ وـيـقـولـونـ سـبـحـانـ رـبـنـاـ إـنـ كـانـ وـعـدـ رـبـنـاـ لـمـفـعـوـلـاـ﴾** قال مسروق والشعبي : ليس بعد الله بن سلام هذه الآية مكية ، وإسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه كان بالمدينة . رواه عنهما ابن جرير وابن أبي حاتم و اختاره ابن جرير .

وقال مالك عن أبي النضر عن عامر بن سعد عن أبيه قال : ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض إنه من أهل الجنة ، إلا لعبد الله بن سلام رضي الله عنه ^(١) .

قال : وفيه نزلت **﴿وَشَهَدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنْي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مُثْلِهِ﴾** رواه البخاري ومسلم والنسائي من حديث مالك به ، وكذا قال ابن عباس رضي الله عنهم ومجاهد والضحاك وفتادة وعكرمة ويوسف بن عبد الله بن سلام وهلال بن يساف والسدي والثورى ومالك بن أنس ، وابن زيد أنهم كلهم قالوا : إنه عبد الله بن سلام .

وقوله تعالى : **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾** أي قالوا عن المؤمنين بالقرآن لو كان القرآن خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه ، يعنون بلاً وعمراً وصهيباً وخيباً رضي الله عنهم ، وأشباههم وأقرانهم من المستضعفين والعبيد والإماء ، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناء . وقد غلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً وأخطئوا خطأً بينما كما قال تبارك وتعالى : **﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِّيَقُولُوا أَهُؤُلَاءِ مِنَ اللَّهِ عَلِيهِمْ مِّنْ بَيْنَنَا﴾** [الأعراف: ٥٣] أي يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا ولهذا قالوا : **﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾** وأما أهل السنة والجماعة ، فيقولون : في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة رضي الله عنهم هو بدعة لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه ، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها .

وقوله تعالى : **﴿وَإِذَا لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾** أي بالقرآن **﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾** أي كذب قد يم أي مأثور عن الناس الأقدمين فيتقصورون القرآن وأهله ، وهذا هو الكبر الذي قال رسول الله ﷺ :

(١) آخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب مناقب عبد الله بن سلام ، ومسلم فضائل الصحابة حديث ١٤٧ ،

بطر الحق وغمط الناس»^(١).

ثم قال تعالى: «وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابٌ مُوسَىٰ» وهو التوراة «إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ» يعني القرآن «مَصْدِقٌ» أي لما قبله من الكتب «لِسَانًا عَرَبِيًّا» أي فصيحاً بيناً واضحاً «لِيَنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشِّرَ لِلْمُحْسِنِينَ» أي مشتمل على النذارة للكافرين والبشرة للمؤمنين، قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا» تقدم تفسيرها في سورة حم «السجدة» قوله تعالى: «فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ» أي فيما يستقبلون «وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» على ما خلفوا «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدُوهُنَّ فِيهَا جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» أي الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسبوغها عليهم، والله أعلم.

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَنَ بِوَالِدِيهِ إِحْسَنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعْتُهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصَلَلُهُ تَلَثُّنَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشْدُدَهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ يَعْمَلَكَ الَّتِي أَنْفَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَلِحَّا تَرْضَهُ وَأَصْلِحَّ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تَبَّتْ إِنِّي كَوَافِرُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ تَنَقَّبُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَيْلُوا وَنَشَجَأُرُّ عَنْ سَيَّاتِهِمْ فِي أَحَبِّ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّدِيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ

لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين كما هو مقرر في غير ما آية من القرآن كقوله عز وجل: «وَقَضَى رَبُّكَ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَاهُ وَبِالْوَالِدِينِ إِحْسَانًا» [الإسراء: ٢٣] قوله جل جلاله: «أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدِيكَ إِلَيِّي الْمَصْبِرَ» [لقمان: ١٤] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة. وقال عز وجل هنـا «وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدِيهِ إِحْسَانًا» أي أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما.

وقال أبو داود الطيالسي حدثنا شعبة، أخبرني سماك بن حرب قال: سمعت مصعب بن سعد يحدث عن سعد رضي الله عنه قال: قالت أم سعد لسعد: أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين فلا أكل طعاماً ولا أشرب شراباً حتى تکفر بالله تعالى، فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يفتحون فاهاً بالعصا ونزلت هذه الآية «وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدِيهِ إِحْسَانًا» الآية. ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه من حديث شعبة بسانده نحوه وأطول منه «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا» أي قاست بسيبه في حال حمله مشقة وتعباً من وحام وغشيان ونقل وكرب، إلى غير ذلك مما تناول الحوامل من التعب والمشقة، «وَوَضَعْتُهُ كُرْهًا» أي بمشقة أيضاً من التلق وشدته «وَحَمَلَهُ وَفَصَالَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا».

وقد استدل علي رضي الله عنه بهذه الآية مع التي في لقمان «وَفَصَالَهُ فِي عَامَيْنَ» [لقمان:

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ١٤٧، وأبو داود في اللباس باب ٢٦، والترمذني في البر باب ٦١، وأحمد في المستند ١/ ٣٨٥، ٤٢٧، ٣٨٥، وعند الترمذني بلفظ «غمص» بدل «غمط».

[١٤] وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَالوَالدَّاتِ يَرْضُعُنَّ أُولَادَهُنَّ حَوْلَيْنَ كَامْلَيْنَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَمَ الرَّضَاعَة﴾ [البقرة: ٢٢٣] على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وهو استنباط قوي وصحيح، ووافقه عليه عثمان وجama'a من الصحابة رضي الله عنهم.

قال محمد بن إسحاق بن يسار عن يزيد بن عبيد الله بن قسيط عن بعجة بن عبد الله الجهنمي قال: تزوج رجل منا امرأة من جهينة فولدت له لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان رضي الله عنه، فذكر ذلك له، فبعث إليها، فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها فقالت: ما يبكيك؟ فوالله ما التبس بي أحد من خلق الله تعالى غيره قط، فيقضى الله سبحانه وتعالى في ما شاء، فلما أتى بها عثمان رضي الله عنه أمر برجمها فبلغ ذلك علياً رضي الله عنه: فأتاه فقال له ما تصنع، قال: ولدت تماماً لستة أشهر، وهل يكون ذلك، فقال له علي رضي الله عنه: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلـيـ. قال: أما سمعت الله عز وجل يقول ﴿وَحَمْلَهُ وَفِصَالِهِ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ وقال ﴿حَوْلِينَ كَامِلِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] فلم نجده بقى إلا ستة أشهر قال: فقال عثمان رضي الله عنه والله ما فطنت لهذا علي بالمرة فوجدوها قد فرغ منها قال: فقال بعجة: فوالله ما الغراب بالغراب ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه، فلما رأه أبوه قال: ابني والله لا أشك فيه. قال: وأبتلاه الله تعالى بهذه القرحة بوجهه الآكلة، فما زالت تأكله حتى مات^(١)، رواه ابن أبي حاتم، وقد أوردها من وجه آخر عند قوله عز وجل: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾.

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي، حدثنا فروة بن أبي المغراة، حدثنا علي بن مسهر عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد وعشرين شهراً، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعته لستة أشهر فحولين كاملين لأن الله تعالى يقول ﴿وَحَمْلَهُ وَفَصَالَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشْدَهُ﴾ أي قوي وشب وارتجل. ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي تناهى عقله وكمל فهمه وحلمه. ويقال إنه لا يتغير غالباً مما يكون عليه ابن الأربعين، قال أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن القاسم بن عبد الرحمن قال: قلت لمسروق: متى يؤخذ الرجل ذنبه؟ قال إذا بلغ الأربعين فخذ حذرك.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا أبو عبد الله القواريري، حدثنا عروة بن قيس الأزدي، وكان قد بلغ مائة سنة، حدثنا أبو الحسن السلوبي عمر بن أوس قال: قال محمد بن عمرو بن عثمان عن عثمان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة خفف الله تعالى حسابه، وإذا بلغ الستين سنة رزقه الله تعالى الإنابة إليه، وإذا بلغ سبعين سنة أ-. أهل السماء وإذا بلغ ثمانين سنة ثبت الله تعالى حسناته ومحى سيئاته، وإذا بلغ تسعين سنة

غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وشفعه الله تعالى في أهل بيته، وكتب في السماء أسير الله في أرضه» وقد روي هذا من غير وجه، وهو في مسنن الإمام أحمد^(١)، وقد قال الحجاج بن عبد الله الحكمي أحد أمراءبني أمية بدمشق، تركت المعاصي والذنوب أربعين سنة حياء من الناس، ثم تركتها حياءً من الله عز وجل، وما أحسن قول الشاعر: [الطوبل]

صبا ما صبا حتى علا الشيبُ رأسه فلما علاه قال للباطل: ابعد^(٢)!

﴿قال رب أوزعني﴾ أي ألهمني ﴿أن أشكك نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾ أي في المستقبل ﴿وأصلح لي في ذريتي﴾ أي نسلي وعقبى ﴿إني بت إليك وإنني من المسلمين﴾ وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله عز وجل ويعزم عليها، وقد روى أبو داود في سنته عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم أن يقولوا في التشهد «اللهم ألف بين قلوبنا وأصلاح ذات بيتنا، واهدنا سبل السلام ونجنا من الظلمات إلى النور وجنينا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجهنا وذرياتنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك قابليها وأتممها علينا﴾.

قال الله عز وجل: «أولئك الذين تتقبل عنهم أحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئاتهم» أي هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله تعالى المنبيون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين تتقبل عنهم أحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئتهم فيغفر لهم الكثير من الزلل ويقبل منهم اليسير من العمل.

﴿في أصحاب الجنة﴾ أي هم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله عز وجل من تاب إليه وأناب، ولهذا قال تعالى: «وعد الصدق الذي كانوا يوعدون» قال ابن حجر^(٣) حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا المعتمر بن سليمان عن الحكم بن أبيان عن الغطريف، عن جابر بن زيد عن ابن عباس رضي الله عنهم، عن رسول الله ﷺ، عن الروح الأمين عليه الصلاة والسلام قال: «يؤتى بحسنات العبد وسيئاته فيقتض بعضها ببعض، فإن بقيت حسنة وسع الله تعالى لها في الجنة» قال: فدخلت على يزداد فحدث بمثل هذا قال: قلت فإن ذهبت الحسنة؟ قال «أولئك الذين تتقبل عنهم أحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون» وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن محمد بن عبد الأعلى الصنعاني عن المعتمر بن سليمان بإسناده مثله وزاد عن الروح الأمين.

(١) المسند ٢١٨/٣.

(٢) البيت لدريد بن الصمة في ديوانه ص ٦٩، والأصميات ص ١٠٨، والشعر والشعراء ص ٧٥٥، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٨٢١، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٢٩٨.

(٣) تفسير الطبرى ٢٨٦/١١.

قال: قال الرب جل جلاله: يؤتى بحسنات العبد وسيئاته فذكره، وهو حديث غريب وإنسانه جيد لا يأس به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سليمان بن عبد، حدثنا عمرو بن عاصم الكلائي، حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر جعفر بن أبي وحشية عن يوسف بن سعد، عن محمد بن حاطب قال: ونزل في داري حيث ظهر علي رضي الله عنه على أهل البصرة فقال له يوماً: لقد شهدت أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه، وعنه عمار وصعصعة والأستر ومحمد بن أبي بكر رضي الله عنهما، فذكروا عثمان رضي الله عنه فتالوا منه، فكان علي رضي الله عنه على السرير ومعه عود في يده، فقال قائل منهم: إن عندكم من يفصل بينكم، فسألوه فقال علي رضي الله عنه: كان عثمان رضي الله عنه من الذين قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقْبَلَ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَجَوَّزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّدِيقَ الَّذِي كَانُوا يَوْعَدُونَ﴾ قال: والله عثمان وأصحاب عثمان رضي الله عنهم، قالها ثلاثاً. قال يوسف فقلت لمحمد بن حاطب: الله لسمعت هذا عن علي رضي الله عنه؟ قال: الله لسمعت هذا عن علي رضي الله عنه.

وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفَ لَكُمَا أَنْعَدَنَا فَأَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغْيِيَانِ اللَّهَ وَيَنْكِرُانِ إِيمَانَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿ۚۖ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتِ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسَانِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِيرِينَ ﴿ۚۖ﴾ وَلِكُلِّ درَجَتٍ مُمْتَنَنٌ عَمِلُوا وَلِوَفِيهِمْ أَعْمَلُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿ۚۖ﴾ وَيَوْمَ يُعَرَّضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبُتُمْ طَبَّبَتُمْ فِي حَيَاكُمُ الْأَدْنِيَا وَأَسْتَعْنُتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُحْزَنُونَ عَذَابَ الْهُوَنِ إِنَّمَا كُنْتُمْ تَسْكِنُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَنْسِقُونَ ﴿ۚۖ﴾

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الفوز، والنجاة، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفَ لَكُمَا﴾ وهذا عام في كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما فقوله ضعيف، لأن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه وكان من خيار أهل زمانه، وروى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في ابن لأبي بكر الصديق رضي الله عنهما وفي صحة هذا نظر، والله تعالى أعلم. وقال ابن جريج عن مجاهد: نزلت في عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما وهذا أيضاً قاله ابن جريج. وقال آخرون عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما، وهذا أيضاً قول السدي، وإنما هذا عام في كل من عق والديه وكذب بالحق، فقال لوالديه ﴿أَفَ لَكُمَا﴾ عقهما.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا يحيى بن أبي زائد، عن إسماعيل بن أبي خالد، أخبرني عبد الله بن المديني، قال: إني لفي المسجد حين خطب مروان فقال: إن الله تعالى قد أرى أمير المؤمنين في يزيد رأياً حسناً، وأن يستخلفه فقد

استخلف أبو بكر عمر رضي الله عنهما، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما: أهرقلية؟ إن أبي بكر رضي الله عنه والله ما جعلها في أحد من ولده ولا أحد من أهل بيته، ولا جعلها معاوية في ولده إلا رحمة وكرامة لولده، فقال مروان: ألسنت الذي قال لوالديه أفال كما؟ فقال عبد الرحمن رضي الله عنه: ألسنت ابن اللعين الذين لعن رسول الله ﷺ أباك؟ قال وسمعتهما عائشة رضي الله عنها فقالت: يا مروان أنت القائل لعبد الرحمن رضي الله عنه كذا وكذا؟ كذبت ما فيه نزلت ولكن نزلت في فلان ابن فلان، ثم انتخب مروان ثم نزل عن المنبر، حتى أتى بباب حجرتها، فجعل يكلمها حتى انصرف.

وقد رواه البخاري بإسناد آخر ولفظ آخر فقال: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن يوسف بن ماهك قال: كان مروان على الحجاز، استعمله معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يباع له بعد أبيه فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما شيئاً، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة رضي الله عنها فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل فيه ﴿والذي قال لوالديه أفال كما أتعداني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي﴾ فقلت عائشة رضي الله عنها من وراء الحجاب: ما أنزل الله عز وجل فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله تعالى أنزل عذري^(١).

[طريق أخرى] قال النسائي: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أمية بن خالد، حدثنا شعبة عن محمد بن زياد قال: لما بايع معاوية رضي الله عنه لابنه، قال مروان: سنة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. فقال عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما: سنة هرقل وقيسرا. فقال مروان: هذا الذي أنزل الله تعالى فيه ﴿والذي قال لوالديه أفال كما﴾ الآية. بلغ ذلك عائشة رضي الله عنها فقالت: كذب مروان والله ما هو به، ولو شئت أن أسمى الذي أنزلت فيه لسميتها، ولكن رسول الله ﷺ لعن أبي مروان ومروان في صلبه فمروان فضض من لعنة الله.

وقوله: ﴿أتعداني أن أخرج﴾ أي أبعث ﴿وقد خلت القرون من قبلي﴾ أي قد مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر ﴿وهمما يستغيثان الله﴾ أي يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما ﴿ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين﴾ قال الله تعالى: ﴿أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين﴾ أي دخلوا في زمرة أشباههم وأضرابهم، من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيمة.

وقوله: ﴿أولئك﴾ بعد قوله: ﴿والذي قال﴾ دليل على ما ذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك. وقال الحسن وقتادة: هو الكافر الفاجر العاق لوالديه المكذب بالبعث. وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة سهل بن داود من طريق هشام بن عمار، حدثنا حماد بن

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٢٤ باب ٨.

عبد الرحمن، حدثنا خالد بن الزبرقان الحلبـي عن سليمان بن حبيب عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «أربعة لعنهم الله تعالى من فوق عرشه، وأمنت عليهم الملائكة: مضل المساكين» قال خالد الذي يهوي بيده إلى المسكين فيقول: هلم أعطيك، فإذا جاءه قال: ليس معـي شيء «والذي يقول للماعون ابن وليس بين يديه شيء، والرجل يسأل عن دار القوم فيدلـونه على غيرها، والذي يضرـب الوالدين حتى يستغـيثـا» غريب جداً.

وقوله تبارك وتعالـي: «ولكل درجات مما عملوا» أي لـكل عذاب بحسب عملـه «وليـوـفيـهم أـعـمـالـهـمـ وـهـمـ لاـ يـظـلـمـونـ» أي لا يـظـلـمـهـمـ مـثـقاـلـ ذـرـةـ فـمـاـ دونـهـاـ . قال عبد الرحمن بن زيد بن أـسـلـمـ ، درـجـاتـ النـارـ تـذـهـبـ سـفـالـاـ وـدـرـجـاتـ الجـنـةـ تـذـهـبـ عـلـوـاـ^(١) ، وـقـوـلـهـ عـزـ وـجـلـ: «وـبـوـبـمـ يـعـرـضـ الـذـيـنـ كـفـرـواـ عـلـىـ النـارـ أـذـهـبـتـ طـبـيـاتـكـمـ فـيـ حـيـاتـكـمـ الدـنـيـاـ وـاسـتـمـعـتـمـ بـهـاـ» أي يـقـالـ لـهـمـ ذـلـكـ تـقـرـيـعاـ وـتـوـبـيـخـاـ ، وـقـدـ تـورـعـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـيـنـ عمرـ بـنـ الـخـطـابـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ عـنـ كـثـيرـ مـنـ طـبـيـاتـ الـمـاـكـلـ وـالـمـشـارـبـ . وـتـنـزـهـ عـنـهـاـ وـيـقـوـلـ: إـنـيـ أـخـافـ أـنـ أـكـوـنـ كـالـذـيـنـ قـالـ اللـهـ لـهـمـ وـبـخـمـهـ وـقـرـعـهـمـ: «أـذـهـبـتـ طـبـيـاتـكـمـ فـيـ حـيـاتـكـمـ الدـنـيـاـ وـاسـتـمـعـتـمـ بـهـاـ» وـقـالـ أـبـوـ مـجـلـ: لـيـفـقـدـنـ أـقـوـامـ حـسـنـاتـ كـانـتـ لـهـمـ فـيـ الدـنـيـاـ فـيـقـالـ لـهـمـ «أـذـهـبـتـ طـبـيـاتـكـمـ فـيـ حـيـاتـكـمـ الدـنـيـاـ» وـقـوـلـهـ عـزـ وـجـلـ: «فـالـيـوـمـ تـبـجزـونـ عـذـابـ الـهـوـنـ بـمـاـ كـنـتـمـ تـسـتـكـبـرـوـنـ فـيـ الـأـرـضـ بـغـيـرـ الـحـقـ وـبـمـاـ كـنـتـمـ تـفـسـقـوـنـ» فـجـوزـواـ مـنـ جـنـسـ عـمـلـهـمـ فـكـمـاـ نـعـمـواـ أـنـفـسـهـمـ وـاسـتـكـبـرـوـنـ فـيـ اـتـبـاعـ الـحـقـ وـتـعـاطـوـنـ الـفـسـقـ وـالـمـعـاـصـيـ ، جـازـاـهـمـ اللـهـ تـبارـكـ وـتـعـالـيـ بـعـذـابـ الـهـوـنـ ، وـهـوـ إـلـهـانـةـ وـالـخـزـيـ وـالـآـلـاـمـ الـمـوجـعـةـ وـالـحـسـرـاتـ الـمـتـابـعـةـ وـالـمـنـازـلـ فـيـ الـدـرـكـاتـ الـمـفـظـعـةـ ، أـجـارـنـاـ اللـهـ سـبـحـانـهـ وـتـعـالـيـ مـنـ ذـلـكـ كـلـهـ .

وـأـذـكـرـ أـخـاـ عـادـ إـذـ أـنـذـرـ قـوـمـهـ بـالـأـحـقـافـ وـقـدـ خـلـتـ الـنـذـرـ مـنـ بـيـنـ يـدـيـهـ وـمـنـ خـلـفـهـ أـلـاـ اللـهـ إـلـيـ أـخـافـ عـلـيـكـمـ عـذـابـ يـوـمـ عـظـيمـ^(٢) قـالـوـاـ أـجـئـنـاـ لـتـأـفـكـنـاـ عـنـ إـلـهـنـاـ فـأـنـيـاـ بـيـمـاـ تـعـدـنـاـ إـنـ كـنـتـ مـنـ الـصـدـيقـيـنـ^(٣) قـالـ إـنـمـاـ أـعـلـمـ عـنـ اللـهـ وـأـبـلـغـكـمـ مـاـ أـرـسـلـتـ بـهـ وـلـكـيـ أـرـيـكـمـ قـوـمـاـ بـجـهـلـوـنـ^(٤) فـلـمـاـ رـأـوـهـ عـارـضاـ مـسـتـقـيلـ أـوـدـيـهـمـ قـالـوـاـ هـذـاـ عـارـضـ مـمـطـرـنـاـ بـلـ هـوـ مـاـ أـسـتـعـجـلـنـ بـهـ وـرـبـعـ فـيـهـ عـذـابـ الـلـيـمـ^(٥) تـدـمـرـ كـلـ شـيـعـ بـأـمـرـرـهـاـ فـأـصـبـحـوـاـ لـأـ يـرـىـ إـلـاـ مـسـكـنـهـمـ كـذـلـكـ بـخـرـيـ أـقـوـمـ الـمـعـرـمـيـنـ^(٦)

يـقـوـلـ تـعـالـيـ مـسـلـيـاـ لـنـبـيـهـ ﷺ فـيـ تـكـذـيـبـ مـنـ كـذـبـ مـنـ قـوـمـهـ «وـأـذـكـرـ أـخـاـ عـادـ» وـهـوـ هـوـدـ عـلـيـهـ الصـلاـةـ وـالـسـلـامـ ، بـعـهـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ إـلـيـ عـادـ الـأـوـلـيـ وـكـانـوـاـ يـسـكـنـوـنـ الـأـحـقـافـ ، جـمـعـ حـقـفـ وـهـوـ الـجـبـلـ مـنـ الرـمـلـ ، قـالـهـ اـبـنـ زـيـدـ ، وـقـالـ عـكـرـمـةـ: الـأـحـقـافـ الـجـبـلـ وـالـغـارـ ، وـقـالـ عـلـيـ بـنـ أـبـي طـالـبـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ: الـأـحـقـافـ وـادـ بـحـضـرـمـوتـ يـدـعـيـ بـرـهـوـتـ تـلـقـيـ فـيـهـ أـرـوـاحـ الـكـفـارـ ، وـقـالـ قـاتـادـةـ: ذـكـرـ لـنـاـ أـنـ عـادـ كـانـوـاـ حـيـاـ بـالـيـمـنـ أـهـلـ رـمـلـ مـشـرـفـيـنـ عـلـىـ الـبـحـرـ بـأـرـضـ يـقـالـ لـهـ

الشحر^(١) ، قال ابن ماجه: باب إذا دعا فليبدأ بنفسه . حدثنا الحسين بن علي الخلال ، حدثنا أبي ، حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا سفيان ، عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «يرحمنا الله وأخا عاد»^(٢) .

وقوله تعالى: «وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه» يعني وقد أرسل الله تعالى إلى من حول بلادهم من القرى مرسلين ومتذرين كقوله عز وجل: «فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها» [البقرة: ٦٦] وكقوله جل وعلا: «فإن أعرضوا فقل أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وتمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم» [فصلت: ١٤ — ١٣] أي قال لهم هود ذلك فأجابه قومه قائلاً: «أجئتنا لتأفينا عن آلهتنا» أي لتصدنا عن آلهتنا «فأثنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين» استجلوا عذاب الله وعقوبته استبعاداً منهم وقوعه كقوله جلت عظمته «يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها» [الشورى: ١٨] «قال إنما العلم عند الله» أي الله أعلم بكم إن كتم مستحقين لتعجيل العذاب فسيفعل ذلك بكم وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به «ولكني أراكم قوماً تحجهلون» أي لا تعقلون ولا تفهمون .

قال الله تعالى: «فلما رأوه عارضاً مستقبلاً أوديتم» أي لما رأوا العذاب مستقبلاً لهم اعتقدوا أنه عارض ممطر، ففرحوا واستبشروا به وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر. قال الله تعالى: «بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم» أي هو العذاب الذي قلتم فأثنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين «تدمر» أي تخرّب «كل شيء» من بلادهم مما من شأنه الضرر «بأمر ربها» أي بإذن الله لها في ذلك كقوله سبحانه وتعالى: «ما تذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالرميم» أي كالشيء البالي ولهذا قال عز وجل: «فاصبحوا لا يرى إلا مساكنهم» أي قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية .

« كذلك نجزي القوم المجرمين» أي هذا حكمنا فيمن كذب رسألنا وخالف أمرنا . وقد ورد الحديث في قضتهم وهو غريب جداً من غرائب الحديث وأفراده . قال الإمام أحمد^(٣) : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي قال: حدثنا عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن الحارث البكري قال: خرجت أشكوك العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ ، فمررت بالربذة فإذا عجوز من بنى تميم متقطع بها فقالت لي: يا عبد الله إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة ، فهل أنت مبلغني إليها؟ قال فحملتها فأتيت بها المدينة ، فإذا المسجد غاص بأهله ، وإذا راية سواد تخفق ، وإذا بلال رضي الله عنه ، متقدلاً السيف بين يدي

(١) انظر تفسير الطبراني ٢٩١/١١.

(٢) آخر جه ابن ماجه في الدعاء باب ٦ .

(٣) المستند ٤٨٢/٣ .

رسول الله ﷺ فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا يريد أن يبعث عمرو بن العاص رضي الله عنه وجهًا قال: فجلست فدخل منزله، أو قال رحله، فاستأذنت عليه فأذن لي، فدخلت فسلمت، فقال ﷺ: «هل كان بينكم وبين تميم شيء؟» قلت: نعم وكان لنا الدائرة عليهم، ومررت بعجز منبني تميم منقطع بها، فسألتني أن أحملها إليك فهاهي بالباب، فأذن لها فدخلت فقلت: يا رسول الله إني رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً فاجعل الدهماء فحميت العجوز واستوفزت وقالت: يا رسول الله فإلى أين يضطر مضرك؟ قال: قلت إن مثلي ما قال الأول معزى حملت حتفها، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصماً، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كواحد عاد، قال «هيه وما وافت عاد؟» وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطيعه، قلت: إن عاداً قحطوا فبعوا وفداً لهم يقال له قيل، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة، فقال: اللهم إنك تعلم أنني لم أجيء إلى مريض فأداوته ولا إلى أسير أفاديه، اللهم اسق عاداً ما كنت نسيقه، فمررت به سحابات سود فنودي منها أختر. فأوْمأ إلى سحابة منها سوداء فنودي منها، خذها رماداً رمداً، لا تبقى من عاد أحداً، قال: فلما بلغني أنه أرسل عليهم من الريح إلا كقدر ما يجري في خاتمي هذا حتى هلكوا قال أبو وائل: وصدق وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وفداً لهم قالوا: لا تكون كواحد عاد^(١). ورواه الترمذى والنسائي وابن ماجه كما تقدم في سورة الأعراف.

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا هارون بن معروف، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو أن أبي النضر حدثه عن سليمان بن يسار عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجوماً ضاحكاً حتى رأيت منه لهواته إنما كان يبتسم وقالت: كان رسول الله ﷺ إذا رأى غيماً أو ريحَا عرف ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية، فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض بمطربنا»^(٣) وأخر جاه من حديث ابن وهب.

[طريق أخرى] قال الإمام أحمد^(٤): حدثنا عبد الرحمن عن سفيان عن المقدام بن شريح عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله ﷺ كان إذا رأى ناشتاً في أفق من آفاق

(١) آخر جه الترمذى في تفسير سورة ٥١ باب ١.

(٢) المسند ٦٦/٦.

(٣) آخر جه البخارى في تفسير سورة ٩٦، باب ٢، ومسلم في الاستئقاء حديث ١٤، وأبو داود في الأدب باب ١٠٤.

(٤) المسند ٦٩٠/٦.

السماء ترك عمله وإن كان في صلاته ثم يقول: «اللهم إني أعوذ بك من شر ما فيه» فإن كشفه الله تعالى حمد الله عز وجل، وإن أمطر قال: «اللهم صيباً نافعاً».

[طريق أخرى] قال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر الظاهر، أخبرنا ابن وهب قال: سمعت ابن جريج يحدثنا عن عطاء بن أبي رباح عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به» قالت: وإذا تخيلت^(١) السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر، فإذا أ茅رت سري عنه، فعرفت ذلك عائشة رضي الله عنها، فسألته فقال رسول الله ﷺ: «العله يا عائشة كما قال قوم عاد **﴿فَلِمَا رأوه عارضاً مُسْتَقْبِلَ أُوْدِيَّهُمَا قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مَمْطَرُنَا﴾**^(٢) وقد ذكرنا قصة هلاك قوم عاد في سورتي الأعراف وهو د بما أغني عن إعادة هنا، والله تعالى الحمد والمنة.

وقال الطبراني: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا إسماعيل بن زكريا الكوفي، حدثنا أبو مالك بن مسلم الملائقي عن مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما فتح على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم، ثم أرسلت عليهم البدو إلى الحضر، فلما رأها أهل الحضر قالوا هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا، وكان أهل البوادي فيها، فألقى أهل البوادي على أهل الحاضرة حتى هلكوا - قال - عدت على خزانها حتى خرجت من خلال الأبواب، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وَلَقَدْ مَكَثُوكُمْ فِيمَا إِنْ مَكَثَكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمِعاً وَأَبْصَرَا وَأَفْعِدَهُمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعِدُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَحْمَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِزُونَ وَلَقَدْ أَهْلَكَنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرْبَى وَصَرَفَنَا آلَيَّتَ لِعْنَهُمْ يَرْجِعُونَ **﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ أَخْدُوا مِنْ دُونِهِمْ اللَّهُ فَرِبَّانِهِ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾**

يقول تعالى: ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيتهم منها ما لم نعطيكم مثله ولا قريباً منه، **﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمِعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْتَدَهُمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعِدُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَحْمَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِزُونَ﴾** أي وأحاط بهم العذاب، والنkal الذي كانوا يكتذبون به ويستبعدون وقوعه، أي فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم فيصيكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة.

(١) تخيلت: أي تغيمت وتهيات للمطر.

(٢) أخرجه مسلم في الاستسقاء حديث ١٦.

وقوله تعالى: ﴿ولَقَدْ أَهْلَكُنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرَى﴾ يعني أهل مكة، وقد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها كعاد، وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن، وثمد و كانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سباً وهم أهل اليمن، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط كانوا يمررون بها أيضاً، وقوله عز وجل: ﴿وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ﴾ أي بينها وأوضحتها ﴿لِعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فَلَوْلَا نَصْرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا لِأَهْلِهِ﴾ أي فهلا نصروهم عند احتياجهم إليهم . ﴿بَلْ ضَلَّلُوكُمْ﴾ أي بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم ﴿وَذَلِكَ إِنْفِكُمْ﴾ أي: كذبهم ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي وافتراؤهم في اتخاذهم إياهم آلهة وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها واعتمادهم عليها ، والله أعلم .

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَعْمِلُونَ الْفُرْرَاءَ إِنَّ فَلَمَّا حَاضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوْنَا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْلَا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذَرِينَ ﴿فَالَّذِي يَقُولُوا يَقُولُونَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أَنْزَلْنَا مِنْ بَعْدِ مُؤْنَسٍ مُصَدِّقًا إِنَّمَا يَنْهَا يَنْهَا يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ ﴾ يَقُولُونَا أَجِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَأَمْنُوا بِهِ يَغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجْزِيُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلَيْرِ ﴿وَمَنْ لَا يُحِبُّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ يُمْعَجِزُ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُرْبِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

قال الإمام أحمد^(١): حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، سمعت عكرمة عن الزبير، ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَعْمِلُونَ الْفُرْرَاءَ﴾ قال: بنخلة، ورسول الله ﷺ يصلي العشاء الآخرة كادوا يكونون عليه لبدأ^(٢) [الجن: ١٩] قال سفيان: اللبد بعضهم على بعض كاللبد بعضه على بعض، تفرد به أحمد، وسيأتي من رواية ابن جرير عن عكرمة، عن ابن عباس أنهم سبعة من جن نصبيين .

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة (ح) وقال الإمام الشهير الحافظ أبو بكر البهقي في كتابه دلائل النبوة: أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا إسماعيل القاضي أخبرنا مسدد حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا راهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا ما لكم، فقالوا حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض وغارتها وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء

(١) المستند / ١٦٧ .

(٢) المستند / ٢٥٢ .

فانطلقو يضربون مشارق الأرض وغاربها يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء.

فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو هامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة عاماً إلى سوق عكاظ وهو يصلّي ب أصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك حين رجعوا إلى قومهم «قالوا يا قومنا إنا سمعنا قرآنًا عجباً يهدى إلى الرشد فاماًنا به ولن نشرك برينا أحداً» [الجن: ١] وأنزل الله على نبيه ﷺ «قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن»^(١) [الجن: ١] وإنما أوحى إليه قول الجن رواه البخاري عن مسدد بنحوه، وأخرجه مسلم عن شيبان بن فروخ عن أبي عوانة به، ورواه الترمذى والنسائى في التفسير من حديث أبي عوانة.

وقال الإمام أحمد^(٢) أيضاً: حدثنا أبو أحمد، حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الجن يستمعون الوحي فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشرأً، فيكون ما سمعوا حقاً وما زادوا باطلأً، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك، فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رمي بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إيليس فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث، فبُثت جنوده فإذا بالنبي ﷺ يصلّي بين جلي نخلة، فأتوه فأخبروه فقال: هذا الحدث الذي حدث في الأرض^(٣)، ورواه الترمذى والنسائى في كتابي التفسير من سننهما من حديث إسرائيل به، وقال الترمذى: حسن صحيح، وهكذا رواه أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما، وكذا رواه العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً بمثل هذا السياق بطوله، وهكذا قال الحسن البصري إنه عليه السلام ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله تعالى عليه بخبرهم.

وذكر محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان عن محمد بن كعب القرظى قصة خروج النبي ﷺ إلى الطائف ودعائه إياهم إلى الله عز وجل وإياهم عليه، فذكر القصة بطولها وأورد ذلك الدعاء الحسن «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت أرحم الراحمين وأنت رب المستضعفين، وأنت ربى إلى من تكلني؟ إلى عدو يتوجهمني أم إلى صديق قريب ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي، أعود بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك أو يحل بي سخطك، ولنك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك».

قال: فلما انصرف عنهم بات بنخلة فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعه الجن من أهل

(١) أخرجه البخاري في الأذان باب ١٠٥، وتفسير سورة ٧٢ باب ١، ومسلم في الصلاة حديث ١٤٩ والترمذى في تفسير سورة ٧٢، باب ١.

(٢) المسند ٢٧٤ / ١.

(٣) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ٧٢، باب ٢.

نصيبيين، وهذا صحيح، ولكن قوله إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر، لأن الجن كان استماعهم في ابتداء الإيحاء كما دل عليه حديث ابن عباس رضي الله عنهم المذكور، وخروجه عليه السلام إلى الطائف كان بعد موت عمه، وذلك قبل الهجرة بستة أو سنتين كما قرره ابن إسحاق وغيره، والله أعلم، وقال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا سفيان عن عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: هبطوا على النبي عليه السلام وهو يقرأ القرآن بيطن نخلة (فلم حضروه قالوا أنصتوا) قال صه، وكانوا تسعة وأحددهم زوجة، فأنزل الله عز وجل: (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم متذرين) - إلى - (ضلال مبين) فهذا مع الأول من روایة ابن عباس رضي الله عنهم يقتضي أن رسول الله عليه السلام لم يشعر بحضورهم في هذه المرة، وإنما استمعوا قراءته ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه إرسالاً قوماً بعد قوم وفوجاً بعد فوج، كما ستأتي بذلك الأخبار في موضعها والآثار مما سنوردها إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

فأما ما رواه البخاري ومسلم جميعاً عن أبي قدامة عبيد الله بن سعيد السرخسي، عن أبي أسامة حماد بنأسامة عن مسعود بن كدام، عن معن بن عبد الرحمن، قال: سمعت أبي يقول: سألت مسروقاً من آذن النبي عليه السلام ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثني أبوك يعني ابن مسعود رضي الله عنه أنه آذنته بهم شجرة^(١)، فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى ويكون إثباتاً مقدماً على نفي ابن عباس رضي الله عنهم، ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات والله أعلم ويحتمل أن يكون في المرة الأولى، ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة أي أعلمته باستماعهم، والله أعلم.

قال الحافظ البيهقي: وهذا الذي حكاه ابن عباس رضي الله عنهم إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله عليه السلام، وعلمت حاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن فقرأ عليهم القرآن ودعاه إلى الله عز وجل كما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

[ذكر الروايات عنه بذلك]

قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا داود عن الشعبي وابن أبي زائدة، أخبرنا داود عن الشعبي عن علقمة قال: قلت لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: هل صحب رسول الله عليه السلام ليلة الجن منكم أحد؟ فقال: ما صحبه منا أحد ولكننا فقديناه ذات ليلة بمكة

(١) أخرجه البخاري في مناقب الانصار باب ٣٢، ومسلم في الصلاة حديث ١٥٣.

(٢) المستند ٤٣٦ / ١.

فقلنا أغتيل ؟ استطير ؟ ما فعل ؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما كان في وجه الصبح - أو قال - في السحر إذا نحن به يجيء من قبل حراء، فقلنا: يا رسول الله، فذكروا له الذي كانوا فيه فقال: «إنه أتاني داعي الجن فأتيتهم فقرأت عليهم» قال: فانطلق فأرانا آثارهم وأثار نيرانهم قال: قال الشعبي: سأله عاصم: سأله بمكة وكانوا من جن الجزيرة فقال: «كل عظم ذكر اسم الله عليه أن يقع في أيديكم أوف ما يكون لحمًا، وكل برة أو روثة علف لدوايكم - قال - فلا تستنجدوا بهما فإنهم زاد إخوانكم من الجن» وهكذا رواه مسلم في صحيحه عن علي بن حجر عن إسماعيل ابن علية به نحوه.

وقال مسلم^(١) أيضًا: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود وهو ابن أبي هند عن عاصم قال: سألت علقمة: هل كان ابن مسعود رضي الله عنه شهد مع رسول الله ﷺ ليلة العن؟ قال فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود رضي الله عنه فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا ولكننا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة فقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب فقيل استطير؟ أغتيل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذ هو جاء من قبل حراء، قال: فقلنا: يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجده، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال: «أتاني داعي الجن فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن». قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وأثار نيرانهم، وسألته زاد فقال: «كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوف ما يكون لحمًا، وكل برة أو روثة علف لدوايكم» قال رسول الله ﷺ يقول: «فلا تستنجدوا بهما فإنهم طعام إخوانكم».

[طريق أخرى] عن ابن مسعود رضي الله عنه. قال أبو جعفر بن جرير: حدثني أحمد بن عبد الرحمن، حدثني عمي، حدثني يونس عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله قال: إن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بت الليلة أقرأ على الجن ربعاً بالحجون».

[طريق أخرى] فيها أنه كان معه ليلة الجن. قال ابن جرير^(٢) رحمه الله: حدثني أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثنا عمي عبد الله بن وهب، أخبرني يونس عن ابن شهاب عن أبي عثمان بن سنة الخزاعي، وكان من أهل الشام قال: إن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ للأصحابه وهو بمكة: «من أحب منكم أن يحضر أمر الجن الليلة فليفعل» فلم يحضر منهم أحد غيري، قال: فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة خط لي برجله خطًا ثم أمرني أن أجلس فيه ثم انطلق حتى قام، فافتتح القرآن فغضيته أسوده كثيرة حالت بيبي وبينه

(١) كتاب الصلاة حديث: ١٥٠.

(٢) تفسير الطبرى ٢٩٩/١١.

حتى ما أسمع صوته، ثم طفقو يتقطعون مثل قطع السحاب، ذاهبين حتى بقي منهم رهط، ففرغ رسول الله مع الفجر فانطلق فتبرز ثم أتاني فقال: ما فعل الرهط. فقلت: هم أولئك يا رسول الله، فأعطاهم عظماً وروثاً زاداً، ثم نهى أن يستطيب أحد بروث أو عظم. ورواه ابن جرير^(١) عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم عن أبي زرعة وهب بن راشد عن يونس بن يزيد الأيلي به.

ورواه البيهقي في الدلائل من حديث عبد الله بن صالح كاتب الليث عن يونس به، وقد روى إسحاق بن راهويه عن جرير عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن مسعود رضي الله عنه، فذكر نحو ما تقدم ورواه الحافظ أبو نعيم من طريق موسى بن عبيدة عن سعيد بن الحارث عن أبي المعلى عن ابن مسعود رضي الله عنه، فذكر نحوه أيضاً.

[طريق أخرى] قال أبو نعيم: حدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني أبي قال: حدثنا عفان وعكرمة قالا: حدثنا معتمر قال: قال أبي: حدثني أبو تميمة عن عمرو، ولعله قد يكون قال البكري يحدثه عمرو عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: استتبعني رسول الله ﷺ فانطلقنا حتى أتينا مكان كذا وكذا، فخط لي خطًا فقال: «كن بين ظهر هذه لا تخرج منها فإنك إن خرجت هلكت» فذكر الحديث بطوله وفيه غرابة شديدة.

[طريق أخرى] قال ابن جرير^(٢): حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور عن معاذ عن يحيى بن أبي كثير، عن عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفي أنه قال لابن مسعود رضي الله عنه: حدثت أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن. قال: أجل، قال: فكيف كان؟ فذكر الحديث كله وذكر أن النبي ﷺ خط عليه خطًا وقال: «لا تبرح منها» فذكر مثل العجاجة السوداء غشيت رسول الله ﷺ، فذعر ثلاث مرات حتى إذا كان قريباً من الصبح أتاني النبي ﷺ فقال: «أنمت؟» فقلت: لا والله، ولقد هممت مراراً أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك تقول «اجلسوا» فقال ﷺ: «لو خرجت لم آمن أن يتخطفك بعضهم» ثم قال ﷺ: «هل رأيت شيئاً؟» قلت: نعم رأيت رجالاً سوداً مستشعرين ثياباً بيضاء قال ﷺ: «أولئك جن نصيين سألوني المتع - والمتع الزاد - فمتعتهم بكل عظم حائل أو بعرة أو روثة فقلت يا رسول الله وما يعني ذلك عنهم؟ فقال رسول الله ﷺ: إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل. ولا روثاً إلا وجدوا فيها حبها يوم أكلت، فلا يستنقين أحد منكم إذا خرج من الخلاء بعظم ولا بعرة ولا روثة».

[طريق أخرى] قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي وأبو نصر بن

(١) تفسير الطبرى ٢٩٨/١١ - ٢٩٩.

(٢) تفسير الطبرى ٢٩٨/١١.

قتادة قالا أخبرنا أبو محمد يحيى بن منصور القاضي، حدثنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البوشنجي، حدثنا روح بن صلاح، حدثنا موسى بن علي بن رباح عن أبيه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: استتبعني رسول الله ﷺ فقال: «إن نفراً من الجن خمسة عشربني إخوة وبني عم يأتوني الليلة فاقرأ عليهم القرآن» فانطلقت معه إلى المكان الذي أراد فخط لي خطأ وأجلستني فيه وقال لي «لا تخرج من هذا» فبت فيه حتى أتاني رسول الله ﷺ مع السحر في يده عظم حائل وروثة وحمة فقال لي: «إذا ذهبت إلى الخلاء فلا تستنجد بشيء من هؤلاء» قال: فلما أصبحت قلت لأعلم من علمي حيث كان رسول الله ﷺ قال فذهبت فرأيت موضع مbrick ستين بعيراً.

[طريق أخرى] قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس بن محمد الدوري، حدثنا عثمان بن عمر عن الشمر بن الريان عن أبي الجوزاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: انطلقت مع رسول الله ﷺ ليلة الجن حتى أتى الحجون، فخط لي خطأ ثم تقدم إليهم، فازدحموا عليه فقال سيد لهم يقال له وردان: أنا أرحلهم عنك. فقال: إني لن يجبرني من الله أحد.

[طريق أخرى] قال الإمام أحمد^(١): حدثنا عبد الرزاق، حدثنا سفيان بن أبي فزاره العبسي، حدثنا أبو زيد مولى عمرو بن حريث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما كانت ليلة الجن قال لي النبي ﷺ: «أمعك ماء؟» قلت: ليس معي ماء ولكن معي إداوة فيها نبيذ فقال النبي ﷺ: «تمرة طيبة وماء طهور» فتوضأ^(٢) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث أبي زيد به.

[طريق أخرى] قال الإمام أحمد^(٣): حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرنا ابن لهيعة عن قيس بن الحجاج عن حنش الصناعي عن ابن عباس عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهم قال: إنه كان مع رسول الله ﷺ ليلة الجن فقال رسول الله ﷺ: «يا عبد الله أمعك ماء؟» قال: معي نبيذ في إداوة. قال ﷺ: «اصبب علىي» فتوضأ. فقال النبي ﷺ: «يا عبد الله شراب وطهور» تفرد به أحمد من هذا الوجه، وقد أورده الدارقطني من طريق آخر عن ابن مسعود رضي الله عنه.

[طريق أخرى] قال الإمام أحمد^(٤): حدثنا عبد الرزاق، أخبرني أبي عن ميناء عن عبد الله رضي الله عنه قال كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفـد الجن، فلما انصرف تنفس فقلـت: ما شأنك؟ قال: «تعـيت إلـي نفـسي يا ابن مـسـعـود» هـكـذا رأـيـته في المسـند مـختـصـراً، وقد رواه

(١) المسند ٤٤٩ / ١.

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة باب ٤٢، والترمذى في الطهارة باب ٦٥، وابن ماجه في الطهارة باب ٣٧.

(٣) المسند ٣٩٨ / ١.

(٤) المسند ٤٤٩ / ١.

الحافظ أبو نعيم في كتابه دلائل النبوة فقال: حدثنا سليمان بن أحمد بن أيوب، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، وحدثنا أبو بكر بن مالك حدثنا عبد الله بن حنبل، حدثنا أبي قالاً: حدثنا عبد الرزاق عن أبيه عن ميناء عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «تعيت إلي نفسي يا ابن مسعود» قلت: استخلف. قال: «من؟» قلت: أبا بكر. قال: فسكت ثم مضى ساعة فتنفس قلت: ما شأتك بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: «تعيت إلي نفسي يا ابن مسعود» قلت: استخلف. قال: «من؟» قلت: عمر. فسكت ساعة ثم تنفس قلت: ما شأنك؟ قال: «تعيت إلي نفسي» قلت: فاستخلف قال ﷺ: «من؟» قلت: علي بن أبي طالب رضي الله عنه. قال ﷺ: «أما الذي نفسي بيده لئن أطاعوه ليدخلن الجنة أجمعين أكتعين».

وهو حديث غريب جداً وأحرى به أن لا يكون محفوظاً، وبتقدير صحته فالظاهر أن هذا بعد وفودهم إليه بالمدينة على ما سنورده إن شاء الله تعالى، فإن في ذلك الوقت كان في آخر الأمر لما فتحت مكة ودخل الناس والجان أيضاً في دين الله أفواجاً نزلت سورة «إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً» [الفتح: ١ - ٣] وهي السورة التي تعيت نفسه الكريمة فيها إليه كما نص على ذلك ابن عباس رضي الله عنهم، ووافقه عمر بن الخطاب رضي الله عنه عليه، وقد ورد في ذلك حديث سنورده إن شاء الله تعالى عند تفسيرها، والله أعلم وقد رواه أبو نعيم أيضاً عن الطبراني عن محمد بن عبد الله الحضرمي عن علي بن الحسين بن أبي بردة، عن يحيى بن سعيد الأسليمي، عن حرب بن صبيح عن سعيد بن سلمة عن أبي مرة الصناعي، عن أبي عبد الله الجدلي عن ابن مسعود رضي الله عنه فذكر فيه قصة الاستخلاف، وهذا إسناد غريب وسياق عجيب.

[طريق أخرى] قال الإمام أحمد^(١): حدثنا أبو سعيد، حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي رافع عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ خط حوله، فكان أحدهم مثل سواد النخل وقال: «لا تبرح مكانك فأقرئهم كتاب الله» فلما رأى الزُّرْط قال: كأنهم هؤلاء وقال النبي ﷺ: «أمعك ماء؟» قلت: لا. قال: «أمعك نيزد؟» قلت: نعم فتوضاً به.

[طريق أخرى مرسلة] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهراني، أخبرنا حفص بن عمر العدناني، حدثنا الحكم بن أبيان عن عكرمة في قوله تعالى: «وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن» قال هم اثنا عشر ألفاً جاؤوا من جزيرة الموصل، فقال النبي ﷺ لابن مسعود رضي الله عنه: «أنظرني حتى آتيك» وخط عليه خطأً وقال «لا تبرح حتى آتيك» فلما خشיהם ابن مسعود رضي الله عنه كاد أن يذهب، فذكر قول رسول الله ﷺ فلم يربح، فقال له النبي ﷺ: «لو ذهبت

ما التقينا إلى يوم القيمة».

[طريق أخرى مرسلة أيضاً]: قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قوله تعالى: «إِذْ صرنا إِلَيْكُمْ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ» قال: ذكر لنا أنهم صرروا إليه من نينوى وأن النبي الله ﷺ قال: «إني أمرت أن أقرأ على الجن فأيكم يتبعني؟» فأطرقوا ثم استتبعهم فأطرقوا ثم استتبعهم الثالثة فقال رجل: يا رسول الله إن ذاك لذلة، فأتبعه ابن مسعود رضي الله عنه أخوه هذيل، قال فدخل النبي ﷺ شعباً يقال له شعب الحجون وخط عليه، وخط على ابن مسعود رضي الله عنه خطأ ليثبه بذلك، قال: فجعلت أهال وأرى أمثال النسور تمشي في دفوفها وسمعت لغطاً شديداً حتى خفت على النبي ﷺ ثم تلا القرآن فلما رجع رسول الله ﷺ قلت يا رسول الله ما اللحظة الذي سمعت؟ قال ﷺ: «اختصموا في قتيل فقضى بينهم بالحق» رواه ابن جرير^(١) وابن أبي حاتم.

فهذه الطرق كلها تدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصداً فتلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله عز وجل وشرع الله تعالى لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم، كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما. ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود رضي الله عنه، وأما ابن مسعود رضي الله عنه فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم، وإنما كان بعيداً منه ولم يخرج مع النبي ﷺ أحد سواه ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة، هذه طريقة البيهقي، وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ﷺ ابن مسعود رضي الله عنه ولا غيره، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام أحمد، وهي عند مسلم، ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى، والله أعلم، كما روى ابن أبي حاتم في تفسير «قل أوحى إلى» من حديث ابن جرير قال: قال عبد العزيز بن عمر: أما الجن الذي لقوه بنخلة فجن نينوى، وأما الجن الذين لقوه بمكة فجن نصبيين، وتأنله البيهقي على أنه يقول فبتنا بشر ليلة بات بها قوم على غير ابن مسعود رضي الله عنه من لم يعلم بخروجه ﷺ إلى الجن، وهو محتمل على بعد، والله أعلم.

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي، : أخبرنا أبو عمرو محمد بن عبد الله الأديب، حدثنا أبو بكر الإسماعيلي، أخبرنا الحسن بن سفيان، حدثنا سعيد بن سعيد، حدثنا عمرو بن يحيى عن جده سعيد بن عمرو قال: كان أبو هريرة رضي الله عنه يتبع رسول الله ﷺ باداروة لوضوئه و حاجته، فأدركه يوماً فقال «من هذا؟» قال: أنا أبو هريرة. قال ﷺ: «ائتني بأحجار أستنج بها ولا تأتني بعظم ولا روثة». فأتيته بأحجار في ثوبي فوضعتها إلى جنبه حتى إذا فرغ وقام اتبعته فقلت: يا رسول الله ما بال العظم والروثة؟ قال ﷺ: «أتاني وقد جن نصبيين فسألوني الزاد

(١) تفسير الطبرى ١١/٢٩٧.

فدعوت الله تعالى لهم أن لا يمروا بروثة ولا عظم إلا وجدوه طعاماً أخرجه البخاري^(١) في صحيحه عن موسى بن إسماعيل عن عمرو بن يحيى ياسناده قريباً منه، فهذا يدل على ما تقدم على أنهم وفدوا عليه بعد ذلك وستذكر إن شاء الله تعالى ما يدل على تكرار ذلك.

وقد روى ابن عباس غير ما ذكر عنه أولاً من وجه جيد، فقال ابن جرير^(٢): حدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الحميد الجhamاني، حدثنا النضر بن عربي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: «وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن» الآية. قال: كانوا سبعة نفر من أهل نصبيين، فجعلهم رسول الله رسلاً إلى قومهم. فهذا يدل على أنه روى القصتين. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا سويد بن عبد العزيز، حدثنا رجل سماه عن ابن جريج عن مجاهد «وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن» الآية، قال كانوا سبعة نفر ثلاثة من أهل حران وأربعة من أهل نصبيين، وكانت أسماؤهم حبي وحسى ومنيسي وشاضر وماضر والأردوابيان والأحقم، وذكر أبو حمزة الشمالي أن هذا الحي من الجن كان يقال له بنو الشি�صبان وكانوا أكثر الجن عدداً وأشرفهم نسباً، وهم كانوا عاملاً جنود إبليس.

وقال سفيان الثوري عن عاصم عن ذر عن ابن مسعود رضي الله عنه كانوا تسعة أحدهم زوجة، أتوه من أصل نخلة، وتقدم عنهم كانوا خمسة عشر، وفي رواية أنهم كانوا على ستين راحلة، وتقدم عنه أن اسم سيدهم وردان، وقيل: كانوا ثلاثة، وتقدم عن عكرمة أنهم كانوا اثنى عشر ألفاً، فلعل هذا الاختلاف دليلاً على تكرر وفادتهم عليه عليه السلام.

ومما يدل على ذلك ما قاله البخاري^(٣) في صحيحه: حدثنا يحيى بن سليمان حدثني ابن وهب، حدثني عمر هو ابن محمد قال: إن سالماً حدثه عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: ما سمعت عمر رضي الله عنه يقول لشيء قط إني لأظنه هكذا إلا كان كما يظن بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالس إذ مر به رجل جميل فقال: لقد أخطأ ظني أو إن هذا على دينه في الجاهلية أو لقد كان كاهنهم، علي بالرجل، فدعني له، فقال له ذلك فقال: ما رأيت كاليوم استقبل به رجل مسلم قال: فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني قال: كنت كاهنهم في الجاهلية قال: مما أعجب ما جاءتك به جنتك، قال: بينما أنا يوماً في السوق جاءتني أعرف فيها الفزع فقالت: [السريع]

أَلَمْ ترِ الْجَنَّةَ إِبْلَاسُهَا
وَيَأْسُهَا مِنْ بَعْدِ إِنْكَاسِهَا
وَلَحْقُهَا بِالْقَلَاصِ وَأَحْلَاسِهَا^(٤)

(١) كتاب مناقب الأنصار باب ٣٢.

(٢) تفسير الطبرى / ١١ / ٢٩٧.

(٣) كتاب مناقب الأنصار باب ٣٥.

(٤) يروى البيت:

قال عمر رضي الله عنه : صدق بينما أنا نائم عند آهتهم إذ جاء رجل بعجل فذبحه فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه يقول : يا جلیح^(١) ، أمر نجیح رجل فصیح ، يقول لا إله إلا الله قال : فوثب القوم فقلت : لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا ، ثم نادی ياجلیح أمر نجیح رجل فصیح يقول لا إله إلا الله ، فقمت فما نشبنا^(٢) أن قيل هذانبی . هذا سیاق البخاری ، وقد رواه البیهقی من حديث ابن وهب بنحوه ، ثم قال وظاهر هذه الروایة یوهم أن عمر رضي الله عنه بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذي ذبح ، وكذلك هو صریح في روایة ضعیفة عن عمر رضي الله عنه ، في إسلامه وسائر الروایات تدل على أن هذا الكاهن هو الذي أخبر بذلك عن رؤیته وسماعه ، والله أعلم ، وهذا الذي قاله البیهقی هو المتوجه وهذا الرجل هو سواد بن قارب ، وقد ذکرت هذا مستقى في سیرة عمر رضي الله عنه فمن أراده فليأخذه من ثم ، والله الحمد والمنة .

وقال البیهقی : حديث سواد بن قارب ، ويشبه أن يكون هذا هو الكاهن الذي لم یذكر اسمه في الحديث الصحيح ، أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب المفسر من أصل سماعه ، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار الأصفهانی قراءة عليه ، حدثنا أبو بكر القصري حدثنا محمد بن الحمار الكوفي بالکوفة ، حدثنا زیاد بن بادویه ، حدثنا أبو بكر القصري حدثنا محمد بن النواس الكوفي ، حدثنا أبو بکر بن عیاش عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه قال : بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخطب الناس على منبر رسول الله ﷺ إذ قال : أيها الناس أفيکم سواد بن قارب ؟ قال : فلم یجبه أحد تلك السنة . فلما كانت السنة المقبلة قال : أيها الناس أفيکم سواد بن قارب ؟ قال : فقلت يا أمیر المؤمنین وما سواد بن قارب ؟ قال فقال له عمر رضي الله عنه : إن سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئاً عجیباً ، قال في بينما نحن كذلك إذ طلع سواد بن قارب قال : فقال له عمر رضي الله عنه : يا سواد حدثنا بداء إسلامك كيف كان ؟ قال سواد رضي الله عنه : فإني كنت نازلاً بالهند وكان لي رئي من الجن ، قال في بينما أنا ذات ليلة نائم إذا جاءني في منامي ذلك ، قال قم فانهم واعقل إن كنت تعقل ، قد بعث رسول من لؤي بن غالب ثم أنشأ يقول :

عَجِبْتُ لِلْجَنِّ وَتَحْسَاسِهَا وَشَدَّ الْعَيْسَ بِأَحْلَاسِهَا^(٣)

أَلَمْ تَرِ الْجَنَّ وَإِبْلَاسِهَا وَشَدَّ الْعَيْسَ بِأَحْلَاسِهَا

وهو سواد بن قارب في لسان العرب (عیس) وبلا نسبة في لسان العرب (أنس)، (بلس)، والإblas: التحیر والدهشة، والقلاصن، جمع قلوس، وهي الناقة الشابة، والأحلام جمع حلس: وهو الكباء الذي يلي ظهر البعير تحت القنب.

(١) جلیح: هو اسم رجل.

(٢) ما نشبنا: أي ما لبثنا.

(٣) انظر تخريج البيت قبل حاشیتين.

تهوي إلى مكة تبغي الهدى
فانهض إلى الصفو من هاشم
قال: ثم أنبهني فأفرعنى وقال يا سواد بن قارب، إن الله عز وجل بعث نبياً فانهض إليه تهتد
وترشد، فلما كان من الليلة الثانية أتاني فأنبهني ثم أنشأ يقول: [السريع]

عجبت للجن وتطلابها
وشدها العيس بأقتابها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى
ليس قدمها كاذبها
فانهض إلى الصفو من هاشم
واسم بعينيك إلى قابها
فلما كان في الليلة الثالثة أتاني فأنبهني ثم قال: [السريع]

عجبت للجن وتخبارها
وشدها العيس بأكوارها^(١)
تهوي إلى مكة تبغي الهدى
ليس ذو الشر كأخيارها
فانهض إلى الصفو من هاشم
مامؤمنو الجن ككفارها

قال: فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة وقع في قلبي حب الإسلام من أمر رسول الله ﷺ
ما شاء الله، قال فانطلقت إلى رحلي فشدته على راحلتي فما حللت تسعه ولا عقدت أخرى
حتى أتيت رسول الله ﷺ فإذا هو بالمدينه يعني مكة، والناس عليه كعرف الفرس، فلما رأي
النبي ﷺ قال: «مرحباً بك يا سواد بن قارب قد علمنا ما جاء بك» قال: قلت يا رسول الله قد
قلت شعراً فاسمعه مني قال ﷺ: «قل يا سواد» فقلت: [الطوبل]

ولم يك فيما قد بلوت بكاذبِ
أتاك رسول من لؤي بن غالبِ
بي الدعلب الوجناء بين السبابِ^(٢)
 وأنك مأمونٌ على كلّ غائبِ
إلى الله يا ابن الأكرمين الأطايِبِ
 وإن كان فيما جاء شيب الذوابِ
سواك بمعنى عن سواد بن قاربِ^(٣)

أتاني رئيي بعدليل وهجعة
ثلاث ليال قوله كل ليلة:
فشعرت عن ساقى الإزار ووسطت
فأشهد أن الله لا رب غيره
 وأنك أدنى المرسلين شفاعة
فمرنا بما يأتيك يا خير مرسل
وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعة

(١) الأكور: جمع كور، وهو رحل الناقة.

(٢) الدعلب: الناقبة الفتية الشابة. والوجناء: العظيمة الوجنتين والسباب: القفار.

(٣) يروى البيت الأخير:

فكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعة بمعنى فتيلاً عن سواد بن قارب
وهو لسواد بن قارب في الجنى الداني ص ٥٤، والدرر ٢/١٢٦، ١٤٨/٣، وشرح التصریح ١/٢٠١١،
٤١، وشرح عمدۃ الحافظ ص ٢١٥، والمقاصد النحویة ١/٢٩٤، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر =

قال: فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه وقال لي: «أفلحت يا سواد» فقال له عمر رضي الله عنه: هل يأتيك رئيك الآن؟ فقال: منذ قرأت القرآن لم يأتني ونعم العوض كتاب الله عز وجل من الجن. ثم أسنده البيهقي من وجهين آخرين.

ومما يدل على وفادتهم إليه ﷺ بعدما هاجر إلى المدينة الحديث الذي رواه الحافظ أبو نعيم في كتاب دلائل النبوة، حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا محمد بن عبدة المصيصي، حدثنا أبو توبة الريبع بن نافع حدثنا معاوية بن سلام عن زيد بن أسلم أنه سمع أبا سلام يقول: حدثني من حديث عمرو بن غيلان الثقفي قال: أتيت عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقلت له: حدثت أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن. قال: أجل، قلت: حدثني كيف كان شأنه؟ فقال إن أهل الصفة أخذ كل رجل منهم رجل يعشيه، وترك كل فلم يأخذني أحد منهم، فمر بي رسول الله ﷺ فقال: «من هذا؟» فقلت: أنا ابن مسعود، فقال ﷺ: «ما أخذك أحد يعشيك؟» فقلت: لا ، قال ﷺ: «فانتطلق لعلي أجد لك شيئاً».

قال: فانتطلقنا حتى أتى رسول الله ﷺ حجرة أم سلمة رضي الله عنها، فتركتني قائماً ودخل إلى أهلها ثم خرجت الجارية فقالت: يا ابن مسعود، إن رسول الله ﷺ لم يجد لك عشاء فارجع إلى مضجعك، قال فرجعت إلى المسجد فجمعت حصباء المسجد فتوسدته والتلفت بشوبي، فلم ألبث إلا قليلاً حتى جاءت الجارية فقالت: أجب رسول الله . فاتبعتها وأنا أرجو العشاء حتى إذا بلغت مقامي خرج رسول الله ﷺ وفي يده عسيب^(١) من نخل فعرض به على صدري فقال ﷺ: «انتطلق أنت معي حيث انتلقت» قلت: ما شاء الله فأعادها علي ثلاثة مرات. كل ذلك أقول ما شاء الله فانتطلق، وانتلقيت معه حتى أتينا بقيع الغرقد فخط ﷺ بعصاه خطأ ثم قال: «اجلس فيها ولا تبرح حتى أتاك» ثم انتلقيت يمشي وأنا أنظر إليه خلال النخل، حتى إذا كان من حيث لا أراه ثارت قبله العجاجة السوداء ففرقت قلت: الحق برسول الله ﷺ فإني أظن أن هوازن مكرروا برسول الله ﷺ ليقتلواه، فأسعى إلى البيوت فأستغيث الناس، فذكرت أن رسول الله ﷺ أوصاني أن لا أبرح مكانني الذي أنا فيه، فسمعت رسول الله ﷺ يقرعهم بعصاه ويقول: «اجلسوا» فجلسوا حتى كاد ينشق عمود الصبح ثم ثاروا وذهبوا، فأتأنني رسول الله فقال: «أنمت بعدي؟» فقلت: لا ولقد فزعت الفزعية الأولى حتى رأيت أن أتى البيوت، فأستغيث الناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك، وكنت أظنها هوازن مكرروا برسول الله ﷺ ليقتلواه، فقال «لو أنك خرجمت من هذه الحلقة ما آمنهم عليك أن يختطفك بعضهم، فهل رأيت من شيء منهم؟».

= ٣/٢٩٤، وأوضح المسالك ١/١، وشرح الأشموني ١/١٢٣، وشرح شواهد المغني ص ٨٣٥،

وشرح ابن عقيل ص ١٥٦، ومعنى الليب ص ٤١٩، وهو مع الهوامع ١/١٢٧، ٢١٨.

(١) العسيب: جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكتسح خوصها.

فقلت: رأيت رجالاً سوداً مستعرين بشباب بيض، فقال رسول الله ﷺ: «أولئك وفد جن نصيبين أتونني فسألوني الزاد والمحتاج فمتعهم بكل عظم حائل أو روثة أو بعرة» قلت: فما يعني عنهم ذلك؟ قال ﷺ: «إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه الذي كان عليه يوم أكل، ولا روثة إلا وجدوا فيها جبها الذي كان فيها يوم أكلت فلا يستنقى أحد منكم بعظم ولا بعرة» وهذا إسناد غريب جداً ولكن فيه رجل مبهم لم يسم، والله تعالى أعلم. وقد روى الحافظ أبو نعيم من حديث بقية بن الوليد: حدثني نمير بن زيد القنبر. حدثنا أبي، حدثنا قحافة بن ربيعة، حدثني الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح في مسجد المدينة فلما انصرف قال: «أيكم يتبعني إلى وفد الجن الليلة؟» فأكست القوم ثلاثة، فمر بي فأخذ بيدي فجعلت أمشي معه حتى حبسنا جبال المدينة كلها، وأفضينا إلى أرض براز فإذا ب الرجال طوال كانوا لهم الرماح مستعرين بشبابهم من بين أرجلهم، فلما رأيتهم غشيتني رعدة شديدة ثم ذكر نحو حديث ابن مسعود المتقدم، وهذا حديث غريب، والله أعلم.

ومما يتعلّق بوفود الجن ما رواه الحافظ أبو نعيم: حدثنا أبو محمد بن حبان، حدثنا أبو الطيب أحمد بن روح، حدثنا يعقوب الدورقي، حدثنا الوليد بن بكير التيمي، حدثنا حصين بن عمر، أخبرني عبد المكتب عن إبراهيم قال: خرج نفر من أصحاب عبد الله يريدون الحج حتى إذا كانوا في بعض الطريق إذا هم بحية تثنى على الطريق أبيض، ينفع منه ريح المسك فقلت لأصحابي: امضوا فلست بياحر حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمر هذه الحية. قال: فما لبست أن ماتت فعمدت إلى خرقه بيضاء فلفتها فيها ثم تحيتها عن الطريق فدفنتها وأدركت أصحابي في المتعشى. قال: فوالله إنما لقعود إذ أقبل أربع نسوة من قبل المغرب فقالت واحدة منهن: أيكم دفن عمراً. قلنا: ومن عمرو، قالت: أيكم دفن الحية؟ قال فقلت: أنا. قالت: أما والله لقد دفنت صواماً قواماً، يأمر بما أنزل الله تعالى، ولقد آمن بنبيكم وسمع صفتة من السماء قبل أن يبعث بأربعمائة عام. قال الرجل: فحمدنا الله تعالى ثم قضينا حاجتنا ثم مررت بعمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة، فأنبأته بأمر الحية فقال: صدقت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لقد آمن بي قبل أن أبعث بأربعمائة سنة» وهذا حديث غريب جداً، والله أعلم.

قال أبو نعيم، وقد روى الثوري عن أبي إسحاق عن الشعبي عن رجل من ثقيف بنحوه، وروى عبد الله بن أحمد والظهري عن صفوان بن المعطل: هو الذي نزل ودفن تلك الحية من بين الصحابة وأنهم قالوا إنه آخر التسعة موتاً الذين أتوا رسول الله ﷺ يسمعون القرآن، وروى أبو نعيم من حديث الليث بن سعد عن عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون عن عمّه، عن معاذ بن عبد الله بن معمر قال: كنت جالساً عند عثمان بن عفان رضي الله عنه، فجاء رجل

فقال: يا أمير المؤمنين إني كنت بفلة من الأرض، فذكر أنه رأى ثعبانين اقتتلا ثم قتل أحدهما الآخر، قال: فذهبت إلى المعترك فوجدت حيات كثيرة مقتولة، وإذا ينفع من بعضها ريح المسك، فجعلت أشمها واحدة واحدة حتى وجدت ذلك من حية صفراء رقيقة، فلتفتها في عمامتي ودفتها، فبینا أنا أمشي إذ ناداني مناد: يا عبد الله لقد هديت، هذان حیان من الجن بنو أشعیان وبنو أقیش التقو فكان من القتلى ما رأیت، واستشهد الذي دفته و كان من الذين سمعوا الوحي من رسول الله ﷺ قال: فقال عثمان لذلك الرجل إن كنت صادقاً فقد رأیت عجباً، وإن كنت كاذباً فعليك كذبك.

وقوله تبارك وتعالى: «إِذْ صرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ» أي طائفة من الجن ﴿يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أَنْصَتوْا﴾ أي استمعوا وهذا أدب منهم.

وقد قال الحافظ البهقى: حدثنا الإمام أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان، أخبرنا أبو الحسن محمد بن عبد الله الدقاد، حدثنا محمد بن إبراهيم البوشنجي، حدثنا هشام بن عمار الدمشقى، حدثنا الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال: ما لي أراكم سكتاً؟ للجن كانوا أحسن منكم رداً، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة «فَبَأْيَ آلاءِ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ» [الرحمن: ٥٧] إلا قالوا: ولا شيء من آلاتك أو نعمك ربنا نكذب بذلك الحمد».

ورواه الترمذى^(١) في التفسير عن أبي مسلم عبد الرحمن بن واقد عن الوليد بن مسلم به قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن فذكره ثم قال الترمذى: غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد عن زهير كذا قال. وقد رواه البيهقي من حديث مروان بن محمد الطاطري عن زهير بن محمد به مثله. قوله عز وجل: «فَلَمَّا قُضِيَّ» أي فرغ كقوله تعالى: «فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ» [الجمعة: ١٠] «فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ» [فصلت: ١٢] «فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ» [البقرة: ٢٠٠] «وَلَوَا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذَرِينَ» أي رجعوا إلى قومهم فأذرواهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ كقوله جل وعلا: «لَيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلَيَنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لِعَلَمُهُمْ يَحْذِرُونَ» [التوبه: ١٢٢] وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نذر وليس فيهم رسول، ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم رسولاً لقوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرْبَى» [يوسف: ١٠٩]. وقال عز وجل: «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ مَرْسُلٍ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ» [الفرقان: ٢٠]. وقال عن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام «وَجَعَلْنَا فِي ذِرِيَّتِهِ النَّبُوَةَ وَالْكِتَابَ» [العنكبوت: ٢٧] فكل نبي

بعثه الله تعالى بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته .

فأما قوله تبارك وتعالى في الأنعام: «يا معاشر الجن والإنس ألم يأتكم رسول منكم» [الأنعام: ١٣٠] فالمراد هنا مجموع الجنسين فيصدق على أحدهما وهو الإنس كقوله: «يخرج منها اللؤلؤ والمرجان» [الرحمن: ٢٢] أي أحدهما ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبراً عنهم: «قالوا يا قومنا إننا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى» ولم يذكروا عيسى لأن عيسى عليه السلام أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة فالعمة هو التوراة، فلهذا قالوا أنزل من بعد موسى، وهكذا قال ورقة بن نوفل حين أخبره النبي ﷺ بقصة نزول جبريل عليه الصلاة والسلام أول مرة فقال: بخ بخ! هذا الناموس الذي كان يأتي موسى يا ليتني أكون فيه جذعاً. «مصدقاً لما بين يديه» أي في الكتب المنزلة على الأنبياء قبله، وقوله: «يهدي إلى الحق» أي في الاعتقاد والإخبار «والى طريق مستقيم» في الأعمال فإن القرآن مشتمل على شيئاً من خبر وطلب، فخبره صدق وطلبه عدل، كما قال تعالى: «وتمنت كلمة ربك صدقاً وعدلاً» [الأنعام: ١١٥].

وقال سبحانه وتعالى: «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق» [التوبه: ٣٣] فالهدى هو العلم النافع، ودين الحق هو العمل الصالح، وهكذا قالت الجن «يهدي إلى الحق» في الاعتقادات «والى طريق مستقيم» أي في العمليات «يا قومنا أجيروا داعي الله» فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين الجن والإنس، حيث دعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين وتکلیفهم ووعيدهم ووعيدهم وهي سورة الرحمن ولهذا قال: «أجيروا داعي الله وأمنوا به» وقوله تعالى: «يغفر لكم من ذنبكم» قيل إن من ه هنا زائدة وفيه نظر لأن زيادتها في الإثبات قليل، وقيل إنها على بابها للتبعيض «ويجركم من عذاب أليم» أي ويقikم من عذابه الأليم، وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيمة، ولهذا قالوا هذا في هذا المقام وهو مقام تبجح ومبالجة، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لاوشك أن يذكروه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي قال: حدثت عن جرير عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لا يدخل مؤمنو الجن الجنة لأنهم من ذرية إبليس، ولا تدخل ذرية إبليس الجنة، والحق أن مؤمني الإنس يدخلون الجنة كما هو مذهب جماعة من السلف، وقد استدل بعضهم لهذا بقوله عز وجل: «لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان» [الرحمن: ٧٤] وفي هذا الاستدلال نظر، وأحسن منه قوله جل وعلا: «ولمن خاف مقام ربه جتنان فبأي آلة ربكم تكذبان» [الرحمن: ٤٧ - ٦] فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجن، وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكرا القولي أبلغ من الإنس فقالوا: ولا بشيء من آلة

ربنا نكذب فلك الحمد، فلم يكن تعالى ليتمكن عليهم بجزاء لا يحصل لهم، وأيضاً فإنه إذا كان يجازي كافرهم بالنار وهو مقام عدل فلأنه يجازي مؤمنهم بالجنة وهو مقام فضل بطريق الأولى والأخرى. ومما يدل أيضاً على ذلك عموم قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفَرْدَوْسِ نَزَلًا» [الكهف: ١٠٧] وما أشبه ذلك من الآيات.

وقد أفردت هذه المسألة في جزء على حدة والله الحمد والمنة، وهذه الجنة لا يزال فيها فضل حتى ينشيء الله تعالى لها خلقاً أفالاً يسكنها من آمن به وعمل صالحأً، وما ذكروه ه هنا من الجزاء على الإيمان من تكفير الذنوب والإجارة من العذاب الأليم هو يستلزم دخول الجنة، لأنه ليس في الآخرة إلا الجنة أو النار، فمن أجير من النار دخل الجنة لا محالة، ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع أن مؤمني الجن لا يدخلون الجنة، وإن أجروا من النار، ولو صلح لقلنا به، والله أعلم. وهذا نوح عليه الصلاة والسلام يقول لقومه: «يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى» [نوح: ٤] ولا خلاف أن مؤمني قومه في الجنة فكذلك هؤلاء. وقد حكي فيهم أقوال غريبة. فعن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنهم لا يدخلون بحبوحة الجنة، وإنما يكونون في ريشها وحولها وفي أرجائها، ومن الناس من زعم أنهم في الجنة يرافقون بني آدم ولا يرون بني آدم بعكس ما كانوا عليه في الدار الدنيا.

ومن الناس من قال: لا يأكلون في الجنة ولا يشربون وإنما يلهمون التسبيح والتحميد والتقديس عوضاً عن الطعام والشراب كالملائكة لأنهم من جنسهم، وكل هذه الأقوال فيها نظر ولا دليل عليها، ثم قال مخبراً عنهم «وَمَنْ لَا يَجِدْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلِيُسْ بِمَعْجَزِ الْأَرْضِ» أي بل قدرة الله شاملة له ومحيطة به «وَلَيْسَ مِنْ دُونِهِ أُولَيَاءُ» أي لا يجيرهم منه أحد «أَوْلَئِكَ فِي ضلالٍ مُّبِينٍ» وهذا مقام تهديد وترهيب فدعوا قومهم بالترغيب والترهيب، ولهذا نجع في كثير منهم وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ فوداً فوداً كما تقدم بيانه، والله الحمد والمنة والله أعلم.

أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعِنْ بِخَلْقِهِنَّ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُحْكِمَ الْمَوْتَ بِلَيْلَةٍ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ وَيَوْمَ يُعرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا يَمِنْ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفِرُونَ ﴿٢﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزَمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا سَتَعْجِلْ هُنَّ كَمَّ هُنَّ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ تَهَارٍ بَلْ نَعْ فَهُنَّ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣﴾

يقول تعالى: «أَوْلَمْ يَرَ» هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيمة المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد «أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعِنْ بِخَلْقِهِنَّ» أي ولم يكرره^(١) خلقهن بل قال لها كوني فكانت بلا ممانعة ولا مخالفة بل طائعة مجيبة خائفة وجلة، أليس ذلك ب قادر

(١) لم يكرره: أي لم يشتت عليه ولم يبلغ منه المشقة.

على أن يحيي الموتى؟ كما قال عز وجل في الآية الأخرى: «لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون» [غافر: ٥٧] ولهذا قال تعالى: «بلى إنه على كل شيء قادر». .

ثم قال جل جلاله مهدداً متوعداً لمن كفر به «و يوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق؟ أي يقال لهم أما هذا حق أفسحر هذا أم أنت لا تبصرون؟ قالوا بلى وربنا» أي لا يسعهم إلا الاعتراف «قال فذوقوا العذاب بما كتتم تكفرون» ثم قال تبارك وتعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه: «فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل» أي على تكذيب قومهم لهم. وقد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال وأشهرها أنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وختام الأنبياء محمد ﷺ، قد نص الله تعالى على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سورتي الأحزاب والشورى، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرسل فتكون «من» في قوله «من الرسل» ليبيان الجنس، والله أعلم.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الحاج الحضرمي، حدثنا السري بن حيان، حدثنا عباد بن عباد، حدثنا مجالد بن سعيد عن الشعبي عن مسروق قال: قالت عائشة رضي الله عنها: ظل رسول الله ﷺ صائمًا ثم طواه ثم ظل صائمًا ثم طواه ثم ظل صائمًا ثم قال: «يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لأَلِّ محمد، يا عائشة إن الله تعالى لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر على مكر وها ولصبر عن محبوبها، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ما كلفهم فقال: «فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل» وإنني والله لأصبرن كما صبروا جهدي ولا قوة إلا بالله.

«ولا تستعجل لهم» أي لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم كقوله تبارك وتعالى: «فذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً» [المزمول: ١١] وكقوله تعالى: «فمهل الكافرين أمهلهم رويداً» [الطارق: ١٧] «كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبشو إلا ساعة من نهار» كقوله جل وعلا: «كأنهم يوم يرونها لم يلبشو إلا عشية أو ضحاها» [النازعات: ٤٦] وكقوله عز وجل: «و يوم يحشرهم كأن لم يلبشو إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خس الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين» [يونس: ٤٥] الآية. وقوله جل وعلا: «(بل)». قال ابن جرير^(١) يحتمل معنيين: أحدهما أن يكون تقديره، وذلك لبث بلاغ، والآخر أن يكون تقديره هذا القرآن بلاغ. وقوله تعالى: «فهل يهلك إلا القوم الفاسقون» أي لا يهلك على الله إلا هالك، وهذا من عدله عز وجل أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب، والله أعلم.

وهي مدنية

سُورَةُ الْمُحَمَّدِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْنَاهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَمَا مَنَّا بِمَا نَزَّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ
وَهُوَ أَلْعَنُ مَنْ رَجَّهُمْ كَفَرُ عَنْهُمْ سِيَّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَّهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ يَأْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَبْعَثُوا الْبَطْلَ وَإِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
أَبْعَثُوا الْمُقْرَنَّ مِنْ رَجَّهُمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾

يقول تعالى: «الذين كفروا» أي بآيات الله «وصدوا» عن سبيل الله أضل عمالهم أي أبطلها وأذهبها ولم يجعل لها ثوابا ولا جزاء قوله تعالى: «وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء متورأ» [الفرقان: ٢٣] ثم قال جل وعلا: «والذين آمنوا وعملوا الصالحات» أي آمنت قلوبهم وسرائرهم وانقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم «وآمنوا بما نزل على محمد» عطف خاص على عام وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته صلوات الله وسلامه عليه. قوله تبارك وتعالى: «وهو الحق من ربهم» جملة معترضة حسنة ولهذا قال جل جلاله: «كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم» قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي أمرهم. وقال مجاهد: شأنهم. وقال قتادة وابن زيد: حالهم والكل متقارب. وقد جاء في حديث تشميٰ العاطس «يهديكم الله ويصلح بالكم»^(١).

ثم قال عز وجل: «ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل» أي إنما أبطلنا أعمال الكفار. وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤونهم لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل أي اختاروا الباطل على الحق «وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم» أي يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه في معادهم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فِإِذَا لَيْسَتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرِبَ الرِّفَاقُ حَقَّ إِذَا أَخْتَسَمُوهُمْ فَنَدُوا الْوَنَاقَ فَإِنَّمَا مَنْ بَعْدَ وَإِنَّمَا فِدَاهُ حَنَّ ضَعَفَ الْغَرْبَ
أَزْرَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَسَّأَمَ اللَّهُ لَأَنْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَبَلَّا يَعْصِمُكُمْ يَسْعِنُ وَالَّذِينَ فَلَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضْلَلَ
أَعْنَاهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهِدِهِمْ وَيَصْلِحُ بَالَّهُمْ وَيَنْجِلِهِمُ الْجَنَّةُ عَرْفَهَا لَهُمْ ﴿٥﴾ يَكَذِّبُهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ
وَيُبَيِّنُتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسَلُهُمْ وَأَضْلَلُ أَعْنَاهُمْ ﴿٧﴾ ذَلِكَ يَأْنَهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَخْبَطَ

أَعْنَاهُمْ

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ١٢٦، وأبو داود في الأدب باب ٩١، والترمذني في الأدب باب ٣، وابن ماجه في الأدب باب ٢٠، والدارمي في الاستذان باب ٣.

يقول تعالى مرشدًا للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حربهم مع المشركين «إِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضْرِبُ الرِّقَابَ» أي إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصداً بالسيوف «حَتَّى إِذَا أَخْتَمْتُمُوهُمْ» أي أهلكتموهم قتلاً «فَشَدُوا الْوَثَاقَ» الأسرى الذين تأسرونهم، ثم أنتم بعد انتهاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون في أمرهم، إن شئتم منتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجاناً، وإن شئتم فاديموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه، والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، فإن الله سبحانه وتعالى عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسرى يومئذ، ليأخذوا منهم الغداء والتقليل من القتل يومئذ فقال: «مَا كَانَ لَنِبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَشْخُنَ فِي الْأَرْضِ تَرِيدُونَ عَرْضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْلَا كَتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لِمَسْكِمٍ فِيمَا أَخْذَتُمْ عَذَابَ عَظِيمٍ» [الأفال: ٦٧ - ٦٨] ثم قد ادعى بعض العلماء أن هذه الآية المختيرية بين مفاداة الأسير والمن عليه منسوخة بقوله تعالى: «إِذَا اسْلَخْتُمُ الْأَشْهُرَ الْحَرَمَ فَاقْتَلُو الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» [التوبه: ٥] الآية، رواه العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقاله قتادة والضحاك والسدي وابن جريج وقال الآخرون وهو الأكثرون: ليست منسوخة، ثم قال بعضهم: إنما الإمام مخير بين المن على الأسير ومفاداته فقط، ولا يجوز له قتله.

وقال آخرون منهم: بل له أن يقتله إن شاء لحديث قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط من أسرى بدر. وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تمنن تمن على شاكر، وإن كنت تريد المال فاسأل تعط منه ما شئت^(١). وزاد الشافعي رحمة الله عليه فقال: الإمام مخير بين قتله أو المن عليه أو مفاداته أو استرقائه أيضاً، وهذه المسألة محررة في علم الفروع وقد دللتنا على ذلك في كتابنا «الأحكام» والله سبحانه وتعالى الحمد والمنة.

وقوله عز وجل: «حَتَّى تَضُعَ الْحَرْبُ أَوْزَارُهَا» قال مجاهد: حتى يتزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام^(٢)، وكأنه أخذه من قوله ﷺ: «لَا تزال طائفةٌ مِّنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى يَقَاتِلَ أَخْرَهُمُ الدِّجَالُ»^(٣). وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش عن إبراهيم بن سليمان، عن الوليد بن عبد الرحمن الجرجشى عن جابر بن نفير قال: إن سلمة بن نفيل أخبرهم أنه أتى رسول الله ﷺ فقال إني سبيت الخيل وألقيت السلاح ووضعت الحرب أوزارها وقلت: لا قتال، فقال له النبي ﷺ: «الآن جاء القتال لا تزال

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢/٦٣٨.

(٢) انظر تفسير الطبرى ١١/٣٠٨.

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ٤.

(٤) المستند ٤/١٠٤.

طائفة من أمتي ظاهرين على الناس يزيفون الله تعالى قلوب أقوام، فيقاتلونهم ويزقهم الله منهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، ألا إن عقد دار المؤمنين بالشام والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيمة»^(١) وهكذا رواه النسائي من طريقين عن جبير بن نفير عن سلمة بن نفيل السكوني به.

وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا داود بن رشيد، حدثنا الوليد بن مسلم عن محمد بن مهاجر، عن الوليد بن عبد الرحمن الجرجشى عن جبير بن نفير عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: لما فتح على رسول الله ﷺ فتح قالوا يا رسول الله سبب الخيل ووضعت السلاح ووضعت الحرب أوزارها قالوا لا قتال قال: «كذبوا الآن جاء القتال، لا يزال الله تعالى يرفع قلوب قوم يقاتلونهم فيرزقهم منهم حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك وعقر دار المسلمين بالشام». وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى عن داود بن رشيد به، والمحفوظ أنه من روایة سلمة بن نفیل كما تقدم، وهذا يقوى القول بعدم النسخ كأنه شرع هذا الحكم في الحرب إلى أن لا يبقى حرب. وقال قنادة **«حتى تضع الحرب أوزارها»** حتى لا يبقى شرك، وهذا كقوله تعالى: **«وقاتلواهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين الله»** [الأفال: ٣٩]. ثم قال بعضهم: **«حتى تضع الحرب أوزارها»** أي أوزار المحاربين وهم المشركون بأن يتوبوا إلى الله عز وجل، وقيل أوزار أهلها بأن يذلوها وسع في طاعة الله تعالى. وقوله عز وجل: **«ذلك ولو يشاء الله لا تنصر منهم»** أي هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده **«ولكن ليسلوا بعضكم بعض»** أي ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم، ويبليو أخباركم كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورة آل عمران وبراءة في قوله تعالى: **«أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين»** [آل عمران: ١٤٢].

وقال تبارك وتعالى في سورة براءة: **«قاتلواهم يذبهم الله بأيديكم ويخرزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ويتب الله على من يشاء والله عالم حكيم»** [التوبه: ١٤ - ١٥] ثم لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين قال: **«والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم»** أي لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها.

ومنهم من يجري عليه عمله في طول برقخه، كما ورد بذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد^(٢) في مسنده حيث قال: حدثنا زيد بن يحيى الدمشقي، حدثنا ابن ثوبان عن أبيه عن مكحول عن كثير بن مرة عن قيس الجذامي - رجل كانت له صحبة - قال: قال رسول الله ﷺ **«يعطى الشهيد ست خصال: عند أول قطرة من دمه تکفر عنه كل خطيئة، ويرى مقعده من**

(١) أخرجه النسائي في الخيل باب ٧.

(٢) المسند / ٤ . ٢٠٠

الجنة، ويزوج من الحور العين، ويأمن من الفزع الأكبر، ومن عذاب القبر، ويحلى حلة الإيمان» تفرد به أحمد رحمة الله.

[حديث آخر] قال أَحْمَدُ^(١) أَيْضًا: حدثنا الحكْمُ بْنُ نَافِعٍ، حدثنا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَيَّاشَ عَنْ بَحِيرٍ بْنِ سَعِيدٍ عَنْ خَالِدٍ بْنِ مَعْدَانَ عَنْ الْمَقْدَامَ بْنِ مَعْدَيْ كَرْبَلَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ لِلشَّهِيدِ إِذْنَهُ عِنْدَ اللَّهِ مَا شَاءَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيَرِي مَقْعِدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُحَلَّ حَلَةُ الْإِيمَانِ، وَيُزَوْجَ الْحَوْرَ الْعَيْنَ وَيُجَارَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمُنَ مِنَ الْفَرْعَ الأَكْبَرِ، وَيُوَضَّعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ مَرْصُوعًا بِالدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ، الْيَاقُوتَ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَيُزَوْجَ أَثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحَوْرِ الْعَيْنِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينِ إِنْسَانًا مِنْ أَفَارِبِهِ»^(٢). وقد أخرجه الترمذى وصححه ابن ماجه. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وعن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين»^(٣) وروى من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته»^(٤) ورواه أبو داود والأحاديث في فضل الشهيد كثيرة جداً.

وقوله تبارك وتعالى: «سَيَهْدِيهِمْ» أي إلى الجنة كقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ يُهْدَى هُنَّمِنْ تَحْتِهِمْ أَهْنَارٌ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ» [يونس: ٩]. وقوله عز وجل «وَيُصْلِحُ بِاللَّهِمَّ» أي أمرهم وحالهم «وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرْفَهَا لَهُمْ» أي عرفهم بها وهداهم إليها. قال مجاهد: يهتدى أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها لا يخطئون لأنهم ساكنوها منذ خلقوا لا يستدلون عليها أحداً^(٥)، وروى مالك عن ابن زيد بن أسلم نحو هذا، وقال محمد بن كعب: يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة كما تعرفون بيوتكن إذا انتصفت من الجمعة. وقال مقاتل بن حيان: بلغنا أن الملك الذي كان وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة ويتبعه ابن آدم حتى يأتي أقصى منزله هو له فيعرفه كل شيء أعطاه الله تعالى في الجنة، فإذا انتهى إلى أقصى منزله في الجنة دخل منزله وأزواجه وانصرف الملك عنه، ذكره ابن أبي حاتم رحمة الله.

وقد ورد الحديث الصحيح بذلك أيضاً رواه البخاري من حديث قتادة عن أبي الم توكل

(١) المسند ٤/١٣١.

(٢) أخرجه الترمذى في فضائل الجهاد باب ٢٥، والدارمى في فضائل القرآن باب ١٥، وابن ماجه في الجهاد.

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة حديث ١١٩.

(٤) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ٢٦.

(٥) انظر تفسير الطبرى ١١/٣١٠.

الناجي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنزة بين الجنة والنار، يتخاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا»^(١).

ثم قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» كقوله عز وجل: «ولينصرن الله من ينصره» [الحج: ٤٠] فإن الجزاء من جنس العمل ولهذا قال تعالى: «ويثبت أقدامكم» كما جاء في الحديث «من بلغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغها، ثبت الله تعالى قدميه على الصراط يوم القيمة» ثم قال تبارك وتعالى: «والذين كفروا فتعسا لهم» عكس ثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله تعالى ولرسوله ﷺ، وقد ثبت الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقال!»^(٢) أي فلا شفاء الله عز وجل. وقوله سبحانه وتعالى: «وأصل أعمالهم» أي أحبطها وأبطلها، ولهذا قال: «ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله» أي لا يريدونه ولا يحبونه «فاحبط أعمالهم».

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَذَابُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكُفَّارِينَ أَمْثَالُهَا﴾ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكفار لا مولى لهم **﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْنَاهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَسَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ كُلُّ الْأَنْعَمُ وَالنَّارُ مَوْتٌ لَهُمْ﴾** وكأين من فرقية هي أشد قوّةً من قرينه الذي أخرجتك أهل الكفر لهم **﴿فَلَا نَأْصِرُ لَهُمْ﴾**

يقول تعالى: «أفلم يسيراوا» يعني المشركون بالله المكذبين لرسوله «في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم» أي عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم، أي ونجى المؤمنين من بين أظهرهم، ولهذا قال تعالى: «وللكافرین أمثالها».

ثم قال: «ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكفار لا مولى لهم» ولهذا لما قال أبو سفيان صخر بن حرب رئيس المشركون يوم أحد، حين سأله عن النبي ﷺ وعن أبي بكر وعمر رضي الله عنهمما فلم يجب وقال: أما هؤلاء فقد هلكوا، وأجابه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: كذبت يا عدو الله بل أبقى الله تعالى لك ما يسوئك، وإن الذين عدلت لأحياء، فقال أبو سفيان يوم بيوم بدر، وال Herb سجال، أما إنكم ستتجدون مثلة^(٣) لم أمر بها، ولم تسروئني، ثم

(١) أخرجه البخاري في الرفاق باب ٤٨.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ٨.

(٣) مثل بغلان مثلاً ومثلة، بالضم: نكل به، ومثل بالقتيل: إذا جدع أنه أو أذنه، أو مذاكيه، أو شيئاً من أطرافه.

ذهب يرتجز ويقول: اهل هبل اهل هبل. فقال رسول الله ﷺ: «ألا تجيئونه؟» فقالوا: يا رسول الله وما نقول قال ﷺ: «الله أعلى وأجل» ثم قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزي لكم، فقال ﷺ: «ألا تجيئونه؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا: «الله مولانا ولا مولى لكم»^(١).

ثم قال سبحانه وتعالى: «إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهر» أي يوم القيمة «والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام» أي في دنياهم يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام خضماً وقضماً، وليس لهم همة إلا في ذلك، ولهذا ثبت في الصحيح «المؤمن يأكل في معنى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء»^(٢) ثم قال تعالى: «والنار مشوى لهم» أي يوم جزائهم، وقوله عز وجل: «وَكَيْنَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قَوْمًا مِنْ قَرِيبَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ» يعني مكة «أهلكناهم فلا ناصر لهم» وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وهو سيد المرسلين وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله عز وجل قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسبعينهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والآخرة؟ فإن رفع عن كثير منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة فإن العذاب يوفر على الكافرين به في معادهم «يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يتصرون» [هود: ٢٠].

وقوله تعالى: «من قريتك التي أخرجتك» أي الذين أخرجوك من بين أظهرهم. وقال ابن أبي حاتم: ذكر أبي عن محمد بن عبد الأعلى عن المعتمر بن سليمان عن أبيه عن حتش، عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار أراه قال فالتفت إلى مكة وقال: «أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحب بلاد الله إلى، ولو لا أن المشركين أخرجوني لم أخرج منك» فأعدى الأعداء من عدا على الله تعالى في حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بدخول^(٣) الجاهلية، فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ «وَكَيْنَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قَوْمًا مِنْ قَرِيبَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ أهلكناهم فلا ناصر لهم».

أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَهُ مِنْ زَيْدٍ، كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءُ حَمَلِهِ، وَأَبْعَدَاهُوَاهُمْ^(٤) مَمَّا لَمْ يَعْتَدْ أَهْمَلُهُمْ^(٥) وَعَدَ الْمُنْقَوَّنَ فِيهَا أَنْهَرٌ^(٦)
مِنْ مَاءٍ غَيْرِهِ أَسِنٍ وَأَنْهَرٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَنْعِيرْ طَعْمَهُ وَأَنْهَرٌ مِنْ حَمَرٍ لَذَّةٌ لِشَرِّيْنَ وَأَنْهَرٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفَّىٌ وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب ١٦٤، والمعازи باب ١٧، وأحمد في المستند ٢٩٣/٤.

(٢) أخرجه البخاري في الأطعمة باب ١٢، ومسلم في الأشربة حديث ١٨٢ - ١٨٦، والترمذني في الأطعمة باب ٢٠، وابن ماجه في الأطعمة باب ٣، والدارمي في الأطعمة باب ١٣، ٢٠، ومالك في صفة النبي حديث ٩، ١٠.

(٣) الذحول، جمع ذحل: الأحقاد والعداوات.

كُلُّ الْمَرَّاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كُنْ هُوَ خَلِيلُهُ فِي النَّارِ وَسُقُومَةٌ حَمِيمًا فَقَطَعَ أَمْعَاءَ هُنَّ

يقول تعالى: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَيْ عَلَى بَصِيرَةٍ وَيَقِينٍ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَدِينِهِ بِمَا أَنْزَلَ فِي كِتَابِهِ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْعِلْمِ، وَبِمَا جَبَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْفَطْرَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ»، «كَمْنَ زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَابْتَعَا أَهْوَاءَهُمْ» أَيْ لِيَسْ هَذَا كَهْدَا، كَقُولَهُ تَعَالَى: «أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقَّ كَمْنَ هُوَ أَعْمَى» [الرعد: ١٩] وَكَقُولَهُ تَعَالَى: «لَا يَسْتُوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ» [الحُشْر: ٢٠] ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَ «مِثْلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقِنِونَ» قَالَ عَكْرَمَةُ «مِثْلُ الْجَنَّةِ» أَيْ نَعْتَهَا «فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسَنٍ» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَالْحَسْنُ وَقَتَادَةُ: يَعْنِي غَيْرَ مُتَغَيِّرٍ^(١). وَقَالَ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَعَطَاءُ الْخَرَاسَانِيُّ: غَيْرَ مُتَنَّ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: أَسَنُ الْمَاءِ إِذْ تَغْيِيرُ رِيحِهِ، وَفِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ أُورَدَهُ ابْنُ أَبِي حَاتَمَ: غَيْرَ آسَنَ يَعْنِي الصَّافِي الَّذِي لَا كَدْرٌ فِيهِ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتَمَ: حَدَثَنَا أَبُو سَعِيدُ الْأَشْجَعُ، حَدَثَنَا وَكَيْعَ عنْ الْأَعْمَشِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَوْرَةَ، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنْهَارُ الْجَنَّةِ تَفَجُّرٌ مِنْ جَبَلٍ مِنْ مَسْكٍ.

«وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيِّرْ طَعْمُهُ» أَيْ بَلْ فِي غَايَةِ الْبِيَاضِ وَالْحَلاوةِ وَالْدَّسْوَمَةِ، وَفِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ «لَمْ يَخْرُجْ مِنْ ضَرْوَعِ الْمَاشِيَةِ» «وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ» أَيْ لَيْسَ كَرِيَّهَةُ الطَّعْمِ وَالرَّائِحَةِ كَخَمْرِ الدُّنْيَا حَسْنَةُ الْمُنْتَظَرِ وَالْطَّعْمِ وَالرَّائِحَةِ وَالْفَعْلِ «لَا فِيهَا غُولٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يَنْزَفُونَ» [الصَّافَاتُ: ٤٧] «لَا يَصْدِعُونَ عَنْهَا وَلَا يَنْزَفُونَ» [الوَاقِعَةُ: ١٩] «بَيْضَاءُ لَذَّةِ لِلشَّارِبِينَ» [الصَّافَاتُ: ٤٦] وَفِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ «لَمْ يَعْصِرْهَا الرَّجُلُ بِأَقْدَامِهِمْ» «وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسْلٍ مَصْفَى» أَيْ وَهُوَ فِي غَايَةِ الصَّفَاءِ وَحْسَنِ الْلَّوْنِ وَالْطَّعْمِ وَالرَّيْحِ. وَفِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ «لَمْ يَخْرُجْ مِنْ بَطْوَنِ النَّحلِ».

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ^(٢): حَدَثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، أَخْبَرَنَا الْجَرِيرِيُّ عَنْ حَكِيمِ بْنِ مَعَاوِيَةِ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «فِي الْجَنَّةِ بَحْرٌ لِلْلَّبَنِ وَبَحْرٌ لِلْمَاءِ وَبَحْرٌ لِلْعَسلِ وَبَحْرٌ لِلْخَمْرِ، ثُمَّ تَشَقَّقُ الْأَنْهَارُ مِنْهَا بَعْدَ» وَرَوَاهُ التَّرمِذِيُّ^(٣) فِي صَفَةِ الْجَنَّةِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ بَشَّارٍ عَنْ يَزِيدِ بْنِ هَارُونَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي إِيَّاسٍ الْجَرِيرِيِّ وَقَالَ: حَسْنٌ صَحِيحٌ. وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنِ مَرْدُوِيَّهُ: حَدَثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عَاصِمٍ، حَدَثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ النَّعْمَانَ، حَدَثَنَا مُسْلِمُ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، حَدَثَنَا الْحَارِثُ بْنُ عَبِيدِ أَبْوَ قَدَامَةِ الْإِيَادِيِّ، حَدَثَنَا أَبُو عُمَرَ الْجُونِيُّ عَنْ أَبِيهِ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَشَخَّبُ^(٤) مِنْ جَنَّةِ عَدْنِ»

(١) انظر تفسير الطبرى ١١/٣١٣ - ٣١٤.

(٢) المسند ٥/٥.

(٣) كتاب صفة الجنة باب ٢٧.

(٤) تشَخَّبُ: تسْبِيلُ.

في جوبه^(١) ثم تصدع بعد أنهاراً^(٢) وفي الصحيح «إذا سألتם الله تعالى فاسأله الفردوس فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن»^(٣).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا مصعب بن إبراهيم بن حمزة الزبيري وعبد الله بن الصقر السكري قالا: حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي، حدثنا عبد الرحمن بن المغيرة، حدثني عبد الرحمن بن عياش عن دلهم بن الأسود بن عبد الله بن حاجب بن عامر بن المتفق العقيلي عن أبيه عن عمّه لقيط بن عامر قال دلهم، وحدثنيه أيضاً أبي الأسود عن عاصم بن لقيط قال: إن لقيط بن عامر خرج وادداً إلى رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله فعلام نطلع من الجنة؟ قال ﷺ: «على أنهار عسل مصفى، وأنهار من خمر ما بها من صداع ولا ندامة، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وماء غير آسن، وفاكهه لعمر إلهك ما تعلمون وخير من مثله، وأزواج مطهرة» قلت: يا رسول الله أولنا فيها زوجات مصلحات؟ قال «الصالحات للصالحين تلذونهن مثل لذاتكم في الدنيا ويلذونكم، غير أن لا توالد»^(٤) وقال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا: حدثنا يعقوب بن عبيدة عن يزيد بن هارون، أخبرني الجريبي عن معاوية بن قرة عن أبيه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لعلكم تظلون أن أنهار الجنة تجري في أخدود في الأرض والله إنها لتجري سائحة على وجه الأرض، حافاتها قباب اللؤلؤ وطينها المسك الأذفر^(٥)، وقد رواه أبو بكر بن مردويه من حديث مهدي بن حكيم عن يزيد بن هارون به مرفوعاً.

وقوله تعالى: «ولهم فيها من كل المرات» كقوله عز وجل: «يدعون فيها بكل فاكهة آمنين» [الدخان: ٥٥] وقوله تبارك وتعالى: «فيهما من كل فاكهة زوجان» [الرحمن: ٥٢] وقوله سبحانه وتعالى: «ومغفرة من ربهم» أي مع ذلك كله . وقوله سبحانه وتعالى: «كمن هو خالد في النار» أي هؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء، أي ليس من هو في الدرجات كمن هو في الدركات «وسقوا من ماء حميماً» أي حاراً شديداً الحر لا يستطيع «قطع أمعاءهم» أي قطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحساء - عيادةً بالله تعالى من ذلك.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعِيْدُ إِلَيْكَ حَقَّاً إِذَا حَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ إِنَّا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ

(١) الجوبة: الحضرة المستديرة الواسعة.

(٢) أخرجه الدارمي في الرقاب باب ١٠١ ، وأحمد في المسند ٤١٦ / ٤.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٤ ، والترمذمي في صفة الجنة باب ٤ ، وأحمد في المسند ٣٣٥ / ٢.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٤ / ١٣ ، ١٤ .

(٥) المسك الأذفر: هو المسك الجيد النوعية.

عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۝ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًىٰ وَإِنَّهُمْ تَقْوَاهُمْ ۝ فَهَلْ يَنْتَرُونَ إِلَّا السَّاعَةُ أَنْ تَأْتِيهِمْ بَعْتَهُ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَإِنَّ لَهُمْ ذِكْرَهُمْ ۝ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَعْفِرْ لِذَنْبِكُمْ ۝ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۝ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقْبِلَكُمْ وَمُشَوِّكَمْ ۝

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه فلا يفهمون منه شيئاً فإذا خرجوا من عنده «قالوا للذين أوتوا العلم» من الصحابة رضي الله عنهم «ماذا قال آنفًا» أي الساعة. لا يعقلون ما قال ولا يكترون له. قال الله تعالى: «أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواهم» أي فلا فهم صحيح ولا قصد صحيح. ثم قال عز وجل: «والذين اهتدوا زادهم هدى» أي والذين قصدوا الهدایة وفهم الله تعالى لها فهداهم إليها وثبتهم عليها وزادهم منها «وآتاهم تقواهم» أي ألهبهم رشدهم. قوله تعالى: «فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتיהם بعثة» أي وهم غافلون عنها «فقد جاء أشراطها» أي أمارات اقترابها كقوله تبارك وتعالى: «هذا نذير من النذر الأولى أزفت الآزمة» [النجم: ٥٦ - ٥٧] وكقوله جلت عظمته: «اقتربت الساعة وانشق القمر» [القمر: ١] وقوله سبحانه وتعالى: «أتى أمر الله فلا تستعجلوه» [النحل: ١] وقوله جل وعلا: «اقترب للناس حسابهم وهو في غفلة معرضون» [الأنباء: ١] بعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة، لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله تعالى به الدين وأقام به الحجة على العالمين.

وقد أخبر ﷺ بأumarات الساعة وأشراطها وأبان عن ذلك وأوضحته بما لم يؤته النبي قبله، كما هو مبسط في موضعه. وقال الحسن البصري: بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة وهو كما قال ولهذا جاء في اسمائه ﷺ أنه نبي التوبة ونبي الملحة، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه، والعاقب الذي ليس بعده النبي^(١).

وقال البخاري: حدثنا أحمد بن المقدام، حدثنا فضيل بن سليمان، حدثنا أبو حازم، حدثنا سهل بن سعد رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا بالوسطي والتي تليها «بعثت أنا والساعة كهاتين»^(٢) ثم قال تعالى: «فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم» أي كيف للكافرين بالذكر إذا جاءتهم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك كقوله تعالى: «يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى» [الفجر: ٢٣]. «وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد» [سبأ: ٥٢].

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٦١، باب ١، ومسلم في الفضائل حديث ١٢٤، ١٢٥، والترمذني في الأدب بباب ٦٧، ومالك في أسماء النبي حديث ١، وأحمد في المسند ٤/٣٩٥، ٤٠٤، ٤٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٣٩، وتفسير سورة ٧٩ باب ١، ومسلم في الجمعة حديث ٤٣، والفتن حديث ١٣٢، ١٣٥، وابن ماجه في المقدمة باب ٧، والفتن باب ٢٥، والدارمي في الرقاب باب ٤٦، وأحمد في المسند ٤/٣٠٩، ٩٢/٥، ٩٢/٥، ١٠٣، ١٠٨.

وقوله عز وجل: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» هذا إخبار بأنه لَا إِلَهَ إِلَّا الله ولا يتأتى كونه أَمْراً بعلم ذلك، ولهذا عطف عليه قوله عز وجل: «وَاسْتغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلِلْمُؤْمِنَاتِ» وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ وَجَهَلِيَّ وَإِسْرَافِيَّ فِي أَمْرِي وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي هَزْلِيَّ وَجَدِيَّ وَخَطَّائِيَّ وَعَمْدِيَّ وَكُلَّ ذَلِكَ عَنِّي»^(١). وفي الصحيح أنه كان يقول في آخر الصلاة «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدِمْتَ وَمَا أَخْرَتْ وَمَا أَسْرَرْتْ وَمَا أَعْلَنْتَ وَمَا أَسْرَفْتَ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»^(٢) وفي الصحيح أنه قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ توبُوا إِلَى رَبِّكُمْ فَإِنِّي أَسْتغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرُ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن عاصم الأحول قال: سمعت عبد الله بن سرجس قال: أتيت رسول الله ﷺ فأكلت معه من طعامه فقلت غفر الله لك يا رسول الله فقال ﷺ: «ولك» فقلت أستغفر لك. فقال رسول الله ﷺ: «نعم ولكم» وقرأ «وَاسْتغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلِلْمُؤْمِنَاتِ» ثم نظرت إلى نغض كتفه^(٤) الأيمن - أو كتفه الأيسر شعبة الذي شك - فإذا هو كهيئة الجموع عليه الثاليل^(٥)، ورواه مسلم والترمذى والسائلى وابن جرير وابن أبي حاتم من طرق عن عاصم الأحول به، وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو يعلى: حدثنا محمد بن عون، حدثنا عثمان بن مطر، حدثنا عبد الغفور عن أبي نصيرة عن أبي رجاء عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عَلَيْكُمْ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَالاستغفار، فَأَكْثُرُوا مِنْهَا فَإِنِّي إِبْلِيسُ» قال: إنما أهلكت الناس بالذنب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، فهم يحسبون أنهم مهتدون».

وفي الأثر المروي «قال إبليس وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الله عز وجل: وعزتي وجلاي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»^(٦) والأحاديث في فضل الاستغفار كثيرة جداً. قوله تبارك وتعالى: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنْ وَرَائِكُمْ» أي يعلم تصرفكم في نهاركم ومستقركم في ليالكم كقوله تبارك وتعالى: «وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ» [الأعراف: ٦٠] وقوله سبحانه وتعالى: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا اللَّهُ رَزَقَهَا وَيَعْلَمُ مِسْتَقْرِئَهَا كُلَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» [هود: ٦٠] وهذا القول ذهب

(١) آخرجه البخاري في الدعوات باب ٦١.

(٢) آخرجه البخاري في التوحيد باب ٨، ٢٤، ومسلم في المسافرين حديث ٢٠١.

(٣) آخرجه البخاري في الدعوات باب ٣.

(٤) نغض الكتف: أعلى الكتف وقيل: هو العظم الرقيق الذي على طرف.

(٥) آخرجه أحمد في المسند ٤٥/٨٢.

(٦) آخرجه في المسند ٣/٢٩، ٤١، ٧٦.

إِلَيْهِ أَبْنَ جَرِيرٍ وَهُوَ اخْتِيَارُ أَبْنَ جَرِيرٍ^(١)، وَعَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَتَّقْلِبَكُمْ فِي الدُّنْيَا
وَمَثَواكُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَقَالَ السَّدِيْدِيْ مَتَّقْلِبَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَمَثَواكُمْ فِي قُبُورِكُمْ، وَالْأُولَى
وَأَظَهَرَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةً مُحَكَّمَةً وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةُ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ إِنَّا
عَزَّ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوكُمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ فَهَلْ عَسِيْتُمْ إِنْ تَوْلَيْتُمْ أَنْ تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقْطَعُوا
أَرْجَامَكُمْ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعْنَهُمُ اللَّهُ فَأَصْمَمَهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَرَهُمْ

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله عز وجل وأمر به نكل عنه كثير من الناس كقوله تبارك وتعالى: «أَلَمْ ترِ إِلَى الَّذِينَ قيلُوا لَهُمْ كَفُوا أَيْدِيكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَتَوْا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخْشَيَّةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ
خَشْيَةً وَقَالُوا رَبُّنَا لَمْ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخْرَتْنَا إِلَى أَجْلٍ قَرِيبٍ قَلِيلٍ وَالآخِرَةُ
خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى وَلَا تُظْلِمُونَ فَتِيلًا» [النساء: ٧٧] وقال عز وجل هنـا: «وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ
لَا نُزِّلَتْ سُورَةً أَيْ مُشْتَمَلَةً عَلَى حُكْمِ الْقِتَالِ وَلَهُذَا قَالَ: «إِنَّا نُزِّلَتْ سُورَةٌ مُحَكَّمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا
الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ» أَيْ مِنْ فَزَعِهِمْ
وَرَبِّهِمْ وَجِبْنِهِمْ مِنْ لَقَاءِ الْأَعْدَاءِ، ثُمَّ قَالَ مُشَجِّعًا لَهُمْ «فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةُ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ» أَيْ
وَكَانَ الْأُولَى بِهِمْ أَنْ يَسْمَعُوا وَيَطِيعُوا أَيْ فِي الْحَالَةِ الرَّاهِنَةِ «إِنَّا نُزِّلَتْ سُورَةٌ أَيْ جَدُّ الْحَالِ،
وَحَضْرُ الْقِتَالِ «فَلَوْ صَدَقُوكُمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ» أَيْ خَلْصَوْهُ الْنِّيَّةُ «لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ» .

وقوله سبحانه وتعالى: «فَهَلْ عَسِيْتُمْ إِنْ تَوْلِيْتُمْ» أَيْ عَنِ الْجَهَادِ وَنَكَلْتُمْ عَنْهُ «أَنْ تَفْسِدُوا
فِي الْأَرْضِ وَتَقْطَعُوا أَرْجَامَكُمْ» أَيْ تَعُودُوا إِلَى مَا كَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ الْجَهَلَاءُ تَسْفِكُونَ الدَّمَاءَ
وَتَقْطَعُونَ الْأَرْحَامَ، وَلَهُذَا قَالَ تَعَالَى: «أَوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعْنَهُمُ اللَّهُ فَأَصْمَمَهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ»
وَهَذَا نَهِيٌّ عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ عَمُومًا، وَعَنِ قَطْعِ الْأَرْحَامِ خَصْوَصًا، بَلْ قَدْ أَمْرَ اللَّهُ تَعَالَى
بِالْإِصْلَاحِ فِي الْأَرْضِ وَصَلَةِ الْأَرْحَامِ، وَهُوَ الْإِحْسَانُ إِلَى الْأَقْرَبِ فِي الْمَقْالِ وَالْأَفْعَالِ وَبِذَلِيلِ
الْأَمْوَالِ، وَقَدْ وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ الصَّحَّاحُ وَالْحَسَانُ بِذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ طَرِيقٍ عَدِيدَةٍ
وَوِجْهَاتِ كَثِيرَةٍ .

قال البخاري: حدثنا خالد بن مخلد، حدثنا سليمان، حدثني معاوية بن أبي مزرد عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْخَلْقَ فَلَمَّا فَرَغَ
مِنْهُ قَامَ الرَّحْمَنُ فَأَخْذَتْ بِحَقْوَى الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَ فَقَالَ مَهْ، فَقَالَتْ هَذَا مَقْامُ الْعَاذِّ بَكَ مِنْ

القطيعة فقال تعالى: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلـ، قال: فذاك لك»^(١) قال أبو هريرة رضي الله عنه: اقرؤوا إن شئتم «فهل عسيت إن توليت أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم» ثم رواه البخاري من طريقين آخرين عن معاوية بن أبي مزرد به قال قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا إن شئتم «فهل عسيت إن توليت أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم» . ورواه مسلم من حديث معاوية بن أبي مزرد به.

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا إسماعيل ابن عليـة، حدثنا عيينة بن عبد الرحمن بن جوشـن عن أبيه عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أخرى أن يعجل الله تعالى عقوبته في الدنيا مع ما يدخل لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»^(٣) . أبو داود والترمذـي وابن ماجـه من حديث إسماعيل هو ابن عليـةـهـ، وقال الترمذـيـ: هذا حديث صحيحـ.

وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا محمد بن بكرـ، حدثنا ميمون أبو محمد المرئـيـ، حدثنا محمد بن عباد المخزوـميـ عن ثوبـانـ رضـيـ اللهـ عـنـهـ رسـولـ اللهـ ﷺـ قالـ: «من سـرهـ النـسـاءـ^(٥)ـ فيـ الأـجـلـ وـالـزيـادـةـ فيـ الرـزـقـ فـلـيـصـلـ رـحـمـهـ»ـ . تـفـرـدـ بـهـ أـحـمدـ وـلـهـ شـاهـدـ فـيـ الصـحـيـحــ . وـقـالـ أـحـمدـ^(٦)ـ أـيـضاـ: حدـثـناـ يـزـيدـ بـنـ هـارـونـ، حدـثـناـ حـجـاجـ بـنـ أـرـطـاطـ عـنـ عمـرـوـ بـنـ شـعـيبـ عـنـ أـبـيهـ عـنـ جـدـهــ . قالـ: جاءـ رـجـلـ إـلـىـ رسـولـ اللهـ ﷺـ فـقـالـ يـاـ رسـولـ اللهـ إـنـ لـيـ ذـوـيـ أـرـحـامـ، أـصـلـ وـيـقـطـعـونـ، وـأـعـفـوـ وـيـظـلـمـونـ، وـأـحـسـنـ وـيـسـيـئـونـ أـفـاكـافـهـمـ؟ـ قـالـ ﷺـ:ـ (ـلـاـ،ـ إـذـنـ تـرـكـونـ جـمـيـعـاــ وـلـكـ جـدـ بالـفـضـلـ وـصـلـهـمـ،ـ فـإـنـهـ لـنـ يـزـالـ مـعـكـ ظـهـيرـ مـنـ اللهـ عـزـ وـجـلـ مـاـ كـنـتـ عـلـىـ ذـلـكـ)ـ تـفـرـدـ بـهـ أـحـمدـ مـنـ هـذـاـ الـوـجـهـ وـلـهـ شـاهـدـ مـنـ وـجـهـ آـخـرــ .

وقال الإمام أحمد^(٧): حدثنا يعلـىـ، حدثنا قطرـ عنـ مجـاهـدـ عـنـ عبدـ اللهـ بـنـ عمـرـوـ رـضـيـ اللهـ عـنـهـمـاـ قـالـ:ـ قـالـ رسـولـ اللهـ ﷺـ:ـ (ـإـنـ الرـحـمـ مـعـلـقـةـ بـالـعـرـشـ وـلـيـسـ الوـاـصـلـ بـالـمـكـافـيـءـ وـلـكـ الواـصـلـ الـذـيـ إـذـ قـطـعـتـ رـحـمـهـ وـصـلـهـاـ)ـ روـاهـ البـخـارـيـ^(٨)ـ . وـقـالـ أـحـمدـ^(٩)ـ:ـ حدـثـناـ بـهـزـ،ـ حدـثـناـ

(١) آخرـهـ البـخـارـيـ فـيـ تـفـسـيرـ سـورـةـ ٤٧ـ ،ـ وـمـسـلـمـ فـيـ البرـ حـدـيـثـ ١٦ـ ،ـ وـأـبـوـ دـاـوـدـ فـيـ الـأـدـبـ بـابـ ١٣ـ ،ـ وـالـتـوـحـيدـ بـابـ ٣٥ـ ،ـ وـأـحـمدـ فـيـ الـمـسـنـدـ ٢ـ /ـ ٣٣٠ـ ،ـ ٣٨٢ـ ،ـ ٤٠٦ـ ،ـ ٤٥٥ـ .ـ

(٢) المسندـ ٣٨ـ /ـ ٥ـ .ـ

(٣) آخرـهـ أـبـوـ دـاـوـدـ فـيـ الـأـدـبـ بـابـ ٤٣ـ ،ـ وـالـتـرـمـذـيـ فـيـ الـقـيـامـةـ بـابـ ٥٧ـ ،ـ وـابـنـ مـاجـهـ فـيـ الزـهـدـ بـابـ ٢٣ـ ،ـ وـأـحـمدـ فـيـ الـمـسـنـدـ ٥ـ /ـ ٣٦ـ ،ـ ٣٨ـ .ـ

(٤) المسندـ ٢٧٩ـ /ـ ٥ـ .ـ

(٥) السـَّـاءـ:ـ أـيـ التـأـخـيرـ وـالتـأـجـيلـ .ـ

(٦) المسندـ ١٨١ـ /ـ ٢ـ .ـ

(٧) المسندـ ١٦٣ـ /ـ ٢ـ .ـ

(٨) كتابـ الـأـدـبـ بـابـ ١٥ـ ،ـ وـأـخـرـجـهـ أـيـضاـ أـبـوـ دـاـوـدـ فـيـ الزـكـاـةـ بـابـ ٤٥ـ ،ـ وـالـتـرـمـذـيـ فـيـ الـبرـ بـابـ ١٠ـ .ـ المسـنـدـ ١٨٩ـ /ـ ٢ـ .ـ

(٩)

حمد بن سلمة، أخبرنا قتادة عن أبي ثمامه الثقفي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «توضع الرحم يوم القيمة لها حجنة كحجنة المغزل^(١) تتكلم بلسان طلق ذلك^(٢)، فقطعها وتصل من وصلها».

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا سفيان، حدثنا عمرو عن أبي قابوس عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما يبلغ به النبي ﷺ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء، والرحم شجنة^(٤) من الرحمن من وصلها وصلته ومن قطعها بنته»^(٥) وقد رواه أبو داود والترمذى من حديث سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار به، وهذا هو الذي يروى بسلسل الأولية^(٦) وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد^(٧): حدثنا يزيد بن هارون حدثنا هشام الدستوائي عن يحيى بن أبي كثير عن إبراهيم بن عبد الله بن قارظ، أن أباه حدثه أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وهو مريض فقال له عبد الرحمن رضي الله عنه، وصلت رحمك إن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أنا الرحمن خلقت الرحمن وشققت لها اسمها من اسمي، فمن يصلها أصله ومن يقطعها أقطعه فأبنته - أو قال - من بتها أبته»^(٨) تفرد به أحمد^(٩) من هذا الوجه، ورواه أحمد أيضاً من حديث الزهرى عن أبي سلمة عن الرداد - أو أبي الرداد - عن عبد الرحمن بن عوف به، ورواه أبو داود والترمذى من روایة أبي سلمة عن أبيه، والأحاديث في هذا كثيرة جداً.

وقال الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن عمار الموصلي، حدثنا عيسى ابن يونس عن الحجاج بن يوسف عن الحجاج بن الفرافصة، عن أبي عمر البصري عن سليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلاف وما تناكر منها

(١) حجنة المغزل: ضارته، وهي المعوجة التي في رأسه.

(٢) لسان طلق ذلك: أي فصيح بلغ.

(٣) المستند ٢/١٦٠.

(٤) الشجنة: هي الشعبة في غصن من غصون الشجرة، والمقصود أن القرابة مشتبكة كاشتباك العروق.

(٥) أخرجه أبو داود في الأدب باب ١٣ ، والترمذى في البر باب ١٦ .

(٦) سلسل الأولية: هو نوع من السلسل من الحديث، وهو ما تابعت فيه الرواية، وأن يقول كل راو لتميذه: حدثني فلان وهو أول حديث سمعته.

(٧) المستند ١/١٩١ .

(٨) أخرجه أبو داود في الزكاة باب ٤٥ ، والترمذى في البر باب ٩ .

(٩) المستند ١/١٩٤ .

اختلف^(١) ويه قال رسول الله ﷺ «إذا ظهر القول وحزن العمل واتلقت الألسنة وتاباغضت القلوب، وقطع كل ذي رحمه فعند ذلك لعنهم الله وأصمهم وأعمى أبصارهم» والأحاديث في هذا كثيرة، والله أعلم.

أَفَلَا يَتَدْبِرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَفْفَالِهَا ﴿١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُوا عَلَى أَذْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ شَيْطَانٌ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّ الَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سُطُّ�يْعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٣﴾ فَكَيْفَ إِذَا تُوقَّتُمُ الْمَلَائِكَةَ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ ﴿٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَتَبْعَوْا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ كَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَطْ أَعْمَالَهُمْ ﴿٥﴾

يقول تعالى آمراً بتدبر القرآن وتفهمه وناهياً عن الإعراض عنه فقال: «أَفَلَا يَتَدْبِرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَفْفَالِهَا» أي بل على قلوب أفالها، فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه، قال ابن جرير^(٢): حدثنا بشر حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد قال: حدثنا حماد بن زيد، حدثنا هشام بن عمرو عن أبيه رضي الله عنه قال: ثلا رسول الله ﷺ يوماً «أَفَلَا يَتَدْبِرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَفْفَالِهَا» فقال شاب من أهل اليمن: بل عليها أفالها حتى يكون الله تعالى يفتحها أو يفرجها، فما زال الشاب في نفس عمر رضي الله عنه حتىولي فاستعان به.

ثم قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُوا عَلَى أَذْبَارِهِمْ» أي فارقو الإيمان ورجعوا إلى الكفر «مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ» أي زين لهم ذلك وحسنـه «وَأَمْلَى لَهُمْ» أي غرـهم وخدـهم «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سُطُّيْعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ» أي مالـؤـهم وناصـحـهم في الباطـل وهذا شأن المنـافقـين يـظـهـرون خـلـافـ ما يـطـنـونـ. ولـهـذا قال الله عـز وجلـ: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ» أي ما يـسـرـونـ وما يـخـفـونـ، الله مـطلعـ عليهـ وـعالـمـ بهـ كـقولـهـ تـبارـكـ وـتعـالـىـ: «وَاللَّهُ يَكْتُبُ مـا يـبـيـتـونـ» [النسـاءـ: ٨١ـ].

ثم قال تعالى: «فَكَيْفَ إِذَا تُوقَّتُمُ الْمَلَائِكَةَ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ» أي كيف حالـهم إذا جاءـتهمـ الملـائـكةـ لـقـبـضـ أـرـواـحـهـمـ وـتـعـصـتـ الـأـرـواـحـ فـيـ أجـسـادـهـمـ واستـخـرـجـتهاـ الملـائـكةـ بالـعـنـفـ والـقـهـرـ والـضـربـ، كما قال سـبـحانـهـ وـتـعـالـىـ: «وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ» [الأـنـفـالـ: ٥٠ـ] الآـيـةـ. وقال تعالى: «وَلَوْ تَرَى إِذْ الظـالـمـونـ غـمـرـاتـ الـمـوتـ وـالـمـلـائـكةـ بـاسـطـواـ أـيـدـيـهـمـ» [الأـنـعـامـ: ٩٣ـ] أي بالـضـربـ «أـخـرـجـواـ أـنـفـسـكـمـ الـيـومـ تـجزـونـ عـذـابـ الـهـوـنـ بـمـاـ كـتـمـ تـقـولـونـ عـلـىـ اللهـ غـيرـ الـحـقـ وـكـتـمـ عـنـ آـيـاتـهـ تـسـتـكـبـرـونـ» [الأـنـعـامـ: ١٧ـ].

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢٩٥/٢، ٥٢٧.

(٢) تفسير الطبرى ٣٢١/١١.

٩٣] ولهذا قال هنـا: ﴿ذلـكـ بـأـنـهـمـ اـتـعـواـ مـاـ أـسـخـطـ اللهـ وـكـرـهـوـ رـضـواـهـ فـأـحـبـطـ أـعـمـالـهـ﴾ .

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنَّ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْنَاعَهُمْ^١ وَلَوْ نَشَاءُ لَا زِينَكُمْ فَلَعْنَافُهُمْ
بِسِيمَهُمْ وَلَتَعْرِفُهُمْ فِي لَهْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَدَكُمْ^٢ وَلَنَبْلُونَكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ
وَالصَّابِرِينَ وَبَلُو أَخْبَارَكُمْ^٣

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنَّ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْنَاعَهُمْ﴾ أي أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين، بل سيوضح أمرهم ويجليله حتى يفهمهم ذوق البصائر، وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة براءة فيها فضائحهم، وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم، ولهذا إنما كانت تسمى الفاسحة. والأصناع: جمع ضغـن وهو ما في النفوس من الحسد والحقـد للإسلام وأهله والقائمين بنصره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَا زِينَكُمْ فَلَعْنَافُهُمْ بِسِيمَهُمْ﴾ يقول عز وجل ولو نشاء يا محمد لأريـناكـ أـشـخـاصـهـمـ فـعـرـفـهـمـ عـيـانـاـ، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقـينـ ستـراـ منهـ على خلقـهـ، وـحـمـلاـ لـلـأـمـورـ عـلـىـ ظـاهـرـ السـلـامـ وـرـدـاـ لـلـسـرـائـرـ إـلـىـ عـالـمـهاـ ﴿وَلَتَعْرِفُهُمْ فِي لَهْنِ
الْقَوْلِ﴾ أي فيما يـبـدوـ مـنـ كـلـامـهـ الدـالـ عـلـىـ مـقـاصـدـهـ يـفـهـمـ الـمـتـكـلـمـ مـنـ أيـ الـحـزـبـينـ هوـ بـمـعـانـيـ
كـلـامـهـ وـفـحـواـهـ، وـهـوـ الـمـرـادـ مـنـ لـهـنـ القـوـلـ كـمـاـ قـالـ أـمـيرـ المـؤـمـنـيـنـ عـثـمـانـ بـنـ عـفـانـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ:
ـ مـاـ أـسـرـ أـحـدـ سـرـيـرـةـ إـلـاـ أـبـدـاـهـ اللـهـ عـلـىـ صـفـحـاتـ وـجـهـهـ وـفـلـتـاتـ لـسـانـهـ .

وفي الحديث «ما أسر أحد سريرة إلا كـسـاهـ اللـهـ تـعـالـىـ جـلـبـاـهـ إـنـ خـيـرـاـ فـخـيـرـ وـإـنـ شـرـاـ فـشـرـ» وقد ذكرنا ما يستدل به على نفاق الرجل وتكلمنا على نفاق العمل والاعتقاد في أول شرح البخاري بما أغنى عن إعادته هـنـاـ، وقد ورد في الحديث تعـيـنـ جـمـاعـةـ مـنـ الـمـنـافـقـينـ .

قال الإمام أحمد^(١): حدثنا سفيان عن سلمة عن عياض بن عياض عن أبيه عن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: «إن منكم منافقين فمن سمي فليقم - ثم قال - قم يا فلان، قم يا فلان قم يا فلان - حتى سمي ستة وثلاثين رجلاً ثم قال - إن فيكم أو منكم - منافقين فاتقوا الله» قال فمر عمر رضي الله عنه بـرـجـلـ مـنـ مـنـقـعـ مـنـ سـمـيـ فـقـالـ: مـاـ لـكـ؟ـ فـحـدـثـهـ بـمـاـ قـالـ رسولـ اللـهـ ﷺ فـقـالـ: بـعـدـاـ لـكـ سـائـرـ الـيـومـ .ـ وـقـولـهـ عـزـ وـجـلـ: ﴿وَلَنَبْلُونَكُمْ﴾ـ أيـ وـلـنـخـتـبـرـنـكـمـ
ـ بـالـأـوـامـ وـالـنـوـاهـيـ ﴿حـتـىـ تـعـلـمـ الـمـجـاهـدـيـنـ مـنـكـمـ وـالـصـابـرـيـنـ وـبـلـوـ أـخـبـارـكـمـ﴾ـ وـلـيـسـ فـيـ تـقـدـمـ
ـ عـلـمـ اللـهـ تـعـالـىـ بـمـاـ هـوـ كـائـنـ أـنـهـ سـيـكـونـ شـكـ وـلـاـ رـيبـ،ـ فـالـمـرـادـ حـتـىـ تـعـلـمـ وـقـوـعـهـ وـلـهـذاـ يـقـولـ اـبـنـ
ـ عـبـاسـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـمـ فـيـ مـثـلـ هـذـاـ:ـ إـلـاـ لـنـعـلـمـ أـيـ لـنـرـىـ .ـ

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَهْدَى لَنْ يَضُرُّو اللَّهُ شَيْئاً
وَسَيُحِيطُ أَعْمَلَهُمْ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا يُنْهِيُوكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۝ إِنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَعْفَرَ اللَّهُ لَهُمْ ۝ فَلَا تَهْنُوا وَدَعُوا إِلَى السَّلَامِ
وَأَتَسْمُمُ الْأَعْلَمُونَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَلَنْ يَرْكُمْ أَعْمَالَكُمْ ۝

يخبر تعالى عن كفر وصد عن سبيل الله وخالف الرسول وشاقه، وارتدى عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى أنه لن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه ويخرسها يوم معادها، وسيحيط الله عمله فلا يشهى على سالف ما تقدم من عمله الذي عقبه بردته مثقال بعوضة من خير، بل يحبشه ويمحقه بالكلية كما أن الحسنات يذهبن السيئات.

وقد قال الإمام أحمد بن نصر المروزي^(١) في كتاب الصلاة: حدثنا أبو قدامة، حدثنا وكيع، حدثنا أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبي العالية قال كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع «لا إله إلا الله ذنب» كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت «أطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ» فخافوا أن يبطل الذنب العمل، ثم روى من طريق عبد الله بن المبارك أخبرني بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت «أطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ» فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش حتى نزل قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» [النساء: ٤٨] فلما نزلت كفينا عن القول في ذلك فكنا نخاف على من أصحاب الكبائر والفواحش ونرجو لمن لم يصبها.

ثم أمر تبارك وتعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال، ولهذا قال تعالى: «وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ» أي بالردة، ولهذا قال بعدها: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» كقوله سبحانه وتعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» [النساء: ٤٨] الآية.

ثم قال جل وعلا لعباده المؤمنين: «فَلَا تَهْنُوا» أي لا تضعفوا عن الأعداء «وَدَعُوا إِلَى السَّلَامِ» أي المهادنة والمسالمة ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم وكثرة عدكم

(١) هو أبو عبد الله أحمد بن نصر بن مالك الشهيد المروزي، كان رأساً في الحديث والفقه والعبادة، قيل لم يكن للشافعية في وقته مثله، توفي في المحرم سنة ٢٩٤ وهو في التسعين من عمره. له ترجمة في الثقات لابن حبان ١٤/٨.

وعددكم ، . . ولهذا قال : ﴿فَلَا تهנו وتدعوا إِلَى السُّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنُ﴾ أي في حال علوكم على عدوكم . . فاما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين ، ورأى الإمام في المهادنة ، والمعاهدة مصلحة فله أن يفعل ذلك ، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة ودعوه إلى الصلح ، ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين فأجابهم ﷺ إلى ذلك . وقوله جلت عظمته : ﴿وَاللَّهُ مَعَكُم﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء ﴿وَلَنْ يَرْكِمُ اُمَالَكُم﴾ أي ولن يحيطها ويسيطرها ويسلبكم إياها بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئاً والله أعلم .

إِنَّمَا لِحِيَةُ الدُّنْيَا لَعْبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَنْقُوا يُؤْتَكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْعَكُمْ أَمْوَالُكُمْ إِنْ يَسْكُمُوهَا فَيُحَفِّكُمْ تَبَخَّلُوا وَيُخْرِجُ أَضْغَانَكُمْ هَذَا أَنْتُمْ هُؤُلَاءِ تَدْعُونَكُمْ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ أَعْفُ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَنْتَلِوْا يَسْتَبِدُلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ

يقول تعالى تحيراً لأمر الدنيا وتهويناً لشأنها ﴿إِنَّمَا الْحِيَةُ الدُّنْيَا لَعْبٌ وَلَهُوَ﴾ أي حاصلها ذلك إلا ما كان منها الله عز وجل ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَنْقُوا يُؤْتَكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُم﴾ أي هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئاً وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء ، ليعود نفع ذلك عليكم ويرجع ثوابه إليكم ، ثم قال جل جلاله : ﴿إِنْ يَسْأَلُوكُمْ هَا فِي حِكْمَتِنَا تَبَخَّلُوا وَيُخْرِجُ أَضْغَانَكُمْ﴾ أي يحرجكم تبخلاً ويخرج أضغانكم .

قال قتادة : قد علم الله تعالى أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان . وصدق قتادة فإن المال محظوظ ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه . وقوله تعالى : ﴿هَا أَنْتُمْ هُؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ﴾ أي لا يجب إلى ذلك ﴿وَمَنْ يَبْخَلُ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي إنما نقص نفسه من الأجر وإنما يعود وبال ذلك عليه ﴿وَاللَّهُ أَعْفُ﴾ أي عن كل ما سواه وكل شيء فتقرير إليه دائم ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ أي بالذات إليه ، فوصفه بالغنى وصف لازم له ، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم لا ينفكون عنه .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَنْتَلِوْا﴾ أي عن طاعته وابتاع شرعيه ﴿يَسْتَبِدُلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ أي ولكن يكونون سامعين مطاعين له ولأوامرها . وقال ابن أبي حاتم وابن جرير^(١) : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني مسلم بن خالد عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿وَإِنْ تَنْتَلِوْا يَسْتَبِدُلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ قالوا : يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا

استبدل بنا ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ قال : فضرب بيده على كتف سلمان الفارسي رضي الله عنه ثم قال «هذا وقومه ولو كان الدين عند الشريا لتناوله رجال من الفرس» تفرد به مسلم بن خالد الزنجي ، ورواه عنه غير واحد ، وقد تكلم فيه بعض الأئمة رحمة الله عليهم ، والله أعلم .

آخر تفسير سورة القتال والله الحمد والمنة .

تفسير سورة الفتح

وهي مدنية

قال الإمام أحمد^(١) حدثنا وكيع حدثنا شعبة عن معاوية بن قرة قال سمعت عبد الله بن مغفل يقولقرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيرة سورة الفتح على راحلته فرجع^(٢) فيها قال معاوية لو لا أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت لكم قراءته^(٣) ، آخر جاه من حديث شعبة به .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقْدَمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخَرَ وَيُبَيِّنَ لَعْنَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا
مُسْقَيْمًا ۝ وَيُنَصِّرَكَ اللَّهُ شَفِيرًا عَزِيزًا ۝

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ، من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صدر المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام فيقضي عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما سيأتي تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله تعالى ، فلما نحر هديه حيث أحضر ورجع أنزل الله عز وجل هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحا باعتبار ما فيه من المصلحة وما آل الأمر إليه ، كما روی عن ابن مسعود رضي الله عنه وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة ونحن نعد الفتح صلح الحديبية، وقال الأعمش عن أبي سفيان عن جابر رضي الله عنه قال: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية^(٤) .

وقال البخاري^(٥) : حدثنا عبد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة . والحدبية بئر فتزحناها فلم نترك فيها قطرة ، بلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتانا فجلس على شفيرها ثم دعا ببيانه من ماء فتوضاً ثم

(١) المستند /٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٢٤ /٥ .

(٢) الترجيع: أي تردید القراءة.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٤٨ ، باب ١ ، ومسلم في المسافرين حديث ٢٣٧ .

(٤) تفسير الطبرى ١١ /٣٣٢ .

(٥) كتاب المغازى باب ٣٥ .

تمضمض ودعا ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائنا.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا أبو نوح، حدثنا مالك بن أنس عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر قال: فسألته عن شيء ثلاثة مرات فلم يرد عليه، قال فقلت في نفسي: ثُكْلَتْكَ أَمْكَ يَا ابْنَ الْخَطَابِ الْحَجَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَاتٍ فَلَمْ يَرُدْ عَلَيْكَ؟ قَالَ: فَرَكِبْتَ رَاحْلَتِي فَحَرَكْتَ بَعِيرِي فَتَقْدَمْتَ مَخَافَةً أَنْ يَكُونَ نَزْلَ فِيَّ شَيْءٍ، قَالَ: إِنَّا بِمَنَادٍ يَنْادِي يَا عَمْرٍ، أَيْنَ عَمْرٌ قَالَ: فَرَجَعْتَ وَأَنْأَيْتَ أَنَّهُ نَزَلَ فِيَّ شَيْءٍ قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «نَزَلَ عَلَى الْبَارِحةِ سُورَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مِّينًا لِيغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقْدَمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخُرَ^(٢) ورواه البخاري والترمذى والنسائى من طرق عن مالك رحمة الله ، وقال علي بن المدينى هذا إسناد مدنى جيد لم نجده إلا عتدهم .

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا عبد الرزاق، حدثنا عمر عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نزلت على النبي ﷺ «لِيغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقْدَمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخُرَ» مرجعه من الحديثة. قال النبي ﷺ: «لَقَدْ أَنْزَلْتَ عَلَيَّ اللَّيلَةَ آيَةً أَحَبَّ إِلَيَّ مَا عَلَى الْأَرْضِ» ثم قرأها عليهم النبي ﷺ فقالوا: هنيئاً مريئاً يا نبي الله لقد بين الله عز وجل ما يفعل بك فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه ﷺ «لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمَنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» - حتى بلغ - «فَوْزًا عَظِيمًا» آخر جاه في الصحيحين^(٤) من روایة قتادة به .

وقال الإمام أحمد^(٥): حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا مجتمع بن يعقوب قال: سمعت أبي يحدث عن عميه عبد الرحمن بن يزيد الأنباري، عن عميه مجتمع بن حارثة الأنباري رضي الله عنه، وكان أحد القراء الذين قرؤوا القرآن قال: شهدنا الحديثة فلما انصرفت عنها إذا الناس ينفرون^(٦) الأبعار فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس؟ قالوا: أُوحى إلى رسول الله ﷺ فخرجنا مع الناس نوجف فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مِّينًا» قال: رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أي رسول الله أو فتح هو؟ قال ﷺ: «إِيَّ الَّذِي نَفَسَ مُحَمَّدًا بِيَدِهِ إِنَّهُ لَفَتْحٌ» فقسمت خير على أهل الحديثة لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديثة فقسمها رسول الله ﷺ ثمانية عشر سهماً. وكان الجيش ألفاً وخمسمائة منهم ثلاثة فارس أعطي الفارس سهرين وأعطي الرجال

(١) المسند / ١٢١ .

(٢) آخر جه البخاري في فضائل القرآن باب ١٢ ، والترمذى في تفسير سورة ٤٨ باب ١ .

(٣) المسند / ٣ ١٩٧ .

(٤) آخر جه البخاري في المغازى باب ٣٥ ، ومسلم في الجهاد حديث ٩٧ .

(٥) المسند / ٣ ٤٢٠ .

(٦) ينفرون: أي يزجرون .

سهماً ورواه أبو داود^(١) في الجهاد عن محمد بن عيسى عن مجتمع بن يعقوب به.

وقال ابن جرير^(٢) حديثنا محمد بن عبد الله بن بزيع، حدثنا أبو بحر، حدثنا شعبة، حدثنا جامع بن شداد عن عبد الرحمن بن أبي علقمة قال: سمعت عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: لما أقبلنا من الحديبية أعرسنا فنمنا فلم نستيقظ إلا والشمس قد طلعت، فاستيقظنا رسول الله ﷺ نائم قال: فقلنا أيقطوه فاستيقظ رسول الله ﷺ فقال: «افعلوا ما كتم تفعلون وكذلك يفعل من نام أو نسي» قال: وفقدنا ناقة رسول الله ﷺ فطلبناها فوجدناها قد تعلق خطامها^(٣) بشجرة، فأتيته بها فركبها فبينا نحن نسير إذ أتاه الوحي قال: وكان إذا أتاه الوحي اشتد عليه، فلما سرى عنه أخبرنا أنه أنزل عليه «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً»^(٤) وقد رواه أحمد وأبو داود والن saiي من غير وجه عن جامع بن شداد به.

وقال الإمام أحمد^(٥): حديثنا عبد الرحمن، حديثنا سفيان عن زياد بن علاقة قال: سمعت المغيرة بن شعبة يقول: كان النبي ﷺ يصلی حتى ترم قدماه فقيل له أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ «أفلا أكون عبداً شكوراً؟»^(٦) آخر جاه وبقية الجماعة إلا أبي داود من حديث زياد به.

وقال الإمام أحمد^(٧): حديثنا هارون بن معروف، حدثنا ابن وهب، حدثني أبو صخر عن ابن قسيط عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله ﷺ أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم لك من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: «يا عائشة أفلأ تكون عبداً شكوراً». آخر جه مسلم^(٨) في الصحيح من روایة عبد الله بن وهب به.

وقال ابن أبي حاتم حديثنا علي بن الحسين حدثنا عبد الله بن عون الخراز وكان ثقة بمكة حدثنا محمد بن بشر حدثنا مسرور عن قتادة عن أنس قال قام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه - أو قال ساقاه - فقيل له أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا تكون

(١) كتاب الجهاد باب .٥٧.

(٢) تفسير الطبرى / ١١ / ٣٣٢.

(٣) خطام الناقة: زمامها.

(٤) آخر جه أحمد في المستند / ١ / ٤٦٤.

(٥) المستند / ٤ / ٢٥٥.

(٦) آخر جه البخاري في التهجد باب ٦، وتفسير سورة ٤٨، باب ٢، ومسلم في المناقبين حديث ٧٩، والترمذى في الصلاة باب ١٨٧، والن saiي في قيام الليل باب ١٧، وابن ماجه في الإقامة باب ٢٠٠.

(٧) المستند / ٦ / ١١٥.

(٨) كتاب المناقبين حديث ٨١، ٨٠.

عبدًا شكوراً» غريب من هذا الوجه فقوله: «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً» أي بيناً ظاهراً والمراد به صلح الحديبية، فإنه حصل بسببه خير جزيل، وأمن الناس واجتمع بعضهم بعض، وتكلم المؤمن مع الكافر وانتشر العلم النافع والإيمان.

وقوله تعالى: «ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر» هذا من خصائصه صلوات الله وسلامه عليه التي لا يشاركه فيها غيره، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو صلوات الله وسلامه عليه في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو أكمل البشر على الإطلاق وسيدهم في الدنيا والآخرة، ولما كان أطوع خلق الله تعالى الله وأشدتهم تعظيمًا لأوامره ونواهيه قال حين بركت به الناقة: «حبسها حابس الفيل» ثم قال ﷺ: «والذى نفسي بيده لا يسألونى اليوم شيئاً يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها»^(١) فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح قال الله تعالى له: «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك» أي في الدنيا والآخرة «ويهديك صراطاً مستقيماً» أي بما يشرعه لك من الشع العظيم والدين القويم «وبنصرك الله نصراً عزيزاً» أي بسبب خضوعك لأمر الله عز وجل يرفك الله وينصرك على أعدائك كما جاء في الحديث الصحيح «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد الله عز وجل إلا رفعه الله تعالى»^(٢) وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ما عاقبت أي في الدنيا والآخرة أحداً عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله تبارك وتعالى فيه.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرْدَادُوا إِيمَنَّا مَعَ إِيمَنِهِمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ لِيُنْتَجِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُرْفَقَتَ جَنَّتَ بَحْرِي مِنْ تَعْنَبِهَا الْأَنْهَارِ خَلَدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَرَوْا عَظِيمًا ﴿٢﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَفَّقَتِ وَالْمُسْرِكِينَ وَالْمُسْرِكَتِ الظَّالِمَيْنَ كَبَالَهُ طَلَكَ أَسْوَءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةً أَلْسُونَهُ وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٣﴾ وَلَهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٤﴾

يقول تعالى: «هو الذي أنزل السكينة» أي جعل الطمأنينة، قاله ابن عباس رضي الله عنهم وعنده: الرحمة وقال قتادة: الوقار في قلوب المؤمنين، وهم الصحابة رضي الله عنهم، يوم الحديبية الذين استجابوا الله ولرسوله وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلما اطمأن قلوبهم بذلك

(١) أخرجه البخاري في الشروط باب ١٥ ، وأبو داود في الجihad باب ١٥٨ ، وأحمد في المسند ٣٢٩ / ٤ . ٣٣٠

(٢) أخرجه مسلم في البر حديث ٦٩ ، والترمذى في البر باب ٨٢ ، والدارمى في الزكاة باب ٣٤ ، ومالك في الصدقة حديث ١٢ ، وأحمد في المسند ٢٨٦ / ٢ .

واستقرت زادهم إيماناً مع إيمانهم، وقد استدل بها البخاري وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب، ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَهُ جنود السموات والأرض﴾ أي ولو أرسل عليهم ملكاً واحداً لأباد خصراهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال، لما له في ذلك من الحكمة البالغة والحججة القاطعة والبراهين الدامغة، ولهذا قال جلت عظمته: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيًّا حَكِيمًا﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿لِيدْخُلَ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ قد تقدم حديث أنس رضي الله عنه حين قالوا: هنيئاً لك يا رسول الله، هذا لك فما لنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لِيدْخُلَ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي خطاياهم وذنبهم فلا يعاقبهم عليها، بل يغفو ويصفح ويغفر ويستر ويرحم ويشكر ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ كقوله جل وعلا: ﴿فَمَنْ زَحْرَجَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغَرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥ الآية].

وقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِينَ بِإِلَهٍٍ ظَنِّ السُّوءِ﴾ أي يتهمون الله تعالى في حكمه ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية، ولهذا قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضَبُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلَعْنَهُمْ﴾ أي أبعدهم من رحمته ﴿وَأَعْدَلَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاعَتْ مَصِيرًا﴾ ثم قال عز وجل مؤكداً لقدرته على الانتقام من الأعداء أعداء الإسلام ومن الكفرا والمنافقين ﴿وَلَهُ جنود السموات والأرض وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّزُوهُ وَتُؤْقِرُوهُ وَتُسْبِحُوهُ
بُكْرَةً وَأَصِيلًا إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ
عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ أي على الخلق ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أي للمؤمنين ﴿وَنَذِيرًا﴾ أي للكافرين وقد تقدم تفسيرها في سورة الأحزاب. ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّزُوهُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وغير واحد: تعظمه ﴿وَتُؤْقِرُوهُ﴾ من التوفيق وهو الاحترام والإجلال والإعظام ﴿وَتُسْبِحُوهُ﴾ أي تسبحون الله ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي أول النهار وأخره.

ثم قال عز وجل لرسوله ﷺ تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ كقوله جل وعلا: ﴿مَنْ يَطِعُ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ويعلم ضمائرهم وظواهرهم فهو تفسير ابن كثير / ج ٧ / ٢٠٤ م

تعالى هو المبایع بواسطه رسوله الله ﷺ قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يَقْاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعِدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التُّورَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنَ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَاعُتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفُوزُ الْعَظِيمُ» [التوبه: ١١١].

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا الفضل بن يحيى الأنباري: حدثنا علي بن بكار عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سل سيفه في سبيل الله فقد بايع الله» وحدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، أخبرنا جرير عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ في الحجر «وَاللَّهُ لِيَعْلَمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ يَنْظُرُ بِهِمَا وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ وَيَشْهُدُ عَلَى مَنْ اسْتَلَمَهُ بِالْحَقِّ فَمَنْ اسْتَلَمَهُ فَقَدْ بايعَ اللَّهَ تَعَالَى» ثم قرأ رسول الله ﷺ «إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَ اللَّهَ يَدَ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» ولهذا قال تعالى هنا: «فَمَنْ نَكَثَ إِنَّمَا يَنْكِثُ عَلَى نَفْسِهِ» أي إنما يعود وبال ذلك على الناكث والله غني عنه «وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيَؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا» أي ثواباً جزيلاً. وهذه البيعة هي بيعة الرضوان وكانت تحت شجرة سمر^(١) بالحدبية، وكان الصحابة رضي الله عنهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ قيل ألفاً وثلاثمائة، وقيل وأربعمائة، وقيل وخمسمائة، والأوسط أصح.

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك

قال البخاري^(٢): حدثنا قتيبة، حدثنا سفيان عن عمرو عن جابر رضي الله عنه قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة ورواه مسلم^(٣) من حديث سفيان بن عيينة به، وأخر جاه أيضاً من حديث الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن جابر رضي الله عنه قال: كنا يومئذ ألفاً وأربعمائة، ووضع يده في ذلك الماء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه حتى رووا كلهم^(٤)، وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية، وأن رسول الله ﷺ أعطاهم سهماً من كناته فوضعوه في بئر الحديبية، فجاشت^(٥) بالماء حتى كفتهم فقيل لجابر رضي الله عنه: كم كتم يومئذ؟ قال: كنا ألفاً وأربعمائة ولو كنا مائة ألف لكفانا^(٦)، وفي رواية في الصحيحين عن

(١) شجرة سمر: شجرة الطلح، وهي شجرة طولية عظيمة.

(٢) تفسير سورة ٤٨، باب ١.

(٣) كتاب الإمارة، حديث ٦٧، ٦٩.

(٤) أخرجه البخاري في المناقب باب ٢٥، ومسلم في الفضائل حديث ٦.

(٥) جاشت: أي فارت.

(٦) أخرجه البخاري في المناقب باب ٢٥، ومسلم في الإمارة حديث ٧٢، ٧٣.

جابر رضي الله عنه أنهم كانوا خمس عشرة مائة^(١).

وروى البخاري من حديث قتادة قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة، قلت فإن جابر بن عبد الله رضي الله عنهم قال كانوا أربع عشرة مائة قال رحمة الله: وهم، هو حديثي أنهم كانوا خمس عشرة مائة، قال البيهقي: هذه الرواية تدل على أنه كان في القديم يقول خمس عشرة مائة ثم ذكر الوهم فقال أربع عشرة مائة، وروى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهم كانوا ألفاً وخمسين وخمسة وعشرين، والمشهور الذي رواه غير واحد عنه أربع عشرة مائة، وهذا هو الذي رواه البيهقي عن الحاكم عن الأصم عن العباس الدوري عن يحيى بن معين عن شابة بن سوار عن شعبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفاً وأربعين مائة، وكذلك هو الذي في رواية سلمة بن الأكوع ومعقل بن يسار والبراء بن عازب رضي الله عنهم، وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازي والسير، وقد أخرج صاحبا الصحيح من حديث شعبة عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه يقول: كان أصحاب الشجرة ألفاً وأربعين مائة وكانت أسلم يومئذ ثمن المهاجرين.

روى محمد بن إسحاق في السيرة عن الزهري عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أنهما حدثاه قالا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت لا يريد قتالاً، وساق معه الهدي سبعين بذنة، وكان الناس سبعمائة رجل كل بذنة عن عشرة نفر، وكان جابر بن عبد الله رضي الله عنهما فيما بلغني عنه يقول: كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة^(٢)، كذا قال ابن إسحاق وهو معدود من أوهامه فإن المحفوظ في الصحيحين أنهم كانوا بضع عشرة مائة، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه إلى مكة، ليبلغ عنه أشرف قريش ما جاء له فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة منبني عدي بن كعب من يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلطي عليها، ولكنني أدلك على رجل أعز بها مني عثمان بن عفان رضي الله عنه، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته. فخرج عثمان رضي الله عنه إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين

(١) آخر جه البخاري في المغازى باب ٣٥، ومسلم في الإمارة حديث ٨٠.

(۲) سیرہ ابن هشام ۳۰۸، ۳۰۹ / ۲

دخل مكة أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان رضي الله عنه حتى أتى أبا سفيان وعظاماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان رضي الله عنه حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان رضي الله عنه قد قتل، قال ابن اسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: «لا نبرح حتى نناجز القوم».

ودعا رسول الله الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت، وكان جابر بن عبد الله رضي الله عنهمما يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت ولكن بايعنا على أن لا نفر، فبائع الناس ولم يتختلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخوبني سلمة، فكان جابر رضي الله عنه يقول: والله لکأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته قد ضبأ^(١) إليها يستر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي كان من أمر عثمان رضي الله عنه باطل^(٢).

وذكر ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير رضي الله عنهمما قريراً من هذا السياق، وزاد في سياقه أن قريشاً بعثوا وعندهم عثمان رضي الله عنه، سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص إلى رسول الله ﷺ، وبينما هم عندهم إذ وقع كلام بين بعض المسلمين وبعض المشركين، وتراموا بالنبل والحجارة وصاح الفريقيان كلاهما، وارتنهن كل من الفريقين من عنده من الرسل، ونادي منادي رسول الله ﷺ: ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله ﷺ وأمر بالبيعة، فأخرجوا على اسم الله تعالى فباعوا، فسار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة فباعوه على أن لا يفروا أبداً. فأرعب ذلك المشركين وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين، ودعوا إلى المواجهة والصلح.

وقال الحافظ أبو بكر البهقي: أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا تمام، حدثنا الحسن بن بشر، حدثنا الحكم بن عبد الملك عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما أمر رسول الله ﷺ بيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رضي الله عنه رسول رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، فبائع الناس فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إن عثمان في حاجة الله تعالى وحاجة رسوله» فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان رضي الله عنه خيراً من أيديهم لأنفسهم. قال ابن هشام وحدثني من أثق به

(١) ضبأ إليها: أي استر بها.

(٢) سيرة ابن هشام ٣١٥ / ٢، ٣١٦.

عمن حدثه بإسناد له عن ابن مليكة عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: بايع رسول الله ﷺ لعثمان رضي الله عنه، فضرب بإحدى يديه على الأخرى، وقال عبد الملك بن هشام النحوي: فذكر وكيع عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي قال: إن أول من بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان أبو سنان الأستدي^(١)، وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي: حدثنا سفيان، حدثنا ابن أبي خالد عن الشعبي قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة كان أول من انتهى إليه أبو سنان الأستدي فقال: أبسط يدك أبايعك. فقال النبي ﷺ: «علام تبايني؟» فقال أبو سنان رضي الله عنه: على ما في نفسك، هذا أبو سنان وهب الأستدي رضي الله عنه.

وقال البخاري^(٢): حدثنا شجاع بن الوليد أنه سمع النضر بن محمد يقول: حدثنا صخر عن نافع رضي الله عنه قال: إن الناس يتحدثون أن ابن عمر رضي الله عنهما أسلم قبل عمر وليس كذلك، ولكن عمر رضي الله عنه يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار، أن يأتي به، ليقاتل عليه رسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة، وعمر رضي الله عنه لا يدرى بذلك، فبايعه عبد الله رضي الله عنه، ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر رضي الله عنه، وعمر رضي الله عنه يستلثم^(٣) للقتال، فأخبره أن رسول الله ﷺ يبايع تحت الشجرة، فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ وهي التي يتحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر رضي الله عنهما. ثم قال البخاري، وقال هشام بن عمار: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عمر بن محمد العمري، أخبرني نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن الناس كانوا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية قد تفرقوا في ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ فقال يعني عمر رضي الله عنه: يا عبد الله انظر ما شأن الناس قد أحذقوا برسول الله ﷺ، فوجدهم يبايعون فبایع، ثم رجع إلى عمر رضي الله عنه، فخرج فبایع.

وقد أسنده البهقي عن أبي عمرو الأديب عن أبي بكر الإسماعيلي عن الحسن بن سفيان، عن دحيم، حدثني الوليد بن مسلم فذكره، وقال الليث عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه، قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعينأة فبایعناه، وعمر رضي الله عنه آخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة وقال: بایعناه على أن لا نفر ولن نبايعه على الموت. رواه مسلم^(٤) عن قتيبة عنه.

وروى مسلم^(٥) عن يحيى بن يحيى عن يزيد بن زريع عن خالد عن الحكم بن عبد الله الأعرج، عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس،

(١) سيرة ابن هشام ٢/٣١٦.

(٢) كتاب المغازى باب ٣٥.

(٣) استلثم: أي لبس ما عنده من عدة الحرب.

(٤) كتاب الإمارة حديث ٦٧.

(٥) كتاب الإمارة حديث ٦٨.

وأنا رافع غصناً من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، قال: ولم نباعيه على الموت ولكن بايعناه على أن لا نفر. وقال **البخاري**^(١): حدثنا المكي بن إبراهيم عن يزيد بن أبي عبيد عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال يزيد: قلت يا أبا مسلمة على أي شيء كتمتبايون يومئذ؟ قال: على الموت.

وقال **البخاري**^(٢) أيضاً: حدثنا أبو عاصم! حدثنا يزيد بن أبي عبيد عن سلمة رضي الله عنه قال: بايعت رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ثم تحيطت فقال ﷺ: «يا سلمة ألا تباع؟» قلت: قد بايمنت، قال ﷺ: «أقبل فبائع». فدنوت فبايته، قلت: علام باينته يا سلمة؟ قال: على الموت. وأخرجه مسلم^(٣) من وجه آخر عن يزيد بن أبي عبيد، وكذلك روى **البخاري** عن عباد بن تميم أنهم بايعواه على الموت.

وقال **البيهقي**: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو الفضل بن إبراهيم، حدثنا أحمد بن سلمة، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا أبو عامر العقدي، حدثنا عبد الملك بن عمرو، حدثنا عكرمة بن عمار اليمامي عن إيساس بن سلمة عن أبيه سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: قدمتنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة، وعليها خمسون شاة لا ترويها، فقد رسول الله ﷺ على جباهها يعني الركي^(٤)، فإما دعا وإما بقص فيها فجاشت فسقينا واستقينا. قال: ثم إن رسول الله ﷺ دعا إلى البيعة في أصل الشجرة، فبايته أول الناس ثم بايع وبایع حتى إذا كان في وسط الناس قال ﷺ: «بایعني يا سلمة قال: فقلت يا رسول الله: قد بايتك في أول الناس قال ﷺ: «وأيضاً» قال ورآني رسول الله ﷺ عزلاً^(٥) فأعطاني حجفة أو درقة^(٦)، ثم بايع حتى إذا كان في آخر الناس، قال ﷺ: «ألا تباع يا سلمة؟» قال: قلت يا رسول الله قد بايتك في أول الناس وأوسع لهم، قال ﷺ: «وأيضاً» فبايته الثالثة، فقال رسول الله ﷺ: «يا سلمة أين حجفتك أو درقتك التي أعطيتك؟» قال: قلت يا رسول الله لقيني عامر عزلاً فأعطيتها إياه فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «إنك كالذى قال الأول للهم ابغنى حبيباً هو أحب إلي من نفسي».

قال: ثم إن المشركين من أهل مكة راسلوا في الصلح حتى مشى بعضنا في بعض فاصطلحنا. قال: وكنت خادماً لطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أنسقي فرسه وأحسنه وأكل من

(١) كتاب الجهاد باب ١١٠.

(٢) كتاب الأحكام باب ٤٣.

(٣) كتاب الإمارة حديث ٨٠.

(٤) الركي: البئر، وجباها: ما حولها.

(٥) الأعزل: الذي ليس معه سلاح.

(٦) الحجفة: ترس صغير، والدرقة: نوع من التروس.

طعامه، وتركت أهلي ومالي مهاجراً إلى الله ورسوله، فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة واحتلط بعضاً ببعض أتت شجرة فكسحت شوكها، ثم اضطجعت في أصلها في ظلها، فأتاني أربعة من مشركي أهل مكة، فجعلوا يقعنون في رسول الله ﷺ فأبغضتهم وتحولت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحمهم وأضطجعوا، في بينما هم كذلك إذ نادى مناد من أسفل الوادي: يا للمهرجين قتل ابن زئيم! فاخترطت سيفي فشدت على أولئك الأربع، وهم رقود، فأخذت سلاحمهم وجعلته ضغثاً في يدي ثم قلت: والذي كرم وجه محمد ﷺ لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه! قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ قال: وجاء عمي عامر برجل من العلات يقال له مكرز من المشركين يقوده حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ وقال: «دعوهם يكن لهم بدء الفجور وثناء» فعفا عنهم رسول الله ﷺ وأنزل الله عز وجل: «وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم بيطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم» الآية، وهكذا رواه مسلم^(١) عن إسحاق بن إبراهيم بن راهويه بسنده نحوه أو قريباً منه.

وثبت في الصحيحين من حديث أبي عوانة عن طارق عن سعيد بن المسيب قال: كان أبي من بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فانطلقنا من قبل حاجين فخفى علينا مكانها، فإن كان تبييت لكم فأتمتم أعلم، وقال أبو بكر الحميدي: حدثنا سفيان، حدثنا أبو الزبير، حدثنا جابر رضي الله عنه قال، لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة وجدنا رجلاً من يقال له الجد بن قيس مختبئاً تحت إبط بيته، رواه مسلم^(٢) من حديث ابن جريج عن ابن الزبير به. وقال الحميدي أيضاً: حدثنا سفيان عن عمرو أنه سمع جابراً رضي الله عنه قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعينأمة فقال لنا رسول الله ﷺ: «أتمتم خير أهل الأرض اليوم»^(٣) قال جابر رضي الله عنه: لو كنت أبصر لأرىكم موضع الشجرة، قال سفيان إنهم اختلفوا في موضعها آخر جاه من حديث سفيان، وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا يونس حدثنا الليث عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد من بايع تحت الشجرة».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن هارون الفلاس المخرمي، حدثنا سعيد بن عمرو الأشعري حدثنا محمد بن ثابت العبدى عن خداش بن عياش عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل من بايع تحت الشجرة كلهم الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر» قال: فانطلقنا نبتدره فإذا رجل قد أضل بيته فقلنا تعال فبائع. فقال: أصيبي بيته

(١) كتاب الجهاد حديث ١٣٢ ، وأخرجه أحمد في المسند ٤٩ / ٤.

(٢) كتاب الإمارة حديث ٦٩.

(٣) آخرجه البخاري في المغازى باب ٣٥.

(٤) المسند ٣٥٠ / ٣.

أحب إلى من أن أبایع وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا عبید الله بن معاذ، حدثنا أبي، حدثنا قرة عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من يصعد الشنية ثنية المرار^(١) فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل» فكان أول من صعد خيلبني الخزرج ثم تبادر الناس بعد، فقال النبي ﷺ: «كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر» فقلنا: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ. فقال: والله لأن أجد ضالتي أحب إلى من أن يستغفر لي صاحبكم، فإذا هو رجل ينشد ضالته، رواه مسلم^(٢) عن عبید الله به.

وقال ابن جريج: أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابرًا رضي الله عنه يقول: أخبرتني أم مبشر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة رضي الله عنها: «لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد» قالت: بلّى يا رسول الله، فانهارها فقالت لحفصة رضي الله عنها « وإن منكم إلا واردها » [مريم: ٧١] فقال النبي ﷺ: قد قال الله تعالى: « ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جئناهم » [مريم: ٧٢] رواه مسلم ^(٣)، وفيه أيضاً عن قتيبة عن الليث عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه قال: إن عبداً لحاطب بن أبي بلترة جاء يشكو حاطباً فقال: يا رسول الله ليدخلن حاطب النار فقال رسول الله ﷺ: « كذبت لا يدخلها فإنه قد شهد بدرأً والحدبية » ^(٤) ولهذا قال تعالى في الثناء عليهم: « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » كما قال عز وجل في الآية الأخرى: « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قرباً » [الفتح: ١٨].

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخْلَفُونَ مِنَ الْأَغْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُنَا فَأَسْتَغْفِرُ لَنَا يَقُولُونَ بِالسِّنَّةِ هُمْ مَا لَيْسَ فِي
فُلُوْبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ يَكُنْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ يَكُنْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَيْرًا بَلْ ظَنَنتُمْ أَنَّ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِهِمْ أَبْدًا وَزَوَّجَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ
ظَرَبَ السَّوَاءَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكُفَّارِ سَعِيرًا وَلَهُ
مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفُرُ لَمَنْ شَاءَ وَيَعْذِبُ مَنْ شَاءَ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا

يقول تعالى مخبراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهلיהם وشغلهم وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ فاعتذروا بشغلهم بذلك وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد بل على وجه

(١) ثنة المرار: موضع بين مكة والمدينة.

(٢) كتاب المناقب: حديث ١٢

(٣) كتاب فخر العجم حادثة حلب ١٦٣

(٤) كتاب فضائل الصحابة جلد ١٦٢، ١٦٣.

القيقة والمصانعة، ولهذا قال تعالى: ﴿يقولون بالستهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً﴾ أي لا يقدر أحد أن يرد ما أراده الله فيكم تعالى وتقدس، وهو العليم بسرائركم وضمائركم وإن صانعتمنا ونافقتمونا، ولهذا قال تعالى: ﴿بل كان الله بما تعلمون خيراً﴾.

ثم قال تعالى: ﴿بل ظنتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً﴾ أي لم يكن تخلفكم تخلف معدور ولا عاص بل تخلف نفاق ﴿بل ظنتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً﴾ أي اعتقدتم أنهم يقتلون و تستأصل شأفتهم، و تستباد حضراةهم ولا يرجع منهم مخبر ﴿و ظنتم ظن السوء و كنتم قوماً بوراً﴾ أي هلكى، قاله ابن عباس رضي الله عنهمما ومجاهد وغير واحد، وقال قتادة: فاسدين^(١)، وقيل هي بلغة عمان. ثم قال تعالى: ﴿و من لم يؤمن بالله ورسوله﴾ أي من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله فإن الله تعالى سيعذبه في السعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر. ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السموات والأرض ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء و كان الله غفوراً رحيم﴾ أي لمن تاب إليه وأناب وخضع لديه.

سَيِّمُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا أَنْظَلَقْتُمُ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَنْبِعُكُمْ بِرِيدُونَ كَمَنَ أَنَّ اللَّهَ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكَ اللَّهُ مِنْ قَبْلٍ فَسَيِّمُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَا بَلْ كَانُوا لَا يَقْهَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا

يقول تعالى مخبراً عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم إلى خير يفتتحونها أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجاولتهم ومصايبتهم، فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن لا يأذن لهم في ذلك معاقبة لهم من جنس ذنبهم فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمعانيم خير وحدهم، لا يشاركون فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعاً ولا قدرأً ولهذا قال تعالى: ﴿يريدون أن يبدلو كلام الله﴾ قال مجاهد وقتادة وجويري وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية واختاره ابن جرير^(٢).

وقال ابن زيد هو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكُمُ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذِنُوكُمْ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِي أَبْدًا وَلَنْ تَقَاتِلُوا مَعِي عَدُوًا إِنْكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقَعْدَةِ أَوْلَى مَرَةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبه: ٨٣] وهذا الذي قاله ابن زيد فيه نظر، لأن هذه الآية التي في براءة نزلت في غزوة تبوك وهي متأخرة عن غزوة الحديبية، وقال ابن جريج ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ يعني بتشييطهم

(١) تفسير الطبرى ٢٤١ / ١١.

(٢) تفسير الطبرى ٣٤٣ / ١١.

ال المسلمين عن الجهاد ﴿فَلَن تَبْعُدُنَا كَذَلِكَمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِ﴾ أي وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَا﴾ أي أن نشرككم في المغانم ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْهَمُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ولكن لا فهم لهم .

قُلْ لِّمُحَاجَفِينَ مِنَ الْأَعَرَابِ سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَئِيْ بَأْسٍ شَدِيدٍ لَّقَاتَلُوكُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطْبِعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّتُمْ مِنْ قَبْلٍ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَابِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلُهُ جَنَّتِ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَعْذِبُهُ

عَذَابًا أَلِيمًا ١٦

اختلاف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم الذين هم أولو باس شديد على أقوال [أحددها] أنهم هوازن، رواه شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير أو عكرمة أو جميماً، ورواه هشيم عن أبي بشر عنهم وبه يقول قتادة في رواية عنه [الثاني] ثقيف، قاله الضحاك. [الثالث] بنو حنيفة، قاله جوير ورواه محمد بن إسحاق عن الزهرى وروى مثله عن سعيد وعكرمة. [الرابع] هم أهل فارس، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهم، وبه يقول عطاء ومجاحد وعكرمة في إحدى الروايات عنه. وقال كعب الأحبار: هم الروم، وعن ابن أبي ليلى وعطاء والحسن وقتادة: هم فارس والروم، وعن مجاهد: هم أهل الأوثان، وعن أبي أيضاً: هم رجال أولو باس شديد، ولم يعين فرقة، وبه يقول ابن جريج وهو اختيار ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق القواريري عن معمراً عن الزهرى في قوله تعالى: ﴿سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَئِيْ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: لم يأت أولئك بعد.

وحدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان عن ابن أبي خالد عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَئِيْ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: هم البارزون قال حدثنا سفيان عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغراً الأعين ذلف الأنف، كأن وجوههم المجان المطرقة» قال سفيان: هم الترك، قال ابن أبي عمر: وجدت في مكان آخر، حدثنا ابن أبي خالد عن أبيه قال: نزل علينا أبو هريرة رضي الله عنه ففسر قول رسول الله ﷺ: «تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر» قال: هم البارزون يعني الأكراد، وقوله تعالى: ﴿تَقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ يعني شرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم، ولهم النصرة عليهم أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار.

ثم قال عز وجل: ﴿فَإِنْ تُطْبِعُوا﴾ أي تستجيبوا وتتفروا في الجهاد وتؤدوا الذي عليكم فيه ﴿يُؤْتِكُمْ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّتُمْ مِنْ قَبْلِ﴾ يعني زمن الحديبية حيث دعيم فتخلفتم ﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. ثم ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد فمنها لازم كالعمى

والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذي يطرأ أياماً ثم يزول، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعذار الالزمة حتى يبرأ. ثم قال تبارك وتعالى مرغباً في الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿وَمَنْ يَطِعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلُهُ جَنَّاتٍ تَحْتَ الْشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّسْكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (١٩) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٍ يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا يَأْتُونَكَ تَحْتَ الْشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّسْكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (١٩) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٍ يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وقد تقدم ذكر عدتهم وأنهم كانوا ألفاً وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية، قال البخاري ^(١): حدثنا محمود، حدثنا عبيد الله عن إسرائيل عن طارق أن عبد الرحمن رضي الله عنه قال: انطلقت حاجاً فمررت بقوم يصلون فقلت: ما هذا المسجد؟ قالوا هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته فقال سعيد: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فلما خرجنا من العام المقبل سيناها فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم، فأئتم أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي من الصدق والوفاء والسمع والطاعة (٢) فأنزل السكينة وهي الطمأنينة (٣) عليهم وأثابهم فتحاً قريباً وهو ما أجرى الله عز وجل على أيديهم من الصلاح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خير وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم وما حصل لهم من العز والنصر والرفة في الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى: (٤) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٍ يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا عبيد الله بن موسى أخبرنا موسى يعني ابن عبيدة، حدثني إيساً بن سلامة عن أبيه قال: بينما نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: أيها الناس، البيعة ال碧عه نزل روح القدس، قال: فثرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فباعنه، فذلك قول الله تعالى: (٥) لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا يَأْتُونَكَ تَحْتَ الْشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّسْكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا

قال: فباع رسول الله ﷺ لعثمان رضي الله عنه بإحدى يديه على الأخرى فقال الناس: هنئاً لابن عفان يطوف بالبيت ونحن هنا فقال رسول الله ﷺ: «لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف».

(١) وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَعَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَهُمْ هَذِهِ وَكَانَ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَرَتَكُونَ مَاءِيَةً

لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِي كُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٣﴾ وَلَوْ قَاتَلُوكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَكُمْ وَإِنَّا وَلَا نُصِيرُكُمْ ﴿٤﴾ سَنَةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةً إِلَّا بَدَيَالًا ﴿٥﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِي كُمْ عَنْهُمْ بِسَطِينٍ مَّكَّةَ مِنْ بَعْدِهِ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٦﴾

قال مجاهد في قوله تعالى: «وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذ منها» هي جميع المغانم إلى اليوم «فعجل لكم هذه» يعني فتح خير، وروى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهم «فعجل لكم هذه» يعني صلح الحديبية^(١) «وكف أيدي الناس عنكم» أي لم ينلوكم سوء مما كان أعداؤكم أضموه لكم من المحاربة والقتال، وكذلك كف أيدي الناس عنكم الذين خلفتموهن وراء ظهوركم عن عيالكم وحربيكم «ولتكون آية للمؤمنين» أي يعتبرون بذلك، فإن الله تعالى حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء مع قلة عددهم، ولعلهموا بصنع الله هذا بهم إنه العالم بعواقب الأمور، وإن الخبرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه في الظاهر كما قال عز وجل «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم» [البقرة: ٢١٦] «ويهديكم صراطاً مستقيماً» أي بسبب انتقاداتكم لأمره واتبعكم طاعته، وموافقتكم رسوله ﷺ.

وقوله تبارك وتعالى: «وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها و كان الله على كل شيء قادرًا» أي وغنية أخرى وفتحا آخر معيناً لم تكونوا تقدرون عليها، قد يسرها الله عليكم وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون، وقد اختلف المفسرون في هذه الغنية ما المراد بها فقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهم هي خير، وهذا على قوله عز وجل: «فعجل لكم هذه» إنها صلح الحديبية، وقال الضحاك وابن إسحاق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال قتادة: هي مكة واختاره ابن جرير^(٢)، وقال ابن أبي ليلى والحسن البصري: هي فارس والروم، وقال مجاهد: هي كل فتح وغنية إلى يوم القيمة. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة عن سماك الحنفي عن ابن عباس رضي الله عنهم «وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها» قال: هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم.

وقوله تعالى: «ولو قاتلوكم الذين كفروا لولوا الأذبار ثم لا يجدون ولماً ولا نصيراً» يقول عز وجل مبشرًا لعباده المؤمنين، بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولا نهزم جيش الكفر فاراً مدبراً لا يجدون ولماً ولا نصيراً، لأنهم محاربون للرسول وللحربة المؤمنين. ثم قال تبارك وتعالى: «سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً» أي هذه سنة الله وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن إلا نصر الله

(١) انظر تفسير الطبرى ٣٥١ / ١١.

(٢) تفسير الطبرى ٣٥٣ / ١١.

الإيمان على الكفر فرفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأولئك المؤمنين نصرهم على أعدائهم من المشركين مع قلة عدد المسلمين وعدهم وكثرة المشركين وعددهم.

وقوله سبحانه وتعالى: «وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما ت عملون بصيراً» هذا امتنان من الله على عباده المؤمنين حين كف أيدي المشركين عنهم فلم يصل إليهم منهم سوء، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلواهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاً من الفريقين وأوجد بينهم صلحًا فيه خير للمؤمنين وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة، وقد تقدم في حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه حين جاؤوا بأولئك السبعين الأسرى، فأوقفوهم بين يدي رسول الله ﷺ فنظر إليهم فقال: «أرسلوهم يكن لهم بدء الفجور وثناء». قال وفي ذلك أنزل الله عز وجل: «وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم» الآية.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد عن ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة بالسلاح، من قبل جبل التنعيم، يريدون غرة رسول الله ﷺ فدعوا عليهم فأخذوا. قال عفان: فعفا عنهم ونزلت هذه الآية: «وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم»^(٢) ورواه مسلم وأبو داود في سننه والترمذى والنمسائى في التفسير من سننهما من طرق عن حماد بن سلمة به.

وقال أحمد^(٣) أيضاً: حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا الحسين بن واقد، حدثنا ثابت البانى عن عبد الله بن مغفل المزنى رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ وعلى بن أبي طالب رضي الله عنه. وسهيل بن عمرو بين يديه فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فأخذ سهيل بيده وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم، اكتب في قضيتنا ما نعرف فقال: «اكتب باسمك اللهم - وكتب - هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة» فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله اكتب في قضيتنا ما نعرف فقال اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله «فيينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثة شاباً عليهم السلاح، فشاروا في وجوهنا فدعوا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله تعالى بأسمائهم فقمنا إليهم فأخذناهم فقال رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحد؟ أو هل جعل لكم أحداً ماناً؟

(١) المستند ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ٢٩٠.

(٢) آخرجه مسلم في الجهاد حديث ١٣٣، وأبو داود في الجهاد باب ١٢٠ ، والترمذى في تفسير سورة ٤٨ باب ٣.

(٣) المستند ٨٦/٤، ٨٧.

قالوا: لا ، فخلى سبيلهم فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرْتُكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ الآية رواه النسائي من حديث حسين بن واقد به .

وقال ابن جرير^(١): حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب القمي، حدثنا جعفر عن ابن أبي زريق قال: لما خرج النبي ﷺ بالهدي وانتهى إلى ذي الحليفة قال له عمر رضي الله عنه: يا نبي الله، تدخل على قوم لك حرب بغير سلاح ولا كراع؟ قال: فبعث ﷺ إلى المدينة فلم يدع فيها كرعاً ولا سلاحاً إلا حمله، فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل فسار حتى أتى منى، فنزل بمنى فأتاها عينه أن عكرمة بن أبي جهل قد خرج عليك في خمسمائة، فقال لخالد بن الوليد رضي الله عنه: «يا خالد هذا ابن عمك قد أتاك في الخيل» فقال خالد رضي الله عنه: أنا سيف الله وسيف رسوله، فيومئذ سمي سيف الله، فقال: يا رسول الله ابعثني أين شئت، فبعثه على خيل فلقى عكرمة في الشعب فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد في الثانية فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد في الثالثة فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَةَ﴾ - إلى قوله تعالى - ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال فحف الله عز وجل النبي ﷺ عنهم من بعد أن أظفروه عليهم لبقايا من المسلمين كانوا يقروا فيها كراهية أن تطأهم الخيل .

ورواه ابن أبي حاتم عن ابن أبي زريق بنحوه، وهذا السياق فيه نظر فإنه لا يجوز أن يكون عام الحديثية، لأن خالداً رضي الله عنه لم يكن أسلم بل قد كان طليعة المشركين يومئذ، كما ثبت في الصحيح، ولا يجوز أن يكون في عمرة القضاء لأنهم قاضوه على أن يأتي في العام المقبل فيعتمر، ويقيم بمكة ثلاثة أيام، ولما قدم ﷺ لم يمانعوه ولا حاربوه ولا قاتلوه .

إذا قيل: فيكون يوم الفتح؟ فالجواب: ولا يجوز أن يكون يوم الفتح لأنه لم يسق عام الفتح هدياً، وإنما جاء محارباً مقاتلاً في جيش عرم، فهذا السياق فيه خلل وقد وقع فيه شيء فليتأمل والله أعلم .

وقال ابن إسحاق: حدثني من لا أنتم عن عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنه قال: إن قريشاً أبعشوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين، وأمرتهم أن يطعنوا بعسكراً رسول الله ﷺ ليصيبوا من أصحابه أحداً فأخذوا أحداً، فأتي بهم رسول الله ﷺ فعفا عنهم وخلى سبيلهم، وقد كانوا رموا إلى عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل. قال ابن إسحاق: وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيكُمْ عَنْهُمْ﴾ الآية. وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً يقال له ابن زنيم اطلع على الثانية من الحديثية، فرماه المشركون بسهم فقتلواه، فبعث رسول الله ﷺ خيلاً

فأتوه باثني عشر فارساً من الكفار فقال لهم: «هل لكم علي عهد؟ هل لكم علي ذمة؟» قالوا: لا ، فأرسلهم وأنزل الله تعالى في ذلك: «وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم» الآية^(١).

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَى مَعْكُوفًا أَن يَلْبُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطْعُوهُمْ فَتُصِيبُكُم مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعْذَبَنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ كَلَمَةً الْقَوَى وَكَانُوا أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا

يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركي العرب من قريش، ومن مالأهم على نصرتهم على رسول الله ﷺ «هم الذين كفروا» أي هم الكفار دون غيرهم «وصدوكم عن المسجد الحرام» أي أتمم أحق به وأنتم أهله في نفس الأمر «والهدي معكوفاً أن يبلغ محله» أي وصدوا الهدي أن يصل إلى محله وهذا من بغيهم وعنادهم، وكان الهدي سبعين بدنة كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وقوله عز وجل: «ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات» أي بين ظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم، لكن سلطناكم عليهم فقتلتموهن وأبدتم خضراءهم ولكن بين إفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل، ولهذا قال تعالى: «لم تعلموهم أن تطؤوهن فتصيبكم منهم معرة» أي إثم وغرامة «بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء» أي يؤخر عقوبتهن ليخلاص من بين ظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام، ثم قال تبارك وتعالى: «لو تزيلوا» أي لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين ظهرهم «لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً» أي لسلطناكم عليهم فلقتلتموهن قتلاً ذريعاً.

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أبو الزنابع روح بن الفرج، حدثنا عبد الرحمن بن أبي عباد المكي، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن سعد مولىبني هاشم، حدثنا حجر بن خلف قال: سمعت عبد الله بن عوف يقول: سمعت جنيد بن سبع يقول: قاتلت رسول الله ﷺ أول النهار كفراً، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً، وفيما نزلت «ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات» قال: كنا تسعه نفر سبعة رجال وامرأتين، ثم رواه من طريق أخرى عن محمد بن عباد المكي به، وقال فيه عن أبي جمدة جنيد بن سبع ذكره، والصواب أبو جعفر حبيب بن سبع، ورواه ابن أبي حاتم من حديث حجر بن خلف به: وقال: كنا ثلاثة رجال وتسع نسوة،

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢/٣١٤، وتفسير الطبرى ١١/٣٣٥، ٣٥٦.

وفيما نزلت ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات﴾ وقال ابن أبي حاتم، حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري. حدثنا عبد الله بن عثمان بن جبلة عن أبي حمزة عن عطاء عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾ يقول لو تزيل الكفار من المؤمنين لعذبهم الله عذاباً أليماً بقتلهم إياهم.

وقوله عز وجل: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمْيَةَ الْجَاهِلِيَّةَ﴾ وذلك حين أبوا أن يكتبوا باسم الله الرحمن الرحيم، وأبوا أن يكتبوا هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلْمَةَ التَّقْوَى﴾ وهي قول «لا إله إلا الله» كما قال ابن جرير عبد الله بن الإمام أحمد^(١). حدثنا الحسن بن قزعة أبو علي البصري حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا شعبة عن ثوير عن أبيه عن الطفيلي، يعني ابن أبي بن كعب عن أبيه رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «وألزمهم كلمة التقوى» قال «لا إله إلا الله»^(٢) وكذا رواه الترمذى عن الحسن بن قزعة، وقال غريب لا نعرفه إلا من حديثه، وسألت أبي زرعة عنه فلم يعرفه إلا من هذا الوجه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني الليث، حدثني عبد الرحمن بن خالد عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب أن أبو هريرة رضي الله عنه أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل» وأنزل الله في كتابه وذكر قوماً فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصفات: ٣٥]

وقال الله جل ثناؤه: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلْمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلُهَا﴾ وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله، فاستكروا عنها، واستكبروا عنها المشركون يوم الحديبية فكتابتهم رسول الله ﷺ على قضية المدة، وكذا رواه بهذه الزيادات ابن جرير^(٣) من حديث الزهرى، والظاهر أنها مدرجة من كلام الزهرى والله أعلم.

وقال مجاهد: كلمة التقوى الإخلاص، وقال عطاء بن أبي رباح هي «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قادر» وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق عن الزهرى عن عروة عن المسور ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلْمَةَ التَّقْوَى﴾ قال «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» وقال الشورى عن سلمة بن كهيل عن عبادة بن ربيع عن علي رضي الله عنه ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلْمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: «لا إله إلا الله والله أكبر» وكذا قال ابن عمر رضي الله عنهما،

(١) انظر تفسير الطبرى ٢٦٥/١١، ومسند أحمد ٥/١٣٨.

(٢) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ٤٨ باب ٤، وأحمد في المسند ٤/٣٣١، ٣٣٢.

(٣) تفسير الطبرى ٢٦٥/١١.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهمما قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمُوهُمْ كَلْمَةَ التَّقْوِيٰ﴾ قال: يقول شهادة أن لا إله إلا الله وهي رأس كل تقوى.

وقال سعيد بن جبير ﴿وَأَلْزَمُوهُمْ كَلْمَةَ التَّقْوِيٰ﴾ قال «لا إله إلا الله والجهاد في سبيله» وقال عطاء الخراساني هي «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وقال عبد الله بن المبارك عن معاذ عن الزهري ﴿وَأَلْزَمُوهُمْ كَلْمَةَ التَّقْوِيٰ﴾ قال «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». وقال قتادة ﴿وَأَلْزَمُوهُمْ كَلْمَةَ التَّقْوِيٰ﴾ قال «لا إله إلا الله» ﴿وَكَانُوا أَحْقَ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ كان المسلمين أحق بها وكانوا أهلهما ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي هو عليم بما يستحق الخير من يستحق الشر، وقد قال النسائي: حدثنا إبراهيم بن سعيد، حدثنا شبابة بن سوار عن أبي رزين عن عبد الله بن العلاء بن زير عن بسر بن عبد الله عن أبي إدريس عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه كان يقرأ ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمْيَةَ الْجَاهِلِيَّةَ﴾ ولو حميتم كما حمموا لفسد المسجد الحرام، بلغ ذلك عمر رضي الله عنه فأغاظ له فقال إنك لتعلم أني كنت أدخل على رسول الله ﷺ فتعلمني مما علمه الله تعالى، فقال عمر رضي الله عنه: بل أنت رجل عندك علم وقرآن، فاقرأ وعلم مما علمك الله تعالى ورسوله.

وهذا ذكر الأحاديث الواردة في قصة الحديبية وقضية الصلح

قال الإمام أحمد^(١): حدثنا يزيد بن هارون. أخبرنا محمد بن إسحاق بن يسار عن الزهري عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهمما قالا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت لا يريد قتالاً، وساق معه الهدي سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، فكانت كل بدنة عن عشرة، وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال: يا رسول الله هذه قريش، قد سمعت بمسيرك فخرجت معها العوذ المطافيل^(٢)، قد لبست جلود النمور يعاددون الله تعالى أن لا تدخلها عليهم عنوة^(٣) أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموه إلى كراع الغيم، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيسي وبين سائر الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله تعالى دخلوا في الإسلام وهم وأفرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش فواهلا لا أزال أجادهم على الذي بعثني الله تعالى به حتى يظهرني الله عز وجل أو تنفرد هذه السالفة».

(١) المسند ٤، ٣٢٣، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٣١.

(٢) العوذ: جمع عاذ: هي الناقة إذا وضعت، والمطافيل: النوق القريبة العهد بالنتائج معها أطفالها.

(٣) العنوة: الظهور والغلبة.

ثم أمر الناس فسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمض على طريق تخرجه على ثنية المرار والحدبية من أسفل مكة، قال فسلك بالجيش تلك الطريق، فلما رأت خيل قريش قترة الجيش قد خالفوا عن طريقهم، ركبوا راجعين إلى قريش، فخرج رسول الله ﷺ حتى إذا سلك ثنية المرار بركت ناقته فقال الناس خلأة، فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأة وما ذلك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، والله لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحمن إلا أعطيتهم إياها».

ثم قال ﷺ للناس: «انزلوا» قالوا: يا رسول الله ما بالوادي من ماء ينزل عليه الناس، فأخرج رسول الله ﷺ سهماً من كناته فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل في قليب من تلك القلب فغرزه فيه، فجاش بالماء حتى ضرب الناس عنه بعطن. فلما اطمأن رسول الله ﷺ إِذَا بَدِيلُ بْنُ وَرْقَاءِ فِي رَجَالِ مِنْ خَزَاعَةِ، فَقَالَ لَهُمْ كَوْلَهُ لَبْشَرُ بْنُ سَفِيَّانَ، فَرَجَعُوا إِلَى قَرِيشٍ فَقَالُوا: يا عشر قريش إنكم تعجلون على محمد ﷺ، وإن محمداً لم يأت لقتال إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحقه، فاتهموهם.

قال محمد بن إسحاق: قال الزهري: كانت خزاعة في عيبة رسول الله ﷺ، مشركها ومسلمها لا يخونون على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شيئاً كان بمكة، فقالوا: وإن كان إنما جاء لذلك فوالله لا يدخلها أبداً علينا عنوة، ولا يتحدث بذلك العرب، ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص أحدبني عامر بن لؤي، فلما رأه رسول الله ﷺ قال: «هذا رجل غادر» فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ، كلمه رسول الله ﷺ بنحو مما كلّم به أصحابه، ثم رجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ فبعثوا إليه الحليس بن علقمة الكناني، وهو يومئذ سيد الأحابيش، فلما رأه رسول الله ﷺ قال: «هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدي» في وجهه فبعثوا الهدي فلما رأى الهدي يسلي عليه من عرض الوادي في قلائه قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله، رجع ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إِعظاماً لما رأى فقال: يا عشر قريش لقد رأيت ما لا يحل صده الهدي في قلائه قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله، قالوا: اجلس إنما أنت أغرابي لا علم لك.

فبعثوا إليه عروة بن مسعود الثقيفي فقال: يا عشر قريش إنني قد رأيت ما يلقى منكم من تبعثون إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد وأني ولد، وقد سمعت بالذي نابكم فجمعت من أطاععني من قومي ثم جئت حتى آسيتكم بنفسي. قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهם. فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه فقال: يا محمد جسعت أوباش الناس ثم جئت بهم ليضتك لتفصها، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد نسبوا جلود النمور يعاهدون الله تعالى أن لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وائم الله بكأنني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً، قال وأبو بكر رضي الله عنه قاعد خلف رسول الله ﷺ

فقال: أMSCص بظر اللات أنحن ننكشف عنه؟ قال من هذا يا محمد؟ قال ﷺ: «هذا ابن أبي قحافة» قال: أما والله لو لا يد كانت لك عندي لكافأتك بها، ولكن هذه بها.

ثم تناول لحية رسول الله ﷺ والمغيرة بن شعبة رضي الله عنه واقف على رأس رسول الله ﷺ بالحديد، قال: فقرع يده ثم قال أمسك يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل والله أن لا تصل إليك قال ويحك ما أفضلك وأغلظك! فتبسم رسول الله قال: من هذا يا محمد؟ قال ﷺ: «هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة» قال: أغدر، وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس؟ قال: فكلمه رسول الله ﷺ بمثل ما كلام به أصحابه، وأخبره بأنه لم يأت يريد حرباً. قال فقام من عند رسول الله ﷺ، وقد رأى ما يصنع به أصحابه لا يتوضأ وضوءاً إلا ابتدروه، ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملکه وجيئت قيسر والنجاشي في ملکهما، والله ما رأيت ملکاً قط مثل محمد ﷺ في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فروا رأيكم.

قال: وقد كان رسول الله ﷺ قبل ذلك بعث خراش بن أمية الخزاعي إلى مكة، وحمله على جمل له يقال له الثعلب، فلما دخل مكة عقرت به قريش وأرادوا قتل خراش، فمنعهم الأحابيش حتى أتى رسول الله ﷺ، فدعوا عمر رضي الله عنه ليبعثه إلى مكة فقال: يا رسول الله إني أحاف قريشاً على نفسي وليس بها منبني عدي أحد يمنعني. وقد عرفت قريش عداوتني إليها وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعز مني بها عثمان بن عفان رضي الله عنه.

قال: فدعاه رسول الله ﷺ، فبعثه يخبرهم أنه لم يأت لحرب أحد، وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحرمتها، فخرج عثمان رضي الله عنه حتى أتى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص، فنزل عن دابته وحمله بين يديه أردهه خلفه وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان رضي الله عنه حتى أتى أبا سفيان وعظاماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان رضي الله عنه: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. قال: واحتبسته قريش عندها قال: وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان رضي الله عنه قد قتل.

قال محمد: فحدثني الزهرى أن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو وقالوا: أئتم محمداً فصالحة ولا تلن في صلحه إلا أن يرجع عنا عame هذا، فوالله لا تحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً، فأتاه سهيل بن عمرو فلما رأه رسول الله ﷺ قال: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ، تكلما وأطللا الكلام وتراجعا حتى جرى بينهما الصلح.

فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثبت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأتى أبا بكر

رضي الله عنه فقال: يا أبا بكر أليس رسول الله؟ أolisنا بال المسلمين؟ أolisوا بالمرشكين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنيا في ديننا؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا عمر الزم غرزة حيث كان فإني أشهد أنه رسول الله. فقال عمر رضي الله عنه: وأنا أشهد، ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أolisنا بال المسلمين؟ أolisوا بالمرشكين؟ قال ﷺ (بلى) قال: فعلام نعطي الدنيا في ديننا؟ فقال ﷺ: «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني» ثم قال عمر رضي الله عنه: ما زلت أصوم وأصلي وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ، حتى رجوت أن يكون خيراً.

قال: ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل بن عمرو: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم. فقال رسول الله ﷺ: «اكتب باسمك اللهم. هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو» فقال له سهيل بن عمرو: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس ويكتف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى رسول الله ﷺ من أصحابه بغير إذن ولية رده عليهم، ومن أتى قريشاً ممن مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليه وأن يبتنا عيبة مكفوفة وأنه لا أسلال ولا أغلال. وكان في شرطهم حين كتبوا الكتاب: أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة فقالوا، نحن في عقد رسول الله ﷺ وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم، وأنك ترجع علينا هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فتدخلها بأصحابك وأقمت بها ثلاثة، معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيف في القرب.

فيينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب إذ جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو في الحديـد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ، قال وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكون في الفتـح لرؤيا رأـها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأوا ما رأوا من الصلـح والرجـوع وما تحـمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسه، دخل الناس من ذلك أمر عظـيم حتى كادوا أن يهـلكوا. فلما رأـي سهـيل أبا جـندـلـ قـامـ إـلـيـهـ فـضـرـبـ وـجـهـهـ قالـ: يـاـ مـحـمـدـ قـدـ لـجـتـ الـقـضـيـةـ يـبـيـ وـبـيـنـكـ قـبـلـ أـنـ يـأـتـيـكـ هـذـاـ. قـالـ «صـدـقـتـ» فـقـامـ إـلـيـهـ فـأـخـذـ بـتـلـابـيـهـ قـالـ وـصـرـخـ أـبـوـ جـندـلـ بـأـعـلـىـ صـوـتـهـ: يـاـ مـعـشـرـ الـمـسـلـمـينـ أـتـرـدـونـنـيـ إـلـىـ أـهـلـ الشـرـكـ فـيـفـتـنـونـيـ فـيـ دـيـنـيـ؟ قـالـ فـزادـ جـندـلـ بـأـعـلـىـ صـوـتـهـ: يـاـ مـعـشـرـ الـمـسـلـمـينـ أـتـرـدـونـنـيـ إـلـىـ أـهـلـ الشـرـكـ فـيـفـتـنـونـيـ فـيـ دـيـنـيـ؟ قـالـ فـزادـ الناسـ شـرـاـ إـلـىـ مـاـ بـهـمـ. قـالـ رسولـ اللهـ ﷺ (يـاـ أـبـاـ جـندـلـ اـصـبـ وـاحـتـسـبـ فـإـنـ اللهـ تـعـالـىـ جـاعـلـ لـكـ وـلـمـ مـعـكـ مـنـ الـمـسـتـضـعـفـينـ فـرـجـاـ وـمـخـرـجـاـ. إـنـاـ قـدـ عـقـدـنـاـ بـيـتـنـاـ وـبـيـنـ الـقـومـ صـلـحاـ، فـأـعـطـيـنـاهـ عـلـىـ ذـلـكـ وـأـعـطـوـنـاهـ عـلـىـ عـهـدـاـ إـنـاـ لـنـ نـغـدـرـ بـهـمـ).

قال: فوثب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فجعل يمشي مع أبي جندل، وهو يقول

اصبر أبا جندل فإنما هم المشركون وإنما دم أحدهم دم كلب، قال: ويدني قائم السيف منه، قال يقول: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه. قال: فضن الرجل بأبيه، قال ونفذت القضية، فلما فرغنا من الكتاب، وكان رسول الله ﷺ يصلّي في الحرم وهو مضطرب في الحل، قال: فقام رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس انحروا وأحلقو» قال: فما قام أحد، قال ثم عاد ﷺ بمثلها، فما قام رجل، حتى عاد ﷺ بمثلها فما قام رجل، فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة رضي الله عنها فقال: «يا أم سلمة ما شأن الناس؟» قالت: يا رسول الله قد دخلهم ما رأيت، فلا تكلمن منهم إنساناً وأعمد إلى هديك حيث كان فانحره وأحلق، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك، فخرج رسول الله ﷺ لا يكلم أحداً حتى إذا أتى هديه فنحره ثم جلس فحلق، قال: فقام الناس ينحرون ويحلقون، قال حتى إذا كان بين مكة والمدينة في وسط الطريق نزلت سورة الفتح.

هكذا ساقه أحمد من هذا الوجه، وهكذا رواه يونس بن بكير وزياد البكائي عن ابن إسحاق^(١) بنحوه وفيه إغراب.

وقد رواه أيضاً عن عبد الرزاق عن معاذ عن الزهرى به نحوه، وخالفه في أشياء، وقد رواه البخارى^(٢) رحمه الله في صحيحه فساقه سيافة حسنة مطولة بزيادات جيدة، فقال في كتاب الشروط من صحيحه: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، عن معاذ، أخبرنى الزهرى أخبرنى عروبة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه، قالا: خرج رسول الله ﷺ زمان الحديبية في بعض عشرة مائة من أصحابه.

فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدى وأشعره^(٣) وأحرم منها بعمره، وبعث عيناً له من خزانة وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط^(٤) أتاه عينه فقال: إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادوك ومانعوك. فقال ﷺ: «أشيروا إليها الناس على، أترون أن نميل على عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت؟» وفي لفظ: «أترون أن نميل على ذراري هؤلاء الذين أعنواهم، فإن يأتونا كان الله قد قطع عنقاً من المشركين، وإلا تركناهم محزونين»، وفي لفظ «إإن قعدوا قعدوا موتورين مجهددين

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢/٣١٦، ٣١٩.

(٢) كتاب المغازي باب ٣٥.

(٣) إشعار الهدى: أن يشق أحد جانبي سنام البدنة حتى يسيل دمها، ويجعل ذلك علامه يعرف بها بأنها هدى، وتقليل الهدى: أن يجعل في عنقها ما يعلم به أنها هدى.

(٤) غدير الأشطاط: موضع قريب من عسفان.

محروبين^(١)، وإن نجوا يكن عقاً قطعها الله عز وجل. أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه».

فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرباً، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه، وفي لفظ: ف قال أبو بكر رضي الله عنه: الله ورسوله علم إنما جئنا معتمرين ولم نجيء لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبي ﷺ: «فروحوا إذن» وفي لفظ «فامضوا على اسم الله تعالى» حتى إذا كانوا بعض الطريق قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقرة الجيش^(٢) فانطلق يركض نذيراً لقريش.

وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثانية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حل حل^(٣) فألحت، فقالوا: خلات القصواء^(٤) خلات القصواء. فقال النبي ﷺ: «ما خلات القصواء وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل، ثم قال ﷺ: والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها». ثم زجرها فوثبت فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد^(٥) قليل الماء يتبرضه^(٦) الناس تبرضاً، فلم يلبث الناس حتى نزحوه، وشكى إلى رسول الله العطش، فانتزع ﷺ من كنانته سهماً ثم أمرهم أن يجعلوه فيه فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه.

فيينما هم كذلك إذ جاء بدبل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية، معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت. فقال النبي ﷺ: «إننا لم نجيء لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب، فأضررت بهم، فإن شاؤوا مادتهم مدة ودخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر، فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإن فقد جمُوا^(٧)، وإن هم أتوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلتهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ولينفذن الله أمره». قال بدبل: سأبلغهم ما تقول. فانطلق حتى أتى قريشاً فقال: إننا قد جئنا من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قوله، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال

(١) محروبين: أي مسلوبين منهوبين.

(٢) قرة الجيش: غبرته.

(٣) حل حل: لفظة زجر للإبل.

(٤) خلات القصواء: أي امتنعت عن صاحبها.

(٥) الشمد: الماء القليل. تبرض الماء القليل.

(٦) تبرض الماء: أخذنه قليلاً قليلاً.

(٧) جمُوا: أي استراحو من جهد الحرب.

سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء.

وقال ذو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قاله رسول الله ﷺ فقام عروة بن مسعود فقال: أي قوم ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تهموني؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا^(١) على جثتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آته. قالوا: ائته، فأتاها فجعل يكلم النبي ﷺ فقال النبي ﷺ له نحواً من قوله لبديل بن ورقاء، فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تك الأخرى فإني والله لأرى وجوهاً، وإنني لأرى أشواباً^(٢) من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: امتصص بظر اللات أنحن نفر وندعه؟ قال: من ذا؟ قالوا أبو بكر.

قال: أما والذي نفسي بيده لو لا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك. قال: وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما أخذ بلحيته ﷺ، والمغيرة بن شعبة رضي الله عنه قائم على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف وعليه المغفر^(٣)، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب بيده بنعل السيف وقال له: آخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ. فرفع عروة رأسه وقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. قال: أي غدر ألسنت أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة بن شعبة رضي الله عنه صحب قوماً في الجاهلية فقتلتهم وأخذ أمواهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء».

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه قال: فوالله ما تنخر رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلدته، وإذا أمرهم ابتدوا أمره، وإذا توپاً كانوا يقتلون علىوضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون النظر إليه تعظيمًا له ﷺ فرجع عروة إلى أصحابه. فقال: أي قوم! والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظ أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخر نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلدته، وإذا أمرهم ابتدوا أمره، وإذا توپاً كانوا يقتلون علىوضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيمًا له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.

(١) بلحوا: أي عجزوا.

(٢) الأشواب: الأخلاط والأنواع.

(٣) المغفر: ما يلبسه الدارع على رأسه من الزرد.

قال رجل منهم من بني كنانة: دعوني آته. فقالوا: ائته. فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، قال النبي ﷺ: «هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابثوا له». بعثت له واستقبله الناس يلبون. فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت بما أرى أن يصدوا عن البيت. فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص، فقال: دعوني آته. فقالوا: ائته. فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: «هذا مكرز وهو رجل فاجر» فجعل يكلم النبي ﷺ، فيبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو.

وقال معمر: أخبرني أبوب عن عكرمة أنه قال: لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: «قد سهل لكم من أمركم» قال معمر قال الزهري في حديثه فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينك كتاباً. فدعا النبي ﷺ بعلي رضي الله عنه وقال: «اكتب باسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل بن عمرو: أما الرحمن فهو الله ما أدرى ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا باسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم - ثم قال - هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صدتناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله. فقال له النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتمني، اكتب محمد بن عبد الله» قال الزهري: وذلك لقوله: «والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها» فقال له النبي ﷺ: على أن تخلو بيتك وبين البيت فنطوف به. فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أحذنا ضغطة^(١) ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب فقال سهيل: وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا فقال المسلمون: سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟.

فيبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقضيك عليه أن ترده إلى. فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد» قال: فوالله إذاً لا أصالحك على شيء أبداً، فقال النبي ﷺ: «فأجزه لي» قال: ما أنا بمجير ذلك لك قال «بلى فافعل» قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بلى قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أي معاشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله عز وجل. قال عمر رضي الله عنه: فأتيت نبي الله ﷺ فقلت ألسنت نبي الله حقاً؟ قال ﷺ: «بلى» قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال ﷺ: «بلى» قلت فلِمَ نعطي الدنيا في ديننا إذا؟

(١) ضغطة: أي قهراً.

قال ﷺ: «إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري» قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنتأيي البيت ونطوف به؟ قال ﷺ: «بلى فأخربتك أنا ناتيـه العام؟». قلت: لا . قال ﷺ: فإنك آتـه ومطوف به . قال: فأتـيتـه أبا بكر فقلـتـ يا أبا بكر أليس هذا نـبـيـ الله حقـاـ؟ قال: بـلـيـ . قـلـتـ: أـلسـنـاـ عـلـىـ الـحـقـ وـعـدـوـنـاـ عـلـىـ الـبـاطـلـ؟ قال: بـلـيـ . قـلـتـ: فـلـمـ نـعـطـيـ الـدـنـيـةـ فـيـ دـيـنـنـاـ إـذـاـ؟ قال: أـيـهـاـ الرـجـلـ إـنـهـ رـسـوـلـ اللهـ وـلـيـسـ يـعـصـيـ رـبـهـ، وـهـوـ نـاـصـرـهـ فـاسـتـمـسـكـ بـغـرـزـهـ، فـوـالـلـهـ إـنـهـ عـلـىـ الـحـقـ. قـلـتـ: أـولـيـسـ كـانـ يـحـدـثـنـاـ أـنـاـ سـنـتـأـيـيـ الـبـيـتـ وـنـطـوـفـ بـهـ؟ قال: بـلـيـ، قال: أـفـخـبـرـكـ أـنـكـ تـأـتـيـ الـعـامـ؟ قـلـتـ: لـاـ . قال: فـإـنـكـ تـأـتـيـهـ وـتـطـوـفـ بـهـ.

قال الزهري قال عمر رضي الله عنه: فعملت لذلك أعمالاً . قال فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحرروا ثم احلقوا» قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ﷺ ذلك ثلاثة مرات ، فلما لم يقم منهم أحد دخل ﷺ على أم سلمة رضي الله عنها ، فذكر لها ما لقى من الناس ، قالت له أم سلمة رضي الله عنها: يا نـبـيـ اللهـ أـتـحـبـ ذـلـكـ؟ اـخـرـجـ ثـمـ لا تكلـمـ أحدـاـ مـنـهـمـ كـلـمـةـ حتـىـ تـنـحـرـ بـدـنـكـ وـتـدـعـوـ حـالـقـكـ فـيـ حـلـقـكـ، فـخـرـجـ رسولـ اللهـ ﷺـ، فـلـمـ يـكـلـمـ أحدـاـ مـنـهـمـ حتـىـ فـعـلـ ذـلـكـ، نـحـرـ بـدـنـهـ وـدـعـاـ حـالـقـهـ فـحـلـقـهـ. فـلـمـ رـأـواـ ذـلـكـ قـامـواـ فـنـحـرـوـاـ وـجـعـلـ بـعـضـهـمـ يـحـلـقـ بـعـضـاـ حتـىـ كـادـ بـعـضـهـمـ يـقـتـلـ بـعـضـاـ غـمـاـ، ثـمـ جـاءـهـ نـسـوـةـ مـؤـمنـاتـ فـأـنـزـلـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ: «يـاـ أـيـهـاـ الـذـيـنـ آـمـنـواـ إـذـاـ جـاءـهـ كـمـ الـمـؤـمـنـاتـ مـهـاجـرـاتـ» - حتـىـ بـلـغـ - «بـعـصـمـ الـكـوـافـرـ» [المتحنة: ١٠] فطلق عمر رضي الله عنه يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك ، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان ، والأخرى صفوان بن أمية .

ثم رجـعـ النـبـيـ ﷺـ إـلـىـ الـمـدـيـنـةـ فـجـاءـهـ أـبـوـ بـصـيـرـ رـجـلـ مـنـ قـرـيـشـ وـهـوـ مـسـلـمـ، فـأـرـسـلـوـاـ فـيـ طـلـبـهـ رـجـلـيـنـ فـقـالـوـاـ: الـعـهـ الذـيـ جـعـلـتـ لـنـاـ، فـدـفـعـهـ إـلـىـ الرـجـلـيـنـ فـخـرـجـاـ بـهـ حتـىـ إـذـاـ بـلـغـاـ ذـاـ الـحـلـيفـةـ فـنـزـلـوـاـ يـأـكـلـوـنـ مـنـ تـمـرـ لـهـمـ، فـقـالـ أـبـوـ بـصـيـرـ لـأـحـدـ الرـجـلـيـنـ: وـالـلـهـ إـنـيـ لـأـرـىـ سـيـفـ هـذـاـ يـاـ فـلـانـ جـيدـاـ، فـاسـتـلـهـ الـآـخـرـ فـقـالـ: أـجـلـ وـالـلـهـ إـنـهـ لـجـيدـ، لـقـدـ جـرـبـتـ مـنـهـ ثـمـ جـرـبـتـ. فـقـالـ أـبـوـ بـصـيـرـ: أـرـنـيـ أـنـظـرـ إـلـيـهـ فـأـمـكـنـهـ مـنـهـ فـضـرـبـهـ حتـىـ بـرـدـ وـفـرـ الـآـخـرـ حتـىـ أـتـيـ الـمـدـيـنـةـ، فـدـخـلـ الـمـسـجـدـ يـعـدـوـ فـقـالـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ حـيـنـ رـأـهـ «لـقـدـ رـأـيـ هـذـاـ ذـعـراـ» فـلـمـ اـنـتـهـيـ إـلـىـ النـبـيـ ﷺـ قـالـ: قـتـلـ وـالـلـهـ صـاحـبـيـ وـإـنـيـ لـمـ قـتـولـ. فـجـاءـ أـبـوـ بـصـيـرـ فـقـالـ: يـاـ رـسـوـلـ اللهـ قـدـ وـالـلـهـ أـوـفـيـ اللهـ ذـمـتـكـ، قـدـ رـدـدـتـيـ إـلـيـهـ ثـمـ نـجـانـيـ اللهـ تـعـالـىـ مـنـهـمـ. فـقـالـ النـبـيـ ﷺـ: «وـيلـ أـمـهـ مـسـعـ حـرـبـ لـوـ كـانـ لـهـ أـحـدـ».

فـلـمـ سـمـعـ ذـلـكـ عـرـفـ أـنـهـ سـيـرـدـهـ إـلـيـهـمـ، فـخـرـجـ حتـىـ سـيـفـ الـبـحـرـ قـالـ وـتـفـلـتـ مـنـهـمـ أـبـوـ جـنـدـلـ بـنـ سـهـيلـ، فـلـحـقـ بـأـبـيـ بـصـيـرـ، فـجـعـلـ لـاـ يـخـرـجـ مـنـ قـرـيـشـ رـجـلـ قـدـ أـسـلـمـ إـلـاـ لـحـقـ بـأـبـيـ بـصـيـرـ، حتـىـ اـجـتـمـعـتـ مـنـهـمـ عـصـابـةـ، فـوـالـلـهـ مـاـ يـسـمـعـونـ بـعـيرـ خـرـجـتـ لـقـرـيـشـ إـلـىـ الشـامـ إـلـاـ اـعـتـرـضـوـاـ لـهـاـ، فـقـتـلـوـهـمـ وـأـخـذـوـاـ أـمـوـالـهـمـ. فـأـرـسـلـتـ قـرـيـشـ إـلـىـ النـبـيـ ﷺـ تـنـاشـدـهـ اللهـ وـالـرـحـمـ لـمـ أـرـسـلـ إـلـيـهـمـ: «فـمـ أـتـاهـ مـنـهـمـ فـهـوـ آـمـنـ» فـأـرـسـلـ النـبـيـ ﷺـ إـلـيـهـمـ وـأـنـزـلـ اللهـ عـزـ وـجـلـ: «وـهـوـ الـذـيـ

كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم بيطن مكة» - حتى بلغ - «حمية الجاهلية» وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه رسول الله، ولم يقرروا بسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت. هكذا ساقه البخاري هنا.

وقد أخرجه في التفسير وفي عمرة الحديبية وفي الحج وغير ذلك من حديث معاشر وسفيان بن عيينة، كلاهما عن الزهرى به. ووقع في بعض الأماكن عن الزهرى عن عروة عن مروان والمسور عن رجال من أصحاب النبي ﷺ بذلك وهذا أشبه والله أعلم، ولم يسعه أبسط من هنا، وبينه وبين سياق ابن إسحاق تباين في مواضع، وهناك فوائد ينبغي إضافتها إلى ما هنا، ولذلك سقنا تلك الرواية وهذه والله المستعان عليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

وقال البخاري^(١) في التفسير: حدثنا أحمد بن إسحاق السلمي، حدثنا على، حدثنا عبد العزيز بن سياه عن حبيب بن أبي ثابت قال: أتيت أبا وائل أسأله، فقال كنا بصفين، فقال رجل: ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله، فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: نعم، فقال سهل بن حنيف: اتهموا أنفسكم فلقد رأيتنا يوم الحديبية يعني الصلح الذي كان بين النبي ﷺ والمرشكين، ولو نرى قتالاً لقاتلنا، فجاء عمر رضي الله عنه فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلهم في النار؟ فقال: بل. قال: ففيكم نعطي الدنيا في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال ﷺ: «يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً» فرجع متغياً فلم يصبر حتى جاء أبا بكر رضي الله عنه فقال: يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً، فنزلت سورة الفتح.

وقد رواه البخاري أيضاً في مواضع أخرى ومسلم والنسائي من طرق آخر عن أبي وائل سفيان بن سلمة عن سهل بن حنيف به، وفي بعض ألفاظه: يا أيها الناس اتهموا الرأي فلقد رأيتني يوم أبي جندل، ولو أقدر على أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددته، وفي رواية: فنزلت سورة الفتح فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقرأها عليه^(٢).

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا عفان حدثنا حماد عن ثابت عن أنس رضي الله عنه قال: إن قريشاً صالحوا النبي ﷺ وفيهم سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه: «اكتب

(١) تفسير سورة ٤٨، باب ٥.

(٢) أخرجه البخاري في الجزية باب ١٨، في الترجمة، وتفسير سورة ٤٨، باب ٥، ومسلم في الجهاد حديث ٩٤.

(٣) المسند ٢٦٨/٣.

بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل: لا ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب ما نعرف باسمك اللهم. فقال عليه السلام: «اكتب من محمد رسول الله» قال: لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال النبي عليه السلام: «اكتب من محمد بن عبد الله» واشترطوا على النبي عليه السلام أن من جاء منكم لا نرده عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه علينا، فقال: يا رسول الله أنكتب هذا؟ قال عليه السلام: «نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله» رواه مسلم^(١) من حديث حماد بن سلمة به.

وقال أحمد^(٢) أيضاً، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا عكرمة بن عمارة قال حدثني سماك عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لما خرجت الحرورية اعتزلوا فقلت لهم إن رسول الله عليه السلام يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعلي رضي الله عنه: «اكتب يا علي هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» قالوا لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك فقال رسول الله عليه السلام: «امح يا علي اللهم إنك تعلم أني رسولك امح يا علي واكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله» والله لرسول الله خير من علي وقد محا نفسه ولم يكن محبوه ذلك يمحوه من النبوة أخرجت من هذه؟ قالوا نعم ورواه أبو داود من حديث عكرمة بن عمارة الإمامي بنحوه.

وروى الإمام أحمد^(٣) عن يحيى بن آدم حدثنا زهير بن حرب عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نحر رسول الله عليه السلام يوم الحديبية سبعين بدنة فيها جمل لأبي جهل فلما صدت عن البيت حنت كما تحن إلى أولادها.

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولُهُ الرَّبِيعُ يَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُنَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَمْنِيَنَ مُحَلَّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمَقْصِرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعِلْمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحَمَّ فَرِبَّا هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ يَا إِلَهَهَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الْدِينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا

كان رسول الله عليه السلام قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل وقع في نفوس بعض الصحابة رضي الله عنهم من ذلك شيء، حتى سأله عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك فقال له فيما قال أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى أفاربك أنك تأتيه عامك هذا؟» قال لا ، قال النبي عليه السلام: «فإنك آتىه ومطوف به» وبهذا أجاب الصديق رضي الله

(١) كتاب الجهاد حديث ٩٣.

(٢) المستند ١/٣٤٢.

(٣) المستند ١/٣١٤، ٣١٥.

عنه أيضاً حذو القذة^(١) ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لِتَدْخُلِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده وليس هذا من الاستثناء في شيءٍ.

وقوله عز وجل: ﴿آمِنُونَ﴾ أي في حال دخولكم. قوله: ﴿مَحْلِقِينَ رَؤُوسَكُمْ وَمَقْصُرِينَ﴾ حال مقدرة لأنهم في حال حرهم لم يكونوا محلقين ومقصرين وإنما كان هذا في ثانى الحال. كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره، ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «رَحْمُ اللَّهِ الْمَحْلِقِينَ» قالوا والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ: «رَحْمُ اللَّهِ الْمَحْلِقِينَ» قالوا والمحلقين يا رسول الله؟ قال ﷺ: «رَحْمُ اللَّهِ الْمَحْلِقِينَ» قالوا والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ: «وَالْمَقْصُرِينَ» في الثالثة أو الرابعة^(٢).

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حال مؤكدة في المعنى فأثبت لهم الأمن حال الدخول ونفي عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة. فقام بها ذا الحجة والمحرم وخرج في صفر إلى خير، ففتحها الله عليه بعضها عنوة وبعضها صلحًا، وهي إقليم عظيم كثیر النخل والزروع، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم، ولم يشهدوا أحد غيرهم إلا الذين قدموها من الحبشة جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعري وأصحابه رضي الله عنهم، ولم يغب منهم أحد، قال ابن زيد: إلا أبو دجانة سمك بن خرشة، كما هو مقرر في موضعه ثم رجع إلى المدينة.

فلما كان في ذي القعدة سنة سبع خرج ﷺ إلى مكة معتمراً هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة وساق معه الهدي، قيل: كان ستين بدنة، فلبى وسار أصحابه يلبون. فلما كان ﷺ قريباً من مر الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيل والسلاح أمامه. فلما رأه المشركون رعبوا رعباً شديداً، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين، وذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمرا الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن ياجج وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة في قربها كما شارطهم عليه. فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن حفص فقال: يا محمد ما عرفناك تنقض العهد، فقال ﷺ: «وَمَا ذَاكَ؟» قال «دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح».

(١) القذة: هي ريش السهم.

(٢) أخرجه البخاري في الحج باب ١٢٧، ومسلم في الحج حديث ٣١٩.

فقال عليه السلام: «لم يكن ذلك وقد بعثنا به إلى ياجع». فقال: بهذا عرفناك بالبر والوفاء، وخرجت رؤوس الكفار من مكة لثلاثا ينظروا إلى رسول الله عليه السلام وإلى أصحابه رضي الله عنهم غيطاً وحيناً. وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان، فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام وبين يديه أصحابه يلبون، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصاري أخذ بزمام ناقة رسول الله يقودها وهو يقول: [رجز]

باسم الذي لا دين إلا دينه
خلوا بني الكفار عن سبيله
كما ضربناكم على تنزيله
ويذهب الخليل عن خليله
في صحف تللى على رسوله
بأن خير القتل في سبيله^(١)
يا رب إني مؤمن بقيمه

فهذا مجموع من روایات متفرقة. قال يونس بن بکیر عن محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بکر بن حزم قال: لما دخل رسول الله عليه السلام مكة في عمرة القضاء دخلها وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه آخذ بخطام ناقته عليه السلام وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله
خلوا فكل الخير في رسوله
نحن قتلناكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن خليله

وقال عبد الرزاق: حدثنا عمر عن الزهرى عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: لما دخل رسول الله عليه السلام مكة في عمرة القضاء مشى عبد الله بن رواحة رضي الله عنه بين يديه وفي رواية: وابن رواحة آخذ بغرزه وهو رضي الله عنه يقول:

قد نزل الرحمن في تنزيله
بأن خير القتل في سبيله
نحن قتلناكم على تأويله
اليوم ضربكم على تأويله
ويذهب الخليل عن خليله

(١) الرجز لعبد الله بن رواحة في رواحة في ديوانه ص ١٠١، ١٠٢ ولسان العرب (قيل)، وأساس البلاغة (أول)، وтаж العروس (قيل).

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا محمد بن الصباح، حدثنا إسماعيل يعني ابن زكريا عن عبد الله، يعني ابن عثمان عن أبي الطفيلي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: إن رسول الله ﷺ لما نزل من الظهران في عمرته بلغ أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشاً يقولوا ما يتبعون من العجف^(٢)، فقال أصحابه لو انتحرنا^(٣) من ظهرنا فأكلنا من لحمه وحسونا من مرقه أصبحنا غداً حين ندخل على القوم وبنا جمامه^(٤). قال ﷺ: لا تفعلوا ولكن اجمعوا لي من أزوابكم، فجمعوا له وبسطوا الأنطاع^(٥) فأكلوا حتى تركوا وحثا كل واحد منهم في جرابه، ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل المسجد وقعدت قريش نحو الحجر فاضطبع ﷺ بردائه ثم قال «لا يرى القوم فيكم غميرة»^(٦) فاستلم الركن ثم رمل حتى إذا تغيب بالركن الياني مشى إلى الركن الأسود، فقالت قريش: ما ترضون بالمشي أما إنكم لتتفزون ففز الظباء^(٧)، ففعل ذلك ثلاثة أشواط فكانت سنة. قال أبو الطفيلي: فأخبرني ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ فعل ذلك في حجة الوداع:

وقال أحمد^(٨) أيضاً: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة وقد وهتهم حمى يثرب ولقوا منها سوءاً، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قد وهتهم حمى يثرب ولقوا منها شراً وجلس المشركون من الناحية التي تلي الحجر، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يرمروا^(٩) الأشواط الثلاثة ليرى المشركون جلدتهم، قال: فرمروا ثلاثة أشواط، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين حيث لا يراهم المشركون، ولم يمنع النبي ﷺ أن يرمروا الأشواط كلها إلا إبقاء عليهم. فقال المشركون: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهتهم هؤلاء أجلد من كذا وكذا^(١٠) آخر جاه في الصحيحين من حديث حماد بن زيد به.

(١) المستند ١/٣٠٥.

(٢) ما يتبعون من العجف: أي لا يستطيعون التصرف من الهزال.
(٣) انتحرنا: ذبحنا.

(٤) وبنا جمامه: أي بنا راحة وشبع وري.

(٥) الأنطاع: الجلود.

(٦) الغميرة: العجيب.

(٧) أي يثبون ويقفزون ففز الظباء.

(٨) المستند ١/٢٩٥.

(٩) الرمل: الإسراع بالمشي مع هز المنكبين.

(١٠) أخرجه البخاري في المغازي باب ٤٣، ومسلم في الحج حدث ٢٣٧.

وفي لفظ : قدم النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم صبيحة رابعة يعني من ذي القعدة ، فقال المشركون إنه يقدم عليكم وفد قد وهتم حمى يثرب فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة ، ولم يمنعهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم .

قال البخاري^(١) : وزاد ابن سلمة . يعني حماد بن سلمة ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهمما قال : لما قدم النبي ﷺ لعامة الذي استأمن قال ارملوا ، ليり المشركين قوتهم والمشركون من قبل قعيقان^(٢) ، وحدثنا محمد ، حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهمما قال : إنما سعى النبي ﷺ بالبيت وبالصفا والمروة ليり المشركون قوته^(٣) .

ورواه في موضع آخر ومسلم والنسائي من طرق عن سفيان بن عيينة به . وقال أيضاً : حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا سفيان حدثنا إسماعيل بن أبي خالد أنه سمع ابن أبي أوفى يقول : لما اعتمر رسول الله ﷺ ستراه من غلمان المشركين ومنهم ، أن يؤذوا رسول الله ﷺ ، انفرد به البخاري^(٤) دون مسلم .

وقال البخاري^(٥) أيضاً : حدثنا محمد بن رافع ، حدثنا سريج بن النعمان ، حدثنا فليح وحدثني محمد بن الحسين بن إبراهيم ، حدثنا أبي ، حدثنا فليح بن سليمان عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : إن رسول الله ﷺ خرج معتمراً ، فحال كفار قريش بينه وبين البيت ، فنحر هديه وحلق رأسه بالحدبية وقضاهم على أن يعتمر العام المقبل ، ولا يحمل سلاحاً عليهم إلا سيفاً ولا يقيم بها إلا ما أحبو . فاعت默 ﷺ من العام المقبل فدخلها كما كان صالحهم ، فلما أن أقام بها ثلاثة أيام وأن يخرج فخرج ﷺ ، وهو في صحيح مسلم أيضاً .

وقال البخاري^(٦) أيضاً : حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه قال : اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة ، حتى قضاهم على أن يقيموا بها ثلاثة أيام ، فلما كتبوا الكتاب كتبوا : هذا ما قاضانا عليه محمد رسول الله ، قالوا : لا نقر بهذا ولو نعلم أنك رسول الله ما منعنك شيئاً ، ولكن أنت محمد بن عبد الله . قال ﷺ : أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله » ثم قال ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : « امتحن رسول الله » قال رضي الله عنه : لا والله لا أمحوك أبداً ، فأخذ

(١) كتاب المغازي باب ٤٣ .

(٢) قعيقان : جبل بمكة .

(٣) أخرجه البخاري في المغازي باب ٤٣ .

(٤) كتاب المغازي باب ٤٣ .

(٥) كتاب المغازي باب ٤٣ .

(٦) كتاب المغازي باب ٤٣ .

رسول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله أن لا يدخل مكة بالسلاح إلا بالسيف في القراب، وأن لا يخرج من أهلها بأحد أراد أن يتبعه، وأن لا يمنع من أصحابه أحداً إن أراد أن يقيم بها».

فلما دخلها ومضى الأجل أتوا علياً فقالوا: قل لصاحبك اخرج عننا فقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة رضي الله عنه تنادي يا عم يا عم، فتناولها علي رضي الله عنه فأخذ بيدها وقال لها طمة رضي الله عنها: دونك ابنة عمك فحملتها، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر رضي الله عنهم فقال علي رضي الله عنه: أنا أخذتها وهي ابنة عمي. وقال جعفر رضي الله عنه: ابنة عمي وحالتها تحتي، وقال زيد رضي الله عنه: ابنة أخي، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال: «الخالة بمنزلة الأم» وقال لعلي رضي الله عنه: «أنت مني وأنا منك» وقال لجعفر رضي الله عنه «أشبهت خلقني وخلقتي وقال ﷺ لزيد رضي الله عنه: «أنت أخونا ومولانا» قال علي رضي الله عنه: ألا تتزوج ابنة حمزة رضي الله عنه؟ قال ﷺ: «إنها ابنة أخي من الرضاعة» تفرد به من هذا الوجه.

وقوله تعالى: «فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً» أي فعلم الله عز وجل من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموه أنتم «فجعل من دون ذلك» أي قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا النبي ﷺ فتحاً قريباً، وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين.

ثم قال تبارك وتعالى مبشرًا للمؤمنين بنصرة الرسول ﷺ على عدوه، وعلى سائر أهل الأرض: «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق» أي بالعلم النافع والعمل الصالح، فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعي صحيح، والعمل الشرعي مقبول، فإخباراتها حق وإنشاءاتها عدل «ليظهره على الدين كله» أي على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ومليين ومرشكيين «وكفى بالله شهيداً» أي أنه رسوله وهو ناصره، والله سبحانه وتعالى أعلم.

سُبْحَانَ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِنَّهُمْ عَلَى الْكُفَّارِ رَحْمَاءٌ بَيْنَهُمْ رَكَعَا سُجَّدَا بَيْتَعْوَنَ فَضَلَّا مِنَ اللَّهِ وَرَضَوْنَا
سِيمَا هُمْ فِي وُجُوهِهِم مِنْ أُثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّورَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَذَرَعَ أَخْرَجَ سَطْعَهُ فَازَرَهُ
فَاسْتَغْلَطَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعِيِّبُ الْرُّزَاعَ لِغَيْظِهِ يُهُمُ الْكُفَّارُ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ أَمْنَوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
مِنْهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرًا عَظِيمًا

يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب فقال: «محمد رسول الله» وهذا مبدأ وخبر، وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم ثنى بالثناء على أصحابه رضي الله عنهم فقال: «والذين معه أشداء على الكفار رحماء بيهم» كما قال عز وجل: «فسوف

يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزه على الكافرين» [المائدة: ٥٤] وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار، رحيمًا برأ الآخيار، غضوباً عبوساً في وجه الكافر ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن كما قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذي يلوثكم من الكفار ولیجدوا فيكم غلظة» [التوبه: ١٢٣] وقال النبي ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكي منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهور»^(١). وقال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه ببعضًا»^(٢). وشبك ﷺ بين أصابعه، كلا الحديثين في الصحيح.

وقوله سبحانه وتعالى: «ترأه ركعاً سجداً يتغون فضلاً من الله ورضواناً» وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله عز وجل وهو سعة الرزق عليهم ورضاه تعالى عنهم، وهو أكبر من الأول كما قال جل وعلا: «ورضوان من الله أكبر» [التوبه: ٧٢].

وقوله جل جلاله: «سيماهم في وجوههم من أثر السجود» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «سيماهم في وجوههم» يعني السمت الحسن^(٣). وقال مجاهد وغير واحد: يعني الخشوع والتواضع. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافي، حدثنا حسين الجعفي عن زائدة عن منصور عن مجاهد «سيماهم في وجوههم من أثر السجود» قال: الخشوع. قلت: ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه، فقال: ربما كان بين عيني من هو أقسى قلباً من فرعون. وقال السدي: الصلاة تحسن وجوههم، وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار، وقد أستدله ابن ماجه في سننه عن إسماعيل بن محمد الطلحي عن ثابت بن موسى عن شريك، عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار»^(٤) وال الصحيح أنه موقف. وقال بعضهم: إن للحسنة نوراً في القلب وضياء في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الناس.

وقال أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبدتها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه، والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى أصلح الله عز وجل ظاهره للناس، كما

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ٢٧، ومسلم في البر حديث ٦٦، ٦٧.

(٢) أخرجه البخاري في المظالم باب ٥، ومسلم في البر حديث ٦٥.

(٣) انظر تفسير الطبرى / ١١ / ٣٧٠.

(٤) أخرجه ابن ماجه في الإقامة باب ١٧٤.

روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: من أصلح سريرته أصلح الله تعالى علانيته. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمود بن محمد المروزي، حدثنا حامد بن آدم المروزي، حدثنا الفضل بن موسى عن محمد بن عبيد الله العرمي عن سلمة بن كهيل، عن جندب بن سفيان البجلي رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله تعالى رداءها، إن خيراً فخير وإن شرًا فشر» العرمي متrox.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائناً ما كان».

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا حسن، حدثنا زهير، حدثنا قابوس بن أبي طبيان أن أباه حدثه عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «إن الهدي الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة» ورواه أبو داود^(٣) عن عبد الله بن محمد التفيلي عن زهير به، فالصحابة رضي الله عنهم خلصت نياتهم وحسنات أعمالهم فكل من نظر إليهم أعجبوه في سماتهم ودهيئهم. وقال مالك رضي الله عنه: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة رضي الله عنهم الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا، وصدقوا في ذلك فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوه الله تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المتنزلة والأخبار المتداولة، ولهذا قال سبحانه وتعالى هنا: «ذلك مثلهم في التوراة» ثم قال «ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه» أي فراخه «فازره» أي شده «فاستغلظ» أي شب وطال «فاستوى على سوقه يعجب الزراع» أي فكذلك أصحاب محمد ﷺ أزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع «ليغيط بهم الكفار».

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمة الله عليه في رواية عنه، بتکفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله عنهم قال: لأنهم يغيظونهم ومن غاظ الصحابة رضي الله عنهم فهو کافر لهذه الآية، ووافقه طائفة من العلماء رضي الله عنهم على ذلك، والأحاديث في فضائل الصحابة رضي الله عنهم والنهي عن التعرض لهم بمساءة كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم:

ثم قال تبارك وتعالى: « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم» من هذه لبيان

(١) المستند . ٢٨ / ٣

(٢) المستند ١ / ٢٩٦ .

(٣) كتاب الأدب باب . ٢

الجنس «مغفرة» أي لذنبهم «وأجرًا عظيمًا» أي ثواباً جزيلاً ورزقاً كريماً. ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل، وكل من اقتفي أثر الصحابة رضي الله عنهم فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضي الله عنهم وأرضاهم يجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل. قال مسلم في صحيحه: حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه»^(١). آخر تفسير سورة الفتح والله الحمد والمنة.

(١) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي باب ٥، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٢٢١، ٢٢٢، وأبو داود في السنة باب ١٠، والترمذى في المناقب باب ٥٨، وابن ماجه في المقدمة باب ١١، وأحمد في المسند ١١/٣، ٥٤.

وهي مدنية

سُورَةُ الْحَجَرَاتِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَنْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلَيْهِ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا يَبْهِرُوكُمْ بِالْقَوْلِ كَجَهْرٍ بَعْضُهُ كَمْ لِيَعْصِيْنَ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَعْصُوْنَ أَصْوَاتَهُمْ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنُوا هُنَّ لِلنَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

هذه آيات أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين، فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوفير والاحترام والتجليل والإعظام، فقال تبارك وتعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» أي لا تسارعوا في الأشياء بين يديه أي قبله، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي حديث معاذ رضي الله عنه حيث قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن: «بِمَ تَحْكُمْ؟» قال: بكتاب الله تعالى، قال ﷺ: «إِنَّ لَمْ تَجِدْ؟» قال: بسنة رسول الله ﷺ، قال ﷺ: «فَإِنَّ لَمْ تَجِدْ؟» قال رضي الله عنه: أَجْتَهَدْ رَأِيِّي، فضرب في صدره وقال «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَقَ رَسُولُ اللَّهِ بِشَيْءٍ لِمَا يَرْضِي رَسُولَ اللَّهِ». وقد رواه أحمد وأبو داود والترمذى وأ ابن ماجه فالغرض منه أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدمه قبل البحث عنهم لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهم «لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة، وقال العوفى عنه: نهى أن يتكلموا بين يدي كلامه، وقال مجاهد: لا تفتتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضى الله تعالى على لسانه، وقال الضحاك: لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم، وقال سفيان الثوري «لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» بقول ولا فعل، وقال الحسن البصري «لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» قال: لا تدعوا قبل الإمام، وقال قتادة: ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون لو أنزل في كذا كذا، لو صنع كذا، فكره الله تعالى ذلك وتقدم فيه «وَاتَّقُوا اللَّهَ» أي فيما أمركم به «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ» أي لأقوالكم «عَلِيهِ» بنياتكم.

وقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوقَ صَوْتِ النَّبِيِّ» هذا أدب ثان أدب الله تعالى به المؤمنين أن لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته، وقد روى أنها نزلت في الشيختين أبي بكر وعمر رضي الله عنهم.

وقال البخاري^(١): حدثنا بسرة بن صفوان اللخمي، حدثنا نافع بن عمر عن ابن أبي مليكة، قال: كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، رفعاً أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركببني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس رضي الله عنه أخيبني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، قال نافع: لا أحفظ اسمه، فقال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما، ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافك، فارتقت أصواتهما في ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا ترْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجْهَرِ بَعْضِكُمْ لَبْعَدْ أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَالَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ الآية قال ابن الزبير رضي الله عنهما فما كان عمر رضي الله عنه يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه يعني أبو بكر رضي الله عنه. انفرد به دون مسلم.

ثم قال البخاري^(٢): حدثنا حسن بن محمد، حدثنا حجاج عن ابن جريج، حدثني ابن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أخبره أنه قدم ركب من بنى تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر رضي الله عنه: أمر القعاع بن معبد، وقال عمر رضي الله عنه: بل أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر رضي الله عنه: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتقت أصواتهما فنزلت في ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ حتى انقضت الآية ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية. وهكذا رواه هنا منفرداً به أيضاً.

وقال الحافظ أبو بكر البزار في مستنته: حدثنا الفضل بن سهل، حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا حصين بن عمر عن مخارق عن طارق بن شهاب عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا ترْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ قلت: يا رسول الله والله لا أكلمك إلا كأخي السرار^(٣). حصين بن عمر، هذا وإن كان ضعيفاً لكن قد روينا من حديث عبد الرحمن بن عوف وأبي هريرة رضي الله عنهما بنحو ذلك، والله أعلم.

وقال البخاري^(٤): حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا أزهر بن سعد، أخبرنا ابن عون، أنبأني موسى بن أنس عن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ افقد ثابت بن قيس رضي الله عنه فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده في بيته منكساً رأسه فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله فهو من أهل النار، فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، قال موسى: فرجع إليه المرة الأخيرة ببشرارة

(١) كتاب التفسير، تفسير سورة ٤٩ ، باب ١ .

(٢) كتاب التفسير، تفسير سورة ٤٩ ، باب ١ .

(٣) أخوه السرار: صاحب المسارة .

(٤) كتاب التفسير، تفسير سورة ٤٩ ، باب ١ .

عظيمة فقال: «اذهب إليه فقل له إنك لست من أهل النار ولكن من أهل الجنة» تفرد به البخاري من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا هاشم، حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصواتَكُمْ فَوْقَ صوتِ النَّبِيِّ﴾ - إلى قوله - ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ وكان ثابت بن قيس بن الشمام رفيع الصوت فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ، أنا من أهل النار حبط عملني وجلس في أهله حزيناً فقدده رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدك رسول الله ﷺ ما لك؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ وأجهز له بالقول حبط عملني أنا من أهل النار، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال، فقال النبي ﷺ: «لا، بل هو من أهل الجنة» قال أنس رضي الله عنه: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف فجاء ثابت بن قيس بن شماس، وقد تحنط ولبس كفنه فقال: بئسما تعودون أقرانكم فقاتلهم حتى قتل رضي الله عنه.

وقال مسلم^(٢): حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البناي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصواتَكُمْ فَوْقَ صوتِ النَّبِيِّ﴾ إلى آخر الآية، جلس ثابت رضي الله عنه في بيته قال: أنا من أهل النار، واحتبس عن النبي ﷺ فقال النبي ﷺ لسعد بن معاذ: «يا أبا عمرو ما شأن ثابت أشتكي؟» فقال سعد رضي الله عنه: إنه لجاري وما علمت له بشكوى. قال: فأتاه سعد رضي الله عنه فذكر له قول رسول الله ﷺ فقال ثابت رضي الله عنه: أنزلت هذه الآية ولقد علمت أنني من أرفعكم صوتاً على رسول الله ﷺ فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعد رضي الله عنه للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «بل هو من أهل الجنة» ثم رواه مسلم عن أحمد بن سعيد الدرامي عن حيان بن هلال عن سليمان بن المغيرة به قال ولم يذكر سعد بن معاذ رضي الله عنه، وعن قطن بن سُير عن جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس رضي الله عنه بنحوه، وقال ليس فيه ذكر سعد بن معاذ رضي الله عنه. حدثنا هريم بن عبد الأعلى الأسدي، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبي يذكر عن ثابت عن أنس رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية فاقتصر الحديث ولم يذكر سعد بن معاذ رضي الله عنه وزاد: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا رجل من أهل الجنة.

فهذه الطرق الثلاث معللة لرواية حماد بن سلمة فيما تفرد به من ذكر سعد بن معاذ

(١) المسند ١٣٧/٣.

(٢) كتاب الإيمان حديث ٣٢٦.

رضي الله عنه، والصحيح أن حال نزول هذه الآية لم يكن سعد بن معاذ رضي الله عنه موجوداً، لأنه كان قد مات بعد بني قريظة بأيام قلائل سنة خمس، وهذه الآيات نزلت في وفدي بني تميم، والوفود إنما تواتروا في سنة تسع من الهجرة، والله أعلم.

وقال ابن جرير^(١): حدثنا أبو كريب، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا أبو ثابت بن ثابت بن قيس بن شمامس، حدثني عمي إسماعيل بن محمد بن ثابت بن قيس بن شمامس عن أبيه رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿لَا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول﴾ قال: قعد ثابت بن قيس رضي الله عنه في الطريق يبكي، قال: فمر به عاصم بن عدي من بني العجلان فقال: ما يبكيك يا ثابت؟ قال: هذه الآية أتحنف أن تكون نزلت فيي وأنا صيت رفع الصوت. قال: فمضى عاصم بن عدي رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ، قال: وغلبه البكاء فأتى امرأته جميلة ابنة عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال لها: إذا دخلت بيت فرسي فشدي على الضبة بمسمار، فضربيه بمسمار حتى إذا خرج عطفه وقال: لا أخرج حتى يتوفاني الله تعالى، أو يرضي عنني رسول الله ﷺ.

قال: وأتى عاصم رضي الله عنه رسول الله ﷺ فأخبره خبره فقال: «اذهب فادعه لي» فجاء عاصم رضي الله عنه إلى المكان فلم يجده، فجاء إلى أهله، فوجده في بيت الفرس فقال له: إن رسول الله ﷺ يدعوك، فقال: اكسر الضبة، قال: فخرجا فأتيا النبي ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا ثابت؟» فقال رضي الله عنه: أنا صيت وأتحنف أن تكون هذه الآية نزلت فيي ﴿لَا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول﴾ فقال النبي ﷺ: «أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة؟» فقال: رضيت ببشرى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ.

قال: وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغْضِبُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحِنُ اللَّهُوَيْهِمْ لِتَتَقَوَّى﴾ الآية.

وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين كذلك، فقد نهى الله عز وجل عن رفع الأصوات بحضوره رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، فقال: لو كتما من أهل المدينة لأوجعتما ضرباً. وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام، لأنه محترم حياً وفي قبره صلوات الله وسلامه عليه دائماً، ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه، بل يخاطب بسكنينة ووقار وتعظيم، ولهذا قال

تبارك وتعالى : ﴿وَلَا تجهرُوا لِهِ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ كما قال تعالى : ﴿لَا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم ببعضاً﴾ [النور : ٦٣].

وقوله عز وجل : ﴿أَنْ تُحْبِطَ أَعْمَالَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده، خشية أن يغضب من ذلك فيغضب الله تعالى لغضبه، فيحيط الله عمل من أغضبه وهو لا يدرى كما جاء في الصحيح : «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى لا يلقي لها بالاً يكتب له بها الجنة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض»^(١) ثم ندب الله تعالى إلى خفض الصوت عنده وحث على ذلك، وأرشد إليه، ورغب فيه فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُبُونَ أَصواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِتَنْتَفُوا﴾ أي أخلصها لها وجعلها أهلاً ومحللاً ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وقد قال الإمام أحمد في كتاب الرهد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان عن منصور عن مجاهد قال: كتب إلى عمر: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية، ولا يعمل بها أفضل، أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها فكتب عمر رضي الله عنه: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِتَنْتَفُوا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادَوْنَكَ مِنْ وَرَءَ الْمُجَرَّبَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقُلُونَ ① وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ
لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ②

ثم إنه تبارك وتعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات وهي بيوت نسائه، كما يصنع أجيال الأعراب فقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقُلُونَ﴾ ثم أشد تعالى إلى الأدب في ذلك فقال عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي لكان لهم في ذلك الخيرة والمصلحة في الدنيا والآخرة. ثم قال جل ثناؤه داعياً لهم إلى التوبة والإفادة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقد ذكر أنها نزلت في الأقرع بن حabis التميمي رضي الله عنه فيما أوردته غير واحد.

قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا موسى بن عقبة عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن الأقرع بن حabis رضي الله عنه، أنه نادى رسول الله ﷺ من وراء الحجرات فقال: يا محمد يا محمد، وفي رواية: يا رسول الله، فلم يجبه فقال: يا رسول الله إن حمدي لزين، وإن ذمي لشين، فقال ﷺ: «ذاك الله عز وجل».

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٢٣، والترمذى في الرهد باب ١٢، وابن ماجه في الفتن باب ١٢، وما لک في الكلام حديث ٥، وأحمد في المسند ٤٦٩/٣.

(٢) المسند ٤٨٨/٣، ٣٩٤/٦.

وقال ابن جرير^(١): حديثنا أبو عمارة الحسين بن حرث المروزي، حديثنا الفضل بن موسى عن الحسين بن واقد، عن أبي إسحاق عن البراء في قوله تبارك وتعالى: «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات» قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إن حمدي زين وذمي شين، فقال ﷺ: «ذاك الله عز وجل» وهكذا ذكره الحسن البصري وقتادة مرسلاً.

وقال سفيان الثوري عن حبيب بن أبي عمرة قال: كان بشر بن غالب ولبيد بن عطارد أو بشر بن عطارد ولبيد بن غالب، وهما عند الحاجاج جالسان، فقال بشر بن غالب للبيد بن عطارد: نزلت في قومكبني تميم «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات» قال: فذكرت ذلك لسعيد بن جبیر، فقال: أما إنه لو علم بأخر الآية أجابه «يمنون عليك أن أسلموا» قالوا: أسلمنا ولم يقاتلوك بنو أسد، وقال ابن أبي حاتم: حديثنا عمرو بن علي الباهلي. حديثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت داود الطفاوي يحدث عن أبي مسلم البجلي عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: اجتمع أناس من العرب فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل فإن يك نبياً فنحن أسعد الناس به، وإن يك ملكاً نعش بجناحه. قال: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما قالوا فجاوزوا إلى حجرة النبي ﷺ فجعلوا ينادونه وهو في حجرته: يا محمد يا محمد، فأنزل الله تعالى: «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون» قال: فأخذ رسول الله ﷺ بأذني، فمدّها فجعل يقول «لقد صدق الله تعالى قولك يا زيد، لقد صدق الله قولك يا زيد» ورواه ابن جرير^(٢) عن الحسن بن عرفة، عن المعتمر بن سليمان به.

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُعْبُرُوا قَوْمًا بِمَهْلَةٍ فَنَصِّبُوهُ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَدِيمُنَّ^{﴿١﴾}
وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوْ بِطْبِعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنْتُمْ وَلَكُنَّ اللَّهَ حَبَّ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَرَزَّبَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرُ وَالْفُسُوقُ وَالْعِصَيَانُ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِيدُونَ^{﴿٢﴾} فَصَلَّى اللَّهُ وَنَعَمَّ اللَّهُ

عَلَيْهِ حَمْرَكِيمَ

يأمر تعالى بالثبت في خبر الفاسق ليحتاط له لئلا يحكم بقوله، فيكون في نفس الأمر كاذباً أو مخطئاً، فيكون الحكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله عز وجل عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجھول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقبلها آخرون لأنما أمرنا بالثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجھول الحال، وقد قررنا هذه المسألة في كتاب العلم من شرح البخاري والله تعالى الحمد والمنة، وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط،

(١) تفسير الطبرى ١١/٣٨١.

(٢) تفسير الطبرى ١١/٣٨٢.

حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بنى المصطلق، وقد روي ذلك من طرق ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده من رواية ملك بنى المصطلق، وهو الحارث بن ضرار والد جويرية بنت الحارث أم المؤمنين رضي الله عنها.

قال الإمام أحمد^(١): حدثنا محمد بن ساقيق، حدثنا عيسى بن دينار، حدثني أبي أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعي رضي الله عنه يقول: قدمت على رسول الله فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به. ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها وقلت يا رسول الله أرجع إليهم فأدعوهם إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته. ويرسل إلي يا رسول الله رسولًا لإثبات كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة.

فلما جمع الحارث الزكاة من استجاب له وبلغ الإثبات الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه احتبس عليه الرسول فلم يأته وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله، فدعا بسرورات قومه^(٢) فقال لهم إن رسول الله ﷺ كان وقت لي وقتاً يرسل إلي رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة وليس من رسول الله ﷺ الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة كانت، فانطلقو بنا نأتي رسول الله ﷺ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق أي خاف، فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فضرب البعث إلى الحارث رضي الله عنه وأتى الحارث بأصحابه قتلي، فغضب رسول الله ﷺ فضرب البعث إلى الحارث رضي الله عنه وأتى الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث، فلما غشיהם قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله. قال رضي الله عنه: لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته بنته ولا أتاني.

فلما دخل الحارث على رسول الله قال: «منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟» قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني وما أقبلت إلا حين احتبس علي رسول الله ﷺ، خشيت أن يكون كانت سخطة من الله تعالى ورسوله. قال فنزلت الحجرات ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ﴾ - إلى قوله - ﴿حكيم﴾.

ورواه ابن أبي حاتم عن المنذر بن شاذان التمار عن محمد بن ساقيق به. ورواه الطبراني من حديث محمد بن ساقيق به، غير أنه سماه الحارث بن سرار والصواب أنه الحارث بن ضرار كما تقدم.

(١) المسند ٢٧٩/٤.

(٢) سرورات القوم: أشرافهم.

وقال ابن جرير^(١): حدثنا أبو كريب، حدثنا جعفر بن عون عن موسى بن عبيدة عن ثابت مولى أم سلمة، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: بعث رسول الله ﷺ رجلاً في صدقاتبني المصطلق بعد الواقعة فسمع بذلك القوم فتلقوه يعظمون أمر رسول الله قال فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، قالت فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: إن بني المصطلق قد منعوني صدقائهم. فغضب رسول الله ﷺ وال المسلمين، قالت بلغ القوم رجوعه، فأتوا رسول الله ﷺ فصفوا له حين صلى الظهر، فقالوا: نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله، بعثت إلينا رجلاً مصدقاً^(٢) فسرنا بذلك وقررت به أعيننا، ثم إنه رجع من بعض الطريق فخشينا أن يكون ذلك غضباً من الله تعالى ومن رسوله ﷺ، فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال رضي الله عنه فأذن بصلاة العصر قالت ونزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيٌّ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصَبِّيُوْا قَوْمًا بِجَهَّالَةٍ فَتَصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾.

وروى ابن جرير^(٣) أيضاً من طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهم في هذه الآية قال: كان رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق ليأخذ منهم الصدقات، وإنهم لما أتاهم الخبر فرحا وخرجوا يتلقون رسول رسول الله ﷺ، وإنه لما حدث الوليد أنهم خرجوا يتلقونه رجع الوليد إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إن بني المصطلق قد منعوا الصدقة، فغضب رسول الله ﷺ من ذلك غضباً شديداً، فبينا هو يحدث نفسه أن يغزوه إذ أتاه الوفد فقالوا: يا رسول الله، إننا حدثنا أن رسولك رجع من نصف الطريق، وإننا خشينا أن ما رده كتاب جاء منك لغضبه غضبته علينا، وإننا نعوذ بالله من غضبه وغضبه رسوله، وإن النبي ﷺ استغشهم وهم بهم، فأنزل الله تبارك وتعالى عذرهم في الكتاب فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيٌّ فَتَبَيَّنُوا﴾ إلى آخر الآية.

وقال مجاهد وقادة: أرسل رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق ليصدقهم، فتلقوه بالصدقة فرجع فقال إن بني المصطلق قد جمعت لك لقتالك، زاد قادة: وإنهم قد ارتدوا عن الإسلام. فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه إليهم، وأمره أن يتثبت ولا يعجل، فانطلق حتى أتاهم ليلاً فبعث عيونه فلما جاؤوا أخبروا خالداً رضي الله عنه أنهم مستمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد رضي الله عنه فرأى الذي يعجبه فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر فأنزل الله تعالى هذه الآية. قال قادة: فكان رسول الله ﷺ يقول «التثبت من الله والعلة من الشيطان»^(٤) وكذا ذكر غير واحد من السلف

٣٨٣/١١ . تفسير الطبرى .

المصدق: جامع الزكاة .

٣٨٣/١١ ، ٣٨٣/٣٨٤ . تفسير الطبرى .

انظر تفسير الطبرى ١١/٣٨٤ .

منهم ابن أبي ليلي ويزيد بن رومان والضحاك، ومقاتل بن حيان، وغيرهم في هذه الآية أنها أنزلت في الوليد بن عقبة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿واعلموا أن فيكم رسول الله﴾ أي اعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقوره وتأدبوا معه وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أنت من رأيكم لأنفسكم كما قال تبارك وتعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ [الأحزاب: ٦] ثم بين أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال: ﴿لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم﴾ أي لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عتقكم وحرجكم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ولو اتبع الحق أهواههم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتياهم بذلك هم وزينه في قلوبكم﴾ أي حبه إلى نفوسكم وحسناته في قلوبكم.

قال الإمام أحمد^(١): حدثنا بهز حدثنا علي بن مسعدة، حدثنا قتادة عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «الإسلام علانية والإيمان في القلب - قال ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات ثم يقول - التقوى هنا التقوى هنا» ﴿وكره إليكم الكفر والفسق والعصيان﴾ أي ويغض إليكم الكفر والفسق وهي الذنوب الكبائر والعصيان، وهي جميع المعاصي وهذا تدريج لكمال النعمة، قوله تعالى: ﴿أولئك هم الراشدون﴾ أي المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين قد آتاهم الله رشدهم.

قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا مروان بن معاوية الفزارى، حدثنا عبد الواحد بن أيمان المكي عن أبي رفاعة الزرقى عن أبيه قال: لما كان يوم أحد وانكنا المشركون قال رسول الله ﷺ: «استووا حتى أثني على ربى عز وجل» فصاروا خلفه صفوفاً فقال ﷺ: «اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت. اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعم المقيم الذي لا يحول ولا يزول. اللهم إني أسألك النعم يوم العيля والأمن يوم الخوف. اللهم إني عاذ بك من شر ما أعطيتنا ومن شر ما منعتنا. اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكراه إلينا الكفر والفسق والعصيان واجعلنا من الراشدين. اللهم توفنا مسلمين وأحيانا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرا الذين يكذبون رسليك ويسعدون عن سبيلك واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرا الذين أوتوا الكتاب إله

(١) المستند ١٣٤ / ٣ ، ١٣٥ .

(٢) المستند ٤٢٤ / ٣ .

الحق» ورواه النسائي في اليوم والليلة عن زياد بن أيوب عن مروان بن معاوية عن عبد الواحد بن أبيمن عن عبيد بن رفاعة عن أبيه به.

وفي الحديث المرفوع: «من سرته حسته وسأته سيئته فهو مؤمن»^(١) ثم قال: «فضلاً من الله ونعمته» أي هذا العطاء الذي منحكموه هو فضل منه عليكم ونعممة من لدنك «والله عالم حكيم» أي عالم بمن يستحق الهدایة ومن يستحق الغواية حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرِ فَقَتِلُوا إِلَيْهِ تَبْغِي حَتَّى تَفِئَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَسْطِرُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ لِحَوْةٍ فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَهْوَيْكُمْ وَأَتَقْوَا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَرْجُونَ

يقول تعالى آمراً بالإصلاح بين الفتتين الباغين بعضهم على بعض: «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما» فسماهما مؤمنين مع الاقتتال، وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم، وهكذا ثبت في صحيح البخاري من حديث الحسن عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ خطب يوماً، ومعه على المنبر الحسن بن علي رضي الله عنهما، فجعل ينظر إليه مرة، وإلى الناس أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فترين عظيمتين من المسلمين»^(٢). فكان كما قال صلوات الله وسلامه عليه، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة، والواقعات المهولة.

وقوله تعالى: «فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرِ فَقَاتَلُوا إِلَيْهِ تَبْغِي حَتَّى تَفِئَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتَسْمَعْ لِلْحَقِّ وَتَطْبِعِهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيفَةِ عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اَنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مُظْلَومًا» قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا نَصْرَتُهُ مُظْلَومًا، فَكَيْفَ أَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ ﷺ: «تَمْنَعْهُ مِنَ الظُّلْمِ فَذَاكَ نَصْرَكَ إِيَاهُ»^(٣).

وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا عارم، حدثنا معتمر قال: سمعت أبي يحدث أن أنساً رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ، لو أتيت عبد الله بن أبي، فانطلق إليه النبي ﷺ، وركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون، وهي أرض سبخة، فلما انطلق النبي ﷺ إليه قال: «إليك عني فوالله لقد أذاني ريح حمارك» فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب

(١) أخرجه الترمذى في الفتنة باب ٧، وأحمد في المستند ١/١٨، ٢٦، ٤٤٦/٣.

(٢) أخرجه البخارى في الصلح باب ٩.

(٣) أخرجه البخارى في المظالم باب ٤، ومسلم في البر حديث ٦٢، والترمذى في الفتنة باب ٦٨.

(٤) المستند ٣/١٥٧، ٢١٩.

ريحاً منك . قال : فغضب عبد الله رجال من قومه ، فغضب لكل واحد منهم أ أصحابه ، قال : فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال ، فبلغنا أنه أنزلت فيهم ﴿وَإِن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾^(١) ورواه البخاري في الصلح عن مسدد ومسلم في المغازى عن محمد بن عبد الأعلى كلاماً عن المعتمر بن سليمان عن أبيه به نحوه .

وذكر سعيد بن جبير أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسعف والنعال ، فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمر بالصلح بينهما ، وقال النبي : كان رجل من الأنصار يقال له عمران ، كانت له امرأة تدعى أم زيد ، وإن المرأة أرادت أن ترور أهلها ، فحبسها زوجها وجعلها في غلبة له لا يدخل عليها أحد من أهلها . وإن المرأة بعثت إلى أهلها ، فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بها ، وإن الرجل كان قد خرج ، فاستعان أهل الرجل ، ف جاء بنو عمه ليحلوا بين المرأة وبين أهلها ، فتدافعوا واجتذبوا بالنعال فنزلت فيهم الآية ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ وأصلح بينهم وفازوا إلى أمر الله تعالى .

وقوله عز وجل : ﴿فَإِنْ فَاءْتُمْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي اعدلوا بينهم فيما كان أصاب بعضهم ببعض بالقسط وهو العدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي ، حدثنا عبد الأعلى عن عمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : إن رسول الله ﷺ قال : «إن المقطفين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمن عز وجل بما أقسطوا في الدنيا»^(٢) ورواه النسائي عن محمد بن المثنى عن عبد الأعلى به . وهذا إسناد جيد قوي رجاله على شرط الصحيح ، وحدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد ، حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار ، عن عمرو بن أوس عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «المقطفين عند الله تعالى يوم القيمة على منابر من نور على يمين العرش ، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولو»^(٣) ورواه مسلم والنسائي من حديث سفيان بن عيينة به . وقوله تعالى : «إنما المؤمنون إخوة»^(٤) أي الجميع إخوة في الدين ، كما قال رسول الله ﷺ : «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»^(٥) وفي الصحيح «والله في عون العبد ما كان العبد في عون

^(١) أخرجه البخاري في الصلح باب ١ ، ومسلم في الجهاد حديث ١١٧ .

^(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/١٥٩ ، ٢٠٣ .

^(٣) أخرجه مسلم في الإمارة حديث ١٨ ، والنسائي في أداب القضاة باب ١ ، وأحمد في المسند ٢/١٦٠ .

^(٤) أخرجه البخاري في المظالم باب ٣ ، ومسلم في البر حديث ٥٨ ، وأبو داود في الأدب باب ٣٨ ، والترمذى في الحدود باب ٣ ، والبر باب ١٨ ، وابن ماجه في الكفارات باب ١٤ ، وأحمد في المسند

أخيه^(١) وفي الصحيح أيضاً «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك أمين ولك مثله»^(٢) والأحاديث في هذا كثيرة، وفي الصحيح «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكت منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»^(٣) وفي الصحيح أيضاً «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه ببعضًا» وشبك بين أصابعه^(٤).

وقال أحمد^(٥): حدثنا أحمد بن الحجاج، حدثنا عبد الله، أخبرنا مصعب بن ثابت حدثني أبو حازم قال: سمعت سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه يحدث عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس» تفرد به أحمد ولا بأس بإسناده، قوله تعالى: «فأصلحوا بين أخويكم» يعني الفتتتين المقتلتين «واتقوا الله» أي في جميع أمركم «لعلكم ترحمون» وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه.

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخِرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا يَسْأَءُ عَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا مِّنْهُمْ
وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابِرُوا إِلَّا لِقَدْ^١ يَسَّ اللَّامُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتَبَّعْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ^٢

ينهى تعالى عن السخرية بالناس وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الكبر بطر الحق وغمض الناس - ويروى - وغمط الناس»^(٦) والمراد من ذلك احتقارهم واستصغرهم، وهذا حرام فإنه قد يكون المحترق أعظم قدرًا عند الله تعالى، وأحب إليه من الساخر منه المحترق له، ولهذا قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منها» فنص على نهي الرجال، وعطف نهي النساء. قوله تبارك وتعالى: «ولا تلمزوا أنفسكم» أي لا تلمزوا الناس. والهمماز اللماز من الرجال مذموم ملعون كما قال تعالى: «ويل لكل همسة لمرة»

(١) أخرجه مسلم في الذكر حديث ٣٧، ٣٨، وأبو داود في الأدب باب ٦٠، والترمذى في الحدود باب ٣، وابن ماجه في المقدمة باب ١٧، وأحمد في المستند ب٢٥٢/٢، ٢٩٦، ٥٠٠، ٥١٤.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر حديث ٨٧، وأبو داود في الوتر باب ٢٩.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب باب ٢٧، ومسلم في البر حديث ٦٦، وأحمد في المستند ٤/٢٧٠.

(٤) أخرجه البخاري في الصلاة باب ٨٨، والمظالم باب ٥، ومسلم في البر حديث ٦٥، والترمذى في البر باب ١٨، والنمسائي في الزكاة باب ٦٧، وأحمد في المستند ٤/٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٩.

(٥) المستند ٥/٣٤٠.

(٦) أخرجه بلفظ «غمط» مسلم في الإيمان حديث ١٤٧، وأبو داود في الملابس باب ٢٦، وأحمد في المستند ٣٨٥/٣٢٧، وأخرجه بلفظ «غمص»، الترمذى في البر باب ٦١، وأحمد في المستند ٤/١٣٤.

«الهمزة: ۱] والهمز بالفعل واللمز بالقول، كما قال عز وجل: «هماز مشاء بنيم» [القلم: ۱۱] أي يحتقر الناس ويهمزهم طاغياً عليهم ويمشي بينهم بالنعمة وهي اللمز بالمقال، ولهذا قال ههنا: «ولا تلمزوا أنفسكم» كما قال: «ولا تقتلوا أنفسكم» [النساء: ۲۹] أي لا يقتل بعضكم بعضاً.

قال ابن عباس ومجاحد وسعيد بن جبير وقتادة ومقاتل بن حيان «ولا تلمزوا أنفسكم» أي لا يطعن بعضكم على بعض^(۱)، قوله تعالى: «ولا تنازروا بالألقاب» أي لا تتداعوا بالألقاب، وهي التي يسوء الشخص سماعها.

قال الإمام أحمد^(۲): حدثنا إسماعيل، حدثنا داود بن أبي هند عن الشعبي قال: حدثني أبو جبيرة بن الصحاك، قال فينا نزلت فيبني سلمة «ولا تنازروا بالألقاب» قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة، وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعي أحد منهم باسم من تلك الأسماء، قالوا: يا رسول الله إنه يغضب من هذا، فنزلت «ولا تنازروا بالألقاب»^(۳) ورواه أبو داود عن موسى بن إسماعيل عن وهيب عن داود به. قوله جل وعلا: «بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان» أي بئس الصفة والاسم الفسوق. وهو التنازب بالألقاب كما كان أهل الجاهلية يتنازعون بعد ما دخلتم في الإسلام وعقلتموه «ومن لم يتبع» أي من هذا «فأولئك هم الظالمون».

يَتَآءِلُّهُ الَّذِينَ مَا مَنُوا أَجْتَنَبُوا كَثِيرًا مِنَ الظُّنْنِ إِنَّكَ بَعْضَ الظُّنْنِ إِنَّمَا وَلَا يَحْسَسُو وَلَا يَغْتَبُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا إِنَّمَا أَحَدُكُمْ أَنْ يَاكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيَتًا فَكَمْ هُمْ مُهَمَّهُو وَلَنَقُوا اللَّهَ إِذَ أَلْهَمَهُمْ تَوَابَهُمْ رَحِيمٌ

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله لأن بعض ذلك يكون إنما محضاً، فليجتنب كثير منه احتياطاً وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً. وقال أبو عبد الله بن ماجه: حدثنا أبو القاسم بن أبي ضمرة نصر بن محمد بن سليمان الحمصي، حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي قيس النضرى، حدثنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت النبي ﷺ يطوف بالکعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفسمحمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك، ماله ودمه وأن يظن به إلا خيراً»^(۴) تفرد به ابن ماجه

(۱) انظر تفسير الطبرى ۳۹۱/۱۱.

(۲) المسند ۴/ ۲۶۰.

(۳) آخر جه أبو داود في الأدب باب ۶۳ ، وابن ماجه في الأدب باب ۳۵.

(۴) آخر جه ابن ماجه في الفتن باب ۲.

من هذا الوجه، وقال مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إيساكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا، ولا تبغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»^(١) رواه البخاري عن عبد الله بن يوسف ومسلم عن يحيى بن يحني وأبو داود عن العتبى عن مالك به.

وقال سفيان بن عيينة عن الزهرى عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تبغضوا ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل للMuslim أن يهجر أخيه فوق ثلاثة أيام»^(٢) رواه مسلم والترمذى وصححه من حديث سفيان بن عيينة به. وقال الطبرانى: حدثنا محمد بن عبد الله القرمطي العدوى، حدثنا بكر بن عبد الوهاب المدنى، حدثنا إسماعيل بن قيس الأنصارى، حدثنى عبد الرحمن بن محمد بن أبي الرجال عن أبيه، عن جده حارثة بن النعمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لازمات لأمتى: الطيرة والحسد وسوء الظن» فقال رجل: وما يذهبن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال ﷺ: «إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظنت فلا تتحقق، وإذا طيرت فامض».

وقال أبو داود^(٣): حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن زيد رضي الله عنه قال: أتى ابن مسعود رضي الله عنه برجل فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمراً، فقال عبد الله رضي الله: إنما قد نهينا عن التجسس ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به. سماه ابن أبي حاتم في روايته الوليد بن عقبة بن أبي معيط.

وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا هاشم، حدثنا ليث عن إبراهيم بن نشيط الخولاني عن كعب بن علقة عن أبي الهيثم عن دخين كاتب عقبة قال: قلت لعقبة: إن لنا جيراناً يشربون الخمر وأنا داع لهم الشرط فإذا خذلوكهم. قال: لا تفعل ولكن عظهم وتهذبهم، قال: فعل فلم يتنهوا. قال: فجاءه دخين فقال: إنما قد نهيتهم فلم يتنهوا وإنما داع لهم الشرط فإذا خذلوكهم ، فقال له عقبة: ويحك لا تفعل؟ فإني سمعت رسول الله يقول: «من ستر عوره مؤمن فكأنما استحبها مؤودة من قبرها»^(٥) رواه أبو داود والنمسائى من حديث الليث بن سعد به نحوه، وقال سفيان الثورى عن ثور عن راشد بن سعد عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدتهم» فقال أبو الدرداء رضي الله

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ٥٧، ومسلم في البر حديث ٢٨، ٣٠.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب باب ٥٧، ومسلم في البر حديث ٢٣، ٢٥، ٢٦، وأبو داود في الأدب باب ٤٧، والترمذى في البر باب ٢١.

(٣) كتاب الأدب باب ٥٨.

(٤) المسند ٤/١٥٣، ٤/١٥٨.

(٥) أخرجه أبو داود في الأدب باب ١٠٠.

عنه كلمة سمعها معاوية رضي الله عنه من رسول الله ﷺ نفعه الله تعالى بها، ورواه أبو داود^(١) منفرداً به من حديث الثوري به.

وقال أبو داود أيضاً: حدثنا سعيد بن عمرو الحضرمي، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن جبير بن نفير وكثير بن مرة، وعمرو بن الأسود والمقدمان بن معد يكرب وأبي أمامة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الربيبة في الناس أفسدهم»^(٢).

﴿ولا تجسسوا﴾ أي على بعضكم ببعض والتجسس غالباً يطلق في الشر ومنه الجاسوس. وأما التحسس فيكون غالباً في الخير كما قال عز وجل إخباراً عن يعقوب أنه قال ﴿يا بني اذهبوا فتحسّسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله﴾ [يوسف: ٨٧] وقد يستعمل كل منهما في الشر كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجسسوا ولا تحسّسوا ولا تبغضوا ولا تداربوا، وكونوا عباد الله إخواناً» وقال الأوزاعي: التجسس البحث عن الشيء. والتحسن الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون أو يتسمّع على أبوابهم، والتدارب: الصرم، رواه ابن أبي حاتم عنه.

قوله تعالى: ﴿ولا يغتب بعضكم ببعض﴾ فيه نهي عن الغيبة، وقد فسرها الشارع كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود: حدثنا القعنبي، حدثنا عبد العزيز بن محمد عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة قال: قيل يا رسول الله ما الغيبة؟ قال ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»^(٣) ورواه الترمذى عن قتيبة عن الدراوردى به وقال: حسن صحيح. ورواه ابن جرير عن بندر عن غندر عن شعبة عن العلاء. وهكذا قال ابن عمر رضي الله عنهم ومسروق وقتادة وأبو إسحاق ومعاوية بن قرة. وقال أبو داود: حدثنا مسدد، حدثنا يحيى عن سفيان، حدثني علي بن الأقرم عن أبي حذيفة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ حسبك من صفية كذا وكذا. قال غير مسدد: تعنى قصيرة، فقال ﷺ: «القد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته» قالت: وحكيت له إنساناً فقال ﷺ: «ما أحب أنني حكيت إنساناً وإن لي كذا وكذا»^(٤) ورواه الترمذى من حديث يحيى القطان وعبد الرحمن بن مهدي ووكيع ثلاثة عن سفيان الثورى، عن علي بن الأقرم عن أبي حذيفة سلمة بن صهيب الأرجي عن عائشة رضي الله عنها به وقال: حسن صحيح.

(١) كتاب الأدب باب ٣٧.

(٢) آخرجه أبو داود في الأدب باب ٣٧، وأحمد في المستند ٤/٦.

(٣) آخرجه أبو داود في الأدب باب ٣٥، ومسلم في البر حديث ٧٠، والترمذى في البر باب ٢٣.

(٤) آخرجه أبو داود في الأدب باب ٣٥، والترمذى في القيامة باب ٥١، وأحمد في المستند ٦/١٨٩.

وقال ابن جرير^(١): حدثني ابن أبي الشوارب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا سليمان الشيباني ، حدثنا حسان بن المخارق أن امرأة دخلت على عائشة رضي الله عنها، فلما قامت لتخرج وأشارت عائشة رضي الله عنها بيدها إلى النبي ﷺ أي إنها قصيرة فقال النبي ﷺ «اغتبتها» والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا من رجحت مصلحته، كما في الجرح والتعديل والنصيحة كقوله ﷺ، لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: «إذنوا له بئس آخر العشيرة!»^(٢) وك قوله ﷺ لفاطمة بنت قيس رضي الله عنها، وقد خطبها معاوية وأبو الجهم: «أما معاوية فصلعلوك، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاته»^(٣) وكذا ما جرى مجرى ذلك، ثم بقيتها على الترحيم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد، ولهذا شبهها تبارك وتعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت كما قال عز وجل: «أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه» [الحجرات: ١٢] أي كما تكرهون هذا طبعاً فاكرهوه ذاك شرعاً، فإن عقوبته أشد من هذا، وهذا من التنفير عنها والتحذير منها كما قال ﷺ في العائد في هبة: «كالكلب يقيء ثم يرجع في قيه»^(٤) وقد قال: «ليس لنا مثل السوء»^(٥) وثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من غير وجه أنه ﷺ قال في خطبة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»^(٦).

وقال أبو داود: حدثنا واصل بن عبد الأعلى ، حدثنا أسباط بن محمد عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام ماله وعرضه ودمه، حسب أمرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم»^(٧) ورواه الترمذى عن عبيد بن أسباط بن محمد عن أبيه به وقال: حسن غريب.

وحدثنا عثمان بن أبي شيبة: حدثنا الأسود بن عامر، حدثنا أبو بكر بن عياش عن الأعمش

(١) تفسير الطبرى / ١١ / ٣٩٥.

(٢) أخرجه البخارى في الأدب باب ٤٨ ، وأبو داود في الأدب باب ٥ .

(٣) أخرجه مسلم في الطلاق حديث ٣٦ ، وأبو داود في الطلاق باب ٣٩ ، والترمذى في النكاح باب ٣٨ والنسائي في النكاح باب ٢٢ ، ومالك في الطلاق باب ٦٧ ، وأحمد في المستند ٤١٢ / ٦ .

(٤) أخرجه البخارى في الهبة باب ٣٠ ، ومسلم في الهبات حديث ٥ ، ٦ ، وأبو داود في البيوع باب ٨١ والنسائي في الهبة باب ٣ ، ٤ ، وابن ماجه في الصدقات باب ١ .

(٥) أخرجه البخارى في الهبة باب ٣٠ ، والترمذى في البيوع باب ٦١ .

(٦) أخرجه البخارى في العلم باب ٣٧ ، ومسلم في الحج حديث ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، والترمذى في تفسير سورة ٩ باب ٢ ، وابن ماجه في الفتنة باب ٢ ، وأحمد في المستند ١ / ٢٣٠ ، ٣١٣ / ٣ ، ٣٧١ ، ٤٨٥ ، ٧٦ / ٤ ، ٦٨ / ٥ .

(٧) أخرجه مسلم في البر حديث ٣٢ ، وأبو داود في الأدب باب ٣٥ ، والترمذى في البر باب ١٨ ، وابن ماجه في الزهد باب ٢٣ ، وأحمد في المستند ٤٩١ / ٣ .

عن سعيد بن عبد الله بن جرير عن أبي بربعة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ «يا معاشر من آمن بمسانده ولم يدخل الإيمان في قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته»^(١) تفرد به أبو داود وقد روی من حديث البراء بن عازب. فقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا إبراهيم بن دينار، حدثنا مصعب بن سلام عن حمزة بن حبيب الزيارات، عن أبي إسحاق السبئي عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العوائق في بيتها - أو قال - في خدورها، فقال: يا معاشر من آمن بمسانده، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته».

[طريق أخرى] عن ابن عمر. قال أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي: حدثنا عبد الله بن ناجية، حدثنا يحيى بن أكثم، حدثنا الفضل بن موسى الشيباني عن الحسين بن واقد عن أوفى بن دلهم عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «يا معاشر من آمن بمسانده ولم يفض الإيمان إلى قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورات المسلمين يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله» قال: ونظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك وللمؤمن من أعظم حرمة عند الله منك^(٢).

قال أبو داود: حدثنا حمزة بن شريح، حدثنا قتيبة عن ابن ثوبان عن أبيه عن مكحول، عن وقاص بن ربيعة عن المستورد أنه حدثه أن النبي ﷺ قال: «من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها في جهنم، ومن كسي ثوباً برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله في جهنم، ومن قام برجل مقام سمعة ورياء فإن الله تعالى يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيمة»^(٣) تفرد به أبو داود. وحدثنا ابن مصفي حدثنا بقية وأبو المغيرة، قالا: حدثنا صفوان، حدثني راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جبير عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، قلت: من هؤلاء يا جباريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»^(٤) تفرد به أبو داود وهكذا رواه الإمام أحمد^(٥) عن أبي المغيرة عبد القدوس بن الحجاج الشامي به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عبدة، أخبرنا أبو عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد العملي، أخبرنا أبو هارون العبدلي عن أبي سعيد الخدري قال: قلنا

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٣٥.

(٢) أخرجه لترمذني في البر باب ١٨.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٣٥.

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٣٥.

(٥) المستند ٢٢٤/٣.

يا رسول الله حدثنا ما رأيت ليلة أسرى بك؟ قال: ثم انطلق بي إلى خلق من خلق الله كثير، رجال ونساء موكل بهم رجال يعمدون إلى عرض جنب أحدهم، فيجذون منه الحذوة من مثل النعل ثم يضعونه في أحدهم. فيقال له كل كما أكلت وهو يجد من أكله الموت يا محمد لو يجد الموت وهو يكره عليه، فقلت: يا جبرائيل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الهمazon واللمazon أصحاب النمية، فيقال: «أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهت موته» وهو يكره على أكل لحمه، هكذا أورد هذا الحديث وقد سقناه بطوله في أول تفسير سورة سبحان والله الحمد والمنة.

وقال أبو داود الطيالسي في مسنده: حدثنا الربيع عن يزيد عن أنس أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن يصوموا يوماً ولا يفطرون أحد حتى آذن له، فضام الناس، فلما أمسوا جعل الرجل يجيء إلى رسول الله ﷺ فيقول ظللت منذ اليوم صائمًا فائذن لي فأفطر فأذن له ويجيء الرجل فيقول ذلك، فيأذن له حتى جاء رجل فقال: يا رسول الله إن امرأتين من أهلك ظللتا منذ اليوم صائمتين، فائذن لهما فليفطرا، فأعرض عنه ثم أعاد، فقال رسول الله ﷺ: «ما صامتا، وكيف صام ظل يأكل من لحوم الناس؟ اذهب فمرهما إن كانتا صائمتين أن يستقيتا» ففعلتا، ففجاعت كل واحدة منها علقة علقة، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «لو ماتتا وهما فيهما لاكلتهما النار» إسناد ضعيف ومتناً غريب. وقد رواه الحافظ البهقي من حديث يزيد بن هارون.

حدثنا سليمان التيمي قال: سمعت رجلاً يحدث في مجلس أبي عثمان النهدي عن عبد مولى رسول الله ﷺ أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ، وأن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن هنا امرأتين صامتا وإنهما كادتا تموتان من العطش، أراه قال بالهاجرة، فأعرض عنه أو سكت عنه، فقال: يا نبي الله إنهما والله قد ماتتا أو كادتا تموتان، فقال: ادعهما. فجاءتا قال: فجيء بقدح أو عس، فقال لإحداهما قيئي. ففجاعت من قيئ ودم وصديد حتى قاءت نصف القدح، ثم قال للأخرى: قيءى، ففجاعت قيحاً ودمًّا وصديدًا ولحماً ودمًا عبيطاً^(١) وغيره حتى ملأت القدح، ثم قال: «إن هاتين صامتا عما أحل الله تعالى لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس». وهكذا قد رواه الإمام أحمد^(٢) عن يزيد بن هارون وابن أبي عدي، كلامها عن سليمان بن طرخان التيمي به مثله أو نحوه، ثم رواه أيضاً من حديث مسدد عن يحيى القطان عن عثمان بن غياث. حدثني رجل أظنه في حلقة أبي عثمان عن سعد مولى رسول الله ﷺ، أنهم أمروا بصيام، فجاء رجل في نصف النهار فقال: يا رسول الله فلانة وفلانة قد بلغنا الجهد فأعرض عن مرتين أو

(١) اللحم العبيط: اللحم الطري غير النضيج.

(٢) المسند / ٤٣١.

ثلاثًا ثم قال «ادعهما» فجاء بعس أو قدح فقال لإحداهما: قيئي. ففجأة لحمًا ودمًا عبيطاً وقيحاً، وقال للأخرى مثل ذلك ثم قال: إن هاتين صامتاً عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهم. أتت إحداهما للأخرى فلم تزلَا تأكلان لحوم الناس حتى امتلأت أجوفهما قيحاً. قال البهيجي: كذا قال عن سعد، والأول وهو عبيد أصح.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا عمرو بن الضحاك بن مخلد، حدثنا أبي، حدثنا أبو عاصم، حدثنا ابن جرير، أخبرني أبو الزبير عن ابن عم لأبي هريرة أنَّ ماعزاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد زنيت، فأعرض عنه حتى قالها أربعًا، فلما كان في الخامسة قال: زنيت؟ قال: نعم قال: وتدري ما الزنا؟ قال: نعم أتيت منها حراماً ما يأتي الرجل من أمراته حلالاً. قال: ما تريد إلى هذا القول؟ قال: أريد أن تطهرني. قال: فقال رسول الله ﷺ: أدخلت ذلك منها كما يغيب الميل في المكحلة والرشا في البئر؟ قال: نعم يا رسول الله قال: فأمر برجمه، فرجم، فسمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه، فلم تدعه نفسه حتى رجم الكلب؟ ثم سار النبي ﷺ حتى مر بجيفة حمار فقال: «أين فلان وفلان؟ انزوا فكلا من جيفة هذا الحمار». قالا: غفر الله لك يا رسول الله وهل يؤكل هذا؟ قال ﷺ: «فما نلتـما من أخيكمـا آنفـاً أشدـاً أكـلاً مـنهـ، والذـي نـفـسي بـيـدـهـ إـنـهـ الـآنـ لـفـي أـنـهـارـ الجـنـةـ يـنـغـمـسـ فـيهـ»^(١) إسناد صحيح.

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا عبد الصمد، حدثني أبي. حدثنا واصل مولى ابن عيينة، حدثني خالد بن عرفطة عن طلحة بن نافع عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ فارتَفَعَ ريح جيفة متنة. فقال رسول الله ﷺ: «أندرُونَ مَا هَذِهِ الرِّيحُ؟ هَذِهِ الرِّيحُ الَّذِينَ يَغْتَابُونَ النَّاسَ».

[طريق أخرى] قال عبد بن حميد في مسنده: حدثنا إبراهيم بن الأشعث، حدثنا الفضيل بن عياض عن سليمان عن أبي سفيان وهو طلحة بن نافع عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فهاجـت رـيحـ مـتنـةـ، فـقـالـ النـبـيـ ﷺـ: «إـنـ نـفـراـ مـنـ الـمـنـاقـفـينـ اـغـتـابـواـ نـاسـاـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ فـلـذـلـكـ بـعـثـتـ هـذـهـ الرـيـحـ»ـ وـرـبـماـ قـالـ «فـلـذـلـكـ هـاجـتـ هـذـهـ الرـيـحـ»ـ وـقـالـ السـدـيـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ: «أـيـحـبـ أـحـدـكـمـ أـنـ يـأـكـلـ لـحـمـ أـخـيـهـ مـيـتـاـ»ـ زـعـمـ أـنـ سـلـمـانـ الـفـارـسـيـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ كـانـ مـعـ رـجـلـيـنـ مـنـ أـصـحـابـ النـبـيـ ﷺـ فـيـ سـفـرـ يـخـدـمـهـمـاـ وـيـخـفـ لـهـمـاـ وـيـتـالـ مـنـ طـعـامـهـمـاـ، وـأـنـ سـلـمـانـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ لـمـ سـارـ النـاسـ ذـاتـ يـوـمـ، وـبـقـيـ سـلـمـانـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ نـائـمـاـ لـمـ يـسـرـ مـعـهـمـ، فـجـعـلـ صـاحـبـاهـ يـكـلـمـانـهـ فـلـمـ يـجـدـاهـ، فـضـرـبـاـ الـخـبـاءـ فـقـالـاـ: مـاـ يـرـيدـ سـلـمـانـ أـوـ هـذـاـ

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٢٥.

(٢) المسند ٣٥١.

العبد شيئاً غير هذا أن يجيء إلى طعام مقدور وخباء مضروب، فلما جاء سلمان أرسله إلى رسول الله ﷺ يطلب لهما إداماً، فانطلق فأتى رسول الله ﷺ ومعه قدر له فقال: يا رسول الله بعثني أصحابي لتودمهم إن كان عندك. قال ﷺ: «ما يصنع أصحابك بالأدم؟ قد ائتموا» فرجع سلمان رضي الله عنه يخبرهما بقول رسول الله ﷺ فانطلق حتى أتيا رسول الله فقالا: والذي بعثك بالحق ما أصينا طعاماً منذ نزلنا. قال رسول الله ﷺ: «إنكم قد ائتمتما بسلمان بقولكم» قال: ونزلت **﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلْ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾** إنه كان نائماً.

وروى الحافظ الضياء المقدسي في كتابه المختار من طريق حبان بن هلال عن حماد بن سلمة عن ثابت، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كانت العرب تخدم بعضها ببعضاً في الأسفار، وكان مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، رجل يخدمهما فناناماً فاستيقظا ولم يهيا لهما طعاماً فقالا: إن هذا النوم فايقظاه، فقال له: أئنت رسول الله ﷺ فقال له إن أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يقرئانك السلام ويستأذمانك فقال ﷺ: «إنهما قد ائتما» فجاءا فقالا يا رسول الله بأي شيء ائتمنا؟ فقال ﷺ: «بل لحم أخيكما، والذي نفسي بيده إني لأرى لحمه بين ثنائيكما» فقالا رضي الله عنهم: استغفر لنا يا رسول الله، فقال ﷺ **﴿مُرَاهٌ فَلِيَسْتَغْفِرُ لَكُمَا﴾**.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا محمد بن مسلم عن محمد بن إسحاق، عن عمه موسى بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكل من لحم أخيه في الدنيا قرب الله إليه لحمه في الآخرة فيقال له كله أكلته حياً - قال - فياكله ويكلح^(١) ويصبح^(٢) غريب جداً.

وقوله عز وجل: **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾** أي فيما أمركم به ونهاكم عنه فراقبوه في ذلك واخشو منه **﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَابُ رَحِيمٌ﴾** أي تواب على من تاب إليه رحيم لمن رجع إليه واعتمد عليه. قال الجمهور من العلماء: طريق المغتاب للناس في توبته أن يقلع عن ذلك ويعزم على أن لا يعود، وهل يشترط التندم على ما فات؟ فيه تزاع، وأن يتحلل من الذي اغتابه. وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلل فإنه إذا أعلم به بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه فطريقه إذاً أن يثنى عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقتة، فتكون تلك كما قال الإمام أحمد^(٢)، حدثنا أحمد بن الحجاج، حدثنا عبد الله، أخبرنا يحيى بن أيوب عن عبد الله بن سليمان. أن إسماعيل بن يحيى المعاافري أخبره أن سهل بن معاذ بن أنس الجهنمي أخبره عن أبيه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من حمى مؤمناً من منافق يغتابه، بعث الله تعالى إليه ملكاً يحمي لحمه يوم القيمة من نار جهنم، ومن رمى مؤمناً بشيء

(١) يكلح: يعبس حتى تبدو أسنانه.

(٢) المستند ٤٤١ / ٣.

يريد سبه حبسه الله تعالى على جسر جهنم حتى يخرج مما قال^(١) وكذا رواه أبو داود من حديث عبد الله وهو ابن المبارك به بنحوه. وقال أبو داود أيضاً: حدثنا إسحاق بن الصباح، حدثنا ابن أبي مريم، أخبرنا الليث، حدثني يحيى بن سليم أنه سمع إسماعيل بن بشير يقول: سمعت جابر بن عبد الله وأبا طلحة بن سهل الأنصاري رضي الله عنهمما يقولان قال رسول الله ﷺ: «ما من أمرٍ يخدرُ امرءاً مسلماً في موضع تتهكّف فيه حرمته ويتنقصُ فيه من عرضه، إلا خذله الله تعالى في مواطن يحب فيها نصرته، وما من أمرٍ ينصر امرءاً مسلماً في موضع يتقصّ فيه من عرضه ويتنهك فيه من حرمته إلا نصره عز وجل في مواطن يحب فيها نصرته» تفرد به أبو داود^(٢).

يَتَأْمِنُ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَرَّةٍ وَأَنَّى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُورًا وَبِإِلَّا لِتَعْرَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتُمْ كُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَيْرٌ^(٣)

يقول تعالى مخبراً للناس أنه خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها، وهما آدم وحواء، وجعلهم شعورياً وهي أعم من القبائل، وبعد القبائل مراتب آخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك، وقيل: المراد بالشعوب بطون العرب، وبالقبائل بطون العرب، كما أن الأسباط بطون بنو إسرائيل، وقد لخصت هذا في مقدمة مفردة جمعتها من كتاب الإنباء لأبي عمر بن عبد البر، ومن كتاب (القصد والأمم في معرفة أنساب العرب والعجم) فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء عليهما السلام سواء، وإنما يتفاصلون بالأمور الدينية وهي طاعة الله تعالى ومتابعة رسوله ﷺ، ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحترار بعض الناس بعضاً، منبهأً على تساويهم في البشرية «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَرَّةٍ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُورًا وَبِإِلَّا لِتَعْرَفُوا» أي ليحصل التعارف بينهم كل يرجع إلى قبيلته، وقال مجاهد في قوله عز وجل «لتعارفوا» كما يقال فلان بن فلان من كذا وكذا أي من قبيلة كذا وكذا، وقال سفيان الثوري: كانت حمير يتسبون إلى مخالفتها، وكانت عرب الحجاز يتسبون إلى قبائلها.

وقد قال أبو عيسى الترمذى: حدثنا أحمد بن محمد، حدثنا عبد الله بن المبارك عن عبد الملك بن عيسى الشقفى، عن يزيد مولى المنبعث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثرة في المال منسأة في الآخر»^(٤) ثم قال غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٣٦.

(٢) كتاب الأدب باب ٣٦.

(٣) أخرجه الترمذى في البر باب ٤٩.

وقوله تعالى: «إِن أَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتُمْ» أي إنما تتفاضلون عند الله تعالى بالتقى لا بالأحساب، وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ.

قال البخاري رحمه الله: حدثنا محمد بن سلام، حدثنا عبدة عن عبيد الله عن سعيد بن أبي سعيد رضي الله عنه عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم» قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف النبي الله، ابن النبي الله، ابن نبي الله ابن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم. قال: «فخياركم في الجاهلية خياراتكم في الإسلام إذا فقهها»^(١) وقد رواه البخاري في غير موضع من طرق عن عبدة بن سليمان، ورواه النسائي في التفسير من حديث عبيد الله وهو ابن عمر العمري به.

[حديث آخر] قال مسلم رحمه الله: حدثنا عمرو النافق، حدثنا كثير بن هشام، حدثنا جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكُنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(٢) ورواه ابن ماجه عن أحمد بن سنان عن كثير بن هشام به.

[الحديث آخر] وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا وكيع عن أبي هلال عن بكر عن أبي ذر رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ قال له: «انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضل به بتقوى الله» تفرد به أحمد رحمه الله.

[الحديث آخر] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أبو عبيدة عبد الوارث بن إبراهيم العسكري، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو بن جبلة، حدثنا عبيد بن حنين الطائي، سمعت محمد بن حبيب بن خراش العصري يحدث عن أبيه رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «الMuslimون إخوة لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقى».

[الحديث آخر] قال أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا أحمد بن يحيى الكوفي، حدثنا الحسن بن الحسين، حدثنا قيس يعني ابن الربيع عن شبيب بن غرقدة، عن المستظل بن حصين عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم بني آدم وآدم خلق من تراب، وليتهم قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان»^(٤). ثم قال لا نعرفه

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء باب ١٤، ١٩، وتفسير سورة ١٢، باب ٢، ومسلم في الفضائل حديث ١٦٨، وأحمد في المسند ٤٣١ / ٢.

(٢) أخرجه مسلم في البر حديث ٣٣، وابن ماجه في الزهد باب ٩، وأحمد في المسند ٢٨٥ / ٢، ٥٣٩.

(٣) المسند ٥ / ١٥٨.

(٤) الجعلان، جمع جعل: دويبة صغيرة.

عن حذيفة إلا من هذا الوجه.

[حديث آخر] قال ابن أبي حاتم: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا يحيى بن زكريا القطان، حدثنا موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان بمحجن^(١) في يده، فما وجد لها مناخاً في المسجد حتى نزل ﷺ على أيدي الرجال، فخرج بها إلى بطن المسيل فأنيخت، ثم إن رسول الله ﷺ خطبهم على راحلته فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال: «يا أيها الناس إن الله تعالى قد أذهب عنكم عبادة الجاهلية وتعظّمها بآبائهما، فالناس رجال: رجل برتقي كريم على الله تعالى، ورجل فاجر شقي هين على الله تعالى، إن الله عز وجل يقول: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير»» - ثم قال ﷺ - أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم» هكذا رواه عبد بن حميد عن أبي عاصم الصحاح عن مخلد عن موسى بن عبيدة به.

[الحديث آخر] قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن علي بن رباح، عن عقبة بن عامر رضي الله عنهما قال إن رسول الله ﷺ قال: «إن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد، كلكم بنو آدم طف الصاع^(٣) لم يملؤوه، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى، وكفى بالرجل أن يكون بذياً بخيلاً فاحشاً». وقد رواه ابن جرير^(٤) عن يونس عن ابن لهيعة به ولفظه «الناس لآدم وحواء طف الصاع لم يملؤوه، إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيمة، إن أكرمكم عند الله أتقاكم». وليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه.

[الحديث آخر] قال الإمام أحمد^(٥): حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا شريك عن سماعة عن عبد الله بن عميرة زوج درة بنت أبي لهب، عن درة بنت أبي لهب رضي الله عنها قالت: قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر فقال: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال ﷺ: «خير الناس أقرأهم وأتقاهم لله عز وجل، وأمرهم بالمعروف وأنهفهم عن المنكر وأوصلهم للرحم».

[الحديث آخر] قال الإمام أحمد^(٦): حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو الأسود عن

(١) المحجن: عصا معقوفة الرأس.

(٢) المستند ١٥٨/٤.

(٣) طف الصاع: أي قريب بعضكم من بعض.

(٤) تفسير الطبرى ٣٩٩/١١.

(٥) المستند ٤٣٢/٦.

(٦) المستند ٦٩/٦.

القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما أعجب رسول الله ﷺ شيء من الدنيا ولا أعجبه أحد قط إلا ذو تقى ، تفرد به أحمد.

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِكُمْ﴾ أي عليم بكم خبير بأموركم ، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء ، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء ، ويفضل من يشاء على من يشاء ، وهو الحكيم العليم الخير في ذلك كله ، وقد استدل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة من ذهب العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط ولا يشترط سوى الدين لقوله تعالى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْقَاصَكُمْ﴾ وذهب الآخرون إلى أدلة أخرى مذكورة في كتب الفقه ، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في (كتاب الأحكام) والله الحمد والمنة ، وقد روى الطبراني عن عبد الرحمن أنه سمع رجلاً من بني هاشم يقول : أنا أولى الناس برسول الله ﷺ قال غيره : أنا أولى به منك ولنك منه نسبة .

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ إِمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قَوْلًا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلْتَكُمْ مِنْ أَعْمَلِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ أَمَّنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهُهُدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ قُلْ أَتَعْلَمُوْنَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَيْهِمْ يَعْلَمُونَ عَيْكُمْ أَنَّ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيْكُمْ إِسْلَامَكُمْ بِلَ اللَّهِ يَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ عَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

يقول تعالى منكراً على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد : ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ إِمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قَوْلًا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وقد استفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، ويدلل عليه حديث جبريل عليه الصلاة والسلام حين سأله عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان ، فترقى من الأعم إلى الأخص ثم للأخص منه .

وقال الإمام أحمد^(١) : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا عمر عن الزهرى عن عامر بن سعد بن أبي وقادس عن أبيه رضي الله عنهما قال : أعطى رسول الله ﷺ رجالاً ولم يعط رجالاً منهم شيئاً ، فقال سعد رضي الله تعالى عنه : يا رسول الله أعطيت فلاناً وفلاناً ولم تعط فلاناً شيئاً ، وهو مؤمن ، فقال النبي ﷺ : أو مسلم ؟ حتى أعادها سعد رضي الله عنه ثلاثة والنبي ﷺ يقول : أو مسلم ؟ ثم قال النبي ﷺ : إِنِّي لَأُعْطِي رجَالًا وَأَدْعُ مَنْ هُوَ أَحَبُ إِلَيَّ مِنْهُمْ ، فَلَا أُعْطِيهِ شَيْئًا

مخافة أن يكبوا في النار على وجوههم^(١) آخر جاه في الصحيحين من حديث الزهرى به، فقد فرق النبي ﷺ بين المؤمن وال المسلم، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام، وقد قررنا ذلك بأدله في أول شرح كتاب الإيمان من صحيح البخاري والله الحمد والمنة. ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً لأنه تركه من العطاء، ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا منافقين وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه فأدبوها في ذلك، وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما وإبراهيم النخعي وقتادة واختهار ابن جرير^(٢). وإنما قلنا هذا لأن البخاري رحمه الله ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرون بالإيمان وليسوا كذلك.

وقد روي عن سعيد بن جبیر ومجاہد وابن زید أنهم قالوا في قوله تبارک وتعالیٰ: ﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾ أي استسلمنا خوف القتل والسيء. قال مجاهد: نزلت في بني اسد بن خزيمة. وقال قتادة: نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ، وال الصحيح الأول أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد فأدبو وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا كما ذكر المنافقون في سورة براءة، وإنما قيل لهؤلاء تأدیباً: ﴿قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ أي لم تصلو إلى حقيقة الإيمان بعد. ثم قال تعالى: ﴿وإن طبّعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً﴾ أي لا ينقصكم من أجوركم ﴿شيئاً﴾ كقوله عز وجل: ﴿وما ألتكم من عملهم من شيء﴾ [الطور: ٢١] وقوله تعالى: ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي لمن تاب إليه وأناب.

وقوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون﴾ أي إنما المؤمنون الكامل ﴿الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا﴾ أي لم يشكوا ولا ترزلوا بل ثبتوا على حال واحدة هي التصديق المحسن ﴿وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ أي وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه ﴿أولئك هم الصادقون﴾ أي في قولهم إذا قالوا إنهم مؤمنون، لا بعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة.

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا يحيى بن غilan، حدثنا رشدين، حدثنا عمرو بن الحارث عن أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ قال: «المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء: الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذي يؤمن الناس على أموالهم وأنفسهم، والذي إذا أشرف على طمع تركه الله

(١) أخرجه البخاري في الإيمان باب ١٩ ، ومسلم في الإيمان باب ٢٣٧ .

(٢) تفسير الطبرى ١١ / ٤٠٠ .

(٣) المسند ٨ / ٣ .

عز وجل» وقوله سبحانه وتعالى: «**قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ**» أي أتخبرونه بما في ضمائركم «**وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**» أي لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر «**وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**».

ثم قال تعالى: «**يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا**» يعني الأعراب الذين يمنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول ﷺ يقول الله تعالى ردًا عليهم: «**قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيِ إِسْلَامِكُمْ**» فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم والله المنة عليكم فيه «**بِلَّا اللَّهُ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كُمْ لِإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**» أي في دعواكم ذلك كما قال النبي ﷺ للأنصار يوم حنين: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهذاكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمن^(١).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا يحيى بن سعيد الأموي عن محمد بن قيس عن أبي عون، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلتك. فقال رسول الله ﷺ: إن فقههم قليل وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم. ونزلت هذه الآية «**يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيِ إِسْلَامِكُمْ** بل الله يمن عليكم أن هذاكم ل لإيمان إن كنتم صادقين» ثم قال: لا نعلم بروى إلا من هذا الوجه، ولا نعلم روى أبو عون محمد بن عبيد الله عن سعيد بن جبير غير هذا الحديث ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات وبصره بأعمال المخلوقات فقال: «**إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**» آخر تفسير سورة الحجرات، والله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة.

(١) أخرجه البخاري في المغازى باب ٥٦، ومسلم في الزكاة حديث ١٣٩، وأحمد في المسند ٤٢.

وهي مكية

وهذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح وقيل من الحجرات. وأما ما يقوله العامة إنه من (عم) فلا أصل له ولم يقله أحد من العلماء رضي الله عنهم المعتبرين فيما نعلم. والدليل على أن هذه السورة هي أول المفصل ما رواه أبو داود في سنته بباب تحزيب القرآن ثم قال: حدثنا مسدد، حدثنا قرآن بن تمام، وحدثنا عبد الله بن سعيد أبو سعيد الأشجع، حدثنا أبو خالد، سليمان بن حيان، وهذا لفظه عن عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى عن عثمان بن عبد الله بن أوس عن جده، قال عبد الله بن سعيد: حدثني أوس بن حذيفة ثم اتفقا قال: قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف، قال فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وأنزل الرسول ﷺ بنى مالك في قبة له، قال مسدد: وكان في الوفد الذين قدموه على رسول الله ﷺ من ثقيف، قال كان رسول الله ﷺ كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا، قال أبو سعيد، قائماً على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام، فأكثر ما يحدثنا به ﷺ ما لقي من قومه قريش ثم يقول ﷺ: «لا سواء وكنا مستضعفين مستذلين» - قال مسدد بمكة - فلما خرجنا إلى المدينة كانت الحرب سجالاً بيننا وبينهم ندال عليهم ويدالون علينا» فلما كانت ليلة أبطأ ﷺ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأتم علينا الليلة، قال ﷺ: «إنه طرأ على حزبي من القرآن فكرهت أن أجيء حتى أتمه»^(١). قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف تحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاثة وخمس وسبعين وتسعة وحادي عشرة وثلاث عشرة. وحزب المفصل وحده، ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن أبي خالد الأحمر به، ورواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدي عن عبد الله بن عبد الرحمن هو ابن يعلى الطائي به. إذا علم هذا فإذا عدلت ثمانية وأربعين سورة فالتي بعدهن سورة ق. بيانه ثلاثة: البقرة وأآل عمران والنساء. وخمس: المائدة والأنعام والأعراف والأفال وبراءة. وسبعين: يونس وهود وي يوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل. وتسعة: سبعان والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان. وإحدى عشرة: الشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان والم السجدة والأحزاب وسبأ وفاطر ويس. وثلاث عشرة: الصافات وص والزمر وغافر وحم السجدة وحم عسق والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف والقتال والفتح والحجرات. ثم بعد ذلك الحزب المفصل كما قاله الصحابة رضي الله عنهم. فتعين أن أوله سورة ق. وهو الذي قلنا والله الحمد والمنة.

(١) أخرجه أبو داود في رمضان باب ٩، وابن ماجه في الإقامة باب ١٧٨، وأحمد في المسند ٩/٤.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا مالك عن ضمرة بن سعيد عن عبيد الله بن عبد الله أن عمر بن الخطاب سأله أبا واقد الليثي: ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد؟ قال: بقاف واقتربت^(٢)، رواه مسلم وأهل السنن الأربع من حديث مالك به. وفي رواية لمسلم عن فليح عن ضمرة عن عبيد الله عن أبي واقد قال: سألني عمر رضي الله عنه، فذكره.

[حديث آخر] وقال أحمد^(٣): حدثنا يعقوب، حدثنا أبي عن ابن إسحاق، حدثني عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن عمرو بن حزم عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زرار، عن أم هشام بنت حارثة قالت: لقد كان تنورنا وتنور النبي ﷺ واحداً سنتين أو سنة وبعض سنة، وما أخذت «ق والقرآن المجيد» إلا على لسان رسول الله، وكان يقرؤها كل يوم - جمعة على المنبر إذا خطب الناس^(٤)، رواه مسلم من حديث ابن إسحاق به. وقال أبو داود: حدثنا محمد بن بشير حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن خبيب عن عبد الله بن محمد بن معن عن ابنة الحارث بن النعمان قالت ما حفظت «ق» إلا من في رسول الله ﷺ يخطب بها كل جمعة. قالت: وكان تنورنا وتنور رسول الله ﷺ واحداً، وكذا رواه مسلم والنسيائي وابن ماجه من حديث شعبة به، والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار كالعيد والجمع لاشتمالها على ابتداء الخلق، والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب، والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَوْلُهُ الرَّءَانُ الْمَجِيدُ بِلَّمْ يَعْبُدُوا إِنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ فَنَهَمُهُمْ فَقَالَ الْكَفُورُونَ هَذَا شَيْءٌ عَيْنِي بَرِّئُوا إِذَا مَتَّنَا وَكَانَ رَبِّاً بَأْنَاهُ رَجَعَ بَعِيدٌ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنَقَصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ بِلَّمْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرْبِيْجٍ

﴿ق﴾: حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل سور كقوله تعالى: «ص» - «ن» - «الم» - «طس» - «حم» - ونحو ذلك، قاله مجاهد وغيره وقد أسلفنا الكلام عليها في أول سورة البقرة بما أغني عن إعادته، وقد روی عن بعض السلف أنهم قالوا: «ق» جبل

(١) المستند ٢١٧/٥ ، ٢١٨ .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة العيدين حديث ١٤ ، ١٥ ، والترمذى في الجمعة باب ٣٣ ، والنسيائي في العيدين باب ١٢ ، وابن ماجه في الإقامة باب ١٥٧ .

(٣) المستند ٤٣٥/٦ ، ٤٣٦ .

(٤) أخرجه مسلم في الجمعة حديث ٤٥ .

محيط بجميع الأرض يقال له جبل قاف، وكأن هذا، والله أعلم، من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس لما رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدق ولا يكذب، وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقهم، يلبسون به على الناس أمر دينهم، كما افترى في هذه الأمة مع جلاله قدر علمائها وحفظها وأئمتها أحاديث عن النبي ﷺ وما بالعهد من قدم فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى وقلة الحفاظ النقاد فيهم وشربهم الخمور، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه وتبديل كتب الله وأياته، وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: «وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»^(١) فيما قد يجوزه العقل، فأما فيما تحيله العقول ويحكم عليه بالبطلان ويغلب على الظنون كذبه فليس من هذا القبيل، والله أعلم.

وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة كبيرة من الخلف من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، والله الحمد والمنة، حتى أن الإمام أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، رحمة الله عليه، أورد هنها أثراً غريباً لا يصح سنته عن ابن عباس رضي الله عنهما فقال: حدثنا أبي قال: حدثت عن محمد بن إسماعيل المخزوبي، حدثنا ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خلق الله تبارك وتعالى من وراء سده الأرض بحراً محيطاً بها، ثم خلق من وراء ذلك البحر جبلاً يقال له «ق»، السماء الدنيا مرفوفة عليه^(٢)، ثم خلق الله تعالى من وراء ذلك الجبل أرضاً مثل تلك الأرض سبع مرات، ثم خلق من وراء ذلك بحراً محيطاً بها، ثم خلق من وراء ذلك جبلاً يقال له «ق» السماء الثانية مرفوفة عليه، حتى عد سبع أرضين وسبعة أبحار وسبعة أحجار وسبعين سموات، قال وذلك في قوله تعالى: «والبحر يمده من بعده سبعة أبحار» فإنستاد هذا الأثر فيه انقطاع، والذي رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل «ق» هو اسم من أسماء الله عز وجل والذي ثبت عن مجاهد أنه حرف من حروف الهجاء كقوله تعالى: «ص» - «ن» - «حـ» - «طـ» - «ـم» ونحو ذلك، فهذه تبعد ما تقدم عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقيل: المراد قضي الأمر والله، وأن قوله جل شأنه «ق» قال: دلت على المحدوف من بقية الكلم كقول الشاعر: [الرجز]

قلت لها قفي فقلت قاف^(٣)

وفي هذا التفسير نظر لأن الحذف في الكلام يكون إنما يكون إذا دل دليل عليه، ومن أين

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء باب ٥٠، وأبو داود في العلم باب ١١، والترمذى في العلم باب ١٣، وأحمد في المسند ١٥٩/٢، ١٠٢، ٢١٤، ٤٧٤، ٥٠٢، ٤٦/٣، ٥٦.

(٢) مرفوفة عليه: أي مسقوفة عليه.

(٣) الرجز بلا نسبة في لسان العرب (وقف) وتهذيب اللغة ١٥/٦٧٩، وتاح العروس (سين). وتفسير الطبرى ٤٠٦/١١.

يفهم هذا من ذكر هذا الحرف؟ وقوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنُ الْمَجِيد﴾ أي الكريم العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ [فصلت: ٤٢] واختلفوا في جواب القسم ما هو؟ فحكي ابن جرير عن بعض النحاة أنه قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضَ مِنْهُمْ وَعَنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ وفي هذا نظر بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم، وهو إثبات النبوة وإثبات المعاد وتقريره وتحقيقه، وإن لم يكن القسم ملقي لفظاً، وهذا كثير في أقسام القرآن كما تقدم في قوله: ﴿صَّ وَالْقُرْآنُ ذِي الْذِكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عَزَّةٍ وَشَقَاقٍ﴾ [ص: ٢] وهكذا قال هنـا: ﴿قَ وَالْقُرْآنُ الْمَجِيدُ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مِنْذُرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر، كقوله جل جلاله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أُوحِيَنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنذِرَ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢] أي وليس هذا بعجبـ فإنـ الله يصطفـي من الملائكة رسـلاً ومن الناسـ.

ثم قال عز وجل مخبراً عنـهم في تعجبـهم أيضاً من المعـاد واستبعـادـهم لـوقـوعـه ﴿أَنَّا مـتنا وـكـنا تـرابـاً ذـلـك رـجـع بـعـيد﴾ أي يقولـون أـنـذا مـتنا وـبـلـينا وـتـقطـعتـ الأـوصـال مـنا وـصـرـنا تـرابـاً، كـيفـ يمكنـ الرـجـوع بـعـد ذـلـك إـلـى هـذـه الـبـنـيـة وـالـتـرـكـيـب؟ ﴿ذـلـك رـجـع بـعـيد﴾ أي بـعـيد الـوـقـعـ. وـمعـنى هـذـا أـنـهـمـ يـعـتـقـدـونـ اـسـتـحـالـتـهـ وـعـدـ إـمـكـانـهـ. قالـ اللهـ تـعـالـى رـادـاً عـلـيـهـمـ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مـا تـنـقـصـ الـأـرـضـ مـنـهـم﴾ أي ما تـأـكـلـ مـنـ أـجـسـادـهـمـ فـي الـبـلـى نـعـلـمـ ذـلـكـ وـلـا يـخـفـي عـلـيـنـا أـيـنـ تـفـرـقـتـ الـأـبـدـانـ وـأـيـنـ ذـهـبـتـ وـإـلـى أـيـنـ صـارـتـ ﴿وـعـنـدـنـا كـتـابـ حـفـيـظـ﴾ أي حـافـظـ لـذـلـكـ فـالـعـلـمـ شـامـلـ وـالـكـتـابـ أـيـضاًـ فـيـهـ كـلـ الـأـشـيـاءـ مـضـبـوـطـةـ. قالـ العـوـفـيـ عنـ اـبـنـ عـبـاسـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـمـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ: ﴿قـدـ عـلـمـنـا مـا تـنـقـصـ الـأـرـضـ مـنـهـم﴾ أي ما تـأـكـلـ مـنـ لـحـومـهـمـ وـأـبـشـارـهـمـ، وـعـظـامـهـمـ وـأـشـعـارـهـمـ^(١)، وـكـذـاـ قـالـ مـجـاهـدـ وـقـاتـادـ وـالـضـحـاكـ وـغـيـرـهـمـ، ثـمـ بـيـنـ تـبـارـكـ وـتـعـالـىـ سـبـبـ كـفـرـهـمـ وـعـنـادـهـمـ وـاسـتـبعـادـهـمـ مـاـ لـيـسـ بـعـيـدـ فـقـالـ: ﴿بـلـ كـذـبـوا بـالـحـقـ لـمـ جـاءـهـمـ فـهـمـ فـيـ أـمـرـ مـرـيـجـ﴾ أيـ وـهـذـاـ حـالـ كـلـ مـنـ خـرـجـ عنـ الـحـقـ مـهـمـاـ قـالـ بـعـدـ ذـلـكـ فـهـوـ باـطـلـ، وـالـمـرـيـجـ: الـمـخـتـلـفـ الـمـضـطـرـبـ الـمـلـبـسـ الـمـنـكـرـ خـلـالـهـ كـوـلـهـ تـعـالـىـ: ﴿إـنـكـمـ لـفـيـ قـوـلـ مـخـتـلـفـ يـؤـفـكـ عـنـهـ مـنـ أـلـفـ﴾ [الـذـارـيـاتـ: ٩-٨]

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَزَّيْنَاهَا وَمَا هَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿١﴾ وَالْأَرْضَ مَدَّنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسَى وَأَنْبَيْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ رَزْعٍ بِهِمْ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ تَبَرَّأَ وَذَكَرَ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّثِيبٍ ﴿٣﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَمَّا مُبَدِّلٌ كَمَا فَأَنْبَيْنَا بِهِ جَنَّتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٤﴾ وَالْتَّخَلَّ بِأَسْقَنَتِهَا طَلْعَ نَصِيدٍ ﴿٥﴾ رَزَقْنَا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيْتَانًا كَذَلِكَ الْمَرْقُومُ ﴿٦﴾

(١) انظر تفسير الطبرى ٤٠٧/١١

يقول تعالى منبهًا للعباد على قدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه ﴿أَفَلَمْ يُنْظِرُوهُ إِلَى السَّمَاوَاتِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَاهَا﴾ أي بالمسابع ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فَرُوجٍ﴾ قال مجاهد: يعني من شقوق، وقال غيره: فتوق، وقال غيره: صدوع، والمعنى متقارب كقوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طَبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوْتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فَطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرْتَنَ يَنْقُلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرَ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤ - ٣] أي كليل عن أن يرى عيًّا أو نقصًا.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَنَاها﴾ أي وسعناها وفرشناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِي﴾ وهي الجبال لثلا تميد بأهلها وتضطرب، فإنها مقراة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها ﴿وَأَنْبَتَنَا فِيهَا مِنْ كُلِ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي من جميع الزروع والشمار والنبات والأنواع ﴿وَمِنْ كُلِ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لِعَلْكِمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩] وقوله ﴿بَهِيج﴾ أي حسن نضر ﴿تَبَصِّرَةً وَذَكْرِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُنْبِبٍ﴾ أي ومشاهدة خلق السموات والأرض وما جعل الله فيهما من الآيات العظيمة تبصيرة ودلالة ﴿وَذَكْرِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُنْبِبٍ﴾ أي خاضع خائف وجل رجاع إلى الله عز وجل .

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مَبَارِكًا﴾ أي نافعاً ﴿فَأَنْبَتَنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ أي حدائق من بساتين ونحوها ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ وهو الزرع الذي يراد لحبه وادخاره ﴿وَالنَّخْلُ بِاسْقَاتِ﴾ أي طوالًا شاهقات، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدي وغيرهم: الباسقات الطوال^(١) ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ أي منضود ﴿رِزْقًا لِلْعَبَادِ﴾ أي للخلق ﴿وَأَحْيَنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا﴾ وهي الأرض التي كانت هامدة، فلما نزل الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج من أزاهير وغير ذلك، مما يحار الطرف في حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها فأصبحت تهتز حضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيي الله الموتى وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحسن أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث، كقوله عز وجل: ﴿لِخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وقوله تعالى: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَمْ يَعِي بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَحْيِي الْمَوْتَىٰ بِلِي إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣] وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لِمَحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

كَذَّبَ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ بُرُوجَ وَاصْحَّبُ الرَّئِسَ وَمَمُودَ (١) وَعَادٌ وَفَرْعَوْنٌ وَإِخْرَانُ لُوطِرَ (٢) وَاصْحَّبُ الْأَيْكَةَ وَقَوْمٌ بَيْعَ كُلٌّ
كَذَّبَ الرَّسُولَ حَقَّ وَعَيْدَ (٣) أَفْعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُرُفٌ فِي لَبَّيْنِ مَنْ خَلَقَ جَدِيدًا (٤)

(١) انظر تفسير الطبرى ٤١١ / ١١

يقول تعالى مهدداً لکفار قريش، بما أحله بأشباههم ونظرائهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم، من النقمات والعداب الأليم في الدنيا كقوم نوح وما عذبهم الله تعالى به من الغرق العام لجميع أهل الأرض وأصحاب الرس، وقد تقدمت قصتهم في سورة الفرقان «وتمود وعد وفرعون وإخوان لوط» وهم أمته الذين بعث إليهم من أهل سدوم ومعاملتها من الغور، وكيف خسف الله تعالى بهم الأرض، وأحال أرضهم بحيرة متنية خبيثة بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق. «وأصحاب الأیکة» وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام «وقوم تبع» وهو اليماني، وقد ذكرنا من شأنه في سورة الدخان ما أغنی عن إعادته ههنا، والله الحمد والشكر.

«كل كذب الرسل» أي كل من هذه الأمم وھؤلاء القرون كذب رسوله، ومن كذب رسولاً فكأنما كذب جميع الرسل كقوله جل وعلا: «كذبت قوم نوح المرسلين» [الشعراء: ١٠٥] وإنما جاءهم رسول واحد فهم في نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبواهم «فحق وعيد» أي حق عليهم ما أوعدهم الله تعالى على التكذيب من العذاب والنکال، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك. قوله تعالى: «أفعينا بالخلق الأول» أي فأعجزنا ابتداء الخلق حتى هم في شک من الإعادة «بل هم في لبس من خلق جديد» والمعنى أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل منه كما قال عز وجل: «وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه» [الروم: ٢٧] وقال الله جل جلاله: «وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق علیم» [يس: ٧٨ - ٧٩] وقد تقدم في الصحيح «يقول الله تعالى يؤذيني ابن آدم يقول لن يعيديني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته».

وَلَقَدْ حَلَقَنَا الْأَنْسَنَ وَعَلِمَ مَا تُوَسِّعُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إِذَا يَنْلَقُ الْمُتَلَقِّيَانَ عَنِ الْأَيُوبِ
وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَكِفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْدٌ وَجَاءَتْ سَكَرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ
تَحِيدٌ وَنَجَّنَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَاقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُتِّبَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ
هَذَا فَكَتَّفَنَا عَنَّكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه وعلمه محيط بجميع أمره، حتى أنه تعالى يعلم ما توسر به نفوسبني آدم من الخير والشر. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال «إن الله تعالى تجاوز لأمي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل»^(١) وقوله عز وجل: «ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» يعني ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده

(١) أخرجه البخاري في الأیمان باب ١٥، ومسلم في الأیمان حديث ٢٠١، ٢٠٢، وأبو داود في الطلاق باب ١٥، والترمذی في الطلاق باب ٨، والنسائي في الطلاق باب ٢٢، وابن ماجه في الطلاق باب ١٤، ٤٩١، وأحمد في المسند ٣٩٨/٢، ٤٢٥، ٤٧٤، ٤٨١.

إليه، ومن تأوله على العلم فإنما فر لثلا يلزم حلول أو اتحاد وهم منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من جبل الوريد وإنما قال: «ونحن أقرب إليه من جبل الوريد» كما قال في المختصر «ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون» [الواقعة: ٨٥] يعني ملائكته.

وكما قال تبارك وتعالى: «إنا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون» [الحجر: ٩] فالملائكة نزلت بالذكر وهو القرآن بإذن الله عز وجل، وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من جبل وريده إليه بإقدار الله جل وعلا لهم على ذلك. فللهملك لمة في الإنسان كما أن للشيطان لمة^(١)، وكذلك الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم^(٢)، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ولهذا قال تعالى ههنا: «إذ يتلقى المتقين» يعني الملائكة الذين يكتبان عمل الإنسان.

«عن اليدين وعن الشمال قعيد» أي مترصد «ما يلفظ» أي ابن آدم «من قول» أي ما يتكلم بكلمة «إلا لدبيه رقيب عتيد» أي إلا ولها من يراقبها معتقد لذلك يكتبها لا يترك كلمة ولا حرفة كما قال تعالى: «وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون» [الأنفطار: ١٠ - ١٢] وقد اختلف العلماء هل يكتب الملك كل شيء من الكلام. وهو قول الحسن وقتادة، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب كما هو قول ابن عباس رضي الله عنهمَا، فعلى قولين وظاهر الآية الأولى لعموم قوله تبارك وتعالى: «ما يلفظ من قول إلا لدبيه رقيب عتيد».

وقد قال الإمام أحمد^(٣): حدثنا أبو معاوية، حدثنا محمد بن عمرو بن علقة الليثي عن أبيه عن جده علقة عن بلال بن الحارث المزنوي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان ﷺ تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه»^(٤) قال: فكان علقة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث، ورواه الترمذى والنمسائى وابن ماجه من حديث محمد بن عمرو به، وقال الترمذى: حسن صحيح وله شاهد في الصحيح.

(١) آخرجه الترمذى في تفسير سورة ٢، باب ٢٥.

(٢) آخرجه البخارى في الأحكام باب ٢١، وبدء الخلق باب ١١، والاعتكاف باب ١٢، ١١، وأبو داود في الصوم باب ٧٨، والستة باب ١٧، والأدب باب ٨١، وابن ماجه في الصيام باب ٦٥، والدارمى في الرقاب باب ٦٦، وأحمد في المسند ١٥٦/٣، ٢٨٥، ٣٠٩، ٣٣٧/٦.

(٣) المسند ٤٦٩.

(٤) آخرجه البخارى في الرفاق باب ٢٣، والتزمذى في الزهد باب ١٢، وابن ماجه في الفتنة باب ١٢، وممالك فى الكلام باب ٥.

وقال الأحنت بن قيس : صاحب اليمين يكتب الخير وهو أمير على صاحب الشمال فإن أصحاب العبد خطيبة قال له أمسك ، فإن استغفر الله تعالى نهاء أن يكتبها وإن أبي كتبها ، رواه ابن أبي حاتم ، وقال الحسن البصري وتلا هذه الآية ﴿عَنِ اليمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ﴾ يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك ، فاما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيناتك ، فاعمل ما شئت أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك وجعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيمة فعند ذلك يقول تعالى : ﴿وَكُلْ إِنْسَانُ الْزَّمَنِهِ طَائِرٌ فِي عَنْقِهِ وَنَخْرُجُ لَهُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يُلْقَاهُ مَنشُورًا أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفِي بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ ثم يقول : عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهم ﴿مَا يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ قال : يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر حتى أنه ليكتب قوله أكلت شربت ذهبت جئت رأيت ، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر وألقى سائره ، وذلك قوله تعالى : ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيَثْبِتُ مَا عَنْهُ أَمَّا الْكِتَابُ﴾ [الرعد: ٣٩] وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن في مرضه فبلغه عن طاوس أنه قال يكتب الملك كل شيء حتى الأنين فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحْيِدَ﴾ يقول عز وجل : وجاءت إليها الإنسان سكرة الموت بالحق أي كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمترى فيه ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحْيِدَ﴾ أي هذا هو الذي كنت تفر منه قد جاءك فلا مجيد ولا مناص ولا فكاك ولا خلاص .

وقد اختلف المفسرون في المخاطب بقوله : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحْيِدَ﴾ فال صحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو ، وقيل الكافر ، وقيل غير ذلك ، وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا إبراهيم بن زياد سبلان ، أخبرنا عباد بن عباد عن محمد بن عمرو بن علقمة عن أبيه ، عن جده علقة بن وفا قال : إن عائشة رضي الله عنها قالت : حضرت أبي رضي الله عنه وهو يموت ، وأناجالسة عند رأسه فأخذته غشية ، فتمثلت بيبيت من الشعر :

من لا يزال دمعه مقنعاً فإنه لا بدّ مرّة مدقوق^(١)

(١) الرواية عند ابن الأثير الجزي في النهاية في غريب الحديث ٤/١١٥ .

من لا يزال دمعه مقنعاً لا بدّ يوماً أن يهراق

هكذا ورد ، وتصحيحه :

من لا يزال دمعه مقنعاً لا بدّ يوماً أنه يهراق

وهو من الضرب الثاني من بحر الرجز ، رواه بعضهم :

قالت: فرفع رضي الله عنه رأسه فقال: يا بنتي ليس كذلك ولكن كما قال الله تعالى: «وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد» وحدثنا خلف بن هشام، حدثنا أبو شهاب الخياط عن إسماعيل بن أبي خالد عن البهبي قال: لما أن ثقل أبو بكر رضي الله عنه جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت: [الطوبل]

لعمرك ما يُعني الشراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر^(١)

فكشف عن وجهه وقال رضي الله عنه: ليس كذلك، ولكن قولي «وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد» وقد أوردت لهذا الأثر طرفاً كثيرة في سيرة الصديق رضي الله عنه عند ذكر وفاته، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه لما تغشاو الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «سبحان الله إن للموت لسكرات»^(٢) وفي قوله: «ذلك ما كنت منه تحيد» قولان: [أحدهما] أن ما ه هنا موصولة أي الذي كنت منه تحيد بمعنى تبتعد وتتنأى وتفر قد حل بك ونزل بساحتوك [والقول الثاني] أن «ما» نافية بمعنى ذلك ما كنت تقدر على الفرار منه ولا الحيد عنه وقد قال الطبراني في المعجم الكبير: حدثنا محمد بن علي الصائغ المكي، حدثنا حفص عن ابن عمر الحدي، حدثنا معاذ بن محمد الهذلي عن يونس بن عبيد عن الحسن عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مثيل الذي يفر من الموت مثل الثعلب تطلبه الأرض بدين، فجاء يسعى حتى إذا أعيى وأسهر دخل جحره فقلالت له الأرض يا ثعلب ديني، فخرج له حصاص فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه ومات» ومضمون هذا المثل كما لا انفكاك له ولا محيد عن الأرض، كذلك الإنسان لا محيد له عن الموت.

وقوله تبارك وتعالى: «ونفح في الصور ذلك يوم الوعيد» قد تقدم الكلام على حديث النفح في الصور والفنز والصعقة والبعث، وذلك يوم القيمة. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له» قالوا: يا رسول الله كيف نقول؟ قال ﷺ: «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل» فقال القوم: حسبنا الله

= ومن لا يزال الدمع فيه مقنعاً فلا بدّ يوماً أنه مهراق

وهو من الضرب الثالث من الطويل، فسروا المقنع بأنه المحبوس في جوفه، وكذلك الرواية في النهاية في غريب الحديث للزمخشري ١٢٨/٣.

(١) البيت لحاتم الطائي في ديوانه ص ١٩٩، والأغاني ٢٩٥/١٧، وجمهرة اللغة ص ١٠٣٤، ١١٣٣، وخزانة الأدب ٢١٢/٤، والدرر ٢١٥/١، والشعر والشعراء ٢٥٢/١، والصاحب في فقه اللغة ص ٢٦١، ولسان العرب (قرن)، وأساس البلاغة (حشر)، وبلا نسبة في لسان العرب (حشر)، وهو مع الهوامع ٦٥، والرواية في ديوان حاتم الطائي «أماوي» بدل «لعمرك».

(٢) أخرجه البخاري في الرفاق باب ٤٢، والترمذمي في الجنائز باب ٧، وابن ماجه في الجنائز باب ٦٤، وأحمد في المسند ٦٤، ٦٧، ٧٧، ٧٠، ١٥١.

ونعم الوكيل.

﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ أي ملك يسوقه إلى المحشر وملك يشهد عليه بأعماله هذا هو الظاهر من الآية الكريمة، وهو اختيار ابن جرير ثم روي من حديث إسماعيل بن أبي خالد عن يحيى بن رافع مولى لثيف قال: سمعت عثمان بن عفان رضي الله عنه يخطب فقرأ هذه الآية ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ فقال سائق يسوقها إلى الله تعالى وشاهد يشهد عليها بما عملت، وكذا قال مجاهد وقادة وابن زيد. وقال مطرف عن أبي جعفر مولى أشجع عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: السائق الملك والشهيد العمل، وكذا قال الصحاح والسدسي، وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهم: السائق من الملائكة والشهيد الإنسان نفسه، يشهد على نفسه، وبه قال الصحاح بن مزاحم أيضاً.

وحكى ابن جرير^(١) ثلاثة أقوال في المراد بهذا الخطاب في قوله تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ [أحدها] أن المراد بذلك الكافر، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهم، وبه يقول الصحاح بن مزاحم وصالح بن كيسان. [والثاني] أن المراد بذلك كل أحد من بروفاجر لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كالقيقة، والدنيا كالمنام، وهذا اختيار ابن جرير، ونقله عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس رضي الله عنهم. [والثالث] أن المخاطب بذلك النبي ﷺ وبه يقول زيد بن أسلم وابنه، والمعنى على قولهما: لقد كنت في غفلة من هذا الشأن قبل أن يوحى إليك، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك فبصرك اليوم حديد.

والظاهر من السياق خلاف هذا بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقوله تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا﴾ يعني من هذا اليوم ﴿فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ أي قوي لأن كل أحد يوم القيمة يكون مستبمراً حتى الكفار في الدنيا، يكونون يوم القيمة على الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك، قال الله تعالى: ﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا﴾ [مريم: ٣٨]. وقال عز وجل: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعننا فارجعنا نعمل صالحاً إنما موقفون﴾ [السجدة: ١٢].

وقال فَرِّمْتُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْدِ^(٢) أَلْقَيْا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ^(٣) مَنَعَ لِلْخَيْرِ مُعَنِّيٌ مُرِيبٌ^(٤) الَّذِي جَعَلَ
مَعَ اللَّهِ إِلَهًا أَخْرَ فَلَقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ^(٥) قَالَ فَرِّمْتُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ^(٦) قَالَ لَا
نَخَصِّمُ الَّذِي وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ^(٧) مَا يَبْدِلُ الْقَوْلُ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَيْدِ^(٨)

يقول تعالى مخبراً عن الملك الموكلي بعمل ابن آدم أنه يشهد عليه يوم القيمة بما فعل

ويقول: «هذا ما لدِي عَنِيدٌ» أي معتمد محضر بلا زيادة ولا نقصان. وقال مجاهد: هذا كلام الملك السائق، يقول ابن آدم الذي وكلتني به قد أحضرته وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد، وله اتجاه وقوه، فعند ذلك يحكم الله تعالى في الخلقة بالعدل فيقول: «ألقوا في جهنم كل كفار عنيد» وقد اختلف النحاة في قوله: «ألقوا» فقال بعضهم هي لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالثنية كما روى عن الحجاج أنه كان يقول يا حرسِي أضربُ عنقَه، ومما أنسد ابن جرير^(١) على هذه قول الشاعر: [الطوبل]

فإِنْ تَزْجَرَنِيْ يَا ابْنَ عَفَانَ أَنْزِرْجِزْ إِنْ تَرْكَانِيْ أَحْمِ عَرْضًا مَمْتَعًا^(٢)

وقيل: بل هي نون التأكيد سهلت إلى الألف، وهذا بعيد لأن هذا إنما يكون في الوقف، والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب، فلما أدى الشهيد عليه أمرهما الله تعالى بإلقائه في نار جهنم، وبئس المصير «ألقوا في جهنم كل كفار عنيد» أي كثير الكفر والتکذيب بالحق عنيد معاند للحق، معارض له بالباطل مع علمه بذلك «منع للخير» أي لا يؤدي ما عليه من الحقوق ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة «معتد» أي فيما ينفقه ويصرفه يتجاوز فيه الحد.

وقال قتادة: معتد في منطقه وسيره وأمره «مریب» أي شاك في أمره مریب لمن نظر في أمره «الذی جعل مع الله إلها آخر» أي أشرك بالله فبعد معه غيره «فالقياه في العذاب الشديد» وقد تقدم في الحديث أن عنقًا من النار يبرز للخلافة فینادي بصوت يسمع الخلاة: إني وكلت بثلاثة: بكل جبار عنيد، ومن جعل مع الله إلها آخر، وبالصوريين^(٣)، ثم تلوى عليهم، قال الإمام أحمد^(٤): حدثنا معاوية هو ابن هشام، حدثنا شيبان عن فراس عن عطية عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي الله ﷺ أنه قال: «يخرج عنق من النار يتكلم يقول وكلت اليوم بثلاثة: بكل جبار عنيد، ومن جعل مع الله إلها آخر، ومن قتل نفساً بغير نفس فتنطوي عليهم فتقذفهم في غمرات جهنم».

«قال قرينه» قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وفتادة وغيرهم: هو الشيطان الذي وكل به «ربنا ما أطغيته» أي يقول عن الإنسان الذي قد وافى القيامة كافراً يتبرأ منه شيطانه فيقول: «ربنا ما أطغيته» أي ما أضللتـه «ولكن كان في ضلال بعيد» أي بل كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل معانداً للحق، كما أخبر سبحانه وتعالى في الآية الأخرى في قوله: «وقال

(١) تفسير الطبرى ٤٢٢ / ١١.

(٢) البيت لسويد بن كراع العكلي في لسان العرب (جزء)، والثنية والإيضاح ٢٣٩ / ٢، و Taj al-Urus (جزء)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٨٣٩ ، والمخصص ٥ / ٢.

(٣) أخرجه الترمذى في صفة جهنم باب ١ ، وأحمد في المستند ٣٣٦ / ٢.

(٤) المستند ٤٠ / ٣.

الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفنكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولو مروا أنفسكم ما أنا بمصرخكم ولا أنت بمصرخي إني كفرت بما أشركتم من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم» [إبراهيم: ٢٢].

وقوله تبارك وتعالى: «قال لا تختصموا لدلي» يقول رب عز وجل للإنسى وقرئه من الجن، وذلك أنهما يختصمان بين يدي الحق تعالى، فيقول الإنسى يا رب هذا أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى، ويقول الشيطان: «ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد» أي عن منهج الحق، فيقول رب عز وجل لهما: «لا تختصموا لدلي» أي عندي «وقد قدمت إليكم بالوعيد» أي قد أعدرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب وقامت عليكم الحجج والبيانات والبراهين «ما يبدل القول لدلي» قال مجاهد: يعني قد قضيت ما أنا قاض «وما أنا بظلام للعبد» أي لست أعزب أحداً إلا بذنب أحد ولكن لا أعزب أحد إلا بذنبه بعد قيام الحجة عليه.

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَيَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿١﴾ وَأَرْلَفَتِ الْجَنَّةَ لِمُنْتَقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لَكُلَّ أَوَّلٍ حَفِظِي ﴿٣﴾ مَنْ حَشِّيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْرِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنْبِتٍ ﴿٤﴾ أَدْخُلُوهَا سَلَمًا ذَلِكَ يَوْمُ الْخَلُودِ ﴿٥﴾ لَمَّا كَانَ يَوْمُ الْحِسَابِ فِيهَا وَلَدِينَ مَزِيدٌ ﴿٦﴾

يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيمة: هل امتلأت؟ وذلك أنه تبارك وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو سبحانه وتعالى يأمر بمن يأمر به إليها ويلقى وهي تقول: «هل من مزيد» أي هل بقي شيء تزيدوني؟ هذا هو الظاهر في سياق الآية وعليه تدل الأحاديث.

قال البخاري^(١) عند تفسير هذه الآية: حدثنا عبد الله بن أبي الأسود، حدثني حرمي بن عمارة، حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يلقى في النار وتقول هل من مزيد؟» حتى يضع قدمه فيها فتقول: قط قط.

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة قدمه فيها فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط وعزتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشيء الله لها خلقاً آخر فيسكنهم الله تعالى في فضول الجنة»^(٣) ثم رواه مسلم من حديث قتادة بنحوه، ورواه أبان العطار وسلامان التيمي عن قتادة بنحوه.

(١) تفسير سورة ٥٠، باب ١.

(٢) المسند ٢٣٤/٣.

(٣) أخرجه مسلم في الجنة حديث ٣٨.

[حديث آخر] قال البخاري^(١): حديثنا محمد بن موسى القطان، حديثنا أبو سفيان الحميري سعيد بن يحيى بن مهدي، حديثنا عوف عن محمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، رفعه وأكثر ما كان يوقفه أبو سفيان: «يقال لجهنم هل امتلأت، وتقول هل من مزيد فيضع الرب تبارك وتعالى قدمه عليها فتقول فقط فقط» ورواه أبو أيوب وهمام بن حسان عن محمد بن سيرين به.

[طريق أخرى] قال البخاري^(٢): وحديثنا عبد الله بن محمد، حديثنا عبد الرزاق، أخبرنا عمر عن همام بن منبه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجررين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم. قال الله عز وجل للجنة أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار إنما أنت عذابي أذعب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكم ملؤها، فأما النار فلا تمتليء حتى يضع رجله فيها فتقول فقط فقط فهنا لك تمتليء وينزوي بعضها إلى بعض ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله عز وجل ينشيء لها خلقاً آخر».

[الحديث آخر] قال مسلم^(٣) في صحيحه. حديثنا عثمان بن أبي شيبة، حديثنا جرير عن الأعشن عن أبي صالح عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احتاجت الجنة والنار فقالت النار: في الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة في ضعفاء الناس ومساكينهم فقضى بينهما فقال للجنة إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار إنما أنت عذابي أذعب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكم ملؤها» انفرد به مسلم دون البخاري من هذا الوجه والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقد رواه الإمام أحمد^(٤) من طريق أخرى عن أبي سعيد رضي الله عنه بأسط من هذا السياق فقال: حديثنا حسن وروح قالا: حديثنا حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «افتخرت الجنة والنار فقالت النار يا رب يدخلني الجبارية والمتكبرون والملوك والأشراف ، وقالت الجنة أي رب يدخلني الضعفاء والفقراء والمساكين فيقول الله تبارك وتعالى للنار أنت عذابي أصيبي بك من أشاء ، وقال للجنة أنت رحمتي وسعت كل شيء ولكل واحدة منكم ملؤها فيلقني في النار أهلها فتقول هل من مزيد ، قال ويلقني فيها وتقول هل من مزيد ، ويلقني فيها وتقول هل من مزيد ، حتى يأتيها عز وجل فيضع قدمه عليها فتنزوي وتقول قدني قدني^(٥) ، وأما الجنة فيبقى

(١) كتاب التفسير تفسير سورة ق، ٥٠، باب ١، وأخرجه الترمذى في الجنة باب ٢٠.

(٢) كتاب التفسير، تفسير سورة ق، ٥٠، باب ١.

(٣) كتاب الجنة حديث ٣٤، ٣٥.

(٤) المسند ١٣/٣.

(٥) قدني، قدني: أي حسيبي، حسيبي.

فيها ما شاء تعالى أن يبقى فينshiء الله سبحانه وتعالى لها خلقاً ما يشاء».

[حديث آخر] وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثني عقبة بن مكرم، حدثنا يونس، حدثنا عبد الغفار بن القاسم عن عدي بن ثابت، عن زر بن حبيش، عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «يعرفني الله تعالى نفسه يوم القيمة، فأسجد سجدة يرضي بها عني ثم أمدحه مدحه يرضي بها عني، ثم يؤذن لي في الكلام، ثم تمر أمتي على الصراط مضروب بين ظهراني جهنم، فيمرون أسرع من الطرف والسمّ وأسرع من أجود الخيل، حتى يخرج الرجل منها يحبّو وهي الأعمال، وجهنم تسأل المزيد حتى يضع فيها قدمه فيتنزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط وأنا على الموحش» قيل: وما الموحش يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إن شرابه أبيض من اللبن وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج. وأطيب ريحًا من المسك، وأنتهي أكثر من عدد النجوم لا يشرب منه إنسان فيظماً أبداً ولا يصرف فيروي أبداً»^(١) وهذا القول هو اختيار ابن جرير.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشعج، حدثنا أبو يحيى الحمانى عن نصر الخاز عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما «يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد» قال: ما امتلأت قال تقول وهل في من مكان يزاد في، وكذا رواه الحاكم بن أبان عن عكرمة «وتقول هل من مزيد» وهل في مدخل واحد قد امتلأت. قال الوليد بن مسلم عن يزيد بن أبي مريم أنه سمع مجاهداً يقول: لا يزال يقذف فيها حتى تقول قد امتلأت فتقول: هل من مزيد، وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو هذا فعند هؤلاء أن قوله تعالى: «هل امتلأت» إنما هو بعدما يضع عليها قدمه فتنزوي وتقول حينئذ هل بقي في مزيد يسع شيئاً؟ قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: وذلك حين لا يبقى فيها موضع يسع إبرة، والله أعلم.

وقوله تعالى: «أَزْلَفْتُ الْجَنَّةَ لِلْمُتَقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ» قال قتادة وأبو مالك والسدى «أَزْلَفْتُ» أدنيت وقربت من المتقين «غَيْرَ بَعِيدٍ» وذلك يوم القيمة، وليس بعيد لأنّه واقع لا محالة وكل ما هو آت قريب «هذا ما توعدون لكل أواب» أي راجع تائب مقلع «حفيف» أي يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكثه، وقال عبيد بن عمير: الأواب الحفيظ الذي لا يجلس مجلساً فيقوم حتى يستغفر الله عز وجل «من خشي والرحمن بالغيب» أي من خاف الله في سره حيث لا يراه أحد إلا الله عز وجل كقوله ﷺ: «ورجل ذكر الله تعالى خالياً، ففاضت عيناه»^(٢).

«وجاء بقلب منيب» أي ولقي الله عز وجل يوم القيمة بقلب منيب سليم إليه خاضع لديه

(١) انظر الدر المنشور ٦/١٢٧، ١٢٨.

(٢) آخرجه البخاري في الأذان باب ٣٦، والزكاة باب ١٦، ومسلم في الزكاة حديث ٩١، والترمذى في الزهد باب ٥٣، ومالك في الشعر حديث ١٤، وأحمد في المسند ٤٣٩/٢.

﴿ادخلوها﴾ أي الجنة ﴿سلام﴾ قال قتادة سلموا من عذاب الله عز وجل، وسلم عليهم ملائكة الله، قوله سبحانه وتعالى: ﴿ذلك يوم الخلود﴾ أي يخلدون في الجنة فلا يموتون أبداً، ولا يطعنون أبداً ولا يبغون عنها حولاً، قوله جلت عظمته: ﴿لهم ما يشاؤن فيها﴾ أي مهما اختاروا وجدوا من أي أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا بقية عن بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن كثير بن مرة قال: من المزيد أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول: ماذا تريدون فأمطره لكم؟ فلا يدعون بشيء إلا أمطرتهم، قال كثير: لئن أشهدني الله تعالى ذلك لأقولن أمطربنا جواري مزيتات.

وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال له: «إنك لتشتهي الطير في الجنة فيخر بين يديك مشوياً» وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي عن عامر الأحول عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إذا اشتئي المؤمن الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسننه في ساعة واحدة»^(٢) ورواه الترمذى وابن ماجه عن بندار عن معاذ بن هشام به. وقال الترمذى حسن غريب وزاد: كما يشتهي.

وقوله تعالى: ﴿ولدينا مزيد﴾ كقوله عز وجل: ﴿للذين أحسنوا الحسنة وزيادة﴾ [يونس: ٢٦] وقد تقدم في صحيح مسلم عن صهيب بن سنان الرومي أنها النظر إلى وجه الله الكريم. وقد روى البزار وابن أبي حاتم من حديث شريك القاضي عن عثمان بن عمير أبي اليقظان عن أنس بن مالك رضي الله عنه في قوله عز وجل: ﴿ولدينا مزيد﴾ قال: يظهر لهم رب عز وجل في كل جمعة.

وقد رواه الإمام أبو عبد الله الشافعى مرفوعاً فقال في مسنده: أخبرنا إبراهيم بن محمد، حدثني موسى بن عبيدة، حدثني أبو الأزھر معاوية بن إسحاق بن طلحة عن عبد الله بن عمير أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: أتى جبرائيل عليه الصلاة والسلام بمرأة بيضاء فيها نكحة^(٣) إلى رسول الله فقال رسول الله ﷺ: «ما هذه؟» فقال: هذه الجمعة فضلتها بها أنت وأمتك، فالناس لكم فيها تبع اليهود والنصارى ولكم فيها خير، ولكم فيها ساعة لا يوافقها مؤمن، يدعوك الله تعالى فيها بخير إلا استجيب له وهو عندنا يوم المزيد.

قال النبي ﷺ: «يا جبريل وما يوم المزيد؟» قال عليه السلام: إن ربك تبارك وتعالى اتخذ في الفردوس وادياً أفيح^(٤) فيه كثب المسك، فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله تعالى ما شاء من

(١) المسند ٩/٣.

(٢) آخرجه الترمذى في الجنة باب ٢٣، وابن ماجه في الزهد باب ٣٩، والدارمى في الرفاق باب ١١٠.

(٣) النكحة: هي الأثر في الشيء كالنقطة من غير لونه.

(٤) الوادي الأفيح: الواسع.

ملائكته، وحوله منابر من نور عليها مقاعد النبيين، وحفت تلك المنابر من ذهب مكبلة بالياقوت والزبرجد عليها الشهداء والصديقون، فجلسو من ورائهم على تلك الكتب، فيقول الله عز وجل: أنا ربكم قد صدقتم وعدي فسلوني أعطيكم، فيقولون: ربنا نسألك رضوانك، فيقول: قد رضيت عنكم ولكم علي ما تمنيتم ولدي مزيد. فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربهم تبارك وتعالى من الخير، وهو اليوم الذي استوى فيه ربكم على العرش وفيه خلق آدم وفيه تقوم الساعة.

هكذا أورده الإمام الشافعي رحمه الله في كتاب الجمعة من الأم، وله طرق عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وقد أورد ابن جرير^(١) هذا الحديث من روایة عثمان بن عمیر عن أنس رضي الله عنه ببساط من هذا، وذكر هنا أثراً مطولاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه موقوفاً وفيه غرائب كثيرة.

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل في الجنة ليتکنء في الجنة سبعين سنة قبل أن يتحول، ثم تأتيه امرأة فتضرب على منكبها فینظر وجهه في خدتها أصفى من المرأة، وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغارب فتسلم عليه فيرد السلام فيسألها من أنت؟ فتقول أنا من المزيد وإنه ليكون عليها سبعون حلة أدناها مثل التعمان من طوبى فينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك، وإن عليها من التيجان إن أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغارب» وهكذا رواه عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث عن دراج به.

وَكُمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّهُمْ بَطْشًا فَنَقَبُوا فِي الْأَلَدِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سَيَّةٍ أَيَّامٍ وَمَا مَسَنَّا مِنْ لُغُوبٍ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَيَّعَ حَمْدُ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الْشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنْ أَيْلَلِ فَسِيعَهُ وَأَبْكَرَ الْأَسْجُودِ

يقول تعالى: وكم أهلتنا قبل هؤلاء المكذبين «من قرن هم أشد منهم بطشاً» أي كانوا أكثر منهم وأشد قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ولهذا قال تعالى ه هنا: «فتقروا في البلاد هل من محicus» قال ابن عباس رضي الله عنهما: أثروا فيها. وقال مجاهد «فتقروا في البلاد» ضربوا في الأرض وقال قتادة: فساروا في البلاد أي ساروا فيها يتغرون الأرزاق والمتأجر والمكاسب أكثر مما طفتم انت فيها، ويقال لمن طوف في البلاد نقب فيها، قال امرؤ

(١) تفسير الطبرى ١١ / ٤٣١ .

(٢) المسند ٣ / ٧٥ .

القيس : [الوافر]

لقد نَبَّتُ فِي الْأَفَاقِ حَتَّى رَضِيَتْ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ^(١)

وقوله تعالى : **﴿هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾** أي هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره وهل نفعهم ما جمعوه ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل فأنتم أيضاً لا مفر لكم ولا محيد ولا مناص ولا محicus . قوله عز وجل : **﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لِذَكْرِي﴾** أي لعنة **﴿لِمَنْ كَانَ لِهِ قَلْبٌ﴾** أي لب يعي به وقال مجاهد : عقل **﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾** أي استمع الكلام فروعه وتعقله بعقله وتفهمه بلبه ، وقال مجاهد : **﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾** يعني لا يحدث نفسه بغيره ، **﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾** وقال شاهد بالقلب^(٢) ، وقال الضحاك : العرب تقول ألقى فلان سمعه إذا استمع بأذنيه ، وهو شاهد بقلب غير غائب^(٣) ، وهكذا قال الثوري وغير واحد .

وقوله سبحانه وتعالى : **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سَتَةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لَغْوَبٍ﴾** فيه تقرير للمعدان لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأخرى ، وقال قتادة : قالت اليهود - عليهم لعائن الله - خلق الله السموات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت ، وهم يسمونه يوم الراحة فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتاؤلوه **﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لَغْوَبٍ﴾** أي من إحياء ولا تعب ولا نصب ، كما قال تبارك وتعالى في الآية الأخرى : **﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعِي بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَحْيِي الْمَوْتَى بِلِي إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** [الأحقاف : ٣٣] وكما قال عز وجل : **﴿لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾** [غافر : ٥٧] وقال تعالى : **﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءَ بَنَاهَا﴾** [النازعات : ٢٧] .

وقوله عز وجل : **﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾** يعني المكذبين اصبر عليهم واهجرهم هجراً جميلاً **﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طَلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الغَرْوَبِ﴾** وكانت الصلاة المفترضة قبل الإسراء ثنتين قبل طلوع الشمس في وقت الفجر وقبل الغروب في وقت العصر ، وقيام الليل كان واجباً على النبي ﷺ وعلى أمته حولاً ثم نسخ في حق الأمة وجوبه ثم بعد ذلك نسخ الله تعالى ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات ، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر فهما قبل طلوع

(١) يروى البيت :

وَقَدْ نَبَّتَ فِي الْأَفَاقِ حَتَّى رَضِيَتْ مِنَ السَّلَامَةِ بِالْإِيَابِ
وهو لامرئ القيس في ديوانه ص ٤٣ ، ولسان العرب (نقب) ، وجمهرة الأمثال ٤٨٤ / ١ ، والعقد الفريد ١٢٦ / ٣ ، والفاخر ص ٢٦٠ ، وكتاب الأمثال ص ٣٤٩ ، والمستقصى ١٠٠ / ٢ ، ومجمع الأمثال ١ / ٢٩٥ ، وتهذيب اللغة ١٩٧ / ٩ ، وتأج العروس (نقب) ، وتفسير الطبرى ١١ / ٤٣٢ .

(٢) انظر تفسير الطبرى ٤٣٣ / ١١ .

(٣) تفسير الطبرى ١١ / ٤٣٣ .

الشمس وقبل الغروب.

وقد قال الإمام أحمد^(١): حدثنا وكيع، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة القدر فقال: «أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر لا تضامون فيه، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا» ثم قرأ «وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب»^(٢) رواه البخاري ومسلم وبقية الجماعة من حديث إسماعيل به.

وقوله تعالى: «ومن الليل فسبحه» أي فصل له كقوله: «ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً» [الإسراء: ٧٩] «وأدبار السجود» قال ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو التسبيح بعد الصلاة.

ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله ذهب أهل الذور بالدرجات العلى والنعيم المقيم، فقال النبي ﷺ: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا تصدقون، ويعتقون ولا نعتق. قال ﷺ: «أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثةً وثلاثين» قال: فقالوا يا رسول الله سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله. فقال ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتى به من يشاء»^(٣) والقول الثاني أن المراد بقوله تعالى: «وأدبار السجود» هما الركعتان بعد المغرب روي ذلك عن عمر وعلي وابنه الحسن وابن عباس وأبي هريرة وأبي أمامة رضي الله عنهم وبه يقول مجاهد وعكرمة والشعبي والنخعي والحسن وفتادة وغيرهم.

قال الإمام أحمد^(٤) حدثنا وكيع وعبد الرحمن عن سفيان عن أبي إسحاق، عن عاصم بن ضمرة عن علي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يصلي على أثر كل صلاة مكتوبة ركعتين إلا الفجر والعصر، وقال عبد الرحمن دبر كل صلاة. رواه أبو داود والنسائي من حديث

(١) المسند ٤/٣٦٥، ٣٦٦.

(٢) آخرجه البخاري في تفسير سورة ٥٠، باب ٢، ومسلم في المساجد حديث ٢١١، وأبو داود في السنة باب ١٩، والترمذى في الجنة باب ١٦، ١٧، وابن ماجه في المقدمة باب ١٣.

(٣) آخرجه البخاري في الأذان باب ١٥٥، والدعوات باب ١٧، ومسلم في المساجد حديث ١٤٢، والزكاة حديث ٥٣، وأبو داود في الوتر باب ٢٤، وابن ماجه في الإقامة باب ٣٢، والدارمي في الصلاة باب ٩٠، وأحمد في المسند ٢/٢٣٨، ٥/١٦٧، ١٦٨.

(٤) المسند ١/١٢٤.

سفيان الثوري به، زاد النسائي ومطرف عن أبي إسحاق به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا هارون بن إسحاق الهمданى، حدثنا ابن فضيل عن رشدين بن كريب عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بت ليلة عند رسول الله ﷺ، فصلى ركعتين خفيفتين اللتين قبل الفجر، ثم خرج إلى الصلاة فقال يا ابن عباس «ركعتين قبل صلاة الفجر إدبار النجوم، وركعتين بعد المغرب إدبار السجود» ورواه الترمذى عن أبي هشام الرفاعى عن محمد بن فضيل به. وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وحدث ابن عباس رضي الله عنهم، وأنه بات في بيته خالته ميمونة رضي الله عنها، وصلى تلك الليلة مع النبي ﷺ ثلاث عشرة ركعة^(١) ثابت في الصحيحين وغيرهما. فاما هذه الزيادة فغريبة لا تعرف إلا من هذا الوجه ورشدين بن كريب ضعيف، ولعله من كلام ابن عباس رضي الله عنهم موقوفاً عليه، والله أعلم.

وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يَنَادِ الْمُنَادِ مِنْ سَكَانِ قَرِيبٍ ۝ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصِّيَحَةَ بِالْحَقِّ ۝ إِنَّا هَنَّ مُحْمَّدٌ ۝ وَنَّمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ۝ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سَرَاعًا ۝ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ۝ إِنَّا هَنَّ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۝ وَمَا أَنَّ عَلَيْهِمْ بِحَبَارٍ فَذَكِّرْ بِالْفُزُرِ ۝ إِنَّمَّا يَخَافُ وَيَعْدِ ۝

يقول تعالى: « واستمع » يا محمد « يوم ينادى المناد من مكان قريب ». قال قتادة: قال كعب الأحبار يأمر الله تعالى ملكاً أن ينادي على صخرة بيت المقدس أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة، إن الله تعالى يأمرك أن تجتمعن لفصل القضاء « يوم يسمعون الصيحة بالحق » يعني النفحة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون « ذلك يوم الخروج » أي من الأحداث « إننا نحن نحيي ونحيي وإلينا المصير » أي هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وإليه مصير الخلاق كلهم، فيجازي كلامه إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وقوله تعالى: « يوم تششق الأرض عنهم سراعاً » وذلك أن الله عز وجل يتزل مطراً من السماء ينبت به أجساد الخالقين كلها في قبورها، كما ينبت الحب في الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله تعالى إسرافيل فينفتح في الصور وقد أودعت الأرواح في ثقب في الصور فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوجه بين السماء والأرض، فيقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره فترجع كل روح إلى جسدها، فتدبر فيه كما يدب السم في اللديع وتنشق الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب سراعاً مبادرين إلى أمر الله عز وجل « مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر » [القرآن: ٨] [الإسراء: ٥٢].

(١) أخرج البخاري في الأذان باب ٥٨

وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أنا أول من تنشق عنه الأرض»^(١) ، قوله عز وجل : «ذلك حشر علينا يسيير» أي تلك إعادة سهلة علينا ، يسيرة لدينا كما قال جل جلاله : «وما أمرنا إلا واحدة كل مع بالبصر» [القمر : ٥٠].

وقال سبحانه وتعالى : «ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير» [لقمان : ٢٨] قوله جل وعلا : «نحن أعلم بما يقولون» أي نحن علمنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يهولنك ذلك كقوله : «ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين وابعد ربك حتى يأتيك اليقين» [الحجر : ٩٧ - ٩٩].

وقوله تبارك وتعالى : «وما أنت عليهم بجبار» أي ولست بالذي تجبر هؤلاء على الهدى ، وليس ذلك مما كلفت به . وقال مجاهد وقتادة والضحاك «وما أنت عليهم بجبار» أي لا تتجبر عليهم ، والقول الأول أولى ، ولو أراد ما قالوه لقال : ولا تكن جباراً عليهم ، وإنما قال : «وما أنت عليهم بجبار» بمعنى وما أنت بمجبّرهم على الإيمان إنما أنت مبلغ ، وقال الفراء : سمعت العرب تقول جبر فلان فلاناً على كذا بمعنى أجبره ، ثم قال عز وجل : «فذكر بالقرآن من يخاف وعید» أي بلغ أنت رسالة ربك فإنما يتذكر من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده ، كقوله تعالى : «فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب» [الرعد : ٤٠] قوله جل جلاله : «فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر» [الناشية : ٢١ - ٢٢] «ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء» [البقرة : ٢٧٢] «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء» [القصص : ٥٦] ولهذا قال تعالى ه هنا : «وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعید» كان قتادة يقول : اللهم اجعلنا من يخاف وعیدك ويرجو موعدك يا بار يا رحيم .

آخر تفسير سورة ق والحمد لله وحده وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(١) أخرجه مسلم في الفضائل حديث ٣.

تفسير سورة الذاريات
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّذِينَ ذَرُوا بِالْحَمَدِ وَقَرَا فَالْمَقْسِمَاتِ أَمْرًا إِنَّمَا تُوعَدُونَ لِصَادِقٍ وَإِنَّ
الَّذِينَ لَرَعُوا وَالسَّاءَةَ ذَاتَ الْحَبْكَ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْلِفٍ يُوقَفُ عَنْهُ مِنْ أَفَكَ فَنِيلَ الْحَرَصُونَ إِنَّ الَّذِينَ
هُمْ فِي عَمَرَةٍ سَاهُوكَ يَسْتَأْنُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينَ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يَقْتَنُونَ دُوْفُوا فَنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي
كُثُرْ بِهِ تَسْعَيْلُونَ

قال شعبة بن الحجاج عن سماك عن خالد بن عرعرة أنه سمع علياً رضي الله عنه، وشعبة أيضاً عن القاسم بن أبي بزة عن أبي الطفيل أنه سمع علياً رضي الله عنه، وثبت أيضاً من غير وجه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى، ولا عن سنة عن رسول الله ﷺ إلا أنبأتك بذلك، فقام إليه ابن الكواه، فقال: يا أمير المؤمنين ما معنى قوله تعالى: «والذاريات ذروا» قال علي رضي الله عنه، الريح، قال: «فالحاملات وقرأ» قال رضي الله عنه: السحاب، قال: «فالجاريات يسراً» قال رضي الله عنه: السفن، قال: «فالقسمات أمرًا» قال رضي الله عنه الملائكة^(۱).

وقد روی في ذلك حديث مرفوع، فقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن هانئ، حدثنا سعيد بن سلام العطار، حدثنا أبو بكر بن أبي سبرة عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب، قال: جاء صبيع التميمي إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، فأخبرني عن الذاريات ذروا، فقال رضي الله عنه: هي الرياح، ولو لا أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول ما قلته. قال: فأخبرني عن المقسمات أمرًا، قال رضي الله عنه هي الملائكة، ولو لا أنني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته، قال: فأخبرني عن الجاريات يسراً، قال رضي الله عنه: هي السفن، ولو لا أنني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. ثم أمر بضربه فضرب مائة وجعل في بيت، فلما برأ دعا به فضريه مائة أخرى وحمله على قتب وكتب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: امنع الناس من مجالسته، فلم يزل كذلك حتى أتى أبو موسى رضي الله عنه، فحلف بالأيمان الغليظة ما يجد في نفسه مما كان يجد شيئاً، فكتب في ذلك إلى عمر رضي الله عنه، فكتب عمر: ما إخاله إلا قد صدق فخل بينه وبين مجالسة الناس.

قال أبو بكر البزار: فأبو بكر بن أبي سبرة لين، وسعيد بن سلام ليس من أصحاب

(۱) انظر تفسير الطبرى 11/ 442، 443.

ال الحديث . قلت : فهذا الحديث ضعيف رفعه وأقرب ما فيه أنه موقوف على عمر رضي الله عنه ، فإن قصة صبيغ بن عسل مشهورة مع عمر رضي الله عنه ، وإنما ضربه لأنه ظهر له من أمره فيما يسأل تعتناً وعنداداً ، والله أعلم . وقد ذكر الحافظ ابن عساكر هذه القصة في ترجمة صبيغ مطولة ، وهكذا فسرها ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم ، ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدي وغير واحد ، ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم غير ذلك ، وقد قيل إن المراد بالذاريات الريح كما تقدم ، وبالحاملات وقرأ السحاب كما تقدم ، لأنها تحمل الماء كما قال زيد بن عمرو بن نفيل : [المتقارب]

وأسلمتُ نفسي لمن أسلمتْ لِهِ الْمُرْزُنْ تَحْمِلْ عَذْبًا زَلَالًا^(١)

فأما الجاريات يسراً فالمشهور عن الجمهور كما تقدم أنها السفن ، تجري ميسرة في الماء جرياً سهلاً ، وقال بعضهم : هي النجوم تجري يسراً في أفلاتها ليكون ذلك ترقياً من الأدنى إلى الأعلى إلى ما هو أعلى منه ، فالرياح فوقها السحاب ، والنجم فوق كذلك ، والمقسمات أمراً الملائكة فوق ذلك تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية ، وهذا قسم من الله عز وجل على وقوع المعاد ، ولهذا قال تعالى : «إنما توعدون لصادق» أي لخبر صدق «وإن الدين» وهو الحساب «الواقع» أي لكتائن لا محالة .

ثم قال تعالى : «والسماء ذات الحبك» قال ابن عباس رضي الله عنهم : ذات الجمال والبهاء والحسن والاستواء ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو مالك وأبو صالح والسدي وقتادة وعطيه العوفي والربيع بن أنس وغيرهم . وقال الضحاك والمنهال بن عمرو وغيرهما مثل تجدد الماء والرمل والزرع ، إذا ضربته الريح فينسج ببعضه بعضاً طرائق ، فذلك الحبك .

قال ابن جرير^(٢) : حدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن علي ، حدثنا أبي يعقوب عن أبي قلابة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إن من ورائكم الكذاب المضل ، وإن رأسه من ورائه حبك حبك» يعني بالحbrick الجعوده : وعن أبي صالح : «ذات الحبك» الشدة وقال خصيف : «ذات الحبك» ذات الصفاقة . وقال الحسن بن أبي الحسن البصري : ذات الحبك حبكت بالنجوم ، وقال قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن معدان بن أبي طلحة عن عمرو البكالي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهم «والسماء ذات الحبك» يعني السماء السابعة ، وكأنه والله أعلم أراد بذلك السماء التي فيها الكواكب الثابتة ، وهي عند كثير من علماء الهيئة في الفلك الثامن الذي فوق السابع ، والله أعلم .

وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد وهو الحسن والبهاء كما قال ابن عباس رضي الله عنهم ، فإنها من حسنها مرتفعه شفافة صفيقة شديدة البناء متسبة الأرجاء أنيقة البهاء ، مكملة

(١) البيت في سيرة ابن هشام ٢٣١/١ .

(٢) تفسير الطبرى ٤٤٥/١١ .

بالنجوم الثوابت والسيارات موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات قوله تعالى: «إنكم لفني قول مختلف» أي إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل لفي قول مختلف مضطرب لا يلائم ولا يجتمع، وقال قتادة: إنكم لفي قول مختلف ما بين مصدق بالقرآن ومكذب به.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مِنْ أَفْكَ﴾ أي إنما يروج على من هو ضال في نفسه، لأنه قول باطل إنما ينقداد له ويضل بسيبه، ويؤفك عنه من هو مأفوكة ضال غمراً لا فهم له كما قال تعالى: «إنكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاثنين إلا من هو صالح الجحيم» [الصفات: ١٦١ - ١٦٢] قال ابن عباس رضي الله عنهم والسدي «يُؤْفَكُ عَنْهُ مِنْ أَفْكَ﴾ يضل عنه من ضل. وقال مجاهد «يُؤْفَكُ عَنْهُ مِنْ أَفْكَ﴾ يؤمن عنه من أفن، وقال الحسن البصري: يصرف عن هذا القرآن من كذب به. قوله تعالى: «قتل الخراسون» قال مجاهد: الكذابون، قال: وهي مثل التي في عبس «قتل الإنسان ما أكفره» [عبس: ١٧] والخراسون الذين يقولون لا نبعث ولا يوقنون. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهم «قتل الخراسون» أي لعن المرتابون. وهكذا كان معاذ رضي الله عنه يقول في خطبته. هلك المرتابون. وقال قتادة: الخراسون أهل الغرة والظنون.

وقوله تبارك وتعالى: «الذين هم في غمرة ساهون» قال ابن عباس رضي الله عنهم وغير واحد في الكفر والشك غافلون لا هون «يسألون أيان يوم الدين» وإنما يقولون هذا تكذيباً وعنداداً وشكراً واستبعاداً، قال الله تعالى: «يُوْمٌ هُمْ عَلَى النَّارِ يَفْتَنُونَ» قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد «يُفْتَنُونَ» يعذبون. كما يفتن الذهب على النار، وقال جماعة آخرون مجاهد أيضاً وعكرمة وإبراهيم التخعي وزيد بن أسلم وسفيان الثوري: «يُفْتَنُونَ» يحرقون ذوقوا فتنتكم» قال مجاهد: حريقكم، وقال غيره: عذابكم «هذا الذي كنتم به تستعجلون» أي يقال لهم ذلك تكريعاً وتوبيناً وتحقيراً وتصغيراً، والله أعلم.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعَيْنِينَ ﴿١﴾ إِذَا خَرَجُوكُمْ مَآءَ إِنَّهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿٢﴾ كَانُوا فَلِيًّا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ يَجْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَبِالْأَسْعَارِ هُمْ يَسْتَعْفِرُونَ ﴿٥﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُوفُ ﴿٦﴾ وَفِي الْأَرْضِ إِيمَانٌ لِمُؤْمِنِينَ ﴿٧﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفْلَامٌ بَيْسِرُونَ ﴿٨﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٩﴾ فَوَرَبَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ إِنَّهُ لَعِقْدٌ مُثْلَّ مَا أَنْكُمْ تَنْطَفِقُونَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن المتقين لله عز وجل أنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعيون بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنkal والحريق والأغلال. قوله تعالى: «آخذين ما آتاهم ربهم» قال ابن جرير: أي عاملين بما آتاهم الله من الفرائض «إنهم كانوا قبل ذلك محسنين» أي قبل أن يفرض عليهم الفرائض كانوا محسنين في الأعمال أيضاً^(١)، ثم روی عن

ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن أبي عمر عن مسلم البطين، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: «آخذين ما آتاهم ربهم» قال: من الفرائض «إنهم كانوا قبل ذلك محسنين» قبل الفرائض يعلمون، وهذا الإسناد ضعيف ولا يصح عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقد رواه عثمان بن أبي شيبة عن معاوية بن هشام عن سفيان، عن أبي عمر البزار عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما فذكره، والذي فسر به ابن جرير فيه نظر، لأن قوله تبارك وتعالى «آخذين» حال من قوله في «جنت وعيون» فالمتقون في حال كونهم في الجنت والعيون آخذين ما آتاهم ربهم، أي من النعيم والسرور والغبطة.

وقوله عز وجل: «إنهم كانوا قبل ذلك» أي في الدار الدنيا «محسنين» كقوله جل جلاله: «كلوا وشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية» [الحقة: ٢٤] ثم إنه تعالى بين إحسانهم في العمل فقال جل وعلا: «كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون» اختلف المفسرون في ذلك على قولين: [أحدهما] أن «ما» نافية تقديره كانوا قليلاً من الليل لا يهجعونه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم تكن تمضي عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئاً، وقال قتادة عن مطرف بن عبد الله: قل ليلة لا تأتي عليهم إلا يصلون فيها لله عز وجل، إما من أولها وإما من أوسطها. وقال مجاهد: قل ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتهجدون، وكذا قال قتادة، وقال أنس بن مالك رضي الله عنه وأبو العالية: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء. وقال أبو جعفر الباقر كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة، [والقول الثاني] أن «ما» مصدرية تقديره كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ونومهم، واختاره ابن جرير.

وقال الحسن البصري «كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون» كابدوا قيام الليل فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدوا إلى السحر حتى كان الاستغفار بسحر، وقال قتادة: قال الأخفف بن قيس «كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون» كانوا لا ينامون إلا قليلاً ثم يقول: لست من أهل هذه الآية. وقال الحسن البصري: كان الأخفف بن قيس يقول عرضت عملي على عمل أهل الجنة، فإذا قوم قد بابينا بونا بعيداً، إذا قوم لا يبلغ أعمالهم كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وعرضت عملي على عمل أهل النار، فإذا قوم لا خير فيهم يكذبون بكتاب الله ويرسل الله، مكذبون بالبعث بعد الموت، فقد وجدت من خيرنا متزلة قوماً خلطوا عملاً صالحًا وأخر سيئاً.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال رجل منبني تميم لأبي: يا أبا أسامة صفة لا أجد لها فينا ذكر الله تعالى قوماً فقال: «كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون» ونحن والله قليلاً من الليل ما نقوم، فقال له أبي رضي الله عنه: طوبى لمن رقد إذا نuss واتقى الله إذا استيقظ. وقال عبد الله بن سلام رضي الله عنه: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجل الناس إليه، فكنت فيمن انجل، فلما رأيت وجهه ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول

ما سمعته ﷺ يقول: «يا أيها الناس أطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وأفشووا السلام، وصلوا بالليل والناس نائم تدخلوا الجنة بسلام».

وقال الإمام أحمد^(١): حديثاً حسن بن موسى، حديثاً ابن لهيعة حدثني حبي بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الجبلي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها» فقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: لمن هي يا رسول الله؟ قال ﷺ: «لمن لأن الكلام، وأطعم الطعام، ويات الله قائماً والناس نائم» وقال معمر في قوله تعالى: «كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون» كان الزهراني والحسن يقولان كانوا كثيراً من الليل ما يصلون، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وإبراهيم النخعي «كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون» ما ينامون. وقال الضحاك «إنهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلاً» ثم ابتدأ فقال: «من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون» وهذا القول فيه بعد وتعسف.

وقوله عز وجل: «وبالأسحار هم يستغفرون» قال مجاهد وغير واحد: يصلون وقال آخرون: قاموا الليل وأخرجو الاستغفار إلى الأسحار كما قال تبارك وتعالى: «والمستغفرين بالأسحار» فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن. وقد ثبت في الصباح وغيرها عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول هل من تائب فأتوب عليه، هل من مستغفر فأغفر له، هل من سائل فيعطي سؤله؟ حتى يطلع الفجر» وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخباراً عن يعقوب أنه قال لبنيه «سوف أستغفر لكم ربكم» قالوا أخرهم إلى وقت السحر.

وقوله تبارك وتعالى: «وفي أموالهم حق للسائل والممحروم» لما وصفهم بالصلاة ثنى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة فقال: «وفي أموالهم حق» أي جزء مقسم قد أفرزوه للسائل والممحروم. أما السائل معروف وهو الذي يبتدئ بالسؤال، وله حق كما قال الإمام أحمد^(٢): حديثنا وكيع وعبد الرحمن قالا: حديثنا سفيان عن مصعب بن محمد عن يعلى بن أبي يحيى، عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها الحسين بن علي رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على فرس»^(٣) ورواه أبو داود من حديث سفيان الثوري به. ثم أنسده من وجه آخر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وروي من حديث الهرناس بن زياد مرفوعاً. وأما الممحروم فقال ابن عباس رضي الله عنهم ومجاهد: هو المحارف^(٤) الذي ليس له في

(١) المسند / ٢ / ١٧٣ .

(٢) المسند / ١ / ٢٠١ .

(٣) آخرجه أبو داود في الزكاة باب ٣٣، والترمذى في القيامة باب ٤١ .

(٤) المحارف، بفتح الراء: الممحروم.

الإسلام سهم، يعني لا سهم له في بيت المال ولا كسب له ولا حرف يتقوت منها، وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: هو المحارف الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه، وقال الضحاك: هو الذي لا يكون له مال إلا ذهب، قضى الله تعالى له ذلك. وقال أبو قلابة: جاء سيل باليمامة فذهب بمال رجل، فقال رجل من الصحابة رضي الله عنهم: هذا المحروم قال ابن عباس رضي الله عنهم أيضاً وسعيد بن المسيب وإبراهيم النخعي ونافع مولى ابن عمر رضي الله عنهم وأعطاء بن أبي رباح: المحروم المحارف. وقال قتادة والزهري: المحروم الذي لا يسأل الناس شيئاً.

قال الزهري وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس المiskin بالطوف الذي ترده اللقمة واللقطتان والتمرة والتمرتان، ولكن المiskin الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه»^(١) وهذا الحديث قد أسنده الشیخان في صحیحهما من وجه آخر.

وقال سعيد بن جبیر: هو الذي يجیء وقد قسم المغمم فیرضخ له. وقال محمد بن إسحاق: حدثی بعض أصحابنا قال: کنا مع عمر بن عبد العزیز رضي الله عنه فی طریق مکة، فجاء کلب، فانتزع عمر رضي الله عنه کتف شاة فرمی بها إلیه وقال: يقولون إنه المحروم، وقال الشعبي: أعياني أن أعلم ما المحروم، واختار ابن جریر^(٢) أن المحروم الذي لا مال له بأی سبب كان وقد ذهب ماله، سواء كان لا يقدر على الکسب أو قد هلك ماله أو نحوه بأفة أو نحوها. وقال الثوری عن قیس بن مسلم عن الحسن بن محمد رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ بعث سریة فغنموا، فجاء قوم لم يشهدوا الغنیمة، فنزلت هذه الآیة **﴿وَمَا**
أَمْوَالَهُمْ حَقٌ لِّلْسَائِلِ وَالْمَحْرُومُ﴾ وهذا يقتضی أن هذه مدینة وليس كذلك بل هي مکیة شاملة لما بعدها.

وقوله عز وجل: **﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾** أي فيها من الآیات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات والمهاد والجبال والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهم والحركات والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه، ولهذا قال عز وجل: **﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفْلَامٌ تَبَصِّرُونَ﴾** قال قتادة: من تفكّر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولینت مفاصله للعبادة.

ثم قال تعالى: **﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾** يعني المطر **﴿وَمَا تَوَعَّدُونَ﴾** يعني الجنة، قاله ابن

(١) أخرجه البخاري في الزكاة باب ٥٣، ومسلم في الزكاة حديث ١٠١، والمسانيد في الزكاة باب ٧٦، وأحمد في المسند ١/٣٨٤، ٣٨٤/٣٨٤، ٤٤٦، ٤٤٦/٣١٦، وانظر تفسير الطبری ١١/٤٥٨.

(٢) انظر تفسير الطبری ١١/٤٥٨.

عباس رضي الله عنهمَا ومجاہد وغير واحد. وقال سفیان الثوری: قرأ واصل الأحدب هذه الآية «وفي السماء رزقكم وما توعدون» فقال: ألا إني أرى رزقی فی السماء وأنا أطلبه في الأرض؟ فدخل خربة فمكث ثلاثة لا يصيب شيئاً، فلما أن كان اليوم الثالث إذا هو بدخولة من رطب، وكان له أخ أحسن نية منه، فدخل معه فصارتا دوختين، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق بينهما الموت^(٢).

وقوله تعالى: «فُورَبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضَ إِنَّهُ لَحَقَ مِثْلَ مَا أَنْكُمْ تَنْطَقُونَ» يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشکوا فيه كما لا تشکوا في نطفکم حين تنطقون، وكان معاذ رضي الله عنه إذا حدث بالشيء يقول لصاحبه: إن هذا الحق كما أنك هننا، قال مسدد عن ابن أبي عدي عن عوف عن الحسن البصري قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا» ورواه ابن جرير^(٣) عن بندار عن ابن أبي عدي عن عوف عن الحسن فذكره مرسلاً.

هَلْ أَنْتَكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكَرَّمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذَا دَخَلُوكُمْ عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ، فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ قَاتَ حَسَنَ مِنْهُمْ حِيقَةً قَالُوا لَا تَنْفَعُنَا وَلَا شُرُوهُ يُغْلِيمُ عَلَيْهِ ﴿٢٨﴾ فَأَفْبَلَتْ أَمْرَاتُهُمْ فِي صَرَقَةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَاتَ عَجُوزَ عَيْنِيهِ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

هذه القصة قد تقدمت في سورة هود والحجر أيضاً فقوله: «هل أنتك حديث ضيف إبراهيم المكرمين» أي الذين أرصد لهم الكراهة، وقد ذهب الإمام أحمد وطايفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للتزييل، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التزييل. قوله تعالى: «قالوا سلاماً قال سلام» الرفع أقوى وأثبت من النصب، فرده أفضل من التسليم ولهذا قال تعالى: «إِذَا حَيَّتُمْ بِتَحْيَةٍ فَحِيُوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رَدُّوهَا» [النساء: ٨٦] فالخليل اختار الأفضل.

وقوله تعالى: «قَوْمٌ مُنْكَرُونَ» وذلك أن الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل قدموه عليه في صورة شبان حسان عليهم مهابة عظيمة ولهذا قال: «قَوْمٌ مُنْكَرُونَ» قوله عز وجل: «فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ» أي انسلاخية في سرعة «فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ» أي من خيار ماله، وفي الآية الأخرى: «فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حِينَذِ» [هود: ٦٩] أي مشوي على الرضف «فَقَرَبَهُ إِلَيْهِمْ» أي أدناه منهم «قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ؟» تلطف في العبارة وعرض حسن، وهذه الآية انتظمت أدب الضيافة فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولاً فقال: ناتيكم بطعام بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتي سمين مشوي،

(١) الدوخلة: النسيجة من خوص.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٤٦١ / ١١.

(٣) انظر تفسير الطبرى ٤٦٢ / ١١.

فقربه إليهم لم يضنه و قال اقتربوا ، بل وضعه بين أيديهم ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم بل قال : ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ على سبيل العرض والتلطف ، كما يقول القائل اليوم إن رأيت أن تفضل وتحسن وتتصدق فافعل .

وقوله تعالى : ﴿فَأَوْجَسْ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ هذا محال على ما تقدم في القصة في السورة الأخرى وهي قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيهِمْ لَا تَصْلِ إِلَيْهِ نَكْرَهُمْ وَأَوْجَسْ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخْفِ إِنَا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ لَوْطٍ وَأَمْرَأَهُ فَائِمَةٌ فَضَحِّكَتْ﴾ [هود: ٧١ - ٧٠] أي استبشرت بهلاكم لتمردهم وتعظهم على الله تعالى ، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿قَالَ يَا وَيْلَنَا أَلَّدْ وَأَنَا عَجُوزْ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنْ هَذَا لَشَيْءٍ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجِبُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مجید﴾ [هود: ٧٢ - ٧٣] ولهذا قال الله سبحانه وتعالى ه هنا : ﴿وَبِشِّرُوهُ بَغْلَامَ عَلِيمَ﴾ فالبشارة له هي بشاره لها . لأن الولد منها فكل منها بشر به .

وقوله تعالى : ﴿فَأَقْبَلَتْ امْرَأَهُ فِي صَرْخَةٍ عَظِيمَةٍ وَرَتَّةً﴾ ، قاله ابن عباس رضي الله عنهم ومجاهد وعكرمة وأبو صالح والضحاك وزيد بن أسلم والثوري والسدي وهي قولها ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ ﴿فَصَكَتْ وَجْهَهَا﴾ أي ضربت بيدها على جبينها قاله مجاهد وابن سابط ، وقال ابن عباس رضي الله عنهم : لطمته أي تعجب كما تتعجب النساء من الأمر الغريب ﴿وَقَالَتْ عَجُوزْ عَقِيمَ﴾ أي كيف ألد وأنا عجوز وقد كنت في حال الصبا عقيماً لا أحبل ؟ ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ أي عليم بما تستحقون من الكرامة حكيم في أقواله وأفعاله .

﴿قَالَ فَإِنَّمَا أَخْطَبْتُكُمْ أَيْمَانَ الْمَرْسَلِينَ﴾ ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ تَجْرِي مِنْ طِينٍ مَسْوَمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسَرِّفِينَ﴾ ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَوَجَدْنَا فِيهَا عِرَبَيْتِ مِنَ الْمُسَلِّمِينَ﴾ ﴿وَرَتَّكَاهُنَّا إِيَّاهُ لِلَّذِينَ يَحْكَمُونَ عَذَابَ الْأَلِيمِ﴾

قال الله تعالى مخبراً عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿فَلِمَا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرُّوحُ وَجَاءَهُ الْبَشَرُ يَجَادِلُنَا فِي قَوْمٍ لَوْطٍ إِنْ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوْ أَهْلٌ مُنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمَ أَعْرَضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرَ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتَيْتُهُمْ عَذَابَ غَيْرِ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٦ ، ٧٤] وقال ه هنا : ﴿قَالَ فَمَا خَطَبْكُمْ أَيْهَا الْمَرْسَلُونَ﴾ أي ما شأنكم وفيهم جثتم ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مَسْوَمِينَ﴾ يعنيون قوم لوط ﴿لِنَرْسِلَ عَلَيْهِمْ حَجَرَةً مِنْ طِينٍ مَسْوَمَةً﴾ أي معلمة ﴿عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسَرِّفِينَ﴾ أي مكتبة عندك بأسمائهم كل حجر عليه اسم صاحبه ، فقال في سورة العنكبوت : ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لَوْطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنْتَجْزِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢] وقال تعالى ه هنا : ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته .

﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ احتج بهذه من ذهب إلى رأي المعتزلة ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام، لأنه أطلق عليهم المؤمنين وال المسلمين، وهذا الاستدلال ضعيف لأن هؤلاء كانوا قوماً مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس فاتفاق الاسمان هنا لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك في كل حال، قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخْافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي جعلناها عبرة لما أنزلنا بهم من العذاب والنkal وحجارة السجيل، وجعلنا محلتهم بحيرة متنعة خبيثة، ففي ذلك عبرة للمؤمنين ﴿الَّذِينَ يَخْافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾

وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فَرْعَوْنَ سُلْطَانَ مُبِينٍ ﴿فَتَوَلَّ بِرَبِّكُهُ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجْهَهُ فَبَنَدَنَتْهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرَّيْحَ الْعَقِيمَ﴾ ﴿مَا تَذَرُّ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالْرَّمِيمِ﴾ ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّعُوا حَتَّىٰ حَيْنٍ﴾ ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿فَاَسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصِرِينَ﴾ ﴿وَقَوْمُ نُوحٍ مَنْ قَبْلَ إِيمَّهُمْ كَانُوا فَوْمًا فَسَقِينَ﴾

يقول تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فَرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي بدليل باهر وحجة قاطعة ﴿فَتَوَلَّ بِرَبِّكُهُ﴾ أي فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق المبين استكماراً وعنداداً. وقال مجاهد: تعزز بأصحابه، وقال قتادة: غالب عدو الله على قومه، وقال ابن زيد ﴿فَتَوَلَّ بِرَبِّكُهُ﴾ أي بجموعه التي معه ثم قرأ ﴿لَوْ أَنْ لَيْ بَكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَيْ إِلَى رَكْنٍ شَدِيدٍ﴾ والمعنى الأول قوي كقوله تعالى: ﴿ثَانِي عَطْفَهُ لِيُضْلِلَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٩] أي معرض عن الحق مستكبر ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي لا يخلو أمرك فيما جئتني به من أن تكون ساحراً أو مجنوناً قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجْنَوْهُ فَبَنَدَنَاهُمْ﴾ أي ألقيناهم ﴿فِي الْيَمِّ﴾ وهو البحر ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي وهو ملوم كافر جاحد فاجر معاند.

ثم قال عز وجل ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرَّيْحَ الْعَقِيمَ﴾ أي المفسدة التي لا تنبع شيئاً قاله الصحاح وقتادة وغيرهما ولهذا قال تعالى: ﴿مَا تَذَرُّ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ﴾ أي مما تقسده الرياح ﴿إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالْرَّمِيمِ﴾ أي كالشيء الهالك البالى، وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي عبد الله بن وهب، حدثني عبد الله يعني ابن عياش القتباني، حدثني عبد الله بن سليمان عن دراج عن عيسى بن هلال الصدفي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الرياح مسخرة من الثانية - يعني من الأرض الثانية -، فلما أراد الله تعالى أن يهلك عاداً أمر خازن الرياح أن يرسل عليهم ريحانا تهلك عاداً قال أي رب أرسل عليهم الرياح قدر منخر الثور؟ قال له الجبار تبارك وتعالى لا إذاً تكفاً للأرض ومن عليها ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم فهي التي قال الله عز وجل في كتابه: «مَا تَذَرُّ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالْرَّمِيمِ» هذا الحديث رفعه منكر والأقرب أن يكون موقعاً على

عبد الله بن عمرو رضي الله عنهم من زاملته^(١) اللتين أصابهما يوم اليرموك، والله أعلم.

قال سعيد بن المسيب وغيره في قوله تعالى: «إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ» قالوا: هي الجنوب. وقد ثبت في الصحيح من رواية شعبة عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»^(٢) «وفي ثمود إذ قيل لهم تتمتعوا حتى حين» قال ابن جرير: يعني إلى وقت فناء آجالكم.

والظاهر أن هذه كقوله تعالى: «وَأَمَّا ثُمُودٌ فَهُدِينَا هُمْ فَاسْتَحْبَوْا الْعُمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخْذَنَاهُمْ صَاعِدَةً الْعَذَابِ الْهَوْنَ» [فصلت: ١٧] وهكذا قال هؤلاء: «وَفِي ثُمُودٍ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتعُوا حَتَّى حِينَ فَعْتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخْذَنَاهُمْ الصَّاعِدَةَ وَهُمْ يَنْظَرُونَ» وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام فجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار «فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ» أي من هرب ولا نهوض «وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ» أي لا يقدرون على أن يتتصروا مما هم فيه. وقوله عز وجل: «وَقَوْمٌ نُوحٌ مِنْ قَبْلِهِمْ أَيُّ وَالْأَهْلَكُنَا قَوْمٌ نُوحٌ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسْقِنْهُمْ» وكل هذه القصص قد تقدمت مبسوطة في أماكن كثيرة من سور متعددة، والله أعلم.

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْمَانِنَا وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشَنَاهَا فَنَعَمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٥﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ نَذَكِرُونَ ﴿٦﴾ فَقَرُوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهَآءَ أَخْرَى إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٨﴾

يقول تعالى منهاً على خلق العالم العلوى والسفلى «والسماء بنيناها» أي جعلناها سقفاً محفوظاً رفيعاً «بأيدهِ» أي بقوة، قاله ابن عباس ومجاهد وفتادة والثوري وغير واحد «وإنما لموسعون» أي قد وسعنا أرجاءها فرقناها بغير عمد حتى استقلت كما هي «والارض فرشناها» أي جعلناها فراشاً للمخلوقات «فنعم الماهدون» أي وجعلناها مهدًا لأهلها.

«وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ» أي جميع المخلوقات أزواج سماء وأرض وليل ونهار، وشمس وقمر وبحر وضياء وظلماء، وإيمان وكفر وموت وحياة وشقاء وسعادة وجنة ونار، حتى الحيوانات والنباتات، ولهذا قال تعالى: «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» أي لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له «فَقَرُوا إِلَى اللَّهِ» أي الجئوا إليه واعتمدوا في أموركم عليه «إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ» ولا تجعلوا مع الله إلهآء آخر «أَيْ لَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً» «إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

كَذَلِكَ مَا أَنَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا فَالْأُولُوا سَاحِرُونَ ﴿٩﴾ أَتَوْ أَصَوَّبُهُمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿١٠﴾ فَقُولَّهُمْ فَمَا أَنَّتَ بِمَلْوَمٍ ﴿١١﴾ وَذَكِرْ فَإِنَّ الْذِكْرَى لَفْعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ وَمَا خَفَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا

(١) الزاملة: البعير الذي يحمل عليه الطعام والماء.

(٢) آخرجه البخاري في الاستقاء باب ٢٦، ومسلم في الاستقاء حديث ١٧.

لِيَعْبُدُونَ ﴿١﴾ مَا أَرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّازِقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمُتَّيْنُ ﴿٣﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنْبًا مِثْلًا ذَنْبَ الْأَصْحَابِ الْمُتَّيْمِنِ ﴿٤﴾ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥﴾ فَوَلَىٰ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦﴾

يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ وكما قال لك هؤلاء المشركون قال المكذبون الأولون لرسولهم: «كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون» قال الله عز وجل: «أتواصوا به؟» أي أوصى بعضهم ببعض بهذه المقالة «بل هم قوم طاغون» أي لكن هم قوم طغاة تشبهت قلوبهم، فقال متأخر لهم كما قال متقدمهم.

قال الله تعالى: «فَتُولُّ عَنْهُمْ» أي فأعرض عنهم يا محمد «إِنَّمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ» يعني بما نلومك على ذلك «وَذَكْرُ فَيْنَ الذَّكْرِي تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ» أي إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة، ثم قال جل جلاله: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ» أي إنما خلقتهم لأمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس «إِلَّا لِيَعْبُدُونَ» أي إلا ليقرروا بعبادتي طوعاً أو كرهاً. وهذا اختيار ابن جرير^(١) وقال ابن جريج: إلا ليعرفون، وقال الريبع بن أنس «إِلَّا لِيَعْبُدُونَ» أي إلا للعبادة، وقال السدي: من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع «وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ» هذا منهم عبادة وليس ينفعهم مع الشرك، وقال الضحاك: المراد بذلك المؤمنون.

وقوله تعالى: «مَا أَرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّازِقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمُتَّيْنُ» قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا يحيى بن آدم وأبو سعيد قالا: حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أقرأني رسول الله ﷺ «إِنِّي لَأَنَا الرَّازِقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمُتَّيْنُ»^(٣) ورواه أبو داود والترمذى والنسائي من حديث إسرائيل، وقال الترمذى: حسن صحيح. ومعنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب. وأخبر أنه غير محتاج إليهم بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم. فهو خالقهم ورازقهم. قال الإمام أحمد^(٤): حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا عمران - يعني ابن زائدة بن نشيط عن أبيه عن أبي خالد - هو الوالبي - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى - «يَا ابْنَ آدَمْ تَفَرَّغْ لِعَبَادَتِي أَمَلًا صَدْرَكَ غَنِيَ وَأَسْدَ فَقْرَكَ، إِلَّا تَفْعَلْ مَلَأْتَ صَدْرَكَ شَغْلًا وَلَمْ أَسْدَ

(١) المستند ٣٩٤/١.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب ٣، وأبو داود في الحروف باب ٢٥، والترمذى في القرآن باب ٦.

(٣) ٣٥٨/٢.

فقرك^(١) ورواه الترمذى وابن ماجه من حديث عمران بن زائدة، وقال الترمذى: حسن غريب.

وقد روى الإمام أحمد عن وكيع وأبي معاوية عن الأعمش عن سلام بن شرحبيل: سمعت حبة وسواء أبى خالد يقولان: أتينا رسول الله ﷺ وهو يعلم عملاً أو يبني بناء، وقال أبو معاوية: يصلح شيئاً، فأعناه عليه فلما فرغ دعا لنا وقال: «لا تيأساً من الرزق ما تهزّت رؤوسكم فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة ثم يعطيه الله ويرزقه»^(٢). وقد ورد في بعض الكتب الإلهية: يقول الله تعالى: ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكتفل ببرزقك فلا تتعب فاطلبني تجدني فإن وجدتني وجدت كل شيء وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء. قوله تعالى: «فإن للذين ظلموا ذنوبًا» أي نصيباً من العذاب «مثلك ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون» أي فلا يستعجلوا ذلك فإنه واقع لا محالة «فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون» يعني يوم القيمة. آخر تفسير سورة الذاريات والله الحمد والمنة.

تفسير سورة الطور

وهي مكية

قال مالك عن الزهرى عن محمد بن جبیر بن مطعم عن أبيه: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه^(٣)، أخرجاه من طريق مالك. وقال البخارى: حدثنا عبد الله بن يوسف، أخبرنا مالك عن محمد بن عبد الرحمن بن نوفل عن عروة عن زينب بنت أبي سلمة عن أم سلمة قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أنني أشتكي ف قال: «طوفي من وراء الناس وأنت راكبة» فطفت رسول الله يصلي إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور^(٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْطُّورِ ﴿١﴾ وَكَتَبٌ مَسْطُورٌ ﴿٢﴾ فِي رَقٍ مَنْشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقَفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ

(١) أخرجه الترمذى في القيمة باب ٣٠، وابن ماجه في الزهد باب ٢.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ١٤، وأحمد في المسند ٤٦٩/٣.

(٣) أخرجه البخارى في تفسير سورة طور، باب ١، والأذان باب ١٠٢.

(٤) أخرجه البخارى في تفسير سورة طور، باب ١.

الْمَسْجُورُ ۖ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۗ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ۗ يَوْمَ تَحُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۗ وَتَسْيِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۗ فَوْلُ يَوْمِئِرِ الْمُكَذِّبِينَ ۗ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضِ يَعْبُونَ ۗ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَانِ ۗ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكَذِّبُونَ ۗ أَفَسِرُهُذَا أَمْ أَنْتُ لَا تُبْصِرُونَ ۗ أَصْلَوْهَا فَأَصِرُّوْا أَوْ لَا تَصِرُّوا سَوَاءً عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُخْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۗ

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم، فالطور هو الجبل الذي يكون فيه أشجار مثل الذي كلام الله عليه موسى وأرسل منه عيسى، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طورا إنما يقال له جبل (وكتاب مسطور) قيل: هو اللوح المحفوظ، وقيل: الكتب المتزلة المكتوبة التي تقرأ على الناس جهاراً ولهذا قال: (في رق منشور والبيت المعمور).

ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة: «ثم رفع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم»^(١) يعني يتبعدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم، كذلك ذلك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة، ولهذا وجد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام مستنداً ظهره إلى البيت المعمور، لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل، وهو بخيال الكعبة، وفي كل سماء بيت يتبعده فيه أهلها ويصلون إليه والذي في السماء الدنيا يقال له بيت العزة، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا هشام بن عمار، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا روح بن جناح عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «في السماء السابعة بيت يقال له المعمور بخيال الكعبة، وفي السماء الرابعة نهر يقال له الحيوان يدخله جبريل كل يوم فيغمض فيه انغمسة، ثم يخرج فيتفضض انتفاضة، يخر عنه سبعون ألف قطرة، يخلق الله من كل قطرة ملكاً يؤمرون أن يأتوا البيت المعمور، فيصلوا فيه فيفعلون ثم يخرجون فلا يعودون إليه أبداً، ويولي عليهم أحدهم يؤمر أن يقف بهم من السماء موقفاً يسبحون الله فيه إلى أن تقوم الساعة»، هذا حديث غريب جداً، تفرد به روح بن جناح هذا وهو القرشي الأموي مولاهم أبو سعد الدمشقي.

وقد أنكر عليه هذا الحديث جماعة من الحفاظ، منهم الجوزجاني والعقيلي والحاكم أبو عبد الله النيسابوري وغيرهم، قال الحاكم: لا أصل له من حديث أبي هريرة ولا سعيد ولا الزهري.

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٦، ومناقب الأنصار باب ٤٢، ومسلم في الإيمان حديث ٢٦٤ والنسائي في الصلاة باب ١، وأحمد في المسند ٤/٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٠.

وقال ابن جرير^(١): حدثنا هناد بن السري، حدثنا أبو الأحوص عن سماك بن حرب عن خالد بن عريرة، أن رجلاً قال لعلي: ما البيت المعمور؟ قال: بيت في السماء يقال له الضراح، وهو بحيال الكعبة من فوقها، حرمته في السماء كحرمة البيت في الأرض، يصلى فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون فيه أبداً، وكذا رواه شعبة وسفيان الثوري عن سماك، وعندهما أن ابن الكواء هو السائل عن ذلك ثم رواه ابن جرير عن أبي كريب عن طلق بن غنم، عن زائدة عن عاصم عن علي بن ربيعة قال: سأله ابن الكواء عليه عن البيت المعمور قال: مسجد في السماء يقال له الضراح، يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون فيه أبداً. ورواه من حديث أبي الطفيلي عن علي بمثله وقال العوفي عن ابن عباس: هو بيت حداء العرش تعمره الملائكة، يصلى فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه. وكذا قال عكرمة ومجاحد والربيع بن أنس والسدي وغير واحد من السلف.

وقال قتادة: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «هل تدرؤن ما البيت المعمور؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه مسجد في السماء بحيال الكعبة لو خر لخر عليها، يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم» وزعم الصحاح أنه يعمره طائفة من الملائكة يقال لهم الجن من قبيلة إبليس، فالله أعلم. قوله تعالى: ﴿والسقف المرفوع﴾ قال سفيان الثوري وشعبة وأبو الأحوص عن سماك عن خالد بن عريرة عن علي ﴿والسقف المرفوع﴾ يعني السماء. قال سفيان ثم تلا ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾ وكذا قال مجاهد وقتادة والسدي وابن جريج وابن زيد واختاره ابن جرير: وقال الربيع بن أنس: هو العرش، يعني أنه سقف لجميع المخلوقات، وله اتجاه وهو مراد مع غيره كما قاله الجمهور.

قوله تعالى: ﴿والبحر المسجور﴾ قال الربيع بن أنس: هو الماء الذي تحت العرش الذي ينزل الله منه المطر، الذي يحيي به الأجساد في قبورها يوم معادها، وقال الجمهور: هو هذا البحر، واختلف في معنى قوله المسجور فقال بعضهم: المراد أنه يوقد يوم القيمة ناراً كقوله: ﴿وإذا البحار سجرت﴾ أي أضربت فتصير ناراً تتأجج محيطة بأهل الموقف. ورواه سعيد بن المسيب عن علي بن أبي طالب. وروي عن ابن عباس وبه يقول سعيد بن جبير ومجاهد وعبد الله بن عبيد بن عمير وغيرهم. وقال العلاء بن بدر: إنما سمي البحر المسجور لأنه لا يشرب منه ماء ولا يسكن به زرع وكذلك البحار يوم القيمة. كما رواه عنه ابن أبي حاتم. وعن سعيد بن جبير ﴿والبحر المسجور﴾ يعني المرسل، وقال قتادة: المسجور المملوء،

واختاره ابن جرير^(١) ووجهه بأنه ليس موقداً اليوم فهو مملوء . وقيل : المراد به الفارغ .

قال الأصمسي عن أبي عمرو بن العلاء عن ذي الرمة عن ابن عباس في قوله تعالى : «والبحر المسجور» قال : الفارغ خرجت أمة تستسقي فرجعت فقالت : إن الحوض مسجور يعني فارغاً . رواه ابن مردويه في مسانيد الشعراء . وقيل : المراد بالمسجور الممنوع المكفوف عن الأرض لثلا يغمرها فيفرق أهلها قاله علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وبه يقول السدي وغيره ، وعليه يدل الحديث الذي رواه الإمام أحمد^(٢) ، رحمه الله ، في مسنده فإنه قال : حدثنا يزيد ، حدثنا العوام ، حدثني شيخ كان مرباطاً بالساحل قال : لقيت أبا صالح مولى عمر بن الخطاب فقال : حدثنا عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ قال : «ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلث مرات ، يستأذن الله تعالى أن ينفضخ عليهم ، فيكفه الله عز وجل» .

وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلي : حدثنا الحسن بن سفيان عن إسحاق بن راهويه عن يزيد ، وهو ابن هارون ، عن العوام بن حوشب ، حدثني شيخ مرباط قال : خرجت ليلة لحرسي لم يخرج أحد من الحرس غيري ، فأتيت الميناء فصعدت فجعل يخيل إلي أن البحر يشرف يحاذى رؤوس الجبال ، فعل ذلك مراراً وأنا مستيقظ ، فلقيت أبا صالح فقال : حدثنا عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال : «ما من ليلة إلا والبحر يشرف ثلث مرات يستأذن الله تعالى أن ينفضخ عليهم ، فيكفه الله عز وجل» فيه رجال مبهم لم يسم .

وقوله تعالى : «إن عذاب ربك لواقع» هذا هو المقصم عليه أي الواقع بالكافرين كما قال في الآية الأخرى : «ما له من دافع» أي ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك . قال الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن داود عن صالح المري عن جعفر بن زيد العبدى قال : خرج عمر يعس في المدينة ذات ليلة ، فمر بدار رجل من المسلمين فوافقه قائماً يصلي فوق قبره فقرأ «والطور» - حتى إذا بلغ - «إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع» قال : قسم ورب الكعبة حق ، فنزل عن حماره واستند إلى حائط فمكث ملياً ثم رجع إلى منزله ، فمكث شهراً يعوده الناس لا يدركون ما مرضه رضي الله عنه .

وقال الإمام أبو عبيد في فضائل القرآن : حدثنا محمد بن صالح ، حدثنا هشام بن حسان عن الحسن أن عمر قرأ «إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع» فربا لها ربوة عيد منها عشرين يوماً . وقوله تعالى : «يوم تمور السماء موراً» قال ابن عباس وقادمة : تتحرّك تحريكاً . وعن ابن عباس : هو تشقيقها . وقال مجاهد : تدور دوراً وقال الضحاك : استدارتها وتحركها لأمر الله وموج بعضها في بعض . وهذا اختيار ابن جرير أنه التحرك في استدارة . قال : وأنشد أبو عبيدة

(١) تفسير الطبرى ٤٨٣ / ١١ .

(٢) المسند ١ / ٥٣ .

م عمر بن المثنى بيت الأعشى فقال: [البسيط]

كأن مشيتها من بيت جارتها مَوْرُ السحابة لَا رَيْثُ وَلَا عَجَلُ^(١)

﴿وَتَسِيرُ الْجَبَالَ سِيرًا﴾ أي تذهب فتصير هباء منبأً وتنسف نفأً ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمَكَذِّبِينَ﴾ أي ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونkalah بهم وعقابه لهم ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي هم في الدنيا يخوضون في الباطل ويختذلون دينهم هزواً ولعباً ﴿يَوْمَ يَدْعُونَ﴾ أي يدفعون ويساقون ﴿إِلَى نَارِ جَهَنَّمِ دُعَاء﴾ وقال مجاهد والشعبي ومحمد بن كعب والضحاك والسدي والثوري: يدفعون فيها دفعاً ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كَتَمْتُ بَهَا تَكَذِّبُونَ﴾ أي يقول لهم الزبانية ذلك تقريراً وتوبيناً ﴿أَفَسِرْحَرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصِرُونَ اصْلُوهَا﴾ أي ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي سواء صبرتم على عذابها ونkalah ألم تصبروا لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها ﴿وَإِنَّمَا تَجْزُونَ مَا كَنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ولا يظلم الله أحداً بل يجازي كلّاً بعمله.

إِنَّ الْمُنَّقِّيَنَ فِي جَنَّتَتِ وَتَعَيْرِ ۝ فَكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رِبِّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبِّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ كُلُّاً ۝ وَأَشْرَبُوا هَنِيَّاً بِمَا كَنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ مُتَكَبِّلِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوْجَنَتْهُمْ بِحُورٍ عَيْنٍ ۝

أخبر الله تعالى عن حال السعداء فقال: «إن المتقين في جنات ونعمٍ» وذلك بضم ما أولئك فيه من العذاب والنkalah ﴿فَاكَهِينُ بِمَا آتَاهُمْ رَبِّهِمْ﴾ أي يتفكرون بما آتاهم الله من النعيم من أصناف الملاذ من مأكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك ﴿وَوَقَاهُمْ رَبِّهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي وقد نجاهم من عذاب النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حدتها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة التي فيها من السرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقوله تعالى: «كُلُّوا وَاشْرِبُوا هَنِيَّاً بِمَا كَنْتُمْ تَعْمَلُونَ» قوله تعالى: «كُلُّوا وَاشْرِبُوا هَنِيَّاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَّةِ» [الحاقة: ٢٤] أي هذا بذلك تقضلاً منه وإحساناً. قوله تعالى: «مُتَكَبِّلِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ» قال الثوري عن حصين عن مجاهد عن ابن عباس السرر في الحجال، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان، حدثنا صفوان بن عمرو أنه سمع الهيثم بن مالك الطائي يقول: إن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيْتَكِنْ إِمْكَانًا مَقْدَارَ أَرْبَعينَ سَنَةً مَا يَتْحُولُ عَنْهُ وَلَا يَمْلِهُ، يَأْتِيهِ مَا اشْتَهَى نَفْسَهُ وَلَذْتُ عَيْنَهُ». وحدثنا أبي، أخبرنا هدبة بن خالد عن سليمان بن المغيرة عن ثابت قال: بلغنا أن الرجل ليتكيء في الجنة سبعين سنة عنده

(١) البيت في ديوان الأعشى ص ١٠٥، ولسان العرب (مور)، وتهذيب اللغة ١/٣٧٢، ٢٥٦/٢، وتأج العروس (مور).

من أزواجه وخدمه، وما أعطاه الله من الكرامة والنعيم، فإذا حانت منه نظرة فإذا أزواج له لم يكن راهن قبل ذلك، فيقلن قد آن لك أن تجعل لنا منك نصيباً، ومعنى **(مصفوفة)** أي وجوه بعضهم إلى بعض كقوله **«على سرر متقابلين»** [الصفات: ٤٤] **«وزوجناهم بحور عين»** أي وجعلنا لهم قريبات صالحات وزوجات حساناً من الحور العين، وقال مجاهد **«وزوجناهم أنكحناهم بحور عين»**، وقد تقدم وصفهن في غير موضع بما ألغى عن إعادته هننا.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعُوهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ يَا يَمِنَ الْحَقَّنَا يَهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ وَمَا أَنْتَهُمْ مِنْ عَيْلٍ هُمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ أُمَّرَى مَا كَسَبَ رَهِينٌ ١٦ وَمَدَدَنَهُمْ بِفَكَهَةٍ وَلَحَمِّ مَمَّا يَشْهُونَ ١٧ يَنْزَعُونَ فِيهَا كَاسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ١٨ وَيَطْوُفُ عَلَيْهِمْ غَلَّانٌ لَهُمْ كَانُوكُنُونٌ ١٩ وَأَبْقِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْأَلُونَ ٢٠ قَالُوا إِنَّا كُنَّا مُنْقَلِّيْنَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِيْنَ ٢١ فَمَنْ يَعْلَمُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَنَا عَذَابَ السَّمُومِ ٢٢ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوْهُ إِنَّهُ هُوَ الْأَمْرُ

الرجيم ﴿٢﴾

يخبر تعالى عن فضله وكرمه وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه، أن المؤمنين إذا اتبعوهم ذرياتهم في الإيمان يلحقهم بأبائهم في المنزلة، وإن لم يبلغوا عملهم لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن الوجه بأن يرفع الناقص العمل بكل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومتزلته للتساوي بينه وبين ذاك، ولهذا قال: **«الحقنا بهم ذريتهم وما أنتاهم من عملهم من شيء»** قال الثوري عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجة وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه، ثم قرأ **«والذين آمنوا واتبعوهم ذريتهم بإيمان الحقنا بهم ذريتهم وما أنتاهم من عملهم من شيء»**.

ورواه ابن جرير^(١) وابن أبي حاتم من حديث سفيان الثوري به، وكذا رواه ابن جرير من حديث شعبة عن عمرو بن مرة به، ورواه البزار عن سهل بن بحر عن الحسن بن حماد الوراق، عن قيس بن الربيع عن عمرو بن مرة عن سعيد عن ابن عباس مرفوعاً، فذكره ثم قال وقد رواه الثوري عن عمرو بن مرة عن سعيد عن ابن عباس موقوفاً، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا العباس بن الوليد بن مزيد البيروتي، أخبرني محمد بن شعيب، أخبرني شبيان، أخبرني ليث عن حبيب بن أبي ثابت الأستدي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: **«والذين آمنوا واتبعوهم ذريتهم بإيمان الحقنا بهم ذريتهم»** قال: هم ذرية المؤمن يموتون على الإيمان، فإن كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم أحقوا بأبائهم، ولم ينقصوا من أعمالهم التي عملوها شيئاً.

وقال الحافظ الطبراني: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا محمد بن

عبد الرحمن بن غزوان، حديث شريك عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، أظنه عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأله عن أبيه وزوجته وولده، فيقال إنهم لم يبلغوا درجتك، فيقول: يا رب قد عملت لي ولهم فيؤمر بالحاكم به» وقرأ ابن عباس ﷺ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان الآية.

وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية يقول: والذين أدرك ذريتهم الإيمان فعملوا بطاعتي الحقتهم بإيمانهم إلى الجنة، وأولادهم الصغار تلحق بهم^(١)، وهذا راجع إلى التفسير الأول، فإن ذاك مفسر أصرح من هذا، وهكذا يقول الشعبي وسعيد بن جبير وإبراهيم وقتادة وأبو صالح والربيع بن أنس والضحاك وابن زيد، وهو اختيار ابن جرير وقد قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حديث عثمان بن أبي شيبة، حديثنا محمد بن فضيل عن محمد بن عثمان عن زادان عن علي قال: سألت خديجة النبي ﷺ عن ولدين ماتا لها في الجاهلية فقال رسول الله ﷺ: «هـما في النار» فلما رأى الكراهة في وجهها قال: «لو رأيت مكانهما لأبغضتهما» قالت: يا رسول الله فولدي منك؟ قال: «في الجنة» قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار» ثم قرأ رسول الله ﷺ: «والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان أحـقنا بهـم ذريـاتـهـم»^(٢) الآية.

هـذا فضـلـهـ تعالىـ علىـ الـأـبـنـاءـ بـرـكـةـ عـلـىـ الـأـبـاءـ وـأـمـاـ فـضـلـهـ عـلـىـ الـأـبـاءـ بـرـكـةـ دـعـاءـ الـأـبـنـاءـ فـقـدـ قالـ الإـلـامـ أـحـمـدـ^(٣): حـدـثـنـاـ يـزـيـدـ، حـدـثـنـاـ حـمـادـ بـنـ سـلـمـةـ عـنـ عـاصـمـ بـنـ أـبـيـ النـجـوـدـ عـنـ أـبـيـ صـالـحـ عـنـ أـبـيـ هـرـيـرـةـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ قـالـ: قـالـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ: «إـنـ اللـهـ لـيـرـفـعـ الـدـرـجـةـ لـلـعـبـدـ الـصـالـحـ فـيـ الـجـنـةـ فـيـقـوـلـ: يـاـ رـبـ أـنـيـ لـيـ هـذـهـ؟ـ فـيـقـوـلـ: باـسـتـغـفـارـ وـلـدـكـ لـكـ»^(٤) إـسـنـادـ صـحـيـحـ وـلـمـ يـخـرـجـوهـ مـنـ هـذـاـ الـوـجـهـ وـلـكـنـ لـهـ شـاهـدـ فـيـ صـحـيـحـ مـسـلـمـ عـنـ أـبـيـ هـرـيـرـةـ عـنـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ: «إـذـ مـاتـ اـبـنـ آـدـمـ اـنـقـطـعـ عـمـلـهـ إـلـاـ مـنـ ثـلـاثـ: صـدـقـةـ جـارـيـةـ، أـوـ عـلـمـ يـتـفـعـ بـهـ، أـوـ وـلـدـ صـالـحـ يـدـعـوـ لـهـ»^(٥).

وـقـوـلـهـ تـعـالـىـ: «كـلـ اـمـرـئـ بـمـاـ كـسـبـ رـهـيـنـ» لـمـ أـخـبـرـ عـنـ مـقـامـ الـفـضـلـ وـهـ رـفـعـ دـرـجـةـ الـذـرـيـةـ إـلـىـ مـنـزـلـةـ الـأـبـاءـ مـنـ غـيرـ عـمـلـ يـقـتـضـيـ ذـلـكـ، أـخـبـرـ عـنـ مـقـامـ الـعـدـلـ وـهـ أـنـهـ لـاـ يـؤـاخـذـ أـحـدـ بـذـنـبـ أـحـدـ فـقـالـ تـعـالـىـ: «كـلـ اـمـرـئـ بـمـاـ كـسـبـ رـهـيـنـ» أـيـ مـرـتـهـنـ بـعـمـلـهـ لـاـ يـحـمـلـ عـلـيـهـ ذـنبـ

(١) انظر تفسير الطبرى ٤٨٨/١١.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١٣٥/١.

(٣) المسند ٥٠٩/٢.

(٤) أخرجه ابن ماجه في الأدب باب ١.

(٥) أخرجه مسلم في الوصية حديث ١٤، وأبو داود في الوضايا باب ١٤، والترمذى في الأحكام باب ٣٦، والنمسائى في الوضايا باب ٨، وأحمد في المسند ٣١٦/٢، ٣٥٠.

غيره من الناس ، سواء كان أباً أو ابناً كما قال تعالى: ﴿كُلْ نَفْسٍ بِمَا كَسِّبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَسْأَلُونَ عَنِ الْمُجْرَمِينَ﴾ [المدثر: ٣٨ - ٤٠] قوله: ﴿وَأَمْدَنَاهُمْ بِفَاقِهَةِ الْحَمَّ وَلَحْمِ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي وأحقنواهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى مما يستطاب ويشهى . قوله: ﴿يَتَنَازَّعُونَ فِيهَا كَأسًا﴾ أي يتعاطون فيها كأساً أي من الخمر ، قاله الضحاك ﴿لَا لَغُو فِيهَا وَلَا تَأْثِيم﴾ أي لا يتكلمون فيها بكلام لاغ أي هذيان ولا إنم أي فحش كما يتكلم به الشربة من أهل الدنيا ، وقال ابن عباس: اللغو الباطل والتأثم الكذب ، وقال مجاهد: لا يستبون ولا يؤثمون .

وقال قنادة: كان ذلك في الدنيا مع الشيطان فتره الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذها ، كما تقدم ففى عنها صداع الرأس ووجع البطن وإزالة العقل بالكلية ، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيء الفارغ عن الفائدة المتضمن هذياناً وفحشاً ، وأخبر بحسن منظرها وطيب طعمها ومحبها فقال: ﴿بِيضاءِ لَذَّةِ لِلشَّارِبِينَ لَا فِيهَا غُولٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يَنْزَفُونَ﴾ [الصفات: ٤٦ - ٤٧] وقال: ﴿لَا يَصْدِعُونَ عَنْهَا وَلَا يَنْزَفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩] وقال ه هنا ﴿يَتَنَازَّعُونَ فِيهَا كَأسًا لَا لَغُو فِيهَا وَلَا تَأْثِيم﴾ قوله تعالى: ﴿وَيُطْوَفُ عَلَيْهِمْ غَلْمَانٌ لَهُمْ كَأْنَهُمْ لَؤْلَؤُ مَكْنُونٌ﴾ إخبار عن خدمتهم وحشمتهم في الجنة ، كأنهم اللؤلؤ الربط المكنون في حسنهم وبهائهم ونظافتهم وحسن ملابسهم ، كما قال تعالى: ﴿وَيُطْوَفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ مَخْلُودُونَ بِأَكْوَابِ وَأَبَارِيقِ وَكَأْسِ مِنْ مَعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧ - ١٨] .

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْأَلُونَ﴾ أي أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا ، وهذا كما يتحدث أهل الشراب على شرابهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم ﴿قَالُوا إِنَا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلَنَا مَشْفِقِينَ﴾ أي قد كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه ﴿فَمِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابُ السُّمُومِ﴾ أي فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف ﴿إِنَا كُنَّا مِنْ قَبْلِ نَدْعَوْهُ﴾ أي ننصرع إليه فاستجاب لنا وأعطانا سؤلنا ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ .

وقد ورد في هذا المقام حديث رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده فقال: حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا سعيد بن دينار ، حدثنا الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ اشْتَاقَوْا إِلَى الْإِخْرَانِ، فَيَجِيءُ سَرِيرُهُمْ هَذَا حَتَّى يَحَادِي سَرِيرَهُمْ هَذَا فَيَتَحَدَّثُانِ، فَيَتَكَبَّرُهُمْ هَذَا وَيَتَكَبَّرُهُمْ هَذَا فَيَتَحَدَّثُانِ بِمَا كَانُوا فِي الدَّارِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمْ لِصَاحِبِهِ: يَا فَلَانُ تَدْرِي أَيْ يَوْمٍ غَفَرَ اللَّهُ لَنَا؟ يَوْمٌ كَنَا فِي مَوْضِعٍ كَذَا وَكَذَا فَدَعْوَنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ غَفَرَ لَنَا» ثم قال البزار: لا نعرفه يروى إلا بهذا الإسناد .

قلت: وسعيد بن دينار الدمشقي؟ قال أبو حاتم: هو مجھول وشيخه الربيع بن صبيح ، قد تكلم فيه غير واحد من جهة حفظه وهو رجل صالح ثقة في نفسه . وقال ابن أبي حاتم: حدثنا

عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا وكيع عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق عن عائشة أنها قرأت هذه الآية ﴿فَمَنِ اهْتَدَ إِلَيْنَا وَوَقَّا نَا عَذَابُ السَّمُومِ إِنَّا كَنَا مِنْ قَبْلِ نَدْعَوْهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُ الرَّحِيمُ﴾ فقلت: اللهم من علينا وقنا عذاب السموم إنك أنت البر الرحيم. قيل للأعمش في الصلاة؟ قال: نعم.

فَذَكَرَ فَمَا أَنَّ يَنْعَمَ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿١﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَرْبَصُ بِهِ رَبِّ الْمَنْوَنِ ﴿٢﴾ قُلْ تَرْبَصُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهِذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَهْلُكُمْ بِلَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾ فَلَيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٦﴾

يقول تعالى أمراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه، ثم نفي عنه ما يرميه به أهل البهتان والفحotor فقال: ﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجانون﴾ أي لست بحمد الله بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريش، والكافر الذي يأتيه الرئي من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء ﴿ولا مجانون﴾ وهو الذي يتخطبه الشيطان من المس. ثم قال تعالى منكراً عليهم في قولهم في الرسول ﷺ ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَرْبَصُ بِهِ رَبِّ الْمَنْوَنِ﴾ أي قوارع الدهر، والمنون الموت، يقولون نظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فستريح منه ومن شأنه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَرْبَصُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي انتظروا فإني متظر معكم، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة.

قال محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن قريشاً لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي ﷺ قال قائل منهم: احتبسوه في ثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك قبله من هلك قبله من الشعراء زهير والنابغة إنما هو كأحدهم، فأنزل الله تعالى ذلك من قوله ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَرْبَصُ بِهِ رَبِّ الْمَنْوَنِ﴾^(١).

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهِذَا﴾ أي عقولهم تأمرهم بهذا الذي يقولونه فيك من الأقاويل الباطلة التي يعلمون في أنفسهم أنها كذب وزور ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي ولكن هم قوم طاغون ضلال معاندون، فهذا هو الذي يحملهم على ما قالوه فيك . وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقُولُهُ﴾ أي اختلقوا وافتراء من عند نفسه يعنون القرآن، قال الله تعالى: ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي كفراهم هو الذي يحملهم على هذه المقالة ﴿فَلَيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أي إن كانوا صادقين في قوله تقوله وافتراء، فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هذا القرآن، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس ما جاؤوا بمثله،

(١) انظر تفسير الطبرى ٤٩٤/١١

ولا بعشر سور من مثله، ولا بسورة من مثله.

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْحَالِقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقَنُونَ لِمَ أَمْ عِنْدَهُمْ
خَزَائِنٌ رِّبَكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٢١﴾ أَمْ لَهُمْ سَمَاءٌ يَسْتَعِمُونَ فِيهِ فَلَيَاتٌ مُسْتَعِمُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ
وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرِمٍ مُّثْلُونَ ﴿٢٤﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ أَغْيَبٌ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٢٥﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا
فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٢٦﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشَرِّكُونَ ﴿٢٧﴾

هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية فقال تعالى: «أَمْ خلقوا من غير شيء أَمْ هم
الخالقون» أي أوجدوا من غير موجد؟ أَمْ هم أوجدوا أنفسهم، أي لا هذا ولا هذا بل الله هو
الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، قال البخاري^(١): حدثنا الحميدي،
حدثنا سفيان قال: حدثوني عن الزهرى عن محمد بن جبیر بن مطعم عن أبيه قال: سمعت
النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية «أَمْ خلقوا من غير شيء أَمْ هم الخالقون أَمْ
خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون أَمْ عندهم خزائن ربک أَمْ هم المصيطرون» كاد قلبي أن
يطير^(٢)، وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من طرق عن الزهرى به. وجبیر بن مطعم كان
قد قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركاً، فكان سماعه هذه
الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك.

ثم قال تعالى: «أَمْ خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون» أي أهم خلقوا السموات
والأرض؟ وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له،
ولكن عدم إيقانهم هو الذي يحملهم على ذلك «أَمْ عندهم خزائن ربک أَمْ هم المصيطرون» أي
أهم يتصرفون في الملك وبيدهم مفاتيح الخزائن «أَمْ هم المصيطرون» أي المحاسبون
للخلافات، ليس الأمر كذلك بل الله عز وجل هو المالك المتصرف الفعال لما يريد.

وقوله تعالى: «أَمْ لَهُمْ سَلْمٌ يَسْتَعِمُونَ فِيهِ» أي مرقة إلى الملا الأعلى «فَلَيَاتٌ مُسْتَعِمُهُمْ
بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ» أي فليات الذي يستمع لهم بحججه ظاهرة على صحة ما هم فيه من الفعال
والمقال، أي وليس لهم سبيل إلى ذلك فليسوا على شيء وليس لهم دليل، ثم قال منكراً عليهم
فيما نسبوه إليه من البنات وجعلهم الملائكة إناثاً، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث،
بحيث إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، هذا وقد جعلوا الملائكة بنات الله
وعبدوهم مع الله فقال: «أَمْ لَهُنَّ بَنَاتٌ وَلَكُمُ الْبَنُونَ» وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ أي أجراً إبلاغك إياهم رسالة الله، أي لست تسألكم على ذلك شيئاً

(١) كتاب التفسير، تفسير سورة ٥٢، باب ١.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الإقامة باب ٩.

﴿فَهُمْ مِنْ مَغْرِمٍ مُشْتَقِلُون﴾ أي فهم من أدنى شيء يتبرمون منه ويثقلهم ويشق عليهم ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُون﴾ أي ليس إلا أمر كذلك فإنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله ﴿أَمْ يَرِيدُونَ كِيدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمُكَيْدُون﴾ يقول تعالى: أَمْ يَرِيدُ هُؤُلَاءِ بِقُولِهِمْ هَذَا فِي الرَّسُولِ وَفِي الدِّينِ غَرُورُ النَّاسِ وَكِيدُ الرَّسُولِ وَأَصْحَابِهِ، فَكَيْدُهُمْ إِنَّمَا يَرْجِعُ وَبَالِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمُكَيْدُونْ ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سَبَحَنَ اللَّهُ عَمَّا يَشْرُكُون﴾ وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله، ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويقترون ويشركون فقال: ﴿سَبَحَنَ اللَّهُ عَمَّا يَشْرُكُون﴾.

وَإِنْ يَرَوْا كَسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ۝ فَدَرَهُمْ حَتَّى يُلْقَوْا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝ يَوْمَ لَا يُعْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُصْرَوْنَ ۝ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَيَعْلَمَ حَمْدُ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَمَنْ أَتَيَّلِ فَسِيمَهُ وَأَدْبَرَ النُّبُوْمَ ۝

يقول تعالى مخبراً عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ أي عليهم يذهبون به لما صدقوا، ولما أيقنوا بل يقولون: هذا سحاب مرکوم، أي متراكم، وهذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلَّلُوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سَكَرْتُ أَبْصَارِنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُون﴾ [الحجر: ١٤ - ١٥]. وقال الله تعالى ﴿فَدَرَهُمْ﴾ أي دعهم يا محمد ﴿حَتَّى يَلْقَوْا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ وذلك يوم القيمة ﴿يَوْمَ لَا يُعْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي لا ينفعهم كيدهم ولا مكرهم الذي استعملوه في الدنيا، لا يجزي عنهم يوم القيمة شيئاً ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي قبل ذلك في الدار الدنيا كقوله تعالى: ﴿وَلَنْذِقْنَاهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنِي دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لِعَلْهُمْ يَرْجِعُون﴾ [السجدة: ٢١].

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي نعذبهم في الدنيا ونبليهم فيها بال المصائب لعلهم يرجعون وينبئون فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جلى عنهم مما كانوا فيه، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه كما جاء في بعض الأحاديث «إن المنافق إذا مرض وعوفي مثله في ذلك كمثل البعير، لا يدرى فيما عقلوه ولا فيما أرسلوه» وفي الأثر الإلهي: كم أعصيك ولا تعاقبني؟ قال الله تعالى: يا عبدي كم أعا Vick وأنت لا تدرى؟ وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي اصبر على أذاهم ولا تبالهم فإنك بمرأى منا وتحت كلاءنا والله يعصمك من الناس. قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمَ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال الضحاك: أي إلى الصلاة. سبحانك اللهم وبحمدك وتبarak اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك^(١).

وقد روي مثله عن الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهما، وروى مسلم في صحيحه عن عمر أنه كان يقول: هذا في ابتداء الصلاة، ورواه أحمد وأهل السنن عن أبي سعيد وغيره، عن النبي ﷺ أنه كان يقول ذلك^(١).

وقال أبو الجوزاء **﴿وسيح بحمد رب حين تقوم﴾** أي من نومك من فراشك، واختاره ابن جرير ويتأيد هذا القول بما رواه الإمام أحمد^(٢)، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعي، حدثني عمير بن هانيء، حدثني جنادة بن أبي أمية. حدثنا عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال: «من تعارض^(٣) من الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله. ثم قال، رب اغفر لي - أو قال ثم دعا - استجيب له، فإن عزم فتوضاً ثم صلى قبلت صلاته»^(٤) وأخرجه البخاري في صحيحه وأهل السنن من حديث الوليد بن مسلم به. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد **﴿وسيح بحمد رب حين تقوم﴾** قال: من كل مجلس وقال الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص **﴿وسيح بحمد رب حين تقوم﴾** قال إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال: سبحانك اللهم وبحمدك.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم الدمشقي، حدثنا محمد بن شعيب، أخبرني طلحة بن عمرو الحضرمي عن عطاء بن أبي رباح أنه حدثه عن قول الله تعالى: **﴿وسيح بحمد رب حين تقوم﴾** يقول حين تقوم من كل مجلس إن كنت أحسنت ازدلت خيراً، وإن كنت غير ذلك كان هذا كفارة له.

وقد قال عبد الرزاق في جامعه: أخبرنا معاذ عن عبد الكريم الجزار، عن أبي عثمان الفقير، أن جبريل علم النبي ﷺ إذا قام من مجلسه أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، قال معاذ: وسمعت غيره يقول هذا القول كفارة المجالس وهذا مرسل، وقد وردت أحاديث مستندة من طرق يقوى بعضها ببعضًا بذلك، فمن ذلك حديث ابن جريج عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر الله له ما كان في مجلسه

(١) آخرجه الترمذى في الصلاة باب ٦٥، والوتر باب ١٩، والنمسائي في الافتتاح باب ١٨، وابن ماجه في الإقامة باب ١، والدارمى في الصلاة باب ٣٣، وأحمد في المستند ٣/٥٥٠، ٦٩.

(٢) المستند ٥/٣١٣.

(٣) تعارض: أي استيقظ.

(٤) آخرجه البخارى في التهجد باب ٢١، والترمذى في الدعوات باب ٢٦، وابن ماجه في الدعاء باب ١٦، والدارمى في الاستئذان باب ٥٣.

ذلك»^(١) رواه الترمذى، وهذا لفظه والنسائى فى اليوم والليلة من حديث ابن جریج، وقال الترمذى: حسن صحيح، وأخرجه الحاکم في مستدرکه، وقال إسناد على شرط مسلم، إلا أن البخاري علله، قلت: عللہ الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو حاتم وأبو زرعة والدارقطنی وغيرهم، ونسبوا الوهم فيه إلى ابن جریج، على أن أبا داود قد رواه في سننه من طريق غير ابن جریج إلى أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ بنحوه، ورواه أبو داود، واللفظ له والنسائى والحاکم في المستدرک من طريق الحجاج بن دینار عن هاشم، عن أبي العالية عن أبي بربعة الأسلمي، قال: كان رسول الله ﷺ يقول بآخر عمره: إذا أراد أن يقوم من المجلس «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك». فقال رجل: يا رسول الله، إنك لتقول قوله قولاً ما كنت تقوله فيما مضى، قال: «كفارة لما يكون في المجلس» وقد روی مرسلًا عن أبي العالية، فالله أعلم.

وهكذا رواه النسائى والحاکم من حديث الربع بن أنس عن أبي العالية عن رافع بن خديج عن النبي ﷺ مثله سواء، وروي مرسلًا أيضًا والله أعلم، وكذا رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو وأنه قال: «كلمات لا يتكلم بها أحد في مجلسه عند قيامه ثلاث مرات إلا كفر بها عنه، ولا يقولها في مجلس خير ومجلس ذكر، إلا اختتم لها بما يختتم بالخاتم على الصحيفة: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك» وأخرجه الحاکم من حديث أم المؤمنين عائشة وصححه، ومن رواية جبیر بن مطعم، ورواه أبو بکر الإسماعيلي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كلهم عن النبي ﷺ، وقد أفردت لذلك جزءاً على حدة بذكر طرقه وألفاظه وعلله، وما يتعلق به والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: «ومن الليل فسبحه» أي اذکره واعبده بالتلاوة والصلوة في الليل كما قال تعالى: «ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً» [الإسراء: ٧٩]. وقوله تعالى: «وإدبار النجوم» قد تقدم في حديث ابن عباس، أنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر، فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم أي عند جلوسها للغيبوبة. وقد روی ابن سیلان عن أبي هريرة مرفوعاً «لا تدعوهما وإن طردتم الخيل»^(٢) يعني رکعتي الفجر، رواه أبو داود. ومن هذا الحديث حکي عن بعض أصحاب الإمام أحمد القول بوجوبهما، وهو ضعيف لحديث «خمس صلوات في اليوم والليلة» قال: هل علي غيرها قال: «لا إلا أن تطوع»^(٣) وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٢٧ ، والترمذى في الدعوات باب ٣٢ .

(٢) أخرجه أبو داود في التطوع باب ٣ ، وأحمد في المسند ٤٠٥ / ٢ .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٣٤ ، والصوم باب ١ ، وال Hajib باب ٣ ، ومسلم في الإيمان حديث ٨ ، وأبو داود في الصلاة باب ١ ، والترمذى في الزكاة باب ٢ .

النواقل أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر^(١)، وفي لفظ لمسلم «ركعتنا الفجر خير من الدنيا وما فيها»^(٢).

آخر تفسير سورة الطور والله الحمد والمنة.

تفسير سورة النجم

وهي مكية

قال البخاري : حدثنا نصر بن علي ، أخبرني أبو أحمد - يعني الزبيدي - حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق ، عن الأسود بن يزيد عن عبد الله قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة **«والنجم»** قال : فسجد النبي ﷺ وسجد من خلفه ، إلا رجلاًرأيته أخذ كفأً من تراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً وهو أمية بن خلف^(٣) ، وقد رواه البخاري أيضاً في مواضع وسلم وأبو داود والنسياني من طرق عن أبي إسحاق به ، وقوله في الممتنع إنه أمية بن خلف في هذه الرواية مشكل ، فإنه قد جاء من غير هذه الطريق أنه عتبة بن ربيعة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هُوَى ﴿١﴾ **مَا ضَلَّ صَاحِبُكُوكَرَّ وَمَا غَوَى** ﴿٢﴾ **وَمَا يَطِقُ عَنِ الْمُؤْمِنِ** ﴿٣﴾ **إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ** ﴿٤﴾

قال الشعبي وغيره : الخالق يقسم بما شاء من خلقه ، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق ، رواه ابن أبي حاتم : واختلف المفسرون في معنى قوله : **«والنجم إذا هوى»** فقال ابن أبي نجيع عن مجاهد : يعني بالنجم الثريا إذا سقط مع الفجر ، وكذا روي عن ابن عباس وسفيان الثوري واختاره ابن جرير^(٤) ، وزعم السدي أنها الزهرة ، وقال الضحاك **«والنجم إذا هوى»** إذا رمي به الشياطين وهذا القول له اتجاه . وروى الأعمش عن مجاهد في قوله تعالى :

(١) أخرجه البخاري في التهجد بباب . ٢٧

(٢) أخرجه مسلم في المسافرين حديث . ٩٦

(٣) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ، ٢٩ ، وتفسير سورة ، ٥٣ ، باب ، ٤ ، والمغازي باب ، ٨ ، ومسلم في المساجد حديث ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، وأبو داود في السجود باب ، ٣ ، والنسياني في الافتتاح باب ، ٤٩ ، وأحمد في المسند / ١ ، ٣٨٨ ، ٤٣٧ ، ٤٤٣ .

(٤) تفسير الطبرى . ٥٠٣ / ١١

﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هُوَى﴾ يعني القرآن إذا نزل، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسُمُ بِمَوْاْقِعِ النَّجْمِ وَإِنَّهُ لِقَسْمٍ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لِقَرآنٍ كَرِيمٍ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمْسِهِ إِلَّا الْمَطْهُورُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٨٠].

وقوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول ﷺ بأنه باز راشد تابع للحق ليس بضال، وهو الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم، والغاوي هو العالم بالحق، العادل عنه قصداً إلى غيره، فنزعه الله رسوله وشرعه، عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود. وعن علم الشيء وكتمانه، والعمل بخلافه، بل هو صلوات الله وسلامه عليه وما بعثه به من الشرع العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهُوَى﴾ أي ما يقول قولهً عن هوى وغرض ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يَوْحَى﴾ أي إنما يقول ما أمر به يبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان كما رواه الإمام أحمد^(١): حدثنا يزيد، حدثنا جرير بن عثمان عن عبد الرحمن بن ميسرة عن أبي أمامة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ليدخلنَّ الجنة بشفاعة رجل ليس ببني مثل الحيين - أو مثل أحد الحيين - ربيعة ومضر» فقال رجل: يا رسول الله أو ما ربيعة من مضر؟ قال: «إنما أقول ما أقول».

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا يحيى بن سعيد عن عبيد الله بن الأحسن، أخبرنا الوليد بن عبد الله عن يوسف بن ماهك عن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهنني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ بشر بتكلم في الغضب. فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق»^(٣) ورواه أبو داود عن مسدد وأبي بكر بن أبي شيبة، كلاهما عن يحيى بن سعيد القطان به.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن متصرور، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا الليث عن ابن عجلان عن زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما أخبرتكم أنه من عند الله فهو الذي لا شك فيه» ثم قال: لا نعلمه يروى إلا بهذا الإسناد وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا يونس، حدثنا ليث عن محمد عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أقول إلا حقاً قال بعض أصحابه: فإنك تداعينا

(١) المسند ٥/٢٥٧، ٢٦١، ٢٦٧.

(٢) المسند ٢/١٦٢، ١٩٢.

(٣) أخرجه أبو داود في العلم باب ٣، والدارمي في المقدمة باب ٤٣.

(٤) المسند ٢/٣٤٠، ٣٦٠.

يا رسول الله؟ قال: «إني لا أقول إلا حقاً»^(١).

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ذُو مِرْقَةٍ فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَىٰ ثُمَّ نَادَىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنَ أَوْ أَدْنَىٰ فَأَرْجَىٰ إِلَى عَبْدِهِ مَا أَرْجَىٰ مَا كَذَبَ الْفَوَادُ مَارَأَىٰ أَفْتَرُوهُمْ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ وَلَقَدْ رَأَاهُ تَزْلَةً أَخْرَىٰ عِنْدَ سَدَرَةِ الْمُنْتَهَىٰ إِذْ يَغْشَىٰ السَّدَرَةَ مَا يَغْشَىٰ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَعَىٰ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ أَيْتَ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله محمد ﷺ أنه علمه الذي جاء به إلى الناس «شديد القوى» وهو جبريل عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى: «إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين» [التوكير: ١٩ - ٢١] وقال ه هنا «ذو مرة» أي ذو قوة، قاله مجاهد والحسن وابن زيد. وقال ابن عباس: ذو منظر حسن، وقال قتادة: ذو خلق طويل حسن. ولا منافاة بين القولين فإنه عليه السلام ذو منظر حسن وقوة شديدة.

وقد ورد في الحديث الصحيح من رواية ابن عمر وأبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لا تحل الصدقة لغنى ولا لمني مرة سوي»^(٢) وقوله تعالى: «فاستوى» يعني جبريل عليه السلام، قاله الحسن ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس «وهو بالأفق الأعلى» يعني جبريل استوى في الأفق الأعلى، قاله عكرمة وغير واحد. قال عكرمة: والأفق الأعلى الذي يأتي منه الصبح. وقال مجاهد هو مطلع الشمس. وقال قتادة: هو الذي يأتي منه النهار، وكذا قال ابن زيد وغيرهم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا مصرف بن عمرو اليامي أبو القاسم، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن طلحة بن مصرف، حدثني أبي عن الوليد هو ابن قيس عن إسحاق بن أبي الكهنة، أظنه ذكره عن عبد الله بن مسعود، أن رسول الله ﷺ لم ير جبريل في صورته إلا مرتين: أما واحدة فإنه سأله أن يراه في صورته فسد الأفق. وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد بذلك قوله: «وهو بالأفق الأعلى» وقد قال ابن جرير ه هنا قوله لم أره لغيره، ولا حكمه هو عن أحد وحاصله أنه ذهب إلى أن المعنى «فاستوى» أي هذا الشديد القوي ذو المرة هو ومحمد ﷺ بالأفق الأعلى، أي استويا جميعاً بالأفق الأعلى وذلك ليلة الإسراء، كذا قال ولم يوافقه أحد على ذلك، ثم شرع يوجه ما قال من حيث العربية فقال وهو كقوله تعالى: «أئنَا كُنَا تَرَاباً وَآبَاؤُنَا» فعطف بالأباء على المكنى في كنا من غير إظهار نحن فكذلك قوله «فاستوى» وهو، قال وذكر الفراء عن بعض العرب أنه أنشده: [الطربيل]

(١) أخرجه الترمذى في البر باب ٥٧.

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة باب ٢٤، والترمذى في الزكاة باب ٢٣، والنمسائى في الزكاة باب ٩٠، وابن ماجه في الزكاة باب ٢٦، والدارمى في الزكاة باب ١٥، وأحمد في المسند ١٦٤/٢، ١٩٢، ٣٧٧، ٣٨٩، ٦٢/٤، ٣٨٩.

ألم تر أن التَّبَعَ يضْلُبُ عُودُهُ ولا يستوي والخِزَوْغُ المُتَقَصِّفُ^(١)

وهذا الذي قاله من جهة العربية متوجه، ولكن لا يساعدك المعنى على ذلك، فإن هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء بل قبلها، ورسول الله ﷺ في الأرض، فهبط عليه جبريل عليه السلام وتدى إله فاقرب منه وهو على الصورة التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح ثم راه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى يعني ليلة الإسراء، وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة بعدها جاءه جبريل عليه السلام أول مرة، فأوحى الله إليه صدر سورة «اقرأ»، ثم فتر الوحي فترة ذهب النبي ﷺ فيها مراراً ليتردّي من رؤوس العجائب. فكلما هم بذلك ناداه جبريل من الهواء، يا محمد أنت رسول الله حقاً وأنا جبريل، فيسكن لذلك جأنه وتقر عينه، وكلما طال عليه الأمر عاد لمثلها حتى تبدي له جبريل ورسول الله ﷺ بالطبع في صورته التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح قد سد عظيم خلقه الأفق، فاقرب منه وأوحى إليه عن الله عز وجل ما أمره به، فعرف عند ذلك عظمة الملك الذي جاءه بالرسالة وجلالة قدره وعلو مكانته عند خالقه الذي بعثه إليه.

فاما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده حيث قال: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا الحارث بن عبيد عن أبي عمران الجوني عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا قاعد إذ جاء جبريل عليه السلام فوكز بين كتفي، فقمت إلى شجرة فيها كوكري الطير فقعد في أحدهما وقعدت في الآخر. فسمت وارتقت حتى سدت الخافقين، وأنا أقلب طرفي، ولو شئت أن أمس السماء لمسست، فالتفت إلى جبريل كأنه حلس لا طير فعرفت فضل علمه بالله علي. وفتح لي باب من أبواب السماء ورأيت النور الأعظم، وإذا دون الحجاب رفرفة الدر والياقوت. وأوحى إلى ما شاء الله أن يوحى» ثم قال البزار: «لا يرويه إلا الحارث بن عبيد، وكان رجلاً مشهوراً من أهل البصرة.

(قلت) الحارث بن عبيد هذا هو أبو قدامة الإيادي أخرج له مسلم في صحيحه إلا أن ابن معين ضعفه، وقال: ليس هو بشيء، وقال الإمام أحمد: مضطرب الحديث. وقال أبو حاتم الرازي: يكتب حديثه ولا يحتاج به. وقال ابن حبان: كثرة وهمه فلا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد، فهذا الحديث من غرائب روایاته، فإن فيه نكارة وغرابة ألفاظ وسياقاً عجيباً ولعله منام، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا حجاج، حدثنا شريك عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله أنه قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق،

(١) البيت لجرين في ديوانه ص ٢٩٨، وبلا نسبة في أساس البلاغة (قصف)، وتفسير الطبرى ٥٠٦/١١

(٢) ٤٠٧، ٣٩٨، ٣٩٥/١

يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم. انفرد به أحمد. وقال أحمد^(١): حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا أبو بكر بن عياش عن إدريس بن منه عن وهب بن منه عن ابن عباس قال: سأله النبي ﷺ جبريل أن يراه في صورته فقال: ادع ربك، فدعا رباه عز وجل فطلع عليه سواد من قبل المشرق فجعل يرتفع ويتشير، فلما رأاه النبي ﷺ صعق فأتاها فنعشة ومسح البزاق عن شدقه، تفرد به أحمد.

وقد رواه ابن عساكر في ترجمة عتبة بن أبي لهب من طريق محمد بن إسحاق عن عثمان بن عروة بن الزبير عن أبيه عن هبار بن الأسود قال: كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلى الشام فتجهزت معهما، فقال ابنه عتبة: والله لأنطلقن إلى محمد ولا ذرينه في ربه سبحانه وتعالى، فانطلق حتى أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد هو يكفر بالذي دنى فكان قاب قوسين أو أدنى، فقال النبي ﷺ: «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك» ثم انصرف عنه فرجع إلى أبيه فقال: يابني ما قلت له، فذكر له ما قال له، قال: فما قال لك؟ قال: قال: «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك» قال: يابني والله ما آمن عليك دعاءه، فسرنا حتى نزلنا الشراة وهي مأسدة وزرلنا إلى صومعة راهب فقال الراهب: يا معشر العرب، ما أنزل لكم هذه البلاد فإنها تسرح الأسد فيها كما تسرح الغنم. فقال لنا أبو لهب: إنكم قد عرفتم كبر سني وحقي، وإن هذا الرجل قد دعا على ابني دعوة، والله ما آمنها عليه، فاجتمعوا متابوكم إلى هذه الصومعة وافرشوا لابني عليها ثم افرشوا حولها، ففعلنا فجاء الأسد فشم وجوهنا فلما لم يجد ما يريد تقبض فوثب وبثة فإذا هو فوق المتعة، فشم وجهه ثم هزمه هزمه فقضى رأسه فقال أبو لهب: قد عرفت أنه لا ينفلت عن دعوة محمد.

وقوله تعالى: «فكان قاب قوسين أو أدنى» أي فاقترب جبريل إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض حتى كان بينه وبين محمد ﷺ قاب قوسين، أي بقدرها إذا مدا، قاله مجاهد وقتادة وقد قيل إن المراد بذلك بعد ما بين وتر القوس إلى كبدتها. قوله تعالى: «أو أدنى» قد تقدم أن هذه الصيغة تستعمل في اللغة لإثبات المخبر عنه ونفي ما زاد عليه كقوله تعالى: «ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة» [البرة: ٧٤] أي ما هي بألين من الحجارة، بل هي مثلها أو تزيد عليها في الشدة والقسوة وكذا قوله: «يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية» [النساء: ٧٧] قوله: «وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون» [الصفات: ١٤٧] أي ليسوا أقل منها بل هم مائة ألف حقيقة أو يزيدون عليها. فهذا تحقيق للمخبر به لا شك ولا تردد فإن هذا ممتنع وهكذا هنا هذه الآية «فكان قاب قوسين أو أدنى» وهذا الذي قلناه من أن هذا المقرب الداني الذي صار بينه وبين محمد صلى الله تعالى عليه

وسلم إنما هو جبريل عليه السلام، وهو قول أم المؤمنين عائشة وابن مسعود وأبي ذر وأبي هريرة، كما سنورد أحاديثهم قريباً إن شاء الله تعالى.

وروى مسلم في صحيحه عن ابن عباس أنه قال: «رأى محمد ربه بفؤاده مرتين»^(١) فجعل هذه إحداهما، وجاء في حديث شريك بن أبي نمر عن أنس في حديث الإسراء: «ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى»، ولهذا قد تكلم كثير من الناس في متن هذه الرواية وذكروا أشياء فيها من الغرابة، فإن صح فهو محمول على وقت آخر وقصة أخرى، لا أنها تفسير لهذه الآية فإن هذه كانت ورسول الله ﷺ في الأرض لا ليلة الإسراء، ولهذا قال بعده: «ولقد رأه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى» فهذه هي ليلة الإسراء والأولى كانت في الأرض.

وقد قال ابن جرير^(٢): حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا سليمان الشيباني، حدثنا زر بن حبيش قال: قال عبد الله بن مسعود في هذه الآية «فكان قاب قوسين أو أدنى» قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل له ستمائة جناح».

وقال ابن وهب: حدثنا ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان أول شأن رسول الله ﷺ أنه رأى في منامه جبريل بأجياد^(٣)، ثم إنه خرج ليقضي حاجته فصرخ به جبريل: يا محمد يا محمد! فنظر رسول الله يميناً وشمالاً فلم ير أحداً ثلاثة، ثم رفع بصره فإذا هو ثانٍ إحدى رجليه مع الأخرى على أفق السماء فقال يا محمد جبريل جبريل يسكنه. فهرب النبي ﷺ حتى دخل في الناس، فنظر فلم ير شيئاً، ثم خرج من الناس ثم نظر فرآه فدخل في الناس فلم ير شيئاً، ثم خرج فنظر فرآه، فذلك قول الله عز وجل «والنجم إذا هوى - إلى قوله - ثم دنا فتدلى» يعني جبريل إلى محمد عليهما الصلاة والسلام «فكان قاب قوسين أو أدنى» ويقولون: القاب نصف أصبع، وقال بعضهم: ذراعين كان بينهما، رواه ابن جرير^(٤) وابن أبي حاتم من حديث ابن وهب وفي حديث الزهري عن أبي سلمة عن جابر شاهداً لهذا.

وروى البخاري عن طلق بن غنم عن زائدة عن الشيباني قال: سألت زرراً عن قوله: «فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى» قال: حدثنا عبد الله أن محمداً ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح.

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٨٦.

(٢) تفسير الطبرى ٥٠٨/١١.

(٣) أجياد: موضع بأسفل مكة.

(٤) كتاب التفسير، تفسير سورة ٥٣، في الترجمة.

وقال ابن جرير^(١): حديثي ابن بزيع البغدادي، حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله ﷺ ما كذب الفؤاد ما رأى قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حلتا رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض، فعلى ما ذكرناه يكون قوله: ﴿فَأُوحِيَ إِلَى عَبْدِهِ مَا أُوحِيَ﴾ معناه فأوحي جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحي، أو فأوحي الله إلى عبده محمد ما أوحي بواسطة جبريل، وكلا المعنين صحيح. وقد ذكر عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿فَأُوحِيَ إِلَى عَبْدِهِ مَا أُوحِيَ﴾ قال: أوحي الله إليه ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ [الصحي: ٦] - ﴿وَرَفَقْنَا لَكَ ذَكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] وقال غيره: أوحي الله إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفَؤُادُ مَا رَأَى فَتَمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ قال مسلم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا الأعمش عن زياد بن حصين عن أبي العالية عن ابن عباس ﴿مَا كَذَبَ الْفَؤُادُ مَا رَأَى﴾ ﴿وَلَقَدْ رَأَ آنَّ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ قال: رأاه بفؤاده مرتين، وكذلك رواه سماك عن عكرمة عن ابن عباس مثله، وكذلك قال أبو صالح والسدي وغيرهما: إنه رأاه بفؤاده مرتين^(٢)، وقد خالفة ابن مسعود وغيره. وفي رواية عنه أنه أطلق الرؤية وهي محمولة على المقيدة بالفؤاد، ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة رضي الله عنهم، وقول البغوي في تفسيره وذهب جماعة إلى أنه رأاه بعينه وهو قول أنس والحسن وعكرمة فيه نظر والله أعلم.

وقال الترمذى^(٣): حدثنا محمد بن عمرو بن نبهان بن صفوان، حدثنا يحيى بن كثير العنبرى عن سلمة بن جعفر عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال: رأى محمد ربه، قلت: أليس الله يقول: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] قال: ويحك ذاك إذا تجلى بنوره الذي هو نوره، وقد رأى ربه مرتين. ثم قال: حسن غريب. وقال أيضاً: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان عن مجالد عن الشعبي قال: لقي ابن عباس كعباً بعرفة فسألته عن شيء فكبر حتى جاوته الجبال، فقال ابن عباس: إنا بنو هاشم، فقال كعب: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى، فكلم موسى مرتين ورأاه محمد مرتين.

وقال مسروق: دخلت على عائشة فقلت: هل رأى محمد ربه، فقالت: لقد تكلمت بشيء قفت له شعري فقلت: رويداً، ثم قرأت ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكَبِيرَ﴾ فقالت: أين يذهب بك إنما هو جبريل، من أخبرك أن محمداً رأى ربه أو كتم شيئاً مما أمر به أو يعلم الخمس التي

(١) تفسير الطبرى ١١/٥١١.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٨٦.

(٣) تفسير سورة ٥٣، باب ٤.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيَنْزِلُ الْغَيْثَ﴾ فقد أعظم على الله الفريدة ولكنه رأى جبريل، لم يره في صورته إلا مرتين: مرة عند سدرة المتهى، ومرة في أجياد وله ستمائة جناح قد سد الأفق.

وقال النسائي: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال: أتعجبون أن تكون العلة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤبة لمحمد عليهم الصلاة والسلام؟ وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه والله وسلم: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أني أراه»^(١) وفي رواية «رأيت نوراً»^(٢) وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجع، حدثنا أبو خالد عن موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب قال: قالوا: يا رسول الله رأيت ربك؟ قال: «رأيته بفؤادي مرتين» ثم قرأ: «ما كذب الفؤاد ما رأى»^(٣) ورواه ابن جرير^(٤) عن ابن حميد عن مهران عن موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال: قلنا يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال: «لم أره بعيني ورأيته بفؤادي مرتين» ثم تلا: «ثم تلا ثم دنا فتدلى»^(٥).

ثم قال ابن أبي حاتم: وحدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا محمد بن عبد الله الأنباري، أخبرني عباد بن منصور قال: سألت عكرمة عن قوله: «ما كذب الفؤاد ما رأى»^(٦) فقال عكرمة: تزيد أن أخبرك أنه قد رأه، قلت نعم، قال: قد رأه ثم قد رأه، قال: فسألت عنه الحسن فقال: قد رأى جلاله وعظمته ورداه، وحدثنا أبي، حدثنا محمد بن مجاهد، حدثنا أبو عامر العقدي، أخبرنا أبو خلدة عن أبي العالية قال: سئل رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «رأيت نهراً ورأيت وراء النهر حجاباً، ورأيت وراء الحجاب نوراً لم أر غيره» وذلك غريب جداً.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد^(٧): حدثنا أسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ربي عز وجل» فإنه حديث إسناده على شرط الصحيح، لكنه مختصر من حديث المنام كما رواه الإمام أحمد^(٨) أيضاً: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن أيوب عن أبي قلابة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أتاني ربي الليلة في أحسن صورة - أحسبه يعني في النوم - فقال: يا محمد أتدرى فيما يختص الملاّء الأعلى، قال: قلت لا، فوضع يده بين كتفيه حتى وجدت بردها بين

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٩١.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٩٢.

(٣) تفسير الطبرى ١١ / ٥١٠.

(٤) المستند ١ / ٢٩٠.

(٥) المستند ١ / ٣٦٨.

ثديي - أو قال نحري - فعلمت ما في السموات وما في الأرض . ثم قال : يا محمد ، هل تدرى فيما يختص الملاّ الأعلى ، قال : قلت نعم ، يختصون في الكفارات والدرجات ، قال : وما الكفارات والدرجات ؟ قال : قلت المكث في المساجد بعد الصلوات ، والمشي على الأقدام إلى الجماعات ، وإبلاغ الموضوع في المكاره ، من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير ، وكان من خطيبته كيوم ولدته أمه ، وقال : قل يا محمد إذا صليت اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين ، وإذا أردت بعذاك فتنة أن تقبضني إليك غير مفتون قال : والدرجات بذل الطعام وإفشاء السلام ، والصلة بالليل والناس نيا » وقد تقدم في آخر سورة ﴿ص﴾ عن معاذ نحوه .

وقد رواه ابن جرير^(١) من وجه آخر عن ابن عباس وفيه سياق آخر وزيادة غريبة فقال : حدثني أحمد بن عيسى التميمي ، حدثني سليمان بن عمر بن سيار ، حدثني أبي عن سعيد بن زربي عن عمر بن سليمان ، عن عطاء عن ابن عباس قال : قال النبي ﷺ : «رأيت ربي في أحسن صورة فقال لي : يا محمد هل تدرى فيما يختص الملاّ الأعلى ؟ فقلت لا يارب ، فوضع يده بين كتفيه فوجدت بردها بين ثديي ، فعلمت ما في السموات والأرض فقلت يا رب في الدرجات والكافارات ، ونقل الأقدام إلى الجماعات ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فقلت يا رب إنك اتخذت إبراهيم خليلاً وكلمت موسى تكليماً وفعلت وفعلت فقال ألم أشرح لك صدرك ؟ ألم أضع عنك وزرك ؟ ألم أفعل بك ألم أفعل بك ؟ قال فأفضى إلي بأشياء لم يؤذن لي أن أحدهنكموها قال فذاك قوله في كتابه : ﴿ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبه ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ فجعل نور بصري في فؤادي فنظرت إليه بفؤادي» إسناده ضعيف .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر بسنده إلى هبار بن الأسود رضي الله عنه أن عتبة بن أبي لهب لما خرج في تجارة إلى الشام قال لأهل مكة أعلموا أني كافر بالذي دنا فتدلى ، فبلغ قوله رسول الله ﷺ فقال : سلط الله عليه كلباً من كلابه . قال هبار : فكنت معهم فنزلنا بأرض كثيرة الأسد ، قال فلقد رأيت الأسد جاء فجعل يشم رؤوس القوم واحداً واحداً حتى تخطى إلى عتبة فاقطع رأسه من بينهم . وذكر ابن إسحاق وغيره في السيرة أن ذلك كان بأرض الزرقاء وقيل بالسراء ، وأنه خالف ليلته ، وأنهم جعلوه بينهم وناموا من حوله فجاء الأسد فجعل يزار ثم تخطاهم إليه فضم رأسه لعنه الله .

وقوله تعالى : ﴿ولقد رأه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى﴾ هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التي خلقه الله عليها وكانت ليلة

الإسراء . وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الإسراء بطرقها وألفاظها في أول سورة **﴿سبحان﴾** بما أغني عن إعادته هنا ، وتقدم أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يثبت الرؤية ليلة الإسراء ويستشهد بهذه الآية ، وتابعه جماعة من السلف والخلف ، وقد خالفه جماعات من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين وغيرهم .

وقال الإمام أحمد^(١) : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن بهلة عن زر بن حبيش عن ابن مسعود في هذه الآية **﴿ولقد رأه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى﴾** قال : قال رسول الله ﷺ **«رأيت جبريل وله ستمائة جناح ينتشر من ريشه التهاوיל^(٢)** من الدر والياقوت» وهذا إسناد جيد قوي ، وقال أحمد^(٣) أيضاً : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا شريك عن جامع بن أبي راشد عن أبي وائل عن عبد الله قال : رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح ، كل جناح منها قد سد الأفق ، يسقط من جناحه من التهاويل من الدر والياقوت ما الله به أعلم . إسناده حسن أيضاً .

وقال الإمام أحمد^(٤) أيضاً : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثني حسين ، حدثني عاصم بن بهلة قال ، سمعت شقيق بن سلمة يقول : سمعت ابن مسعود يقول قال رسول الله ﷺ **«رأيت جبريل على سدرة المنتهى وله ستمائة جناح»** سألت عاصماً عن الأجنحة فأبى أن يخبرني ، قال فأخبرني بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب ، وهذا أيضاً إسناد جيد .

وقال أحمد^(٥) : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا حسين ، حدثنا عاصم بن بهلة حدثني شقيق بن سلمة قال : سمعت ابن مسعود يقول قال رسول الله ﷺ **«أتاني جبريل عليه السلام في خضر معلق به الدر»** إسناد جيد أيضاً .

وقال الإمام أحمد^(٦) : حدثنا يحيى عن إسماعيل ، حدثنا عامر قال : أتى مسروق عائشة فقال يا أم المؤمنين هل رأى محمد ﷺ ربه عز وجل ؟ قالت : سبحان الله لقد قفت شعرى لما قلت ، أين أنت من ثلاثة من حدثكهن فقد كذب : من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب ثم قرأت **﴿لَا تدركه الأ بصار و هو يدرك الأ بصار﴾** [الأنعام : ١٠٣] **﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يَكُلِّمَهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾** [الشورى : ٥١] ومن أخبرك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ثم قرأت **﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْهُ عِلْمٌ السَّاعَةُ وَيَنْزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْضِ﴾** [لقمان : ٣٤] الآية . ومن أخبرك

(١) المسند ١ / ٤٦٠ .

(٢) التهاويل : الأشياء المختلفة الألوان .

(٣) المسند ١ / ٣٩٥ .

(٤) المسند ١ / ٤٠٧ .

(٥) المسند ١ / ٤٠٧ .

(٦) المسند ٦ / ٤٩ ، ٤٠ .

أن محمدًا قد كتم فقد كذب، ثم قرأت ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلَغَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين.

وقال الإمام أحمد^(١) أيضًا: حديثنا محمد بن أبي عدي عن داود عن الشعبي عن مسروق قال: كنت عند عائشة فقلت: أليس الله يقول: «ولقد رأه بالأفق المبين» [التوكوير: ٢٣] «ولقد رأه نزلة أخرى» فقالت: أنا أول هذه الأمة سألت رسول الله ﷺ عنها فقال: «إنما ذاك جبريل» لم يره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين، رأه منهبطاً من السماء إلى الأرض سادًّا عظيم خلقه ما بين السماء والأرض^(٢)، آخر جاه في الصحيحين من حديث الشعبي به.

[رواية أبي ذر] قال الإمام أحمد^(٣): حديثنا عفان حديثنا همام: حديثنا قتادة عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته. قال: وما كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله هل رأى ربه عز وجل؟ فقال: إنني قد سأله فقام: «قد رأيته نوراً أني أراه» هكذا وقع في رواية الإمام أحمد وقد أخرجه مسلم من طريقين بلقطين فقال: حديثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حديثنا وكيع عن يزيد بن إبراهيم عن قتادة عن عبد الله بن شقيق عن أبي ذر قال: سأله رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أني أراه»^(٤). وقال حديثنا محمد بن بشار، حديثنا معاذ بن هشام، حديثنا أبي عن قتادة عن عبد الله بن شقيق قال قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته. فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟ قال: قلت: كنت أسأله هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سأله فقال «رأيت نوراً»^(٥) وقد حكى الخلال في علله أن الإمام أحمد سئل عن هذا الحديث فقال: مازلت منكراً له وما أدرني ما وجهه.

وقد قال ابن أبي حاتم: حديثنا عمرو بن عون الواسطي، أخبرنا هشيم عن منصور عن الحكم عن إبراهيم عن أبيه عن أبيه عن أبي ذر قال: رأه بقلبه ولم يره بعينه، وحاول ابن خزيمة أن يدعى انقطاعه بين عبد الله بن شقيق وبين أبي ذر، وأما ابن الجوزي فتأوله على أن أبي ذر لعله سأله رسول الله ﷺ قبل الإسراء فأجابه بما أجاب به، ولو سأله بعد الإسراء لأجابه بالإثبات، وهذا ضعيف جداً، فإن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قد سأله عن ذلك بعد الإسراء ولم يثبت لها الرؤية، ومن قال إنه خاطبها على قدر عقلها أو حاول تخطتها فيما ذهبت إليه كان خزيمة في كتاب التوحيد، فإنه هو المخطئ والله أعلم. وقال النسائي: حديثنا يعقوب بن إبراهيم حديثنا هشام عن منصور عن الحكم عن يزيد بن شريك عن أبي ذر قال: رأى

(١) المسند ٦/٢٣٦، ٢٤١.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٥٣، باب ١، ومسلم في الإيمان حديث ٢٨٧.

(٣) المسند ٥/١٤٧.

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٩١.

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٩٢.

رسول الله ﷺ ربه بقلبه ولم يره ببصره.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن علي بن مسهر، عن عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال في قوله تعالى: «ولقد رأه نزلة أخرى» قال رأى جبريل عليه السلام^(١).

وقال مجاهد في قوله: «ولقد رأه نزلة أخرى» قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته مرتين، وكذلك قال قتادة والربيع بن أنس وغيرهم. وقوله تعالى: «إذ يغشى السدرة ما يغشى» قد تقدم في أحاديث الإسراء أنه غشيتها الملائكة مثل الغربان وغشيتها نور الرب وغشيتها ألوان ما أدرى ما هي؟ وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا مالك بن مغول، حدثنا الزبير بن عدي عن طلحة عن مرة عن عبد الله هو ابن مسعود قال: لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المتهى وهي في السماء السابعة إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض، فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها «إذ يغشى السدرة ما يغشى» قال فراش من ذهب، قال: وأعطي رسول الله ﷺ ثلاثة: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المفحومات^(٣). انفرد به مسلم^(٤).

وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع عن أبي العالية عن أبي هريرة أو غيره - شك أبو جعفر - قال: لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى إلى السدرة، فقيل له إن هذه السدرة، فغشيتها نور الخلق وغشيتها الملائكة مثل الغربان حين يقعن على الشجر، وقال فكلمه عند ذلك فقال له سل. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد «إذ يغشى السدرة ما يغشى» قال كان أغصان السدرة لؤلؤاً ويماقوتاً وزبرجاً، فرأها النبي ﷺ ورأى ربه بقلبه، وقال ابن زيد قيل: يا رسول الله أي شيء رأيت يغشى تلك السدرة؟ قال: «رأيت يغشاها فراش من ذهب، ورأيت على كل ورقة من ورقها ملكاً قائماً يسبح الله عز وجل».

وقوله تعالى: «ما زاغ البصر وما طغى» قال ابن عباس رضي الله عنهم: ما ذهب يميناً ولا شمالاً «وما طغى» ما جاوز ما أمر به، وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة فإنه ما فعل إلا ما أمر به ولا سأل فوق ما أعطي، وما أحسن ما قال الناظم:

رأى جنة المأوى وما فوقها ولو رأى غيره ما قد رأه لتها

وقوله تعالى: «لقد رأى من آيات ربِّه الكبُرى» كقوله: «لزيريك من آياتنا الكبُرى» [طه: ٢٣] أي الدالة على قدرتنا وعظمتنا، وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٨٣.

(٢) المستد ٤٢٢ / ١.

(٣) المفحومات: الذنوب العظام التي ت quam أصحابها في النار.

(٤) كتاب الإيمان حديث ٢٧٩.

تلك الليلة لم تقع لأنه قال: «لقد رأى من آيات ربِّه الكبُرِيَّ» ولو كان رأى ربِّه لأُخْبَرَ بذلك ولقال ذلك للناس، وقد تقدم تقرير ذلك في سورة سبحان.

وقد قال الإمام أحمد^(١): حدثنا أبو النضر، حدثنا محمد بن طلحة عن الوليد بن قيس عن إسحاق بن أبي الكهتلة قال محمد أظنه عن ابن مسعود أنه قال: إنَّ مُحَمَّداً لم ير جبريل في صورته إلا مرتين: أما مرة فإنه سأله أن يريه نفسه في صورته فأراه صورته فسد الأفق، وأما الأخرى فإنه صعد معه حين صعد به، وقوله: «وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى» قال: فلما أَحَسَّ جبريل ربِّه عز وجل عاد في صورته وسجد، ف قوله: «ولقد رأه نزلة أخرى عند سدرة المنتهي عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربِّه الكبُرِيَّ» قال: خلق جبريل عليه السلام، وهكذا رواه أحمد وهو غريب.

أَفَرَأَيْتَ الْكَلَتَ وَالْعَزَىٰ ﴿١﴾ وَمَنْتَهَا التَّائِثَةُ الْأُخْرَىٰ ﴿٢﴾ أَكُلُّمُ الدَّكْرَ وَلَهُ الْأَنْتَنَ ﴿٣﴾ تَلَكَ إِذَا قِسْمَةُ ضِيرَىٰ ﴿٤﴾ إِنَّ هَىٰ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَيِّمُوهَا أَسْمُهُ وَإِبَاوِهِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَنٍ إِنْ يَنْتَعُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ
وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْمَدْعَىٰ ﴿٥﴾ أَمْ لِلإِنْسَنِ مَا تَنَقَّىٰ ﴿٦﴾ فِلَلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٧﴾ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي
السَّمَاوَاتِ لَا تُقْنَىٰ شَفَاعَتْهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَبِرْضَىٰ ﴿٨﴾

يقول تعالى مقرعاً للمشركين في عبادتهم للأصنام والأنداد والأوثان، واتخاذهم البيوت لها مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمن عليه السلام «أَفَرَأَيْتَ الْلَّاتَ» وكانت اللات صخرة يypress منقوشة عليها بيت بالطائف، له أستار وسدنة وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش، قال ابن جرير^(٢): وكانوا قد اشتقو اسمها من اسم الله فقالوا اللات، يعنون مؤنة منه، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، وحكي عن ابن عباس ومجاحد والربيع بن أنس أنهم قرؤوا اللات بشدید النساء وفسروه بأنه كان رجلاً يلت للحجج في الجاهلية السوقي، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه.

وقال البخاري^(٣): حدثنا مسلم هو ابن إبراهيم، حدثنا أبو الأشهب، حدثنا أبو الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: «اللات والعزى» قال: كان اللات رجلاً يلت السوق سوق الحجاج، قال ابن جرير^(٤): وكذا العزى من العزيز، وكانت شجرة عليها بناه وأستار

(١) المسند ٤٠٧/١.

(٢) تفسير الطبرى ٥٢٠/١١.

(٣) كتاب التفسير، تفسير سورة ٥٣، باب ٢.

(٤) تفسير الطبرى ٥٢٠/١١.

بنخلة، وهي بين مكة والطائف، وكانت قريش يعظمونها كما قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم».

وروى البخاري^(١) من حديث الزهرى عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف فقال في حلفه واللات والعزى فليقل لا إله إلا الله، ومن قال لصاحبه تعالَ أقامرك فليتصدق» فهذا محمول على من سبق لسانه في ذلك كما كانت أسلتهم قد اعتادته في زمن الجاهلية، كما قال النسائي: أخبرنا أحمد بن بكار، وعبد الحميد بن محمد قالا: حدثنا مخلد، حدثنا يونس عن أبيه، حدثني مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: حلفت باللات والعزى، فقال لي أصحابي: بئس ما قلت! قلت هجراً. فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال: «قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قادر، وانفث عن شمالك ثلاثاً، وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم لا تعد»^(٢).

وأما مناة فكانت بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها ويهلون منها للحج إلى الكعبة. وروى البخاري^(٣) عن عائشة نحوه، وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخرى تعظمها العرب كتعظيم الكعبة. غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها.

قال ابن إسحاق في السيرة: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة. بها سدنة وحجاب وتهدي لها كما يهدى للكعبة، وتطفو بها كطواوفها بها، وتنحر عندها، وهي تعرف فضل الكعبة عليها لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده: فكانت لقريش ولبني كنانة العزى بنخلة، وكانت سدنتها وحجابها بني شيبان من سليم، حلفاء بني هاشم^(٤).

قلت: بعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدمها وجعل يقول: [رجز]
يا عزَّى كفرانَكِ لَا سُبْحَانَكِ إِنَّى رأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكِ^(٥)

وقال النسائي: أخبرنا علي بن المنذر، أخبرنا ابن فضيل، حدثنا الوليد بن جميع عن أبي الطفيل قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، وكانت بها العزى فأتتها خالد وكانت على ثلاثة سمرات، فقطع السمرات وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال: «ارجع فإنك لم تصنع شيئاً» فرجع خالد، فلما أبصرته السدنة وهم

(١) كتاب التفسير، تفسير سورة ٥٣، باب ٢.

(٢) آخرجه النسائي في الأيمان باب ١٢.

(٣) تفسير سورة ٥٣، باب ٢.

(٤) انظر سيرة ابن هشام ١/٨٣، ٨٤.

(٥) الرجز بلا نسبة في لسان العرب (عزز)، وتأج العروس (عزز)، والمخصص ١٥/١٩٠.

حجبتها أمعنوا في الحيل وهم يقولون: يا عزى، يا عزى، فأناها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة
شعرها تحوّل التراب على رأسها، فغمضها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ
فأخبره فقال «تلك العزي!».

قال ابن إسحاق: وكانت اللات لثيف بالطائف، وكان سدنتها وحجابها بني معب^(١).

قلت: وقد بعث إليها رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة، وأبا سفيان صخر بن حرب،
فهدماها وجعلا مكانها مسجداً بالطائف. قال ابن إسحاق: وكانت منة للأوس والخزرج ومن
دان بدينه من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المشسل بقديد، فبعث رسول الله ﷺ إليها
أبا سفيان صخر بن حرب فهدمها، ويقال علي بن أبي طالب قال: وكانت ذو الخلصة لدوس
وختعم وبجيلة، ومن كان بيلادهم من العرب بتبالة. قلت: وكان يقال لها الكعبة اليمانية،
وللكعبة التي بمكة الكعبة الشامية، فبعث إليه رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي فهدمه،
قال: وكانت فلس لطيء ولمن يليها بجبل طيء من سلمي وأجا، قال ابن هشام: فحدثني
بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ بعث إليه علي بن أبي طالب فهدمه، واصطفى منه سيفين:
الرسوب والمخدم، فنفله إياهما رسول الله ﷺ فهما سيفاً على. قال ابن إسحاق: وكان لحمير
وأهل اليمن بيت بصنعاء يقال له ريام، وذكر أنه كان به كلب أسود وأن الحررين اللذين ذهبا مع
تبع استخراجاه وقتلاه وهدموا البيت. قال ابن إسحاق: وكانت رضاء بنتاً لبني ربيعة بن كعب بن
سعد بن زيد منة بن تميم، ولها يقول المستوغر بن ربيعة بن كعب بن سعد حين هدمها في
الإسلام: [الطوبل]

ولقد شددت على رضاء شدة فتركتها قفراً بقاع أسمها

قال ابن هشام: إنه عاش ثلاثة وثلاثين سنة وهو القائل: [الوافر]

ولقد سئمت من الحياة وطولها	وعمرت من عدد السنين مئينا
وعمرت من عدد الشهور سنينا	مائة حدتها بعدها مائتان لي
يوم يمر وليلة تحدونا	هل ما باقي إلا كما قد فاتنا

قال ابن إسحاق: وكان ذو الكعبات لبكر وتغلب ابني وائل وإياد بسنداد، وله يقول
أشهى بني قيس بن ثعلبة: [الكامل]

بَيْنَ الْخَوَزَنَقِ وَالسَّدِيرِ وَبَارِقِ

(١) سيرة ابن هشام ٨٥ / ١.

(٢) البيت للأسود بن يعفر في ديوانه ص ٢٧، ولسان العرب (كعب)، (برق)، وكتاب العين ٢٠٧ / ١،

وتهذيب اللغة ٣٢٥ / ١، وتأج العروس (كعب)، (سند)، وشرح اختيارات المفضل ص ٩٦٩، والشعر

والشعراء ص ٢٦١، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٣٦٥.

ولهذا قال تعالى: «أَفَرَأَيْتَ الْلَّاتِ وَالْعَزِيزِ وَمِنَةَ الْثَالِثَةِ الْأُخْرَى» ثم قال تعالى: «أَلَا كُمْ الْذِكْرُ وَلِهِ الْأَثْنَى» أي أتجعلون له ولداً وتجعلون ولده أثني، وتخترعون لأنفسكم الذكور، فلو اقسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكان ت **قسمة ضئي** أي جوراً باطلة، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً، وقال تعالى منكراً عليهم فيما ابتدعواه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر من عبادة الأصنام وتسميتها الله: «إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ» أي من تلقوا أنفسكم **ما أنزل الله بها من سلطان** أي من حجة «إِنْ يَتَبَعُونَ إِلَّا الظُّنُونَ وَمَا تَهْوِي الْأَنْفُسُ» أي ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظ نفوسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين. «وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهَدِيَّ» أي ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير والحججة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤوهم به ولا انقادوا له.

ثم قال تعالى: «أَمْ لِلنَّاسِ مَا تَمَنَّى» أي ليس كل من تمنى خيراً حصل له «لَيْسَ بِأَمَانِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ» [النساء: ١٢٣] ما كل من زعم أنه مهتدٍ يكون كما قال، ولا كل من ود شيئاً يحصل له . قال الإمام أحمد^(١): حدثنا إسحاق حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا تَمَنَّى أَحَدُكُمْ فَلَا يَنْظُرْ مَا يَتَمَنَّى، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا يَكْتُبُ لَهُ مِنْ أَمْنِيَّتِهِ» تفرد به أحمد.

وقوله: «فَلَلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى» أي إنما الأمر كله لله مالك الدنيا والآخرة والمتصرف في الدنيا والآخرة، فهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وقوله تعالى: «وَكُمْ مِنْ مُلْكِ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذِنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَبِرِضِي» كقوله: «مَنْ ذَا الَّذِي يُشْفِعُ عَنْهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ» [البقرة: ٢٥٥] «وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عَنْهُ إِلَّا لِمَنْ أُذِنَ لَهُ» [سبأ: ٢٣]

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونَ الْمَلَائِكَةَ سَمِيَّةَ الْأَنْفَنَ **٢٧** وَمَا هُمْ بِهِ، مِنْ عَلِيهِ إِنْ يَتَبَعُونَ إِلَّا الظُّنُونُ وَإِنَّ الظُّنُونَ لَا يُعْنِي مِنَ الْحَقِيقَ شَيْئاً **٢٨** فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَا يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا **٢٩** ذَلِكَ مَلَفِّهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَى **٣٠**

يقول تعالى منكراً على المشركين في تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى، وجعلهم لها أنها بنات الله تعالى الله عن ذلك كما قال تعالى: «وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا

أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون» [الزخرف: ١٩] ولهذا قال تعالى: «وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ» أي ليس لهم علم صحيح يصدق ما قالوه، بل هو كذب وزور وافتراء وكفر شنيع. «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيئًا» أي لا يجدي شيئاً ولا يقوم أبداً مقام الحق، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنُّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ»^(١).

وقوله تعالى: «فَأَعْرَضْ عَمَنْ تَوَلَّ عَنْ ذِكْرِنَا» أي أغعرض عن الذي أغعرض عن الحق واهجره. وقوله: «وَلَمْ يَرِدْ إِلَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا» أي وإنما أكثر همه ومبلغ علمه الدنيا، فذاك هو غاية ما لا خير فيه، ولهذا قال تعالى: «ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ» أي طلب الدنيا والسعى لها هو غاية ما وصلوا إليه. وقد روى الإمام أحمد^(٢) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له» وفي الدعاء المأثور «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا»^(٣) وقوله تعالى: «إِنْ رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى» أي هو الخالق لجميع المخلوقات والعالم بمصالح عباده، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته وهو العادل الذي لا يجور أبداً لا في شرعه ولا في قدره.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْرِيَ الَّذِينَ أَسْتَوْا بِمَا عَمِلُوا وَلِمَنْ يَحْسِنُ بِالْحَسْنَى ۝ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرًا لِلْإِثْمِ وَالْفَوْحَشَ إِلَّا اللَّهُمَّ إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ هُوَ أَعْلَمُ بِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا كُرِمَ الْأَرْضُ وَإِذَا أَنْتَمْ أَجِنَّةً فِي بُطُونِ أَمْهَاتِكُمْ فَلَا تَرْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَنْتُمْ ۝

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه الغني بما سواه الحاكم في خلقه بالعدل وخلق الخلق بالحق «ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى» أي يجازي كلأً بعمله إن خيراً فخير وإن شرًا فشر، ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، أي لا يتعاطون المحرمات والكبائر وإن وقع منهم بعض الصغار فإنها يغفر لهم ويستر عليهم كما قال في الآية الأخرى «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرُ عَنْكُمْ سِيَّئَاتِكُمْ وَنَدْخُلُكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا» [النساء: ٣١] وقال ه هنا: «الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللهم» وهذا استثناء منقطع، لأن اللهم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال.

(١) أخرجه البخاري في الوصايا باب ٨، والنكاح باب ٤٥، والفرائض باب ٢، والأدب باب ٥٧، ومسلم في البر حديث ٢٨، والترمذمي في البر باب ٥٦، وأبي حسن الخلق حديث ١٥، وأحمد في المسند ٢٤٥، ٢٤٥/٢، ٣١٢، ٢٨٧، ٣٤٢، ٤٨٢، ٤٧٠، ٤٩١، ٤٩٢، ٥٠٤، ٥١٧، ٥٣٩.

(٢) المسند ٦/٧١.

(٣) أخرجه الترمذمي في الدعوات باب ٧٩.

قال الإمام أحمد^(١): حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمراً عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللهم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تتمني وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»^(٢) آخر جاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق به.

وقال ابن جرير^(٣): حدثنا محمد بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن ثور، حدثنا معمراً عن الأعمش عن أبي الضحى أن ابن مسعود قال: زنا العينين النظر، وزنا الشفتين التقبيل، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين المشي، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه، فإن تقدم بفرجه كان زانياً وإنما فهو اللهم، وكذا قال مسروق الشعبي. وقال عبد الرحمن بن نافع الذي يقال له: ابن لبابة الطائفي قال: سألت أبي هريرة عن قول الله: «إلا اللهم» قال: القبلة والغمزة والنظرية والمباشرة، فإذا مس الختان فقد وجب الغسل، وهو الزنا. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس «إلا اللهم» إلا ما سلف وكذا قال زيد بن أسلم. وقال ابن جرير^(٤): حدثنا ابن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن منصور عن مجاهد أنه قال في هذه الآية: «إلا اللهم» قال: الذي يلم بالذنب ثم يدعه، قال الشاعر: [الجزء]

إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمَّا وَأَيُّ عَبْدِ لَكَ مَا أَلْمَا ؟^(٥)

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير عن منصور عن مجاهد في قول الله تعالى: «إلا اللهم» قال: الرجل يلم بالذنب ثم يتزع عنه. قال: وكان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت وهو يقولون:

إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمَّا وَأَيُّ عَبْدِ لَكَ مَا أَلْمَا ؟
وقد رواه ابن جرير وغيره مرفوعاً قال ابن جرير: حدثني سليمان بن عبد الجبار، حدثنا أبو

(١) المسند / ٢٧٦، ٢٧٩، ٣٤٣، ٤٣١، ٥٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في الاستذان باب ١٢، والقدر باب ٩، ومسلم في القدر حديث ٢٠، ٢١.

(٣) تفسير الطبرى ٥١٦/١١.

(٤) تفسير الطبرى ٥٢٨/١١.

(٥) الرجل لأبي خراش في الأزهية ص ١٥٨، وخزانة الأدب ١١/١٩٠، وشرح أشعار الهنالين ٣/١٣٤٦، وشرح شواهد المغني ص ٦٢٥، ولسان العرب (جمل)، والمقاصد التحوية ٤/٢١٦، وتاح العروس (جمل)، ولامية بن أبي الصلت في الأغاني ٤/١٣١، ١٣٥، وخزانة الأدب ٤/٤، ولسان العرب (لم)، وتهذيب اللغة ١٥/٣٤٧، ٤٢٠، وكتاب العين ٨/٣٥٠، وتاح العروس (لم)، ولامية أو لأبي خراش في خزانة الأدب ٢/٢٩٥، ولسان العرب (لم)، وبلا نسبة في الانصاف ص ٧٦، وجمهرة اللغة ص ٩٢، والجنى الدانى ص ٢٩٨، ولسان العرب (لا)، ومعنى الليب ١/٢٤٤، وكتاب العين ٨/٣٢١، وديوان الأدب ٣/٢٦٦، وتاح العروس (لا)، وتفسير الطبرى ١١/٥٢٧.

عاصم، حدثنا زكريا بن إسحاق عن عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس ﴿الذين يجتبنون كبائر الإثم والفواحش إلا اللهم﴾ قال: هو الرجل الذي يلم بالفاحشة ثم يتوب وقال: قال رسول الله ﷺ:

إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك مما ألمًا؟

وهكذا رواه الترمذى عن أَحْمَدَ بْنَ عُثْمَانَ أَبِي عَاصِمِ الْبَصْرِيِّ عَنْ أَبِي عَاصِمِ النَّبِيلِ ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ حَسْنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ زَكْرِيَا بْنِ إِسْحَاقَ، وَكَذَا قَالَ الْبَزَارُ: لَا نَعْلَمُهُ يَرْوَى مَتَصِلًا إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَسَاقَهُ أَبِي حَاتِمَ وَالْبَغْوَى مِنْ حَدِيثِ أَبِي عَاصِمِ النَّبِيلِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَهُ الْبَغْوَى فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ تَنْزِيلٍ، وَفِي صَحَّتِهِ مَرْفُوعًا نَظَرًا.

ثُمَّ قَالَ أَبْنَ جَرِيرَ^(١): حَدَثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَزِيعٍ، حَدَثَنَا يَزِيدُ بْنُ زَرِيعٍ، حَدَثَنَا يُونَسُ عَنِ الْحَسْنِ عَنْ أَبِي هَرِيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَرَاهُ رَفِعَهُ فِي: ﴿الذين يجتبنون كبائر الإثم والفواحش إلا اللهم﴾ قَالَ: اللَّمَّا مِنَ الرِّزْنَا ثُمَّ يَتُوبُ وَلَا يَعُودُ. وَاللَّمَّا مِنَ السُّرْقَةِ ثُمَّ يَتُوبُ وَلَا يَعُودُ، وَاللَّمَّا مِنْ شُرْبِ الْخَمْرِ ثُمَّ يَتُوبُ وَلَا يَعُودُ، قَالَ: فَذَلِكَ الْإِلَمَامُ، وَحَدَثَنَا أَبْنُ بَشَارٍ، حَدَثَنَا أَبْنُ أَبِي عَدِيٍّ عَنْ عَوْفٍ عَنِ الْحَسْنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الذين يجتبنون كبائر الإثم والفواحش إلا اللهم﴾ قَالَ: اللَّمَّا مِنَ الرِّزْنَا أَوَ السُّرْقَةِ أَوْ شُرْبِ الْخَمْرِ ثُمَّ لَا يَعُودُ إِلَيْهِ.

وَحَدَثَنِي يَعْقُوبُ، حَدَثَنَا أَبْنُ عَلِيَّةَ عَنْ أَبِي رَجَاءِ عَنِ الْحَسْنِ فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿الذين يجتبنون كبائر الإثم والفواحش إلا اللهم﴾ قَالَ: كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُونَ: هُوَ الرَّجُلُ يَصِيبُ الْلَّمَّةَ مِنَ الرِّزْنَا وَالْلَّمَّةَ مِنْ شُرْبِ الْخَمْرِ فَيَجْتَبِنَهَا وَيَتُوبُ مِنْهَا. وَقَالَ أَبْنُ جَرِيرَ^(٢) عَنْ عَطَاءِ عَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ ﴿إِلَّا اللَّمَّا﴾ يَلْمُ بِهَا فِي الْحِينِ قَلْتَ: الرِّزْنَا؟ قَالَ: الرِّزْنَا ثُمَّ يَتُوبُ. وَقَالَ أَبْنُ جَرِيرَ أَيْضًا: حَدَثَنَا أَبُو كَرِيبٍ، حَدَثَنَا أَبْنُ عَيْنَةَ عَنْ عُمَرٍ وَعَنْ عَطَاءِ عَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: اللَّمَّا، الَّذِي يَلْمُ الْمَرَةَ. وَقَالَ السَّدِيُّ: قَالَ أَبُو صَالِحَ سَئَلَتْ عَنِ الْلَّمَّمَ فَقَلَتْ: هُوَ الرَّجُلُ يَصِيبُ الذَّنْبَ ثُمَّ يَتُوبُ، وَأَخْبَرَتْ بِذَلِكَ أَبْنَ عَبَّاسَ فَقَالَ: لَقَدْ أَعْانَكَ عَلَيْهَا مَلِكُ كَرِيمٍ، حَكَاهُ الْبَغْرِيُّ.

وَرَوَى أَبْنُ جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقِ الْمُشْتَى بْنِ الصَّبَاحِ - وَهُوَ ضَعِيفٌ - عَنْ عُمَرِ بْنِ شَعْبَى أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ قَالَ: اللَّمَّا مَا دُونَ الشَّرْكِ، وَقَالَ سَفِيَّانُ الثُّوْرِيُّ عَنْ جَابِرِ الْجَعْفِيِّ عَنْ عَطَاءِ عَنْ أَبْنِ الزَّبِيرٍ ﴿إِلَّا اللَّمَّا﴾ قَالَ: مَا بَيْنَ الْحَدِيْنِ حَدُّ الدِّينِ وَعَذَابُ الْآخِرَةِ، وَكَذَا رَوَاهُ شَعْبَةُ عَنِ الْحَكْمِ عَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ مُثْلِهِ سَوَاءً. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا اللَّمَّا﴾ كُلُّ شَيْءٍ بَيْنَ الْحَدِيْنِ حَدُّ الدِّينِ وَحدُّ الْآخِرَةِ، تَكْفُرُهُ الصَّلَوَاتُ فَهُوَ اللَّمَّمُ، وَهُوَ دُونَ كُلِّ مُوجَبٍ، فَأَمَا

(١) تفسير الطبرى ٥٢٧/١١.

(٢) تفسير الطبرى ٥٢٨، ٥٢٧/١١.

حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته في الدنيا، وأما حد الآخرة فكل شيء ختمه الله بالنار وأخر عقوبته إلى الآخرة. وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك.

وقوله تعالى: «إن ربك واسع المغفرة» أي رحمته وسعت كل شيء ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها كقوله تعالى: «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقطنوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم» [الزمر: ٥٣] وقوله تعالى: «هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض» أي هو بصير بكم عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التي تصدر عنكم، وتقع منكم حين أنشأكم من الأرض، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذر ثم قسمهم فريقين: فريقاً للجنة وفريقاً للسعيرو. وكذا قوله: «وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم» قد كتب الملك الذي يوكل به رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد؟ قال مكحول: كنا أجنة في بطون أمهاتنا سقطت منا من سقط، وكنا فيمن بقي ثم كنا مراضع فهلك منا من هلك، وكنا فيمن بقي ثم صرنا شيوخاً لا أبالك فماذا بعد هذا ننتظر؟ رواه ابن أبي حاتم عنه.

وقوله تعالى: «فلا تزكوا أنفسكم» أي تمدحوها وتشكروها وتمنا بأعمالكم «هو أعلم بمن اتقى» كما قال تعالى: «ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلًا» [النساء: ٤٩]. وقال مسلم في صحيحه: حدثنا عمرو النافذ، حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن محمد بن عمرو بن عطاء قال: سميت ابتي برة فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم وسميت برة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تزكوا أنفسكم إن الله أعلم بأهل البر منكم» فقالوا: بم نسميها؟ قال: «سموها زينب»^(١) وقد ثبت أيضاً في الحديث الذي رواه الإمام أحمد^(٢) حيث قال: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا خالد الحذاء عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال: مدح رجل أعلاه عند النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «ويليك قطعت عنك صاحبك - مراراً - إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل أحسب فلاناً والله حسيبه ولا أزكي على الله أحداً، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك»^(٣) ثم رواه عن غندر عن شعبة عن خالد الحذاء به، وكذا رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه من طرق عن خالد الحذاء به.

وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا وكيع وعبد الرحمن قالا: أخبرنا سفيان عن منصور عن

(١) أخرجه مسلم في الآداب حديث ١٦، ١٧.

(٢) المسند ٤١/٥، ٤٥، ٤٤، ٤٦.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب باب ٥٤، ٩٥، ومسلم في الرهد حديث ٦٥، وأبو داود في الحدود باب

. ٢٣

(٤) المسند ٥/٦.

إبراهيم عن همام بن الحارث قال: جاء رجل إلى عثمان فأثنى عليه في وجهه قال: فجعل المقداد بن الأسود يحثو في وجهه التراب ويقول: أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المداحين أن نحثو في وجوههم التراب^(١). ورواه مسلم وأبو داود من حديث الثوري عن منصور به.

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّ^{٢٣} وَأَعْطَنِي قَلِيلًا وَأَكْدَى^{٢٤} أَعْنَدُهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يُرَى^{٢٥} إِنَّمَا تَمَّ بِنَبَاتٍ بِمَا فِي صُحْفٍ
مُوسَى^{٢٦} وَإِنْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَقَ^{٢٧} أَلَا نَزَرٌ وَزِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَى^{٢٨} وَأَنَّ لِيَسَ لِلإِنْسَنِ إِلَّا مَا سَعَى^{٢٩} وَأَنَّ
سَعَيْهُ سَوْفَ يُرَى^{٣٠} ثُمَّ يَجْزِي إِلَّا أَكْوَافَ^{٣١}

يقول تعالى ذاماً لمن تولى عن طاعة الله: «فلا صدق ولا صلي ولكن كذب وتولي» [القيامة: ٣١] «وأعطي قليلاً وأكدى» [القيامة: ٣٢] قال ابن عباس: أطاع قليلاً ثم قطعه^(٢)، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة وغير واحد. قال عكرمة وسعيد: كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئراً، فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل فيقولون أكدينا ويتربكون العمل.

وقوله تعالى: «أعنده علم الغيب فهو يرى» أي أعنده هذا الذي قد أمسك يده خشية الإنفاق وقطع معروفه، أعنده علم الغيب أنه سينفذ ما في يده حتى قد أمسك عن معروفه فهو يرى ذلك عياناً؟ أي ليس الأمر كذلك. وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلال وشحًا وهلعاً، ولهذا جاء في الحديث «أنفق بلاً ولا تخش من ذي العرش إفلالاً» وقد قال الله تعالى [٣٩] «وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين» [سبأ: ٣٩]

وقوله تعالى: «إِنَّمَا تَمَّ بِنَبَاتٍ بِمَا فِي صُحْفٍ مُوسَى وَإِنْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَقَ» قال سعيد بن جبير والثورى: أي بلغ جميع ما أمر به، وقال ابن عباس «وَفَقَ اللَّهُ بِالْبَلَاغِ» الله بالبلاغ، وقال سعيد بن جبير «وَفَقَ» ما أمر به، وقال قتادة «وَفَقَ» طاعة الله وأدى رسالته إلى خلقه وهذا القول هو اختيار ابن جرير، وهو يشمل الذي قبله ويشهد له قوله تعالى: «وَإِذَا بَلَّى إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ» قال إني جاعلك للناس إماماً [البقرة: ١٢٤] فقام بجميع الأوامر وترك جميع التواهي وبلغ الرسالة على التمام والكمال، فاستحق بهذا أن يكون للناس إماماً يقتدي به في جميع أحواله وأقواله وأفعاله. قال الله تعالى: «ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مَلَةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» [النحل: ١٢٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف الحمصي، حدثنا آدم بن أبي إياس العسقلاني، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة قال: تلا رسول الله ﷺ

(١) أخرج مسلم في الزهد حديث ٦٨، ٦٩، وأبو داود في الأدب باب ٩.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٥٣١/١١.

هذه الآية ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَى﴾ قال أتدرى ما وفى؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال «وفي عمل يومه بأربع ركعات من أول النهار» ورواه ابن جرير من حديث جعفر بن الزبير وهو ضعيف.

وقال الترمذى في جامعه : حدثنا أبو جعفر السمنانى ، حدثنا أبو مسهر ، حدثنا إسماعيل بن عياش عن بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن جبير بن نفير ، عن أبي الدرداء وأبي ذر عن رسول الله ﷺ عن الله عز وجل أنه قال : « ابن آدم اركع لي أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره »^(١) قال ابن أبي حاتم رحمه الله : حدثنا أبي ، حدثنا الريبع بن سليمان ، حدثنا أسد بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا زبیان بن فائد عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا أخبركم لم سمي الله تعالى إبراهيم خليله الذي وفي ؟ إنه كان يقول كلام أصبح وأمسى : « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون » حتى ختم الآية .

^(۲) ورواه ابن جریر عن أبي كريب عن رشدين بن سعد عن زبان به.

ثم شعر تعالى يبين ما كان أواهه في صحف إبراهيم وموسى فقال: «أن لا تزر وازرة وزر أخرى» أي كل نفس ظلمت نفسها بکفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها لا يحمله عنها أحد كما قال: «وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى» [فاطر: ١٨] «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى» أي كما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه، ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي رحمه الله ومن اتبעה، أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ولهذا لم ينذر إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه ولا أرشدهم إليه بunsch ولا إيماء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم، ولو كان خيراً لسبقونا إليه، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ولا يتصرف فيه بأنواع الأقىسة والآراء، فاما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما.

وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم يتتفعل به»^(٣) فهذه الثلاثة هي من سعيه وكده وعمله، كما جاء في الحديث «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه»^(٤) والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هي من

(١) أخرجه الترمذى في الوتر باب ١٥ ، وأحمد في المسند ٥/٢٨٦ ، ٢٨٧ .

(٢) تفسير الطبرى / ١١ / ٥٣٣

(٢) أخرجه مسلم في الوصية حديث ١٤، وأبو داود في الوصايا باب ١٤، والترمذى في الأحكام باب ٣٦، والنمسائى، في الوصايا باب ٨، وأحمد في المسند ٣٧٢ / ٢.

(٤) آخرجه النسائي في البيوع باب ١، وابن ماجه في التجارات باب ١، والدارمي في البيوع باب ٦، وأحمد =

آثار عمله ووقفه، وقد قال تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ» [يس: ١٢] الآية. والعلم الذي نشره في الناس فاقتدي به الناس بعده هو أيضاً من سعيه وعمله.

وثبت في الصحيح «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً»^(١). وقوله تعالى: «وَأَنَّ سَعْيَهُ سُوفَ يُرَىٰ» أي يوم القيمة كقوله تعالى: «وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِيرِي اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَرِدونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فِينِئِكُمْ بِمَا كَتَمْتُمْ تَعْمَلُونَ» [التوبه: ١٠٥] أي فيخبركم به ويجزيكم عليه أتم الجزاء إن خيراً فخير وإن شرًا فشر، وهكذا قال ه هنا: «ثُمَّ يَجْزِيَ الْجَزَاءَ الْأَوَّلِيَّ» أي الأول.

وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ۝ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَ ۝ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝ وَأَنَّهُ خَلَقَ الْوَرَقَيْنِ الْذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ۝ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تَمَّنَ ۝ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّسَاءَ الْأُخْرَىٰ ۝ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَفْقَنَ ۝ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الْشِّعْرَىٰ ۝ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ۝ وَتَمُودًا لَمَّا آتَقَنَ ۝ وَقَوْمٌ مُّوْجٌ مِّنْ قَبْلِ إِنْهِمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمُ وَأَطْغَىٰ ۝ وَالْمُؤْنِفَكَةَ أَهْوَىٰ ۝ فَعَنْشَاهَا مَا عَشَىٰ ۝ فِي أَيِّ الْأَرْبَعَىٰ نَسْمَاءَ ۝

يقول تعالى: «وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ» أي الميعاد يوم القيمة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سعيد بن سعيد، حدثنا مسلم بن خالد عن عبد الرحمن بن سابط عن عمرو بن ميمون الأودي قال: قام فيما معاذ بن جبل فقال: يا بني أود إني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليكم، تعلمون أن الميعاد إلى الله إلى الجنة أو النار.

وذكر البغوي من روایة أبي جعفر الرازی عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: «وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ» قال: لا فكرة في الرب. قال البغوي: وهذا مثل ما روى عن أبي هريرة مرفوعاً «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنه لا تحيط به الفكرة».

كذا أورده وليس بمحفوظ بهذا اللفظ، وإنما الذي في الصحيح «يأتي الشيطان أحدهم فيقول: من خلق كذا من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغ أحدكم ذلك فليستعد بالله ولينته»^(٢) وفي الحديث الآخر الذي في السنن «تفكروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في ذات الله تعالى فإن الله خلق ملكاً ما بين شحمة ذنه إلى عاتقه مسيرة ثلاثةمائة سنة» أو كما قال: وقوله تعالى: «وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَ» أي خلق في عباده الصحك والبكاء وسبهما

= في المسند ٦/٣١، ٤٢، ١٢٦، ١٢٧، ١٩٣، ٢٢٠.

(١) أخرجه أبو داود في السنة باب ٦، والنمسائي في الزكاة باب ٦٤، وابن ماجه في المقدمة باب ١٤، ١٥، وأحمد في المسند ٢/٥٢١، ٣٩٧، ٣٨٠، ٥٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في بدع الخلق باب ١١، ومسلم في الإيمان حديث ٢١٤.

وهما مختلفان «وأنه هو أمات وأحياناً» قوله: «الذي خلق الموت والحياة» [الملك: ٢] «وأنه خلق الزوجين الذكر والأئن من نطفة إذا تمنى» قوله: «أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مني ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأئن أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟» [القيامة: ٣٦ - ٤٠].

وقوله تعالى: «وأن عليه النشأة الأخرى» أي كما خلق البداءة هو قادر على الإعادة وهي النشأة الآخرة يوم القيمة «وأنه هو أغنى وأفني» أي ملك عباده المال وجعله لهم قنية مقيناً عندهم لا يحتاجون إلى بيته، فهذا تمام النعمة عليهم، وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين، منهم أبو صالح وابن جرير وغيرهما، وعن مجاهد «أغنى» مؤل «وأفني» أخدم، وكذا قال قتادة، وقال ابن عباس ومجاهد أيضاً «أغنى» أعطى «وأفني» رضي.

وقيل: معناه أغنى نفسه وأفقر الخلاق إلىه، قاله الحضرمي بن لاحق، وقيل: «أغنى» من شاء من خلقه، «وأفني» أي أفقر من شاء منهم، قاله ابن زيد، حكاهم ابن جرير وهم بعيدان من حيث اللفظ. قوله: «وأنه هو رب الشعري» قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد وغيرهم: هو هذا النجم الواقاد الذي يقال له «مرزم الجوزاء» كانت طائفة من العرب يعبدونه «وأنه أهلk عاداً الأولى» لهم قوم هود ويقال لهم عاد بن إرم بن سام بن نوح كما قال تعالى: «ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد» [الفجر: ٦ - ٨] فكانوا من أشد الناس وأقواهم وأعتاهم على الله تعالى وعلى رسوله فأهلkهم الله «بربع صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً» [الحاقة: ٦ - ٧] أي متتابعة.

وقوله تعالى: «وثمود فما أبقى» أي دمرهم فلم يبق منهم أحداً «وقوم نوح من قبل» أي من قبل هؤلاء «إنهم كانوا هم أظلم وألطفي» أي أشد تمرداً من الذين من بعدهم «والمؤتفكة أهوى» يعني مدائن لوط قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، ولهذا قال: فغشاها ما غشى يعني من الحجارة التي أرسلها عليهم «وأمطرنا عليهم مطرًا فسأله مطر المتنزرين» [الشعراء: ١٧٣] قال قتادة، كان في مدائن لوط أربعة آلاف إنسان، فانضرم عليهم الوادي شيئاً فشيئاً من نار ونفط وقطران كفم الأتون. ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن محمد بن وهب بن عطية عن الوليد بن مسلم عن خليل عنه به، وهو غريب جداً «فبأي آلاء ربك تتماري» أي ففي أي نعم الله عليك أيها الإنسان تتمري؟ قاله قتادة وقال ابن جريج «فبأي آلاء ربك تتماري» يا محمد والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير^(١).

هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأَوَّلَيْنَ أَرْزَقْتَ الْأَرْوَافَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةً أَفَنْ هَذَا الْحَدِيثُ

(١) تفسير الطبرى ١١ / ٥٤٠ .

تَعْجَبُونَ ﴿٩﴾ وَتَضْحِكُونَ لَا تَبْكُونَ ﴿١٠﴾ وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ ﴿١١﴾ فَاعْبُدُوا اللَّهَ وَاعْبُدُوا ﴿١٢﴾

﴿هذا نذير﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿من النذر الأولى﴾ أي من جنسهم أرسل كما أرسلوا كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتَ بَدِعًا مِنَ الرَّسُولِ﴾ [الأحقاف: ٩] ﴿أَزْفَتِ الْآزْفَةَ﴾ أي اقتربت القرية وهي القيامة ﴿لِيْسْ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةَ﴾ أي لا يدفعها إذاً من دون الله أحد ولا يطلع على علمها سواه، والنذير الحذر لما يعاين من الشر الذي يخشى وقوعه فيمن أذرهم كما قال: ﴿إِنَّهُمْ هُوَ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدِيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦] وفي الحديث: ﴿أَنَا النَّذِيرُ الْعَرِيَانُ﴾^(١) أي الذي أوجله شدة ما عاين من الشر عن أن يلبس عليه شيئاً، بل بادر إلى إنذار قومه قبل ذلك فجاءهم عرياناً مسرعاً، وهو مناسب لقوله: ﴿أَزْفَتِ الْآزْفَةَ﴾ أي اقتربت القرية يعني يوم القيمة. كما قال في أول السورة التي بعدها: ﴿أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾.

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا أنس بن عياض، حديثي أبو حاتم لا أعلم إلا عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِيَاكُمْ وَمَنْحُورَاتُ الذُّنُوبِ، فَإِنَّمَا مُثْلُ مَنْحُورَاتِ الذُّنُوبِ كَمُثْلِ قَوْمٍ نَزَّلُوا بِبَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بَعْدِ وَجَاءَ ذَا بَعْدِهِ حَتَّى أَنْضَجُوا خَبْرَتِهِمْ، وَإِنْ مَنْحُورَاتُ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذُ بِهَا صَاحِبُهَا تَهْلِكُهُ﴾.

وقال أبو حازم: قال رسول الله ﷺ قال أبو نصرة: لا أعلم إلا عن سهل بن سعد قال: ﴿مَثْلِي وَمَثْلُ السَّاعَةِ كَهَاتِيْنِ﴾ وفرق بين أصبعيه الوسطي والتي تلي الإبهام ثم قال: ﴿مَثْلِي وَمَثْلُ السَّاعَةِ كَمُثْلِ فَرْسِيْ رَهَانِ﴾ ثم قال: ﴿مَثْلِي وَمَثْلُ السَّاعَةِ كَمُثْلِ رَجُلٍ بَعْثَهُ قَوْمُهُ طَلِيعَةَ، فَلَمَّا خَشِيَ أَنْ يُسْبِقَ الْأَحَدَ بِثَوْبِهِ أَتَيْتُمْ أَتَيْتُمْ﴾ ثم يقول رسول الله ﷺ: ﴿أَنَا ذَلِكَ﴾ وله شواهد من وجوه آخر من صحاح وحسان.

ثم قال تعالى منكراً على المشركين في استماعهم القرآن وإعراضهم عنه وتلهيهم ﴿تَعْجَبُونَ﴾ من أن يكون صحيحاً ﴿وَتَضْحِكُونَ﴾ منه استهزاء وسخرية ﴿لَا تَبْكُونَ﴾ أي كما يفعل الموقنون به كما أخبر عنهم ﴿وَيُخْرُونَ لِلأَدْقَانِ يَبْكُونَ وَيُزِيدُهُمْ خَشْوَعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ قال سفيان الثوري عن أبيه عن ابن عباس قال: الغناء هي يمانية أسمد لنا غن لنا، وكذا قال عكرمة، وفي رواية عن ابن عباس ﴿سَامِدُونَ﴾ معروضون، وكذا قال مجاهد وعكرمة، وقال الحسن غافلون، وهو رواية عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وفي رواية عن ابن عباس تستكرون، وبه يقول السدي، ثم قال تعالى أمراً لعباده بالسجود له والعبادة المتتابعة لرسوله ﷺ والتوحيد والإخلاص ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ أي

(١) أخرجه البخاري في الرفاق باب ٢٦، والاعتصام باب ٢، ومسلم في الفضائل حديث ١٦.

(٢) المستند ١/٤٠٢، ٣٣١/٥، ٧٠/٦.

فاحضعوا له وأخلصوا وحده.

قال البخاري^(١): حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أبوبكر عن عكرمة عن ابن عباس قال: سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمين والمشركون والجن والإنس. انفرد به دون مسلم، وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا إبراهيم بن خالد، حدثنا رباح عن معمر عن ابن طاوس عن عكرمة بن خالد عن جعفر بن المطلب بن أبي وداعة عن أبيه قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم فسجد وسجد من عنده فرفعت رأسه فأبىت أن أسجد، ولم يكن أسلم يومئذ المطلب فكان بعد ذلك لا يسمع أحداً يقرؤها إلا سجد معه^(٣). وقد رواه النسائي في الصلاة عن عبد الملك بن عبد الحميد عن أبوبكر بن حنبل به.

آخر تفسير سورة النجم.

تفسير سورة القمر

وهي مكية

قد تقدم في حديث أبي واقع: أن رسول الله كان يقرأ بقاف واقتربت الساعة في الأضحى والفطر، وكان يقرأ بهما في المحاذيف الكبار لإشتمالهما على ذكر الوعيد والوعيد وبده الخلق وإعادته والتوجيه وإثبات النبوات وغير ذلك من المقاصد العظيمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَ الْقَمَرُ ۝ وَإِنْ يَرَوْا إِيَّاهُ يُعْصِنُوا ۝ وَقُلُّهُمْ يَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَقِرٌ ۝ وَكَذَّبُوا وَأَتَبَعُوا
أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌ ۝ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِّنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌ
بِلِلْغَةِ فَمَا تَعْنِي الْنَّذْرُ ۝

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها كما قال تعالى: «أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تستعجلوه» [النحل: ١] وقال: «اقرُبَ للناسِ حسابهم وهم في غفلةٍ معرضون» [الأنبياء: ١] وقد وردت الأحاديث بذلك. قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثنى وعمرو بن علي قالا: حدثنا خلف بن موسى، حدثني أبي عن قتادة عن أنس أن رسول الله ﷺ خطب أصحابه ذات يوم، وقد كادت الشمس أن تغرب، فلم يبق منها إلا شف يسير فقال: «والذي

(١) كتاب التفسير، تفسير سورة ٣، باب ٤.

(٢) المستند ٦/٣٩٩، ٤٠٠.

(٣) آخرجه النسائي في الافتتاح باب ٤٩.

نفسي بيده ما بقي من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه وما نرى من الشمس إلا يسيراً» قلت: هذا حديث مداره على خلف بن موسى بن خلف العمي عن أبيه، وقد ذكره ابن حبان في الثقات، وقال: ربما أخطأ.

[حديث آخر يعتمد الذي قبله ويفسره] قال الإمام أحمد^(١): حدثنا الفضل بن دكين، حدثنا شريك، حدثنا سلمة بن كهيل عن مجاهد عن ابن عمر قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ والشمس على قعيقان^(٢) بعد العصر فقال: «ما أعماركم في أعمار من مضى إلا كما بقي من النهار فيما مضى» وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا حسين، حدثنا محمد بن مطر عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بعثت أنا والساعة هكذا» وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى^(٤) وأخرجاه من حديث أبي حازم سلمة بن دينار.

وقال الإمام أحمد^(٥): حدثنا محمد بن عبيد، أخبرنا الأعمش عن أبي خالد عن وهب السوائي قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهذه من هذه إن كادت لتبقيها» وجمع الأعمش بين السبابة والوسطى.

وقال الإمام أحمد^(٦): حدثنا أبو المغيرة، حدثنا الأوزاعي، حدثني إسماعيل بن عبيد الله قال: قدم أنس بن مالك على الوليد بن عبد الملك فسأله: ماذا سمعت من رسول الله ﷺ يذكر به الساعة؟ فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنتم والساعة كهاتين» تفرد به أحمد رحمة الله، وشاهد ذلك أيضاً في الصحيح في أسماء رسول الله ﷺ أنه الحاشر الذي يحضر الناس على قدميه^(٧). وقال الإمام أحمد^(٨): حدثنا بهز بن أسد، حدثنا سليمان ابن المغيرة، حدثنا حميد بن هلال عن خالد بن عمير قال: خطب عتبة بن غزوان، قال بهز، وقال قبل هذه المرة: خطبنا رسول الله ﷺ، قال: فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بصرم^(٩) وونت حذاء^(١٠)، ولم يبق منها إلا

(١) المسند ١١٥ / ٢ . ١١٦ .

(٢) قعيقان: جبل بمكة.

(٣) المسند ٣٨٨ / ٥ .

(٤) أخرجه البخاري في الرفاق باب ٣٩ ، ومسلم في الفتنة حديث ١٣٢ ، ١٣٥ .

(٥) المسند ٣٠٩ / ٤ .

(٦) المسند ٢٢٣ / ٣ .

(٧) أخرجه البخاري في المناقب باب ١٧ ، ومسلم في الفضائل حديث ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٨) المسند ١٧٤ / ٤ ، ٦١ / ٥ .

(٩) آذنت برم: أي آذنت بانقطاع.

(١٠) ولت حذاء: أي ولست مسرعة.

صباة^(١) كصباة الإناء يتصابها صاحبها^(٢)، وإنكم متقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا منها بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً ما يدرك لها قمراً، والله لتملؤنوه أفعجبتم والله لقد ذكر لنا أن ما بين مصراعي الجنة مسيرة أربعين عاماً، ول يأتين عليه يوم وهو كظيق^(٣) من الزحام^(٤) وذكر تمام الحديث انفرد به مسلم.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا يعقوب، حدثني ابن عية، أخبرنا عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: نزلنا المدائن فكنا منها على فرسخ، فجاءت الجمعة، فحضر أبي وحضرت معه خطبنا حذيفة فقال: ألا إن الله يقول: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انشق، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفارق، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق^(٥)، فقلت لأبي: أيستبق الناس غداً؟ فقال: يابني إنك لجاهل، إنما هو السباق بالأعمال، ثم جاءت الجمعة الأخرى، فحضرنا خطب حذيفة فقال: ألا إن الله عز وجل يقول: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ ألا وإن الدنيا قد آذنت بفارق، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق، ألا وإن الغاية النار، والسباق من سبق إلى الجنة^(٦).

وقوله تعالى: ﴿وانشق القمر﴾ قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ، كما ورد ذلك في الأحاديث المتوترة بالأسانيد الصحيحة. وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: «خمس قد مضين الروم والدخان واللزام والبطشة والقمر»^(٧) وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات.

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك

[رواية أنس بن مالك]: قال الإمام أحمد^(٨): حدثنا عبد الرزاق، حدثنا عمر عن قتادة عن أنس بن مالك قال: سأله أهل مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة مرتين فقال: ﴿اقتربت

(١) الصباة: البقية القليلة.

(٢) يتصابها صاحبها: أي يشربها.

(٣) الكظيق: الممتلىء.

(٤) أخرجه مسلم في الزهد باب ١٤.

(٥) اليوم المضمار وغداً السباق: أي اليوم العمل في الدنيا وغداً السباق إلى الجنة.

(٦) تفسير الطبراني ١١، ٥٤٥، ٥٤٦.

(٧) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١٢ باب ٤، وسورة ٢٥ باب ٤، وسورة ٤٤ باب ١، ٥، ٦.

(٨) المسند ٣/١٦٥.

الساعة وانشق القمر»^(١) ورواه مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق، وقال البخاري: حدثني عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس بن مالك، أن أهل مكة سأלו رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأبراهيم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما^(٢). وأخرجه أيضاً من حديث يونس بن محمد المؤدب عن شيبان عن قتادة، ورواه مسلم أيضاً من حديث أبي داود الطیالسي ويحيى القطان وغيرهما عن شعبة عن قتادة به.

[رواية جبیر بن مطعم رضي الله عنه] قال الإمام أحمد^(٣): حدثنا محمد بن كثیر، حدثنا سلیمان بن کثیر عن حصین بن عبد الرحمن، عن محمد بن جبیر بن مطعم عن أبيه قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتین: فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد. فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه وأسنده البیهقی في الدلائل من طريق محمد بن کثیر عن أخيه سلیمان بن کثیر عن حصین بن عبد الرحمن.

وهكذا رواه ابن جریر من حديث محمد بن فضیل وغيره عن حصین به، ورواه البیهقی أيضاً من طريق إبراهیم بن طھمان وهشیم، كلاهما عن حصین عن جبیر بن محمد بن جبیر بن مطعم عن أبيه عن جده فذکرہ.

[رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما] قال البخاري: حدثنا يحيى بن بکير، حدثنا بکر عن جعفر عن عراک بن مالک عن عبید الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس قال: انشق القمر في زمان النبي ﷺ^(٤). ورواه البخاري أيضاً ومسلم من حديث بکر بن مضر عن جعفر بن ربيعة عن عراک به مثله. وقال ابن جریر: حدثنا ابن مثنی، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود بن أبي هند عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: «اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر» قال: قد مضى ذلك، كان قبل الهجرة انشق القمر حتى رأوا شقیه، وروى العوفی عن ابن عباس نحو هذا، وقال الطبرانی: حدثنا أحمد بن عمرو البزار، حدثنا محمد بن يحيى القطعی، حدثنا محمد بن بکر حدثنا ابن جریح عن عمرو بن دینار عن عکرمة عن ابن عباس قال: كسف القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالوا: سحر القمر، فنزلت «اقتربت الساعة وانشق القمر» - إلى قوله - «مستمر».

[رواية عبد الله بن عمر] قال الحافظ أبو بکر البیهقی: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، وأبو بکر

(١) أخرجه مسلم في المناقفين حديث ٤.

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ٣٦، ومسلم في المناقفين حديث ٤٣، ٤٥.

(٣) المسند ٤/٨١، ٨٢.

(٤) أخرجه البخاري في المناقب باب ٣٦، وتفسیر سورة ٥٤ باب ١، ومسلم في المناقفين حديث ٤٧.

أحمد بن الحسن القاضي قالاً: حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس بن محمد الدوري: حدثنا وهب بن جرير عن شعبة عن الأعمش، عن مجاهد عن عبد الله بن عمر في قوله تعالى: «اقربت الساعة وانشق القمر» قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ، انشق فلتنتين، فلتنة من دون الجبل وفتنة من خلف الجبل، فقال النبي ﷺ: «اللهم اشهد»^(١) وهكذا رواه مسلم والترمذى من طرق عن شعبة عن الأعمش عن مجاهد به، قال مسلم كرواية مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود وقال الترمذى: حسن صحيح.

[رواية عبد الله بن مسعود] قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين، حتى نظروا إليه، فقال رسول الله ﷺ: «أشهدوا»^(٣) وهكذا رواه البخاري ومسلم من حديث سفيان بن عيينة به، وأخرجاه من حديث الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عبد الله بن سخيرة عن ابن مسعود به.

وقال ابن جرير^(٤): حدثني عيسى بن عثمان بن عيسى الرملي، حدثنا عمي يحيى بن عيسى، عن الأعمش عن إبراهيم عن رجل عن عبد الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ بمنى، فانشق القمر فأخذت فرقة خلف الجبل، فقال رسول الله ﷺ: «أشهدوا أشهدوا» قال البخاري: وقال أبو الضحى عن مسروق عن عبد الله بمكة وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا أبو عوانة عن المغيرة عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة^(٥). قال: فقلوا انظروا ما يأتيكم به السفار^(٦)، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، قال: فجاء السفار فقالوا ذلك.

وقال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا العباس بن محمد الدوري، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا هشيم، حدثنا مغيرة عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله قال: انشق القمر بمكة حتى صار فرتين، فقال كفار قريش أهل مكة: هذا سحر سحركم به ابن أبي كبشة انظروا السفار، فإن كانوا رأوا مارأيت فقد

(١) أخرجه مسلم في المناقبين حديث ٤٤، ٤٥، والترمذى في تفسير سورة ٥٤، باب ١، وأحمد في المسند ٤٤٧ / ١.

(٢) المسند ٣٧٧ / ١.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٥٤ باب ١، ومسلم في المناقبين حديث ٤٨.

(٤) تفسير الطبرى ٥٤٥ / ١١.

(٥) ابن أبي كبشة: رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأوثان، وعبد الشعري. فلما خالفهم النبي ﷺ في عبادة الأوثان شبهوه به، وقيل إن ابن أبي كبشة كان جد النبي ﷺ من قبل أمة.

(٦) السفار: أي المسافرون.

صدق، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحركم به. قال: فسئل السفار، قال: وقدموا من كل وجهة فقالوا: رأيناه، ورواه ابن جرير من حديث المغيرة به، وزاد فأنزل الله عزوجل: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾. ثم قال ابن جرير^(١): حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، أخبرنا أبوب عن محمد هو ابن سيرين قال: نبأ أن ابن مسعود رضي الله عنه كان يقول: لقد انشق القمر.

وقال ابن جرير^(٢) أيضاً: حدثني محمد بن عمارة، حدثنا عمرو بن حماد، حدثنا أسباط عن سمك عن إبراهيم عن الأسود، عن عبد الله قال: لقد رأيت الجبل من فرج القمر حين انشق، ورواه الإمام أحمد^(٣) عن مؤمل عن إسرائيل عن سمك عن إبراهيم، عن الأسود عن عبد الله قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ حتى رأيت الجبل من بين فرجتي القمر. وقال ليث عن مجاهد: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «أشهد يا أبا بكر» فقال المشركون: سحر القمر حتى انشق.

وقوله تعالى، ﴿وَإِنْ يَرُوا آيَةً﴾ أي دليلاً وحجة ويرهاناً ﴿بِعَرْضِهَا﴾ أي لا ينقادون له بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌ﴾ أي ويقولون هذا الذي شاهدناه من الحجج سحر سحرنا به ومعنى ﴿مُسْتَمِرٌ﴾ أي ذاهب، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما: أي باطل مض محل لا دوام له ﴿وَكَذَبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي كذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقلهم.

وقوله: ﴿وَكُلُّ أُمَّرٍ مُّسْتَقْرٍ﴾ قال قتادة: معناه أن الخير واقع بأهل الخير، والشر واقع بأهل الشر، وقال ابن جريج: مستقر بأهله، وقال مجاهد ﴿وَكُلُّ أُمَّرٍ مُّسْتَقْرٍ﴾ أي يوم القيمة، وقال السدي: مستقر أي واقع، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِّنَ الْأَنْبَاءِ﴾ أي من الأخبار عن قصص الأمم المكذبين بالرسل وما حل بهم من العقاب والنکال والعداب مما يتلى عليهم في القرآن ﴿مَا فِيهِ مِزْدَجَرٌ﴾ أي ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمنادي على التكذيب. وقوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌ بِالْغَفْلَةِ﴾ أي في هدايته تعالى لمن هداه وإضلالة لمن أضلله ﴿فَمَا تَغْنِي النَّذِرُ﴾ يعني أي شيء تغنى النذر عن كتب الله عليه الشقاوة وختم على قلبه فمن الذي يهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَلَلَّهِ الْحَجَةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَا كُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩] وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تَغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذِرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

فَتُولَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَنَعٍ وَنُكَّرٍ ① خُشَّعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجَدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ

(١) تفسير الطبرى ٥٤٥ / ١١.

(٢) تفسير الطبرى ٥٤٥ / ١١.

(٣) المستند ٤١٣ / ١.

مُنَشِّرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَوْلُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسِيرٌ

يقول تعالى: فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضون ويقولون هذا سحر مستمر، أعرض عنهم وانتظرهم **﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكْرٍ﴾** أي إلى شيء منكر فظيع، وهو موقف الحساب وما فيه من البلاء بل والزلزال والأهوال، **﴿خَشِعًا أَبْصَارُهُمْ﴾** أي ذليلة أبصارهم **﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾** وهي القبور **﴿كَانُوكُمْ جَرَادٌ مُنَشِّرٌ﴾** أي كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي **﴿جَرَادٌ مُنَشِّرٌ﴾** في الآفاق، ولهذا قال: **﴿مُهْطِعِينَ﴾** أي مسرعين **﴿إِلَى الدَّاعِ﴾** لا يخالفون ولا يتأخرون **﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾** أي يوم شديد الهول عبوس قمطير **﴿فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرٌ يَسِيرٌ﴾** [المدثر: ٩ - ١٠].

كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ وَجْهٌ فَكَذَبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرٌ فَلَعْنَارِبَهُمْ أَنِي مَغْلُوبٌ فَانْتَصَرَ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَا مَنَّاهُمْ وَفَجَرْنَا أَلْأَرْضَ عَيْنُوكُمْ فَالْتَّقَيَ الْمَاءَ عَلَى أَمْرِ قَدْ قَدْرٍ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوَاحِدِ وَدَسَرٌ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا حَرَاءَ لَمْنَ كَانَ كَثِيرٌ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا إِيمَةً فَهَلْ مِنْ مُذَكَّرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِ وَنَذَرٌ وَلَقَدْ يَسَرَنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُذَكَّرٍ

يقول تعالى: **﴿كَذَبَتْ﴾** قبل قومك يا محمد **﴿قَوْمٌ نَوْحٌ فَكَذَبُوا عَبْدَنَا﴾** أي صرحو له بالتكذيب واتهموه بالجنون **﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرٌ﴾** قال مجاهد: **﴿وازدجر﴾**. أي استطير جنوناً، وقيل: وازدجر أي انتهروه وزجروه وتوعدوه **﴿لَئِنْ لَمْ تَتَهَّبْ يَانُوحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾**^(١) [الشعراء: ١١٦]، قاله ابن زيد وهذا متوجه حسن **﴿فَدَعَا رَبُّهُ أَنِي مَغْلُوبٌ فَانْتَصَرَ﴾** أي إني ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم **﴿فَانْتَصَرَ﴾** أنت للدينك. قال الله تعالى: **﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَا مَنَّاهُمْ﴾** قال السدي: وهو الكثير **﴿وَفَجَرْنَا أَلْأَرْضَ عَيْنُوكُمْ﴾** أي نبعث جميع أرجاء الأرض حتى التنانير التي هي محال النيران نبعث عيوناً، **﴿فَالْتَّقَيَ الْمَاءَ﴾** أي من السماء ومن الأرض **﴿عَلَى أَمْرِ قَدْ قَدْرٍ﴾** أي أمر مقدر.

قال ابن جريج عن ابن عباس **﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَا مَنَّاهُمْ﴾** كثير لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب، فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم، فاللتقي الماء على أمر قد قدر، وروى ابن أبي حاتم أن ابن الكواه سأله علياً عن المجرة فقال: هي شرج السماء، ومنها فتحت السماء بما منهم **﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوَاحِدِ وَدَسَرٌ﴾** قال ابن عباس وسعيد بن جبير والقرظي وقتادة وابن زيد: هي المسامير، واختباره ابن جرير^(٢)، قال:

(١) انظر تفسير الطبرى ٥٥١/١١

(٢) تفسير الطبرى ٥٥٢/١١ ، ٥٥٣

وواحدها دسار. ويقال: دسير كما يقال حبيك وحباك والجمع حبك، وقال مجاهد: الدسر أصلع السفينة.

وقال عكرمة والحسن: هو صدرها الذي يضرب به الموج. وقال الضحاك: طرفاها وأصلها، وقال العوفي عن ابن عباس: هو كلكلها أي صدرها. قوله: «تعجّري بائعيتنا» أي بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاعتنا «جزاء لمن كان كفر» أي جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصاراً لنوح عليه السلام.

وقوله تعالى: «ولقد تركناها آية» قال قتادة: أبقى الله سفينته نوح حتى أدركها أول هذه الأمة، والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن، كقوله تعالى: «وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون» [يس: ٤١ - ٤٢] وقال تعالى: «إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أدن واعية» ولهذا قال ههنا: «فهل من مذكر» أي فهل من يتذكر ويتعظ. قال الإمام أحمد^(١): حدثنا حجاج، حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن الأسود عن ابن مسعود قال: أقرأني رسول الله ﷺ «فهل من مذكر» وهكذا رواه البخاري^(٢)، حدثنا يحيى، حدثنا وكيع عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن الأسود بن يزيد، عن عبد الله قال: قرأت على النبي ﷺ «فهل من مذكر» وقال النبي ﷺ «فهل من مذكر» وروى البخاري أيضاً من حديث شعبة، عن أبي إسحاق، عن الأسود، عن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ «فهل من مذكر».

وقال: حدثنا أبو نعيم، حدثنا زهير عن أبي إسحاق أنه سمع رجلاً سأله الأسود «فهل من مذكر» أو «مذكر»، قال: سمعت عبد الله يقرأ «فهل من مذكر»، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها «فهل من مذكر». دالاً^(٣). وقد أخرج مسلم هذا الحديث وأهل السنن إلا ابن ماجه من حديث أبي إسحاق.

وقوله تعالى: «فكيف كان عذابي ونذر» أي كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذب رسلي، ولم يتعظ بما جاءت به نذري، وكيف انتصرت لهم وأخذت لهم بالثار «ولقد يسرنا القرآن للذكر» أي سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أراده ليتذكر الناس، كما قال: «كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبّروا آياته وليتذكّر ألو الألباب» [ص: ٢٩] وقال تعالى: «فإنما يسرناه ب Lansanك لتبشر به المتقين وتذذر به قوماً لدا» [مريم: ٩٧] قال مجاهد: «ولقد يسرنا القرآن للذكر» يعني هونا قراءته، وقال السدي: يسرنا تلاوته على الألسن، وقال الضحاك عن ابن عباس: لولا

(١) المستند ٣٩٥ / ١.

(٢) كتاب التفسير، تفسير سورة ٥٤، باب ٢.

(٣) أخرج البخاري في تفسير سورة ٥٤، باب ٢، ومسلم في المسافرين حديث ٢٨٠، ٢٨١، وأبو داود في الحروف باب ٢٦، والترمذمي في القرآن باب ٤.

أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل.

قلت: ومن تيسيره تعالى على الناس تلاوة القرآن ما تقدم عن النبي ﷺ أنه قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف»^(١) وأوردنا الحديث بطرقه وألفاظه بما أغني عن إعادةه هنا والله الحمد والمنة، قوله: «فهل من مذكر» أي فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يسر الله حفظه ومعناه؟ وقال محمد بن كعب القرظي: فهل من متجر عن المعاشي؟

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن رافع، حدثنا ضمرة عن ابن شوذب، عن مطر هو الوراق في قوله تعالى: «فهل من مذكر» هل من طالب علم فيعان عليه، وكذا علقه البخاري بصيغة الجزم عن مطر الوراق، ورواه ابن جرير^(٢)، وروي عن قتادة مثله.

كذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرِصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْنُ مُسْتَمِرُونَ تَنْزَعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازٌ نَخْلِ شَنْقَرِ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُذَكَّرٍ

يقول تعالى مخبراً عن عاد قوم هود، إنهم كذبوا رسولهم أيضاً، كما صنع قوم نوح وأنه تعالى أرسل عليهم «ريحاً صرصاراً» وهي الباردة الشديدة البرد «في يوم نحس» أي عليهم، قاله الضحاك وقتادة والسدي «مستمر» عليهم نحسه ودماره لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي. قوله تعالى: «تنزع الناس كأنهم أعزاج نخل منقر» وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيه عن الأ بصار، ثم تنكسه على أم رأسه فيسقط إلى الأرض، فتشلغ^(٣) رأسه فيبقى جثة بلا رأس، ولهذا قال: «كأنهم أعزاج نخل منقر» فكيف كان عذابي ونذر «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر».

كذَّبَتْ ثَمُودٌ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبْشِرَا مَنَا وَجِدَنَا نَتِيْعًا إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ لَمْ يَلْفِي الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنَ أَنْهُ كَذَّابٌ أَكَّشِرٌ إِنَّمَا سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَكَّشِرِ إِنَّا مُرْسَلُو النَّافَّةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقَبُوهُمْ وَأَصْطَلَبُوهُمْ وَبَيْتَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرِبٍ مُخْضَرٌ فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَعَاطَهُمْ فَمَقْرَرٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَجَهَةً فَكَانُوا كَهْشِيمُ الْمُحْكَرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُذَكَّرٍ

وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحًا «فقالوا أبشرًا منا واحدًا نتبعه إنما إذا لفِي

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن باب ٥، ومسلم في المسافرين حديث ٢٦٤، ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٤ وأبو داود في الوتر باب ٢٢، والترمذى في القرآن باب ٩، والنمسائي في الافتتاح باب ٣٧، ومالك في القرآن حديث ٥، وأحمد في المسند ١٤١/٥، ١١٤، ١٢٧، ١٢٤، ١٢٨، ١٣٢.

(٢) تفسير الطبرى ٥٥٦/١١.

(٣) ثلغ: أي شدخ.

ضلال و سعر》 يقولون: لقد خربنا وخسرنا إن سلمنا كلنا قيادنا لواحد منا. ثم تعجبوا من إلقاء الوحي عليه خاصة من دونهم ثم رموه بالكذب فقالوا: «بل هو كذاب أشر» أي متجاوز في حد الكذب، قال الله تعالى: «سيعلمون غداً من الكذاب الأشر» وهذا تهديد لهم شديداً وويعيد أكيد. ثم قال تعالى: «إنا مرسلو الناقة فتنة لهم» أي اختباراً لهم، أخرج الله لهم ناقه عظيمة عشراء، من صخرة صماء طبق ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح عليه السلام فيما جاءهم به، ثم قال تعالى آمراً لعبده ورسوله صالح: «فارتقهم واصطبر» أي انتظر ما يؤول إليه أمرهم، واصبر عليهم فإن العاقبة لك، والنصر لك في الدنيا والآخرة «ونبئهم أن الماء قسمة بينهم» أي يوم لهم ويوم للناقة كقوله: «قال هذه ناقه لها شرب لكم شرب يوم معلوم» [الشعراء: ١٥٥].

وقوله تعالى: «كل شرب محضر» قال مجاهد: إذا غابت حضروا الماء. وإذا جاءت حضروا اللبن، ثم قال تعالى: «فنددوا صاحبهم فتعاطى فقر» قال المفسرون: هو عاقر الناقة، واسمها قدار بن سالف، وكان أشقي قومه. كقوله: «إذ أبعت أشقاها» [الشمس: ١٢] «فتعاطى» أي فحبس فقر فكيف كان عذابي ونذر» أي فعاقبهم فكيف كان عقابي لهم على كفرهم بي وتكذيبهم رسولي «إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحظر» أي فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية، وحمدوا وهمدوا كما يهتم ويبيس الزرع والنبات، قاله غير واحد من المفسرين، والمحتظر قال السدي هو المرمع بالصحراء حين يبيس ويحترق وتفسه الريح، وقال ابن زيد: كانت العرب يجعلون حظاراً على الإبل والمواشي من يبيس الشوك فهو المراد من قوله: «كهشيم المحظر» وقال سعيد بن جبير: هشيم المحظر هو التراب المنتاثر من الحائط، وهذا قول غريب، والأول أقوى والله أعلم.

كذَّبُتْ قَوْمٌ لُّوطَ بِالنَّذْرِ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا مَا لَوْطٌ بَجَنَّتْهُمْ سَعْرٌ ﴿٢٤﴾ يَعْمَلُ مِنْ عِنْدِنَا كَذَّالِكَ بَخْرِي مَنْ شَكَرَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرْهُمْ بَطْشَنَّا فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ رَوَدَهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابَ وَنَذْرٍ ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحُهُمْ بَكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٢٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابَ وَنَذْرٍ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ يَسَرْنَا الْقُرْنَانَ لِلَّذِكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكَّرٍ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم وخالفوه، وارتکبوا المكره من إثيان الذكور وهي الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين، ولهذا أهلتهم الله هلاكاً لم يهلكه أمة من الأمم، فإنه تعالى أمر جبريل عليه السلام فحمل مدانتهم حتى وصل بها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها وأتبعت بحجارة من سجيل منضود، ولهذا قال هنا: «إنا أرسلنا عليهم حاصباً» وهي الحجارة «إلا آل لوط نجيناهم بسحر» أي خرجوها من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد، حتى ولا امرأته

أصابها ما أصاب قومها، وخرج النبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالماً لم يمسسه سوء، ولهذا قال تعالى: «كذلك نجزي من شكر ولقد أنذرهم بطنشتنا» أي ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس الله وعذابه فما التفتوا إلى ذلك ولا أصغوا إليه بل شكوا فيه وتماروا به.

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضِيقِهِ﴾ وذلك ليلة ورد عليه الملائكة جبريل وميكائيل وإسرافيل في صور شباب مرد حسان محننة من الله بهم، فأضافهم لوط عليه السلام، وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها فأعلمتهم بأضياف لوط، فأقبلوا بهرعنون إليه من كل مكان، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، وذلك عشية ولوط عليه السلام يدافعهم ويمانعهم دون الباب، فأجلق لهم باباً آخر، خرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب أعينهم دونهم دونهم، فانطممت أعينهم، يقال إنها غارت من وجوههم، وقيل إنه لم تبق لهم عيون بالكلية، فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالحيطان، ويتوعدون لوطاً عليه السلام إلى الصباح. قال الله تعالى: «وَلَقَدْ صَبَحُوكُم بَكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقْرٌ» أي لا محيد لهم عنه ولا انفكاك لهم منه «فَذَوَقُوكُم عَذَابِي وَنَذْرٍ وَلَقَدْ يُسِرَنَا النَّّرَانَ لِلذِّكْرِ فَهُلْ مِنْ مَذْكُورٍ».

وَلَقَدْ جَاءَ إِلَّا فَرَعُونَ الظُّرُورُ ﴿١﴾ كَذَبُوا يَقِنَّا كُلَّهَا فَأَخْذَنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٢﴾ أَكَفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزَّبَرِ ﴿٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنْتَصِرٌ ﴿٤﴾ سَيَهْزِمُ الْجَمِيعُ وَيُوَلُّونَ الدِّبْرَ ﴿٥﴾ كُلُّ السَّاعَةٍ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ ﴿٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وقومه: إنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون بالبشرارة إن آمنوا، والندارة إن كفروا، وأيدهما بمعجزات عظيمة وأيات متعددة فكتبوها بها كلها، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر أي فأبادهم الله ولم يبق منهم مخبر ولا عين ولا أثر، ثم قال تعالى: «أَكَفَارُكُمْ» أي أيها المشركون من كفار قريش «خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ» يعني من الذين تقدم ذكرهم من أهل كانوا بسبب تكذيبهم الرسل وكفرهم بالكتب، أنتم خير من أولئكم؟ «أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزَّبَرِ» أي ألم يعكم من الله براءة أن لا ينالكم عذاب ولا نكال؟ ثم قال تعالى مخبراً عنهم: «أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنْتَصِرٌ» أي يعتقدون أنهم يتناصرون بعضهم بعضاً، وأن جميعهم يغنى عنهم من أرادهم بسوء. قال الله تعالى: «سَيَهْزِمُ الْجَمِيعُ وَيُوَلُّونَ الدِّبْرَ» أي سيفرق شملهم ويغلبون.

قال البخاري: حدثنا إسحاق، حدثنا خالد عن خالد، وقال أيضاً: حدثنا محمد حدثنا عفان بن مسلم عن وهيب عن خالد عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له

يوم بدر: «أشدك عهdk ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض أبداً» فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده وقال: حسبك يا رسول الله ألححت على ربك فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم وال الساعة أدهى وأمر»^(١) وكذا رواه البخاري والنمسائي في غير موضع من حديث خالد، وهو ابن مهران الحذاء به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا أبو الربيع الزهراني، حدثنا حماد عن أبيوب عن عكرمة قال: لما نزلت «سيهزم الجمع ويولون الدبر» قال عمر: أي جمع يهز؟ أي جمع يغلب قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر» فعرفت تأويلها يومئذ.

وقال البخاري^(٢): حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف أن ابن جرير أخبرهم، أخبرني يوسف بن ماهك قال: إني عند عائشة أم المؤمنين فقالت: نزل على محمد ﷺ بمكة وإنني لجارية ألعب «بل الساعة موعدهم وال الساعة أدهى وأمر» هكذا رواه هنا مختصرًا، ورواه في فضائل القرآن مطولاً ولم يخرجه مسلم.

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿١﴾ يَوْمَ يُسَحْبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٢﴾ إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ حَلَقَتْهُ
يُقْدِرُ ﴿٣﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَمْجَعٌ بِالْبَصَرِ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهُلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٥﴾
وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوُّهُ فِي الْزُّبُرِ ﴿٦﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴿٧﴾ إِنَّ الْمُلْقَيْنَ فِي جَنَّتٍ وَنَهَرٍ ﴿٨﴾ فِي
مَقْعَدٍ صَدِيقٍ عَنْدَ مَلِيكٍ مُقْنَدِرٍ ﴿٩﴾

يخبرنا تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال عن الحق وسرع مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق، ثم قال تعالى: «يَوْمَ يُسَحْبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ» أي كما كانوا في سعر وشك وتردد أورائهم ذلك النار، وكما كانوا ضالاً يسحبون فيها على وجوههم لا يدركون أين يذهبون، ويقال لهم تقريراً وتبيحاً: «ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ».

وقوله تعالى: «إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَنَا بِقَدْرٍ» قوله: «وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْرَهُ تَقْدِيرًا» [الفرقان: ٢] وكقوله تعالى: «سَبْعَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوْىٰ وَالَّذِي قَدَرَ فَهَدَىٰ» [الأعلى: ١ - ٣] أي قدر قدرًا وهدى الخلاق إلىه، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقها، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل برئها، وردوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات على الفرقـة

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٨٩، وتفصير سورة ٥٤، باب ٦، وأحمد في المستند ١/٣٢٩.

(٢) كتاب التفسير، تفسير سورة ٥٤، باب ٧، والفضائل باب ٦.

القدرة، الذين نبغوا^(١) في أواخر عصر الصحابة، وقد تكلمنا على هذا المقام مفصلاً وما ورد فيه من الأحاديث في شرح كتاب الإيمان من صحيح البخاري رحمه الله، ولنذكر هنا الأحاديث المتعلقة بهذه الآية الكريمة.

قال أحمد^(٢): حدثنا وكيع، حدثنا سفيان الثوري عن زياد بن إسماعيل السهمي، عن محمد بن عباد بن جعفر عن أبي هريرة قال: جاء مشركون قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونه في القدر فنزلت **﴿يَوْمَ يَسْجُبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسْ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدْرٍ﴾** ^(٣) وهكذا رواه مسلم والترمذى وابن ماجه من حديث وكيع عن سفيان الثوري به.

وقال البزار: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا الصحاح بن مخلد، حدثنا يونس بن الحارث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: ما نزلت هذه الآيات **﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسَعْيُهُمْ يَسْجُبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسْ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدْرٍ﴾** إلا في أهل القدر. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا سهل بن صالح الأنطاكى، حدثني قرة بن حبيب عن كنانة، حدثني جرير بن حازم عن سعيد بن عمرو بن جعدة، عن ابن زراوة عن أبيه عن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية **﴿ذُوقُوا مَسْ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدْرٍ﴾** قال: «نزلت في أناس من أمتي يكونون في آخر الزمان يكذبون بقدر الله».

وحدثنا الحسن بن عرفة: حدثنا مروان بن شجاع الجزري عن عبد الملك بن جريج، عن عطاء بن أبي رباح قال: أتيت ابن عباس وهو ينزع من زمزم، وقد ابتلت أسافل ثيابه فقلت له قد تكلم في القدر، فقال: أ وقد فعلوها؟ قلت: نعم، قال: فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم **﴿ذُوقُوا مَسْ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدْرٍ﴾** أولئك شرار هذه الأمة، فلا تعودوا مرضاهم ولا تصلوا على موتاهم، إن رأيت أحداً منهم فقاتل عينيه بأصبعي هاتين.

وقد رواه الإمام أحمد^(٤) من وجه آخر وفيه مرفوع فقال: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا الأوزاعي عن بعض إخوته عن محمد بن عبيد المكي عن عبد الله بن عباس قال: قيل له إن رجلاً قدم علينا يكذب بالقدر، فقال: دلوني عليه وهو أعمى، قالوا: وما تصنع به يا أبا عباس؟ قال: والذي نفسي بيده لئن استمكنت منه لأعضن أنفه حتى أقطعه، ولئن وقعت رقبته في يدي لأدقنها فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كأني بنساءبني فهو يطعن بالخزرج تصطفق إلياتهن مشرفات، هذا أول شرك هذه الأمة، والذي نفسي بيده ليتهين بهم سوء رأيهم حتى

(١) نبغوا: أي خرجنوا.

(٢) المسند / ٢ ، ٤٤٤ ، ٤٧٦ .

(٣) آخرجه مسلم في القدر حديث ١٩ ، والترمذى في القدر باب ١٩ ، وتفسير سورة ٥٤ ، باب ٦ ، والنمسائى في الصحايا باب ٤٠ ، وابن ماجه في المقدمة باب ١٠ .

(٤) المسند / ١ . ٣٣٠ .

يخرجوا الله من أن يكون قدر خيراً، كما أخرجوه من أن يكون قدر شراً» ثم رواه أحمد عن أبي المغيرة عن الأوزاعي عن العلاء بن الحجاج عن محمد بن عبيد فذكر مثله لم يخرجوه.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا عبد الله بن يزيد: حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثني أبو صخر عن نافع قال: كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكتبه. فكتب إليه عبد الله بن عمر أنه بلغني أنك تكلمت في شيء من القدر، فإياك أن تكتب إلى فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر» ورواه أبو داود عن أحمد بن حنبل به.

وقال أحمد^(٢): حدثنا أنس بن عياض، حدثنا عمر بن عبد الله مولى غفرة عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لكل أمة مجوس، ومجوس أمتي الذين يقولون لا قدر، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم» لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه.

وقال أحمد^(٣): حدثنا قتيبة، حدثنا رشدين عن أبي صخر حميد بن زياد عن نافع عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون في هذه الأمة مسخ ألا وذاك في المكذبين بالقدر والزنديقية»^(٤) ورواه الترمذى وابن ماجه من حديث أبي صخر حميد بن زياد به، وقال الترمذى: حسن صحيح غريب.

وقال الإمام أحمد^(٥): حدثنا إسحاق بن الطباع، أخبرني مالك عن زياد بن سعد عن عمرو بن مسلم، عن طاوس اليماني قال: سمعت ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس»^(٦) ورواه مسلم منفرداً به من حديث مالك.

وفي الحديث الصحيح «استعن بالله ولا تعجز فإن أصابك أمر فقل قدر الله وما شاء فعل، ولا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا فإن لوتفتح عمل الشيطان»^(٧) وفي حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال له: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك جفت الأقلام وطويت الصحف»^(٨) وقال الإمام

(١) المستند ٩٠ / ٢.

(٢) المستند ٨٦ / ٢.

(٣) المستند ١٠٨ / ٢.

(٤) أخرجه الترمذى في القدر باب ١٦.

(٥) المستند ١١٠ / ٢.

(٦) أخرجه مسلم في القدر حديث ١٨، ومالك في القدر حديث ٤.

(٧) أخرجه مسلم في القدر حديث ٣٤. وابن ماجه في المقدمة باب ١٠.

(٨) أخرجه أحمد في المستند ٣٠٧، ٣٠٣، ٢٩٣ / ١.

أحمد^(١): حدثنا الحسن بن سوار، حدثنا الليث عن معاوية عن أبوبن زياد، حدثني عبادة بن الوليد بن عبادة، حدثني أبي قال: دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت فقلت: يا أباها أوصني واجتهدي لي، فقال: أجلسوني، فلما أجلسوه قال: يا بني إنك لم تطعم طعم الإيمان ولم تبلغ حقحقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره. قلت: يا أباها وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم ثم قال له اكتب فجري في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيمة» يا بني إن مت ولست على ذلك دخلت النار^(٢).

ورواه الترمذى عن يحيى بن موسى البلاخي عن أبي داود الطیالسى عن عبد الواحد بن سليم عن عطاء بن أبي رباح عن الوليد بن عبادة عن أبيه به وقال: حسن صحيح غريب. وقال سفيان الثورى عن منصور عن ربعي بن خراش، عن رجل عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله بعثنى بالحق، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خيره وشره»^(٣) وكذا رواه الترمذى من حديث النضر بن شمیل عن شعبة عن منصور به ، ورواه من حديث أبي داود الطیالسى عن شعبة عن منصور عن ربعي عن علي فذكره وقال: هذا عندى أصح ، وكذا رواه ابن ماجه من حديث شريك عن منصور عن ربعي عن علي به . وقد ثبت في صحيح مسلم من روایة عبد الله بن وهب وغيره عن أبي هانئ الخولاني عن أبي عبد الرحمن الجبلي عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»^(٤) زاد ابن وهب «وكان عرشه على الماء» [هود: ٧] ورواه الترمذى وقال: حسن صحيح غريب.

وقوله تعالى: «وما أمرنا إلا واحدة كل مع بالبصر» وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه، كما أخبرنا بنفوذ قدره فيهم فقال: «وما أمرنا إلا واحدة» أي إنما نأمر بالشيء مرة واحدة لا تحتاج إلى تأكيد بثانية ، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلاً موجوداً كل مع بالبصر، لا يتأنّر طرفة عين ، وما أحسن ما قال بعض الشعراء: [الطويل]

إذا أراد الله أمراً وإنما يقول له كمن قوله فيكون

(١) المسند ٣١٧ / ٥.

(٢) أخرجه الترمذى في القدر باب ١٧.

(٣) أخرجه الترمذى في القدر باب ١٠ ، وابن ماجه في المقدمة باب ٩.

(٤) أخرجه مسلم في القدر حديث ١٦ ، والترمذى في القدر باب ١٨.

وقوله تعالى: «ولقد أهلتنا أشياعكم» يعني أمثالكم وسلفكم من الأمم السالفة المكذبين بالرسل «فهل من مذكر» أي فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك وقدر لهم من العذاب، كما قال تعالى: «وحل شيء فعلوه في الزبر» أي مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة عليهم السلام «وكل صغير وكبير» أي من أعمالهم «مستطر» أي مجموع عليهم ومسطر في صحفتهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وقد قال الإمام أحمد^(١): حدثنا أبو عامر، حدثنا سعيد بن مسلم بن بانك، سمعت عامر بن عبد الله بن الزبير، حدثني عوف بن الحارث وهو ابن أخي عائشة لأمها عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشة إياك ومحقرات الذنب فإن لها من الله طالباً»^(٢) رواه النسائي وابن ماجه من طريق سعيد بن مسلم بن بانك المدني، وثقة أحمد وابن معين وأبو حاتم وغيرهم. وقد رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة سعيد بن مسلم هذا من وجه آخر. ثم قال سعيد فحدثت بهذا الحديث عامر بن هشام فقال لي: ويحك يا سعيد بن مسلم! لقد حدثني سليمان بن المغيرة أنه عمل ذنباً فاستصغره فأتاها آت في منامه فقال له يا سليمان: [الطوبل]

إن الصغير غداً يعود كبيراً	لا تحقرنَّ من الذنوب صغيرأً
عند الإله مُسْطَرٌ تسطيراً	إن الصغير ولو تقادم عهده
صعب القياد وشَّمَرْنَ تشميراً	فائزِرُ هوَك على البطالة لا تكنْ
طار الفؤاد وألهِم التفكيراً	إِنَّ الْمُحِبَّ إِذَا أَحَبَ إِلَهَهُ
فكفى بربك هادِيًّا ونصيراً	فاسأْلُ هدایتك إِلَهَ بَنَّيَّةَ

وقوله تعالى: «إن المتنقين في جنات ونهر» أي يعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسرور والسحب في النار على وجوههم، مع التوبية والتقريب والتهديد. وقوله تعالى: «في مقعد صدق» أي في دار كرامة الله ورضوانه وفضله وامتنانه وجوده وإحسانه «عند ملوك مقتدر» أي عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدارها. وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون.

وقد قال الإمام أحمد^(٣): حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن عمرو بن أوس عن عبد الله بن عمرو يبلغ به النبي ﷺ قال: «المقسطون عند الله يوم القيمة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهلיהם وما ولوا»^(٤) انفرد بإخراجه

(١) المستند ٦/٧٠، ١٥١.

(٢) آخر جه ابن ماجه في الزهد بباب ٢٩.

(٣) المستند ٢/١٧٠.

(٤) أخرجه مسلم في الإمارة حديث ١٨، والنسائي في آداب القضاة باب ١.

مسلم والنسائي من حديث سفيان بن عيينة بإسناده مثله .
آخر تفسير سورة اقتربت والله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة .

تفسير سورة الرحمن

وهي مكية

قال الإمام أحمد^(١): حدثنا عفان، حدثنا حماد عن عاصم عن زر أن رجلاً قال لابن مسعود: كيف تعرف هذا الحرف من ماء غير آسن أو آسن؟ فقال: كل القرآن قد قرأته . قال: إني لأقرأ المفصل في ركعة واحدة، فقال: أهذا كهذا الشعر لا أباليك؟ قد علمت . قرائين النبي ﷺ التي كان يقرن قرينتين من أول المفصل، وكان أول مفصل ابن مسعود «الرحمن» .

وقال أبو عيسى الترمذى: حدثنا عبد الرحمن بن واقد وأبو مسلم السعدي، حدثنا الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد، عن محمد بن المنكدر عن جابر قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله: «فبأي آلاء ربكم تكذباني» قالوا لا شيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد»^(٢) ثم قال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد، ثم حكي عن الإمام أحمد أنه كان لا يعرفه، ينكر رواية أهل الشام عن زهير بن محمد هذا، ورواه الحافظ أبو بكر البزار عن عمرو بن مالك عن الوليد بن مسلم، وعن عبد الله بن أحمد بن شبوه عن هشام بن عمارة، كلها عن الوليد بن مسلم به ثم قال: لا نعرفه يروى إلا من هذا الوجه .

وقال أبو جعفر بن جرير^(٣): حدثنا محمد بن عباد بن موسى وعمرو بن مالك البصري قالا: حدثنا يحيى بن سليم عن إسماعيل بن أمية عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن أو قرئت عنده فقال: «ما لي أسمع الجن أحسن جواباً لربها منكم؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «ما أتيت على قول الله تعالى: «فبأي آلاء ربكم تكذباني» إلا قالت الجن لا شيء من نعم ربنا نكذب» ورواه الحافظ البزار عن عمرو بن مالك به، ثم قال: لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد .

(١) المستند ٤١٢/١ .

(٢) أخرى الترمذى في تفسير سورة ٥٥ باب ١ .

(٣) تفسير الطبرى ٥٨٢/١١ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ ۝ عَلَمَ الْقُرْبَاءَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَنَ ۝ عَلَمَهُ الْبَيَانَ ۝ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يُحْسِبَاً ۝
 وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَاً ۝ وَالسَّمَاءُ رَفِعَاهَا وَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ إِلَّا أَطْلَغُوا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقْيَمُوا
 الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا مُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝ وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنْسَابِ ۝ فِيهَا فِنْكَهُهُ وَأَنْخَلُ ذَاتُ
 الْأَكْمَارِ ۝ وَلَحْتُ ذُرَ الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝ فِي أَيِّ إِلَاءٍ دَيْكُمَا تَكَدِّبَا نَ ۝

يخبر تعالى عن فضله ورحمته بخلقه أنه أنزل على عباده القرآن، ويسر حفظه وفهمه على من رحمه فقال تعالى: «الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان» قال الحسن: يعني النطق، وقال الصحاح وقتادة وغيرهما: يعني الخير والشر، وقول الحسن هنا أحسن وأقوى لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين على اختلاف مخارجها وأنواعها. قوله تعالى: «الشمس والقمر يحسبان» أي يجريان متعاقبين بحساب مقنن لا يختلف ولا يضطرب «لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في ذلك يسبحون» [يس: ٤٠] وقال تعالى: «فالق الإاصباح يجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم» [الأنعام: ٩٦].

وعن عكرمة أنه قال: لو جعل الله نور جميع أبصار الإنس والجن والدواب والطير في عيني عبد، ثم كشف حجاباً واحداً من سبعين حجاباً دون الشمس، لما استطاع أن ينظر إليها. ونور الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي، ونور الكرسي جزء من سبعين جزءاً من نور العرش، ونور العرش جزء من سبعين جزءاً من نور الستر. فانظر ماذا أعطى الله عبده من النور في عينيه وقت النظر إلى وجه ربه الكريم عياناً، رواه ابن أبي حاتم.

وقوله تعالى: «والنجم والشجر يسجدان» قال ابن جرير^(١): اختلف المفسرون في معنى قوله «والنجم» بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق، فروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: النجم ما انبسط على وجه الأرض يعني من النبات، وكذا قال سعيد بن جبیر والسدی وسفیان الثوری، وقد اختاره ابن جریر رحمه الله تعالى. وقال مجاهد: النجم الذي في السماء. وكذا قال الحسن وقتادة، وهذا القول هو الأظهر والله أعلم لقوله تعالى: «أَلمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ» [الحج: ١٨] الآية.

وقوله تعالى: ﴿والسماء رفعها ووضع الميزان﴾ يعني العدل كما قال تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسالنا بالبيانات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾ [الحديد: ٢٥] وهكذا قال هنا: ﴿ألا تطغوا في الميزان﴾ أي خلق السموات والأرض بالحق والعدل لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل. ولهذا قال تعالى: ﴿وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾ أي لا تخسوا الوزن بل زنوا بالحق والقسط كما قال تعالى: ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ [الشعراء: ١٨٢] قوله تعالى: ﴿والأرض وضعها للأنام﴾ أي كما رفع السماء وضع الأرض ومهدها وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات، ل تستقر لما على وجهها من الأنام وهم الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وأستتهم في سائر أقطارها وأرجائها.

قال ابن عباس ومجاهد وقادة وابن زيد: الأنام الخلق ﴿فيها فاكهة﴾ أي مختلفة الألوان والطعوم والروائح ﴿والنخل ذات الأكمام﴾ أفرده بالذكر لشرفه وفعله رطباً ويابساً، والأكمام قال ابن جريج عن ابن عباس: هي أوعية الطلع وهكذا قال غير واحد من المفسرين، وهو الذي يطلع فيه القنو ثم ينشق عن العنقود، فيكون بسراً ثم رطباً ثم ينضج ويتناهى ينفع واستواؤه. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن عمرو بن علي الصيرفي، حدثنا أبو قتيبة، حدثنا يونس بن الحارث الطائي عن الشعبي قال: كتب قيسر إلى عمر بن الخطاب: أخبرك أن رسلي أتنى من قبلك فزعمت أن قبلكم شجرة ليست بخليقة لشيء من الخير، تخرج مثل آذان الحمير ثم تشتق مثل اللؤلؤ، ثم تخضر ف تكون مثل الزمرد الأخضر، ثم تحرم ف تكون كالياقوت الأحمر، ثم تينع فتنضج ف تكون كأطيب فالوذج أكل، ثم تيس ف تكون عصمة للمقيم وزاداً للمسافر، فإن تكون رسلي صدقتي فلا أرى هذه الشجرة إلا من شجر الجنة، فكتب إليه عمر بن الخطاب: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى قيسر ملك الروم، إن رسلي قد صدقوك هذه الشجرة عندنا، وهي الشجرة التي أنبتها الله على مريم حين نفست بعيسي ابنها، فاتق الله ولا تتخذ عيسى إلهاً من دون الله ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترفين﴾ [آل عمران: ٦٠ - ٥٩] وقيل: الأكمام رفاتها وهو الليف الذي على عنق النخلة، وهو قول الحسن وقادة.

﴿والحب ذو العصف والريحان﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿والحب ذو العصف﴾ يعني التبن. وقال العوفي عن ابن عباس: العصف ورق الزرع الأخضر الذي قطع رؤوسه، فهو يسمى العصف إذا يبس، وكذا قال قادة والضحاك وأبو مالك عصفه تبني. وقال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: ﴿والريحان﴾ يعني الورق. وقال الحسن: هو ريحانكم هذا، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿والريحان﴾ خضر الزرع، ومعنى هذا - والله أعلم - أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما له في حال نباته عصف، وهو ما على السنبلة، وريحان وهو الورق الملتف على ساقها. وقيل: العصف الورق أول ما ينبت الزرع بقللاً والريحان الورق

يعني إذا أدجن وانعقد فيه الحب، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل في قصيده المشهورة: [الطويل]

وقولا له من ينبت الحب في الشَّرِي
فيصبح منه البَقْلُ يهتز رابيا^(١)
ويخرج منه حبه في رؤوسه ففي ذاك آيات لمن كان واعيا

وقوله تعالى: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تَكذِّبَانِ» أي بأي الآلاء يا معاشر النقلين من الإنس والجن تكذبان؟ قاله مجاهد وغير واحد، ويدل عليه السياق بعده، أي النعم ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها، فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون به: اللهم ولا بشيء من الآثار ربنا نكذب، فلك الحمد. وكان ابن عباس يقول لأبيها يا رب أي لا نكذب بشيء منها، قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة عن أسماء بنت أبي بكر قالت: سمعت رسول الله ﷺ وهو يقرأ وهو يصلى نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمسرون يستمعون «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تَكذِّبَانِ».

خَلَقَ الْإِنْسَنَ مِنْ صَلَصَلٍ كَالْفَخَارِ ۝ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ۝ فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تَكذِّبَانِ ۝ رَبُّ الْشَّرِيفَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝ فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تَكذِّبَانِ ۝ مَرَحَ الْبَحْرَيْنِ يَلْقَيَانِ ۝ يَلْهَمُهَا بَرْخٌ لَا يَبْتَهِيَانِ ۝ فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تَكذِّبَانِ ۝ يَخْرُجُ مِنْهُمَا الْلُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَامُ ۝ فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تَكذِّبَانِ ۝ وَلَهُ الْجَوَارُ الْمُنْشَأُتُ فِي الْبَعْرِ كَالْأَنْلَمِ ۝ فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تَكذِّبَانِ ۝

يدرك تعالى خلقه الإنسان من صلصال كالفالخار، وخلقه الجن من مارج من نار، وهو طرف لهبها، قاله الضحاك عن ابن عباس، وبه يقول عكرمة ومجاهد والحسن وابن زيد، وقال العوفي عن ابن عباس: «من مارج من نار» من لهب النار من أحستها، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «من مارج من نار» من خالص النار، وكذلك قال عكرمة ومجاهد والضحاك وغيرهم.

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا عبد الرزاق، حدثنا عمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجن من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»^(٤) ورواه مسلم عن محمد بن رافع وعبد بن حميد، كلامهما عن عبد الرزاق به.

(١) البیتان فی سیرة ابن هشام ١/٢٢٨.

(٢) المستند ٦/٣٤٩.

(٣) المستند ٦/١٦٨.

(٤) أخرجه مسلم في الزهد حديث ٦٠.

وقوله تعالى: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تَكْذِبُانِ» تقدم تفسيره «رب المشرقيين ورب المغاربيين» يعني مشرقي الصيف والشباء ومغربي الصيف والشتاء، وقال في الآية الأخرى: «فَلَا أَقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ» [المعارج: ٤٠] وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يوم وبروزها منه إلى الناس. وقال في الآية الأخرى: «رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا» [المزمل: ٩] وهذا المراد منه جنس المشارق والمغارب، ولما كان في اختلاف هذه المشارق والمغارب صالح للخلق من الجن والإنس قال: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تَكْذِبُانِ».

وقوله تعالى: «مَرْجُ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ» قال ابن عباس: أي أرسلهما. قوله: «يَلْتَقِيَانِ» قال ابن زيد: أي منعهما أن يلتقيا بما جعل بينهما من البرزخ الحاجز الفاصل بينهما، والمراد بقوله «البحرين» الملح والحلو، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس، وقد قدمنا الكلام على ذلك في سورة الفرقان عند قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عِذَابُ فَرَاتِ وَهَذَا مَلْحُ أَجَاجِ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا» [الفرقان: ٥٣] قد اختار ابن جرير ههنا أن المراد بالبحرين: بحر السماء وبحر الأرض، وهو مروي عن مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وابن أبي زيد، قال ابن جرير: لأن اللؤلؤ يتولد من ماء السماء وأصادف بحر الأرض وهذا وإن كان هكذا لكن ليس المراد بذلك ما ذهب إليه، فإنه لا يساعد له اللفظ فإنه تعالى قد قال: «بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَعْبَرُ» أي وجعل بينهما بरزخاً، وهو الحاجز من الأرض لثلا يعيي هذا على هذا، وهذا على هذا، فيفسد كل واحد منها الآخر ويزيشه عن صفتة التي هي مقصودة منه، وما بين السماء والأرض لا يسمى ببرزخاً وحبراً محجوراً.

وقوله تعالى: «يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللَّؤلؤُ وَالْمَرْجَانُ» أي من مجموعهما، فإذا وجد ذلك من أحدهما كفى كما قال تعالى: «يَا مُعْشِرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُلٌ مِّنْكُمْ» [الأనعام: ١٣٠] والرسل إنما كانوا في الإنس خاصة دون الجن وقد صح هذا الإطلاق. واللؤلؤ معروف، وأما المرجان فقيل هو صغار اللؤلؤ^(١)، قاله مجاهد وقتادة وأبو رزين والضحاك وروي عن علي، وقيل كباره وجده، حكاه ابن جرير عن بعض السلف ورواه ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس، وحكاه عن السدي عن حدثه عن ابن عباس، وروي مثله عن علي ومجاهد أيضاً ومرة الهمданى، وقيل: هو نوع من الجواهر أحمر اللون، قال السدي عن أبي مالك عن مسروق عن عبد الله قال: المرجان الخرز الأحمر، قال السدي: وهو البند بالفارسية، وأما قوله: «وَمَنْ كُلَّ تَأْكِلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تُلْبِسُونَهَا» [فاطر: ١٢] فاللحم من كل من الأجاج والعذب والحلية إنما هي من الملح دون العذب. قال ابن عباس: ما سقطت قطرة من السماء في البحر فوقيت في صدفة إلا صار منها لؤلؤة، وكذا قال عكرمة، وزاد: فإذا لم تقع

في صدفة نبتت بها عنبرة، وروي من غير وجه عن ابن عباس نحوه.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان عن الأعمش عن عبد الله بن عبد الله، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: إذا أمطرت السماء فتحت الأصداف في البحر أفواها فما وقع فيها، يعني من قطر فهو المؤلئ. إسناده صحيح، ولما كان اتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض، امتن بها عليهم فقال: «فبأي آلاء ربكم تكذبان».

وقوله تعالى: «وله الجوار المنشآت» يعني السفن التي تجري في البحر قال مجاهد: ما رفع قلعه من السفن فهي منشأة وما لم يرفع قلعه فليس بمنشأة، وقال قتادة: «المنشآت» يعني المخلوقات، وقال غيره، المنشآت بكسر الشين يعني البدائت «كالاعلام» أي كالجبال في كبرها وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقوله من قطر إلى قطرين وإقليم إلى إقليم، مما فيه صلاح الناس في جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع، ولهذا قال: «فبأي آلاء ربكم تكذبان» وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا العرار بن سويد عن عميرة بن سعد قال: كنت مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه على شاطئ الفرات إذ أقبلت سفينة مرفوع شراعها فبسط علي يديه ثم قال: يقول الله عز وجل: «وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام» والذي أنشأها تجري في بحوره ما قتلت عثمان ولا مالات على قتلها.

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانِ ﴿١﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢﴾ فَيَأْيَاءُ الْأَيَاءِ رَبِّكَ مَا تُكَذِّبُ بِهِ ﴿٣﴾ يَسْتَهِنُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأنٍ ﴿٤﴾ فَيَأْيَاءُ الْأَيَاءِ رَبِّكَ مَا تُكَذِّبُ بِهِ ﴿٥﴾

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيدهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السموات إلا من شاء الله ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم، فإن الله تعالى وتقديس لا يموت بل هو الحي الذي لا يموت أبداً، قال قتادة: أنت بما خلق ثم أنت أن ذلك كله فان. وفي الدعاء المأثور: يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، لا إلا أنت برحمتك نستغيث أصلح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك. وقال الشعبي: إذا قرأت «كل من عليها فان» فلا تسكت حتى تقرأ «ويبقى وجهه» [القصص: ٨٨] وقد نعت هذه الآية كقوله تعالى: «كل شيء هالك إلا وجهه» [القصص: ٨٨] تعالى وجهه الكريم في هذه الآية بأنه ذو الجلال والإكرام أي هو أهل أن يجعل فلا يعصي، وأن يطاع فلا يخالف كقوله تعالى: «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه» [الكهف: ٢٨] وكقوله إخباراً عن المتصدقين: «إنما نطعمكم لوجه الله» [الإنسان:

قال ابن عباس: ذو الجلال والإكرام ذو العظمة والكبيراء، ولما أخبر تعالى عن تساوي أهل الأرض كلهم في الوفاة، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمة العدل قال: «نبأي آلاء ربكم تكذبان»، قوله تعالى: «يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن» وهذا إخبار عن غناه عما سواه وافتقار الخلائق إليه في جميع الآيات وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقال لهم وأنه كل يوم هو في شأن، قال الأعمش عن مجاهد عن عبد بن عمير «كل يوم هو في شأن» قال من شأنه أن يجيب داعياً أو يعطي سائلاً، أو يفك عانياً أو يشفى سقيماً.

وقال ابن أبي نجح عن مجاهد قال: كل يوم هو يجيب داعياً ويكشف كرباً ويحيي مضرطاً ويغفر ذنباً، وقال قتادة: لا يستغنى عنه أهل السموات والأرض يحيي حياً ويميت ميتاً، ويربي صغيراً ويفك أسيراً وهو متنه حاجات الصالحين وصريخهم ومتنه شكوكهم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان الحمصي، حدثنا جرير بن عثمان عن سويد بن جبلة هو الفزارى قال: إن ربكم كل يوم هو في شأن فیعتق رقباً، ويعطي رغاباً، ويقحم عقاباً.

وقال ابن جرير^(١): حدثني عبد الله بن محمد بن عمرو الغزي، حدثني إبراهيم بن محمد بن يوسف الفريابي، حدثني عمرو بن بكر السكسكي، حدثنا الحارث بن عبدة بن رياح الغساني عن أبيه، عن منيب بن عبد الله بن منيب الأزدي عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية «كل يوم هو في شأن» فقلنا: يا رسول الله وما ذاك الشأن؟ قال: «أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً ويضع آخرين»..

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا هشام بن عمار وسلمان بن أحمد الواسطي قالا: حدثنا الوزير بن صبيح الثقفي أبو روح الدمشقي والسياق لهشام قال: سمعت يونس بن ميسرة بن حلبيس، يحدث عن أم الدرداء عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: «كل يوم هو في شأن» - قال - من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً ويضع آخرين»^(٢). وقد رواه ابن عساكر من طرق متعددة عن هشام بن عمار به، ثم ساقه من حديث أبي همام الوليد بن شجاع عن الوزير بن صبيح قال: «وَدَلَّا عَلَيْهِ الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ عَنْ مَطْرَفٍ عَنْ الشَّعْبِيِّ عَنْ أُمِّ الدَّرَدَاءِ عَنْ أَبِي الدَّرَدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرَهُ قَالَ: وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ، يَعْنِي إِسْنَادُهُ الْأَوَّلُ».

قلت: وقد روی موقوفاً كما علقه البخاري بصيغة الجزم فجعله من كلام أبي الدرداء فالله أعلم. وقال البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن الحارث، حدثنا محمد بن

(١) تفسير الطبرى ٥٩٢/١١.

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب ١٣.

عبد الرحمن بن اليلماني عن أبيه عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «كل يوم هو في شأن» قال «يغفر ذنباً، ويكشف كربلاً» ثم قال ابن حرير^(١): وحدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الله بن موسى عن أبي حمزة الشمالي عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء دفاته ياقوتة حمراء قلمه نور، وكتابه نور، وعرضه ما بين السماء والأرض ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة، يخلق في كل نظرة ويحيي ويميت ويعز ويذل ويقتل ما يشاء.

سَنْفَرُكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴿٢﴾ فَيَأْتِيَ اللَّهُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣﴾ يَمْعَشُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَفْدُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفَذُوا لَا تَنْفَذُونَ إِلَّا سُلْطَانٌ ﴿٤﴾ فَيَأْتِيَ اللَّهُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّنْ نَارٍ وَنَحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴿٦﴾ فَيَأْتِيَ مَالَهُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: «سنفرغ لكم أيها الثقلان» قال: وعيid من الله تعالى للعباد وليس بالله شغل وهو فارغ، وكذا قال الضحاك: هذا وعيid، وقال قتادة: قد دنا من الله فراغ لخلقه، وقال ابن حريج «سنفرغ لكم» أي سنقضي لكم.

وقال البخاري^(٢): سنحاسبكم لا يشغله شيء عن شيء، وهو معروف في كلام العرب، يقال لأنفرعن لك وما به شغل، يقول: لاخذنك على غرتك. وقوله تعالى: «أيها الثقلان» الثقلان: الإنسان والجبن كما جاء في الصحيح: «ويسمعها كل شيء إلا الثقلين»^(٣) وفي رواية «إلا الإنسان والجبن». وفي حديث الصور «الثقلان الإنسان والجبن» «فبأي آلاء ربكم تكذبان».

ثم قال تعالى: «يا معاشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان» أي لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره بل هو محيط بكم، لا تقدرون على التخلص من حكمه ولا النفوذ عن حكمه فيكم، أينما ذهبتم أحبط بكم، وهذا في مقام الحشر، الملائكة محدقة بالخلاق تسبح صفوف من كل جانب فلا يقدر أحد على الذهاب «إلا بسلطان» أي إلا بأمر الله «يقول الإنسان يومئذ أين المفر كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر» [القيمة: ١٠ - ١٢].

وقال تعالى: «والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» [يونس: ٢٧] ولهذا قال تعالى: «يرسل عليكم شواط من نار ونحاس فلا تنتصران» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس الشواط: هو لهب النار، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس:

(١) تفسير الطبرى ١١ / ٥٩٢.

(٢) كتاب التفسير، تفسير سورة ٥٥ في الترجمة.

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز باب ٦٧ ، ٨٦ ، وأحمد في المسند ٤ / ٣.

الشواط الدخان، وقال مجاهد: هو اللهب الأخضر المنقطع، وقال أبو صالح: الشواط هو اللهيب الذي فوق النار ودون الدخان. وقال الضحاك «شواط من نار» سيل من نار. وقوله تعالى: «ونحاس» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس «ونحاس» دخان النار، وروي مثله عن أبي صالح وسعيد بن جبير وأبي سنان.

وقال ابن جرير^(١): العرب تسمى الدخان نحاساً، بضم النون وكسرها، والقراء مجمعه على النضم، ومن النحاس بمعنى الدخان قول نابغة جعدة: [المتقارب]

يضيء كضوء سراج السَّلَبِ طَلْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ نَحَاساً^(٢)

يعني دخاناً هكذا قال، وقد روى الطبراني من طريق جوير عن الضحاك أن نافع بن الأزرق سأله ابن عباس عن الشواط فقال: هو اللهب الذي لا دخان معه، فسأله شاهداً على ذلك من اللغة، فأنشده قول أمية بن أبي الصلت في حسان: [الوافر]

أَلَا مَنْ مَبْلُغُ حَسَانٍ عَنِي مَغْلَلَةً تَدْبِ إِلَى عَكَاظٍ^(٣)

أَلِيسْ أَبُوكَ فِينَا كَانَ قِينَاً لَدِي الْقِينَاتِ فَشَلَّاً فِي الْحَفَاظِ

يَمَائِيَاً يَظْلِلُ يُشَدَّ كِيرَاً وَيَنْفَخُ دَائِبَاً لَهَبَ الشَّوَاطِ

قال: صدقت بما النحاس؟ قال: هو الدخان الذي لا لهب له، قال: فهل تعرفه العرب؟

قال: نعم، أما سمعت نابغة بنى ذبيان يقول: [المتقارب]

يضيء كضوء سراج السَّلَبِ طَلْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ نَحَاساً^(٤)

وقال مجاهد: النحاس الصفر يذاب فيصب على رؤوسهم، وكذا قال قتادة، وكذا قال الضحاك: ونحاس سيل من نحاس، والمعنى على كل قول لو ذهبتم هاربين يوم القيمة لردمكم الملائكة والربانية بإرسال اللهب من النار، والنحاس المذاب عليكم لترجعوا، ولهذا قال: «فلا تنتصران فبأي آلاء ربكم تکذبان».

فِإِذَا أَنْشَقَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرَدَةً كَالْدِهَانِ فَيَأْيَءُ إِلَيْهِ رَيْكَمَا تُكَذِّبَانِ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُشَعَّلُ عَنْ ذَنَبِهِ إِنْهُنْ وَلَا جَانٌ فَيَأْيَءُ إِلَيْهِ رَيْكَمَا تُكَذِّبَانِ يَعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوْصَ

(١) تفسير الطبرى ٥٩٧/١١.

(٢) البيت للنابغة الجعدي في ديوانه ص ٨١، وجمهرة اللغة ص ٥٣٦، ولسان العرب (نحس)، (سلط)، وتاح العروس (نحس)، (سلط) والكامل ص ٤٧٧، والشعر والشعراء ص ٣٠٢، ولنابغة بنى ذبيان في تفسير الطبرى ١١/٥٩٨، وبلا نسبة في كتاب العين ٣/١٤٤، وتهذيب اللغة ٤/٣٢٠.

(٣) البيت الأول لأمية بن خلف الخزاعي في المقاصد النحوية ٤/٥٦٣، وبلا نسبة في شرح الأشموني ٣/٨٠٧، والبيتان الثاني والثالث لأمية بن خلف في لسان العرب (شوظ)، وتاح العروس (شوظ).

(٤) تقدم قبل قليل مع تحريرجه، وقد نسبة ابن كثير قبل للنابغة الجعدي وهو الصحيح.

وَالْأَقْدَامُ ۝ فِي أَيِّ الْأَرْضِ كُلُّهَا تُكْبَرُ ۝ هُنَوْهُ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرُمُونَ ۝ يَطْلُوْفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ۝
كَانَ ۝ فِي أَيِّ الْأَرْضِ كُلُّهَا تُكْبَرُ ۝

يقول تعالى: «إِذَا انشقت السماوات» يوم القيمة كما دلت عليه هذه الآيات مع ما شاكلها من الآيات الواردة في معناها كقوله تعالى: «وانشقت السماوات فهي يومئذ واهية» وقوله: «وَيَوْمَ تشقق السماوات بالغمam ونزل الملائكة تنزيلاً» [الفرقان: ٢٥] وقوله: «إِذَا السماوات انشقت وأذنت لربها وحقت» [الإنشقاق: ١ - ٢] وقوله تعالى: «فَكَانَتْ وَرَدَةً كَالْدَهَانِ» أي تذوب كما يذوب الدردي والفضة في السبك، وتتلون كما تتلون الأصابع التي يدهن بها، فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهو يوم القيمة العظيم.

وقد قال الإمام أحمد^(١): حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الصهباء، حدثنا نافع أبو غالب الباهلي، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يعث الناس يوم القيمة والسماء تطش عليهم» قال الجوهرى: الطش المطر الضعيف، وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: «وردة كالدهان» قال: هو الأديم الأحمر، وقال أبو كدينة عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس «فَكَانَتْ وَرَدَةً كَالْدَهَانِ» كالفرس الورد، وقال العوفي عن ابن عباس: تغير لونها، وقال أبو صالح: كالبرذون الورد، ثم كانت بعد كالدهان.

وحكى البغوي وغيره أن الفرس الورد تكون في الربع صفراء، وفي الشتاء حمراء، فإذا اشتتد البرد تغير لونها، وقال الحسن البصري: تكون ألواناً. وقال السدي: تكون كلون البغلة الوردة، وتكون كالمهل كدردي الزيت، وقال مجاهد «كالدهان» كاللون الدهان، وقال عطاء الخراساني: كلون دهن الورد في الصفرة، وقال قتادة: هي اليوم خضراء ويومئذ لونها إلى الحمرة يوم ذي ألوان. وقال أبو الجوزاء: في صفاء الدهن. وقال ابن جريج: تصير السماء كالدهن الذائب وذلك حين يصيبيها حر جهنم.

وقوله تعالى: «فِي يَوْمٍ لَا يُسَأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ» وهذه كقوله تعالى: «هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فی عذرون» [الرسلات: ٣٥ - ٣٦] فهذا في حال وثم حال يسأل الخلاقين عن جميع أعمالهم، وقال الله تعالى: «فَوْرَبِكَ لَنْسَأْلُهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [الحجر: ٩٢ - ٩٣] ولهذا قال قتادة: «فِي يَوْمٍ لَا يُسَأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ» قال: قد كانت مسألة ثم ختم على أفواه القوم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا، لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟ فهذا قول ثان. وقال مجاهد في هذه الآية: لا تسأل الملائكة عن المجرمين بل يعرفون بسيماهم، وهذا قول ثالث، وكأن هذا بعدهما يؤمر بهم إلى النار فذلك الوقت لا يسألون عن

ذنوبهم بل يقادون إليها ويلقون فيها كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي بعلامات تظهر عليهم. وقال الحسن وقتادة: يعرفونهم باسوداد الوجه وزرقة العيون. قلت: وهذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء.

وقوله تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنُّوَاصِيِّ وَالْأَقْدَامِ﴾ أي يجمع الزبانية ناصيته مع قدميه ويلقونه في النار كذلك، وقال الأعمش عن ابن عباس: يؤخذ بناصيته وقدميه فيكسر كما يكسر الحطب في التنور، وقال الضحاك: يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره، وقال السدي: يجمع بين ناصية الكافر وقدميه فترتبط ناصيته بقدمه ويفتل ظهره.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام أنه سمع أبا سلام يعني جده، أخبرني عبد الرحمن، حدثني رجل من كندة قال: أتيت عائشة فدخلت عليها وبينها حجاب فقلت: حدثك رسول الله ﷺ أنه يأتي عليه ساعة لا يملك فيها لأحد شفاعة؟ قالت: نعم لقد سأله عن هذا وأنا وهو في شوارع واحد قال: «نعم حين يوضع الصراط لا يملك لأحد فيها شفاعة حتى أعلم أين يسلك بي»، ويوم تبيض وجوه وتسود وجوه حتى أنظر ماذا يفعل بي - أو قال يوحى - عند الجسر حين يستحر ويستحر» فقالت: وما يستحد وما يستحر؟ قال يستحد حتى يكون مثل شفرة السيف، ويستحر حتى يكون مثل الجمرة، فأما المؤمن فيجزيه لا يضره، وأما المخالف فيتعلق حتى إذا بلغ أوسيطه خر من قدميه فيهوي بيده إلى قدميه - قالت: فهل رأيت من يسعى حافياً فتأخذه شوكة حتى تکاد تنفذ قدميه، فإنه كذلك يهوي بيده ورأسه إلى قدميه فتضربه الزبانية بخطاف في ناصيته وقدمه، فتقذفه في جهنم فيهوي فيها مقدار خمسين عاماً - قلت: ما ثقل الرجل؟ قالت: ثقل عشر خلفات سمان فيومئذ يعرف المجرمون بسمائهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام». هذا حديث غريب جداً، وفيه ألفاظ منكر رفعها، وفي الإسناد من لم يسم ومثله لا يحتج به، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يَكْذِبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها، هاهي حاضرة تشاهدونها عياناً، يقال لهم ذلك تقريراً وتوبيناً وتصغيراً وتحقيراً. وقوله تعالى: ﴿يَطْوَفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آن﴾ أي تارة يعنون في الجحيم وتارة يسقون من الحميم، وهو الشراب الذي هو كالنحاس المذاب يقطع الأمعاء والأحشاء، وهذه كقوله تعالى: ﴿إِذَا أَغْلَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلِ يَسْجِبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يَسْجُرُونَ﴾ [غافر: ٧٢-٧١].

وقوله تعالى: ﴿آن﴾ أي حار قد بلغ الغاية في الحرارة لا يستطيع من شدة ذلك، قال ابن عباس في قوله: ﴿يَطْوَفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آن﴾ أي قد انتهى غليه واشتد حره، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والحسن والثوري والسدي وقال قتادة: قد آن طبخه منذ خلق الله السموات والأرض، وقال محمد بن كعب القرظي: يؤخذ العبد فيحرك بناصيته في

ذلك الحميم حتى يذوب اللحم ويقى العظم والعينان في الرأس وهي كالتي يقول الله تعالى: **﴿فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يَسْجُونُ﴾** [غافر: ٧١ - ٧٢] والحميم الآن يعني الحار، وعن القرظي رواية أخرى **﴿حَمِيمٌ آن﴾** أي حاضر وهو قول ابن زيد أيضاً، والحاضر لا ينافي ما روي عن القرظي أولاً أنه الحار كقوله تعالى: **﴿تَسْقَى مِنْ عَيْنَ آنِي﴾** [الغاشية: ٥] أي حارة شديدة الحر لا تستطاع، وكقوله: **﴿غَيْرُ نَاظِرِينَ إِنَاه﴾** [الأحزاب: ٥٣] يعني استواءه ونضجه فقوله: **﴿حَمِيمٌ آن﴾** أي حميم حار جداً. ولما كان معاقبة العصاة المجرمين وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه، وكان إنذاره لهم عن عذابه وياسه مما يزجرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك قال ممتناً بذلك على بريته **﴿فَبِأَيِّ آلَّا رَبُّكُمَا تَكْذِبَان﴾**.

وَلَمْنَ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانِ ﴿١﴾ فَبِأَيِّ آلَّا رَبُّكُمَا تَكْذِبَانِ ﴿٢﴾ ذَوَانَا أَفَنَبِ ﴿٣﴾ فَبِأَيِّ آلَّا رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ ﴿٤﴾ فِيمَا عَيْنَانِ تَعْرِيَانِ ﴿٥﴾ فَبِأَيِّ آلَّا رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ ﴿٦﴾ فِيمَا مِنْ كُلِّ فَكْهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٧﴾ فَبِأَيِّ آلَّا رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ ﴿٨﴾

قال ابن شوذب وعطاء الخراساني: نزلت هذه الآية **﴿وَلَمْنَ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانِ﴾** في أبي بكر الصديق، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا محمد بن مصفي، حدثنا بقية عن أبي بكر بن أبي مريم عن عطية بن قيس في قوله تعالى: **﴿وَلَمْنَ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانِ﴾** نزلت في الذي قال: أحرقوني بالنار لعلني أضل الله قال تاب يوماً وليلة، بعد أن تكلم بهذا فقبل الله منه وأدخله الجنة^(١).

والصحيح أن هذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره يقول الله تعالى: **﴿وَلَمْنَ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾** بين يدي الله عز وجل يوم القيمة **﴿وَنَهَى النَّفْسُ عَنِ الْهُوَى﴾** [النازعات: ٤٠] ولم يطبع ولا آخر الحياة الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى فأدلى فرائض الله واجتنب محارمه، فله يوم القيمة عند ربه جنستان، كما قال البخاري رحمة الله: حدثنا عبد الله بن أبي الأسود، حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد العملي، حدثنا أبو عمران الجوني عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة آنитеهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنитеهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبراء على وجهه في جنة عدن»^(٢) وأخرجه بقية الجماعة إلا أبو داود من حديث عبد العزيز به، وقال حماد بن سلمة عن ثابت عن أبي بكر بن أبي موسى عن أبيه قال حماد: لا أعلم إلا قد رفعه في قوله تعالى: **﴿وَلَمْنَ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانِ﴾** وفي قوله: **﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّانِ﴾** جنستان من ذهب للمقربين

(١) أخرجه السيوطي في الدر المثمر ٦/٢٠٢.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٥٥، باب ١ و ٢، ومسلم في الإيمان حديث ٢٩٦، والترمذى في الجنة باب ٣، وابن ماجه في المقدمة باب ١٣، والدارمي في الرقاق باب ١٠١، وأحمد في المسند ٤١٦، ٤١١/٤.

وجتنان من ورق لأصحاب اليمين.

وقال ابن جرير^(١): حدثنا زكريا بن يحيى بن أبان المصري، حدثنا ابن أبي مريم، أخبرنا محمد بن جعفر عن محمد بن أبي حرملة عن عطاء بن يسار أخبرني أبو الدرداء أن رسول الله ﷺ قرأ يوماً هذه الآية «ولمن خاف مقام ربه جتنان» فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال: «ولمن خاف مقام ربه جتنان» فقلت: وإن زنى وإن سرق فقال: «ولمن خاف مقام ربه جتنان» فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «وإن رغم أنف أبي الدرداء» ورواه السائي من حديث محمد بن أبي حرملة به، ورواه السائي أيضاً عن مؤمل بن هشام عن إسماعيل عن الجريري، عن موسى عن محمد بن سعد بن أبي وقاص عن أبي الدرداء به، وقد روی موقوفاً على أبي الدرداء، وروي عنه أنه قال: إن من خاف مقام ربه لم يزن ولم يسرق.

وهذه الآية عامة في الإنس والجن، فهي من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا، ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال: «ولمن خاف مقام ربه جتنان فبأي آلاء ربكمما تكذباني» ثم نعت هاتين الجنتين فقال: «ذواتاً أفنان» أي أغصان نمرة حسنة تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة «فبأي آلاء ربكمما تكذباني» هكذا قال عطاء الخراساني وجماعة أن الأفنان أغصان الشجر يمس بعضها بعضاً، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن علي، حدثنا مسلم بن قتيبة، حدثنا عبد الله بن النعمان، سمعت عكرمة يقول: «ذواتاً أفنان» يقول: ظل الأغصان على الحيطان، ألم تسمع قول الشاعر: [الوافر]

ما هاج شوقك من هديل حمامـة تدعـو على فـن الغصـون حـمامـا^(٢)
تدعـو أبا فـرـخـين صـادـف طـاوـيـا ذـا مـخلـبـين مـن الصـقـور قـطـاما

وحكى البغوي عن مجاهد وعكرمة والضحاك والكلبي، أنه الغصن المستقيم، قال: وحدثنا أبو سعيد الأشجع، حدثنا عبد السلام بن حرب، حدثنا عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: «ذواتاً أفنان» ذواتاً ألوان، قال: وروي عن سعيد بن جبير والحسن والسدي وخصيف والنضر بن عربي وأبي سنان مثل ذلك، ومعنى هذا القول أن فيهما فنوناً من الملاذ، واختاره ابن جرير، وقال عطاء: كل غصن يجمع فنوناً من الفاكهة، وقال الربيع بن أنس «ذواتاً أفنان» واسعنا الفناء وكل هذه الأقوال صحيحة ولا منافاة بينها، والله أعلم، وقال قتادة: ذواتاً أفنان يعني بسعتها وفضلها ومزيتها على ما سواها.

وقال محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت: سمعت رسول الله ﷺ وذكر سدرة المنتهى، فقال: «يسير في ظل الفن منها الراكب

(١) تفسير الطبرى ٦٠٢ / ١١.

(٢) البيتان بلا نسبة في تفسير الطبرى ٦٠٤ / ١١.

مائة سنة - أو قال يستظل في ظل الفن منها مائة راكب - فيها فراش الذهب كأن ثمرها القلال^(١). ورواه الترمذى من حديث يونس بن بكرى به .

وقال حماد بن سلمة عن ثابت عن أبي بكر بن أبي موسى عن أبيه ، قال حماد: ولا أعلم إلا قد رفعه في قوله: «ولمن خاف مقام ربه جنتان» وفي قوله: «ومن دونهما جنتان» قال: جنتان من ذهب للمقربين ، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين .

«فيهما عينان تجريان» أي تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان فتشمر من جميع الألوان «فبأي آلاء ربكم تكذبان» قال الحسن البصري : إحداهم يقال لها تسنيم ، والأخرى السلسيل . وقال عطية : إحداهم من ماء غير آسن ، والأخرى من خمر لذة للشاربين ، ولهذا قال بعد هذا : «فيهما من كل فاكهة زوجان» أي من جميع أنواع الشمار مما يعلمون وخير مما يعلمون ، ومما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر «فبأي آلاء ربكم تكذبان» .

قال إبراهيم بن الحكم بن أبان عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس ، ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل ، وقال ابن عباس : ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء يعني أن بين ذلك بوناً عظيماً وفرقًا بيننا في التفاصيل .

مُتَكَبِّينَ عَلَى فُرْشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَّةَ الْجَنَّاتِ دَانِ ۝ فَيَأْيَءَ الَّاءَ رَبِّكُمَا تَكَذِّبَانِ ۝ فِيهِنَّ فَاصِرَاتُ الْأَطْرَفِ لَمْ يَطْمَئِنُنَّ إِسْقَتَاهُمْ وَلَا جَانَ ۝ فَيَأْيَءَ الَّاءَ رَبِّكُمَا تَكَذِّبَانِ ۝ كَانُوكُمْ أَلْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ۝ فَيَأْيَءَ الَّاءَ رَبِّكُمَا تَكَذِّبَانِ ۝ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ۝ فَيَأْيَءَ الَّاءَ رَبِّكُمَا تَكَذِّبَانِ ۝

يقول تعالى : «متكبين» يعني أهل الجنة ، والمراد بالاتكاء هنها الاستطague ويقال : الجلوس على صفة التربيع «على فرش بطائنهما من استبرق» وهو ما غلظ من الديباج ، قاله عكرمة والضحاك وقتادة وقال أبو عمران الجوني ، هو الديباج المزين بالذهب ، فنبه على شرف الظهارة بشرف البطانة ، فهذا من التنبية بالأدنى على الأعلى . قال أبو إسحاق عن هبيرة بن يريم عن عبد الله بن مسعود قال : هذه البطائن ، فكيف لورأيت الظواهر^(٢) . وقال مالك بن دينار : بطائنهما من استبرق وظواهرها من نور ، وقال سفيان الثوري أو شريك : بطائنهما من استبرق وظواهرها من نور جامد ، وقال القاسم بن محمد : بطائنهما من استبرق وظواهرها من الرحمة ، وقال ابن شوذب عن أبي عبد الله الشامي : ذكر الله البطائن ولم يذكر الظواهر ، وعلى الظواهر المحابس ولا يعلم ما تحت المحابس إلا الله تعالى ، ذكر ذلك كله الإمام ابن أبي حاتم

(١) أخرجه الترمذى في الجنة بباب ٩.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٦٠٥ / ١١.

رحمة الله .

﴿وَجْنِي الْجَتَنِ دَان﴾ أي ثمرهما قريب إليهم متى شاؤوا تناولوه على أي صفة كانوا، كما قال تعالى: ﴿قَطُوفُهَا دَانِيَة﴾ [الحاقة: ٢٣] وقال ﴿وَدَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظَلَالُهَا وَذَلَّتْ قَطُوفُهَا تَذَلِّلًا﴾ [الإنسان: ١٤] أي لا تمنع ممن تناولها بل تنحط إليه من أغصانها ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَمَا تَكَذِّبَانِ؟﴾ ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك ﴿فِيهِنَّ﴾ أي في الفرش ﴿فَاقْسَرَاتِ الْطَّرْفِ﴾ أي غضيضات عن غير أزواجهن فلا يرئن شيئاً في الجنة أحسن من أزواجهن، قاله ابن عباس وقتادة وعطاء الخراصاني وابن زيد، وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلاها: والله ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك. ولا في الجنة شيئاً أحب إلى منك فالحمد لله الذي جعلك لي يجعلني لك.

﴿لَمْ يَطْمَثُنْ إِنْسَانٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَان﴾ أي بل هن أبكار عرب أتراب لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن، وهذه أيضاً من الأدلة على دخول مؤمني الجن الجنة، وقال أرطاة بن المنذر: سئل ضمرة بن حبيب هل يدخل الجن الجن؟ قال: نعم وينکحون، للجن جنيات وللإنس إنسيات^(١)، وذلك قوله: ﴿لَمْ يَطْمَثُنْ إِنْسَانٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَان﴾ فبأي آلاء ربكمَا تكذبان﴾.

ثم قال ينعتهن للخطاب ﴿كَأَنْهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ قال مجاهد والحسن وابن زيد وغيرهم: في صفاء الياقوت وبياض المرجان، فجعلوا المرجان هنا اللؤلؤ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا محمد بن حاتم، حدثنا عبيدة بن حميد عن عطاء بن السائب عن عمرو بن ميمون الأودي، عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقيها من وراء سبعين حلة من الحرير حتى يرى مخها»^(٢) وذلك قول الله تعالى: ﴿كَأَنْهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لرأيته من ورائه، وهكذا رواه الترمذى من حديث عبيدة بن حميد وأبي الأحوص عن عطاء بن السائب به، ورواه موقوفاً ثم قال: وهو أصح.

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا يونس عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين على كل واحدة سبعون حلة، يرى مخ ساقها من وراء الشياب» تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه.

وقد روى مسلم حديث إسماعيل بن عليه عن أبوب عن محمد بن سيرين قال: إما تفاحروا

(١) انظر تفسير الطبرى ٦٠٧ / ١١.

(٢) أخرجه الترمذى في الجنة باب ٥.

(٣) المستند ٢ / ٣٤٥.

وإما تذاكروا، الرجال أكثر في الجنة أم النساء؟ فقال أبو هريرة: أولم يقل أبو القاسم عليه السلام: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر والتي تليها على ضوء كوكب دري في السماء، لكل أمرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم وما في الجنة أعزب»^(١) وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من حديث همام بن منبه وأبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا أبو النضر، حدثنا محمد بن طلحة عن حميد عن أنس، أن رسول الله صلوات الله عليه وسلم قال: «لعدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها، ولقب قوس أحدكم أو موضع قيده - يعني سوطه - من الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لم تلأت ما بينهما ريحًا ولطاب ما بينهما، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»^(٣) ورواه البخاري من حديث أبي إسحاق عن حميد عن أنس بنحوه.

وقوله تعالى: «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان» أي ما لمن أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة، كما قال تعالى: «للذين أحسنوا الحسنة وزيادة» [يونس: ٢٦] وقال الغاوي، حدثنا أبو سعيد الشريعي، حدثنا أبو إسحاق الشعبي، أخبرني ابن فنجويه، حدثنا ابن شيبة، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن بهرام، حدثنا الحجاج بن يوسف المكتب، حدثنا بشر بن الحسين عن الزبير بن عدي عن أنس بن مالك قال: فرأى رسول الله صلوات الله عليه وسلم «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان» وقال «هل تدرؤن ما قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال «يقول هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة» ولما كان في الذي ذكر نعم عظيمة لا يقاومها عمل بل مجرد تفضل وامتنان قال بعد ذلك كله «فيأي آلاء ربكم تكذبان».

ومما يتعلق بقوله تعالى: «ولمن خاف مقام ربه جتنان» ما رواه الترمذى والبغوى من حديث أبي النضر هاشم بن القاسم عن أبي عقيل الشقفى، عن أبي فروة يزيد بن سنان الراهوى عن بكير بن فيروز عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلوات الله عليه وسلم: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالبة، ألا إن سلعة الله الجنة»^(٤) ثم قال الترمذى: غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي النضر وروى البغوى من حديث علي بن حجر عن إسماعيل بن جعفر عن محمد بن أبي حرملة مولى حويطب بن عبد العزى، عن عطاء بن يسار، عن أبي الدرداء أنه سمع رسول الله صلوات الله عليه وسلم يقص على المنبر وهو يقول: «ولمن خاف مقام ربه جتنان» فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال رسول الله صلوات الله عليه وسلم: «ولمن خاف مقام ربه جتنان» فقلت الثانية:

(١) أخرجه مسلم في الجنة حديث ١٤.

(٢) المستند ١٤١/٣.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل الجهاد باب ١٧.

(٤) أخرجه الترمذى في القيامة باب ١٨.

وإن زنى وإن سرق يا رسول الله فقال ﴿ولمن خاف مقام ربه جتنان﴾ فقلت الثالثة: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال «ولأن رغم أنف أبي الدرداء».

وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٌ ۝ فِي أَيِّ أَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ مَدْهَامَتَانِ ۝ فِي أَيِّ أَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ وَمِنْ دُونِهِمَا عَيْنَانِ ۝ فِي أَيِّ أَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهَا فَكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ ۝ فِي أَيِّ أَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِنَّ حَيَّاتٌ حَسَانٌ ۝ فِي أَيِّ أَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْتِيَامِ ۝ فِي أَيِّ أَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ لَمْ يَطْعِمْهُنَّ إِنْ شَاءُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَاءُ ۝ فِي أَيِّ أَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ مُشَكِّبَيْنَ عَلَىٰ رَفَرَفَيْ ۝ خَضْرٌ وَعَبْرَقٌ حَسَانٌ ۝ فِي أَيِّ أَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ لَبَرَكَ أَسْمَ رَبِّكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ۝

هاتان الجتنا دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن، قال الله تعالى: «ومن دونهما جتنا» وقد تقدم في الحديث: جتنا من ذهب آنيتها وما فيهما وجتنا من فضة آنيتها وما فيها، فالأوليان للمقربين والأخريان لأصحاب اليمين وقال أبو موسى: جتنا من ذهب للمقربين وجتنا من فضة لأصحاب اليمين وقال ابن عباس «ومن دونهما جتنا» من دونهما في الدرج، وقال ابن زيد: من دونهما في الفضل.

والدليل على شرف الأوليين على الآخرين وجوه: [أحدها] أنه نعت الأوليين قبل هاتين والتقديم يدل على الاعتناء ثم قال: «ومن دونهما جتنا» وهذا ظاهر في شرف التقدم وعلوه على الثاني وقال هناك «ذواتاً أفنان» وهي الأغصان أو الفنون في الملاذ، وقال ه هنا «مدحامتان» أي سوداوان من شدة الري من الماء قال ابن عباس في قوله «مدحامتان» قد اسودتا من الخضراء من شدة الري من الماء.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجع، حدثنا ابن فضيل، حدثنا عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس «مدحامتان» قال: خضراوان. وروي عن أبي أيوب الأنباري عبد الله بن الزبير وعبد الله بن أبي أوفى وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاحد في إحدى الروايات وعطاء وعطيه العوفي والحسن البصري، ويحيى بن رافع وسفيان الثوري نحو ذلك، وقال محمد بن كعب «مدحامتان» ممتلئتان من الخضراء، وقال قتادة: خضراوان من الري ناعمتان ولا شك في نضارتهما الأغصان على الأشجار المشتبكة بعضها في بعض.

وقال هناك «فيهما عينان تجريان» وقال ه هنا «نضاختان» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، أي فياضتان والجري أقوى من النضح، وقال الضحاك «نضاختان» أي ممتلئتان ولا تنقطعان وقال هناك «فيهما من كل فاكهة زوجان» وقال ه هنا «فيهما فاكهة ونخل ورمان» ولا شك أن الأولى أعم وأكثر في الأفراد والتنوع على فاكهة، وهي نكرة في سياق الإثبات لا تعم، ولهذا فسر قوله: «ونخل ورمان» من باب عطف الخاص على العام كما قرره البخاري وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرطهما على غيرهما، قال عبد بن حميد:

حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا حصين بن عمر، حدثنا مخارق عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب قال: جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد أفي الجنة فاكهة؟ قال: «نعم فيها فاكهة ونخل ورمان» قالوا: أفيأكلون كما يأكلون في الدنيا؟ قال «نعم وأضعاف» قالوا: فيقضون الحوائج؟ قال «لا ولكنهم يعرقون ويرشون فيذهب الله ما في بطونهم من أذى».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الفضل بن دكين، حدثنا سفيان عن حماد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ندخل الجنة سعفها كسوة لأهل الجنة، منها مقطعاً لهم ومنها حللهم وكربها ذهب أحمر وجذوعها زمرد أخضر، وثمرها أحلى من العسل وألين من الزبد وليس له عجم، وحدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد هو ابن سلمة عن أبي هارون عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كالبعير المقتب».

ثم قال: «فيهن خيرات حسان» قيل: المراد خيرات كثيرة حسنة في الجنة قاله قتادة، وقيل: خيرات جمع خيرة وهي المرأة الصالحة الحسنة الخلق الحسنة الوجه، قاله الجمهور، وروي مرفوعاً عن أم سلمة، وفي الحديث الآخر الذي سنورده في سورة الواقعة إن شاء الله تعالى أن الحور العين يعنيهن: نحن الخيرات الحسان خلقنا لأزواج كرام، ولهذا قرأ بعضهم «فيهن خيرات» بالتشديد «حسان فبأي آلاء ربكم تكذبان».

ثم قال: «حور مقصورات في المخيم» وهناك قال: «فيهن قاصرات الطرف» ولا شك أن التي قد قصرت طرفها بنفسها أفضل من قصرت وإن كان الجميع مخدرات، قال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا وكيع بن سفيان عن جابر عن القاسم بن أبي بزرة عن أبي عبيدة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: إن لكل مسلم خيرة ولكل خيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب يدخل عليه كل يوم تحفة وكرامة وهدية، لم تكن قبل ذلك لا مرحات ولا طمحات ولا بخرات ولا ذفرات، حور عين كأنهن بيض مكونون.

وقوله تعالى: «في المخيم» قال البخاري: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد، حدثنا أبو عمران الجوني عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة خيمة من نملة مجوفة عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون»^(١) ورواه أيضاً من حديث أبي عمران به وقال ثلاثون ميلاً، وأخرجه مسلم من حديث أبي عمران به ولفظه «إن للمؤمنين في الجنة لخيمة من

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٥٥، باب ٢، وبده الخلق باب ٨، ومسلم في الجنة حديث ٢٣، ٥٥، والترمذى في الجنة باب ٣، والدارمى في الرقاق باب ١٠٩.

لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلاً، للمؤمن فيها أهل يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن أبي الريبع، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن قتادة، أخبرني خليل العصري عن أبي الدرداء قال: الخيمة لؤلؤة واحدة فيها سبعون باباً من در، وحدثنا أبي، حدثنا عيسى بن أبي فاطمة، حدثنا جرير عن هشام عن محمد بن المثنى عن ابن عباس في قوله تعالى، «حور مقصورات في الخيام» قال: خيام اللؤلؤ، وفي الجنة خيمة واحدة من لؤلؤة واحدة أربعة فراسخ عليها أربعة آلاف مصراع من ذهب، وقال عبد الله بن وهب: أخبرنا عمرو أن دراجاً أبا السمع حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم، وأثستان وسبعون زوجة، وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وباقوت كما بين الجایة وصنعاء»^(١) ورواه الترمذى من حديث عمر بن الحارث به. وقوله تعالى: «لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان» قد تقدم مثله سواء إلا أنه زاد في وصف الأوائل بقوله: «كأنهن الياقوت والمرجان فبأي آلاء ربكم تكذبان».

وقوله تعالى: «متكئن على ررف حضر وعقبري حسان» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الررف المحاسب، وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهما: هي المحاسب، وقال العلاء بن بدر: الررف على السرير كهيئة المحاسب المتبدلي. وقال عاصم الجحدري «متكئن على ررف حضر» يعني الوسائل وهو قول الحسن البصري في رواية عنه، وقال أبو داود الطيالسي عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير في قوله تعالى: «متكئن على ررف حضر» قال: الررف رياض الجنة.

وقوله تعالى: «وعقبري حسان» قال ابن عباس وقتادة والضحاك والسدى: العقري الزرابي، وقال سعيد بن جبير هي عناق الزرابي يعني جيادها، وقال مجاهد: العقري الديجاج، وسئل الحسن البصري عن قوله تعالى: «وعقبري حسان» فقال: هي بسط أهل الجنة لا أبا لكم فاطلبوها، وعن الحسن رواية أنها المرافق، وقال زيد بن أسلم: العقري أحمر وأصفر وأخضر، وسئل العلاء بن زيد عن العقري فقال: البسط أسفل من ذلك. وقال أبو حرزة يعقوب بن مجاهد: العقري من ثياب أهل الجنة لا يعرفه أحد، وقال أبو العالية: العقري الطناس المخملة إلى الرقة ما هي، وقال القتبي: كل ثوب موشى عند العرب عقري، وقال أبو عبيدة: هو منسوب إلى أرض يعمل بها الوشي، وقال الخليل بن أحمد: كل شيء نفيس من الرجال وغير ذلك يسمى عند العرب عقرياً.

(١) أخرجه الترمذى في صفة الجنة باب ٢٣.

ومنه قول النبي ﷺ في عمر «فلم أر عقريأً يفرِي فريه»^(١) وعلى كل تقدير فصمة مراقب أهل الجنتين الأوليين أرفع وأعلى من هذه الصفة فإنه قد قال هناك: «متكثين على فرش بطائنا من إستبرق» فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظهائرها اكتفاء بما مدح به البطائن بطريق الأولى والأخرى وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟» فوصف أهلها بالإحسان، وهو أعلى المراتب والنهايات كما في حديث جبريل لما سُأله عن الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان، فهذه وجوه عديدة في تفضيل الجنتين الأوليين على هاتين الآخرين، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الأوليين.

ثم قال: «تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام» أي هو أهل أن يجعل فلا يعصى، وأن يكرم فيعبد، ويشكُر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى، وقال ابن عباس «ذي الجلال والإكرام» ذي العظمة والكثيراء.

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا موسى بن داود، حدثنا عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن عمير بن هانيء عن أبي العذراء عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «أجلوا الله يغفر لكم» وفي الحديث الآخر «إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وذي السلطان، وحامل القرآن غير المغالٰي فيه ولا الجافي عنه»^(٣) وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو يوسف الحربي حدثنا مؤمل بن إسماعيل، حدثنا حماد، حدثنا حميد الطويل عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «ألظوا بيَا ذا الجلال والإكرام»^(٤) وكذا رواه الترمذى عن محمود بن غيلان عن مؤمل بن إسماعيل عن حماد بن سلمة به، ثم قال غلط المؤمل فيه وهو غريب وليس بمحفوظ، وإنما يروى هذا عن حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن عن النبي ﷺ.

وقد قال الإمام أحمد^(٥): حدثنا إبراهيم بن إسحاق، حدثنا عبد الله بن المبارك عن يحيى بن حسان المقدسي عن ربيعة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألظوا بذى الجلال والإكرام» ورواہ النسائي من حديث عبد الله بن المبارك به، وقال الجوهرى أللظ فلان بفلان إذا لرمته، وقول ابن مسعود أللظو بيَا ذا الجلال والإكرام أي الزموا، يقال: الإلاظ هو الإللاح. [قلت] وكلاهما قريب من الآخر، والله أعلم، وهو المداومة واللزوم والإللاح. وفي صحيح مسلم والسنن الأربعية من حديث عبد الله بن الحارث عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقدر يعني بعد الصلاة إلا بقدر ما يقول: «اللهم أنت السلام ومنك

(١) أخرجه البخاري في المناقب باب ٢٥، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ١٩.

(٢) المسند ٥/١٩٩.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٢٠.

(٤) أخرجه الترمذى في الدعوات باب ٩١.

(٥) المسند ٤/١٧٧.

السلام تبارك يا ذا الجلال والإكرام»^(١).

آخر تفسير سورة الرحمن والله الحمد والمنة.

(١) أخرجه مسلم في المساجد حديث ١٣٥، ١٣٦، وأبو داود في الورت باب ٢٣، والترمذني في الصلاة باب ١٠٨، والنمساني في السهو باب ٥٨، ٨١، وابن ماجه في الإقامة باب ٣٢.

فهرس المحتويات

سورة الصافات

٣	الآيات: ١ - ٥
٤	الآيات: ٦ - ١٠
٥	الآيات: ١١ - ١٩
٦	الآيات: ٢٠ - ٢٦
٧	الآيات: ٢٧ - ٣٧
٩	الآيات: ٣٨ - ٤٩
١٢	الآيات: ٥٠ - ٦١
١٦	الآيات: ٦٢ - ٧٠
١٩	الآيات: ٧١ - ٨٢
٢٠	الآيات: ٨٣ - ٨٧
٢١	الآيات: ٨٨ - ٩٨
٢٣	الآيات: ٩٩ - ١١٣
٣١	الآيات: ١١٤ - ١٢٢
٣٢	الآيات: ١٢٣ - ١٣٢
٣٣	الآيات: ١٣٣ - ١٣٨
٣٤	الآيات: ١٣٩ - ١٤٨
٣٧	الآيات: ١٤٩ - ١٦٠
٣٨	الآيات: ١٦١ - ١٧٠
٤٠	الآيات: ١٧١ - ١٧٩
٤١	الآيات: ١٨٠ - ١٨٢

سورة ص

٤٣	الآيات: ١ - ٣
٤٥	الآيات: ٤ - ١١
٤٨	الآيات: ١٢ - ١٦
٤٩	الآيات: ١٧ - ٢٠
٥١	الآيات: ٢١ - ٢٥
٥٣	الآلية: ٢٦
٥٤	الآيات: ٢٧ - ٣٣

٥٧	الآيات: ٣٤ - ٤٠
٦٥	الآيات: ٤١ - ٤٤
٦٧	الآيات: ٤٥ - ٥٤
٦٨	الآيات: ٥٥ - ٦٤
٧٠	الآيات: ٦٥ - ٧٠
٧١	الآيات: ٧١ - ٨٥
٧٢	الآيات: ٨٦ - ٨٨

سورة الزمر

٧٤	الآيات: ١ - ٤
٧٦	الآياتان: ٥ و ٦
٧٧	الآيات: ٧ - ٩
٧٩	الآيات: ١٠ - ١٦
٨٠	الآيات: ١٧ - ٢٠
٨٢	الآياتان: ٢١ و ٢٢
٨٣	الآية: ٢٣
٨٤	الآيات: ٢٤ - ٢٦
٨٥	الآيات: ٢٧ - ٣١
٨٨	الآيات: ٣٢ - ٣٥
٨٩	الآيات: ٣٦ - ٤٠
٩٠	الآيات: ٤١ - ٤٢
٩١	الآيات: ٤٣ - ٤٥
٩٢	الآيات: ٤٦ - ٤٨
٩٤	الآيات: ٤٩ - ٥٢
٩٥	الآيات: ٥٣ - ٥٩
١٠٠	الآيات: ٦٠ - ٦٦
١٠١	الآية: ٦٧
١٠٤	الآيات: ٦٨ - ٧٠
١٠٦	الآياتان: ٧١ و ٧٢
١٠٧	الآياتان: ٧٣ و ٧٤
١١٣	الآية: ٧٥

سورة غافر

١١٥	الآيات: ٣ - ١
١١٦	الآيات: ٦ - ٤
١١٧	الآيات: ٩ - ٧
١١٩	الآيات: ١٤ - ١٠
١٢٢	الآيات: ١٧ - ١٥
١٢٣	الآيات: ٢٠ - ١٨
١٢٥	الآيات: ٢٧ - ٢١
١٢٦	الآياتان: ٢٩ و ٢٨
١٢٩	الآيات: ٣٥ - ٣٠
١٣٠	الآياتان: ٣٧ و ٣٦
١٣١	الآيات: ٤٦ - ٣٨
١٣٥	الآيات: ٥٠ - ٤٧
١٣٦	الآيات: ٥٦ - ٥١
١٣٨	الآيات: ٥٩ - ٥٧
١٣٩	الآلية: ٦٠
١٤١	الآيات: ٦٥ - ٦١
١٤٢	الآيات: ٦٨ - ٦٦
١٤٣	الآيات: ٧٦ - ٦٩
١٤٤	الآيات: ٨١ - ٧٧
١٤٥	الآيات: ٨٥ - ٨٢

سورة فصلت

١٤٧	الآيات: ٥ - ١
١٤٩	الآيات: ٨ - ٦
١٥١	الآيات: ١٢ - ٩
١٥٤	الآيات: ١٨ - ١٣
١٥٥	الآيات: ٢٤ - ١٩
١٥٩	الآيات: ٢٩ - ٢٥
١٦٠	الآيات: ٣٢ - ٣٠
١٦٤	الآيات: ٣٦ - ٣٣
١٦٦	الآيات: ٣٩ - ٣٧
١٦٧	الآيات: ٤٣ - ٤٠

١٦٨	الآيات: ٤٤ و ٤٥
١٦٩	الآيات: ٤٦ - ٤٨
١٧٠	الآيات: ٤٩ - ٥٤

سورة فصلت

١٧٣	الآيات: ١ - ٦
١٧٥	الآيات: ٧ و ٨
١٧٧	الآيات: ٩ - ١٢
١٧٨	الآيات: ١٣ و ١٤
١٧٩	الآلية: ١٥
١٨٠	الآيات: ١٦ - ١٨
١٨١	الآيات: ١٩ - ٢٢
١٨٢	الآيات: ٢٣ و ٢٤
١٨٧	الآيات: ٢٥ - ٢٨
١٨٩	الآيات: ٢٩ - ٣١
١٩١	الآيات: ٣٢ - ٣٥
١٩٢	الآيات: ٣٦ - ٣٩
١٩٤	الآيات: ٤٠ - ٤٣
١٩٦	الآيات: ٤٤ - ٤٦
١٩٧	الآيات: ٤٧ - ٤٨
١٩٨	الآيات: ٤٩ و ٥٠
١٩٩	الآيات: ٥١ - ٥٣

سورة الزخرف

٢٠٠	الآيات: ١ - ٨
٢٠١	الآيات: ٩ - ١٤
٢٠٤	الآيات: ١٥ - ٢٠
٢٠٦	الآيات: ٢١ - ٣٥
٢٠٩	الآيات: ٣٦ - ٤٥
٢١١	الآيات: ٤٦ - ٥٠
٢١٢	الآيات: ٥١ - ٥٦
٢١٤	الآيات: ٥٧ - ٦٥
٢١٨	الآيات: ٦٦ - ٧٣

الآيات: ٢٢٠	٧٤ - ٨٠
الآيات: ٢٢٢	٨١ - ٨٩
سورة الدخان	
الآيات: ٢٢٥	٨ - ١
الآيات: ٢٢٦	٩ - ١٦
الآيات: ٢٣١	١٧ - ٣٣
الآيات: ٢٣٥	٣٤ - ٣٧
الآيات: ٢٣٨	٣٨ - ٤٢
الآيات: ٢٣٩	٤٣ - ٥٠
الآيات: ٢٤٠	٥١ - ٥٩
سورة الجاثية	
الآيات: ٢٤٣	١ - ١١
الآيات: ٢٤٤	١٢ - ١٥
الآيات: ٢٤٥	١٦ - ٢٠
الآيات: ٢٤٦	٢١ - ٢٣
الآيات: ٢٤٧	٢٤ - ٢٦
الآيات: ٢٤٩	٢٧ - ٢٩
الآيات: ٢٥٠	٣٠ - ٣٧
سورة الأحقاف	
الآيات: ٢٥٢	١ - ٦
الآيات: ٢٥٣	٧ - ٩
الآيات: ٢٥٥	١٠ - ١٤
الآيات: ٢٥٧	١٥ و ١٦
الآيات: ٢٦٠	١٧ - ٢٠
الآيات: ٢٦٢	٢١ - ٢٥
الآيات: ٢٦٥	٢٦ - ٢٨
الآيات: ٢٦٦	٢٩ - ٣٢
الآيات: ٢٨١	٣٣ - ٣٥
سورة محمد	
الآيات: ٢٨٣	١ - ٩
الآيات: ٢٨٧	١٠ - ١٣

٢٨٩	الآيات: ١٤ و ١٥
٢٩١	الآيات: ١٦ - ١٩
٢٩٣	الآيات: ٢٠ - ٢٣
٢٩٦	الآيات: ٢٤ - ٢٨
٢٩٧	الآيات: ٢٩ - ٣١
٢٩٨	الآيات: ٣٢ - ٣٥
٢٩٩	الآيات: ٣٦ - ٣٨

سورة الفتح

٣٠١	الآيات: ١ - ٣
٣٠٤	الآيات: ٤ - ٧
٣٠٥	الآيات: ٨ - ١٠
٣١٢	الآيات: ١١ - ١٤
٣١٣	الآلية: ١٥
٣١٤	الآيات: ١٦ - ١٧
٣١٥	الآيات: ١٨ - ١٩
٣١٦	الآيات: ٢٠ - ٢٤
٣١٩	الآيات: ٢٥ و ٢٦
٣٢١	الآيات: ٢٧ و ٢٨
٣٣٦	الآلية: ٢٩

سورة الحجرات

٣٤٠	الآيات: ١ - ٣
٣٤٤	الآيات: ٤ و ٥
٣٤٥	الآيات: ٦ - ٨
٣٤٩	الآيات: ٩ و ١٠
٣٥١	الآلية: ١١
٣٥٢	الآلية: ١٢
٣٦٠	الآلية: ١٣
٣٦٣	الآيات: ١٤ - ١٨

سورة ق

٣٦٧	الآيات: ١ - ٥
٣٦٩	الآيات: ٦ - ١١

٣٧٠	الآيات: ١٢ - ١٥
٣٧١	الآيات: ١٦ - ٢٢
٣٧٥	الآيات: ٢٣ - ٢٩
٣٧٧	الآيات: ٣٠ - ٣٥
٣٨١	الآيات: ٣٦ - ٤٠
٣٨٤	الآيات: ٤١ - ٤٥

سورة الذاريات

٣٨٦	الآيات: ١ - ١٤
٣٨٨	الآيات: ١٥ - ٢٣
٣٩٢	الآيات: ٢٤ - ٣٠
٣٩٣	الآيات: ٣١ - ٣٧
٣٩٤	الآيات: ٣٨ - ٤٦
٣٩٥	الآيات: ٤٧ - ٥١
٣٩٦	الآيات: ٥٢ - ٦٠

سورة الطور

٣٩٨	الآيات: ١ - ١٦
٤٠١	الآيات: ١٧ - ٢٠
٤٠٢	الآيات: ٢٢ - ٢٨
٤٠٥	الآيات: ٢٩ - ٣٤
٤٠٦	الآيات: ٣٥ - ٤٣
٤٠٧	الآيات: ٤٤ - ٤٩

سورة النجم

٤١٠	الآيات: ١ - ٤
٤١٢	الآيات: ٥ - ١٨
٤٢٢	الآيات: ١٩ - ٢٦
٤٢٥	الآيات: ٢٧ - ٣٠
٤٢٦	الآيات: ٣١ - ٣٢
٤٣٠	الآيات: ٣٣ - ٤١
٤٣٢	الآيات: ٤٢ - ٥٥
٤٣٤	الآيات: ٥٦ - ٦٢

سورة القمر

٤٣٥	الآيات: ١ - ٥
٤٤١	الآيات: ٦ - ١٧
٤٤٣	الآيات: ١٨ - ٣٢
٤٤٤	الآيات: ٣٣ - ٤٠
٤٤٥	الآيات: ٤١ - ٤٦
٤٤٦	الآيات: ٤٧ - ٥٥

سورة الرحمن

٤٥٢	الآيات: ١ - ١٣
٤٥٤	الآيات: ١٤ - ٢٥
٤٥٦	الآيات: ٢٦ - ٣٠
٤٥٨	الآيات: ٣١ - ٣٦
٤٦٠	الآيات: ٣٧ - ٤٥
٤٦٢	الآيات: ٤٦ - ٥٣
٤٦٤	الآيات: ٥٤ - ٦١
٤٦٧	الآيات: ٦٢ - ٧٨